في قلب الجهاد

كيف تسللتُ إلى صفوف القاعدة
ثم تخلّت عني المخابرات الغربية؟

عمر الناصري

نقله إلى العربية
فاضل جتكر

العبيكان
Obeikan

www.iqra.ahlamontada.com
منتدى اقرأ الثقافي

منتدى اقرأ الثقافي
----
www.iqra.ahlamontada.com

في قلب الجهاد

كيف تسللتُ إلى صفوف القاعدة

ثم تخلت عني المخابرات الغربية؟

في قلب الجهاد

كيف تسللت إلى صفوف القاعدة
ثم تخلت عني المخابرات الغربية؟

عمر الناصري

نقله إلى العربية
فاضل جتكر



Original Title:

Inside the Jihad

My Life with Al Qaeda, A Spy's Story

Omar Nasiri

Copyright © 2006 by Omar Nasiri

ISBN - 10: 0 - 465 - 02388 - 6

ISBN - 13: 978 - 0 - 465 - 02388 - 2

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition published by Basic Books, A Member of the Perseus Books Group, 387 Park Avenue South New York, NY 10016-8810 (U.S.A)

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع بيزك بوكس - التابع لمجموعة بيرسيس بوكس - نيويورك - الولايات المتحدة

© العبيكان 2008 _ 1429

ISBN 2 - 418 - 54 - 9960 - 978

الطبعة العربية الأولى 1429هـ ـ 2008م

الناشر العبيكان للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574 / 2937581، فاكس: 2937588 ص. ب: 67622 الرياض 11517

ح مكتبة العبيكان، 1429هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الناصري، عمر

في قلب الجهاد. / عمر الناصري؛ فاضل جتكر. - الرياض 1429هـ

538 ص؛ 16,5×24 سم

ردمك: 2 - 418 - 54 - 9960 - 978

١ـ الجهاد - مقالات ومحاضرات 2- الجهاد أ. جتكر، فاضل (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 256,08 1429 / 658

ردمك: 2 - 418 - 54 - 9960 - 978 رقم الإيداع: 658 / 1429

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 / 4654424 - فاكس: 4650129 ص. ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.



المحتويات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	9
توطئة	37
المشهد الأول: بروكسل	41
أبطال المشهد	42
تسلسل زمني	43
خارطة أوروبا	44-45
عمر، داني التيس، إدوار، المغرب، حكيم، بلجيكا، لوران، ذخائر، رشاشات العوزي، طارق، القنصلية، جيل، الصور، رحلة، إيرفرانس رقم 8969، السَمْتِكْس، سيارة الأودي، طنجة، السينما، تيري، الحمى، عيد الفطر، مغامرات جديدة، الدولة باخشته (حديقة الردم)(*)	47-193
المشهد الثاني: أفغانستان	195
أبطال المشهد	196
تسلسل زمني	197
خارطة باكستان/أفغانستان	198
الباكستان، التبليغ، أبو أنس، بيشاور، ابن الشيخ، الاستجواب، المواد الكيميائية، مصباح الغاز، مناطق الحدود، خالدان، أبو همام، أبو سهيل، الليل، الجمعة، عبد الكريم، أبو بكر، المتفجرات، التكتيكات،	199-411

(*) حدائق قصر يلدز الملكي الشهيرة في استانبول.

الموضوع	الصفحة

الأمير، طاجكستان، العرب، بلاد الشيشان، حراس الليل، الجاسوس، المصباح، الطالبان، المستوصف، أسامة، ممر، خيبر، دارونتا، صيد السمك، أبو جهاد، ساروبي، أفغاني - أفغاني، أسد الله، غاز الخردل، أبوخبب، الحرب النفسية، العمل الدعائي، أرض الجهاد واسعة، العبور، مدينة أشباح دوائر.

المشهد الثالث: لندنستان 413

أبطال المشهد 415

تسلسل زمني 416

جسر غَلطَة، التئام الشمل، باريس، لندن، دانييل، أبو قتادة، الريَش الأربع، المال، رسالة، أبو حمزة، صيد ثمين، عملية الاستيلاء، القائد الروحي، فاطمة، دفتر الملاحظات، اليمن، مرض فقدان الذاكرة، أفغانستان، الجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا GIA) (الجهاد الإسلامي المسلح في الجزائر)، كأس العالم، أمين، إفريقيا. 417-500

المشهد الرابع: ألمانيا 501-523

داكار، ألمانيا، الآخرة. 503

كلمات شكر 523

تعريفات 527

المقدمة

هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر 2001 لم تخرج من رحم العدم. فعلى امتداد عقد تسعينيات القرن العشرين كان حشد من الحركات الإسلامية الداعية إلى العنف دائباً على التآلف، رافعاً أنظاره عن الصراعات المحلية نحو 'العدو البعيد' المتمثل بالولايات المتحدة والغرب. والمنظمة المنبثقة من هذا التآلف كانت ستُعرف باسم القاعدة. أما رواية عمر الناصري فتقدم صورة داخلية فريدة لهذه الفترة الحاسمة الباقية خارج دائرة الفهم المعمّق. وقصته فريدة ولو لمجرد أنها توفر نظرة غير اعتيادية لشخص تسلل إلى صفوف هذه الشبكات الإرهابية. إن المفهوم المتكرر كثيراً والقائل بأن إلحاق الهزيمة بالإرهاب يتطلب استخبارات ناجحة يحجب واقع أن جمع الاستخبارات يستدعي وجود أفراد مستعدين للمخاطرة بحيواتهم عبر التحول إلى جواسيس. وهم أفراد نادراً ما تتم إماطة اللثام عن قصصهم.

يوفر الناصري مشهداً نادراً: صورة جماعات إسلامية متزايدة القوة في تسعينيات القرن الماضي، أساليب التسلل إلى صفوفها، ومدى إخفاق السلطات في إدراك الخطر الناشئ. ثمة ظروف عائلية تمخضت عن تواصل الناصري مع إحدى الشبكات الإرهابية، وساهمت نشأتُه غير الاعتيادية الموزعة بين شمال أفريقيا وبلجيكا في تمكينه من أن يعيش حياة مزدوجة.

بعد أن أمضى ما يزيد على سبع سنوات في خدمة أجهزة الاستخبارات الفرنسية، البريطانية والألمانية، يطلعنا الناصري على الوجه الداخلي لأساليب عمل هذه الأجهزة. إن روايته لقصص الاجتماعات، الأحاديث، و"الأساليب الحرفية" للأجهزة المختلفة تفصيلية على نحوٍ غير عادي. يبقى الناصري غير عادي أيضاً في كونه قد جمع بين الفرنسيين والبريطانيين متخذاً من المملكة المتحدة مقراً له، مسلِّطاً الضوء على تعاون البلدين رغم موقفيهما المختلفين من خطر الإرهاب. وهو يكشف النقاب عن مدى تعقيد دوافعه كما عن جملة الحلول التوفيقية الأخلاقية التي يلوذ بها الجواسيس من ناحية وأولئك الذين يشغِّلونهم من ناحية ثانية. وسلسلة القرارات الضبابية أخلاقياً التي أقدم الناصري ومشغِّلوه على اتخاذها تتحدى المفاهيم التبسيطية عن الطبيعة الحقيقية لمكافحة التجسس. وارتباك الناصري الواضح حول تحديد ولائه في منعطفات معينة يؤكد مدى صعوبة أن يعيش المرء حياة مزدوجة جاسوساً من ناحية ومجاهداً من ناحية ثانية إضافةً إلى مدى صعوبة تعامل الأجهزة الاستخباراتية مع أمثال هذا الجاسوس + المجاهد.

على الرغم من احتمال استحالة تأكيد كل تفاصيل قصة الناصري، ليس ثمة أي شك حول صحة مسيرته العملية غير الاعتيادية: مسيرة التورط مع شبكة إرهابية جزائرية مهمة في أوروبا، العمل مع جهاز سري فرنسي، السفر إلى معسكرات التدريب في أفغانستان، وصولاً، آخر المطاف، إلى التسلل إلى صفوف أوساط إسلامية متطرفة في لندن. لابد لأي مذكرات شخصية من هذه النوعية من أن تعكس وجهة نظر الراوي وتقدم صورة شخصية إلى حدٍّ كبير وغير مكتملة أحياناً للأحداث. غير أن ما هو واضح من الرواية التي نحن بصددها هو أن الشبكة المنبثقة كانت أفضل تنظيماً وأشد تصميماً بما لا يقاس عما كان متصوَّراً من قبل. إن معسكرات التدريب الأفغانية كانت مفاقس تفريخ التهديد الإرهابي الراهن، والناصري يقدم الصورة الداخلية الأكثر تفصيلاً لتلك

المعسكرات حتى اللحظة. صورة أغنى وأكثر إثارةً للقلق من أي صور سبق للمرء أن رآها.

مع أن الناصري ذو جذور مغربية، فإن جزائريين يشكلون محور روايته، لأن هؤلاء كانوا يؤلفون نواة الشبكة الإرهابية الإسلامية الأوروبية قبل 9/11. فالجزائر كانت قد انزلقت إلى حرب أهلية دامية بعد قيام الجيش بإلغاء الانتخابات في 1992 لمنع الجبهة الإسلامية للإنقاذ (FIS) من الوصول إلى السلطة. تفجرت أعمال العنف وانبثقت سلسلة جماعات متمردة. تمثلت أكثرها عنفاً بالجماعة الإسلامية المسلحة (GIA). يقال إن نحو ثلاثة آلاف جزائري قاتلوا ضد السوفييت في أفغانستان خلال عقد ثمانينيات القرن العشرين، وكانت الجزائري أول البلدان التي أحسَّتْ بتأثير المقاتلين المخضرمين العائدين من الحرب الأفغانية. كانت الجماعة بقيادة المئات ممن صقَلَتْهم المعارك وعادوا أشد تطرفاً وأكثر استعداداً لاعتماد تكتيكات متزايدة القسوة والوحشية باطراد، وهي معتمدة على دعم منظومة شبكات ناشطة في الجاليات المهاجرة إلى أوروبا. بدايةً كانت شبكات الدعم هذه مشغولة، في المقام الأول، بالدعاية، ولكنها سرعان ما بدأت تقدم التبرعات، أشكال الدعم اللوجستي كجوازات السفر المزوَّرة، وصولاً، مع الزمن، إلى تزويد الجماعة بالأسلحة.

لدى عودته إلى بلجيكا في 1994، اكتشف الناصري أن بيت أمه كان قد أضحى بؤرة مهمة لعمليات الجماعة. ونظراً لقلة قوانين مكافحة الإرهاب في بلجيكا، كانت الجماعات تواجه قدراً أقل من المراقبة والإزعاج من جانب الشرطة والأجهزة الأمنية مقارنة بفرنسا المجاورة. ووفقاً لما يقوله هو، فإن الناصري لم يصبح متورطاً مع الجماعة لأسباب إيديولوجية، بل رغبة، بداية، في كسب المال عبر تزويد هذه الجماعة بالأسلحة. غير أنه سرعان ما وجد نفسه غاطساً في بحر نشاطاتها.

ثمة مجابهة مع أعضاء الجماعة جراء سرقة بعض المال ما لبث أن وضعت الناصري أمام خيار مصيري. ومثل آخرين كثيرين ممن ساروا في هذه الطريق، انجرَّ الناصري إلى أن يصبح جاسوساً عن حاجة لا عن اختيار أخلاقي، مقدماً نفسه لجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، (DGSE)، رغبة منه في الخروج من موقف صعب. في هذه الأثناء بدأت فرنسا تكثف تعاونها مع بلجيكا، منفِّذة سلسلة من عمليات المراقبة المشتركة المطوَّلة، ولاسيما بعد إدراك الفرنسيين لمدى اتساع الشبكات الإرهابية وما تنطوي عليه من تهديد.

إن قائمة حقيقية بأسماء المناضلين والنشطاء الجزائريين مرت ببيت الناصري. لم يقف الأمر عند هذا بل كانت نشرة الجماعة الرئيسية - رسالة الأنصار الإعلامية - تصدر وتوزع من هناك. وتطور الأنصار بالذات كان يشي بالتحولات التي كانت الشبكات الإسلامية تعيشها خلال عقد التسعينيات. برزت النشرة بوصفها مطبوعة الجماعة الرسمية، على الرغم من أن مقالات لجهات أخرى بدأت تظهر فيها مع مرور الزمن، بما فيها منظمات إسلامية أخرى مثل الجماعة الإسلامية الليبية المقاتلة، جماعات مغربية، وجماعات مصرية مرتبطة بأيمن الظواهري. كذلك صار محتواها متزايد العنف، إذ راحت تبرر قتل المدنيين ممن لا يؤيدون نشاط الجماعة. كانت الأنصار طليعية ورائدة في توحيد الشبكات الكفاحية الإسلامية الوطنية وإذابتها في حركة كوكبية، كما أن محتوياتها شكلت إنذاراً للسلطات حول ما كان منتظراً.

لم يتأخر الصراع الدامي في الجزائر في أن يبدأ بأن يفعل فعله داخل أوروبا. ففرنسا، مستعمرة الجزائر السابقة، رآها الجهاديون داعمة للانقلاب وأصبحت هدفاً لهم. وقد جاء التهديد المثير الأول متمثلاً بإقدام عدد من نشطاء الجماعة على الاستيلاء على إحدى طائرات الركاب النفاثة على مدرج مطار مدينة الجزائر بتاريخ 24 كانون الأول/ديسمبر 1994. ربما كانت الجماعة عازمة

أيضاً على صدم برج إيفل بالطائرة، في واحدة من التجارب الأولى المحتملة لاستخدام الطائرات أسلحة. أخيراً، طارت الطائرة إلى مرسيليا حيث قامت قوة مكافحة إرهاب فرنسية باقتحامها وقتل مختطفيها الأربعة.

في آذار/مارس 1995، نفذت السلطات البلجيكية سلسلة من عمليات المداهمة التي يصفها الناصري. كانت تلك إحدى أولى سلاسل العمليات الأمنية ضد الشبكات الجزائرية في أوروبا. تعرض منزل عائلة الناصري للاقتحام، كما تم العثور على مجموعات من الأسلحة، الذخائر، والوثائق المزورة في بيوت، كراجات، وسيارات أخرى. كذلك تم العثور في إحدى السيارات على دليل إرهابي مؤلَّف من ثمانية آلاف صفحة مع صفحة إهداء لكل من أسامة بن لادن وأستاذه عبد الله عزام. وحسب كلام ألان غرينار، أحد عناصر جهاز مكافحة الإرهاب في بلجيكا الذي تولى عمليات الاقتحام هذه، فإن الدليل كان كنز معلومات وأحد أول المؤشرات على مدى اتساع الشبكة من ناحية ودور بن لادن فيه من ناحية ثانية.أكدت عمليات الإغارة صَوابَ تزايد القلق من أن تكون الشبكة عاكفة على إطلاق سلسلة حملات داخل أوروبا بالذات. وما لبث ذلك أن تأكد بعد بضعة أشهر، في صيف 1995، حين تعرضت فرنسا، بما فيها مترو باريس، لموْجة من الهجمات بالقنابل والمتفجرات. بعض المتورطين في تلك الحملة كانوا مرتبطين، بدورهم، بالشبكة التي تم اكتشافها في مداهمات آذار/مارس. تمخضت حملة التفجيرات عن تغيير موقف فرنسا من الشبكات الإرهابية، جاعلة إياها إحدى أولى الدول الغربية المتنبِّهة إلى المخاطر الكامنة، مع أن فرنسا كانت، في البداية، ترى المشكلة أثراً جانبياً مترتباً على تورطها في النزاع الجزائري بدلاً من رؤيتها جزءاً من جهاد دولي أكبر.

كان أحد أولئك الذين أقاموا في بيت الناصري بعضَ الوقت وتمكَّن من تجنب الاعتقال خلال حملات آذار/مارس 1995 مسؤولاً كبيراً في تنظيم

الجماعة يدعى علي توش. وهذا الأخير مثال حي على الاختلاط الحاصل بين الإرهاب ومكافحة الإرهاب في هذه الفترة وعلى مدى عمق التشوش بشأن ولاءات الأفراد. ثمة مدرسة ترى أن الجماعة كانت مختَرَقة من البداية بحشد من جواسيس جهاز الأمن السري الجزائري. يضاف إلى ذلك أن بين هؤلاء كان عناصر تخريبية تعمدت مع حلول عام 1995 نقل موجة عمليات العنف إلى فرنسا سعياً إلى جر باريس إلى الصراع ضد الإسلاميين وإقناعها بضرورة الوقوف في صف الدولة الجزائرية. قدر كبير من الشك يحيط بعلي توش الذي ظل البعض يزعمون أنه كان يعمل لصالح الدولة الجزائرية من البداية وقد نجح في مراوغة الاعتقال عدداً من المرات. وهذا الشك يضفي عليه بعضَ الوزن موظفون فرنسيون يقولون إنهم تعقبوا توش إلى أن اهتدوا إلى ما يشير إلى أنه كان قد عاد إلى الجزائر. وإنه كان بالفعل ابن أحد مفوضي الشرطة.

حين قام الفرنسيون بإبلاغ الجزائريين عن اعتقادهم بأن توش كان قد عاد إلى الجزائر، قيل لهم إن توش كان قد قتل في اشتباك وقع في الجزائر العاصمة في شهر أيار/مايو 1997 وقد نُسي الأمر. يقول أحد ضباط الاستخبارات الفرنسية: "نحن لا نعلم ما إذا كان حياً أم لا". كذلك يعتقد الناصري أنه شاهد توش في لندن، رغم أنه تم التعرف عليه، مما يثير مزيداً من الأسئلة. ليس ثمة إلا القليل من الأجوبة على الأسئلة الدائرة حول هويته والجهة التي كان يعمل لديها.

عقب المداهمات البلجيكية، بادر الناصري إلى الاضطلاع بمهمة جديدة: مهمة التسلل إلى معسكرات التدريب الأفغانية. يبدو أن الرسميين الفرنسيين كانوا على علم بأن عدداً من المقيمين في فرنسا كانوا يختفون ليعودوا إلى الظهور بعد أشهر. وحسب كلام ضابط استخبارات سابق، فإن ما يتراوح بين مئة ومئتين من المقيمين في فرنسا سافروا إلى أفغانستان لتلقي التدريب خلال

التسعينيات. بعضهم ذهب للالتحاق بالجهاد الدولي؛ آخرون أرادوا فقط أن يتمكنوا، لدى العودة، من التباهي بأنهم باتوا ماهرين في استخدام رشاش ايه كي - 47 (AK-47).

أثبت الناصري أنه أهل لتنفيذ مهمته. وروايته لقصة أسفاره تقدم صورة شخصية ولكنها شديدة الشفافية وبالغة الغنى لكيفية توغله في الدوائر الجهادية وصولاً إلى قلب القاعدة. مسافراً عبر تركيا فالباكستان، تحرك الناصري داخل سلسلة من الجماعات الإسلامية المتطرفة. أمضى بعض الوقت في مجمّع تديره جماعة التبليغ، جماعة تبشيرية هادية نابذة للعنف - رغم أن منتقديها يزعمون أن مراكزها باتت مؤخراً مصائد لتجنيد المتورطين في الأعمال الجهادية القائمة على العنف. عبر احتكاك هناك اهتدى الناصري إلى البوابة الموصلة من الباكستان إلى أفغانستان، إلى مدينة بيشاور الصاخبة، مدينة الجواسيس، المجاهدين، والأسرار. هذه المدينة كانت أيضاً قاعدة عدد كبير من الأفغان العرب الذين خاضوا معارك الجهاد في الثمانينيات ثم بقوا في المنطقة.

هنا بالذات التقى الناصري أبا زبيدة، منسق وحامل مفاتيح عدد من معسكرات التدريب الأفغانية. يقول رئيس وحدة بن لادن في وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه CIA) بين عامي 1996 و1999، مايك شْيوورَ: كان رجلاً ينفذ المهمات بالمعنى الإداري. إن اسم أبي زبيدة كان على الدوام بالغ البروز في آليات إيصال الناس إلى المعسكرات، استعادتهم منها، إطعامهم، تزويدهم بالوثائق، تسليحهم وتدريبهم.' ما لبث أبو زبيدة هذا أن اعتُقل أخيراً في آذار/مارس 2002 (اعتقال تمخض عن نقاش محموم في واشنطن حول المدى الذي يمكن بلوغه في تعذيبه). كما هي الحالة مع عدد كبير من الشخصيات التي وُصفت لاحقاً بأنها شخصيات قيادية في القاعدة، فإن علاقة أبي زبيدة المحددة بدقة مع القاعدة وبن لادن تبدو أكثر تعقيداً لأنه كان يعمل في المعسكرات مجنِّداً

ومنظّماً قبل مجيء بن لادن، وليس واضحاً متى، أو ما إذا سبق له، أن أقسم يمين الولاء لبن لادن.

انتقل الناصري بعد ذلك عبر الحدود إلى داخل أفغانستان لتلقي التدريب. كان ثمة ما يزيد على عشرين معسكراً للتدريب، وقد كانت هذه المعسكرات موروثة، بأكثريتها، عن فترة القتال ضد الاتحاد السوفيتي. لعبت المعسكرات دوراً محورياً في عمليات التحول من الجهاد التأسيسي الأفغاني في الثمانينيات إلى جهاد التسعينيات الأممي، وصولاً مع حلول أواخر العقد إلى انبثاق الجهاد الكوكبي في ظل القاعدة. لقد كانت تلك المعسكرات البوتقات التي أذابت سائر الجماعات التي بدأت تتعاون مجترحة هوية مشتركة.

لم يكن ثمة مصدر واحد لتمويل المعسكرات أو التحكم بها وضبطها. فأفغانستان كانت في حالة فوضى أواسط التسعينيات. كان السوفييت قد طُردوا في 1989، ولكن الوحدة الهشة التي كانت موجودة في أثناء القتال سرعان ما تبددت. ثمة حكومة عميلة بقيادة محمد نجيب الله دامت حتى عام 1992، حيث أطاحت بها فرق مجاهدين ما برحت أن تقاتلت فيما بينها طلباً للسلطة والنفوذ، مع احتفاظ أمراء الحرب المحليين بالسيطرة على جيوب من البلاد.

إن أجواء الدولة المفلسة كانت مناسبة مئة بالمئة لبقاء معسكرات التدريب. بعضها كان خاضعاً لإدارة أمراء حرب محليين مثل غُلْب الدين حكمتيار وعبد الرب الرسول سياف، وممولاً، في الغالب، من قبل مناصري الجهاد في الخليج الفارسي. ومع أن بن لادن غادر أفغانستان بعد انتهاء المعارك مع السوفييت (سخطاً على التقاتل الداخلي جزئياً) وأقام في السودان خلال السنوات الأولى من التسعينيات، فإنه ظل يموّل أعداداً من المضافات ومرافق التدريب داخل أفغانستان بما في ذلك، حسب كلام الناصري، دفع قيمة الطعام في المعسكر الذي تدرب فيه.

كانت الوكالة الباكستانية لأجهزة الاستخبارات البينية (الآي اس آي ISI) مساهمة هي الأخرى في دعم بعض المعسكرات الأفغانية. في 1993، بدأت الولايات المتحدة تضغط على الباكستان بشأن معسكرات التدريب جراء المخاوف المتزايدة من النشاط الجهادي في كشمير. ذهبت واشنطن إلى حد التهديد بإدراج الباكستان على قائمة الدول التي ترعى الإرهاب. أعداد كبيرة من هذه المعسكرات كانت في القطاع الخاضع للباكستان من كشمير ولكنها أُغلقت على ما يبدو إثر الشكاوى الأمريكية. كانت مرافق التدريب قد نُقلت إلى أفغانستان بعد 1993. سرعان ما بدأت وكالة الآي اس آي الباكستانية دعم حركة الطالبان بوصفها أداة لضمان استقرار أفغانستان ودعم مصالح الباكستان الأمنية.

تزامنت فترة الناصري في المعسكر، الفترة المتوزعة على عامي 1995 و1996، مع صعود الطالبان السريع. وكما يُتذكر فإن العلاقات بين العرب المسؤولين عن إدارة المعسكرات والأفغان عموماً والطالبان خصوصاً كانت استثنائية التوتر. كان ثمة توجس من أن يكون الطالبان راغبين في إغلاق المعسكرات والاستيلاء على أسلحتها. كذلك كان يُنظر إلى هؤلاء الطالبان على أنهم أصحاب بدعة دينية خطرون. ولم يكن زواج المصلحة بين الطرفين سيتم إلا مؤخراً.

كان خالدان المعسكر الابتدائي الذي التحق به الناصري أولاً. وحسب روايته فإن طيف الأمم الممثلة والانضباط المميز للتدريب كانا، حتى أواسط التسعينيات، لافتين وأوسع مما كان يُظن من قبل بكثير. إن مجموعات من الجزائر، بلاد الشيشان، كشمير، قيرغيزيا، الفلبين، طاجكستان وأوزبكستان كانت تتلقى التدريب العسكري الذي كانت ستعتمده لدى العودة إلى أوطانها للقتال. أعداد كبيرة من العرب، ولاسيما من العربية السعودية، مصر، الأردن، اليمن، مرت أيضاً من هنا، إضافةً إلى أفراد من أوروبا، شمال أفريقيا، وأمكنة أخرى جاؤوا

طلباً للمشاركة في الجهاد. كان الصراع البوسني الذي سبق لكثيرين أن خاضوه في السنوات الأولى من التسعينيات قد أخذ يخبو، غير أن بلاد الشيشان بقيت قضية ذات شعبية. وهذان الصراعان المفتاحيان في التسعينيات كانا يوفران سبباً للتطرف، للتدرب على القتال ولتنظيم شبكات المجاهدين التي لم تكن تحظى بعد بالقدر الكامل من التقويم. وتماماً مثل الصراع الأفغاني في الثمانينيات، كانا يوفران الوسائل اللازمة لدفع الجماعات المختلفة والأفراد المتباينين إلى التلاقي ونسج العلاقات.

كان التدريب الذي حصل عليه الناصري في خالدان عالي التنظيم ومكثّفاً. كان الانضباط في المعسكرات صارماً، غير أن شعوراً رفاقياً تطور أيضاً بين المشاركين. كان المجندون يتعلمون كيفية استخدام طيف واسع من الأسلحة والمتفجرات إضافةً إلى أساليب تنفيذ عمليات خاصة مثل الاغتيالات، التفجيرات، عمليات الخطف وحرب العصابات المدينية. بالاستناد أكثر الأحيان إلى كتب تدريب أمريكية تم الحصول عليها في أثناء القتال ضد السوفييت.

لم يكن التعليم الديني الذي كان المتدربون يحصلون عليه أقل شأناً من التدريب القتالي الذي كانوا يتلقونه. فالإعداد الروحي كان يُعد وجهاً مركزياً من وجوه الجهاد، وجهاً أكثر أهمية من التدريب الجسدي. كانت المعسكرات عوامل حاسمة لاجتراح ونشر تسويغ عريض مدعوم دينياً لاستخدام أساليب العنف المتطرفة، حتى ضد المدنيين. فالمفاهيم اللاهوتية الفقهية التي طُوِّرت ليس في أفغانستان فقط بل وفي أوروبا خلال التسعينيات كانت حاسمة على صعيد التأثير في عقول عشرات الآلاف من الأفراد. إن هذه المنطلقات الإرشادية ساهمت في ترسيخ إيديولوجيا ما بعد 9/11 الجهادية التي لم تكتف بمجرد البقاء بل وواصلت النمو والازدهار منذ استهداف قيادات القاعدة.

كانت محطة الناصري الأولى، معسكر خالدان، في الأصل، من تأسيس عبد الله عزام، أستاذ بن لادن في الثمانينيات. وممن مروا على هذا المعسكر ثمة

أفراد شاركوا في هجمات 1993 و2001 على مركز التجارة العالمي (بمن فيهم محمد عطا قائد حلقة منفذي هجمات 9/11)؛ أفراد شاركوا في تفجيرات السفارات الأمريكية في 1998؛ أحمد بسام بطل التفجير الألفي الفاشل؛ بطلا متفجرات الأحذية البريطانيان رتشارد رايد وساجد بادات؛ وزكريا موسوي المحكوم بالسجن مدى الحياة سنة 2006 لتورطه في مؤامرة 9/11. أما قائد معسكر خالدان أواسط التسعينيات فكان رجلاً يدعى ابن الشيخ الليبي الذي أمضى الناصري معه فترة ذات شأن من الوقت. والليبي هذا كان قد قاتل في أفغانستان في الثمانينيات؛ ومثل آخرين، لم يكن بالضرورة عضواً في القاعدة في التسعينيات، بل يُرجَّح أنه كان ناشطاً مستقلاً كان من شأن نشاطه ومعسكره أن ينضويا آخر المطاف تحت راية القاعدة.

ما لبث الليبي أن أصبح، فيما بعد، عنصراً حاسماً في الجدل الدائر حول المعلومات الاستخباراتية السابقة للحرب عن العراق. فالمدرب الليبي، الذي أُلقي القبض عليه في تشرين الثاني/نوفمبر 2001، كان أول أعضاء القاعدة رفيعي المستوى الذين اعتُقلوا من قبل الولايات المتحدة بعد الهجمات. عقب شجار بين مكتب التحقيقات الفدرالي (الاف بي آي FBI) ووكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه CIA)، تغلبت الأخيرة وقامت بتسليمه إلى مصر حيث جرى تعريضه لسوء المعاملة والتعذيب. والمعلومات الاستخباراتية المستمدة من التحقيق معه استُخدمت من قبل مسؤولين أمريكيين كبار لتأكيد وجود علاقة بين العراق والقاعدة، استناداً إلى زعم الليبي بأن العراق كان قد عرض التدريب على القاعدة في كانون الأول/ديسمبر 2000. هذه المعلومة أوردها كل من نائب الرئيس تشيني، ووزير الخارجية كولن باول في خطابه المحوري أمام الأمم المتحدة في شباط/فبراير 2003، والرئيس جورج دبليو بوش في سينسيناتي في تشرين الأول/أكتوبر 2002، حين قال: "لقد علِمْنا أن العراق قام بتدريب أعضاء من القاعدة على صنع المتفجرات والسموم والغازات."

تمثلت المشكلة بأن الليبي كان يكذب. ففي وقت مبكر يعود إلى شباط/فبراير 2002، كان أحد تقارير جهاز استخبارات الدفاع يقول باحتمال قيامه "بالتضليل المتعمد للمحققين" بسبب عجزه عن تقديم تفاصيل محددة عن عمليات التدريب التي يفترض أنها حصلت. وفي كانون الثاني/يناير 2004، أنكر الليبي مزاعمه حول العراق، مُجْبِراً وكالة الاستخبارات المركزية على سحب جملة التقارير الاستخباراتية المستندة إلى أقواله.

قيل إنه ربما كان يقدم معلومات زائفة لجر الولايات المتحدة إلى مهاجمة العراق. ورواية الناصري تميل إلى تصويب وجهة النظر هذه لأنه يقول إن الليبي عَبَّر عن كرهه لنظام صدام حسين العلماني في العراق وكان أيضاً ذا مهارة عالية في مقاومة التحقيق. إن الوثائق والنشرات التدريبية، التي تم العثور عليها في أفغانستان بعد 2001، تبين أيضاً أن أعضاء القاعدة كانوا يُلقَّنون التفكير بالجهاد لا بوصفه مجرد أمر يتم في ساحة القتال بل بوصفه حرباً يمكن خوضها بعد الاعتقال عن طريق تقديم معلومات زائفة. يقال إن الليبي جرى تسليمه في ربيع 2006 إلى السلطات الليبية.

في معسكر خالدان نجح الناصري، على ما يبدو، في التميُّز عن المجندين الآخرين. تماماً كما وجدتْ أجهزة التجسس أن من شأن نشأته غير العادية أن تجعل منه جاسوساً جيداً، اعتقد قادة المعسكر أيضاً أن من شأنه أن يكون مفيداً لقدرته على التحرك في الأوساط الغربية بقدرٍ أكبر من اليُسْر من ناحية ولتحلّيه باستقلالية التفكير، على النقيض من أكثرية الموجودين في المعسكر، من ناحية ثانية. ونتيجةً لذلك فقد كان أحد القليلين الذين اختيروا للانتقال إلى معسكر دارونتا الأكثر تقدماً.

في حين أن خالدان ركز على التدريب على القتال، بالنسبة إلى الجماعات في الغالب، فإن دارونتا كان يوفر تدريباً أكثر تخصصاً وفردية في مجالات

المتفجرات والإرهاب لأولئك الذين أتموا المرحلة الأولى بنجاح. في خالدان كان المجندون يتعلمون كيف يقومون بتفجير المتفجرات؛ أما في دارونتا فكانوا يتعلمون كيف يصنعون المتفجرات والصواعق من الصِّفْر. وأولئك الذين انتقلوا إلى دارونتا كانوا أقل احتمالاً أن يكونوا أعضاء جماعة عاكفة على التحضير لاشتباكات عسكرية في وطنها وأكثر احتمالاً أن يكونوا أفراداً يجري إعدادهم ليكونوا أعضاء خلايا إرهابية نائمة كلاسيكية، متطلبين، بالتالي، جملة مغايرة من المهارات.

كان معسكر دارونتا قد بُني حول قاعدة عسكرية سوفيتية سابقة إلى الغرب من جلال أباد. كان المعسكر يشتمل على عدد من المباني والثكنات لإيواء مجموعات كفاحية مختلفة. ومن أولئك الذين تخرجوا في دارونتا قبل تدميره بالضربات الجوية الأمريكية في تشرين الأول/أكتوبر 2001 أحمد بسام الذي دين لاحقاً بالتورط في مؤامرة التفجير الألفي ضد مطار لوس أنجلوس الدولي.

ذلك هو المكان الذي عكفت فيه القاعدة على إجراء الاختبارات على الأسلحة الكيميائية بقيادة أبي خبب المصري الذي يقول الناصري إنه التقاه. وأجهزة الاستخبارات الأمريكية بدأت تطّلع على اشتغال المصري بالأسلحة الكيميائية نحو 1998 - 1999 وقد تأكد الأمر بعد سقوط الطالبان في 2001، حين عثر المراسلون على مختبر يحتوي على مركبات كيميائية ووثائق فيها توجيهات حول كيفية تصنيع غاز الأعصاب: سارين. وخارج المختبر ثمة كانت بقايا حيوانات نافقة مربوطة بأوتاد معدنية كانت تستخدم للتجريب. إن رواية الناصري تأتي على ذكر إجراء تجارب أسلحة كيميائية في وقت مبكر يعود إلى أواسط التسعينيات، قبل أن يرد أي كلام عنها.

كم من المعلومات كانت متوفرة لدى الولايات المتحدة عن المعسكرات وعن طبيعة التدريبات الجارية داخلها؟ ومع أن صانعي القرار السياسي الأمريكيين

كانوا قد أداروا ظهورهم إلى أفغانستان بعد انسحاب القوات السوفيتية في 1989، فإن خبراء الاستخبارات ومكافحة الإرهاب الأمريكيين باتوا متزايدي الإدراك لدور المعسكرات وللخطر الذي كانت تمثله. وحين قام المحققون بإمعان النظر في تفجير مركز التجارة العالمي عام 1993 إضافة إلى نشاطات أخرى ذات علاقة، اهتدوا إلى خيط مشترك يربط بين هذه العمليات المبكرة: ألا وهو خيط أفغانستان.

إن رمزي يوسف، الذي خطط لهجوم 1993، كان قد تدرب في خالدان والتقى شريكه في المؤامرة هناك. ثمة تقدير للاستخبارات القومية كان لا يزال سرياً، وقد نُشر في 1995 بعنوان: "التهديد الإرهابي الخارجي للولايات المتحدة" كان يقول إن التهديد الإرهابي الأكثر احتمالاً بالنسبة إلى الولايات المتحدة هو الصادر عن إسلاميين متطرفين ذوي ارتباطات مع أفغانستان.

غير أن المعلومات الاستخباراتية بقيت متشظية وجزئية. صحيح أن معلومات استخباراتية بشرية معينة كانت متوفرة عن المعسكرات القريبة من الحدود الباكستانية، إلا أن معسكرات أخرى، مثل دارونتا، كان أصعب على عمليات التسلل. بقيت الولايات المتحدة تعوّل، إلى حدٍّ كبير، على صور الأقمار الصناعية إلى أن بادرت وكالة الاستخبارات المركزية إلى تأسيس محطة أليك في 1996، وحدة مكلفة بتعقب فعاليات أسامة بن لادن. ثمة تقديرات تزعم أن ما بين عشرة إلى عشرين ألفاً من الأفراد مروا بالمعسكرات، من عام 1996 إلى هجمات 9/11، لتلقي التدريب. وهناك آخرون يعتقدون بأن من شأن الرقم أن يكون أعلى، وصولاً حتى إلى مئة ألف. ما من أحد تعقب مسار هؤلاء أو حاول الاهتداء إلى أولئك الذين ذهبوا، بدورهم، من أجل تدريبهم.

بعد مغادرة الناصري لأفغانستان في ربيع 1996 مباشرة، عاد بن لادن. جاء من السودان في 19 أيار/مايو 1996. على متن طائرة تشارتر ذات ستة ركاب،

بعد السماح له بالهبوط في جلال أباد من قبل جهاز الآي اس آي الاستخباراتي الباكستاني. كان الضغط على مضيفيه السابقين في السودان قد أصبح بالغ الشدة، وتلقى رسالة تشي باستحالة استمرار تمتعه بالحماية التي سبق له أن كان متمتعاً بها في سنوات سابقة.

كان بن لادن واصلاً في منعطف حاسم حيث كانت حركة الطالبان موشكة على الإمساك بالسلطة. بدايةً نأى بن لادن بنفسه عما كان يجري، غير أن حركة الطالبان باتت صاعدة بوضوح مع حلول صيف 1996. في اجتماع، ربما كان من ترتيب جهاز الاستخبارات الباكستاني، قابل بن لادن الملا عمر وكبار قادة الطالبان ليعرض دعمه، بما فيه التزويد بالمال والمقاتلين من أجل ضمان الانتصار في المعارك الفئوية المريرة المستعرة فيما بين المجاهدين.

مع حلول شهر أيلول/سبتمبر كان الطالبان قد استولوا على جلال أباد. وقد كانوا مستعدين لتزويد بن لادن والقاعدة بملاذ آمن يستطيعان فيه أن يباشرا التخطيط لعمليات أكثر إثارة مسرحية. لم يكن الطالبان شديدي الاهتمام بمعسكرات التدريب ولاسيما تلك التي درجت على استيراد العرب والغرباء، غير أن من المحتمل بقوة أن يكون بن لادن قد أقنعهم بضرورة توليه إدارة تلك المعسكرات التدريبية بنفسه.

بعد عودته من أفغانستان وإثر فترة طويلة من الانقطاع، اجتمع الناصري ثانية مع جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس اي DGSE)، الذي عرض عليه مهمة جديدة. عقب مداهمات آذار/مارس 1995 وجملة تفجيرات ذلك الصيف، كانت البنية الداعمة للجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) . بما في ذلك تحرير نشرة الأنصار ونشرها . قد قامت برحلة قصيرة من فرنسا وبلجيكا إلى المملكة المتحدة. فبعد الانهيار في فرنسا وبلجيكا، كانت أجواء لندن الأكثر تسامحاً هي الجاذبة أكثر للجهاديين. ثمة ضابط مكافحة إرهاب بلجيكي

يدعى آلان غرينار يفسر الأمر قائلاً: "كانت لندن نقطة التركيز" معبِّراً عن قناعته بأنها عُدت "محطة انتقال" من حقبة متطرفين إسلاميين وطنيين (منتمين إلى أوطان مختلفة) إلى حقبة الشبكة الكوكبية التي تأسست في بوتقة الإذابة الأفغانية.

سنوات أواسط إلى أواخر عقد التسعينيات كانت هي السنوات التي اكتسبت فيها العاصمة البريطانية تسمية "لندنستان"، وهي تسمية أطلقها رسميون فرنسيون غاضبون من الحضور المتنامي للمتطرفين الإسلاميين في لندن ومن إخفاق السلطات البريطانية في عمل أي شيء بشأن الموضوع. تاريخياً، بقيت لندن ملاذاً للمنشقين والمعارضين، وبدءاً بالثمانينيات كانت أيضاً قد زادت من إيوائها لمتطرفين إسلاميين حاصلين على حق اللجوء من موظفين لم يكونوا مؤهلين لفهم طبيعة نشاط هؤلاء.

وكما يتضح من رواية الناصري فإن العلاقات بين جهازي الاستخبارات الفرنسي والبريطاني كانت ودية، ولكن الفرنسيين كانوا بدؤوا يعبرون عن خيبة الأمل. سلسلة المداهمات في فرنسا وبلجيكا كانت قد تمخضت عن جملة من أرقام الهاتف والفاكس ذات العلاقة بالمملكة المتحدة، وكانت أسماء مشبوهين قد قُدمت. بعض الموظفين الفرنسيين يعتقدون بأن قيام البريطانيين ببذل قدرٍ أكبر من الجهد في الوقت المناسب كان من شأنه أن يفضي إلى تفكيك الشبكة الكامنة وراء تفجيرات 1995 وصولاً إلى الحيلولة، بالتالي، دون وقوعها.

بُعَيْد وصوله جرت إعادة ربط الناصري بالأنصار التي صارت تُطبع في لندن. ومن أولئك الذين باتوا منخرطين في العمل مع الأنصار بلندن قبل عودة الناصري كان ثمة رشيد رمضا، وقد شوهد من قبل مع أوساط الجماعة الإسلامية المسلحة في كل من فرنسا وبلجيكا. وحين طلب قاضي مكافحة الإرهاب الفرنسي جان - لوي بروغوير من بريطانيا إلقاء القبض على رمضا

المتهم بتمويل عمليات التفجير في مترو باريس، جاء رد الفعل البريطاني الأولي متمثلاً بالزعم باستحالة إلقاء القبض عليه لعدم قيامه بأي مخالفة في المملكة المتحدة، وهو زعم دأب الموظفون البريطانيون على تكراره. صحيح أن رمضا جرى اعتقاله غير أنه قاوم الترحيل مدة عشر سنوات مما زاد من إغاظة الفرنسيين. قصته صارت رمزاً لجملة التوترات بين البلدين على صعيد محاربة الإرهاب. فقط في كانون الأول/ديسمبر 2005 قامت بريطانيا أخيراً بنقله إلى سجن فرنسي. وقد تمت عملية تجريمه بباريس في آذار/مارس 2006 فيما يخص تفجيرات أواسط التسعينيات.

في لندن، تمت إدارة الصلة مع الناصري على نحوٍ مشترك بين جهازي الاستخبارات الفرنسي والبريطاني وجرى تكليفه بمهمة التسلل إلى دائرة الجماعات المتطرفة. خلال فترة قصيرة من الوقت نجح الناصري في الوصول إلى جامع فينزبوري بارك الواقع في الطرف الشمالي من لندن، في لحظة محورية من التاريخ. واعظ جديد، رجل صاعد يحمل اسم أبي حمزة، كان قد وصل للتو. كان فاقداً لإحدى عينيه إضافةً إلى يديه - إحدى الأخيرتين مُسْتَبْدلة بكلاب. وهذا المصري الذي كان قد أمضى بعض الوقت في المعسكرات الأفغانية، نجح في إخفاء آرائه المتطرفة عن الأمناء القيمين الذين وافقوا على تعيينه إماماً للمسجد. غير أن توترات سرعان ما نشأت بين مؤيدي أبي حمزة بأكثريتهم الشمال أفريقية من جهة والحرس القديم في الجامع وهم منتمون في الغالب إلى الجاليتين الباكستانية والبنغالية. من جهةٍ ثانية، ما لبث التوتر أن تطور وبسرعة إلى نوع من الترهيب، وبات واضحاً أن جماعة متطرفة من جيل جديد، أكثر شباباً، كانت موشكة على الإمساك بزمام الأمور.

عمل أبو حمزة وأعوانه على قلب مسجد فينزبوري بارك إلى الملاذ الأول والمركز التنظيمي الرئيسي لأولئك الملتزمين بالجهاد الدولي لا في بريطانيا

وحسب بل وفي أوروبا كلها. نحو ما لا يقل عن مئتي شخص دفعة واحدة كانوا ينامون في القبو. ومن أولئك الذين مروا من هنا يُذْكَر زكريا موسوي، إضافةً إلى كل من لاعب كرة القدم السابق نزار طرابلسي والمهتدي الفرنسي جيروم كورتابيه، اللذين دينا، كليهما، بالتخطيط لضرب أهداف أمريكية في أوروبا. أحد التقديرات الحديثة يخمن أن نحو خمسين شخصاً من هذا الجامع قضوا في عمليات إرهابية وهجمات تمردية في أكثر من عشر بؤر صراع في الخارج.

بداية قدم أبو حمزة نفسه على أنه مرشد روحي تابع للجماعة الإسلامية المسلحة ورئيس تحرير الأنصار. غير أن الجماعة كانت، مع حلول عام 1997، قد أصبحت متزايدة الإشكالية والغموض حتى في الأوساط الإسلامية، بسبب عنفها المتطرف. فمذابح المدنيين كانت تدفع حتى الجهاديين إلى التساؤل عما إذا كانت الجماعة قد أصبحت خارج التحكم، وبدأت الجماعة نفسها تتشظّى. كان الناصري شاهداً قريباً على السجالات الدائرة بين إسلاميي أوروبا حول البقاء مع الجماعة أو الانفصال عنها. سارع أبو حمزة إلى الابتعاد عن نشاطات الجماعة في تشرين الأول/أكتوبر 1997، تماماً كما فعل آخرون مع الزمن.

مواعظ أبي حمزة كانت مفعمة بالحقد والعنف اللذين غرسهما في نفوس أعداد لا تُحصى من الشباب. دأب على تدعيم مصداقيته بإشاعات عن كيفية فقدانه لإحدى عينيه ويديه الاثنتين في معارك الجهاد. غير أن الناصري كان يعرف القصة الحقيقية المؤكّدة لكون إصاباته ناجمة عن حادث في أثناء إجراء بعض التجارب في أحد معسكرات التدريب. وحين قام الناصري بمكاشفة أبي حمزة رجاه الأخير أن يكتم السر تجنباً للإجهاز على سمعته.

تحول المسجد إلى مركز تجنيد لجماعات متحالفة مع القاعدة. ثمة أفراد كانوا يوفدون إلى أفغانستان مزودين بتذاكر السفر الجوي، المبالغ المالية، ورسائل التوصية الموقعة من أبي حمزة. فجيروم كورتابيه ادعى أن أبا حمزة كان المرجع

الذي مكّنه من دخول معسكر خالدان وأنه حصل على مبلغ ألفين من الدولارات لتغطية نفقات الرحلة. يرى بعضهم أن لدى المحققين الأمريكيين معلومات تؤكد أن أبا حمزة كان يتولى التمويل المباشر لمعسكرات التدريب في أفغانستان بما فيها معسكر دارونتا وعمل المصري. بعض كبار مجندي الجهاديين كانوا يعملون من الجامع راصدين أولئك المؤهلين ليكونوا مجاهدين محتملين. بين الأكثر أهمية كان ثمة جزائري يدعى جمال بغال الذي انتقل من باريس إلى لندن في 1997. فيما بعد جرى اعتقاله في دبي وأطلق موجة اعتقالات عبر أوروبا مع إحباط مؤامرة مزعومة ضد السفارة الأمريكية في باريس. في إحدى المراحل اعترف البغال بأن أبا زبيدة هو الذي جنّده غير أنه ما لبث أن أنكر اعترافه لاحقاً. هو الآن ينتظر المحاكمة في فرنسا.

إن جهاز الأمن البريطاني (المعروف لدى العامة باسم الام آي. 5) (MI5) ومعه جهاز الشرطة كانا يجتمعان سراً مع أبي حمزة بُعَيْد توليه إمامة المسجد في 1977 مباشرة، ولكنهما وقعا، على ما يبدو، في خطأ الاستخفاف به. فالسلطات كانت تعرف بوضوح. ولم يكن على هذا الصعيد أقل شأناً من الناصري وغيره من الجواسيس المحتملين. أن أبا حمزة كان، أقله، مشاغباً. ومنتقدو المملكة المتحدة يجادلون بأن ذلك لم يكن، عملياً، سوى نوع من عقد صفقة مع الجهاديين الحركيين: افعلوا ما شئتم فيما وراء البحار؛ سوف تُتركون وشأنكم طوال بقائكم بعيدين عن استهداف المملكة المتحدة. أما الرسميون البريطانيون فيجادلون قائلين إن هذا لم يكن قط اتفاقاً رسمياً بل كان مجرد نتيجة للإطار الحقوقي الذي يحدد تحركهم؛ لم يكونوا قادرين على محاكمة أحد بسبب نشاطات جرت فيما وراء البحار، فظلوا بدلاً من ذلك يحذرون الأفراد من التخطيط لأي شيء ضد المملكة المتحدة.

جرت إساءة استخدام تسامح البريطانيين، جنباً إلى جنب مع تقاليدهم القائمة على حرية الكلام، التعددية الثقافية، ومنح حق اللجوء. والسلطات

البريطانية العازفة عن التدخل في حرية الكلام أخفقت في تقويم ذلك النوع من الخطاب المسعور المنبثق من مسجد فينزبوري بارك جنباً إلى جنب مع ما صاحب ذلك الخطاب من فعاليات.

بلدان كثيرة أخرى غير فرنسا شَكَتْ من مسجد فينزبوري بارك ولكن شيئاً لم يُفعل. فالسلطات البريطانية لم تُقْدم على أي تحرك صارم حتى كانون الثاني/يناير 2003. إن معلومات استخباراتية عن مؤامرة محتملة لتطوير مادة الريسين السامة ما لبثت أن أفضت إلى مداهمة المسجد ذات فجر، وتم العثور على عدد من المواد الجرمية.

غير أن أبا حمزة بقي طليقاً، يواصل مواعظه في الشارع أمام المسجد (يلقي خطباً يستمع إليها بعض أولئك الذين نفّذوا تفجيرات السابع من تموز/يوليو 205 اللندنية). فقط بعد قيام الولايات المتحدة بإصدار مذكرة تسليم - مستندةإلى اتهامات بالتخطيط لتأسيس معسكر للتدريب في أوريغون - بادرت السلطات البريطانية إلى التحرك، تأثراً بالضغط الأمريكي في جزء منه. في تشرين الأول/أكتوبر 2004، جرى اتهام أبي حمزة وما لبث أن دين بجريمة الحض على القتل وجرائم أخرى.

ومن الشخصيات التي تجسس عليها الناصري ثمة الأردني - الفلسطيني أبو قتادة الذي كان قد وصل إلى المملكة المتحدة في 1993 بجواز سفر أماراتي مزور. طالب الأردن باستعادته بعد الحكم عليه غيابياً بسبب جرائم إرهابية، غير أن بريطانيا رفضت تسليمه ومنحتْه حَقَّ اللجوء في 1994. على النقيض من أبي حمزة، كان أبو قتادة باحثاً جاداً. لم يكن قائد أي مجموعة محددة أو منظّماً، بل بقي، بالأحرى، عنصراً أكثر أهمية ربما - بقي منظّراً إيديولوجياً ومرشداً روحياً.

إن الحاجة إلى الأحكام الدينية بالغة الأهمية بالنسبة إلى الحركيين الإسلاميين. ثمة حركيون كثيرون درجوا على الذهاب إلى أبي قتادة التماساً للإرشاد والتسويغ الديني لأفعالهم. وأولئك الذين يُعتقد أنهم تلقوا منه تعاليم دينية يؤلفون قائمة بأسماء عدد كبير من الحركيين الإسلاميين الذين يتخذون من أوروبا مقراً لهم ومنهم زكريا موسوي، نزار طرابلسي، وكمال داودي. أما جمال البغال فقد ذهب إلى لندن أساساً للتعلم من أبي قتادة. ثمة أشرطة تسجيل لمواعظ أبي قتادة عُثر عليها أيضاً في إحدى الشقق الهامبورغية التي كان يعيش فيها محمد عطا المشارك في هجمات 9/11. قام كبير محققي مكافحة الإرهاب الإسبان مرة بوصف أبي قتادة على أنه 'القائد الروحي' للحركيين الإسلاميين في أوروبا.

تمثلت قاعدة عمليات أبي قتادة بنادي الريشات الأربع (Four Feathers Club)، الذي هو نادٍ للشباب في مكان قريب من شارع بيكر ستريت اللندني المعروف. وحسب ذكريات الناصري فإن مواعظ أبي قتادة كانت أشد خطراً بما لا يقاس من خطب أبي حمزة تحديداً لأنها كانت أكثر انضباطاً، ومتركزة على الإعداد الروحي للتحرك بدلاً من الخطابة البلاغية. كذلك يعتقد الناصري أن تعاليم أبي قتادة كانت شبه مماثلة لنظيرتها التي تلقاها في معسكرات التدريب الأفغانية جزءاً من عملية تثقيف الجهاديين وغرس مبادئ الانضباط في نفوسهم. غير أن الرسميين البريطانيين ظلوا؛ مع ذلك، يطلبون منه ترك أبي قتادة وشأنه والتركيز بدلاً من ذلك على التجسس على أبي حمزة. إن السبب ليس واضحاً. وكما هي الحال مع أبي حمزة، فثمة من يعتقد بأن لأبي قتادة صلة بجهاز الام آي - 5 (MI5)، غير أن الطرف الذي كان يستغل الآخر ليس واضحاً بالضرورة.

في شباط/فبراير 2001، قام البوليس باستجواب أبي قتادة بعد العثور على مبلغ 170.000 جنيه إسترليني نقداً في بيته، كان جزء منه في مغلف يحمل

عبارة 'للمجاهدين الشيشان.' كان يفترض أنه يعتاش من المنحة التي يحصل عليها من الدولة، غير أنه لم يُتَّهَم. ومما أزعج السلطات كثيراً أن أبا قتادة بادر، في كانون الأول/ديسمبر 2001، قبيل وضع قوانين مكافحة إرهاب جديدة موضع التطبيق، إلى الهرب فجأة من منزله في غرب لندن، ونجح، على نحوٍ لافت، في أن يبقى طليقاً لمدة عام كامل تقريباً إلى أن جرى اعتقاله في لندن. ومن ذلك الوقت تلاحقت سلسلة من المعارك الحقوقية جراء سعي الحكومة إلى ترحيله وتسليمه إلى الأردن.

بقي الفرنسيون المطلعون بعمق على أحوال أبي قتادة وأبي حمزة شديدي القلق من تأثيرهما في شباب ضواحي المدن الفرنسية. غير أن موظفي الاستخبارات الفرنسيين ظلوا يشْكُون من أنهم لم يحصلوا إلا على جواب يقول إن بريطانيا دولة يتسع صدرها لحرية الكلام لدى سؤال نظرائهم البريطانيين. حتى حين كانوا يقدمون أدلة على وجود أخطار داهمة فإن الرسميين الفرنسيين لم يكونوا، حسب زعمهم، يلقون آذاناً صاغية إلى أن وقعت أحداث 9/11. وهؤلاء المسؤولون يشعرون بأن قرار بريطانيا بعدم التحرك كان سياسياً، مستنداً إلى العزوف عن إزعاج الوُعّاظ الإسلاميين واستعداء الجالية الإسلامية. ثمة من يرى أيضاً أن الفرنسيين فكروا باختطاف أبي حمزة - طبعة فرنسية للممارسة الأمريكية الراهنة لعملية 'التسليم غير العادي.' فحسب كلام ضابط استخبارات سابق، أرسل جهاز الأمن الخارجي الفرنسي، الدي جي اس إي DGSE، فريقاً إلى لندن لدراسة الإمكانية وتوصل إلى قناعة بأن أجهزة الأمن البريطانية كان من شأنها أن تغض الطرف، رغم أن جهاز الشرطة ربما كان أقل قبولاً.

يزعم الرسميون البريطانيون أنهم تعاونوا تعاوناً وثيقاً مع الفرنسيين على صعيد التعامل مع شبكات جمع التبرعات لصالح الجماعة الإسلامية المسلحة في المملكة المتحدة، محاولين تعقب مصادر الأموال. وهم يأتون على ذكر الإطار

التشريعي بوصفه إحدى المشكلات. ففي أواسط تسعينيات القرن الماضي لم يكن التآمر داخل بريطانيا لاقتراف أعمال إرهابية في الخارج يشكل مخالفة. وبالتالي فإن جماعات مثل حماس ونمور التاميل جنباً إلى جنب مع الجماعة الإسلامية المسلحة بدأت تستخدم المملكة المتحدة مركزاً وبؤرة للتآمر. والبوليس لم يكن يحقق في أي مشكلة إلا إذا توفرت أدلة على اقتراف مخالفة محددة وانتهاك معين للقانون. لم تعمد أجهزة الشرطة والأمن إلى وضع عملية الحصول على معلومات استخباراتية عن هذه الجماعات في صدر سلم أولياتها. ثمة موظف بريطاني كان منخرطاً في عملية جمع المعلومات الاستخباراتية أواسط التسعينيات يجادل قائلاً: "ما الذي يجعلك راغباً في معرفة ما سيقوم به صِبْيَةُ الفِرَق الكشفية" مسلطاً الضوء على أسلوب النظر إلى التهديد.

بقي خبراء مكافحة الإرهاب البريطانيون متركزين على التهديد الآتي من الإرهاب الأيرلندي الجمهوري بدلاً من الإرهاب الإسلامي. وقد بدا الأول أكثر واقعية بما لا يقاس. غير أن شباط/فبراير 1996 شهد انفجاراً هائلاً لقنبلة تزن نصف طن في منطقة أرصفة ميناء لندن دشَّنَ مرحلة جديدة من النشاط بعد فترة من وقف إطلاق النار. كان جهاز الام آي - 5 (MI5) والبوليس مشتبكين أيضاً في مشادة بيروقراطية حول الطرف الذي يتعين عليه إدارة خطة مكافحة الإرهاب في أيرلندا الشمالية - كان الأول، الام آي - 5، سيفوز - الأمر الذي أدى إلى تبديد جزء من الموارد والطاقة في ذلك الاتجاه.

فقط أوائل 1998 بدأت السلطات البريطانية تسمع بالقاعدة. وفي ذلك الوقت لم يكن الاهتمام منصباً على أبي قتادة، أبي حمزة أو أي من الشبكات الشمال أفريقية، إذ بقي متركزاً على جماعات من العرب جاؤوا نحو 1998، من مصر في الغالب، كما على عرب آخرين مرتبطين ببن لادن بمن فيهم خالد الفواز. وكان يعتقد أن هذا الأخير كان يتولى إدارة مكتب بن لادن الإعلامي في

لندن، منشغلاً بتنظيم المقابلات مع الإعلاميين الغربيين ونشر التصريحات نيابة عنه.

قبل بضعة أشهر من تفجيرات السفارتين الأفريقيتين، قام رئيس قسم محاربة الإرهاب في مكتب التحقيقات الاتحادي (الاف بي آي FBI)، دون أونيل، الذي كان سيموت في مركز التجارة العالمي يوم 9/11، بزيارة لندن بحثاً عن أدلة ضد بن لادن. كان الاف بي آي قد فتح تحقيقاً في أعقاب نشر فتوى عام 1996 صادرة عن بن لادن في إحدى الصحف اللندنية الصادرة باللغة العربية. أما تفجيرات السفارتين في 1998 فجاءت توفر دليلاً أوضح على وجود خيط يقود إلى لندن. تمت مداهمة عناوين تلقت رسائل بالفاكس مدعية المسؤولية عن الهجوم. زُعم أن طرفي الفاكس وُجدا على حالهما مما أكد أنه جاء إلى مكتب مرتبط بخالد الفواز مع آخرين قبل حصول الهجوم. يقبع الفواز الآن في احد السجون البريطانية بانتظار الترحيل إلى الولايات المتحدة.

في حين أن العلاقة بين جهازي الاستخبارات في كل من الولايات المتحدة وبريطانيا بقيت قوية، نشأت علاقة أضعف على صعيد تطبيق القانون، ولاسيما فيما يخص مكافحة الإرهاب. فأونيل وزملاؤه في الاف بي آي عانوا كثيراً مع نظرائهم البريطانيين لأن الأخيرين كانوا يعتقدون أن الجيش الجمهوري الأيرلندي كان يستخدم الولايات المتحدة ملاذاً آمناً لنشاطاته، تماماً كما كان الفرنسيون يعتقدون أن بريطانيا كانت توفر ملاذاً آمناً للإرهاب الجزائري. وبالتالي فإن الطرفين ظلا يشعران بأن طلبات التحرك كثيراً ما كانت تتعرض للإهمال.

على الرغم من أن السلطات البريطانية بدأت بالفعل تقيم وزناً لفكرة الخطر المتمثل بالقاعدة منذ أوائل 1998، فإن تصور التهديد بقي بعيداً عن أشخاص مثل أبي قتادة، أبي حمزة، والجزائريين الناشطين في المملكة المتحدة.

صحيح أن أبا قتادة وأبا حمزة كانا على شاشة رادار السلطات البريطانية، ولكن على مستوى منخفض جداً، جنباً إلى جنب مع محاربين قدامى من مخلفات الحرب الأفغانية كانوا يُمنحون حق اللجوء السياسي في المملكة المتحدة، حسب كلام رسميين كانوا على رأس العمل في تلك الفترة. ببساطة، كانت لدى البريطانيين أولويات أخرى. فالإرهاب الدولي، ولاسيما الإرهاب المرتبط بالإسلاميين، لم يكن يُنظر إليه على أنه مصدر تهديد مباشر. كان من شأن فرنسا أن تشكل هدفاً أوّلياً لتورطها في الجزائر، أما المملكة المتحدة فلا.

إن بريطانيا تشعر الآن بالتأثير طويل المدى لسياستها القائمة على تحمل هذه العناصر المتطرفة في تسعينيات القرن العشرين. وظاهرة التطرف التي انتشرت في بعض الجاليات البريطانية لم تترسخ بين عشية وضحاها. إنها نتيجة عملية طويلة دأب فيها أفراد وجماعات، منهجياً، على استهداف جيل الشباب.

في الوقت نفسه، كانت تيارات النشاط الجهادي المختلفة هذه عاكفة على التلاقي والتقاطع. ففي 1998 تمخضت موجة جديدة من المداهمات في بلجيكا عن العثور على المزيد من الأدلة المؤكِّدة للطبيعة الدولية لجملة الشبكات الإرهابية وللخطر الذي تنطوي عليه. فالذين تم توقيفهم كانوا من الجزائر، المغرب، سورية، وتونس، وكانت لهم ارتباطات مع عدد من الجماعات الإسلامية المختلفة إضافةً إلى أبي زبيدة، أفغانستان، البوسنة، والباكستان. كشفت المداهمات عن وجود صواعق ومواد لتصنيع المتفجرات، كما ثارت شكوك (وإن لم تتأكد) حول استهداف مباريات كأس العالم التي كانت ستتم في صيف ذلك العام بفرنسا. أفضت العملية إلى موجة من الاعتقالات في طول أوروبا وعرضها. ظل الفرنسيون يعتقدون أن لندن كانت مركز التنظيم. إن إطار خطوط عريضة لسلسلة أكثر تعقيداً من الشبكات الإرهابية بدأ يطفو على السطح.

على الدوام بقيت أوروبا تشكل القاعدة المركزية لعمليات منظمة القاعدة، تشكل مكاناً أتاح لعدد غير قليل من الجماعات الإسلامية المتطرفة المختلفة فرصة اجتراح تحالفاتها. الإنذارات كانت موجودة، غير أن من أدركوها كانوا قليلين. كثيرون جداً في أوروبا وأمكِنة أخرى ركزوا طاقاتهم على قضايا أخرى نراهم الآن يدفعون الثمن. فبعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر بخمس سنوات، نجد أن أوروبا - ولاسيما المملكة المتحدة - لا الولايات المتحدة، هي التي تواجه التحدي الأكبر المتمثل بالإرهاب.

إن عولمة فكرة الجهاد كانت من إنجازات بن لادن. إنها فكرة احتضان جماعات كانت من قبل محصورة بصراعاتها المحلية الخاصة - في الجزائر، آسيا الوسطى، بلاد الشيشان، وأمكنة أخرى - وإقناعها بأنها أطراف في عملية نضالية أوسع. إنه نضال ضد 'العدو البعيد' المتمثل بالولايات المتحدة، الداعم للحكومات التي تعارضها. إنه نضال تعين خَوْضُه تحت راية القاعدة. في شباط/فبراير 1998 أطلق بن لادن تصريحاً أعلن فيه تشكيل الجبهة الإسلامية العالمية للجهاد ضد اليهود والصليبيين. وقد أصدر فتوى تقول إن قتل الأمريكيين وحلفاءهم - مدنيين وعسكريين - واجب فردي على كل مسلم يستطيعه في أي بلد يوفر فرصة القيام بذلك.' وبُعَيْد ذلك، في آب/أغسطس 1998 كانت أولى عمليات القاعدة الناجحة الكبرى ضد الولايات المتحدة التي ضربت سفارتيها في كل من تنزانيا وكينيا.

تنتهي قصة الناصري مع انتقاله إلى ألمانيا، حيث انهارت علاقته مع الأجهزة الأمنية الألمانية. إنها - الأجهزة الأمنية - قد تخلت عنه، حسب رأيه، إذ امتنعت عن توفير الحماية والهوية الجديدة كما كان الفرنسيون قد وعدوه أساساً. حاول إعادة الاتصال مع عدد من الرسميين بعد هجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر، غير أنه صُد. وبعد نحو أربعة أعوام، فيما كان يتابع

التفجيرات بلندن يوم 7 تموز/يوليو 2005، قرر أنه راغب في أن يروي قصته. قاده ذلك إلى مراجعة هيئة الإذاعة البريطانية، البي بي سي BBC، كما إلى تسجيل روايته الخاصة لقصة سنواته السبع التي أمضاها عاكفاً على التسلل، جاسوساً، إلى قلب حركة جهادية متعاظمة.

غوردون كوريرا

لندن، أيلول/سبتمبر 2006



توطئة

سمعت عن هجمات 9/11 عبر الراديو. كنت في سيارتي، ذاهباً لنقل زوجي من عملها إلى البيت. كان المراسلون قد قدّروا أن طائرة كانت قد صَدَمَتْ البرج الأول مصادفة. ركبت زوجي السيارة. هي أيضاً اعتقدت أن الاصطدام لم يكن إلا حادثاً عَرَضياً.

أما أنا فكنت أعلم أن تلك لم تكن حادثة عَرَضية. أدركتُ الأمر حتى قبل اصطدام الطائرة الثانية. وكنت أعرف الفاعل. بعد وصولنا إلى البيت فتحت التلفزيون على السي ان ان (CNN). البرجان، كلاهما، كانا يحترقان الآن، والناس في الشوارع كانوا يزعقون.

فعلتُ الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع أن أفعله: رفعت سماعة الهاتف للاتصال بزبوني في جهاز الاستخبارات الألماني. لم أكن قد تحدثتُ معه منذ سنة ونصف، وكنت أكرهه. غير أن ألوفاً من البشر كانوا يموتون، ولم يكن أمامي خيار آخر.

رد على الفور. حين كشفت عن هوية الفاعل، بدا مستغرباً. قلت: 'اتصلت عارضاً مساعدتي'.

'أنت تعرف من فعل هذا؟ هل أنت على معرفة بأي من المختطفين؟'

'لا. غير أنني أعرف الجهة التي تقف وراء هذه العملية. أعرف لماذا اقترفوا هذه الفعِلة. أعرف هوية هؤلاء الناس كما أعرف أسلوب تفكيرهم'.

كنت أعرف هذه الأشياء لأنني كنت أعرف القاعدة. في بلجيكا كنت قد عشت مع أعضاء من القاعدة لسنوات، على الرغم من أنهم لم يكونوا، بعد، ينضوون تحت هذا العنوان. اشتريت بنادق لهم، شحنوها إلى سائر أرجاء العالم. نقلتُ متفجراتهم إلى قلب أفريقيا، حيث استُخدمت في الحرب الأهلية الجزائرية. وزّعتُ رسائلهم الإخبارية. كنتُ أعرف قياداتهم العليا في أوروبا. أحدهم تولى تنظيم تفجيرات المترو الدامية في باريس عام 1995. آخرون كانوا على علاقة بعملية اختطاف كارثية قاتلة. هؤلاء الرجال كانوا يعيشون في بيتي.

فيما بعد، ذهبت إلى أفغانستان، حيث أكلتُ ونمتُ وصلّيتُ مع القاعدة في معسكرات التدريب. حرصت على توثيق علاقتي بها قدر ما استطعت. تقاسمت مع أفرادها غضبهم وألمهم؛ شاركتهم ببنادقي وعَرَقي. خاطرت بدمي من أجلهم، بل خاطرت بحياتي خدمة لهم أكثر من مرة. كانوا أشقائي، وكنت مستعداً أن أعطيهم أي شيء أملكه بفرح.

معهم أصبحت مجاهداً، مُتْقناً فنون التعامل مع جميع صنوف الأسلحة على كوكب الأرض، من بواريد الكلاشنكوف إلى الصواريخ المضادة للطائرات. تعلمتُ قيادة الدبابة وأسلوب نَسْفها. تعلمتُ كيف أزرع حقل ألغام. وكيف ألقي قنبلة يدوية لإحداث أكبر قدر ممكن من الخراب. تعلمتُ فن القتال في المدن وأساليب تنفيذ الاغتيالات وعمليات الاختطاف إضافةً إلى كيفية مقاومة التعذيب. تعلمتُ كيف أصنع قنابل قاتلة حتى من أبسط العناصر والمواد مثل البُن والفازلين. تعلمتُ كيف أقتل إنساناً بيدي.

تعلمتُ عن المدافع والقرآن والسياسة العالمية من ابن الشيخ الليبي الذي كان يتولى إدارة معسكرات التدريب العائدة لأسامة بن لادن، والذي كان، لاحقاً، سيكذب على وكالة الاستخبارات المركزية حول وجود علاقات بين بن لادن وصدام حسين. التقيت أبا خبب المصري، كبير خبراء بن لادن في موضوع

المتفجرات، الذي حاول تجنيدي لتفجير إحدى السفارات. التقيت أبا زبيدة، كبير مجنِّدي القاعدة، الذي أعادني إلى أوروبا للعمل عنصراً في خلية جهادية نائمة، مع تقديم الخبرة في موضوع المتفجرات لدى الإعداد للهجمات.

غير أن أحداً من هؤلاء لم يكن يعرف الحقيقة: حقيقة أنني كنت قد انقلبتُ عليهم وأصبحت ضد قتلهم للأبرياء. حقيقة أنني كنتُ جاسوساً. حقيقة أنني تسللت إلى معسكراتهم عميلاً لجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس اي DGSE). كنت لا أزال أعمل لدى هذا الجهاز ومن بعده مع جهاز (الام آي 5) (MI5) البريطاني بعد عودتي من أفغانستان إلى أوروبا، رغم أن أبا زبيدة بقي مقتنعاً بأنني كنت أعمل عنده. لصالح جهازي الاستخبارات الفرنسي والبريطاني توغلت في المسجدين اللندنيين المتطرفين لكل من أبي قتادة وأبي حمزة. وخدمة لأبي زبيدة، نقلتُ الرسائل بل وأرسلتُ المبالغ النقدية إلى الباكستان دعماً للجهاد. وهي مبالغ كان ضباط الاستخبارات البريطانية يزودونني بها.

خلال مسيرة رحلتي قابلت المئات ممن هم صور طبق الأصل عن مختطفي الطائرات في 9/11. كانوا رجالاً بلا أوطان؛ رجالاً لُعنوا في الغرب لأنهم ليسوا بيضاً وليسوا مسيحيين، ولُعنوا في أوطانهم لأنهم لم يعودوا يشبهون المسلمين من حيث الملبس وأسلوب الكلام. غيظهم المشترك كان ملاذهم الوحيد، الشيء الوحيد الذي كان يربطهم بعقيدتهم، بأُسَرهم، بالأرض.

أفهم هذا كله لأنني كنت واحداً من هؤلاء الرجال.

'هل تعرف من قام بهذه الفِعْلة؟ هل تعرف أياً من المختطفين؟'

'لا. غير أنني أعرف الجهة الكامنة وراء العملية. أعرف لماذا أقدموا عليها. أعرف هوية هؤلاء الناس، وأعرف نمط تفكيرهم.' أخذتُ نفساً، ثم تابعت: 'أريد أن أساعد.'

كانت فترة صمت قصيرة على الطرف الآخر من الخط، ثم جملة يتيمة: 'سنعاود الاتصال بك إذا احتجنا إليك.' ثم نقرة. لم أعد أسمع أي شيء بعد ذلك.



المشهد الأول

بروكسل

أبطال المشهد:

- **حكيم:** شقيق عمر الأكبر
- **رشدي:** شقيق عمر الصغير
- **إدوار:** مربي عمر في بلجيكا عن طريق التبني
- **عادل:** شقيق عمر الأصغر
- **نبيل:** شقيق عمر الصغير؛ مقيم في بروكسل مع أم عمر وحكيم
- **أمين:** صديق حكيم؛ ضيف كثير التردد على بيت عمر في بروكسل
- **ياسين:** صديق حكيم؛ أيضاً ضيف كثير التردد على بيت عمر
- **طارق:** صديق حكيم، ياسين، وأمين؛ رئيس تحرير الأنصار
- **كمال:** مترجم الأنصار عند طارق
- **لوران:** تاجر الأسلحة الذي يتعامل معه عمر
- **جيل:** ضابط إدارة جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الي جي اس إي DGSE)؛ زبون عمر
- **جمال:** مرافق عمر إلى إسبانيا
- **تيري:** زبون جيل في الجهاز السري البلجيكي

تسلسل زمني

1979/12/24: يقوم الاتحاد السوفيتي بنشر قواته في أفغانستان، بادئاً الحرب السوفيتية ـ الأفغانية.

1989/2/15: يعلن الاتحاد السوفيتي انسحاب قواته من أفغانستان.

...‏/1992/12: تندلع حرب أهلية في الجزائر بعد قيام الحكومة بإلغاء انتخابات ديمقراطية.

ربيع 1992: تبدأ الحرب في البوسنة والهرسك (ثمة جدل حول التاريخ الدقيق).

1994/12/11: القوات الروسية تتوغل في بلاد الشيشان للحيلولة دون انفصالها عن الاتحاد الروسي.

1994/12/24: اختطاف طائرة الرحلة الجوية رقم 8969 للخطوط الجوية الفرنسية في مطار الجزائر العاصمة.

1994/12/26: عملية الاختطاف تنتهي باقتحام وحدة فدائيي نخبة الدرك الفرنسي المتخصصة بمكافحة الإرهاب للطائرة على مدرج مطار مارسيليا.

1995/1/30: سيارة مفخخة تنفجر خارج مخفر للبوليس بمدينة الجزائر، وتقتل 42 شخصاً كما تجرح 286 شخصاً.

1995/3/2: تنفذ الشرطة البلجيكية سلسلة من عمليات المداهمة في أرجاء البلاد بهدف تفكيك إحدى شبكات الجماعة الإسلامية المسلحة في أوروبا.



0
250
500
750
1000 km
0
250
500 mi
FINLAND
ESTONIA
RUSSIAN
FEDERATION
LATVIA
LITHUANIA
RUSS.
FED.
BELARUS
KAZAKHSTAN
UZBEKISTAN
UKRAINE
REP. OF
MOLDOVA
ROMANIA
Crimea
Black Sea
GEORGIA
AZERBAIJAN
ARMENIA
TURKMENISTAN
BULGARIA
Bosporus
Istanbul
TURKEY
GREECE
IRAN
SYRIA
Crete
IRAQ
CYPRUS
LEBANON
ISRAEL
JORDAN
Sea
SAUDI
ARABIA
EGYPT



ICELAND
NORWAY
Faroe Is.
SWEDEN
Shetland Is.
IRELAND
UNITED KINGDOM
DENMARK
Stansted
London
NETHERLANDS
Berlin
Eisenhüttenstadt
POLAND
Brussels
GERMANY
ATLANTIC OCEAN
Cologne
Oberhausen
BELGIUM
Frankfurt
LUX.
Paris
CZECH REP.
FRANCE
LIECHTENSTEIN
SWITZERLAND
AUSTRIA
HUNGARY
SLOVENIA
CROATIA
SAN MARINO
BOSNIA AND HERZEGOVINA
Marseille
PORTUGAL
SPAIN
Madrid
Corsica
ITALY
Balearic Is.
Sardinia
ALBANIA
Algeciras
Mediterranean
Tangiers
Ceuta
Algiers
Sicily
Casablanca
MALTA
MOROCCO
ALGERIA
TUNISIA
LIBYA

عمر

اسمي: عمر الناصري. أنا مغربي. وُلدت في 1967. أنا مسلم.

آسف أنا جداً. جُل هذا الكلام غير صحيح.

اسمي ليس عمر الناصري، أو، أقله، ليس هو الاسم الذي أعطاني إياه أبواي. إنه الاسم الذي أستخدمه لتأليف هذا الكتاب، إلا أنه ليس إلا واحداً من قائمة طويلة من الأسماء التي استخدمتها خلال مسيرتي الحياتية. أو ربما يتعين علي أن أقول مسيراتي الحياتية أو حيواتي. ابناً، أخاً، طالباً، تاجر سلاح، مجاهداً، عميلاً سرياً، مدنياً، زوجاً، ومؤلفاً آخر المطاف.

لم أولد في 1967. لابد لي من حماية هويتي لأن أفراداً من عائلتي مازالوا يعيشون في المغرب، ومن شأن حيواتهم أن تتعرض للخطر إذا ما عُرف اسمي. إلا أن ما أقوله يبقى على درجةٍ كافية من القرب من الواقع على أي حال. فقد وُلدتُ في ستينيات القرن العشرين.

أنا مغربي، غير أن الأمر معقد أيضاً. أبواي مغربيان، بالطبع، وقد أمضيت عدداً غير قليل من سني حياتي هناك. أنا مغرم بالمناظر والناس وابتسامات الأطفال البيضاء العريضة، وروائح الأطعمة. أنا أعشق النساء في أثوابهن الحريرية الزاهية من اللونين الوردي والأخضر. المغرب في قلبي. مع أنني سافرت إلى جميع أصقاع الدنيا، فإن المغرب يبقى البلد الأجمل في العالم بالنسبة إلي. أموت شوقاً إليه، غير أنني أعلم أنني لن أستطيع العودة أبداً.

إذا كان قلبي في المغرب فإن عقلي في أوروبا، حيث تعلمت، حيث نشأت وترعرعت، حيث قضيت الجزء الأكبر من حياتي. أنا أقرأ اللوموند، الكتب المستوردة من أمريكا وإنجلترا. الغرب هو الذي شكّل عقلي، بأنماط تفكيره، بنزعته الفردية المتوثبة، المتغطرسة، المثيرة للدهشة.

ولأنني عربي من ناحية وأوروبي من ناحية أخرى في الوقت نفسه، فأنا بلا وطن. حين عدت مراهقاً إلى المغرب، كانت لغتي العربية ضعيفة وسخر الصبية الآخرون مني بوصفي أوروبياً أو أجنبياً. وحين زرت المغرب، قبل ما يزيد على عقد من السنين، تصرفت كما لو كنت غريباً، زائراً جاء من الخارج. تناولت شراب الوسكي على ظهر العبارة ودخنت السيجار وعاكست البنات. غير أنني لست 'صاحب بيت' في أوربا هي الأخرى. لقد عشت في ألمانيا لمدة ست سنوات مع زوجي، وشغلت عدداً كبيراً من الوظائف، غير أنني لست مواطناً. أنا مصنف بوصفي لاجئاً ويتم التعامل معي مثل أي 'عامل ضيف' عربي آخر.

ثمة، إذن، شيء واحد فقط صحيح مئة بالمئة: أنا مسلم.

داني التيس

انتهت حياتي حين بلغت الثامنة من العمر. كنت في غرفة النوم، جالساً إلى الطاولة مشغولاً ببناء أنموذج طائرة. أكبر إخوتي، حكيم، كان يتصارع فوق فراش السرير مع رشدي، أحد أشقائي الأصغر. تضايقت لأنني لم أكن أستطيع التركيز، أخذت فترة استراحة وذهبت إلى الحمام طلباً لنكاشة أذن. حين عدت إلى الغرفة كانا لا يزالان يتصارعان، وأنا جلست على الأرض ورحت أنظف أذني. بعد ثوانٍ قليلة تدحرج أخواي عن السرير وسقطا فوقي.

شعرت بالنكاشة المخترقة لطبلة أذني، وألم بالغ الحدة عمّ جَسَدي. كدت أغيب عن الوعي، غير أنني كنت لا أزال قادراً على سماع زعيقي ونواحي. حين انسحب أخواي من فوقي، وجدتني غارقاً في بحر من الدم. كان الدم يحيط بي من كل الجهات.

كان من شأن تلك أن تبقى مجرد حادثة صغيرة ناجمة عن لعب الصبية الخشن. غير أنها كانت أكبر من ذلك بكثير. إنها غَيَّرَتْ حياتي إلى الأبد،

وحرمتني من الشيء الوحيد الذي كنت أعده مهماً. لم أتعاف تماماً على الإطلاق.

ولكن، اسمحوا لي أن أبدأ من البداية الأولى. وُلدت في عائلة كبيرة - ستة بنين وثلاث بنات. وأنا الثاني بين الأبناء من حيث العمر.

كنت مفعماً حيويةً وأنا طفل، ربما حيوياً أكثر مما ينبغي أحياناً. كنت أرد على أبوي، ومثل جميع الصبية كنت أتشاجر مع إخوتي. ولاسيما مع حكيم الذي كان أكبر سناً وأضخم جسداً. كان هو يحاول أن يلزمني حدودي، أما أنا فكنت أتصدى وأقاوم على الدوام.

كنت مؤذياً وأدس أنفي في كل شيء. كنت مولعاً بسرقة الزيدة من البراد - كنت مغرماً بمذاق الزبدة - ثم أتسلق شجرة وآكلها. ذات يوم أكثرت من تناول الزبدة إلى درجة أوصلتني إلى المستشفى، وأجبرتني أمي على أن أقطع وعداً بعدم تكرار ذلك مرة أخرى. غير أنني لم أتوقف بالطبع، وحين اكتشفَتْ أمي ذلك كانت شديدة الغضب حتى أنها عاقبتني بكَيِّ يدي بملعقة محمّاة. حتى ذلك لم يوقفْني طويلاً.

كنت في الثالثة حين انتقل أبي إلى بلجيكا. وجد عملاً في بروكسل فتركنا جميعاً في المغرب مع أمي. بعد عامين لحقنا به. بعيد وصولنا أخذتنا أمي جميعاً إلى الطبيب للمعاينة. الرعاية الطبية في المغرب باهظة جداً. لذا فإننا لم نكن نزور الطبيب إلا في الحالات الطارئة. أما في بلجيكا فإن الرعاية الطبية مجانية مما دفعنا إلى مراجعة الطبيب فوراً. وإذ ذاك علمت أنني مصاب بداء السل.

وبسبب السل مُنعت من العيش في المدينة مع عائلتي. بدلاً من ذلك، تم إرسالي إلى مصح في الريف، على مسافة نحو سبعين كيلومتراً خارج بروكسل. بين عشية وضحاها وجدتني، أنا ابن أفريقيا الشمالية المشبع بالتراث القرآني،

في مدرسة كاثوليكية عائدة للراهبات اللواتي كن، جميعاً من الأوروبيين البيض. وكنت أنا العربي الوحيد.

كان واضحاً لي ولجميع الآخرين أنني كنت مختلفاً. لم يكن أحد فظاً معي على أي حال؛ الأطفال الآخرون كانوا يلعبون معي وأنا ألعب معهم. كانوا يستفزّونني قليلاً أحياناً، كما يفعل الأطفال عادةً، غير أنني كنت أرد لهم الصّاعَ اثنين. لم أكن استثنائياً متميزاً.

غير أن الأمر كان مختلفاً أيام الأحد. كنا جميعاً نذهب إلى الكنيسة سوية، وكانت القداديس تبدو لي استثنائية الغرابة. الصلوات، المناولة، البخّور؛ كان الوضع مختلفاً عن أوضاع الجوامع التي كنت أتردد عليها في الصيف أو لدى ذهابي إلى البيت أيام العطل. ثمة كانت موسيقا، ثمة رجل كان يعزف على الغيتار. في الإسلام ليس هناك أي موسيقا في بيت الرب؛ كنت قد نشأت وأنا أعد ذلك إثماً عظيماً. إجمالاً بدا لي الأمر مضحكاً، وأحياناً كنت أضحك علناً. أعتقد أن هذا كان يؤدي إلى إغاظة الأطفال الآخرين وإثارة أعصابهم.

لم أكن أرى أهلي كثيراً خلال هذه الأعوام. في أشهر الصيف كنا جميعاً نذهب إلى المغرب، وبين الحين والآخر كنت أعود إلى بروكسل لأراهم في أحد أيام العطل الأسبوعية أو الأعياد. وأحياناً - ربما نادراً، مرتين أو ثلاث مرات في السنة - كان أبواي يزورانني ويبقيان معي ساعة أو اثنتين. إلا أن حياتي الحقيقية كانت في المصح.

تلك هي الفترة التي عشقت فيها الطائرات. كان لأبي صديق يعمل في قطاع صناعة الطائرات، وكان أحياناً يحدثني عن الطائرات ويطلب مني بناء نماذج طائرات. لدى قيامي بزيارة أهلي في بروكسل كنت أُكثِر من زيارة المتحف الحربي في حديقة سانكانتينير. ثمة كانت صالة كبيرة ملأى بالطائرات الموروثة عن الحرب العالمية الثانية، وكنت أمضي ساعات طويلة وأنا أستوعب كل تفاصيلها.

كنت استثنائي الفضول؛ لدى طيراننا في الرحلات بين المغرب وبلجيكا كنت دائماً أهرب إلى قمرة القيادة وأطلب من الطيارين إطلاعي على المعدات والأجهزة.

إجمالاً، اطلعت على معظم الأشياء المتعلقة بالطائرات من داني التيس الذي كان بطل أحد المسلسلات الكوميدية البلجيكية، وقد قرأت جميع كتب مسلسل داني التيس من الغلاف إلى الغلاف. فالتيس العملاق، الرياضي، الوسيم والأشقر كان طياراً شجاعاً قاتل دفاعاً عن أمريكا ونفّذ جميع أنواع الطلعات الخطرة مع صديقيه جري البرميل وتاكسون الصغير. كانت القصص الهزلية شديدة الواقعية؛ تعلمت أسماء جميع الطائرات والكثير من المعلومات عن كيفية التحليق بها. قرأت جميع الكتب وأعدت قراءتها، وكنت في الليل أحلم بأن أغدو طياراً مقاتلاً مثل داني التيس. كنت راغباً في ذلك أكثر من أي شيء آخر.

في تلك الفترة تعرضَتْ طبلةُ أذني للثقب. حاول الأطباء في بلجيكا إصلاحها وترميمها ـ أُجريت لي سلسلة عمليات جراحية ـ ولكنهم بقوا عاجزين عن أن يفعلوا شيئاً. مازالت أذني اليسرى صماء مئة بالمئة تقريباً. أدركت استحالة التحاقي بالجيش، استحالة قيادتي لأي طائرة. لم يبق شيء أعيش من أجله. كنت قد فقدت كل شيء ينطوي على أهمية.

ما من صبي إلا ولديه حلم ـ أن يصبح إطفائياً، رائد فضاء، رئيساً للجمهورية، أو شيئاً غريباً غير مألوف. من الطبيعي أن معظم الأطفال لا يحققون أحلام الطفولة، غير أن ذلك ليس هو المهم. فمع نمو الصبي وتحوله إلى رجل يتحرر من الحلم على الرغم من أن الأخير يبقى بوصفه حنيناً ماضوياً. أما إذا تعرض حلمه للتدمير في سن مبكرة جداً، فإن الصبي إما أن يتدمر كلياً مع حلمه، أو أن يصبح قوياً. لعله يصبح قوياً لأنه لا يعود متوفراً على أي شيء يمكن أن يخسره. لعله يُقْلِع عن المراهنة على المستقبل.

أيُّ طفلٍ بلا حُلُم يكون خطراً.

إدوار

'مرحباً، اسمي تاكسون الصغير. أنا صديق داني التيس.'

كان ذلك أواخر فصل الربيع، وكنت أنتقل من مهجعي في المصح. كنت في العاشرة من العمر، وقد آن لي أن أذهب إلى مدرسة جديدة. كنت سأبقى في البلدة نفسها، ولكن مع أبوين بالتبني.

كنت أعرف هذا، غير أن شيئاً لم يكن بعد قد هيأني للقاء إدوار. كنت واقفاً أمام المهجع حين جاء مستقلاً سيارته الفولفو الصفراء. قفز من السيارة وتوجه نحوي. كان رجلاً ضخماً، طويل القامة رياضياً. كان له أنف حاد، أنف فرنسي مئة بالمئة، وشعر أسود بدأ يشيب. التقط حقيبتي ووضعها في مؤخرة السيارة، وقدم لي نفسه على أنه تاكسون الصغير. لن أنسى تلك اللحظة أبداً. بالطبع أُدْرك الآن أنه كان قد اطلع على ملفاتي وعرف أنني كنت مُغْرَماً بداني التيس والطائرات. أما في ذلك الوقت فقد بدا الأمر كما لو كان سحراً: ثمة كهل ناضج كان جزءاً من عالمي. كنت مسحوراً.

عشت مع إدوار مدة خمس سنوات في إحدى القلاع الكائنة في الريف. كان في الأربعين من العمر تقريباً ويعيش في مزرعة قديمة فضفاضة مع أبوين وأخ. كانوا سويسريين. علمت فيما بعد أن إدوار كان موظفاً مدنياً لسنوات عديدة إلا أنه كان قد ترك العمل وصار يأخذ أموالاً من الدولة ثمناً لتربية أولاد يتبناهم ويساعدهم في المدرسة. كان ثمة نحو خمسة وعشرين منا دفعة واحدة في أي وقت في ذلك البيت الريفي.

كان إدوار بالغ الدقة، شاعراً بالأشياء بعمقٍ استثنائي. كان شديد الحرص على تمكيننا جميعاً من النجاح، ولدى إخفاقنا كان يتألم أكثر منا. كان على الدوام صادقاً جداً، وقد علّمنا كيف نتحلى، نحن أيضاً، بالصدق والأمانة.

مع تقدمي في السن، صرت أُمضي وقتاً أطول فأطول وحدي. لدى انتقالي إلى بيت إدوار لم أكن أكثر من اللعب مع الأطفال الآخرين. كنت أحب أن أقوم بالأشياء وحدي. تعلمت العزف على البيانو، وأمضيت كثيراً من الوقت وأنا أسبح في البركة الكائنة خلف القلعة. كنت مغرماً بالسباحة ـ كنت أشعر بالحرية في الماء. كان جسمي خفيفاً وبدوت قادراً على أن أفعل به أي شيء. كنت أستطيع التقلب والغوص والتحرك في جميع الاتجاهات. لم يكن ثمة ما يمكن أن يوقفني.

كذلك أمضيت كثيراً من الوقت وأنا أتابع البرامج التلفزيونية. كان ثمة جهاز تلفزيون في الصالون، وبعد الدروس كنت أجلس أمام جهاز التلفزيون وحدي ساعات طويلة. شاهدت عدداً كبيراً جداً، جداً من الأفلام. مئات الأفلام عن الحرب العالمية الثانية: تورا! تورا! تورا!، معركة منتصف الطريق، ثلاثون ثانية فوق طوكيو. كانت هذه الأفلام تجمِّدني في مكاني. وعلى الرغم من يقيني باستحالة صيرورتي طياراً ـ أو ربما لمعرفتي بالحقيقة ـ فإن هذه الأفلام كانت استثنائية الجاذبية بالنسبة إلي. كنت أتصور نفسي طياراً أمريكياً مقاتلاً محلِّقاً فوق المحيط الهادي؛ كان خيالي شديد الخصوبة إلى درجة أنني كنت أحس في جسدي بأنني واحد من الطيارين المحلِّقين بطائراتهم فوق الأمواج.

كنت أكره الألمان واليابانيين لأنهم كانوا أعدائي. شاهدت مئات الأفلام الروائية والوثائقية عن معسكرات الاعتقال. بدت لي رهيبة ومرعبة. ثمة صورة هتلر، الأجساد الهزيلة وأكوام الجثث كانت شراً خالصاً.

أما اليابانيون فكانوا مختلفين. كنت مبهوراً بانتحاريي الكاميكاز، بصور هؤلاء وهم ينقضّون على حاملات الطائرات الأمريكية التي كانت تتحول إلى كتل نارية ملتهبة. صحيح أنهم كانوا من الأعداء، بالطبع، غير أنني كنت أيضاً معجباً بهم ومتفهماً لهم. ففي مواجهة عدو أقوى بكثير، أقدموا على فعل الشيء الوحيد الذي كان يمكن فعله لإنقاذ وطنهم وشرفهم.

كذلك كنت مولعاً بالخيال العلمي. عشقت حرب العوالم وبقيت مدمناً على رحلة إلى النجوم. لم نكن نملك جهاز تلفزيون في البيت في بروكسل مما كان يدفعني حين أكون هناك أيام العطل والأعياد إلى الخروج ليلاً لمتابعة رحلة النجوم على شاشات تلفزيونات محلات بيع الأجهزة الإلكترونية.

في وقت مبكر، تصورت نفسي مخلوقاً قادماً من كواكب أخرى. أحياناً كنت أسمع طنيناً في أذني وأتصوره رسالة آتية من الفضاء الخارجي. كثيراً ما كنت، فيما كان الصبية الآخرون مشغولين بكرة القدم، أمشي إلى أحد الملاعب، حيث أرفع يدي في الهواء وأغمض عيني وأتخيل قوة هائلة تمتصُّني وتنقلني إلى قلب الفضاء.

ربما مَيَّزَني إدوار لأنني كنت متميزاً. كان بالغ اللطف معي، وكثيراً ما كان يأتي ليجلس بجانبي حين يلاحظ أنني كنت وحدي. كنت أنبهر بسائر أنواع الموضوعات العلمية وأقضي ساعات طويلة وأنا أصغي إلى كلامه عن النجوم والطاقة والقوة النووية. كنت مغرماً به؛ كان إدوار الرجل الأول الذي اهتم بي، الذي حاول أن يعلمني أشياء معينة. وأنا كنت راغباً في التعلم لأن ذلك كان يسعده كما كنت أرى.

غير أنني كنت شديد الرغبة في التعلم عن البنادق أكثر من أي أشياء أخرى. منذ اليوم الذي وصلت فيه إلى المكان، علمت أن هناك أسلحة في القلعة. كنت أسمع أصوات إطلاق نار في الليل. كان ثمة قاعة رمي في القبو الذي لم يكن كاتماً للصوت.

ذات عصر وجدني إدوار وحيداً وطلب مني أن أتبعه. أخذني إلى القبو. كان المشهد مذهلاً. كان يملك جميع أنواع البنادق والمسدسات التي يمكن للمرء أن يتخيلها. ثمة كانت أعداد من المسدسات، البنادق، البواريد، كل الأسلحة. طاف

بي على الأسلحة ولقّنني اسم كل منها، مفسراً غرضه: ماغنوم 44، سميث آند وَسُّون 45، بارودة 22، مارلن 44، وإلخ.... وقعت في حبها مباشرة.

خلال الأشهر، ومن ثم الأعوام، التالية، كان إدوار سيعلّمني أسلوب استخدام كل من هذه الأسلحة. صحيح أنه كان يعلّم صبية آخرين أيضاً، غير أنني كنت أكثر منهم اهتماماً فأصبح الأمر شيئاً يخصنا نحن الاثنين إدوار وأنا معاً. كان سيصطحبني إلى القبو أو إلى أحد الحقول في الهواء الطلق للتدرب على الرمي وإصابة الأهداف. أحياناً كانت الأسلحة ضخمة إلى درجةٍ أنها كانت تبطحني أرضاً بعَزْمِ ارتدادها، فيضحك إدوار. كنت مغرماً بالانضباط الذي يرافق التعامل مع الأسلحة. كنت سعيداً جداً بتحسن أدائي المطرد كل الوقت. وكان الفرح يغمرني لدى قيام إدوار بكيل المديح لي.

كذلك تعلَّمت فن تصنيع الطلقات خلال وجودي معه. فالذخائر باهظة الثمن وكنا نستخدم كميات كبيرة منها. وبالتالي فإننا كنا نجمع الأغلفة الفارغة بعد كل حفلة رمي لاستعمالها مرة أخرى. كنا نحرر أيَّ نتفٍ من الرصاص من أي شيء نعثر عليه - أغطية المداخن، أنابيب التمديدات في البيوت القديمة. علمني إدوار كيف أذيب الرصاص وأصنع منه قذائف طلقات جديدة، وكيف أملأ الفوارغ بالبارود. إن تصنيع طلقة ليس سهلاً؛ إنه فن بالغ الدقة. إذا حشوت الغلاف بكمية أكثر مما ينبغي من البارود، فإن الطلقة قد تنفجر داخل البندقية فتنفجر في وجهك. تعلَّمت كيف أتحلى بقدرٍ كبير من الحرص والحذر.

مع مرور الزمن أدركت أن إدوار كان يستخدم البنادق لتعليمي الانضباط. كنت ولداً عنيداً، مستقلاً جداً. ولم أكن مهتماً بالمدرسة. غير أن إدوار لم يكن يسمح لي باستخدام البنادق ما لم أنجز وظائفي البيتية مما جعلني أبقى عاكفاً على كتابة وظائفي أكثر الليالي. بدأت أغدو طالباً أفضل، وراح إدوار يغرقني بالمديح لذلك أيضاً.

إلا أنني لم أكن ملاكاً. ما إن أصبحت أكبر سناً، في الخامسة عشرة من العمر، حتى اشتبكتُ في شجار رهيب مع إدوار. أردت أن أكون معه في السهرة مطلقاً النار وصانعاً للخرطوش. سألني عما إذا كنت قد أتممت وظائفي المنزلية وأفدته بأنني كنت قد فعلت. أمضيت الليل كله في القبو مع الرشاشات والمسدسات. غير أنني كنت قد كذبت بشأن وظيفتي، الأمر الذي اكتشفه إدوار في اليوم التالي. كان شديد الغضب مني. صرخ بأعلى صوته:

- 'لماذا كذبتَ عليّ؟ أنت تتوهم أنك ستنجو بكذبتك؛ أليس كذلك؟'

بدأ وجهه يحمر. لم يكن قد سبق لي أن رأيته هكذا. راح يعنّفني بصوت مرتفع، وكانت ثمة نظرة سخط خالص في عينيه واستياء شديد في تعابير وجهه.

- 'أنت متوفر على كل شيء. أنت ذكي، تستطيع أن تفعل كل ما أنت راغب في فعله في هذا العالم غير انك تفضّل، بدلاً من ذلك، أن تكذب علي أنا. أنت عديم الضمير والوجدان.'

ثم، وقبل أن يدير ظهره أطلق عبارة لم أنسها قط: 'لا أعتقد أنك ستصبح شيئاً، أي شيء، على الإطلاق.'

بقيت في منزل الرعاية بضعة أشهر أخرى بعد الشجار، غير أن ذلك كان الحوار الحقيقي الأخير الذي كان لي مع إدوار. كانت ثمة قطيعة، حالة جمود بيننا.

'لا أعتقد أنك ستصبح شيئاً، أي شيء، على الإطلاق.'

على امتداد سنوات طويلة بعد ذلك كنت سأظل أسمع أصداء كلمات إدوار - وهي الجامعة بين الإهانة من جهة والتحدي من جهةٍ ثانية - مترددة في رأسي. في البداية قررت أنه كان على صواب. لاحقاً، كنت سأبذل كل ما استطعته من جهد لأثبت أنه كان على خطأ.

المغرب

حين بلغت الخامسة عشرة عدت إلى طنجة مع أهلي. مشكلاتي الصحية كانت قد انتهت، وكان أبي قد توقف عن العمل في بروكسل. في البدء ظننت أن العودة كان من شأنها أن تكون عودة رائعة إلى مسقط الرأس. لم أكن قد شعرت بأنني في وطني وأنا في بلجيكا على الإطلاق، مما أبقاني تواقاً إلى وطني الحقيقي: المغرب.

كلما طال بُعدي عن المغرب زاد جمالاً وبهاءً. بات يحدد هويتي. كلما زادت سنوات عمري باتت الأشياء التي تشعرني بأنني مختلف في بلجيكا مصدر اعتزازي. كنت عربياً، مسلماً. كنت أفضَلَ من هؤلاء الأوروبيين البيض.

أما بعد أن عدت أخيراً إلى المغرب فسرعان ما أدركت أن الأخير لم يعد وطناً لي من أي نوع. شعرت بالغُربة هنا كما في بلجيكا. وعلى نحوٍ شبه حصري بقيت لا أتكلم سوى اللغة الفرنسية منذ أن كنت في الخامسة من العمر، ولهجتي ومفرداتي القديمة كانت أكثر تشذيباً من نظيراتها لدى معظم الصبية المغاربة. كان هؤلاء يسخرون من كل شيء: ملابسي، بل وحتى الرائحة التي تفوح مني. كانت أمي قد بدأت تستعمل بعض المواد المطرِّية للجلد في بلجيكا، وهي مواد لم يسمع بها أحد في المغرب. كان الصبية يقولون إن رائحة كرائحة الكفار كانت تفوح مني كما لو كنت مسيحياً.

أحسست بأنني أصبحت أقسى. البلد الذي كنت أحبه لم يعد يحبني بالمقابل فتضاءل حُبي له باطّراد. وسرعان ما بدت بلجيكا المكان البعيد الأفضل وصار المغرب يبدو بالغ الضعف، شديد التخلُّف بالمقارنة. صرت أفتقد الحرية الأوروبية، الطريقة التي يستطيع الناس بها أن يتكلموا بصراحة، الأسلوب الذي كان يستطيع به رجل وامرأة أن يكونا معاً دون خوف. الطريقة التي كان الناس يتجادلون بها على المكشوف حول كل شيء.

أما المغرب فكان، بالمقابل فاسداً وقمعياً. الرشاى كانت في كل مكان - عَظْمة لهذا وأخرى لذاك. لم يكن ثمة أي أسلوب آخر لتسيير الأمور. كانت الحكومة غارقة في بحر من الفساد. الرشاى، الوساطات، العمولات وصولاً إلى إقحام البلد في وضع كارثي. لم يكن ثمة أي برامج رعاية اجتماعية يمكن الحديث عنها. الطرق محفَّرة وممزقة أشلاء، اللهم إذا كانت ثمة أي طرق بالمطلق. القطارات والحافلات - كوارث مئة بالمئة. كانت الشرطة حاضرة في كل مكان وكان الجميع يعيشون في خوف. جميع الجدران كانت لها آذان: الجيران يتجسسون على الجيران، وبالتالي لم يكن أحد يتحدث عن أي شيء مهم. بدا كل شيء طَبَقياً: من يملك الثروة وبأي مقدار؟ أي شخص بلا مال كان يَلْقى معاملة النفايات. حَقَدْتُ على ذلك.

كنت قد أصبحت بعيداً عن أهلي أيضاً. حصل الافتراق في أثناء غيابي. كنت اشعر بنتف من الأمر حين كنا نقضي إجازات الصيف في المغرب. والدي الذي كان مغربياً أنموذجياً بدا بطريركاً حقيقياً وكان يعامل أمي معاملة بالغة السوء. كانت له عشيقات كثيرات، غير أنه كان يلتهب غيظاً حين يلاحظ عندها أبسط مؤشرات الاستقلالية. أحياناً كان يضربها، بوحشية غالباً. كان أشقائي وشقيقاتي جميعاً يعرفون هذا، غير أننا لم نكن نناقشه على الإطلاق.

أمي كانت ملاكاً. مرة، وقد كنت في العاشرة، كنا، هي وأنا، نستعرض ألبوم صور. جميع الصور كانت لأهلها، وراحت وهي تُقَلِّبها تزوِّدني بأسماء أصحابها. كان الألبوم زاخراً بعدد كبير من صور الفتيات الجميلات (للتو كنت قد بدأت أنتبه إلى البنات). طلبتُ من أمي أن تحدثني عن كل واحدة، ثم رحت أسأل عما إذا كنت أستطيع الزواج منها بعد أن أكبر. كانت أمي تضحك كل مرة وتقول إن أفراد العائلة لا يستطيعون الزواج من بعضهم البعض.

حين وصلنا إلى آخر الألبوم كانت ثمة صورة فتاة صغيرة استثنائية الجمال غير أن أمي أغلقت الألبوم قبل أن تتاح لي فرصة معاينة الصورة.

شَكَوْتُ قائلاً: "لم تحدثيني عن الأخيرة يا ماما!". اختطفتُ الألبوم من يديها وفتحته من جديد على الصفحة الأخيرة. أشرتُ إلى صورة فتاة في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ذات شعر أسود.

ابتسمت أمي وقالت: "لست بحاجة لأن تعرف عنها. ليست من أقربائك."

طرتُ فرحاً وقلتُ: "إذن أستطيع أن أتزوجها!"

"ربما إذا كنت ناجحاً في المدرسة." ضحكت أمي وبقيت مصرة على عدم ذكر اسم الفتاة.

استقرت الصورة في عقلي وبقيت حيث هي، وبعد سنوات سألت أمي ثانية عن اسم الفتاة. فوجئتْ بالسؤال.

"ألم تتعرف عليها؟"

"لا"

"إنها صورتي أنا كطفلة، أمك ماماك!" ثم ضحكتْ مرة أخرى؛ عيناها التمعتا فرأيتُ فيهما الفتاة التي كنت قد رأيتها في الصورة.

بعد عودتي من بلجيكا ببضعة أشهر، حصل أبي على وظيفة في بلدة سيدي قاسم الواقعة وسط المغرب. أراد أن ننتقل معه جميعاً إلى هناك. فطنجة كانت مدينة مزدحمة، كوزموبوليتية، شبيهة بمدن أوروبا أكثر من أي شيء مغربي آخر. أما بلدة سيدي قاسم فلم تكن سوى بؤرة خلفية في قلب الجزء المتخلف من البلد.

تشاجر أبواي حول الأمر كل الوقت.

ذات يوم، عاد أبي إلى البيت وهو لا يزال غاضباً من الشجار الحاصل في الليلة السابقة. كنتُ في البيت مع أمي وشقيقي الأكبر حكيم حين دخل. مباشرة

بدأ يصرخ معنِّفاً أمي. كنا معتادين على صراخه. غير أن والدي بدأ بعد ذلك يَرْكُلُها، وقعتْ على الأرض.

نظرت إلى أخي لأرى ما إذا كان بوسعنا أن نفعل شيئاً. كنت معتاداً على تلقي الأوامر من حكيم؛ فقد كان أخي الأكبر ولم يكن يسمح لي قط بأن أنسى هذه الحقيقة. كان قوياً، وكنت فخوراً به أخاً لأنه كان حامياً لي ولكل من أشقائي وشقيقاتي. لدى توفره على المال كان يأخذنا إلى السينما ويعطينا عدداً من الفرنكات لننفقها نحن بأنفسنا.

أما الآن فإن حكيماً أصر على التغافل حتى عن نظراتي المتسائلة؛ اكتفي بالنظر إلى الأرض خافضاً رأسه. كان على صواب، بالطبع. بوصفنا مسلمين لم يكن مسموحاً لنا قط بأن نتحدى سلطة والدنا الكلية. غير أن أمي كانت تبكي وتزعق مستغيثة، واستطعت أن أرى أنها كانت في حالة رُعب شديد. لم أستطع أن أطيق المشهد.

كنت الآن أكبر من أبي جسداً ولم يعد يخيفني. تقدمت نحوه وسحبته من فوق أمي. رفعته عن الأرض وحملته إلى خارج البيت وأجلسته على الأرض. حدّقت في عينيه وتمكنت من أن أرى أنه كان شديد الحنق مني أنا، ولكنه كان خائفاً أيضاً. لم أعد مبالياً بما كان يدور في رأسه.

قلتُ له: 'إياك أن تفعل ذلك مرة أخرى'. ثم دخلت الدار وأغلقت الباب ورائي. كانت أمي صامتة. استطعت أن أرى أنها كانت لا تزال في حالة رعب، ولكنها مندهشة أيضاً إزاء ما كنت قد فعلته. نظرت إلى حكيم، غير أنه بقي مُطْرِقاً. ظل مثبِّتاً ناظريه على الأرض.

قام أبي، بالطبع، بإعادة الكَرَّة - مرات كثيرة. إلا أنني لم أكن موجوداً لأكون شاهداً. بعد بضعة أشهر من الشجار، حصلت على وظيفة في أحد قوارب

الركاب ورحت أطوف حول العالم. كنت سعيداً بأن أكون بعيداً ـ عن المغرب، عن أهلي، عن كل شيء.

حين عدت كانت أمي قد رحلت. كانت أخيراً قد طلَّقت أبي وعادت إلى بلجيكا مع بعض إخوتي وأخواتي. غير أن الأمر لم يزعجني كثيراً لأنني كنت قد أصبحت شديد الغربة عن أهلي.

خلال السنوات العشر التالية عشت في المغرب وحدي، أحياناً على أرصفة الشوارع، وأحياناً في الفنادق، تبعاً لتوفري أو عدم توفري على المال. أكثرت من الشراب والدخان والحشيش على نحوٍ يومي؛ أسرفت في الاستماع إلى الموسيقا الجامايكية الصاخبة (الراغاي)؛ وبالغت في النوم مع أعداد كبيرة من الفتيات. لم أفكر بالمستقبل على الإطلاق. اعتمدت شعار: اصرف ما في الجيب دون تردد! ولم أكن أبالي كثيراً حين تبقى جيوبي خاوية.

بداية عملت دليلاً سياحياً، وصرت أوقع السياح في شراك باعة السجاد. كنت فناناً في ذلك. أمضيت وقتاً طويلاً وَحْدي في طفولتي وأنا أراقب الآخرين مما جعلني مؤهلاً لقراءتهم. كنت أستطيع أن أفهم شخصية كاملة من مجرد الوقوف على تفاصيل قليلة: انحناءة الحاجب، حركة اليد، طريقة المشي. كنت أعرف غريزياً كيف أقتنص الأجانب الأكثر هشاشة، أولئك الذين يمكن إخضاعهم للضغط بسهولة. في ثوانٍ قليلة كنت أستطيع أن أقرر ما إذا كنت قادراً على ابتزاز المال من شخص معين أم لا.

السياح الآتون من المغرب طلباً للحشيش كانوا أكثر من الآتين بحثاً عن السجاد، وبالتالي، سرعان ما تحولت إلى احتراف الوساطة بين المنتجين (منتجي الحشيش) في أعالي الجبال والسياح في المدن. خلال فترة قصيرة أصبحت أبرم صفقات بمئات الكيلوغرامات من الحشيش، ليس للسياح وحسب بعد الآن، بل

وللزبائن فيما وراء البحار أيضاً. كانت التجارة دسمة جداً وتلك كانت هي المسألة.

كانت شوارع طنجة ملأى بأفراد الشرطة. لم يكونوا هناك إلا لحماية السياح من المحتالين من أمثالي في المقام الأول. ثمة كان عدد كبير من عناصر الأمن السريين وسرعان ما أتقنت فن الاهتداء إليهم في قلب الحشود. كنت أتابعهم وهم يلقون القبض على شباب في السوق كانوا يعرضون بضائعهم المهربة ـ العطور الرخيصة، الأجهزة الإلكترونية، لوازم التواليت المهربة من أوروبا ـ ناشرينها على البطانيات في الساحة. كنت أعاين تحركات عناصر الشرطة وهم يتسللون خلسة نحوهم من الخلف لإلقاء القبض عليهم. كنت أدرس أسلوب تحركهم. تعلّمت كيف أتعرف على أي شرطي من تعابير الوجوه ـ تلك التعابير الحادة، بالغة الجدية. كنت قادراً على التعرف عليهم غريزياً بعد فترة، مما جعلني أغْدو مؤهلاً لتجنبهم.

كنت سمساراً جيداً وسرعان ما ذاع صيتي. بدأ الناس يقصدونني التماساً للمساعدة في حل المشكلات الصعبة. اثنان من صحفيي جريدة البايس (El Pais) اهتديا إليَّ حين أرادا كتابة مادة عن موضوع تهريب المهاجرين بين طنجة وسَبْتة. كانت تلك مهنة خطرة في المغرب وبالغة السرية. غير أنني ما لبثت أن مكّنْتُهما من الإمساك بضالّتهما، ونجحا في التقاط مئات الصور. فيما بعد صحفي ثالث طلب مني أن أرافقه إلى جامعة فاس في أثناء أعمال الشغب. كانت الحراسة مشددة على الجامعة في ذلك اليوم؛ كانت أعمال الشغب قد أصبحت عنيفة، وبالتالي فإن أحداً لم يكن يدخل. غير أنني استطعت في الليل أن أُدْخِل الصحفي خلسة. أقنعت بعض الطلاب بالتكلم معه، وبقيت معهم الليل كله متولياً مهمة الترجمة.

غير أن أشياء معينة كانت شديدة الخطر حتى بالنسبة إليّ. ذات يوم جاءني ألمانيان درجتُ على بيعهما مادة الحشيش بعرض. أرادا شراء الحشيش بالأسلحة. زوّداني بقائمة شاملة لكل الأسلحة المتوفرة للبيع. لم تكن القائمة قابلة للتصديق. كانا متوفرين على رشاشات الكلاشنكوف، الدبابات، راجمات الصواريخ، الطائرات القتالية. كان هذا أواخر ثمانينيات القرن الماضي مع تعرض الإمبراطورية السوفيتية للانهيار. فالجنرالات السوفييت كانوا يبيعون كل ما بحوزتهم مقابل مبالغ نقدية قبل أن يتم تجريدهم منها. كانت أنهار السلاح تتدفق على أوروبا؛ باتت مختلف أنواع الأسلحة متوفرة لمن يرغب في الحصول عليها.

'هل أنتما مجنونان؟' سألت الألمانيين بعد الاطلاع على القائمة. 'محظوظان أنتما إذْ جئتُما إليّ أنا. أي شخص غيري كان سيبيعكما للبوليس، وكنتما ستمضيان الباقي من حياتيكما هنا في السجن.' لا أحد يتعامل بالأسلحة على ذلك النحو في أي بلد مسلم ولاسيما في المغرب. كان الألمانيان سيغيبان في السجون لو أُلقي القبض عليهما. كانا سيتعرضان للتعذيب، وما كانا سيخرجان أبداً. أحرقت الورقة بسرعة ولم نعد إلى الكلام عن الموضوع مطلقاً.

حكيم

كنت في السادسة والعشرين من عمري عندما قُتل أصغر إخوتي: عادل. أصيب بطلقة في مدرسة ببلجيكا. كانت حادثة عرضية: أحد أصدقائه جلب مسدساً إلى المدرسة وكان الاثنان يلعبان به حين انطلقت الرصاصة التي اخترقت قلب أخي مباشرة فقضى في ثلاث دقائق. كان في الرابعة عشرة من عمره.

كنت في طنجة عند وقوع الحادثة. علمت بها من صديق للعائلة يُدعى جواد كان يعمل في إحدى صيْدَليات البلدة. كنت أمر بمحله كل بضعة أسابيع لأن أمي كانت أحياناً ترسل لي بعض المال برقياً من خلاله وكنت أنا أذهب لاستلام المبلغ

النقدي. في ذلك اليوم، ما إن دخلت حتى تنحى بي أحد المستخدمين جانباً. بدا متجهماً وجدياً. أخذني إلى مكتب جواد. ما إن تجاوزت عتبة الباب حتى بادرني جواد قائلاً إن لديه أخباراً لي وطلب مني أن أجلس.

قال: 'أخوك عادل قضى منذ يومين' وزوّدني بالتفاصيل.

لم أُفاجأ، بل ولم أتضايق. لم يكن الموت يزعجني على الإطلاق. كنت على الدوام مقتنعاً بأن الرب لم يكن يفعل شيئاً إلا لسبب. ومَنْ أكون أنا لأتحدى مشيئته؟ إذا رأيت أحداً يعاني، أتعاطف معه بعمق. ذلك يمزق أحشائي. أما الموت فيعني أن الأمر انتهى. ليس ثمة أي مزيد من المعاناة.

قبل بضع سنوات كان جدي قد توفي. كان يعاني من مرض عضال وكان عدد كبير من أفراد العائلة مجتمعين حوله لحظة رحيله عن هذا العالم. راح الجميع يبكون وينوحون، أما أنا فلم أشعر بشيء. صحيح أنني كنت أحب جدي، ولكنه كان قد كَفّ عن أن يكون لي. بات عائداً إلى الرب، لقد استعاده الله.

بعد بضعة أسابيع صادفْت حيكماً، أكبر إخوتي سناً، في الشارع. لم أكن أتوقع رؤيته، إلا أنه أخبرني بأنه كان قد عاد إلى طنجة لدفن أخينا وبأنه كان سيمكث بعض الوقت. صُعقت تماماً بمنظره. لم أكن قد رأيته منذ ما يزيد على سبع سنوات، وكنت أتذكره رجلاً وسيماً، بالغ الحدة جذّاباً. كان يدخّن، يعاقر الخمر، يحضر الحفلات، مصاحباً للنساء على الدوام.

أما الآن فكان كلُّ شيء مختلفاً. كانت لحيته طويلة وكان يرتدي جلباباً. في حياتي كلها لم يسبق لي أن رأيته في جلباب. وكان ثمة عود سواك بين أسنانه. والمسواك هذا نوع من العيدان المجلوبة من الشرق الأوسط التي أوصى النبي محمد (ص) أتباعه باستخدامها تطهيراً لرائحة الفم قبل الصلاة. واستخدام المسواك مقصور على الأكثر تقوى من المسلمين.

كان حكيم لا يزال قوياً؛ لم يكن قد تغير على هذا الصعيد. مشى باتجاه منزل إحدى أخواتنا، ولدى وصولنا طلب مني أن أتوضأ. سألتُه:

'ولماذا؟'، أجاب:

'لنذهب إلى المسجد ونقيم الصلاة.' رفضتُ قائلاً:

'أنا لن أصلي.' لم أكن قد دخلت مسجداً منذ سنوات، وبدت الفكرة لي مثيرة للسخرية.

رد علي حكيم، قال: 'لقد تُوفي أخوك. علينا أن نقيم صلاتنا.'

أخيراً أذْعَنْتُ، لا إكراماً لروح عادل، بل لأنني بدأت أدرك أن من الممكن أن أكسب شيئاً من هذا. كنتُ قد مَلَلْتُ كثيراً من المغرب؛ أصبحت شديد الكره للحياة التي كنت أعيشها. كنتُ راغباً في العودة إلى بلجيكا. أيقنت أن حكيماً كان قادراً على مساعدتي على الانطلاق هناك، مساعدتي على العثور على عمل. توضّأتُ ورافقته إلى المسجد لأداء الصلاة.

أمضيت تلك الليلة في بيت أختنا، وفي الصباح أبلغني حكيم بأننا كنا ذاهبين إلى الدار البيضاء. لم أرغب في الذهاب إلى هناك. كانت عندي مشاغل أخرى هنا وأبلغته عدم رغبتي في مرافقته إلى الدار البيضاء. اعترض قائلاً بحسم:

'يجب أن ترافقني. لابد لك من أن تغيّر حياتك. أنا أريد مساعدتك.'

أقنعت نفسي بجدوى الأمر ورافقت حكيماً إلى الدار البيضاء. على الطريق سألته عما كنا سنفعله بعد أن نصل إلى هناك.

قال: 'ثمة فريق من الإخوة في الدار البيضاء أريد جمعك بهم. أريدك أن تقضي بضعة أسابيع معهم. أريدك أن تتعلم منهم لأن عليك أن تعود إلى الله.'

'أما الآن فأنت طاغوت' أضاف حكيم مؤكداً أنني لم أكن طاهراً. 'يجب عليك أن تعود إلى الله.'

لم تكن لدي أي فكرة عما كان يتحدث عنه، أو عن هوية هؤلاء الإخوة. غير أنني كنت عازماً على الخروج من المغرب في هذه الفترة، مما جعلني أتظاهر بالاهتمام والتعبير عن الشكر.

في الدار البيضاء، قابلنا الإخوة في أحد الجوامع. بعد الصلاة عدنا جميعاً إلى طنجة سوية. كان حكيم سيتركني هنا لمدة شهر؛ أفاد بأنه كان مشغولاً ببعض الأمور في المغرب خلال هذه الفترة.

على امتداد ذلك الشهر ظل أصدقاء حكيم يراقبونني للتأكد مما إذا كنت أعيش حياة تقوى. كنت أحرص على أداء الصلوات الخمس في اليوم؛ كانت العودة إلى نمط الحياة التي كنت قد تعلمتُها أيام الطفولة سهلة. غير أنه تعين علي أيضاً أن أُقْلِع عن التدخين والشرب، وكان ذلك أكثر صعوبة. إلا أنني كنت مصمماً على الصمود، على التحمل، لأنني كنت أرى هذا الاستعراض كله وسيلة لبلوغ غاية محددة.

بعد عودة حكيم، عشنا مع أختي مدة ستة أسابيع. خلال هذه الفترة كنا دائمي الكلام عن الإسلام. لقَّنني حكيم السلوك الذي يتعين علي اعتماده بوصفي مسلماً حقيقياً: طريقة المشي، أسلوب الصلاة، نمط الملبس. تعلمت المشي مطرقاً، وأنا أنظر إلى الأرض، بالزاوية نفسها على الدوام، عدم التواصل مع الناس في الشارع عن طريق العيون، عدم النظر إلى ما فوق الذقن من وجه أي امرأة. تعلمتُ كيف ألبس. لا يجوز لأي قماش أن يصل إلى ما تحت الكاحل (رسغ القدم) - لأن ذلك دليل غرور. لابد للرأس من أن يبقى مغطى دَرْءاً للشيطان.

كذلك تعلَّمْتُ الأسلوب الصحيح في الصلاة. تعلمت أن أقف وقدماي مضبوبتان إحداهما إلى الأخرى، مع لصق كتفي بكتف الأخ الواقف بجانبي.

تعلمت ألا أنظر إلى قدمي عند الركوع، أن أدرب عيني على النظر إلى الأمام بدلاً من ذلك، على التركُز على النقطة التي ستستقر عندها جبهتي عندما أسجد بين يدي الله.

علّمني حكيم هذا كله. حدثني أيضاً عن الجهاد، عن المعركة التي يواصل المسلمون الأتقياء خوضها باستمرار داخل نفوسهم لإثبات ولائهم لله. قال لي بأن علي أن أترك كل شيء لله، أن أثق به كلياً وأتكل عليه في كل شيء، وألا أحتفظ بأي شيء لي شخصياً. غير أن تخلّيَ عن كل شيء لله لم يكن كافياً؛ كان لابد من فعل المزيد. لا تكفي إقامة الصلاة خمس مرات في اليوم. يجب علي أن أصلي باستمرار، أن أتوب واستغفر في كل لحظة عن كل ما هو غير طاهر في شخصي.

بدأت ألاحظ أن شفتي حكيم كانتا دائمتي الحركة، على نحوٍ يكاد لا يُرى. لم أنتبه إلى أن أدركتُ حقيقة ما كنت أراه.

حكيم وأنا أمضينا وقتاً طويلاً ونحن نتحدث عن السياسة، عن المظالم التي يتعرض لها المسلمون في أرجاء العالم المختلفة. كنا في أواخر عام 1993 وكانت الحرب في البوسنة دائرة منذ ما يقرب من عامين، مثلها مثل الحرب في الجزائر. كنت مطلعاً على هذا كله قبل عودة حكيم إلى المغرب بوقتٍ طويل. وما من مسلم إلا وكان واقفاً على هذه الحقائق.

غير أنني كنت أكثر إحاطة بالوضع في أفغانستان من أي وضع آخر. مثل جميع الشباب في المغرب كما في طول العالم الإسلامي وعرضه، كنت قد تابعت قيام الجيش الأحمر باجتياح أفغانستان سنة 1979. ومثل الجميع كنت أكره الروس. كان لابد من أن نكرههم على أي حال. فقد غزوا بلداً مسلماً. غير أن تلك كانت نهاية الحرب الباردة، لقد كنت أعتقد أن المغرب متحالفاً مع الولايات المتحدة. فالتلفزيونات، الجرائد. كانت جميعاً خاضعة لأمريكا عبر النظام المغربي

الألعوبة وملأى بالدعايات المعادية للسوفييت. كانت تحرِّضنا جميعاً. وأنا، مثل جميع الشباب، كنت أحلم بالقتال جنباً إلى جنب مع المجاهدين في أفغانستان.

غير أنني تعلَّمت أشياء أكثر بكثير عن الحرب أوائل التسعينيات، بعد انسحاب السوفييت. ذات صيف، قمت برحلة في أوروبا دامت نحو شهرين مع فتاة التقيتُها في المغرب. انقطعت علاقتي بها بعد مدة قصيرة. وقبل عودتي إلى الوطن، ذهبتُ إلى باريس وحدي. كان الموسم صيفاً وأمضيت كثيراً من الوقت وأنا لا أفعل شيئاً سوى التجوال في المدينة. في أحد الأيام مررت بمركز بومبيدو الثقافي. لم يكن قد سبق لي أن سمعت شيئاً عن هذا المركز كما لم أكن أعرف ما بداخله، إلا أنني رأيت صفاً طويلاً من الناس ينتظرون الدخول؛ وَقَفْتُ في الصف فضولاً.

كانت النتيجة أنني أمضيت ثلاثة أشهر في باريس، في مركز بومبيدو الثقافي أكثر الوقت. ثمة مكتبة مذهلة، وقد التهمت كل ما وقعتْ عليه عيني: التاريخ، الأديان، العلوم. إلا أنني أمضيت الجزء الأكبر من الوقت مع مواد عن الغزو السوفييتي لأفغانستان. ثمة كانت مجموعة خارقة للعادة من الأفلام الروائية والوثائقية عن كل من السوفييت والمجاهدين.

هؤلاء الرجال بدوا مدهشين، أناساً لم يسبق لي أن رأيت مثلهم. شاهدت أحد الأفلام مرات عديدة؛ كان فلماً عن رجل ذي لحية طويلة واقف داخل دبابة. فيما بعد علمت أنه قُتل في إحدى معارك كابول، إلا أنه بدا بالغ الروعة والمجد السماوي في الفلم. استطعت أن أقرأ في وجهه مدى عمق التزامه، إيمانه. كان ينادي: "هيا إلى التكبير! الله أكبر! الله أكبر!".

البلاد هي الأخرى كانت جميلة. لم يكن قد سبق لي أن رأيت مثل تلك الجبال السمراء غير الاعتيادية. شاهدت المزيد والمزيد من الأفلام حتى بدأت أشعر بالقضية في جسدي، بالحاجة إلى الدفاع عن هذه الأرض الجميلة.

في أحد الأفلام كان المجاهدون جالسين على حافة أحد الأودية فيما كانت قافلة سوفيتية زاحفة متسللة في قعر الوادي. انفجار مباغت. ثُمَّ آخر. وبعده ثالث. تطايرت الدبابات السوفيتية الواحدة بعد الأخرى قاذفةً كتلاً كثيفة من الدخان واللهب إلى الجو. يجب أن يكون الفلم من تصوير أحد المجاهدين أو أحد مرافقيهم لأنني رأيت المشهد كله من خلال عينيه. من قمة التلة في الأعالي تمكنت من رؤية جنود يتدحرجون من الدبابات ويسقطون على الأرض. ومن ثم كنا مندفعين انحداراً إلى قعر الوادي. سرعان ما وجدنا أنفسنا وجهاً لوجه مع الروس. انطلقت رصاصة ـ أحد الجنود سقط على الأرض. ثم آخر. بام بام. بام.

غير أن عدداً ضئيلاً من الجنود كانوا لا يزالون على قيد الحياة. راقبت مجاهداً يرفع رأس أحد السوفييت لإبراز رقبته فيما كان مجاهد آخر يرفع سيفاً ليهوي به على الرقبة. أظلم الفلم لثانية واحدة. ومع عودة الإضاءة كنتُ قادراً على رؤية جَسَد الجندي الهامد بلا حياة مع بقة سوداء مثبتة حيث كان ينبغي للرأس أن يكون.

كذلك تعلّمت أشياء كثيرة عن الوضع السياسي داخل أفغانستان. تابعت عدداً كبيراً جداً من المقابلات مع جنود روس عائدين من خطوط الجبهة، ومن هؤلاء بالذات كنت قد سمعت عن أحمد شاه مسعود وغُلْب الدين حكمتيار، اللذين دأبا على مقاتلة السوفييت بشراسة في الثمانينيات. في الأفلام، كان السوفييت العائدون من الجبهة يتحدثون عن مدى حقدهم على حكمتيار؛ كانوا يصورونه مجنوناً بلا عقل؛ قاتلاً دون تميز، للمسلمين المنافسين كما للسوفييت. إلا أنهم كانوا معجبين بمسعود، أسد بانجشير. كانوا يقدِّرون شجاعته وذكاءه الحادة.

وهكذا فإنني كنتُ، لدى مجيء حكيم إلى المغرب في 1993، مطلعاً، سلفاً، على أشياء كثيرة عن أفغانستان. في تلك الأثناء كان الجحيم كله قد تفجر

هناك. كان السوفييت قد انسحبوا. أمراء الحرب كانوا مشتبكين في معارك مع نظرائهم، أمراء الحرب الآخرين، سعياً إلى إحكام قبضة تحكمهم بالبلاد، والمسلمون كانوا يقتلون المسلمين. كان حكمتيار يحاول تعزيز نفوذه وسطوته عبر محاصرة كابول والتسبب بإزهاق الآلاف والآلاف من الأرواح.

حاول حكيم إقناعي بأن حكمتيار كان مسلماً ورعاً عاكفاً على خوض معارك جهادية حقيقية. عارضته مئة بالمئة. بنظري لم يكن إلا خزياً وعاراً. فالمجاهدون الذين سبق لي أن رأيتهم في الأفلام كانوا يقتلون الغزاة، الكفار، لا المسلمين الآخرين. تشاجرت مع حكيم غير مرة حول هذا الموضوع.

تصادمنا كثيراً خلال هذه الأسابيع في طنجة، كما كانت عادتنا على الدوام. غير أن كلاً منا. كان يريد شيئاً من الآخر: حكيم كان يريدني أن التحق به وأتبنى عقيدته الأصولية، أما أنا، فكنتُ أريده أن يأخذني إلى بلجيكا ويجد لي عملاً هناك؛ فتظاهرنا بأننا متعايشان ومتفقان.

التفت إلي في أحد الأيام ليقول: 'ما الذي تريد أن تفعله بحياتك يا عمر؟'

قلت: 'أريد أن أذهب إلى البوسنة، للالتحاق بصفوف المجاهدين.' مدركاً أن هذا ما كان يحلو لحكيم أن يسمعه، غير أنه كان صحيحاً تماماً في الوقت نفسه. فمنذ أن كنت قد شاهدت تلك الأفلام في باريس، كنت قد أصبحت توّاقاً لأن أصبح مجاهداً. كنت راغباً في أن أفعل شيئاً حقيقياً بحياتي، والبوسنة بدت كما لو كانت المكان الملائم. كنت قد قرأت عن البوشناق ورأيت أفلاماً عنهم. كنت شديد التماهي معهم، ربما لأنهم بدوا أوربيين جداً. فأنا، حسب تصوري، كنت لا أزال مسلماً أوروبياً من نواحٍ عديدة.

علّق حكيم: 'أوَتظن الأمر بهذه السهولة؟! لابد لك من اجتياز سلسلة طويلة من المراحل قبل أن تصبح جاهزاً للجهاد. أولاً، سيتعين عليك أن تبرهن أنك

جدير بالله، أن تثبت أنك قد عدت إليه حقاً دون أي لبس. ثمة إخوة في أوروبا يستطيعون مساعدتك في هذا، ولكن الأمر سيستغرق وقتاً.

لم يكن عندي سوى سؤال واحد: 'متى سنغادر؟'

غادرنا بعد شهر. جاءني حكيم يوماً؛ تذكرتا السفر كانتا معه؛ أبلغني بأننا كنا مغادرين في اليوم التالي. قبل الرحيل، عمد إلى الإجهاز على كل الآثار الدالة على حياتي القديمة، كي أتمكن من أن أولد من جديد مسلماً حقيقياً. أحرق دفتري ومعه جميع أسماء وأرقام هواتف وعناوين جميع معارفي في المغرب، جميع أولئك الذين كنتُ أبيعهم المخدرات. لم يطلعني على الأمر إلا بعد أن كان كل شيء قد انتهى. كنت شديد الغضب، غير أنني كنت عاجزاً عن قول شيء. فالقضية الجوهرية كانت متمثلة بالخروج من المغرب.

من مقعدي في الطائرة المحلقة حَدَّقْتُ عبر النافذة في المغرب وهو يبتعد أكثر فأكثر. في أعماقي، راودني نوع من الإيمان بأنني لن أعود أبداً. كنت غارقاً في بحر من النشوة.

بلجيكا

لدى نزولي من الطائرة في بروكسل، وجدتُ أخي الأصغر، نبيلاً، في انتظاري. استطعت أن أفهم من تعابير وجهه أن هناك مشكلة. قال: "لا نعرف متى سيُطْلِق البوليس سراح حكيم."

وجدتني غارقاً في بحر من الارتباك: حكيم كان في الطائرة معي. غير أنني، حين نظرت إلى الخلف نحو البوابة، لم أره. لم نجلس معاً لأننا كنا في حالة شجار، إلا أنني كنت قد رأيته على متن الطائرة. والآن كان نبيل يبلغني بأن البوليس السري المغربي كان قد أنزله من الطائرة في الدار البيضاء واحتجزه للتحقيق معه. تذكرت كم كان أخي صاخباً في إعلان معتقداته، لقد كنت أعتقد بأن حكومة المغرب كلها كانت طاغوتاً. لم أستغرب قط أن يكون أحدهم سمعه وأبلغ عنه. والسلطات المغربية مشغولة دوماً باعتقال الناس، أحياناً لمجرد إخراجهم من الشوارع، ولكن دائماً لدى رؤية أي دليل صغير على التطرف.

أقلّني نبيل بسيارته إلى بيت أمي في أطراف بروكسل، وما إن وصلنا حتى فتحتْ لنا الباب. كنت بالغ السعادة لرؤيتها. مع أننا كنا نتحادث هاتفياً وكانت ترسل لي مبالغ نقدية إلى المغرب، فإنني لم أكن قد رأيتها شخصياً منذ أكثر من عقد. بدت أكبر سناً، ولكنها كانت لا تزال جميلة جداً. ذلك المساء، تناولنا العشاء، نحن الثلاثة معاً. كنت مسروراً جداً لأنني عدت إلى أوروبا.

بعد يومين التقيت كلاً من ياسين وأمين للمرة الأولى. كنت في مركز المدينة النهار كله، ولدى عودتي إلى البيت وجدت أخي في غرفة المعيشة مع خمسة رجال آخرين. كانت أمي قد أعدت عشاءً رائعاً للجميع وكانوا يتناولون الطعام. كان الرجال يرتدون ملابس فاخرة بدت باهظة الأثمان. وكانوا حليقي الذقون. بدا حكيم شديد الغرابة بينهم، في جلبابه وبلحيته الطويلة.

دعاني حكيم وقدمني إلى الرجال الذين كانوا جزائريين ويتكلمون الفرنسية. جميعاً كانوا شباباً صغاراً جداً، بعضهم في سن المراهقة وبعض في أوائل

العشرينيات. بدا واضحاً أن واحداً، أميناً، كان مسؤولاً. كانت بشرتُه أقل سمرة من معظم العرب، وعيناه الواسعتان بدتا جاحظتين.

كان أمين بالغَ الثقة بالنفس، واستطعت أن أرى أن الآخرين كانوا ينظرون إليه باحترام. كان يكثر من الابتسام وبالغ في التودد إليّ. قوطع باستمرار بسيل من الاتصالات عبر الهاتف الخليوي. كان نادراً جداً أن ترى أناساً مجهزين بهواتف خليوية في 1993، فاستنتجت فوراً أنه متوفر على المال.

كان ياسين أقصر من أمين ببضعة سنتيمترات، رياضياً مئة بالمئة. من الواضح أن ياسين هذا كان أقرب إلى أمين من الآخرين؛ تنحيا جانباً معظم الوقت وكانا يتحدثان بصوت منخفض كي لا يسمعهما الآخرون. في إحدى المنعطفات رأيت ياسين وهو يسلم مبلغاً من المال إلى أمين.

أمران اثنان فاجآني عن الرجلين كليهما: ثمة كانت دوائر داكنة تحت عيني كل منهما وكانا يمشيان مشية غريبة جداً. كانا بالغي الرشاقة، مثل محترفي الرقص، أو القطط. لم يكن قد سبق لي أن رأيت أحداً يمشي بهذه الطريقة. بعد زمنٍ طويل كنت سأعرف السبب.

لم أكثر من الكلام ذلك المساء. علمت أن هؤلاء كانوا منخرطين في أمر سري ربما غير شرعي، رغم أنني لم أكن متأكداً من طبيعة ذلك الأمر بدقة في تلك الليلة الأولى. علمت، بالطبع، أنه كان ذا علاقة ما بالحرب الأهلية في الجزائر. كان هذا أواخر عام 1993. فقبل عامين اثنين كانت الحكومة العسكرية قد ألغت الانتخابات حين أدركت أن جبهة الإنقاذ الإسلامية (الفيس FIS) كانت ستفوز. وسرعان ما كانت الجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا GIA) قد انبثقت معلنة الجهاد والقتال ضد ليس الدكتاتورية العسكرية فقط بل وجبهة الإنقاذ الإسلامية أيضاً. لم تكن الجماعة تريد انتخابات جديدة؛ كانت مصرة على إقامة نظام ديني للحكم.

كان أمين وياسين يستخدمان اللغة الدينية المتعصبة نفسها التي كان أخي يتعامل بها. غير أن صوتيهما كان على الدوام هادئاً، شبه مطمئن، حتى وهما يتحدثان عن الجهاد وعن تدمير الكفار. غير أنهما بقيا أكثر الأحيان مشغولين بالكلام عن الأمور اللوجستية: عن سيارات ذاهبة من فرنسا إلى ألمانيا، ومن ألمانيا إلى فرنسا. عن نوعية السيارات التي كانت محركاتها تعاني من الخلل، وعن أمور من هذا القبيل.

لا شيء من ذلك كان مثيراً بالنسبة إليّ؛ تركتهما وأويت إلى الفراش.

جاء أمين وياسين ثانية في الأسبوع التالي. هذه المرة جلبا معهما علباً كرتونية ملأى بنسخ نشرة إعلامية وظروف. حكيم وأنا جلسنا معهما وبدأنا نملأ الظروف. كانت الظروف تحمل عناوين عائدة لأناس موزعين على العالم كله: أناس في كندا، في الولايات المتحدة، في إنجلترا، في الباكستان، في روسيا، في الصين، في فرنسا، في إسبانيا، في هولندا، في السويد، في الدانمارك، في العربية السعودية. ألقيتُ نظرة سريعة على الرسالة واستطعت أن أرى أنها كانت عن الجزائر. كان جزء منها باللغة العربية، وجزء باللغة الفرنسية.

بعد إنجاز العملية طُفنا بالسيارة وملأنا صناديق بريد المدينة كلها بالظروف. وزعناها على الصناديق. ربما كان عدد الظروف يتجاوز الألف.

بعد أسبوع آخر، جاء أمين وياسين مرة أخرى، صباحاً هذه المرة. كنت في الطابق الأرضي أتناول طعام الفطور حين سمعتهما يتحدثان مع حكيم في غرفة المعيشة. ما إن سمعت كلمة كلاشنكوف مترددة على ألسنتهم حتى انتفضَتْ أذناي؛ رحت أصغي باهتمام بالغ. كانوا يتحدثون عن الذخيرة. كانوا بحاجة إلى طلقات كلاشنكوف. كان أمين يقول: 'لا نستطيع تأمينها في بلجيكا. أما في ألمانيا، فهناك كميات كبيرة منها، غير أنها باهظة الثمن.'

انتقلت إلى غرفة الجلوس وتابعت الإصغاء. من الأساس كنت مطلعاً على جانب من موضوع الاتجار بالسلاح من الألمانيين اللذين كانا قد حاولا شراء الحشيش مقابل الأسلحة. كنت أعلم أن ألمانيا كانت مشبعة بالأسلحة الواردة من الاتحاد السوفيتي السابق. وفهمت أيضاً أن تاجر السلاح كان مَعرَّضاً لخطر الاعتقال كلما عبر حدود إحدى الدول. وكل جرعة خطر إضافية كانت تضاعف السعر. وبالتالي فإن السعر كان فاحشاً: كانوا يدفعون 13 فرنكاً ثمناً لكل طلقة.

شاماً رائحة فُرصة سانحة للكسب، اقتحمت المناقشة قائلاً: "قد أستطيع تأمين الذخيرة لكم. كم ستدفعون؟"

ابتسموا جميعاً، ثم ضحكوا. علق حكيم: "لَستَ في القَصْر إلا من البارحة العصر. وأنت بعيد عن الأجواء منذ عشر سنوات. أنت لا تعرف شيئاً عن كل هذه الأمور وكيف تعمل."

من المؤكد أنني كنت أعرف. كنت أبيع الحشيش على أرصفة الشوارع في المغرب. كنت أتقن فن الاهتداء إلى الزبائن، مشترين وباعة. كنت أعرف أشياء كثيرة عن البنادق والطلقات، أيضاً، من السنوات التي عشتها مع إدوار. كنت أعرف أشكالها، أثمان أجزائها. كما كنت، بالتأكيد، أعرف كيف أكسب المال. لو استطعت تأمين الخرطوش بأسعار أقل بكثير، لاستطعت اقتطاع مبلغ لي.

نظرت إليهم دون ابتسام وقلت: "أنا جاد. أعتقد أنني أستطيع تأمين الذخيرة. ما الذي تريدونه؟" كَفُّوا عن الضحك، إلا أن الشك كان جلياً على وجوههم.

قام ياسين بكسر جليد الصمت قائلاً: "يزيد خرطوش ايه كي - 47، 7.62 × 39 (AK-47, 7.62 × 39) ومستعدون أن ندفع عشرة ونصفاً."

كان ما طلبوه حسماً كبيراً، وخشيت ألا يبقى لي شيء إذا قبلت بالرقم. "لماذا عشرة ونصف؟ إذا تمكنت من العثور على الذخيرة بسعر 11 ستبقون موفِّرين فرنكين في كل طلقة."

"لا نريد أن ندفع ذلك السعر. لا نستطيع."

"حسناً، سأرى ما أستطيع فعله."

لم يصدقوني، بالطبع. اكتفوا بالابتسام.

لوران

لم تكن عندي أي فكرة عن كيفية الاهتداء إلى طلقات الكلاشنكوف. وأنا أستعد للنوم تلك الليلة، تذكرت قيام حكيم بحرق دفتري وقوائم أسماء زبائني في المغرب. ليتني كنت محتفظاً بعنوان الألمانيين! لو كنت لاستطعت أن أحصل على كل ما كان أمين وياسين يريدانه، وأكثر. غير أن الحياة هي هكذا.

صباح اليوم التالي ذهبت إلى مركز المدينة، إلى شايربيك، بقعة شديدة الازدحام في بروكسل أكثرية سكانها من الأتراك والشمال أفريقيين. إنها البؤرة التي يتردد عليها الرجال بحثاً عن بائعات الهوى والمخدرات.

جلستُ في مقهى يشرف على شارع وطلبتُ مشروباً. بقيت هناك نحو ساعة على الأقل، أراقب المارة كما كنت أفعل في المغرب. مع فارق أنني كنت في المغرب أبحث عن مشترين، أما هنا فكنت أبحث عن بائع. وبسرعة لافتة اهتديت إلى واحد، إلى شاب عربي واقف على الرصيف المقابل. كان شديد الأناقة، مرتدياً بدلة رياضية جديدة تماماً من طراز نايك، دائم التلقي للاتصالات عبر هاتفه الخليوي. راقبته طويلاً. بين الحين والآخر كانت إحدى السيارات تخفف من سرعتها أمامه؛ ثم كان يمتطي دراجته النارية العملاقة من طراز كاواساكي وينطلق بسرعة فتتبعه السيارة. غير أنه كان على الدوام يعود إلى مكانه على الرصيف.

سبق لي أن رأيت هذا النوع من البشر، وقد أكد لي حَدْسي أنه كان الشخص الذي كان سيُهديني إلى ضالتي المنشودة المتمثلة بالذخائر. غير أنني

أدركت أيضـاً أن هذا لـم يكن من اختـصـاصـه النظـامي، وأنني إذا مـا طلبت منه غـرضي صـراحـةً فـإنه كـان سـيـرفض. من الواضـح أن هذا الصـبي كـان يكسب الكثير من المال عبر بيع المخدرات، ولم يكن مستعداً للمخاطرة بتجارته مقابل أي شيء. تحلّيْتُ بالحذر.

عبرت الشارع واقتربت منه. بادرته: 'السلام عليكم!'

'عليكم السلام' رد وأضاف: 'ماذا تريد؟'

أومأت إليه بأن عليه أن يتبعني. وفيما كنا سائرين جنباً إلى جنب، كنا نتطلع إلى الأمـام. قلت: 'أريد أن أطرح عليك سـؤالاً، إلا أنني لا أريد أن تجيـبني الآن مباشـرة. يكفي أن تسمعني جيداً إلى النهاية، ولكن لا تقل أي شيء.' وبعد فترة صمت، تابعت الكلام: 'أنا أبحث عن ذخيرة طلقات كلاشنكوف.'

جمد في مكانه التفتَ نحوي مرتبكاً. 'تريد أن.....'

قطعت كلامه وحدّقْتُ في عينيه، قـائلاً: 'أنا جـاد. لا أريد أن ترد علي الآن. فـقط اسـمـعني وافـهم مـا أقـوله ثم فكر به. سـآتيك في وقـت آخـر، وإذا لـم تكن مستعداً لأن تفعل ذلك فيا دار ما دَخَلَكِ شـر. كل منا يسيـر في طريقـه. أما الآن فلا أريد منك إلا أن تسمعني.'

أومأ برأسه موافقاً. تابعت كلامي: 'أنا أبحث عن خرطوش كلاشنكوف. وأنا أعـرف أنك لا تبيع مثل هذه البضاعة، غيـر أن من المحتمل أن تكون على معرفة بشخص يفعل ذلك. أنا بحاجة إلى كميات كبيرة من الذخيـرة. لن استخدمها من أجل السطو على أحد البنوك أو على أي أمكنة أخرى. إنهـا سـتُرسل إلى خـارج أوروبا كلها وبسرعة، أعدك بذلك.' ثم اندسست فيه أكثر. رحت أتكلم بأخفض صوت ممكن، هَمْساً وبلغة المتآمرين: 'إنها للأمة الإسـلاميـة، نعم لأمة المسلمين، للجهاد.'

عيناه التمعتا للحظة، أدركتُ أنه وقع في الفخ. ثمة زبائن مثله في سائر أرجاء العالم: يشربون الخمر، يدخنون التبغ وغير التبغ، يشمون الكوكا، كفار كاملو الأوصاف في عيون المسلمين الحقيقيين. غير أنهم لدى سماعهم لكلمتي الأمة والجهاد يسارعون فوراً إلى الارتباط بالإسلام من جديد. أعتقد أن هذه الظاهرة صحيحة على نحوٍ استثنائي في أوروبا، حيث الشباب شديدو البُعد عن كل شيء، عن أرض المسلمين. ليس الجهاد بالنسبة إليهم إلا عَدَماً، إلا أمراً غير واقعي. غير أنه كل شيء في الوقت نفسه.

قلت له: 'فقط فكّر بالأمر. سأراك غداً'

عدت في اليوم التالي. كان الزبون واقفاً في المكان نفسه بالتحديد، وما إن رآني حتى ابتسم ولوح بيده محيياً. قال: 'أعتقد أنني أعرف شخصاً يستطيع مساعدتك. إنه صديق لي، أبيعه الكوك. يعرف عن الأسلحة. هل تستطيع أن تعود الليلة الساعة العاشرة؟'

عندما عدت مساءً لم أجده في المكان المعهود. انتظرتُ، وبعد بضع دقائق، جاء ممتطياً دراجته النارية. قال: 'صديقي عصبي المزاج. لا أستطيع أن أعدك بشيء. غير أن صديقاً له سيمر من هنا في غضون بضع دقائق. سيعاينك أولاً، وإذا وجدك مناسباً ونجحْتَ في الاختبار فإنه سيوصلك بصديقي.'

بعد نصف ساعة لاحظتُ سيارة متوجهة نحونا، سيارة رينو زرقاء. وقفت السيارة أمامنا. قام السائق بخفض زجاج الشباك. ذهب الزبون إلى السيارة وتحدث مع السائق بصوت منخفض.

في المقعد الخلفي كان ثمة رجل بدين متوسط العمر، أزرار قميصه فالتة، استطعت أن أرى شعر صدره مع صليب ذهبي معلق بسلسلة محيطة برقبته. رغم أنني لم أستطع أن أنظر طويلاً لأن الزبون قفز إلى السيارة وانطلقوا مبتعدين معاً.

بعد بضع دقائق عادت السيارة. قفز منها الزبون ثم انطلقت السيارة. "آسف لما حصل" قال الصبي. "أردت أن أعطيه شيئاً." ثم صمت وحدّق في عيني بقوة. وأخيراً قال: "حقاً إنه صديقي الذي حدثتك عنه. يريد لقاءك."

سألت: "متى. وأين؟"

"هنا. ستجدنا هنا غداً مساء."

عندما عدت في الليلة التالية، كان الزبون ينتظرني. ثم ما لبثت السيارة، هي الأخرى، أن اقتربت. هذه المرة أومأ السائق إليّ أنا لأركب معه. صعدت إلى المقعد الخلفي وجلس السمسار (الزبون) في المقعد الأمامي.

التفت السائق إلي وقدم نفسه قائلاً: "أنا لوران." سألني عن طلبي وقلت له أنني بحاجة إلى خرطوش كلاشنكوف، كميات كبيرة. أومأ برأسه.

عاينْتُ الرجل. بدا برجوازياً فرنسياً أنموذجياً. لا اعتقد أنه كان فوق الخامسة والأربعين من العمر، إلا أن وجهه بدا أكبر. كان مغطى بالتجاعيد وكانت ثمة أخاديد على جبهته. عيناه كانتا دائمتي الدوران.

واصلتُ معاينتي له ونحن في الطريق. ثمة كان شيء شديد الغرابة حوله، شيء لم يكن قد سبق لي أن رأيته. كان جسمه مشدوداً تماماً، متوتراً مئة بالمئة. في حياتي كلها لم يسبق لي أن رأيت رجلاً على هذه الدرجة من الدقة، على هذا المستوى الرفيع من الانتباه إلى جميع التفاصيل كان دائم النظر إلى مرآته العاكسة للخلف، ولاحظت عينيه اللتين كانتا تقفزان من محجريهما لتغطيا سائر الاتجاهات.

تابعنا السير نحو عشرين دقيقة. راح لوران يتحدث مع الزبون وبقيت أنا ملتزماً الصمت في الخلف. قبل الوصول إلى أي مكان قريب من الذخائر، كنت مضطراً لدراسة هذين الزبونين واختبارهما. ربما كان لوران عميلاً للأمن، أو مُخْبراً. غير أن حَدْسي كان ينبئني بأنهما كانا من تجار الأسلحة.

تباطأتْ السيارة في منطقة صناعية في حي بروكسلي لم يسبق لي أن كنت فيه. دخل لوران إلى مرآب للسيارات، على ارتفاع عدد من الطبقات. نزلنا نحن الثلاثة من السيارة، وقفت مع الزبون (السمسار) جانباً، في حين قام لوران بفتح الصندوق. ثمة كان كيس ممدد في الداخل. سحبه لوران إلى الخارج كاشفاً عن مسدسات تشيكية رشاشة. بقيت صامتاً.

راح لوران يفسر: كان من المفروض أن أسلّم هذه لأحدهم، غير انه اختفى ولم يعد إلى الظهور. ليست لدي أي فكرة عن مكان وجوده.

التفتُّ ونظرت إلى الزبون الذي بدا منبهراً بالرشاشات. انحنى وحمل أحدها مقلّباً إياها عدداً من المرات بين يديه. تراجعت قليلاً ملتزماً الصمت.

علمت أنهما كانا يختبرانني. كانا، كلاهما، يريدان التأكد مما إذا كنت صادقاً بشأن الجهاد، بدلاً من أن أكون مجرماً صغيراً يبحث عن سلاح للسطو على أحد البنوك. وقد أراد لوران أن يعرف ما إذا كنت محترفاً، الأمر الذي جعلني أمتنع عن حمل الرشاش كما فعل الزبون. فقط الأغرار يحملون الرشاشات ويقلّبونها بتلك الطريقة تاركين بصماتهم عليها. لم تكن العملية كلها سوى مسرحية، جولة اختبار ومعاينة. كانت الأيام الثلاثة الأخيرة سلسلة متصلة من الاختبارات. من خلال مطالبتي بالعودة ثانية وثالثة ورابعة كان الزبون يمتحنني، يحاول معرفة حقيقتي. ربما كنتُ رجلَ أمن، ربما كنتُ مجنوناً. كانا يريدان أن يتأكدا من أنني لم أكن أمارس اللهو الداعر.

نظر لوران إلى المسدسات في صندوق السيارة، ثم رفع عينيه ونظر إليّ وسأل: هل أنت مهتم بها؟

أجبت: لا، قلت لك إنني أريد ذخيرة، طلقات كلاشنكوف. لا شيء آخر. نقطة على السطر.

أومأ برأسه عدنا إلى السيارة جميعاً وخرجنا من المرآب، وتوجهنا نحو مركز المدينة عائدين من حيث جئنا. كنت قد نجحت في الاختبار.

ذخائر

أعادني لوران بالسيارة إلى المدينة، وأنْزَلْنا تاجر المخدرات في الطريق. ثم تابعنا الدوران في الشوارع نحو ساعة من الوقت. في البداية كان الدخول في حوار صعباً. فبقينا متركزين في كلامنا عن صاحبنا تاجر المخدرات؛ لقد كان الموضوع المشترك الوحيد بيننا. تكلم عنه لوران عدداً غير قليل من الدقائق، شاكياً من تعذر الثقة به والتعويل عليه؛ أحياناً كانت الكوك معه جيدة جداً، ولكن ليس دائماً. لم يكن أي من هذا مثيراً. كان همنا الوحيد أن يعرف كل منا الآخر، أن نوجد نوعاً من الثقة.

بعد قليل بدأنا نتحدث عن الذخائر. قلت له: أنا راغب في الحصول على طلقات كلاشنكوف، ربما بضعة آلاف. لم يَبْدُ مستَغْرِباً على الإطلاق. أفاد بأنه قادر، حسب اعتقاده، على تأمينها بسعر 12 فرنكاً للطلقة الواحدة.

قلت: "لا أستطيع دفع ذلك المبلغ. يمكنني دفع عشر فرنكات ونصف، لا أكثر.

رد بسخرية: "ذلك مستحيل. إنه أقل من الكلفة، كلفة التصنيع."

عرفت أنه كان يكذب. كنت أعرف الكلفة الفعلية. ولم يكن قد انتفض حين أتيت على ذكر الكمية التي كنت أريد شراءها، فعلمت أن لديه كميات كبيرة للبيع.

بقيت مصراً. "عشرة فرنكات ونصف. ولا مليم زيادة. إذا كان السعر لا يناسبك سأبحث عن شخص آخر." كنت واثقاً من أنه كان سيقبل. فبلجيكا تنتج أسلحة وذخائر أكثر من أي بلد آخر في العالم ربما. كنت أعلم أن الخرطوش كان موجوداً وكنت قادراً على الاهتداء إليه. كنت استطعت اقتناص لوران في غضون ثلاثة أيام فقط، وكنت واثقاً من قدرتي على النجاح مرة أخرى.

لانَ لوران: 'قد أستطيع الحصول على البضاعة بأقل قليلاً. لابد لي من مفاتحة صديقي. قد يسمح لي بالنزول إلى أحد عشر فرنكاً وثمانين سنتيماً.'

أدركت الآن أنه كان جائعاً، أنه كان يريد إبرام الصفقة. كان بحاجة إلى زبون جديد. استطعت أن اكتشف أنه كان فَرْخَ سمكٍ صغير إلى حدٍّ ما؛ ما من تاجر سلاح كبير كان سيركب سيارة رينو. وإذا كنت أطلب هذا العدد من الطلقات في المرة الأولى فإن من المؤكد أنني كنت سأعود طالباً المزيد.

أنا أيضاً كنت أريد إنهاء الصفقة وإنْ عَنى ذلك أنني لم أكن قادراً على تحقيق كثير من الربح. إذا نجحت في أن أصبح الوسيط بين ياسين ولوران، ربما كنت سأستطيع توظيف ذلك مع الزمن لمصلحتي.

أخيراً استقر على أحد عشر فرنكاً وخمسة وعشرين سنتيماً للخرطوشة. قلت للوران إن علي أن أثبت السعر مع معلمي. كنت عازماً على عرض الذخيرة على ياسين بسعر أحد عشر وخمسين للواحدة، وكنت واثقاً من أنه كان سيوافق. كان سيوفر فرنكاً ونصف الفرنك في كل طلقة، دون تحمل تبعات المخاطرة بعبور الحدود. وكنت أنا سأحصل على السنتيمات الخمسة والعشرين عن كل واحدة.

أنزلني لوران من السيارة عند أحد مواقف الحافلات تلك الليلة. قبل نزولي كتب رقم هاتفه الخليوي على قطعة من الورق وطلب مني أن اتصل به في غضون يومين.

عندما نزلت إلى الطابق الأرضي صباح اليوم التالي، وجدت أن أميناً وياسين كانا قد وصلا إلى البيت. كانا يترددان أكثر فأكثر، ربما على نحوٍ يومي الآن.

دخلت إلى غرفة الجلوس وقلت متوجهاً إلى ياسين: 'اهتديت إلى شخص. أستطيع الحصول على الطلقات بسعر أحد عشر وخمسين للواحدة.'

حاجبا ياسين ارتفعا قليلاً وهو ينظر إليَّ. التفتَ إلى أمين وتبادلا بضع كلمات هَمْساً. ثم أومأ أمين برأسه.

ببطء قال ياسين وهو ينظر إليَّ من جديد: 'موافقون. سنجرِّبه. قل لصاحبك إننا نريد خمسة آلاف. ولكن اعلمه بأننا نريد عينة قبل أن نسلم المبلغ، أي مبلغ.' بالطبع كان لدى كل من أمين وياسين قدر من الفضول؛ لم تكن عندهما أي فكرة عن ذلك الذي كنت أتعامل معه، كما لم اقترح الكشف عنه. في الوقت نفسه لم يكن ثمة ما يدعوانهما إلى الثقة بي؛ لم يكن قد مضى على وجودي في بلجيكا سوى أقل من شهر كما أن أحداً منهما لم يكن يعرف شيئاً عني.

في اليوم التالي اتصلتُ مع لوران وقلتُ له إننا موافقون على سعر الأحد عشر وخمسة وعشرين، وراغبون في الحديث عن الكمية. أضفت أننا كنا بحاجة لرؤية بعض العينات قبل التقدم أكثر. حدد مكاناً قريباً من الساحة الكبرى وطلب أن ألقاه هناك في التاسعة مساء.

ما إن ظهر حتى قفزت إلى السيارة لأجلس إلى جانبه. قلت له: 'نريد خمسة آلاف طلقة بسعر أحد عشر وخمسة وعشرين للواحدة.'

'أستطيع تأمين الكمية في يومين.' قال لوران. ثم سلمني ظرفاً. فتحت الظرف - كان فيه خمس طلقات. لم يكن قد سبق لي أن لمست أي ذخيرة حربية من قبل. ومع أن هذه الخرطوشات كانت مختلفة عن كل تلك الخراطيش التي صادفتها مع إدوار، فقد كنت قادراً على القول إن هذه كانت سليمة.

سألني عن المكان الذي كنا سنلتقي فيه لإجراء التبادل. اقترحت مكاناً على مسافة كيلومتر أو نحوه من بيتنا، فانتقلنا إلى هناك لأدله على البقعة بدقة. كانت على بعد نحو مئة متر من أحد مواقف الحافلات، في شارع مظلم؛ كانت المنطقة شبه مهجورة عادة في الأماسي. قام لوران بمعاينة المكان ووافق، طالباً

مني أن أتصل به خلا يومين. عندما يتأكد من تأمين الطلقات كان سيلقاني هناك منتصف الليل. نزلت من السيارة وعدت إلى البيت ماشياً.

كان ياسين بانتظاري عندما عدت إلى البيت. أعطيته الظرف ففتحه. ألقى نظرة سريعة على إحدى الطلقات، أو بدا لي أنه كان يفعل ذلك. ثم قال متحدثاً بلهجة واثقة مئة بالمئة: "نعم هذا هو طلبنا".

أثار ياسين إعجابي. أي شخص يلتقط طلقة كان من شأنه على الفور أن يعاين الرقم المحفور على الغلاف ليتأكد من أنها من النوعية الصحيحة. أما ياسين فقد عرف ذلك دون أن ينظر. خطر لي فجأة أن ياسين محترف.

كنت قد أتقنْتُ فن التمييز بين المحترفين والهواة حين كنت أبيع الحشيش في المغرب. ثمة أقله مئة صنف مختلف من أصناف الحشيش، إلا أن الخبراء الحقيقيين كانوا يعرفون الصنف بدقة بمجرد النظر إليه حتى دون لمسه. كانوا يقدِّرون مستوى المادة غريزياً، هل هي ذات نوعية رفيعة أم لا. أما الهواة فكانوا، قبل أن يتفوهوا بكلمة، يحملون المادة ويدحرجونها في أيديهم، يفتحون العبوة، يشمُّون المادة.

أدركت شيئاً في تلك اللحظة، شيئاً ربما كنتُ قد أحسست به من قبل ولكنني لم أكن قد فكرتُ به كثيراً في الحقيقة. أدركتُ أن أميناً وياسين كانا لاعبين جديين، وأنني كنت بصدد عملية جدية. لم يكونا يشبهان أولئك الشباب الذين كنتُ قد عرفتهم في المغرب، وكانوا يحاولون إقناعي بأنهم رجال ذوو شأن عن طريق الإكثار من الكلام عن البنادق والجهاد وادعاء السعي للالتحاق بالقتال في البوسنة. كان أمين وياسين حقيقيين.

كانت ومْضة خاطفة، سرعان ما تلاشت.

بعد يومين اتصلت بلوران واتفقنا على اللقاء تلك الليلة. كان ياسين قد أعد ظرفاً محشواً بالفرنكات. لم أعمد حتى إلى فتح الظرف أو محاولة عَدّ المبلغ؛

كنت واثقاً من أنه المبلغ كاملاً. حددت له المكان الذي سيتم فيه الاستلام والتسليم، ثم غادرت المنزل ومشيت باتجاه مكان اللقاء. انتظرتُ هناك لبضع دقائق في ظلام كامل.

ما إن وصل لوران حتى قفزت إلى سيارته، قطعنا بضع مئات من الأمتار بالسيارة ثم توقفنا في بقعة مهجورة. أخذتُ نصيبي مما في الظرف، سلمته الباقي الذي عَدَّه. ما إن اقتنع حتى طلب مني أن أنظر إلى ما تحت مقعدي. كان ثمة كيس من الخيش، سحبته وفتحته.

لم يكن قد سبق لي أن رأيت شيئاً شبيهاً بما رأيته في تلك الليلة. حين كنت مع إدوار كان يتوفر لدينا مجرد حفنة صغيرة من الطلقات، لأننا درجنا على تكرار استخدام العناصر المكونة مرة بعد مرة. أما الآن فكانت أمامي كومة، تلة مؤلفة من آلاف الطلقات، وهي أكبر بكثير من أي من تلك التي سبق لنا أن استخدمناها إدوار وأنا. لم يكن في السيارة سوى ضوء خفيف، غير أن النحاس كان يلمع. كان المشهد مثيراً للدهشة.

لم أكن بحاجة إلى عد الطلقات. كنت واثقاً من لوران، لا لاقتناعي بأنه كان صالحاً، بل لأنني كنت أعلم أنه لن يحاول أن يخوزقني. فقد كان متأكداً من أنني كنت سأمكّنه من عقد صفقات مربحة في المستقبل.

أنزلني لوران عند موقف الباص وابتعد مسرعاً. بدأت أمشي باتجاه البيت. كان الكيس ثقيلاً جداً، ثقلاً لا يصدق. فجأة توقفت سيارة أمامي. كانت تلك سيارة الفان الفولكسفاكن العائدة لياسين. لم أكن قد توقعتُ رؤيته هناك، غير أنني لم أفاجأ في الوقت عينه. صعدتُ إلى الفان قفزاً وأبرزتُ له الكيس. فتحه ونظر إلى داخله. ابتسم - كانت تلك ابتسامة طويلة، عريضة.

راح يردد: "ما شاء الله! ما شاء الله!"

عند توقفنا أمام البيت، حَمَل ياسين الكيس واندفع إلى الداخل بسرعة البرق. كنت خَلْفَه، وفيما كنتُ أتقدم نحو الباب سمعت صوتاً. التفتُّ إلى الوراء فرأيت سيارة أخرى تتبعني. كان ثمة رجلان في المقعد الأمامي؛ لم أكن قد رأيت أياً منهما من قبل. غير أنهما حين رأياني خففا من السرعة وأمعنا النظر فيَّ للحظة عابرة قبل أن ينطلقا بسرعةٍ من جديد. علمت فيما بعد أن ياسين كان قد أخضعني للمتابعة والمراقبة كل الوقت.

رشاشات العوزي

صباح اليوم التالي كان أمين وياسين في غرفة الجلوس عندما نزلت لتناول طعام الفطور. كانا، كلاهما، يبتسمان. انتصب ياسين واقفاً لمصافحتي قائلاً: 'ما شاء الله يا أخ!' كانا قد أحصيا الطلقات خلال الليل وكان العدد خمسة آلاف بالتمام. أدركت أنهما كانا معجبين.

رددت بابتسامة سائلاً: 'وأين هي حصتي؟'

سحابة سوداء غطت وجهيهما. رأيت أنهما كانا غاضبين. بادرني أمين: 'أنت يا أخ لا تقوم بهذا العمل مقابل مال.' كان صوته خافتاً، مشوباً بشيء من التهديد. أضاف: 'أنت تقوم بهذا العمل في سبيل الله. هذه خدمة للأمة. إياك أن تنسى هذه الحقيقة.'

رَمقْتُه بنظرة ساخرة وقلت: 'إذن، لن أقوم به بعد الآن!'

فوجئا، كلاهما، بنبرة صوتي، وتراجعا قليلاً. ثم قال ياسين: 'أرجو أن تعيد النظر بما قُلْتَه.'

أجبت: 'لست بحاجة إلى إعادة النظر. لا أستطيع أن أؤمن البضاعة لكم بهذا السعر بعد الآن على أي حال. إن التاجر أعطاني ذلك السعر للمرة الأولى فقط. من الآن وصاعداً سيكون السعر أحد عشر وثمانين.'

كنت أكذب، بالطبع، وكانا يعرفان ذلك. غير أنهما كانا ملزمين، لم يكن أمامهما أي خيار آخر. ولو بأحد عشر وثمانين كان السعر أقل بما يزيد على فرنك من السعر الذي كان متوفراً لهم من ألمانيا. وأنا لم أكن أخسر شيئاً بكذبي؛ لم يكن قد سبق لهم أن وثقوا بي تماماً على أي حال. لم أكن شبيهاً بحكيم، هادئاً، تقياً، ليّن العريكة، مطواعاً. بالطبع، لاعبتهم قدر ما استطعت. كنت أؤدي صلاة الفجر معهم وبقيت شديد الحرص على عدم إبقاء أي أثر لرائحة الكحول في نَفَسي عند عودتي إلى البيت. كنت أتحاشى مرافقتهم إلى الجامع، غير أنني كنت أقول لهم إن من شأن ظهورنا معاً أن يكون خطراً، وإنني كنت أذهب إلى مسجد آخر في مركز المدينة. لم أكن أتحدث عن الجهاد، وحين كنا، أحياناً، نتكلم في السياسة كنت أعارضهم وأتحداهم. لا أعتقد أنهم كانوا يعرفون كيف يتعاملون معي.

على امتداد الأسابيع التالية كنت سأجلب لهم ثلاث وجبات ذخيرة من لوران. في البداية لم يطلبوا إلا المزيد ن الطلقات: خمسة آلاف في كل مرة. كنت أرتب عملية الاستلام والتسليم مع لوران بالطريقة نفسها. كنت أتصل به على الخليوي وأبلغه بالرغبة في اللقاء؛ لم نناقش المطلوب على الهاتف بالمطلق. كان يحدد مكاناً للقاء وتحديد المطلوب: موقف حافلات، حديقة، غابة. كنت أتصل به بعد بضعة أيام مرة أخرى. كان ياسين يوصلني إلى مكان قريب. وما إن كنا، لوران وأنا، ننتهي من عملية التسليم والاستلام، حتى كان ياسين يسارع إلى إعادتي في سيارته إلى البيت.

وكلما التقيت لوران كان يحدّثني عن أشياء أخرى كان يستطيع تأمينها لي. بدا متوفراً على كل شيء. باستمرار كان يعرض علي نوعاً جديداً من أنواع بواريد القناصة أو المسدسات، أشياء لم يسبق لي أن رأيتها. وباستمرار كنت أقول: لا، مؤكداً أن كل ما كنت راغباً في الحصول عليه هو الطلقات. إلا أنني كنت أحدّث

ياسين عن تلك الأشياء، وذات يوم، سحبني ياسين جانباً وقال لي: 'سَلْهُ ما إذا كان يستطيع أن يؤمن لنا رشاشات عوزي.'

بعد بضعة أيام قابلتُ لوران وسألتُه. ابتسم وقال: 'ذلك سهل. ما العدد المطلوب؟'

'لا أعرف. ما السعر؟'

يصل سعر الواحد إلى أحد عشر ألفاً من الفرنكات. حين قلت ذلك لياسين، اعترض قائلاً إنه سعر غير مناسب، أعلى من المعقول، وإنهم كانوا يريدون شراء عشر قطع ولكنهم غير قادرين على دفع السعر. صُدمت؛ لم يكن هذا ما توقعتُ سماعَه. لم يكن ثمة أي نقص في الأموال في البيت. إن سيلاً حقيقياً من المال، سيلاً متزايد الغزارة باطراد، كان يتدفق أسبوعاً بعد أسبوع. كان السيل يتدفق على البيت من جهة ويخرج منه من ناحية ثانية. كان أمين وياسين دائمي الانشغال بعد المبالغ في غرفة الجلوس أمامي. لم يكن قد سبق لي أن رأيت هذا الكم من المال في حياتي.

ومع ذلك فإن ياسين كان عنيداً. لم يكن مستعداً لدفع أحد عشر ألفاً من الفرنكات سعراً لرشاش العوزي. قال: 'انْسَ رشاشات العوزي الآن. سَلْه عما إذا كان متوفراً على مناظير ليلية.'

في لقائي التالي سألْت لوران عن المناظير الليلية. بوغت بالسؤال. 'وماذا عن رشاشات العوزي؟'

قلت له مكرراً ما سمعته من ياسين: 'انْسَ تلك. إنها باهظة السعر. لا نريد إلا مناظير ليلية.'

كنت قادراً على رؤية مدى خيبة لوران في نظراته. وعندها أدركت مغزى لعبة ياسين. على الرغم من أنه لم يكن قد قابل لوران ولو لمرة واحدة، فإن ياسين

كان يروز الأخير ويتلاعب به مثل سمكة عَلِقَتْ بالصنارة. أكد لي لوران: 'أستطيع تأمين المناظير بسعر جيد. كما قد أستطيع خفض سعر رشاشات العوزي قليلاً'.

كنا نلعب اللعبة ذاتها في كل لقاء. كنت أنا أسأل لوران عن شيء، كان ياسين يقول إن السعر أغلى مما يجب، ثم كنت أعود وأسأل عن شيء آخر. وبعد بضعة أسابيع كان السعر يهبط. كنت قادراً على شراء جميع أنواع المعدات بهذه الطريقة: المناظير الليلية، رشاشات العوزي، بواريد الكلاشنكوف، رشاشات الدراغونوف. كنت دائماً أضيف على السعر قليلاً لدى نقله إلى ياسين ولكن الأخير لم يكن يلاحظ ذلك أو لم يكن يبالي به. إن أسعار لوران كانت على الدوام أقل من أي أسعار كان ياسين يستطيع الحصول عليها عبر الحدود الألمانية. وفيما بعد كنت سأكتشف السبب: كان عند لوران زبون في أحد أكبر مصانع الأسلحة البلجيكية، زبون قادر على تأمين كل شيء كان يطلبه. كان أيضاً متوفراً على عملاء في بلدان أخرى، ولكنه لم يكن مضطراً لتنفيع عدد كبير من السماسرة مثل الآخرين.

خلال أشهر لم يطرح لوران عليّ سؤالاً واحداً. كنتُ قد اشتريت منه عشرات آلاف الطلقات وعشرات البنادق دون أي أسئلة على الإطلاق. غير أنه، ذات يوم فيما كنا جالسين في سيارته عاكفين على بحث الترتيبات، التفتَ إليَّ وسأل بهدوء:

'ما الذي تفعله بكل هذه البضاعة؟' ثم ابتسم ابتسامة خفيفة، ورفع حاجبيه قائلاً: 'هل أنت عازم على شن حَرْبك الخاصة؟' لم يكن السؤال ملغوماً؛ كان يتحدث بوصفه رجل أعمال. وهو كذلك بالفعل. لم تكن لديه أي اعتراضات أخلاقية؛ أنا واثق تماماً من ذلك. لم يكن يريد أي متاعب.

طَمْأَنْتُه: 'يجب ألا تقلق. نحن لا نستخدم أياً من هذه البضائع في بلجيكا، بل وحتى في أوروبا. كل الأشياء تغادر البلاد بسرعة البرق'.

أومأ لوران برأسه وقال: "أفهم ذلك. أتعامل كثيراً مع جبهة التحرير الوطني الكورسيكية الـ (FLNC)، كما تعلم."

كان لوران يشير إلى جماعة مناضلين راغبين في تحرير جزيرة كورسيكا من السيطرة الفرنسية. منذ سنوات والجماعة مستمرة في شن الهجمات على سلسلة من رموز النفوذ الاستعماري الفرنسي ـ البنوك، مخافر الشرطة، الثكنات العسكرية.

من الواضح أن لوران كان يحاول التأثير فيَّ عن طريق الإتيان على ذكر الجبهة الكورسيكية، إلا أنني كنت أيضاً متأكداً من أنه كان صادقاً.

كنت أعرف طبيعة ما كنت أقوم به من عمل، ولم يكن ذلك يقلقني. لم يكن ما أنا بصدده سوى عمل. كنت أكسب مبالغ جيدة، وكان العمل مثيراً. بالطبع كنت أعرف المكان الذي تتوجه إليه كل هذه الأسلحة. كانت تذهب، بأكثريتها، إلى الجزائر، وبعضها إلى أمكنة أخرى أيضاً. كانت المسألة بسيطة. مع توالي الأسابيع، كانت أعداد أكبر من الناس تمر بالبيت. الجميع شباب، صغار السن. جماعات تأتي وأخرى تذهب في سيارات ـ هذه تركن سيارة وتلك تأخذ أخرى. أحياناً كانوا يبقون معنا ليلة أو اثنتين، ثم لا أرى أي أثر لهم مرة أخرى.

مع مرور الوقت، تزايَدَتْ أعداد المارين بالبيت قبل التوجه إلى بلاد الشيشان. كنت أغار من هؤلاء. كنت قد بدأت أُكْثر من قراءة الجرائد لأننا لم نكن نملك تلفزيوناً في البيت. كنت أمضي ساعات طويلة في الفناك (Fnac)، الذي هو دكان إعلامي في ساحة روجيه بمركز المدينة. كنت أستطيع أن أجلس على الأرض وأقرأ ما شئت. هناك اطلعت على سلسلة تقارير عن الحرب الأهلية في بلاد الشيشان.

سلفاً كنت أعرف أشياء معينة عن الحرب؛ كنت قد سمعت نُتَفاً عنها خلال أشهري القليلة الأخيرة في المغرب. كنت أعرف، على نحوٍ خاص، عن جَوْهَر

دودابيف، ذلك الذي كان يتولى قيادة المتمردين الشيشان ضد الاتحاد السوفييتي. كان بطلاً بنظري؛ سبق له أن كان طياراً مقاتلاً عظيماً. كانت روسيا تحاول إزاحته، بل قَتْله. كان الروس مصممين على سحق المسلمين الشيشان تماماً كما سبق لهم أن حاولوا أن يسحقوا مسلمي أفغانستان.

كان أمين وياسين يُكْثران من الكلام عن بلاد الشيشان، وعن الجهاد في طول العالم وعرضه. بالطبع تركز جُلُّ كلامهما على الجزائر. كانا يريدان الإطاحة بالنظام العسكري، بالطبع. غير أنهما كانا تواقين إلى استئصال جبهة الإنقاذ الإسلامية (الفيس FIS) من جذورها، لأن الأخيرة كانت تسعى إلى إيجاد حل سياسي لمشكلات الجزائر. لم تكن السياسة بنظر أمين وياسين إلا طاغوتاً. كان الإسلام هو القانون الصحيح الوحيد.

كانا يتحدثان عن البوسنة أيضاً. كنت شديد اللهفة لسماع أخبار البوسنة لأنني كنت قد قرأتُ أشياء كثيرة جداً عنها وحلمت بالذهاب إلى هناك. وبالتالي كنت شديد الانزعاج من تعبير أمين وياسين عن سخطهما على البوشناق، مع أن رجالاً كانوا لا يزالون يأتون إلى البيت تمهيداً للذهاب إلى القتال معهم. أحياناً كنت أتساءل عما إذا كان قد سبق لأمين وياسين أن كانا هناك، لأنهما كانا يتحدثان على نحوٍ مباشر جداً عما كان جارياً هناك. على الدوام كانا يتكلمان عن أن البوشناق لم يكونوا مسلمين حقيقيين. دأبا على قول إن النساء كُنَّ يكشفن رؤوسهن، والرجال لا يذهبون إلى المساجد. كان هؤلاء البوشناق يشربون الخمر ويأكلون لحم الخنزير. بل وكان بعض البوشناق قد حاولوا قتل الإخوة العرب الذين جاؤوا لمساعدتهم في حربهم الجهادية ضد الصرب.

لم أستطع أن أفهم هذا كله. كنت على الدوام مقتنعاً بأن البوسنة طاهرة ومقدسة. أما الآن فلم أعد واثقاً.

كان أمين وياسين يتحدثان عن أفغانستان أيضاً. مرة أخرى فاجآني. سرعان ما علمت أن حكمتيار كان بطلاً عظيماً بنظرهما، تماماً كما كان بنظر حكيم. غير أنهما كانا يحقدان على الطالبان. كنت أعرف أشياء قليلة عن الطالبان لأنني كنت قد تابعت تقارير عنهم عبر التلفزيون، كما كنت قد قرأت عنهم في الفناك (Fnac). كانوا متطرفين في تقواهم وولائهم للدين، وقَدَّرْتُ أن أميناً وياسين كانا سيسارعان إلى تبني مواقفهم وإلى التعامل معهم كما يتعاملون مع حكمتيار. غير أنهما بقيا مصرين على موقفهما زاعمين أن الطالبان كانوا أهل بدعة، متطرفين، لا مسلمين حقيقيين. كانوا شديدي التعصب والتشدد في أسلوب معاقبتهم للناس، بعيدين عن اتباع شريعة الإسلام الحقيقية الصحيحة.

كان أمين وياسين يعرفان أشياء كثيرة عن أفغانستان لأنهما كانا في معسكرات التدريب هناك. ومع أنهما كانا شديدي التكتم حول الأمر، فإنني علمت بالأمر بما يشبه الصدفة حين كانا يمزحان على مائدة العشاء ذات مساء. كنا جميعاً قد تناولنا عشاء دسماً، وبعد الانتهاء من تناول الطعام كان ياسين قد اضطجع إلى الخلف على كرسيه واضعاً يديه على بطنه.

قال موجهاً كلامه إلى أمين: 'سامحنا الله؛ إننا، كلينا، نزيد وزناً.'

ابتسم أمين ثم ضحك وقال خَطْفاً: 'نعم، كنا، كلانا، ناحلين جداً في المعسكر'. ثم اضطجع هو أيضاً واضعاً يديه على 'كرشه' الصغير للدلالة على السمنة التي كان قد اكتسبها منذ ذلك التاريخ، وراح ياسين وحكيم يضحكان أيضاً.

وما إن هدأ الضحك حتى تابع أمين الكلام: 'ليس سهلاً أن يبقى المرء ملتزماً بطريق الله حين يكون مقيماً بين الكفار. إننا نبالغ في الإكثار من الطعام، لا نمارس الرياضة. يتسلل الضعف والوهن إلى أجسادنا.'

بدا الحوار غريباً بالنسبة إليّ في ذلك الوقت. فأمين وياسين كانا، كلاهما، رشيقين جداً. كانا يؤديان الصلاة، فرضاً وسنة، كل يوم. بنظري أنا، كانا يبدوان منضبطين على نحوٍ غير قابل للتصديق. لم أكن مثلهم من قريب أو بعيد. غير أنني كنت أتذكر ما كان أخي قد قاله لي في المغرب حول ضرورة اجتياز مراحل عديدة واختبارات كثيرة قبل الوصول إلى مستوى الجاهزية المطلوبة للجهاد.

كنت متأكداً من أن حكيماً، أيضاً، كان يريد أن يتحلى بتلك الصفة، صفة الانضباط، غير أنه كان يسعى إلى المطلوب بأسلوب خطأ. بالمقارنة مع أمين وياسين كان يبدو صغيراً إلى حدٍّ ما، أقرب إلى السُّخْف والتفاهة بمسواكه وجلبابه. كنت قد بدأت أدرك أن هذا كان هو رأي أمين وياسين أيضاً. كانا يلاطفانه دائماً، وسعيدان بوجوده قريباً منهما. إلا أنني استطعت أن أرى أنهما لم يكونا يكنان له أي احترام. بالطبع، لم أبادر قط إلى مفاتحة حكيم حول كل هذا. في الحقيقة لم أكن أتحدث معه في أي موضوعات جدية.

من المؤكد مئة بالمئة أنني لم أكن مثل أمين وياسين. لم أكن أؤدي الصلاة خمس مرات في اليوم. كنت أشرب وأدخن - سراً بالطبع، لأنني لم أكن قادراً على كشف أوراقي أمامهما. كذلك لم أكن أرى العالم، مثلهما، مقسوماً بين أتقياء مؤمنين من ناحية وكفار مُلحدين من الناحية المقابلة، إضافةً إلى أن خطابهم العنيف كان يزعجني. إلا أنني كنت معجباً بتجربتهما، بانضباطهما، بنار حب الله المتقدة في قلبيهما. كان ذلك هو ربي أنا أيضاً.

شيء واحد فقط كان يضايقني في مهنتي الجديدة: رشاشات العوزي. كنت حزيناً جداً وأنا أصغي إليهم جميعاً - حكيم، ياسين وأمين - مثرثرين حول الأمة والجهاد مع عدم ترددهم في إنفاق آلاف الفرنكات على شراء الرشاشات الإسرائيلية والطلقات الروسية.

لعل هذه هي مشكلة الإسلام الحديث مكثّفَةً. نحن معتمدون كلياً على الغرب ـ في جَلاّياتنا، في ملابسنا، في سياراتنا، في تعليمنا، في كل شيء. إنه لأمر مهين؛ إنه ذل يشعر به كل مسلم. ما من مرة تذكرتُ فيها رشاشات العوزي إلا وشعرتُ بالمهانة. مع أنني كنت ساخطاً على أمين وياسين بسبب نفاقهما، فإنني وجدتُ نفسي أشد استياءً من مجمل العالم الإسلامي. في الأزمان الغابرة كنا قد أنجزنا أشياء كثيرة ـ على أصعدة العلوم، الرياضيات، الطب، الفلسفة. كنا أصحاب الحضارة الأكثر تطوراً في العالم. أما الآن فنحن متخلفون. إننا عاجزون حتى عن خوض حروبنا ما لم تتوفر لنا أسلحة أعدائنا.

طارق

بعد انقضاء نحو أربعة أشهر على وصولي إلى بروكسل، انقلبت حياتي رأساً على عقب. لدى عودتي عصر أحد الأيام وجدتُ المطبخ محشواً بحشد من العلب والصناديق والأمتعة. لم أفهم ما كان يجري، انسحبتُ بسرعة صاعداً إلى غرفة نومي. ثمة كانت آلة تصوير فوتوكوبي كبيرة من طراز كانون في الممر، لم أكن قد رأيتها من قبل. وداخل غرفة نومي وجدت المزيد من الأغراض والعلب المبعثرة هنا وهناك.

هرعت عائداً إلى الطابق الأرضي حيث رأيت أمي وسألتها: "ما الذي يجري يا ماما؟ ما معنى هذه الأشياء؟"

"بعض أصدقاء حكيم آتون ليعيشوا معنا بعض الوقت. إنهم أمين، ياسين، وآخرين أيضاً. فَقَدوا شقّتَهم وباتوا بحاجة إلى مكان للإقامة."

لم أستطع تصديق ما سمعته. غير أنني كنت عاجزاً عن فعل شيء؛ كان البيت بيت أمي. اندفعت خارجاً، وصفعت الباب ورائي بقوة.

لدى عودتي إلى البيت بعد ظهر ذلك اليوم، وجدت حكيماً مع كل من ياسين وأمين ورجلين آخرين. كان الجميع مشغولين بتناول طعام العشاء. جلستُ مع الجماعة وقدم حكيم الشخصين الجديدين قائلاً: 'طارق وكمال.'

كان طارق الأشد إثارة بين المجموعة؛ لم يكن فيه شيء يشبه الآخرين. من الجلي أنه كان الأكثر رُقيّاً - أنيق، أوروبي، وأكبر سناً قليلاً. ربما في أواخر عشرينيات عمره. إذا تكلم كان الجميع يصغون باحترام. كان صاحب كاريزما طاغية سيطرت على الغرفة كلها. أما كمال فكان أكثر هدوءاً بما لا يقاس. نادراً ما كان يتكلم، غير أنه إذا فعل كنتُ أجد لغته الفرنسية بالغة العذوبة. إلا أنه لم يكن يتكلم العربية - أدركت هذا مباشرة من طريقته في نطق عبارة 'سلامو أليكم' عندما صافحني للمرة الأولى.

لم أقل شيئاً تقريباً خلال الوجبة، وغادرت فور الانتهاء من تناول الطعام. صعدت إلى غرفة نومي وتمددت في سريري. ما لبث الآخرون أن تسلقوا الدرج؛ فتح طارق الباب ودخل. حين انحنى وراح يبحث عن شيء في إحدى الحقائب، أدركت أنه كان شريكي الجديد في الغرفة. أغمضت عيني وتظاهرت بالنوم. ما لبثت أن غَفَوتُ. أخذني النوم.

استيقظت بعد نحو ساعتين. سمعت ضجيجاً في الغرفة. حين فتحت عيني، رأيت طارقاً عاكفاً على قراءة القرآن في ضوء مصباح الجيب وهو يصلي. تأوَّهْتُ وانقَلَبْتُ لأواجه الجدار. أيقظني ثانية قبل الفجر حين أدى صلاة الفجر.

تكرر المشهد نفسه ليلياً بعد ذلك؛ لم أعد قادراً على النوم سوى ساعات قليلة. أحياناً كان ياسين وأمين ينامان في غرفتي أيضاً، والثلاثة، جميعهم، كانوا يستيقظون منتصف الليل للقراءة والصلاة.

تعبت كثيراً. كنت ساخطاً شديد الغضب.

في ساعات النهار كان طارق وكمال سيستخدمان غرفة نومي مكتباً. ومعظم الوقت كان طارق يبقى هنا مشغولاً بكمبيوتره المحمول. ثمة كان جهاز فاكس على قاعدته، وكانت رسائل فاكس تصل كل ساعة. أحد الرجلين كان يبقى واقفاً باستمرار بجانب الجهاز لحظة وصول الرسائل، فلم أتمكن قط من رؤية طبيعتها أو هوية مرسليها. تأكيدات التحويل كانت تترك مرمية هنا وهناك مما مكّنني من معرفة مصادر الفاكسات. أسبوعياً، إما الأربعاء أو الخميس، كانت رسالة فاكس تصل من لندن أو السويد، أو من فرنسا أحياناً. درج طارق، أمين، وياسين على ترقب هذا الفاكس الأخير باستمرار، وعلى الحديث عن شخص اسمه إلياس موجود في الخارج. لم تكن لدي أي فكرة عن هويته. من جملة تعليقات صادرة عن آخرين، شكلت سلسلة من الملاحظات عن أنواع مختلفة من الأشياء: كان إلياس قد عاش في فرنسا، قد عاش في السويد، قد تزوج امرأة أوروبية. كنت أعرف شيئاً واحداً مؤكداً: كان إلياس يعيش الآن في لندن.

لدى توقعه وصول فاكس من إلياس كان طارق يحرص على ملازمة الجهاز على نحوٍ دائم. ذات يوم أنا أيضاً لازمت الجهاز، ثم تبعته إلى داخل غرفة النوم بعد أخذ الفاكس من الجهاز. سألته متظاهراً بحب الاستطلاع البريء: "ماذا تفعل؟"

رفع رأسه بسرعة؛ من الواضح أنه كان على عجلة من أمره. قال: "أُنْهي الأنصار."

بالطبع كنت على علم بالأنصار. كنت قد حشوت الظروف بها أسبوعياً منذ وصولي إلى بلجيكا. كنت اعلم أنها النشرة الإعلامية الصادرة عن الجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا GIA)، وأن النسخ التي كنا نرسلها كانت تذهب إلى عناوين في طول العالم وعرضه. وكل نسخة كنا نرسلها كانت ستُصوَّر بجهاز الفوتوكوبي مئات بل آلاف المرات لتوزيعها في المساجد. وكنت أيضاً أقرأ المزيد

عن نشـرة الأنصـار في الصـحف المتـوافـرة في الفناك Fnac. كنت أعـرف من اللومـوند والفيـغـارو أن السلطات كانت تعدها نشـرة إرهابية، وأن البـوليس كان يحاول الاهتداء إلى مصدريها.

ومن نشرة الأنصار هـذه اطَّلعت على المزيد من الأخبار عمـا كان يحدث في الجزائر. فأنباء الحرب الأهلية كانت تأتي مباشرة من خط الجبهة. كثيراً ما كان اللحـاق بالأحداث يتطلب أسبوعـاً أو اثنين من الجرائد الأوروبية. كانت الجمـاعة تعـدم عناصـر الشـرطة والمعلمين ولاسـيمـا أعـضـاء الجـمـاعـات المنافسـة في المعارضـة. كانت تستهدف المدنيين أيضـاً؛ كل من لم يكن مستعـداً لتبني نظرتها الإسـلاميـة. كذلك كان الإعلاميون، رجـال الفكر، المثقفون وجميع الأجانب أهدافاً مشروعة... والقائمة تطول وتطول.

تركزت مهـمـة طارق، كمـا علمت، علـى تجمـيع سـائر الفـاكسـات الواردة من لندن والسـويد، وترجـمـة كل المواد مـن الفرنسـيـة إلى العـربيـة، ومن العـربيـة إلى الفـرنسـيـة. فـالأنصـار كـانت تصـدر بالاثنين. وقـد كـان مكلفـاً بإضـافـة تعليـقـاته الخاصة أيضـاً. وكمال كان حاضـراً كل الوقت لمساعدته وكان استثنائي المهارة في الترجمة إلى الفرنسية. كان لدى طارق خاتماً يطبع به النسخة الأخيرة قبل البدء بتـصـويـرها على جـهـاز الفـوتوكـوبي. كـان الخـاتم صـورة لرشـاشَيّ كـلاشـنكوف متصالبين، مع سيف وقرآن.

أحيانـاً كان طارق يتحدث عمـا يكتبه أو يفكر بـه عن الجمـاعـة الإسـلاميـة المسلحـة في الجـزائر. كـان دائبـاً على انتـقـاد فـرنسـا لتـأييـدها الحكومـة في الجزائر. بدا مقتنعاً بأن الفرنسيين كانوا هم المسؤولين عن الحرب الأهلية، بأنهم كانوا يلعبون لعبة سياسـية في البلد بغية الحفـاظ على مصـالحهم النفطيـة. كنت أخـالفه الرأي. سـألتـه يومـاً: "ألا تعـتـقـد أن الجـزائريين أنفـسـهـم مسـؤولون ولو جزئياً؟"

كانت تلك صدمة حقيقية، وسألني عما عنيته. ذكَّرته بأن الجزائر كانت هي الأخرى قد سَعَتْ إلى إقامة علاقة دافئة مع فرنسا. فبعد بضعة أشهر من إعلان استقلال الجزائر عن فرنسا كان بن بلا، أو رئيس جمهورية جزائري، قد أبرم صفقة أتاحت للفرنسيين فرصة متابعة تجاربهم النووية على الأرض الجزائرية. شرط إبقاء الموضوع طي الكتمان. ومع أنني لم أكاشف طارقاً بصراحة، فإن الفضيحة الحقيقية تمثلت، حسب رأيي، لا بالطريقة المعتمدة من قبل الحكومات الغربية لاستغلال العالم العربي، بل بإذعان هذا العالم الإسلامي لتلك الطريقة.

لم يكن طارق مستعداً لسماع ما كنت أقوله، وكنت واثقاً من أنني كنت عاجزاً عن إقناعه بأي شيء. كنت ساخطاً. طرحتُ أخيراً السؤال التالي: 'إذا كانت فرنسا هي المشكلة، فلماذا لا تبادر الجماعة الإسلامية المسلحة إلى قتل الفرنسيين، بدلاً من الجزائريين؟'

رد دون انتظار: 'لم يحن الوقت بعد. غير أن ذلك سيحصل.'

في هذه الأثناء واصلتُ شراء الأسلحة من لوران. ذات يوم، جلبتُ معي كيس طلقات بعد إحدى عمليات التبادل. بعد وصولي إلى البيت طلب مني ياسين أن أضع الطلقات على السقيفة. توجست؛ لم أكن أبالي بشراء الذخيرة، غير أنني لم أكن راغباً في بقائها في البيت. غير أنني لم أعترض؛ وافقت على وضع الذخيرة في المكان المحدد.

حين أويت إلى غرفة نومي أنزلت السلم المفضي إلى السقيفة الواطئة ودسست نفسي في المكان مع كيس الطلقات. انتظرت بضع ثواني إلى أن تطابقت عيناي مع الظلام، وما إن فعلتا حتى صُدمتُ بما رأيت. ثمة كان أسلحة في كل مكان: بواريد قنص، كلاشنكوف، رشاشات عوزي، أكياس كثيرة من الذخائر. أشياء تذكرتها لأنني كنت قد اشتريتها من لوران؛ أشياء أخرى لم يكن قد سبق

لي أن رأيتها من قبل. كانت السقيفة ملأى إلى فمها ـ ثمة كانت أسلحة تكفي لتسليح جيش صغير.

حين نزلت عن السلم، أُصبت بالدوار. لم يكن قد خطر لي أنهم كانوا يخزِّنون الأسلحة هنا في البيت. كنت قد قدَّرت أن ياسين كان يعيدها إلى أي مكان آمن كان هو وأمين يقيمان فيه. راودني الشك في أن يكون حتى حكيم عارفاً بما كان يحصل. فهو لم يكن أقل مني تعلقاً بأمنا، ولا أظن أنه كان مستعداً لأن يعرِّضَها لمثل هذا الخطر. لم أستطع أن أصدِّق أنني كنت أنا بالذات قد عَرَّضتها لمثل هذا الخطر.

بات واضحاً أكثر فأكثر أن كلاً من طارق، كمال، أمين، وياسين كانوا يلعبون لعبة بالغة الخطر. أصبحت راغباً في إبعادهم عن البيت.

الأمور كلها كانت متسارعة. راح ياسين يطلب مدافع أكبر، كميات أوفر. أعداد متزايدة من العناصر الشابة كانت تمر ببيتنا في طريقهم إلى الجبهات. كثيراً ما كانوا يملؤون سياراتهم بأسلحة من السقيفة. المزيد من السيارات كانت تأتي وتذهب كل يوم.

مع أن أخي نبيل كان أقل مني بما لا يقاس اطلاعاً على ما كان يجري، فقد أحس هو الآخر بقدرٍ من القلق والارتياب. ذات يوم جاءني نبيل فيما كان الآخرون في الجامع. كان أكثر سخطاً مني. سألني: 'ما الذي يجري؟ هل تظن أن هذا آمن؟ ماذا لو جاءت الشرطة؟ إنها ستعتقلنا جميعاً. إنها ستعتقل ماما.'

حدثني عن أن لديه خطة. كان سيلقي بجهاز الفوتوكوبي إلى الأرض من طابق غرف النوم لتحطيمه لدفعهم إلى الرحيل. كان نبيل عملاقاً، وكان مستعداً ليكون عنيفاً جداً. خشيت فعلاً من أن يُقْدِم على فعل ما قال إنه كان سيفعله.

قلت له: "لا تكن سخيفاً. لن يفضي ذلك إلى أي نتيجة. سيؤدي فقط إلى استثارة غيظهم".

"ما الذي سنفعله، إذن؟"

كان عقلي قد بدأ يعمل بسرعة. كان نبيل أخي الأصغر، وكان من مسؤولياتي أن اهتم به وبأمي وأن أرعاهما. وَعَدْتُه: "سأتدبر الأمر".

القنصلية

بالفعل لم أكن متوفراً على أي فكرة عما كنت سأفعله. لم أكن أعرف كيف كنت سأتمكن من إخراج طارق والآخرين من البيت. تملكني الغضب؛ أحسست بأنني واقع في مصيدة. شعرت كما لو كنت أتبخر، أطلق سحابات من البخار. وهكذا وجدتني مُقْدماً على فعل أغبى شيء فعلته في حياتي.

صباح اليوم الذي أعقب اليوم الذي تحدثت فيه مع نبيل بقيت في الفراش عند نهوض الآخرين للذهاب إلى الجامع. تمارضت. بعد خروجهم قفزت من فراشي وفتحت حقيبة طارق. وجدت فيها جواز سفر وصورة امرأة لم يسبق لي أن رأيتها من قبل، وأكواماً من الأوراق النقدية من سائر العملات المختلفة.

لم آخذ المبالغ النقدية كلها، اكتفيت بجزء بسيط: بخمسة وعشرين ألفاً من الفرنكات فقط. تصورت أن من شأن أخذ شيء من الحقيبة أن يُفْهِم طارقاً بأن البيت لم يعد آمناً فيقرر الرحيل مع كل من أمين وياسين. غير أنني كنت شديد الرغبة في النيل منه. لم يكن هو، ومعه الآخرون، قادرين، حسب قناعتي، على إيذائي في الحقيقة - كانوا بحاجة إليَّ لتأمين الأسلحة. كنت مزهواً.

أمضيت الليل كله بعيداً عن البيت. كان في جيبي آلاف الفرنكات وكنت سعيداً ببقائي بعيداً عنهم. بدأت السهرة بعشاء طويل باهظ التكاليف في مطعم

في الغراند بلاس (الساحة الكبرى) ولم تنته حتى صباح اليوم التالي. حين اقتربت من البيت عائداً وجدت نبيلاً ينتظرني خارج المنزل.

بادرني: 'إياك أن تدخل' وانقض على ذراعي بقوة ورحنا نمشي في الاتجاه المعاكس.

أضاف نبيل: 'يريدون قتلك. عرفوا أنك أخذت الأموال وكانوا يتحدثون عن طريقة القتل.'

دُهشت: 'يقتلونني أنا؟ هم يريدون قتلي؟ قالوا هذا أمامك أنت؟'

'نعم، بالطبع. هذا هو ما يتعين عليهم فعله. أنت الآن طاغوت - لست إلا عدواً للمجاهدين. يتوجب عليهم قتلُك. إنها الشريعة.'

'وحكيم متفق معهم في هذا؟'

'بالطبع، كلهم متفقون في هذا الرأي.'

تسارع تفكيري؛ لم أكن قد توقعت هذا. كنت أخدمُهم منذ أشهر، أحشو ظروفهم وأزودهم بالبنادق لتسليح جنودهم. فجأة أصبحت طاغوتاً، عدواً للمجاهدين لمجرد سَطْوي على خمسة وعشرين ألفاً من الفرنكات؟ غدوت حتى أكثر غضباً وسخطاً من ذي قبل. وكان غضبي من حكيم استثنائياً لموافقته على هذا تحت سقف بيت أمي.

هذه المرة، عرفْتُ فوراً ما تعين علي فعله. شعرت بالأمر في أحشائي. حَدَّقْت في عيني نبيل وقلت: 'أريد منك خدمة يا نبيل.' أومأ تعبيراً عن استعداده للخدمة.

'أريدك أن تبقى في البيت النهار كله يوم غد. إذا لم أتصل بك مع حلول الظهر، أريدك أن تصعد إلى السقيفة. ثمة رشاشات كلاشنكوف هناك مع كيس

ذخيرة جرى اقتطاعهما من الشحنة الأخيرة. أعتقد أن تلك الأشياء هي الباقية. إذا لم أكن قد اتصلت فإنني أريدك أن تضعها في كيس. لابد لك من حمل الكيس إلى القناة ورميه فيها. هل تفهمني؟' بدا نبيل خائفاً. 'نعم. أفهمك. ولكن ما الذي ستفعله؟' سألني.

قلت له: 'لا أستطيع أن أخبرك. سيكون من الأفضل ألا تكون عارفاً بما سأفعله.'

أمضيت تلك الليلة في البيت. لم يقل أحد كلمة واحدة عن الأموال في أثناء العشاء، وأنا أويت إلى الفراش في الموعد المألوف. غير أن النوم لم يعرف طريقاً إلى عيني؛ كان كلٌّ من طارق، أمين، وياسين نائمين في غرفتي ولم أكن مطمئناً إلى ما كان يمكن أن يفعلوه.

في الفضاء الغريب الفاصل بين اليقظة والنوم، رأيت حلماً مفعماً بالحيوية أتذكره حتى اللحظة كما لو كان البارحة. كنت في الجبال مع حكيم، ماشيين في أحد الأودية. كان يرتدي جلباباً أبيض، وقد بدا مضيئاً تقريباً بين الصخور الداكنة. كنت أنا مرتدياً ملابسي العادية - سروال الجينز الأزرق وبوط الرياضة - وكنت أشكو. توسلّتُ قائلاً:

'هل نستطيع أن نتوقف هنا؟ أنا متعب. هل نستطيع أن نتوقف هنا؟' رد حكيم:

'لا، أيا أخ. لم نصل بعد.'

صباح اليوم التالي نهضت مبكراً جداً وغادرت البيت. صمّمْت على الذهاب إلى القنصلية الفرنسية. كنت أعلم أن الشرطة البلجيكية لن تساعدني؛ لم أكن في نظرهم سوى إرهابي لا مكان له إلا السجن. غير أن الفرنسيين كانوا أكثر اهتماماً بالجماعة الإسلامية المسلحة لأنهم كانوا يعرفون بأنهم مستهدفون.

وجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي المعروف بالدي جي اس إي DGSE كان معروفاً بالقسوة التي لا تعرف معنى الرحمة. قبل بضع سنوات كان عملاء الجهاز قد نسفوا سفينة السلام الأخضر، المناضلة قوس قزح، بالقرب من شواطئ نيوزيلاندا لتمكين الفرنسيين من متابعة تجاربهم النووية في القطاع الجنوبي من المحيط الهادي. كنت واثقاً من أن هذا الجهاز لن يُقْدم على تلويث يديه بشخص مثلي.

ما كنت لأستطيع أن أطمئن لأي شيء، بالطبع. كان من المحتمل أن أتعرض للاعتقال والإيداع في السجن. ذلك هو السبب الذي جعلني أطلب من نبيل إبعاد الأسلحة. إذا أقدم الفرنسيون على مداهمة البيت، كنت أريد أن أطمئن إلى أنهم لن يجدوا شيئاً. لم أكن أريد تعريض أمي ونبيل لأي متاعب جنباً إلى جنب مع الآخرين.

ركبت حافلة الترام المتجهة إلى مركز المدينة، ثم مشيت باتجاه مبنى القنصلية. أحشائي كانت تؤكد لي أن هذا كان هو التصرف السليم الوحيد. ومع ذلك كنت أحس بالانسحاق تحت ثقل الشعور بالذنب. تذكرتُ حكيماً، تذكرت كيف كان وأنا طفل يعطيني القطع النقدية والحلوى. تذكرت رشاشات العوزي. فكّرتُ بالمليار والست مئة ألف من المسلمين في طول العالم وعرضه، بهؤلاء الذين يتعرضون للإذلال نتيجة إخفاق العالم الإسلامي وغطرسة الغرب. فكّرتُ بهذه الأمور كلها لأنني كنت أحس بها في أعماقي، وكنت أعلم أن كلاً من حكيم، أمين، ياسين وطارق كانوا جميعاً يحسون بها في أعماقهم أيضاً. غير أنني كنت مضطراً لحماية عائلتي ونفسي، ولم يكن لدي أي خيارات أخرى.

حين وصلت إلى القنصلية، وقفت على الدرجات ورحت أحدق في الباب؛ دام ذلك أكثر من دقيقة. كنت في نوع من حالة الذهول والنشوة. كنت أعلم أن من شأن دخولي أن يؤدي إلى قَلْب حياتي رأساً على عقب وإلى الأبد. تزاحمت

الصـــور فـي رأسـي: صـــور طارق والبـــواريد ولوران وأمي وأمـين وياسـين وحكيم بجلبابه الأبيض الناصع ونبيل والطلقات والمجاهدين في أفغانستان والمدنيين في الجزائر. شعرت بنوع من الانقباض في صدري واغرورقتْ عيناي بالدموع فيما كانت الصور تدور وتدور.

ومن ثم، في لحظة سقط كل شيء، أصبح ذهني صافياً تماماً. فتحتُ الباب ودخلت.

جيل

في الداخل، وقفت أمـام مكتب الاسـتـقـبـال. قلت للفـتـاة الجـالسـة خلف الطاولة: 'أريد مقابلة أحد المسؤولين عن حدود فرنسا وأمنها.'

سَألَتْ: 'حول أي موضوع؟'

قلت: 'أخشى ألا أكون قادراً على إخبارك أنت. أريد أن أرى شخصاً مسؤولاً عن حدود فرنسا وأمنها. لدي معلومات. هل عندك شخص تنطبق عليه هذه الصفة، أم علي أن أرحل؟'

راحت تتمتم: 'لا، أرجوك. اجلس من فضلك. سأعود بعد دقيقة.'

بعـد بضع دقـائق ظهـر رجل بدا أنيـقـاً. من الواضح أن بذته غـاليـة الثمن.'طَلَبْتَ رؤيتي يا سيد؟'

أومأتُ.

'اتبعني من فضلك.'

قادني إلى مكتب واسع ودعاني إلى الجلوس على الأريكة. واصلتُ الوقوف. بدا مستغرباً قليلاً، إلا أنه كرر دعوته بعد ذلك قائلاً: 'اجلس من فضلك. وما الذي أردتَ قوله لي؟'

أجبت بحزم: 'لست بصدد رواية قصتي. يطيب لي أن أكلم أحداً يكون منخرطاً انخراطاً مباشراً في الحرب على الجماعة الإسلامية المسلحة. لدي معلومات ستكون ذات أهمية كبيرة، ولكنني أريد أن أتحدث مع شخص يكون على خط الجبهة.'

من الواضح أنه فوجئ وراوده شيء من الغضب. من المؤكد أنه لم يكن متوقعاً شخصاً مثلي يملي عليه شروطاً، أيشروط. إلا أنه ما لبث أن لان ورضخ. 'اذهب من فضلك واجلس هناك في غرفة الانتظار. سأكون معك في غضون بضع دقائق.'

غادرت المكتب وجلست في الخارج. بعد عشر دقائق فتح الباب ودعاني إلى المكتب ثانية. قال 'هل تستطيع أن تعود غداً صباحاً في الساعة العاشرة صباحاً تقريباً؟ إذا لم يكن ذلك ممكناً فقل لي مباشرةً.'

وافقت على العرض قائلاً: 'موافق. أستطيع أن كون هنا غداً.'

'جيد. حين تصل إلى هنا، بادر من فضلك إلى الجلوس في غرفة الانتظار. ثمة شخص سيقترب منك وسيزودك بالتوجيهات. ثم ستتبعه. يمكنني أن أؤكد لك أنه على علاقة مباشرة بالمعركة ضد الجماعة الإسلامية المسلحة.'

وافقت على الخطة ثم غادرتُ القنصلية. ما إن أصبحت خارج المبنى حتى وجدتُني أمام كشك للهاتف فاتصلت بأخي وقلت له: 'لا تبادر إلى أي حركة. اترك كل شيء في مكانه الآن.'

أمضيت الليل في البيت مرةً ثانية. كنت قد استجمعت أفكاري، وأدركت استحالة إقدامهم على قتلي في بيت أمي. كانوا بحاجة ماسة إلى البيت: لتخزين الأسلحة، لإيواء الشباب العابرين في الطريق إلى الجبهة، لوضع المعدات اللازمة لإصدار نشرة الأنصار. إذا كانوا سيقتلونني، فإنهم كانوا سيفعلون ذلك في مكان آخر.

في اليوم التالي استيقظت مبكراً. قبل الخروج مررت بغرفة نبيل. قلت له: 'اليوم مثل البارحة. إذا لم تسمع مني حتى الساعة الواحدة بعد الظهر، فسارع إلى رمي كل شيء في القناة.'

من الواضح أن نبيلاً كان متوتراً. سألني: 'هل أنت على اتصال مع البوليس؟'

أجبت: 'لا، أنا لا أتحدث مع البوليس. أنا بصدد شيء آخر، غير أنني لا أستطيع أن أبوح لك به.'

كنت في القنصلية في الساعة التاسعة والدقيقة السادسة والخمسين وجلست في المكان المخصص للانتظار.

في تمام العاشرة والدقيقة الثالثة، خرج رجل يرتدي معطفاً مَطَرياً من المكتب ومشى نحوي. بدا في الأربعينيات من العمر، لم يكن وجهه مميزاً بأي علامة فارقة. أتذكر أنني شَبَّهتُه بأحد معلمي المدارس.

وقف أمامي ومد يده قائلاً: 'صباح الخير، اسمي جيل.' صافحتُه، وتابع هو دون أي تغيير في تعبير وجهه أو نبرة صوته: 'سأخرج إلى الشارع الآن، وأريدك أن تتبعني بعد نحو ثلاث دقائق. ستراني على الزاوية. سأبدأ بالمشي وأريدك أن تتبعني. اترك مسافة جيدة بيننا. سأمشي نحو ثلاثين دقيقة. بعد ذلك سأقف أمام واجهة أحد المخازن التي تتاجر بالسجاد التحقْ بي هناك من فضلك وسوف نجد مكاناً نتحدث فيه.'

دار جيل بعد ذلك ومشى إلى خارج المبنى. ما لبثتُ أن تبعته، ورأيته واقفاً على الزاوية وهو يدخن سيجارة على بعد ما يقرب من خمسين متراً. ثم انعطف يميناً باتجاه الممر 44 وتبعته. انعطف عدداً من الممرات، غير أنه بقي معظم الوقت في شوارع مزدحمة. كان ثمة حشد كبير من المارة المشاة الذين كانوا أحياناً يحجبون رؤيتي، غير أنني كنت دائماً أعود إلى العثور عليه. تبعته على امتداد

عدد غير قليل من كتل المباني، رغم أني بقيت باستمرار ماشياً على الرصيف المقابل للشارع.

بعد نحو نصف ساعة بدأت أشعر بالتعب. وبالغضب. كنت أعلم أنه كان يحاول أن يتحرى ما إذا كان أحد يتعقّبني أم لا، ما إذا كنتُ مصطحباً أشخاصاً أم لا. بعد كل مجموعة مباني كنت أرى السيارة نفسها: سيارة أودي سوداء اللون مع امرأة شقراء خلف المقود. عرفت أنها كانت تتبعني، تقتفي كل خطوة من خطواتي. وثمة كان رجل آخر في معطف مَطَري بيج رأيته ثلاث مرات: مرة كان يحمل جريدة، مرة كان يشتري فطيرة في الشارع، ومرة كان ينتظر في أحد مواقف الحافلات. كنت قد قضيت عمراً في المغرب وأنا أحاذر عناصر الشرطة السرية لأتّقي شرَّهم، فبدا لي هذا أشبه بلعب أطفال.

أخيراً، بعد أربعين دقيقة، وقف جيل أمام مخزن للسجاد قريب من ساحة روجيه. قطعتُ الشارع ومشيتُ إليه ماداً يدي لمصافحته كما كان قد أوصاني. مد يده كما لو كان يريد مصافحتي، غير أنه ما لبث أن مدها إلى ظهري تحت معطفي ومررها بلطف على ظهري وجبيني.

سألته: "ما الذي تفعله؟"

"أحاول أن أعرف ما إذا كنت مسلَّحاً أم لا."

"صحيح، أنا أعرف ما أنت بصدده، ولكن ما الذي يجعلك تظن أنني أحمل سلاحاً بحق الشيطان؟"

"ربما أنت غير شاعر بالأمان، لا أعرف."

"هل تظن أنني على درجة من الغباء تجعلني آتي مصطحباً مسدساً لمقابلة أحد عملاء جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي DGSE؟"

ابتسم جيل وأشار إلى مدخل أحد الفنادق على مسافة نحو أربعين متراً. دخلنا وتوجهنا مباشرةً إلى المصعد. أبلغني جيل أن شخصاً ثانياً كان سيبقى جالساً في أثناء حوارنا، غير أن علي ألا أبالي.

غادرنا المصعد على الطبقة السابعة ومشينا في الممر. كان المكان هادئاً تماماً؛ كان فندقاً فاخراً، بأضواء خافتة وسجاد سميك. في نهاية الممر وقف جيل أمام أحد الأبواب وقرعه. بعد ثوانٍ قليلة قام رجل بفتح الباب. كان الرجل شاباً رياضياً بالغ اللياقة البدنية، من الواضح أنه حارس شخصي (بوديغارد). لم ينبس ببنت شفة. اكتفى بالجلوس إلى طاولة صغيرة وبقي محدِّقاً في شاشة كمبيوتره المحمول.

كانت الغرفة صغيرة. طاولة، جهاز تلفزيون، عدد قليل من الكراسي، ولا شيء آخر. جلسنا، جيل وأنا. مائلاً عليَّ قال: 'هيا قل لي! ما هي قصتك؟'

بدأت كلامي: 'أمضيت الأشهر الخمسة الأخيرة وأنا أشتري الرشاشات والذخائر للجماعة الإسلامية المسلحة. إلا أنني سرقْت من الجماعة مبلغاً من المال وهم الآن عازمون على قتلي.'

سألني: 'وكيف عرفت أن من عملت معهم كانوا من الجماعة الإسلامية المسلحة؟'

مددت يدي إلى جيبي، سحبت نسخة من الأنصار، عرضتها عليه قائلاً: 'هل تعرف هذه النشرة؟'

أخذ جيل الورقة وعاينها بدقة. قال: 'نعم، نحن على علم بالأنصار. من أين حصلت على هذه الورقة؟'

'إنهم يكتبونها ويطبعونها في بيتي. أنا أحشو الظروف بها كل أسبوع وأرسل نسخاً منها إلى سائر أنحاء العالم. هؤلاء الشباب، أعني الزبائن الذين يكتبونها

هم الذي أعمل عندهم. اشتريت لهم مئات الرشاشات وعشرات آلاف الطلقات حتى الآن.'

لم يقلْ جيل شيئاً، أيَّ شيء، وبقي وجهُه شبه خالٍ من التعبير. غير أنه قام بتعديل جلسته قليلاً، واستطعت أن أفهم من عينيه أنني أثَرْتُ اهتمامَه. حتى الحارس الشخصي رفع رأسه ونظره عن شاشة كمبيوتره المحمول. 'حسناً' قال جيل 'وما الذي تريده منا ثمناً لمعلوماتك؟'

'أريد منكم أن توفروا الحماية لأهلي. أريد منكم أن تُخْرجوا هؤلاء الناس من البيت. لا أريد لأمي أو لأخي الأصغر أن يقعا في أي وَرْطة بسبب الأفعال التي يقوم بها هؤلاء. وأريدكم أن تمنحوني هوية جديدة ـ حياة جديدة، عملاً، أي شيء. أريد أن أفلت من براثن هؤلاء الزبائن قبل أن يقتلوني.'

بقي جيل صامتاً وراح يعاينني لبضع ثوانٍ قبل أن يرد قائلاً: 'أستطيع حماية عائلتك، غير أنني لا أستطيع أن أعطيك كل ما تريده. فأنت لم تقدِّم ما يكفي بعد. إذا كنت راغباً في الحصول على كل هذه الأشياء فسوف يتعين عليك أن تفعل المزيد من أجلنا.'

سألتُه: 'وكيف أستطيع فعل المزيد؟ أنا لا أستطيع أن أعود إليهم. لستُ مازحاً، فهؤلاء لا يعرفون معنى الرحمة. سيقتلونني.'

راح جيل يتكلم ببطء وهدوء وقال: 'بلى، تستطيع أن تعود. هيا عد إلى البيت وقل لهم إنك ستعيد المبلغ. قل لهم، جميعاً، إنك تائب إلى الله وراغب في العودة إليه سبحانه وتعالى. سيتعين عليهم أن يقبلوك من جديد لحظة قولك هذا. ثم ستعود إلى كسب ثقتهم. تذكَّرْ أنهم بحاجة إليك أيضاً. فهم بأمس الحاجة إلى الرشاشات التي تزوِّدهم بها.'

فَعَل الكلامُ فعلَه. استخدم جيل كلمة ريبنتير (repentir التوبة) الفرنسية، إلا أنني كنت قادراً، من اللغة التي استخدمها، على إدراك أنه كان يشير إلى عبارة

توبوا إلى الله توبة نصوحاً العربية، التي تعني التماس العفو من الرب تعالى؛ مباشرة علمت أن جيل كان متخصص دراسات إسلامية، ومحيط باللغة الأصولية.

'غير أنني سرقت خمسة وعشرين ألفاً من الفرنكات، وقد بددتها. لا أستطيع تسديدها.'

'لا بأس. أستطيع أن أحل لك مشكلة المبلغ، غير أن الأمر سيستغرق نحو أسبوع من الوقت. عد إلى البيت الليلة وقل لهم إنك ستتدبر أمر المبلغ قريباً. حاول أن تركّب عذراً ما، حجة معينة.'

عرفت أشياء كثيرة عن جيل في ذلك الحوار. علمت أنه صاحب نفوذ في جهاز الدي جي اس إي، لأنه عرض المبلغ دون العودة إلى أحد. علمتُ أنه كان سيحصل عليه؛ ما كان ليقول لي إنه كان سيعود ومعه المال لو لم يكن قادراً على أن يفعل.

عرفت أيضاً أن جيل كان يعرف أكثر بكثير مما باح به. ينبغي أن يكون قد سبق له أن اطلع على أشياء أخرى مكّنَتْه من أن يدرك مدى احتمال انطواء معلوماتي على قدرٍ كبير من الأهمية. وهو لم يكن راغباً فقط في الحصول على المعلومات التي كنت قادراً على تقديمها إلى الجهاز الآن. كان يريد أن يحصل على المزيد من المعلومات في المستقبل. كان راغباً في أن أصبح جاسوساً.

وهكذا صِرْتُ جاسوساً لدى جهاز الدي جي اس إي الفرنسي (جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي). أخيراً وقعت في الفخ. كانوا يعرفونني، كانوا يعرفون عن عائلتي، كانوا يعرفون مكان إقامتي. وبوصفي جاسوساً كنت، أقله، صاحب شيء من السلطة عليهم. لم أوافق على العمل رغبة مني في محاربة الجماعة الإسلامية المسلحة. كان من شأن ذلك أن يأتي لاحقاً، لا في أثناء اللقاء

الأول بالتأكيد. حقاً، إن أقصى ما كنت أريده هو توفير الحماية لي ولأفراد عائلتي.

غير أنه كان يتعين علي أن أتنبه إلى شيء آخر. قلت لجيل: 'لابد لي من أن أتصل بالهاتف.'

'من الذي ستتصل به؟'

'لا أستطيع أن أبوح باسمه'

'يجب أن نعرف' قال جيل بنبرة صارمة.

أذعنت. 'علي أن أتصل بأخي. أمرتُه، أؤكد لك، بأن يلقي بكل الأسلحة في القناة إذا لم أتصل به حتى الواحدة.'

رفع جيل حاجبيه: 'لماذا أمَرْتَه بذلك؟'

'لأنني لم أكن واثقاً مما كنتَ ستفعله. كان من الممكن أن تقرروا اعتقالي، مما كان سيؤدي إلى عثوركم على جميع الممنوعات في البيت، فتسجنونني مع الآخرين.'

ابتسم جيل ثم ضحك قائلاً: 'يا لها من سرعة بداهة!'

لم نكن نحن الاثنين، جيل وأنا، سنتبادل الثقة الكاملة في أي من الأوقات - ولو على نحو تقريبي. غير أن الجليد كان قد بدأ يذوب قليلاً. مشى معي إلى كوة الهاتف في الشارع، اتصلت بأخي وقلت له أن يُبْقي كل شيء في مكانه، أن يترك الأسلحة حيث هي. ثم عدنا إلى غرفة الفندق حيث أمر الحارس الشخصي بالذهاب. سجل جيل رقماً على قطعة من الورق ناولني إياها، قائلاً إن علي أن أستعمل الرقم عندما أكون بحاجة إلى الوصول إليه. كان يتعين علي أن أترك رسالة أحدد له فيها مكان وجودي فيعود إلى الاتصال بي مباشرة.

ثم دس جيل يده في جيب معطفه وسحب ظرفاً. ناولني الظرف. قال: "سأحصل لك على المبلغ العائد لهم في الأسبوع القادم. إلى ذلك الحين هاك بعض المال."

سارعت إلى دفع الظرف باتجاهه فوراً. قلت: "لا أريد شيئاً. أنا لا أريد مالكم. أردت فقط حمايتكم." كنت أعني ما قلته. كنت راغباً في توفير المعلومات لجيل والجهاز، إلا أنني لم أكن مستعداً لتمكينهما من التحكم بي. إذا كنت سأعمل عندهما فكان ينبغي لذلك أن يتم وفق شروطي أنا.

نظر جيل إليّ باندهاش حين شرحتُ موقفي. إلا أنه ما لبث أن تكلم بصوت هادئ قائلاً: "اطمئن. ليس هذا راتباً. أعتقد فقط أن عليك أن تأخذ هذا المبلغ مقابل المعلومات التي زوّدتنا بها. اسمع، أنا أعرف أنك بحاجة إلى المال."

فأخذت الظرف المحشو بالأوراق النقدية.

لدى عودتي ذلك اليوم، كان حكيم هو الذي فتح الباب. حَدَّقْت في عينيه وقلت: "آسف أنا جداً بسبب ما اقترفت من فِعْلَة يا أخي. لقد أخذت المال وأنا نادم في أعماقي. لقد تبت إلى الله سبحانه وتعالى بكل صدق ومن أعماق قلبي، وقد صلّيت له داعياً إياه أن يلهمك أنت والإخوة الآخرين العفو عني."

كنت غارقاً في بحرٍ من الأسى. كان حكيم قد فعل أشياء مرعبة - بل كان قد تحدث عن قتلي. غير أنه كان لا يزال أخي، كنت شديد الكره لاضطراري إلى الكذب عليه. كنت كارهاً لفكرة التحول إلى جاسوس أتجسس عليه. لم أكن متوفراً على أي خيار آخر.

تابعت كلامي: "أنا خجل مما فعلته. سأعيد المبلغ بطريقةٍ ما. أرجو أن تمنحوني فرصة بضعة أيام فقط. لا أريد سوى العودة إلى الله."

حَدَّق حكيم فيّ لمدة دقيقة. استطعتُ أن أرى أنه كان يفكر بعمق. اعتقدت أنه كان موشكاً على أن يقول شيئاً، ولكنه ما لبث أن استدار ودخل البيت ثم أمسك بالباب ودعاني إلى الدخول.

وأنا أسير خلفه شعرت بأن العفو قد تم. أن يكون حكيم قد اقتنع أو لم يقتنع مسألة أخرى، إلا أنها لم تكن ذات أهمية. لم يكن ثمة أي شيء آخر كان يستطيع أن يفعله. كان يعرف الشرع الإسلامي أكثر مني بما لا يقاس، ولم يكن يستطيع أن يشكك بكلامي إذا قلت إنني راغب في العودة إلى الله. لم يكن مسموحاً له أن يضرب أخماساً بأسداس حول نواياي. إذا قلت تُبْتُ إلى الله فما عليه إلا أن يصدقني.

إذا كذبت ووقعت في الخطيئة من جديد، فقد كان، على أي حال، قادراً على إعدامي.

الصور

بعد أسبوع قابلت جيل من جديد. تركت له رسالة على الرقم الذي كان قد زودني به، فأعاد الاتصال ليحدد مكاناً للاجتماع. اتبعنا الروتين نفسه الذي اعتمدناه في المرة الأولى: تبعته على مسافة نحو ثلاثين متراً مدة نصف ساعة تقريباً، وكنت بعد كل بضع كتل مباني أرى الوجوه ذاتها التي كان قد سبق لي أن رأيتها منذ ما لا يزيد على بضع دقائق. وكما في المرة الأولى انتهينا إلى فندق قريب من ساحة روجيه، وإن لم يكن الفندق السابق. لم يكن ثمة أي شخص ثالث في الغرفة هذه المرة.

ما إن جلسنا حتى صارحتُ جيل بأنني علمت أن زبانيته كانوا يتعقبونني. رد: 'لا تكن سخيفاً'. وضحك. لم أتابع الجدل غير أنني كنت واثقاً من أنني كنت على حق. تابع جيل كلامه: 'عندي لك أخبار سارة. المبلغ معي. أريدك أن تبقى

في البيت وأن تتحلى بالهدوء والتواضع. عليك أن تستعيد ثقتهم، ولسوف نعرف المزيد لاحقاً."

أعطاني مبلغ الآلاف الخمسة والعشرين من الفرنكات، وتحدثنا لعدد إضافي من الدقائق القليلة قبل المغادرة. بعد زمنٍ طويل، قال لي جيل إنه، حين غادرني بعد ذلك اللقاء الثاني، لم يكن واثقاً من أنني كنت أخطط لإعادة المبلغ إلى طارق، بدلاً من الاحتفاظ به لنفسي. أزعجني ذلك حقاً.

ما إن وصلتُ إلى البيت حتى سلّمتُ المبلغ إلى حكيم ليعيده إلى طارق. لم أعد قلقاً من التعرض للقتل من قبلهم، غير أنني كنت متأكداً من أنهم لن يثقوا بي من جديد في الوقت نفسه. وفي الحقيقة فإن أميناً وياسين كانا يبقيان عندنا فتراتٍ أقل فأقل، ولم أكن قد رأيت طارقاً منذ اليوم الذي كنت سطَوْتُ فيه على المال.

بعد ثلاثة أيام من إعادة المبلغ إلى حكيم، نزلتُ إلى الطبقة الأرضية لأجده جالساً إلى مائدة المطبخ مع أمين وياسين. حين رأيتهما أغلقت الباب محاولاً تجنبهم. إلا أن ياسين كان قد رآني فناداني إلى المطبخ. وقفت أمامه وأمام أمين خافضاً رأسي، ثم استغفرتهما أيضاً.

نظرا إلي ببرود لبضع ثوانٍ، ثم تكلم أمين قائلاً: "نحن نسامحك ونوافق على عودتك. من المؤكد أن الشيطان كان قد أغواك لبعض الوقت، غير أننا سعداء لأنك قررت العودة إلى الله."

إذا وضعنا الشرع الإسلامي جانباً، فإن أميناً وياسين كان لديهما سببٌ آخر يدفعهما إلى مسامحتي: كانا بحاجةٍ ماسة إلى الأسلحة. كنت قد طلبت من لوران عدداً من رشاشات العوزي قبل اتصالي مع جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اسم إي) ببضعة أيام، وكان ياسين يريد الرشاشات الآن.

غير أن علاقتنا الآن كانت مختلفة. لم يعودوا واثقين بي. بعد نحو أسبوعين عاد طارق إلى الظهور، وبُعَيْد ذلك بدأت الصناديق والعلب والمعدات تغادر البيت. بل وقاموا أيضاً بترحيل جهاز الفوتوكوبي. من الواضح أنهم لم يعودوا يشعرون بالأمن هنا. كانوا قد عثروا على مكان جديد للإقامة والعيش.

قبل رحيلهم، أخذتُ ملفين من الصناديق الموجودة في المطبخ لإطلاع جيل عليهما. وواصلت أخذ قسائم التأكيد من جهاز الفاكس أيضاً. كان كل من أمين وياسين موجودين لدى وصول الفاكسات على الدوام. تابع أمين وياسين التردد على البيت بالوتيرة نفسها كما قبل انتقالهما. كذلك كان ثمة أعداد كبيرة من الرجال كانت لا تزال تدخل البيت وتخرج منه في الطريق إلى الجبهة. إلا أن طارقاً لم يكن يأتي إلا نادراً، كما أنني لم أعد أرى كمالاً قط.

واصلتُ إيصال طلبات ياسين إلى لوران. كنت دائباً على شراء الكثير من الأشياء نفسها. من الطلقات والبنادق أحياناً، والمناظير الليلية بين الوقت والآخر. مع مرور الوقت صار ياسين يطلب معدات إلكترونية كثيرة أيضاً: سكانرات راديو، محوِّلات، وأشياء شبيهة. بدأت المياه تعود، شيئاً فشيئاً، إلى مجاريها. أو أقله إلى وضعها فيما قبل انتقال طارق.

دَرَجْتُ على لقاء جيل مرة كل أسبوعين. كنّا نتبع النظام نفسه في كل مرة. كنت أتصل بالرقم الذي زوَّدَني به، وكان هو يحدد المكان الذي كنت أستطيع أن أجده فيه. كنت أتبعه، ثم لا نلبث أن نعقد اجتماعاً في أحد الفنادق الفاخرة، عادةً في مكان قريب من ساحة روجيه. كل مرة، كان، في نهاية اللقاء، يعطيني نحو ثمانية آلاف فرنك، أحياناً أكثر قليلاً، ثمناً للمعلومات التي أكون قد زوَّدتُه بها. على هذا الصعيد كان جديراً جدارة كاملة بالثقة. لم أضطر قط إلى تذكيره أو مطالبته بالمال.

كان أقل أهلاً للثقة من نواحٍ أخرى، وبدا الأمر فظاً في البداية. كان جيل ذا مزاج دكتاتوري: كان مولعاً بالتسلط الدائم. كان يريد أن يلقّنني كل ما يتعين علي أن أقوله لكل من أمين، ياسين، وطارق. ظل دائباً على دفعي إلى التسلل إلى 'حَلَقَتهم الداخلية' موجهاً إياي إلى الطريقة الناجحة. غير أنني كنت صاحب النفوذ - صاحب المعلومات التي كان بحاجة إليها - ولم أكن سعيداً بتلقي الأوامر منه. صارحتُه بذلك، أكثر من مرة، وكنت أعلم أنه كان منزعجاً.

أنا أيضاً كنت غاضباً. كنت واثقاً من أنه كان مستعداً لأن يجردني من كل شيء إذا ما مكّنته من ذلك. كنت سأكف عن أن أكون ذُخْراً بالنسبة إليه؛ كنت سأغدو نقطة ضعف. كان من شأنه أن يصبح بحاجة إلى التخلص مني، وكان يستطيع أن يضعني في السجن، أو أن يفعل بي ما هو أسوأ. لم أكن مستعداً لأن أسمح لذلك بأن يحدث.

وهكذا ما لبثنا مع مرور الزمن أن توصلنا إلى نوعٍ من التوافق الصعب المتوتر. عموماً، لم يكن يسأل عن أشياء محددة. كان يكتفي بطرح سؤال: 'ما الذي يجري؟' فأحدّثه عما كنت قد رأيته. أحياناً كنت أزوّده بأشياء مادية مثل قسائم الفاكس أو الملفات كنت قد فتحتها لأجدها مجرد قائمة عناوين طويلة بعضها في فرنسا وبعضها الآخر في تونس. لم يبدُ الأمر استثنائي الأهمية بنظري، غير أن جيل بدا بالغ السرور. أثنى على ما قمت به من عمل.

كان جيل شديد الاهتمام بالأنصار. أراد أن يعرف المزيد عن الختم الذي كنت قد رأيته مع طارق. سألني عما إذا كنت قد رأيت أحداً غيره مستخدماً الختم أو آخر شبيهاً فنفيت. سألني عن العناوين التي كنا نرسل النشرة الإعلامية إليها فأفَدْتُه بأنها كانت تذهب إلى سائر أطراف العالم. لم يكن الأمر مقتصراً على أوروبا أو أفريقيا أو الشرق الوسط، بل كان يشمل الولايات المتحدة وكندا والبرازيل والأرجنتين وروسيا وجنوب أفريقيا وأستراليا - كل الأمكنة،

أيضاً. كان جيل يسجل ملاحظات بالغة الدقة عن هذا كله، وأستطيع أن أؤكد أنه كان مهتماً.

وما أكثر ما كنا، جيل وأنا، نستعرض الصور؛ آلاف الصور في غضون بضعة أشهر. كان يطرح رُزَماً من الصور على الطاولة ويسألني عما إذا كنت أتذكر أصحابها. في البداية لم يكن سوى عدد قليل ممكن تذكرتهم: أمين، ياسين، طارق، حكيم. ولكن الأعداد تزايدت مع مرور الزمن: ثمة كان أولئك الذين جاؤوا لتناول العشاء، آخرون جاؤوا لركن السيارات أو أخذها، وغيرهم مروا بالبيت في الطريق إلى الجبهات ومنها. بدا جيل عارفاً أشياء كثيرة عن بعض هؤلاء سلفاً؛ كان يعرف عدداً كبيراً من أسمائهم. كثيراً ما كان يسعى للحصول على المزيد من المعلومات مني أنا: معلومات عَمَّنْ تحدث مع من، من أين كان يأتي هذا وإلى أين كان يذهب ذاك، ما اللغة التي كانوا يستخدمونها، من كان المسؤول. كان يريد أن يعرف أسلوب عمل التنظيم. تمثَّلَتْ مهمتي بسد الثغرات في المعلومات المتوفرة لديه سلفاً.

لم تكن الصور من بلجيكا فقط. مرات كثيرة كان يعرض علي صوراً لرجال أعرفهم، ولاسيما طارق في بلدان أجنبية. صور من فرنسا، إسبانيا، هولندا، إنجلترا. أدركت أن الجهاز كان سيتعقب الشخص الذي أتعرف عليه في كل مرة.

من هذا كله عرفت تدريجياً نتفاً إضافية من المعلومات عن الجماعة الإسلامية المسلحة. عرفت أن أميناً كان رئيس العمليات السياسية للخلية كلها في بروكسل. ياسين كان يدير الجناح العسكري؛ كان مسؤولاً عن تأمين الذخيرة واللوجستيات اللازمة لنقلها من مكان إلى آخر.

أحياناً، كنت أتحدث مع جيل عن السياسة أيضاً. لم يطلب مني قط رأيي حول هذه الأمور، إلا أنني كنت أبوح به على أي حال بين الحين والآخر. قلت له ذات يوم:

'اعلموا أنكم خاسرون سلفاً'

'خاسرون ماذا؟' سأل جيل

'معرككتم ضد الإرهابيين. نعم أنتم خسرتم المعركة وانتهى الأمر.'

كان جيل فضولياً وسأل عن السبب الكامن وراء كلامي. قلت له إنني كنت أعتقد أن المسلمين في جميع الأمكنة كانوا يتمردون على الحكام الدكتاتوريين الذين كانوا يعيشون في ظلهم. في كل من تونس، المغرب، مصر، الجزائر وسائر بلدان الشرق الأوسط، كان المسلمون يعرفون أن حكوماتهم مدعومة من فرنسا، إنجلترا، أو الولايات المتحدة. صحيح أن العيش في ظل هذه الأنظمة القمعية كان على درجةٍ كافية من السوء، ولكن معرفة كونها مجرد دمى بأيدي دولٍ صهيونية أو مسيحية كانت أسوأ. كان ذلك يثير غضب المسلمين ويدفعهم إلى كره الغرب. وقد أدى إلى جعلهم غير واثقين بالديمقراطية، لأنهم كانوا يرون مدى لا ديمقراطية البلدان الغربية إذا كان الأمر يصب في خدمة مصالحها. قلت له إن العنف كان سيظل مستمراً طوال بقاء القوى الغربية دائبة على التلاعب بالعالم الإسلامي.

لم يكن جيل يعلق ولو بكلمة على ما كنت أقوله حول هذه الأمور. كان يميل إلى الخلف ويصغي فقط.

حين كان يقع حدث غير عادي، كنت أسارع إلى إبلاغ جيل به. وقد كان جيل استثنائي الاهتمام بإلياس، ذلك الرجل المقيم في لندن الذي كان طارق على اتصال به فيما يخص الأنصار. كان جيل يطلب المزيد من المعلومات عنه ـ عن إلياس ـ إلا أن الأشياء الوحيدة التي استطعت تزويد جيل بها عنه تمثَّلتْ بقسائم تأكيد جهاز الفاكس لأنني لم أكن قد رأيت إلياس هذا قط.

وبالتالي فقد كنت شديد الاهتمام حين سمعت يوماً كلاً من ياسين، أمين، وحكيم يتحدثون عن إلياس. وحين طلب حكيم مني صباح اليوم التالي الذهاب معه إلى المطار لاستقبال أحدهم، سارعت إلى انتهاز الفرصة.

في المطار استقبلنا رجلاً معه حقيبة صغيرة. كان صغير السن. في أوائل عشرينياته. لم يبادر حكيم إلى تقديم أحدنا للآخر، مما أبقاني عاجزاً عن تأكيد أنه كان إلياس على الرغم من افتراضي أنه هو.

اصطحبناه إلى البيت، ثم بادرنا، بعد بضع ساعات، إلى نقله إلى أحد مرائب السيارات في الجزء الشمالي من بروكسل. كان ياسين وأمين قد رافقانا، ولدى الوصول إلى المرآب نزل الجميع، باستثنائي أنا، من السيارة.

سألت: 'هل أستطيع مرافقتكم؟'

رد أمين: 'لا. ابق أنت في السيارة.'

راقبتهم، إذن، من السيارة. وقف الأربعة في حُزْمة لبضع دقائق، ثم اقترب منهم شخص خامس. لم أر الجهة التي جاء منها. كان أقصر قامة من الرجل الذي استقبلناه في المطار، أكبر سناً بكثير. أقله، في الثلاثينيات من عمره. كان حليق الرأس والذقن. من الواضح أن الآخرين نظروا إليه باحترام. حتى من السيارة، استطعت أن ألاحظ أنهم كانوا يتعاملون معه بقدرٍ كبير من الاحترام.

تحدث الرجال الخمسة لبضع دقائق، ثم قام الأصغر سناً بتسليم الحقيبة إلى الأكبر سناً. سارع الجميع، عدا الرجل الأكبر سناً، إلى العودة إلى السيارة. ثم أعدنا الشاب إلى المطار حيث أنزلناه ليلتحق بالرحلة المُغادِرة إلى ستوكهولم.

حين قلت هذا كله لجيل، بدا شديد الانفعال وأراد معرفة المزيد عن الرجل الأكبر سناً، ذلك الذي كنت قد راقبته وأنا في السيارة. لم أستطع أن أكثر من الكلام عنه، غير أنني تمكنت من وصفه. كان جيل شديد الاندهاش. أكْثَر من الابتسام وأفاد بأنني كنت قد حققتُ إنجازاً عظيماً.

كان جيل قد بدا على الدرجة نفسها تقريباً من الاندهاش في مناسبةٍ أخرى، حين علمتُ أن لطارق اسماً آخر. اكتشفتُ هذا بالصدفة. ذات يوم، كنت في البيت حين كان طارق أيضاً في الوقت نفسه مشغولاً بتلقي الفاكسات. بقي لتناول العشاء. نبيل أيضاً كان في البيت، ومعه صديقه علي؛ ونحن الثلاثة كنا نخطط للذهاب إلى السينما.

بعد انتهائه من تناول الطعام، صعد نبيل إلى الطبقة العليا لجلب معطفه. وهو على السلم نادى علياً باسمه - أراد أن يسأله عن شيء - انتبه علي ورد على سؤال نبيل. غير أنني لاحظت أن طارقاً انتبه أيضاً، بل وفتح فاه ليقول شيئاً. تماسك بسرعة ولزم الصمت على الفور. أطرق وركّز على متابعة الأكل كما لو أن شيئاً لم يحصل.

في المرة التالية التي قابلت فيها جيل أبلغته بأن طارقاً استجاب لاسم علي. نشر ابتسامة عريضة على وجهه واضطجع على أريكته قائلاً: "تلك معلومات جيدة. نعم جيدة جداً".

بعد نحو شهرين من العمل مع جيل، سئمتُ من كل الهراء المتمثل بالخنجر تحت العباءة. كنت قد زوّدت جيل بكميات كبيرة من المعلومات، وكان هو قد قال لي غير مرة إنني كنت أقوم بعملٍ ممتاز. وبالتالي فقد أزعجني أنني بقيت ملزماً باتباع الإجراءات التي طُبقت على لقائي الأول رغم تكرر لقاءاتي. في كل مرة كان يتعين علي أن أتبعه في شوارع بروكسل كلها لمدة نصف ساعة، وإن كانت الرحلة تنتهي بالضرورة في أحد فنادق ساحة روجيه. وفي كل مرة كنت ألاحظ أقله واحداً من زبانيته متعقباً إياي.

جابهتُ جيل حول الموضوع مرة بعد أخرى. أبلغتُه بأنني كنت أعرف أنني متبوع وطلبت منه أن يكشف السبب. بقي مصراً على الإنكار قائلاً: "ما الذي يجعلني بحاجةٍ إلى تعقبك؟"

فيما بعد، بعد نحو عام كامل، بات الأمر كله عبثاً في عبث. كنت ماشياً خلفه عبر ممر تحت ساحة روجيه، بعد بقعة كان يقف فيها المشرد نفسه الذي كان يبيع الصحف كل يوم. كنت قد مررت بهذه النقطة مئات المرات، وكنت أعرف المشرد؛ بل وكنت قد اشتريت جريدته مرة أو اثنتين. كان المشرد عجوزاً هزيلاً، أسنانه مسوسة ومتداعية في فمه. غير أن المكان كان في ذلك اليوم مشغولاً برجل آخر. كان الزبون الجديد متوسط العمر، بديناً بعض الشيء. أسنانه سليمة مئة بالمئة.

ما إن وصلنا، جيل وأنا، إلى غرفة الفندق، حتى انفجرت ضاحكاً. قلت له: "صارحني الآن! هل أنت مصر على أن تستمر في القول بأنك لا تراقبني؟ رأيت الزبون الجالس في الممر تحت ساحة روجيه إنها قصة مثير للسخرية."

أخيراً، انهار جيل. ابتسامة هادئة غطت وجهه. قال: "حسناً، حسناً" وهو يضحك. "أنت على صواب. لقد ألقيتَ القبضَ عليّ. ما الذي أستطيع قوله؟"

على امتداد هذه الأشهر، أمضينا، جيل وأنا، مئات الساعات ونحن نتحدث كل منا إلى الآخر. في الحقيقة تحدثت معه أكثر من أي شخص آخر. صرنا نتبادل نكات صغيرة، وكثيراً ما كنت أجدني ميالاً إليه. وأعتقد أنه كان يُعجَب بي أحياناً أيضاً. إلا أنه كان لا يلبث أن يقترف فِعلة بشعة، لا لشيء إلا ليؤكد لي أنه صاحب القول الفصل الممسك بزمام الأمر. كنت أقاوم لأثبت أنه كان واهماً.

ذات يوم، كوّم رزمةً من الصور على الطاولة طالباً مني معاينتها. ما إن نظرت حتى رأيت صورة نبيل. حملت الصورة وعرضتها عليه قائلاً: "ما هذه الصورة بحق العُهّر؟ أنتم تعرفونه تمام المعرفة. إنه أخي نبيل. لا علاقة له بأي شيء من كل هذا."

هز جيل كتفيه واعتذر، إلا أن الصورة ما لبثت أن ظهرت على الطاولة بعد بضعة أسابيع. ثار غضبي هذه المرة. صرخت: "أبعد هذه الصورة. أخبرتك مئة مرة. إن نبيلاً ليس متورطاً على الإطلاق في أي من هذه النشاطات. لا أريد أن أرى هذه الصورة مرة أخرى أبداً". كنت أرتجف من شدة الغضب.

لم يعد جيل قط إلى عرض تلك الصورة علي. إلا أنني لم أنسَ الحادث في الوقت نفسه. فأنا كنت قد لجأت إلى جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) لمعرفتي أنه عديم الرحمة، وكنت أعرف، بالتالي، أن من شأن جيل أن يكون، هو الآخر، بلا رحمة، بالضرورة. بصرف النظر عن المودة التي صار يبديها، فقد كنت على يقين دائم بأنه لم يكن ليتردد في قذفي، جنباً إلى جنب مع أخي وأمي، إلى الذئاب فور انتهائه من مهمة الحصول على كل شيء كان يريده مني.

رحلة إيرفرانس رقم 8969

يوم 24 كانون الأول/ديسمبر 1994، تغير كل شيء بالنسبة إلي. ذلك هو اليوم الذي أقدم فيه أربعة من أعضاء الجماعة الإسلامية المسلحة على اختطاف طائرة ركاب عائدة إلى الخطوط الجوية الفرنسية (إيرفرانس) على مدرج مطار مدينة الجزائر.

طوال السنة واظبتُ على قراء طوفان من المواد عن تصعيد الحرب الأهلية في الجزائر. كانت الجماعة الإسلامية المسلحة قد استولت على قطاعات واسعة من الريف. كانت تقتل الناس دون تمييز ـ تقتل النساء، الأطفال، حتى المواشي. كانت تهاجم المدارس العلمانية وتذبح المعلمات والمديرات، بل وحتى التلاميذ والتلميذات أحياناً. كنت اطلع على هذا كله من قراءة الأنصار التي لم تكن تكتفي بالكلام عن الهجمات بل كانت حريصة أيضاً على تبريرها شرعياً ولاهوتياً. كانت

تزعم أن هذه الهجمات على المدنيين كانت مشروعة لأن هؤلاء الناس كانوا يدعمون النظام العدو. مما لم يكن يعني سوى أنهم لم يكونوا من مؤيدي الجماعة وداعميها. وهذا كله كان، بالطبع، منطقياً ومعقولاً بالنسبة إلى كل من أمين، ياسين والآخرين. أما بنظري أنا فقد بدا خطأ في خطأ من الألف إلى الياء. مع الزمن كانت الجماعة تزيد من محاولاتها الرامية إلى إقحام فرنسا في الحرب. كانت تستهدف مواطنين فرنسيين على نحوٍ خاص؛ ففي الخريف الماضي كانت قد قتلت خمسة من موظفي السفارة الفرنسية.

معظم ركاب طائرة الخطوط الجوية الفرنسية كانوا مسلمين. فالناس الذين يطيرون من باريس إلى مدينة الجزائر وبالعكس، ليسوا، في الغالب، إلا مهاجرين ذاهبين لزيارة الأهل. إلا أن الجماعة لم تكن تبالي. كانت فقط تريد أن تظهر للعالم أنها كانت تهاجم فرنسا. لم يكن الأمر بالنسبة إلى الجماعة سوى رمز.

بدأت عملية الاختطاف بجريمة قتل. كان المختطفون قد هرَّبوا عدداً من رشاشات الكلاشنكوف إلى داخل الطائرة، وبعد بضع ساعات ألقوا بجثة أحد الركاب إلى المدرج. كان المغدور أحد ضباط الشرطة الجزائريين. هدد المختطفون السلطات بقتل المزيد من الركاب إذا لم يُسمح لهم بالإقلاع. ولكن السلطات الجزائرية رفضت الإذعان للتهديد، فسارع عناصر الجماعة إلى قتل راكب آخر ورمي جثته إلى الأرض. جرى هذا كله في الساعات القليلة الأولى.

لم يكن عندنا تلفزيون في البيت. فالتلفزيون طاغوت، رجس من عمل الشيطان، بالطبع. غير أن الأحداث كانت تتطور بسرعة إلى درجة أصبحتُ معها عاجزاً عن مواكبتها عبر قراءة الصحف في الفناك. اشتريت جهازاً صغيراً خاصاً وهربته إلى داخل غرفة نومي. بقيت ملتصقاً بالجهاز طوال فترة المحنة.

بعد يوم كامل من بدء الاختطاف، كانت الطائرة لا تزال جاثمة على المدرج في مطار الجزائر. لم يكن الجيش مستعداً بعد للسماح بإقلاع المختطفين. في ساعة متأخرة من الليل في 25 كانون الأول/ديسمبر، أعدم المختطفون راكباً ثالثاً بالرصاص وألقوا به إلى المدرج، كما كانوا قد فعلوا مع الآخرين.

حقاً كان غريباً أن يتابع المرء هذا كله على شاشة التلفزيون. منذ أشهر وأنا عاكف على قراء سائر القصص المرعبة المنشورة في الأنصار وأحياناً في الصحف الفرنسية أيضاً. كانت سلسلة طويلة من قصص حَزّ الرقاب، المذابح الجماعية، تفجير السيارات. إلا أن الرؤية على شاشة التلفزيون كانت مختلفة. فمشاهدة تلك الجثث على المدرج، وتصوُّر ما كان محتمل الحدوث في الداخل، جعلاني أشعر بالغثيان والرغبة المادية في التقيؤ بطريقةٍ لم يسبق لي أن شعرت بها وأنا أقرأ الروايات منبطحاً على أرضية الفناك. بقيت دائم التفكير بركاب الطائرة، بالتأكيد كانوا مرعوبين جداً. لم يكونوا قد اقترفوا أي ذنب. لم يفعلوا سوى زيارة الأهل ثم ما لبثوا أن وجدوا أنفسهم في هذا الكابوس الرهيب.

كنت شديد التوتر والانفعال وأنا أتابع ما كان يجري. بقيت في غرفتي أنظر كل الوقت إلى شاشة التلفزيون وأصلّي داعياً ألاّ يتم قتل المزيد من الناس. غير أنني نزلت مرة إلى الطبقة الأرضية لجلب بعض الطعام، ووجدت في غرفة الجلوس كلاً من أمين، ياسين، وحكيم، وطارق. كانوا منتشين، سعداء وهم يتحدثون عن حادثة الاختطاف. كانوا يعقدون الآمال على حصول مذبحة لخَطْف اهتمام العالم. جعلني هذا أُحِسُّ بالمزيد من القرف والرغبة في التقيؤ.

بعد ثلاثة أيام من بدايتها، انتهت عملية الاختطاف. سُمح للطائرة بالإقلاع واستُدرج المختطفون إلى أمر الطيارين بالهبوط في مرسيليا حيث بادر الفرنسيون إلى اقتحام الطائرة. تمت عملية تبادل كثيف لإطلاق النار. كانت

الشـرطة الفـرنسـيـة والمخـتـطفـون يتـبـادلون إطلاق النـار داخل الطائرة حيث كان الركاب لا يزالون في أمكنتهم. أقدم المختطفون على استعمال القنابل، وعدد كبير من الركاب أصيبوا بالشظايا. أحد الطيـارين كان شديد الرغبـة في الخلاص إلى درجة أنه قفز من النافذة إلى المدرج. عند الانتهـاء كان المختطفون جميعاً قتلى، وكان عدد كبير من الركاب جرحى.

لاحقـاً سـمـعت أن المختطفين كانوا مـزوَّدين بكميـات كبيـرة من الديناميت. كانوا يخططون لتفجيـر الطائرة فوق باريس - قنبلة نارية عمـلاقة ليـراها العـالم كله. ربما كانوا مستعدين لتعطيلها لو كانوا يعرفون كيف يقودون الطائرة. تعين عليهم بدلاً من ذلك أن يعوّلوا في تنفيذ مهمة التفجير على طيـاري سلاح الجو بدلاً منهم هم أنفسهم. وبعد سنوات، اكتشفت أن القـاعدة كانت تعلمت من هذا الخطأ. أعداد كبيرة من مجندي القاعدة صارت تلتحق بمدارس الطيران.

بعد يوم واحد من انتهاء عملية الاختطاف كنا نتناول العشاء معاً. الآخرون كـانوا فـرحين. وكـانوا يعـبـرون في صلواتهم عن الرغبـة في أن يتـبـعـوا خطوات المجاهدين الشجعان: "نسألك اللهم أن تمنحنا القوة التي كانت لدى هؤلاء الإخوة. نتوسل إليك، اللهم، أن تمنحنا نعمة الشهادة مثلهم!"

ومن ثم قالوا لي شيئاً خارقاً للعادة. أكدوا أن المختطفين لم يموتوا، بل هم أحياء في السماء، هناك في الجنة، في أحضان الحوريات اللواتي خُصِّصْنَ لهم مكافأة لشهادتهم. لم يكن قد سبق لي أن سمعت بمثل هذا الكلام، ولم أستطع تصديقه. لم أكن أعرف الشيء الكثير عن القرآن في هذه الفترة، لم أكن أعرف سوى ما كنت قد تعلمته في المدرسة وأنا طفل وما كان أخي حكيم قد لقَّنني إياه في المغرب. غير أن احتمال قيام الرب بمنح مثل هذه المكافأة لمن كانوا قد أقدموا على قتل أناس أبرياء بدا احتمالاً غير ذي معنى.

كل الأشياء أصبحت أكثر سوءاً بعد يوم. عاد أمين وياسين مصطحبين شريطاً مسجلاً استمعنا إليه في غرفة المعيشة. كان الشريط من داخل الطائرة. دام التسجيل أكثر من ساعتين؛ استطعنا سماع كل شيء. سمعنا أصوات المفاوضين الذين كانوا يطالبون المختطفين بسوق الطائرة إلى البوابة. كان المختطفون يرفضون تلبية الطلب ويهددون بقتل المزيد من الركاب. وسمعنا المختطفين يتحدثون عن الوقود للطائرة. وبعد مدة، سمعنا أصوات ركاب يصرخون، والمختطفين يتحدثون بأصوات مرتفعة عن المجاهدين وعن أنهم سيعرضون على الطاغوت الفرنسي صورة عن قتال المجاهدين في الساحات الجزائرية. 'الله أكبر! الله أكبر!' ومن ثم دوي طلقات الرصاص.

كان شيئاً مرعباً. كان كل شيء على الشريط رهيباً. كان يكفي أن يتصور المرء حالة الرعب التي لابد أن الركاب عانوا منها طويلاً. من المؤكد أنهم اعتقدوا بأنهم كانوا سيموتون في الطائرة.

إلا أن ما كان الأشد إثارة للفزع هو أننا كنا قد حصلنا على الشريط.لا أحد كان يملكه؛ لم يتم بثه عبر القنوات التلفزيونية أو الراديو. لا شك أن أحد أعضاء الجماعة الإسلامية المسلحة كان قد سجل الشريط عبر جهاز سكانر من مكان ما في مطار الجزائر، أو ربما في مطار مرسيليا. وهو شخص كان يعمل مع المختطفين. شخص على صلة بأمين وياسين.

كانت تلك المرة الأولى التي شعرت فيها بمدى قربي الشديد من هذا الهول كله. أعلم أنني كنت أستطيع أن أقدِّر الأمر من قبل، غير أنني فضّلتُ ألا أفعل، اخترت ألا أكون صريحاً مع نفسي. كنت أشتري الرشاشات لياسين لأن الأمر كان مثيراً، ولأنني كنت بحاجة إلى المال. ما أكثر ما كنت أوهم نفسي زاعماً أن الأسلحة موجهة إلى أمكنة بعيدة، إلى البوسنة أو بلاد الشيشان، أنها

كانت تُستَخْدَم لخوض حروب مشروعة ضد أعداء الإسلام! لم أكن، بالطبع، غافلاً، في الحقيقة، عن أن أكثرية هذه البضاعة كانت تذهب إلى الجزائر، إلا أن ذلك لم يكن يزعجني في البداية. كانت مشاعري قد بدأت تتغير مع إكثاري من القراءة، ومع قيام الجماعة الإسلامية المسلحة باعتماد أساليب أعنف وأشنع.

بات كل شيء مختلفاً بنظري الآن. الناس على متن الطائرة كانوا بشراً حقيقيين بنظري: كانوا مهاجرين عرباً مقيمين في أوروبا يحبون أهلهم ووطنهم أرادوا قضاء العطلة في مسقط الرأس. كانت الجماعة الإسلامية المسلحة قد حاولت أن تقتلهم جميعاً. كان الأمر مرعباً جداً بالنسبة إليَّ، وحين سمعت الشريط المسجل أدركتُ أنني كنت على صلة بكل ما حصل. صحيح أنني لم أكن قد ضَغَطْتُ على الزناد، غير أن من المحتمل أن أكون قد وَفَّرْتُ الرشاشات والطلقات. فأنا قاتل، إذن، مثلهم تماماً.

حتى اللحظة كنت آكل من اليد التي كانت تطعمني. باليدين، كلتيهما، أحياناً لأنني كنت أحصل على المال من جيل مع الاستمرار في نيل حصتي من الصفقات التي كنت أُسَمْسِرُ عليها مع لوران. أما بعد الآن فقد قررت أن أحارب الجماعة الإسلامية المسلحة بكل ما لديَّ من قوة. عمليات القتل هذه كانت شنيعة. كنت أعلم ذلك بوصْفي إنساناً ومسلماً. بصرف النظر عما إذا كنت أتردد على الجامع أم لا، إذا كنت أؤدي الصلاة خمس مرات في اليوم أم لا. كنت مسلماً ومؤمناً بالله. هذه الفظاعات، عمليات ذبح الأبرياء، لم تكن ذات علاقة بالإسلام الذي كنت أعرفه. كان زمن التغافل وغض الطَرْف قد ولّى. كان كل شيء قد تغير.

السِّمْتَكْس (Semtex)

في لقائي التالي مع جيل أطْلَعْتُ الأخير على مدى انزعاجي من عملية الاختطاف. حدثته عما كُنْتُ أقرؤه عن الجماعة الإسلامية المسلحة وعن عدم قدرتي على فهم عجز أخي حكيم والآخرين عن إدراك مدى انحراف هذه الجماعة عن الإسلام. قلت إنني راغب في الاضطلاع بدور حقيقي في الحرب على الجماعة، في القيام بما هو أكثر، على صعيد خدمة جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE)، من مجرد المهمات البسيطة التي كنت أتولاها في هذا المجال.

ظل جيل يومئ ويصغي، ولكن دون أن يقول شيئاً. غير أنه ما لبث أن قال لي، بعد بضعة أسابيع، إنه كان يرى أن شيئاً قد تغيّر فيَّ حقاً. أما في البداية فبقي محصور الاهتمام بشريط التسجيل الذي كان ياسين وأمين قد جلباه إلى البيت. أراد أن يعرف ما إذا كنت قادراً على تأمين نسخة عن الشريط له، أفدتُه بتعذر ذلك لأنهما كانا قد أخذاه. سألني عن زمن حصولنا على الشريط فقلت له إن ذلك تم بعد انتهاء عملية الاختطاف بأقل من ثمانٍ وأربعين ساعة. بدا جيل بالغ الاندهاش.

وقد كان أكثر اندهاشاً حين أفَدْتُه بأن ياسين كان، بعد يومين من الاختطاف، قد كلفني بشراء متفجرات من لوران. ولجهلي الكامل بالمتفجرات كنت قد سألت ياسين عن المطلوب وكان قد قال إنه كان يريد متفجرات بلاستيكية. تعين علي أن اكتشف الأنواع التي كان لوران يستطيع توفيرها.

ما إن قلت هذا لجيل حتى بدا شديد التوتر والحدة. قال على الفور: "يجب عليك أن تجتمع مع لوران." أبلغته، لوران وأنا، كنا قد حددنا موعداً للقاء خلال يومين.

'اتصل بي فور انتهاء اللقاء. أريد معرفة ما يقوله لك بالتحديد.'

كان جيل يعرف عن لوران أكثر مما كنت أعرفه أنا. كان قد عرف عنه حتى قبل لقائنا. غير أننا مع المتفجرات كنا ننتقل إلى ساحة جديدة، واستطعت أن أرى أن جيل بات قلقاً.

لم أكن واثقاً من توفر لوران على المتفجرات. وفي لقائنا أثرتُ الموضوع معه بشيء من الحذر قائلاً: 'لا أعرف ما إذا كنت تتعامل مع مادة المتفجرات بالمطلق يا لوران، وإذا لم تكن فإنك تستطيع أن تنسى أنني طرحت عليك هذا السؤال. أريد شراء كمية من المتفجرات.'

عَبَّر لوران عن قدر واضح من الاندهاش. 'لماذا تريدها؟'

أجبتُه: 'لا أستطيع أن أبوح بالسبب.' غير أنني عرفت ما قصده. ثمة أنواع كثيرة مختلفة من المتفجرات. ربما كنت أبحث عن شيء لمجرد نسف باب أحد الأبواب أو خَزْنات البنوك. ولكن قد أكون راغباً في شيء أقوى بكثير لنسف إحدى السفارات أو إحدى الطائرات. إذا كان الأمر كذلك فإن المتفجرات قد تؤدي إلى افتضاحه بعد مدة. وقد كان لوران أذكى من أن يعرِّض حياته للخطر مقابل صفقة ببضعة آلاف من الفرنكات. بالطبع لم يكن لوران مستعداً للإقرار بكل هذا، غير أنني كنت واثقاً منه.

تابعت كلامي: 'أقطع لك وعداً يا لوران بأن ذرة واحدة من هذه المواد لن تبقى في أوروبا.' حَدَّقْتُ في عينيه وأنا أقول ذلك، ودام تحديقنا المتبادل بضع ثوانٍ.

'موافق!' قال أخيراً 'هيا نَعُدْ إلى بيتي لنتحدث في الأمر.'

كان ذلك تطوراً جديداً. لم يكن قد سبق لي أن كنت في بيت لوران من قبل. خرجنا من المدينة وقطعنا مسافة نحو نصف ساعة في سيارته، على

الطريق باتجاه لييج. وعند انعطافنا عن الشارع الرئيسي أصبحنا في الريف. قطعنا مسافة بضعة كيلومترات ثم توقفنا أمام فيلا كبيرة على سطحها ثلاثة صحون لاقطة للأقمار الصناعية. لم يكن ثمة أي بيوت أخرى قريبة. ساق لوران السيارة إلى منعطف رملي وصولاً إلى ما خلف الفيلا. صُعقت إذ رأيت عشر سيارات أخرى في الممر. عشر سيارات سوداء جميلة: ست سيارات بي ام في، مرسيدسان، جاغوار واحدة وبورش واحدة. سألته: 'هل تتاجر بهذه السيارات؟'

'لا، إنها لي.'

لم أستطع أن أصدق. منذ أشهر ولوران كان راكباً سيارة رينو صغيرة متداعية. ملابسه أيضاً لم تكن خاصة: بدت رخيصة، بعضها واضح القدم. عندما رأيت السيارات، أدركت أن لوران كان ناجحاً جداً في وقت من الأوقات. أما الآن فقد بدا على طريق الهبوط أو الانحدار. ما من تاجر أسلحة كبير كان سيهتم ببيع الطلقات بالكميات الصغيرة التي كنا نطلبها: بالألفين، والخمسة آلاف في الدفعة الواحدة.

دخلت المنزل عبر نوع من الرواق لنصل إلى غرفة جلوس كبيرة. منذ لحظة دخولي أدركت أن شيئاً لم يكن صحيحاً. ثمة رائحة غريبة لم أستطع تحديدها كانت تفوح من البيت.

عايَنْتُ غرفةَ الجلوس. كان الأثاث ثميناً غير محذلق. بدت الأشياء كلها حديثة جداً ولكن بطريقةٍ ملائمة لمثل هذا البيت الأنيق. جهة اليمين كان جهاز تلفزيون عملاق، جَلَسَتْ أمامه امرأة على وسادة. بدت مفرطة البدانة، ربما في الأربعينيات من عمرها. حين سمعتْ وقعَ خطواتنا رفعت يدها ترحيباً دون أن ترفع رأسها. كانت عاكفة على تدخين غليون مخدرات.

مباشرة توجه لوران نحو اليسار حيث كانت طاولة طويلة عليها مصباح بونزن (مصباح كحولي). جلس أمام المصباح وباشر العمل. حاولتُ مفاتحته بشأن المتفجرات إلا أنه كان قد أصبح في عالم آخر كلياً. للمرة الأولى منذ التقيتُه بدا منفعلاً، في حالة نشوة. يداه كانتا ترتجفان. كان معه أنبوب زجاجي فيه سائل راح يسخّنه على اللهب. بعد بضع دقائق كان السائل قد تلاشى، وسارع هو إلى تفريغ المسحوق الأبيض المتبقي في الأنبوب في أحد الغلايين. من الواضح أن هذا الغليون كان قد استُعمل كثيراً لأن حواف الحوض كانت مسودة متشققة. قام لوران بتناول جرعة سريعة، مستنشقاً بعمق. أبقى المخدّر في جوفه عدداً من الثواني قبل أن يزفره أخيراً. كنْتُ شاهداً على ارتخاء جسده من أخمص القدم إلى قمة الرأس.

سرعان ما انتفض واقفاً وطلب مني أن أتبعه إلى المطبخ. رفع علبة عن الأرض وفتحها. كان ثمة عشرة إلى خمسة عشر عَقْرباً، مسدساً رشاشاً تشيكياً. 'هل تريد شراء بعض هذه؟'

'سأسأل مُعَلِّمي. أما الآن فأريد أن أبحث معك موضوع المتفجرات.'

أعاد لوران العلبة إلى الأرض وهز كتفيه قائلاً: 'حسناً، ما اللون الذي تريده؟'

لم تكن عندي أي فكرة عما عناه. قلت: 'ليتني أعرف فقط ما هو متوفر.'

أفاد لوران بقدرته على توفير سي واحد، سي اثنان، وربما سي ثلاثة (C1, C2, C3) لم أكن أعرف ما كان يعنيه ذلك غير أنني بقيت حريصاً على إخفاء جهلي عن لوران. قلت 'أوكي! سيتعين علي أن أتأكد من النوعية المطلوبة. سأُعْلمك.'

لحظة قيام لوران بإنزالي من السيارة في مركز المدينة، اتصلت مع جيل عبر أحد أكشاك الهاتف المأجور وتركتُ رسالة. أعاد الاتصال فوراً وأبلغته بما كان قد حدث. بدا قلقاً وطلب مني أن أتصل به بعد الكلام مع ياسين مباشرةً.

بعد وصولي إلى البيت حَدَّثْتُ ياسين عن زيارتي مع لوران. لم يُبْدِ أي اهتمام بالعقارب التشيكية، وطلب مني أن أكتشف ما إذا كان لوران قادراً على تأمين نوع آخر من المسدسات الرشاشة، طراز تيك ـ 9 (TEC-9).

بدا ياسين سعيداً جداً حين علم أن لوران كان قادراً على تأمين المتفجرات، ومستعداً لبيعها. 'في المرة القادمة سله عما إذا كان متوفراً على السَّمْتَكْس (Semtex). كذلك استفهم عما إذا كان قادراً على تأمين الصواعق.'

وَعَدْتُ بأن أفعل. غير أن أمراً غريباً حدث بعد ذلك: طلب ياسين مني أن أدله على عنوان لوران. فوجئتُ. كان قد مضى على تعاملي مع لوران نحو عام كامل، ولم يكن قد سبق لياسين أن سألني أي سؤال عن لوران. آنذاك اعتقدت أن ياسين كان متوتراً لمعرفته بحقيقة أننا كنا نتجاوز أحد الخطوط الحمراء. إن الأسلحة شيء، ولكن الاتجار بالمتفجرات شيء مختلف تماماً وأخطر بما لا يقاس. لم يكن ياسين قادراً على معرفة هوية لوران. ربما كان عنصر أمن وكانت العملية كلها مجرد مصيدة. ربما كان عازماً على التسبب باعتقالنا جميعاً بعد قيامه بتسليمنا المتفجرات. كان من المحتمل أن يكون أي شخص.

بعد بضعة أسابيع فهمتُ السبب الكامن وراء اهتمام ياسين البالغ بلوران. إلا أنني آنذاك وافقت على أن أدله على عنوان لوران. رافقت أميناً وياسين في السيارة ذات عصر إلى هناك، إلى حيث بيت لوران. وبعد ذلك لم يعد أحد يتحدث عن الموضوع.

مباشرةً اتصلت مع جيل لأخبره عن السمتكس والصواعق. كان شديد اللهفة والتوتر. قال: 'اتصل بي فور حصولك على أي من هذين البندين. سأكون بحاجة إلى رؤيتهما.'

حين اجتمعت مع لوران أبلغتُه بالمطلوب. أخذ نَفَساً عميقاً حين أتيت على ذكر السمتكس. قال: 'إنه بالغ الصعوبة. لماذا لا تستخدمون نوعية أخرى؟ أستطيع أن أؤمن لكم مادة الديناميت. يمكنني أن أوفر لكم أنواع أخرى من البلاستيكيات.'

قلت له إننا كنا نريد السمتكس تحديداً.

'لا أعرف ما إذا كنت سأستطيع. لا أظن، غير أنني سأحاول. الصواعق ستكون أيسر.' اتفقنا على اللقاء ثانية في غضون ثلاثة أيام.

وبعد ثلاثة أيام التقينا وذهبنا بالسيارة إلى بيته مرة أخرى.

وفيما كنا موشكين على الجلوس في مطبخه قال لوران: 'مازلت غير متأكد من إمكانية تأمين السمتكس. أستطيع رغم ذلك أن أزوِّدكم بالسي ثلاث (C3) مباشرة. هاك صاعقك! على المائدة الرخامية أمامه وضع أسطوانة فضية رفيعة، بطول خمسة سنتيمترات تقريباً. لم يكن قد سبق لي قط أن رأيت صاعقاً فمددت يدي لحمله ومعاينته أكثر. انقضَّ عليّ لوران وأمْسَك بيدي.

صرخ: 'إياك! حذار حَمْلَه هكذا. ستَقْتُل نَفْسَك، أو أقله، ستطير ذراعك.' شرح لي أن الصاعق شديد الحساسية. كان من شأن حرارة يدي وحدها أن تكون قادرة على إيقاده. ناولني لوران قطعة من الورق وأفهمني أن علي أن أُبقي الصاعق ملفوفاً بها. أعطاني اسم الصاعق وطلب مني أن أخبره عن العدد المطلوب.

ما إن غادرت المكان حتى اتصلت مع جيل. وفور عودته إلى الاتصال قلت له: 'الصاعق صار معي.'

حدد لوران مكان اللقاء وقال: "أوكي. سأكون هناك خلال ساعة."

حين عرضت الصاعق على جيل اكتشفت أنه كان يعرف الشيء الذي يتعين عليه البحث عنه: رقم صغير على الحافة. سجله، ثم رفع رأسه ونظر إلي قائلاً: "كن شديد الحذر مع هذا. إياك أن تُسقطه أو تجعله يلامس أي شيء آخر. يمكنك أن تقتل نفسك. أحسنت صنعاً إذ لففته بهذه الورقة."

ثم عدت إلى البيت وعرضت الصاعق على ياسين. حمله بقدرٍ كبير من الحذر بأطراف أصابعه. وبعد معاينته لبضع ثوانٍ، أومأ وقال: "جيد. ما السعر الذي يطلبه؟"

قُلْتُ له. أطلق صفرة خفيفة. قال:

"إنه باهظ جداً. واثق أنا من أنني أستطيع الحصول عليه بأقل من ذلك من شخص آخر. قل له إننا لا نريد الآن إلا رشاشات التيك TEC".

حين أعدت الحوار الذي دار بيننا على مسامع جيل لم يرتح على الإطلاق. كلانا كنا نعرف أن ياسين كان يلعب لُعْبَتَه المعهودة بغية خفض سعر الصواعق. لم تكن هذه سوى البداية.

سيارة الأودي

كانت الأمور كلها متسارعة. في الوقت نفسه تقريباً طلب مني ياسين أن أشتري كمية متفجرات من لوران، وطلب مني حكيم أن أبادر إلى شيء أكثر خروجاً على المألوف. كنا في مهمة بسيطة في المدينة، مستقلين سيارة بيجو صغيرة لم يكن قد سبق لي أن رأيتها من قبل. في طريق العودة قام حكيم بصف السيارة جانباً وطلب مني أن أتولى القيادة لبعض الوقت. بدا هذا غريباً إلا أنني سايَرْتُ الموقف. ما إن انطلقت بالسيارة حتى أدركتُ أن السيارة كانت تعاني من خلل معين. ظلت تميل يساراً وتعين علي أن أبذل أقصى جهدي لإبقائها على المسار الصحيح. ما لبث حكيم أن طلب مني التوقف، ففعلت.

سألته: 'ماذا وراء هذا كله؟'

'أريد منك خدمة يا أخي.'

'أي خدمة؟'

بعد فترة من الصمت بدأ حكيم يتكلم ببطء: 'ثمة أخ في المغرب، إنه أحد أصدقائي الصدوقين جداً. اشتريت له سيارة هدية، غير أنه لا يستطيع أن يأتي ليأخذها لأنه لا يتوفر على جواز سفر. أرجو أن تكون مستعداً لقيادة السيارة وإيصالها إليه.'

صُعقْتُ. قلت: 'ما الذي تتحدث عنه أنت؟ أنت تعلم أنني لا أملك حتى إجازة سوق.'

سارع حكيم إلى الرد: 'تلك ليست مشكلة. سيرافقك أخ آخر. هو يحمل إجازة، يستطيع أن يسوق وصولاً إلى ميناء ألجزيراس. سيتعين عليك فقط أن تتولى القيادة من رصيف العَبَّارة في طنجة إلى مركز المدينة.'

شعرت بالدم الصاعد إلى وجهي. لم أستطع أن أصدق أن حكيماً كان يظن أنني كنت 'سأقبض' قصته عن إرسال سيارة هدية إلى أحد أصدقائه. بادرته بنبرة هادرة قائلاً:

'إذا كنت راغباً في تكليفي بعمل ما يخصك، فإن من الأفضل لك أن تكشف عنه بالتحديد. أنا لن أوصل سيارة إلى المغرب كرمى لعينك ما لم تقل لي بدقة ماذا يوجد بداخلها. لا تحاول أن تستهبلني يا حكيم. لستُ غبياً.'

اكتفى أخي بالتحديق في وجهي دون أن ينبس ببنت شفة. نزلت من السيارة وابتعدت.

بعد ليلتين جاء حكيم إلى غرفتي. أمرني: 'تعال معي. يتعين عليّ إيصال بعض المؤن إلى أحد أصدقائي، أريدك أن تلتقيه.'

كانت طريقته في الكلام منطوية على شيء غريب؛ ثار فضولي. رافقته إلى السيارة. بعد أن قطعنا نحو كيلومتر واحد انعطفنا إلى أحد الشوارع السكنية. توقفنا أمام مبنى يضم شققاً سكنية ونزل حكيم وفتح بوابة باحة داخلية. ثمة كان أربعة كراجات في الباحة. كان أحدها مضاء. مشينا نحو الكراج المضاء وقرع حكيم الشباك.

فُتح الباب ورأينا رجلين. أحدهما كان ميكانيكياً كما تبين من بدلة عمله الغارقة في بقع العرق والزيت. نحو مؤخرة الكراج كان ثمة ستارة، استطعت أن أرى خَلْفَها المصَدَّ الخلفي لسيارة.

الأرضية أمامنا كانت مغطاة بأكوام من سائر أنواع البضائع والأشياء، رزم كثيرة من الأوراق النقدية، بنادق ومسدسات، محولات أجهزة راديو. وأشياء بدت أشبه بمكعبات الطوب ملفوفة بورق أبيض. من الواضح أن الميكانيكي كان يفكك السيارة ليحشوها بهذه المواد.

قال حكيم بضع كلمات للرجلين وأعطاهما كيس بقالة كان قد جلبها معه. ثم غادر.

وهو يهم بالمغادرة عائداً إلى البيت التفت إليّ وسأل: 'هل ستنفذ؟'

أجبته فوراً دون توقف ولو لثانية: 'نعم سأنفِّذ.'

لو قلت 'لا'، لاعتقد حكيم جازماً بأنني لم أكن قد تُبْتُ حقاً، بأنني لم أكن قد عدت إليه وإلى الآخرين بالمطلق. أما إذا قلت 'نعم' فقد كان من شأن حكيم والآخرين أن يثقوا بي من جديد ثقة كاملة. لم يكن جيل يكف عن مطالبتي بالعمل على التسلل إلى داخل حلقتهم المركزية الضيقة. أدركت أن هذه كانت فرصتي.

قابلت جيل في اليوم التالي. حدثته عن طلب حكيم، عن الكراج. استقامتْ جلستُه وهو يسألني عما رأيته. عندما حدثته عن القوالب المكعبة، أومأ وأفاد بأنها ربما كانت من مادة السمتكس.

سألني جيل: 'إذن أنت موافق على تنفيذ المهمة؟' كان واضح التوتر والعصبية، غير أنني كنت أعرف أنه كان يريدني أن أقوم بالمهمة. كان راغباً في الكشف عن آليات العمل. كان يريد أن أتوغل في الحلقة الداخلية.

أجبته: 'نعم. وَعَدْتُه سلفاً.'

قال: 'أنت تعلم أن العملية شديدة الخطورة. يدنا ليست طويلة في إسبانيا أو المغرب. إذا ما جرى اعتقالك، لن نتمكن من مساعدتك في شيء.'

قلت: 'أعرف ذلك. أنا لا أخطط للذهاب إلى المعتقل.'

تنهَّدَ جيل وقال: 'على بركة الله، إذن. اسمع ما أريده منك: أريدك أن تخبرني بكل شيء عن السيارة. أريدك أن تعلمني بموعد المغادرة. وأريد منك أن تتصل بي كلما توقفت على الطريق لتبلغني بمكان وجودك لأتمكن من مواصلة تعقُّبك.'

عاد جيل إلى الاضطلاع بدور المعلم الآمر، فأزعجني. كنت قد أقْدَمْتُ على القيام بمهمة خطرة على نحوٍ لا يصدق، وكان هو يحاول أن يتأستذ عليّ ويعلّمني كيف أنفّذها. لم أكن مستعداً لأن أمكّنه من ذلك، لا لمجرد عنادي رغم أنه أحد الأسباب بالتأكيد. كان من المستحيل أن أمكّنه من تعقُّبي عبر فرنسا من أولها إلى آخرها وأنا في سيارة ملأى بالمتفجرات. لم أكن أثق به؛ ولو شاء لاستطاع أن يجعل الشرطة توقفني وتفتش السيارة. فأُمضي باقي عمري في السجن. وإذا ما خطر له أن يتواطأ مع الشرطة المغربية فقد كان من شأن الأمر أن يكون حتى أسوأ من ذلك.

قلت له: 'مستحيل. لن أحدد لك مكاني. سأتصل بك بعد الوصول وبعد إنجاز المهمة.'

قال بغضب: 'إذا لم نعرف مكان وجودك فلن نستطيع مساعدتك إذا وقعت في ورطة.'

'سأخاطر.'

في الساعة الثالثة تقريباً من فجر اليوم التالي، أعادني حكيم إلى الكراج لأخذ السيارة. كان السائق قد سبقنا، وبانتظارنا. سبق لي أن رأيته في البيت بضع مرات. كان اسمه جمال. كان ذا لحية طويلة، هادئاً جداً. بدا مُكَرِّساً كلَّ وقته على قراءة القرآن.

كانت السيارة جاهزة. سيارة أودي خضراء اللون. ثمة كانت مقطورة موصولة بالمؤخرة كما كان المعقد الخلفي محشواً بحشد من الأشياء المختلفة: سجاجيد، علب، أجهزة إلكترونية. كان يُفتَرض أن نَبْدو كما لو كنا مهاجرين عائدين إلى المغرب لزيارة الأهل. قبل المغادرة زوَّدني حكيم برقم هاتف خليوي. أوصاني بأن استخدمه بعد الوصول إلى المغرب للاتصال بياسين الذي كان سيعطيني التوجيهات التي تمكّنني من الاهتداء إلى هدفي.

خرجنا من بروكسل متوجهين نحو باريس. كان جمال خلف المقود. لم نكن قد قطعنا مسافة ذات شأن حين بدأنا نعاني من خلل في السيارة. كانت حرارة المحرك ترتفع، وكان جمال ينظر إلى المؤشر بعصبية. بعد لِيل Lilleبنحو عشرين كيلومتراً قررنا التوقف وإلقاء نظرة. كان الماء في المبرِّد يغلي ويطف. كانت معي قنينة ماء في السيارة، سكبت ما فيها على المحرك لتبريده.

قطعنا بضعة كيلومترات إضافية، ثم بدأت السيارة تحدث جلبة مخيفة. حين نظرت إلى جمال رأيت أنه كان مذعوراً؛ وعلى الرغم من بقائه صامتاً استطعت أن أرى شفتيه تتحركان بسرعة خارقة. كان يصلي ويدعو.

طلبت من جمال أن يَصُفَّ جانباً. نزلت من السيارة ومشيت إلى المَخْرَج التالي حيث وجدتُ هاتفاً بالأجرة في قرية صغيرة واتصلت بمؤسسة المساعدة الأوروبية (Europe Assistance). وأي شيء آخر كنت أستطيع أن أفعل؟ كان

لابد لنا من إبعاد السيارة عن الطريق الرئيسية. عدت إلى السيارة وأطلعت جمالاً على ما كان يجري؛ بدا موشكاً على الانهيار من فرط القلق والخوف. لم يقل شيئاً اكتفى بمواصلة الدعاء والصلاة.

ما لبثت إحدى القاطرات أن وصلت وسارع العمال إلى قَطْر سيارة الأودي. جمال وأنا ركبنا الأودي فيما تولت القاطرة جَرَّنا جميعاً. بعد بضعة كيلومترات وصلنا إلى قرية صغيرة، قام السائق بفك سيارتنا أمام محل لإصلاح السيارات.

لم يكن واضحاً كيف كنا سنستطيع إصلاح السيارة. كان المحرك يعاني من خلل محدد، وكنت شبه متأكد من طبيعة الخلل: كان الميكانيكي في بروكسل قد حشى كل سنتيمتر بالأوراق النقدية والمواد. تصورت أنه كان قد وضع مواد في قعر خزانات السوائل بطريقةٍ ما، الأمر الذي كان من شأنه أن يفسر الارتفاع الدائم لحرارة السيارة. ولكن كيف كنا سنتمكن من إصلاح السيارة دون أن يقوم أحد باكتشاف ما بداخل أحشائها؟

حين قام صاحب المحل بالإصلاح رفع الغطاء، كان الدخان يتصاعد من المحرك. بدأ ينظر إلى كل شيء قطعة قطعة. كان لابد لي من مراقبته مثل الصقر للتأكد من عدم اهتدائه إلى أي مهربات. سألني عدداً من المرات عما إذا كنت راغباً في الدخول إلى المكتب وأخذ قسط من الراحة، فأجبته بالنفي. ظل جمال واقفاً بجانبي طوال الوقت، مشغولاً بالدعاء الصامت.

دام الأمر نحو عدد من الساعات. أخيراً رفع الميكانيكي رأسه وأنزل الغطاء. التفت إلي وقال: لا أستطيع أن أفعل شيئاً. المحرك هالك مئة بالمئة. يتعين عليك تغييره. أستطيع استدعاء قاطرة تجرك أنت وسيارتك غداً إذا أردت، فتستطيع أن تعود بها إلى بروكسل.

أبقينا السيارة ليلتها هناك لعدم وجود أي مكان آخر نأخذها إليه. عملياً تعين عليّ إبعاد جمال؛ اعتقد أنه كان مستعداً لأن ينام في السيارة لو استطاع.

ثم اتصلت مع حكيم وأطلعته على ما جرى. انزعج كثيراً، وطلب أن نعود إلى بروكسل بأقصى سرعة ممكنة لنتمكن من إصلاح السيارة والانطلاق إلى السفر من جديد. بدأت أدرك أنهم كانوا مستعجلين وصول السيارة إلى المغرب حقاً.

جمال وأنا أمضينا الليل كله في أحد الفنادق ونحن في شجار. كنت أريد مشاهدة التلفزيون الذي كان هو يراه طاغوتاً (كفراً). كان يريد قراءة القرآن بدلاً من ذلك. كلما فتحت التلفزيون كان ينتظر بضع دقائق، لينقضَّ بعدها على جهاز التحكم عن بعد ويطفئ الجهاز. ثم كنت أنا آخذ جهاز التحكم وأعيد تشغيل الجهاز. كنت شديد الغضب منه حتى أنني هددته بأنني سأتركه في بروكسل في اليوم التالي وأتولّى القيادة وحدي إلى إسبانيا. رد قائلاً إن الإخوة لم يكونوا ليسمحوا بذلك على الإطلاق لعدم توفري على إجازة للسوق. قلت له إن الإخوة الذين أرسلوه معي كانوا أغبياء. للعرب ما يكفي من المتاعب مع عناصر الأمن في أوروبا، قلت، ولحيته المثيرة للسخرية كانت تجعلنا هدفاً واضحاً.

أوينا، كلانا، إلى النوم في تلك الليلة غاضبين. صباح اليوم التالي استيقظنا في ساعة مبكرة وركبنا مع سائق القاطرة التي أعادت سيارتنا إلى بروكسل جراً. لم نتبادل ولو كلمة واحدة. عدنا إلى الكراج، كان حكيم هناك بانتظارنا. ثمة كان محرك جاهز سلفاً في الداخل، ولم يكن المطلوب سوى إحلاله محل المحرك الهالك.

عدنا جميعاً، حكيم، جمال، وأنا، إلى البيت ونمنا ساعات قليلة. لدى مغادرتنا للبيت في الصباح الباكر، لاحظت أن جمالاً كان قد حلق ذقنه. لم يكن قد حلقها تماماً؛ اكتفى بتقصير شعر اللحية. كان عنيداً؛ كان يعرف أنني كنت محقاً فيما قلته عن اللحية، إلا أنه لم يكن يريد أن يذعن تماماً.

عند وصولنا إلى الكراج كانت السيارة جاهزة. عدنا إلى الطريق دون إضاعة المزيد من الوقت.

كانت الرحلة كارثية مئة بالمئة. كان الميكانيكي قد تعامل مع المحرك الجديد بالطريقة نفسها وقد تعين علينا أن نبقى شديدي الحرص كي نحول دون ارتفاع درجة حرارته. كنا نسوق ببطء شديد ونتوقف كل نصف ساعة لملء المبرد بالماء. ظل جمال مرعوباً كل الوقت وكان يسوق دون أن يتكلم. إضافةً إلى المحطات التي كنا نتوقف فيها لتبريد المحرك، كان جمال يتوقف أيضاً خمس مرات في اليوم لأداء الصلاة. في كل مرة كنت أدخن بدلاً من الصلاة. كنت أرى أن ذلك كان يغيظه كثيراً. وإغاظتُه بالذات كانت هدفي.

تعطلتْ السيارة من جديد في جنوب فرنسا، وتعين علينا مرة أخرى أن نأخذها إلى ميكانيكي. لم يكن الوضع بالمستوى السابق من السوء، وقد استطاع الميكانيكي إصلاحه. هذه المرة أيضاً راقبنا عملية الإصلاح كلها من أولها إلى آخرها. من المؤكد أننا بَدَوْنا اثنين من المجانين.

مرة أخرى تعطَّلتْ السيارة لحظة عبورنا الحدود إلى إسبانيا؛ من جديد تسلقنا جبال البيرنيه. في كل مرة كنت أعالج الأمور بنفسي. كان جمال عديم الفائدة. وفي كل مرة تعين علي أن أتصل بالبيت وأبلغ حكيماً بأننا كنا قد تأخرنا. كان حكيم يزداد قلقاً باطراد. بل وقد رفع صوته في إحدى المرات طالباً مني أن أسرع، زاعماً أنني كنت موشكاً على إفساد المهمة جراء تأخري. كان ردي جاهزاً إذ قلت له إن السبب كان كامناً في تعامله، هو والآخرين، مع ميكانيكي لا يفهم شيئاً في اختصاصه.

أصبح الأمر أسهل قليلاً في أثناء الانحدار عن الجبال. كنا قادرين على إطفاء المحرك وترك السيارة تكرج مسافة كيلومتران دون تشغيل المحرك. غير أننا ما لبثنا، في ساعة متأخرة من الليل، وعلى مسافة نحو سبعين كيلومتراً من الجزيراس، أن فوجئنا بالمحرك وقد التهب من جديد. تعين علينا أن نوقف السيارة منتصف الطريق. لم يكن ثمة أي شيء أستطيع أن أفعله هذه المرة. امتنع

المحرك عن الإقلاع. لم أكن مستعداً للسير في منتصف الطريق في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فجلست على قارعة الطريق ورحت أدخن السيجارة بعد الأخرى. بقي جمال شديد التوتر إلى درجة أنه لم يتمكن من الجلوس. راح ينوح شاكياً:

'ما الذي سنفعله؟ ماذا سنفعل؟'

كنت قد مللت منه ومن كلامه؛ لم يكن أمامي أي خيار سوى تجاهله وإشعال سيجارة جديدة غير أنني حين رفعت رأسي رأيت سيارة للشرطة مقبلة نحونا. كان جمال شديد الغضب والفزع. تضرع إليَّ قائلاً: 'إلى أين سنذهب؟ كيف نفلت منهم؟'

طمأنتُه وطلبتُ منه ألا يخاف. حين نزل عناصر الشرطة من السيارة اقتربت منهم وكلَّمتُهم بالإسبانية. كنت ودوداً جداً، قلت لهم إن المحرك معطل. كانوا ودودين بالمقابل، وقالوا إن علي أن أبعد السيارة من منتصف الطريق بطريقةٍ ما.

هززت كتفي قائلاً: 'ولكن كيف؟'

ثم ابتسم أحد عناصر الشرطة وعرض مساعدته. اقترب بسيارة الشرطة من الأودي، أخرج 'كابلاً'، قَطَر السيارة بالأخرى. جمال وأنا عدنا إلى الأودي وسحبتنا سيارة الشرطة نحو عشرين كيلومتراً. تركونا أمام محل لإصلاح السيارات في إحدى القرى الصغيرة. ولدى انطلاقهم مبتعدين ابتسم عناصر الشرطة لنا ولَوَّحوا مودعين ومتمنين لنا حظاً سعيداً.

قام هذا الميكانيكي بمعاينة كل شيء. بدا لي أنه كان يعاين المحرك قطعة قطعة. تعين عليّ أن أفيده بعدم توفري على ما يكفي من المال لإجراء إصلاحات جدية. لم أكن أريد سوى الوصول إلى العَبَّارة. كان يكفي أن يرقِّع المحرك قليلاً

بما يجعله قادراً على الوصول إلى العبّارة. كان جمال واقفاً بجانبي وهو يدعو ويسبِّح بوتيرة أكثر تسارعاً باطراد. يداه كانتا ترتجفان.

في إحدى اللحظات، لاحظت الميكانيكي موشكاً على مد يده إلى خزان الزيت. خشيت أن تكون أشياء مهربة مدسوسة هناك، فعبرت له عن عدم رغبتي في أن يلمس الخزان. نظر إلي كما لو كنت فاقد العقل.

سهرنا الجزء الأكبر من الليل مع الميكانيكي، إلا أنني لم أبال. كنت واثقاً من أن هذا الكابوس موشك على الانتهاء. كانت الطريق من بروكسل قد استغرقت ما يقرب من أسبوع كامل، وهي تُقطع عادة في يومين أو ثلاثة. أما الآن فقد كنا على مسافة ساعتين اثنتين فقط من العبارة.

غادرْنا، جمال وأنا، في ساعة مبكرة وسقنا ببطء، معاينين المحرك كل عشرين دقيقة أو نحوها. ومع وصولنا إلى أطراف الجزيراس التفت إلي جمال وقال: "عليك أن تستقل العبّارة المتجهة إلى سَبْتَة. فأجهزة الأمن هناك أقل كثافة مما هي في طنجة."

بالطبع كان على صواب. فسَبْتَة نقطة إسبانية متقدمة مما جعل جهاز الأمن أقل تشدداً. غير أنها كانت أيضاً بلدة صغيرة جداً وأبعد بكثير من طنجة. حتى لو تمكنت من العثور على قاطرة في سبتة، وكان ذلك أمراً غير مؤكد، فإن نقل السيارة من هناك إلى طنجة كان سيستغرق عدداً من الساعات. لم تبدُ الفكرة جديرة بالاعتبار.

قلت: "أعتقد أنني سأجرب حظي مع طنجة. نظراً للوضع الذي تعاني منه السيارة لم يكن أمامي أي خيار آخر."

ظل جمال يلح. "حقاً، أظن أن من الأفضل لك أن تذهب إلى سبتة." كرر العبارة ثلاث مرات في غضون عشر دقائق. تجاهلتُه.

وصلنا إلى رصيف العبّارة ظهراً تقريباً. ثمة كان صف طويل من السيارات يزحف ببطء باتجاه العبّارة التي كانت تأخذ حمولتها. تولّى جمال قيادة السيارة لإدخالها في الصف. إلا أن السيارة ما لبثت أن تعطّلتْ من جديد. توقف المحرك. حاول التشغيل بضع مرات كي يقلع، ولكن شيئاً لم يحصل. جَمَدَتْ السيارة في مكانها. نظرتُ إليه. كان يحدّق في الأفق البعيد أمامه. بدا كما لو كان موشكاً على البكاء.

قلت له: 'اذهب أنت يا جمال، مع السلامة!'

نظر إليّ مندهشاً.

قلت: 'لحيتُك أنت أكثر من جهاز الأمن في طنجة إثارةً لقلقي. ستلفت الأنظار هنا. من الأفضل أن تنزل من السيارة وترحل بعيداً.'

'حقاً؟' سأل جمال. بدا منفرجاً، ولكن ظلاً ما لبث أن عبر صفحة وجهه.

'هل أنت مصر على عدم أخذ العبّارة المتجهة إلى سَبْتة؟'

'نعم أنا مصر كل الإصرار' غمغمت بغضب. 'انقلع من هنا!'

بدا جمال كما لو كان موشكاً على أن يقول شيئاً، ولكنه لم يفعل، اكتفى بهز كتفيه. أخرج رزمة أوراق نقدية من جيبه وقدمها إليّ. كان ذلك ثمن تذاكر العبّارة وكل الأشياء الأخرى. لم يكن حكيم قد وثق بي، مما أبقى المبلغ مع جمال كل الوقت.

قال: 'ليكن الله معك في طنجة يا أخ.' ثم فتح باب السيارة ونزل. حين التفتُ بعد نحو ثانيتين كان قد اختفى تماماً.

بقيت جالساً في السيارة بضع دقائق وأشعلت سيجارة. لم يمضِ إلا القليل من الوقت قبل أن يقترب شرطي من السيارة ويقول: 'يتعين عليك أن تحرك السيارة يا سيد. ثمة أناس في الصف يريدون ركوب العبّارة وأنت تعوقهم.'

رفعت رأسي وابتسمت. قلت: 'أنا آسف. ولكن المحرك هالك. لا أستطيع تحريك السيارة.'

'إذن علينا أن نقطرها.'

'إلى العبّارة؟' سألت.

'لا إلى محل إصلاح. لابد لك من إصلاحها قبل ركوب العبارة.'

'ماذا لو دفعتها؟'

رفع حاجبيه وراح يعاين السيارة. حين درت لأنظر اكتشفت مقصده. إن السيارة محشوة بالسجاد والبسط والعلب كانت ثقيلة جداً حتى كاد الهيكل يصل إلى الأرض.

تلفتت حولي وحاولت الاهتداء إلى طريقة تخرجني من الورطة. تقاطعت نظراتي مع نظرات مغربي واقف عند مدخل العبارة. كان في ملابس مدنية، إلا أنه كان يقف مع آخرين اثنان منهم يحملان هاتفي ووكي توكي مثبتين على نطاقيهما. كان قد حرص على مراقبتي حين كنت أتحدث مع الشرطي.

نظرت إلى ضابط الشرطة: 'اعطني دقيقة. سأحاول العثور على أشخاص يساعدونني في دفعها.'

مشيت إلى مجموعة الرجال الواقفين أمام البوابة. كنت أعرف هذه النوعية من الزبائن؛ سبق لي أن رأيت كثيرين مثلهم خلال سنواتي في المغرب. كانوا يتظاهرون بأنهم موظفو جمارك أو بحّارة أو أي شيء آخر، غير أنهم لم يكونوا يفعلون شيئاً. كنت أعرف أنهم كانوا خبراء فَراسة، مدرَّبين على الاهتداء إلى الوجوه المثيرة للشك بين الحشود الصاعدة إلى العبّارة.

اقتربت منهم راسماً ابتسامة عريضة على وجهي وباسطاً ذراعي تعبيراً عن مدى كوني بلا حول ولا قوة. قلت بالفرنسية: 'أرجو أن تعذروني. أنا آسف جداً

لإزعاجكم. إلا أنني ذاهب لرؤية أهلي وسيارتي تعطلت.' أشرت إلى السيارة الواقفة في الصف. 'اشتريت السيارة ظناً مني أنني أستطيع بيعها في المغرب وكسب بعض المال. إلا أنني أنفقت على إصلاحها مبالغ طائلة في الطريق من بروكسل إلى هنا حتى أفْلَسْتُ. لا أريد سوى إيصالها إلى العبّارة؛ إن أخي سيستقبلني في الطرف الآخر ومعه قاطرة.'

بدا الرجال متعاطفين. أدركت أنني أقنعتُهم. منحتُهم أعرض ابتساماتي.

'هل لي أن أطمع بمساعدتكم لي في دفع السيارة إلى العبارة؟'

تبادل الرجال النظرات، أحدهم هز كتفيه ودار نحوي قائلاً: 'لك ما تريد بالتأكيد.'

رافقني ثلاثة منهم إلى سيارة الأودي. تطلَّبَتْ العملية جهداً كبيراً، غير أننا استطعنا، آخر المطاف، أن ندفع السيارة - وهي المحشوة بالمتفجرات، الرشاشات، الذخائر، والعملات المهربة (المزورة) - إلى قلب العبّارة. كنت أضحك بيني وبين نفسي كل الوقت. ما أكثر ما كانت الشرطة المغربية قد عَذَّبَتْني لسنوات طويلة! ألم يكن من العدل أن تمد لي الآن يد المساعدة؟!

ما إن أصبحتْ السيارة على ظهر العبّارة. حتى صعدت إلى قمرة الركاب. جلست ودخنت سيجارة فيما كانت العبارة تبحر مبتعدة عن الرصيف. طلبت كأساً من الويسكي، كأساً آخر. كنت أعرف أن المكان كان زاخراً بعناصر الأمن السريين المكلفين بمراقبة الجميع. أردت أن أثبت لهم أنني لم أكن أصولياً متطرفاً؛ لم أكن سوى زبون عادي عائد لزيارة أهله.

غير أنني كنت أيضاً بحاجة إلى كأس بالفعل.

طَنْجة

بعد وصول العبّارة إلى رصيف طنجة، انتظرت خروج جميع السيارات الأخرى أولاً. لم يكن ثمة أي طريقة لتحريك الأودي وإخراجها وحدي، فنظرت من حولي ورأيت مجموعة الرجال نفسها التي كانت قد ساعدتني في ألجزيراس. ذهبت إليهم وسألتهم عما إذا كانوا مستعدين مرة أخرى لمساعدتي. كانوا أقل دفئاً هذه المرة؛ باتوا في المغرب، حيث كانوا يتمتعون بنفوذ حقيقي. غير أن أحدهم اقترح العثور على بعض عمال الرصيف الذين ساعدوني في دفع السيارة وإنزالها عن ظهر القارب.

حين وصلت إلى منطقة الجمارك صُعِقْتُ. كان المكان كله مزدحماً بعناصر الشرطة. كانت الشرطة المغربية مسلحة ودائبة على تفتيش السيارات كلها. حتى السياح الأوروبيون الذين كانوا يبحرون عابرين كان يتم إيقافهم. كانت الشرطة تخرج كل شيء من السيارة، قطعة قطعة. رأيت شرطياً يطلب من سيدة بريطانية إخراج رضيعها من السيارة. بدأ الرضيع يزعق، إلا أن الشرطي لم يبالِ بالأمر؛ أمضى، أقله، خمس دقائق وهو ينكش المقعد ويفككه قبل إعادته إلى الأم.

آنذاك لم أستوعب ما كان حاصلاً، إلا أنني ما لبثت أن جمعت أجزاء القصة. كانت الحكومة المغربية المعادية دوماً للتطرف الإسلامي، قد غدت أقسى في خريف 1994 حين كانت جماعة إسلامية متطرفة مرتبطة بالجبهة الإسلامية المسلحة قد أقدمت على قتل اثنين من السياح في أحد فنادق مراكش. والآن، بعد عملية الاختطاف، كانت الحكومة في حالة استنفار شديد. كانت شديدة القلق من احتمال تسرب الجماعة الإسلامية المسلحة وجماعات متطرفة أخرى إلى المغرب. كانت الحكومة تفعل كل شيء تستطيعه لقفل الحدود.

كان حكيم والآخرون قد أرسلوني إلى قلب برميل البارود هذا مع سيارة ملأى بالمتفجرات. كانوا يعرفون بدقة ما كان حاصلاً. الشخص الوحيد الذي كان

لديه شيء من الإحساس بالذنب هو جمال الذي كان قد حاول إرسالي إلى سَبْتة بدلاً من طنجة.

شعرت بالرهبة ولم أكن أعرف ما أستطيع فعله. لم أكن متوفراً على أي حماية هنا في المغرب، لم يكن جيل قادراً على فعل أي شيء إذا ما جرى اعتقالي. لو قلت للسلطات إنني عميل لجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي)، لسارع جيل إلى إنكار ذلك. إذا اكتشف الأمن ما كنت أحمله في السيارة، فكان سيعذبني لانتزاع أسماء الناس الذين كنت أعمل معهم. وكان الاحتمال الأقوى هو أنهم كانوا سيقتلونني بعد الحصول على المعلومات.

تعين علي أن أفكر بسرعة. تذكرت الدور الذي كنت ألعبه: سائح عائد إلى الوطن لزيارة الأهل. كان النهار موشكاً على نهايته، كانت سيارتي معطّلة، وأنا مهدود من التعب. لم أكن أريد سوى الوصول إلى طنجة ولقاء الأهل.

بدأت أفكك جميع الأشياء وأخرجها من السيارة لأضعها على الرصيف ـ البسط، السجاد، الأجهزة الإلكترونية، العلب. بعد قليل اقترب مني موظف جمارك. كان يرتدي زياً رسمياً مزيناً ببعض شارات مهارة الرمي على الكتّافتين. من الواضح أنه كان مسؤولاً رفيع المستوى.

سألني: 'ما الذي تفعله؟'

أجبت: 'أحاول المساعدة. قَدَّرْتُ أن من شأن إخراج كل الأشياء من السيارة أن يسرِّع العملية. أنا الأخير في الصف. أنا بحاجة إلى قَطْر السيارة بعد الخروج من هنا كي أتمكن من الوصول إلى أهلي.'

'وما الخلل في السيارة؟'

نشرتُ ذراعي وأطلقت زفرة قوية تعبيراً عن الخيبة: 'إنها هالكة. إن السيارة ميتة. اشتريتها في بلجيكا متوهماً أنني قادر على بيعها هنا وكسب بعض المال.

غير أنني أجهزت على كل ما معي من مال ثمناً لإصلاحها. ولست واثقاً حتى من قدرتي على إصلاحها بعد الآن. قد أُضطر لبيعها خردة.'

مالَ الضابطُ علي وتكلم بصوت منخفض. قال: 'إذا كان معك أي شيء تريد إخفاءه، يا ولدي، يكفي أن تعطيني مئتي درهم فقط فأسمح لك بالمرور.'

نظرت إلى حَدَقَتي عينيه. غريزياً أدركتُ أن هذا لم يكن إلا اختباراً. مع وجود حشد من ضباط الجمارك العاكفين على نكش كل شيء في السيارات من حولي، لم يكن ثمة أي احتمال لأن يكون هذا الزبون مستعداً لتمريري مقابل رشوة بسيطة. قررت أن أتابع في التمثيل.

'قلت لك قبل قليل. لا أملك أي مال. وها أنت ذا تريدني أن أدفع المزيد لمجرد العبور، أليس كذلك؟ انس الموضوع!' كنت قد قررت اصطناع الغضب بعد الآن. تابعت الكلام: 'أتدري ماذا؟ لماذا لا تأخذ السيارة؟ خذ كل شيء فيها. من شأن ذلك أن يحررني. من شأن ذلك أن يوفر عليَّ قدراً هائلاً من الصداع.'

أومأ المسؤول وابتعد عني. كنت قد مثَّلتُ دَوْري أفضل مما كان هو قد مثَّلَ دَوْره.

لم يكن الأمر قد انتهى بعد. مع ابتعاد المسؤول كانت جماعة قد اقتربت: عنصرا شرطة، جندي مسلح، وموظف جمارك بزي رسمي. كان ثمة رجل آخر بلباس مدني. كان أصغر سناً من الآخرين، وكان يحمل مطرقة ومفك براغي. تقدم نحوي وخاطبني: 'السلام عليكم!' كان وجهه استثنائي الجدِّية.

'عليكم السلام' أجبت.

ثم دار حول السيارة وفتح الغطاء. غمغمت تعبيراً عن الخيبة. سألت: 'هل هذا ضروري حقاً؟' كنت لا أزال أتظاهر بالغضب من السيارة، ومن التأخير. أشرت إلى جميع الأغراض التي كنت قد أنزلتها من السيارة ونشرتها على

الإسفلت. قلت: 'قمت بإنزال كل شيء من السيارة تيسيراً لمعاينتكم. وعم تبحثون بعد كل هذا؟'

رفع رأسه وقال: 'لماذا تسأل؟ هل لديك ما تخفيه؟'

'وما الذي كنت سأخفيه؟'

'لا أدري' قال بابتسامة مصطنعة 'أسلحة، ربما؟'

'تمام، رائع. دعك من هذا الكلام! ومن أكون أنا؟ جيمس بوند؟'

رد غامزاً: 'لا بالطبع؛ أنت لست جيمس بوند. غير انك قد تكون إرهابياً.'

أطلقت ضحكة ساخرة: 'ليتني كنت إرهابياً! لست إلا أحمق خَوَّزَقه تاجر سيارات.'

في تلك اللحظة كان يعاين مصفاة الهواء، ناقراً إياها بمطرقته لفتحها. كنت حريصاً على إبعاده عن المحرك.

'أرجوك يا أخي، اتق الله! السيارة معطلة أساساً.' شكوت. ثم تابعت: 'بددت آلاف الدراهم على إصلاح ذلك المحرك وأنت الآن تعطله أكثر؟ هيا حطّمه لي.'

رفع الموظف رأسه ونظر إلي ثم أعاد النظر إلى المصفاة. نقرها بضع مرات أخرى لمجرد إثبات أنه لم يأبه بما قلته، وأنزل الغطاء. ثم جاء لينظر إلى داخل السيارة. ثمة كان كتاب على المقعد الخلفي كنت عاكفاً على قراءته منذ بعض الوقت عن رأي المسلمين بما جاء في سفر الرؤيا. حمله وسألني:

'ما هذا؟'

قلت 'إنه كتاب'. لم أكن قد تعمدت تركه على المقعد الخلفي، غير أنني لم أقلق كثيراً لأنني فعلت. أي إرهابي أبله كان سيسافر مصطحباً كتاباً عن الفكر الرؤيوي الإسلامي؟!

قلّبه وعاين غلافيه. كان يهز رأسه، وكانت تعابير وجهه بالغة الجدية. حدّق في عيني وبدأ يقول: 'هل تصدق هذا كله يا أخ؟'

هَمْهَمْت: 'هل تمزح؟ ما من أحد يصدق كل شيء يقرؤه في الجرائد، أليس كذلك؟'

ابتسم، رمى الكتاب إلى السيارة، ولوّح لي سامحاً لي بالتقدم إلى المخرج قائلاً: 'انقلع من هنا!'

نظر إلي ثم إلى السيارة من جديد. ثم راح ينظر إلى كل حاجياتي المنشورة على الرصيف. 'لا بأس' قال. 'بادر إلى إعادة أشيائك إلى السيارة، وهؤلاء الشباب سيساعدونك على إخراجها من البوابة.' أشار إلى أفراد الشرطة.

أجبته بابتسامة عريضة جداً.

ما إن أنجز أفراد الشرطة مهمة دفع السيارة إلى خارج البوابات وإيقافها على قارعة الطريق، حتى هرعت إلى الموظف الأول الذي كان قد طلب الرشوة. قلت:

'انظر يا أخي، أعرف أنني لم أعطك شيئاً من قبل، ولكن هل لي أن ألتمس مساعدتك الآن؟ أنا بحاجة إلى شخص يراقب سيارتي عند ذهابي للبحث عن قاطرة. سأعطيك مئة درهم.'

وافق الموظف، وأعطيته نصف المبلغ سلفاً. ثم هرعت إلى الشارع بعيداً عن الميناء فوجدتني أمام محل إصلاح سيارات. قلت لصاحب المحل إنني بحاجة لقطر سيارتي وجرها إلى المدينة. وافق الرجل وقفزت إلى قمرة شاحنته التي أعادتنا معاً إلى الأودي. كان الموظف لا يزال واقفاً في مكانه. أعطيته الباقي وساعدني على شَكْل السيارة بالشاحنة.

لم أستطع إلا أن ابتسم بيني وبين نفسي ونحن في الطريق إلى قلب طنجة. شعرت بالامتنان لكل هؤلاء الموظفين المغاربة الذين ساعدوني على تهريب كميات من المتفجرات والرشاشات والذخائر والأوراق النقدية المهربة والمزورة إلى داخل المغرب في زحمة أعلى درجات التدابير الأمنية الممكنة.

كان حكيم قد أمرني بأن أتوجه مباشرةً إلى بيت مليكة، إحدى بنات عمومتنا البعيدات، فور وصولي إلى طنجة. كان قد رتب لي موضوع الإقامة معها. كان لديها جهاز فاكس، جهازي راديو سي بي، وجهاز تصوير وشريط فيديو كان يتعين علي أن أضعها في السيارة قبل تسليمها.

لم يكن قد سبق لي أن رأيت مليكة سوى مرة واحدة، حين كنا، كلينا طفلين، ومنذ ذلك الوقت كنت قد سمعت من أمي أنها كانت قد تزوجت سافلاً. ما إن وصلت إلى البيت حتى ساعدتني في إنزال كل شيء من السيارة والمقطورة. معظم الأشياء كانت لها هي، مكافأة لها على تخزين الأجهزة الإلكترونية. وبعد إفراغ السيارة رأيت عدداً من الصبية يلهون في الشارع. أعطيت كلاً منهم بضعة دراهم فساعدوني في دفع السيارة وإدخالها إلى الكراج.

كانت مليكة لا تزال فتاة عذبة، ضئيلة الجسم، ذات بشرة ناعمة وعينين سوداوين واسعتين. لاطفتْني كثيراً وقدمتْ لي الطعام. لم أكن أعرفها فلم أجرؤ على سؤالها عن حياتها الشخصية، هي أيضاً لم تفعل بالمقابل.

بعد الانتهاء من تناول الطعام سألتُ عن الأجهزة فأخذتني إلى خَزْنة في المطبخ حيث كان جهاز الراديو. قلت: 'عظيم. أين هما جهازا الفاكس وشريط الفيديو؟'

أطْرَقَتْ ونظرتْ إلى الأرض وهي تهز كتفيها بلطف قائلة: 'ليسا عندي.'

شعرتُ بالارتباك. 'لماذا؟'

نظرتْ إليَّ دون أن تقول شيئاً. عيناها كانتا واسعتين وبريئتين إلا أنني لاحظتُ أنهما بدأتا تغرورقان بالدمع. وفيما يشبه الهمس قالت: 'رهنهما للحصول على ما يشتري به مخدِّراً'.

يا للهول! 'هل تعرفين محل الرهن؟' لم يكن ثمة وقت يمكن تبديده، فحكيم والآخرون كانوا يلحون علي طالبين مني أن أتحرر من هذه السيارة بسرعة.

هزت برأسها وقالت: 'لا أعرف. ولكنه سيعود غداً، ويستطيع هو أن يدلَّك'.

لاحقاً ذلك المساء اتصلت بالرقم الخليوي الذي كان حكيم قد زوّدني به. جاء الرد من ياسين أفدته بأنني كنت قد وصلت إلى المغرب مع السيارة، وبدا بالغ السرور. غير أنه كان منزعجاً لأن زبوني لم يكن قد وصل بعد إلى طنجة. فسّر لي أن سبب التأخير تمثل بالتعقيد على الحدود الجزائرية وأكد أنه كان سيصل في اليوم التالي. شعرت بالارتياح لأن الوقت اللازم لاستعادة البضاعة من محل الرهن بات متوفراً.

لم أُطلع ياسين على ما كان قد حصل لجهاز الفاكس وشريط الفيديو لأنني لم أكن أريد أن أتسبب بأي مشكلة لمليكة.

عندما استيقظت صباح اليوم التالي فوجئت باختفاء حذائي. كنتُ قد خلعتُه قبل دخول البيت وتركته خارج الباب. خَوْزَقوني - كان حذاء جلدياً فاخراً باهظ الثمن.

دخلت غرفة الجلوس. كان رجل جالساً على السرير. عيناه كانتا بقعتي دم، وبدا بالغ القذارة. شممت رائحته مع وصولي إلى الباب.

سألته: 'هل رأيت حذائي؟' اكتفى بالابتسام. رفعت صوتي: 'هل أخذت حذائي؟' بقي صامتاً.

لم يكن لدي وقت لهذا، فسلّمت بالأمر قائلاً: 'لا بأس. يكفي أن تزوّدوني بأي شيء أنتعله. يمكنك الاحتفاظ بالحذاء شرط إخباري عمن أعطيته جهاز الفاكس وشريط الفيديو.'

هز كتفيه واضطجع مسنداً ظهره إلى السرير وهو ينشر ابتسامته البلهاء على وجهه. ثم أعطاني اسم محل الرهن وأشار إلى بوط رياضة على الأرض. انتعلت البوط وهرعت إلى المحل. كنت هناك في غضون خمس دقائق. أمسكت بصاحب المحل من ذراعه وحَدَّقت في عينيه. أفهمته أنني عازم على استرجاع جهاز الفاكس وشريط الفيديو. أدرك على الفور ما كنت بصدده.

قال: 'جهاز الفاكس موجود عندي هنا' مشيراً إلى الرف.

سألت: 'وماذا عن شريط الفيديو؟' بقي الرجل صامتاً. شدَّدْتُ قبضتي على ذراعه وقلت: 'اسمع، أنا متأكد من أن شريط الفيديو عندك. أين هو؟'

تمتم متلعثماً: 'ليس عندي أيها الأخ'

'أين هو إذن؟ ماذا فعلت به؟'

بدا الرجل مذعوراً. كنت ممسكاً بذراعه بقوة، وكان وجهي قريباً من وجهه. راح يتمتم: 'كان شريط الفيديو عندي. شاهدتُه. كان فلماً عظيماً؛ جعلني فخوراً بما يقوم به الإخوة في الجزائر. أعرته لصديق ليستمتع بمشاهدته.'

لم أستطع تصديق ما كنت أسمعه. إن حيازة أي فلم دعائي في المغرب في تلك الأيام كانت مغامرة أخطر من أن يتصورها المرء. أما الآن فإن عناصر الأمن كانوا موجودين في كل مكان بحثاً عن أي دليل على التطرف. من المؤكد أن هذا الزبون غبي غباء لا يصدق، بقناعتي.

شَدَدْتُه إليّ وقلت: 'هات لي ذلك الشريط. إذا أعدته في غضون نصف ساعة سأعطيك خمس مئة درهم. إذا لم تفعل فسوف أسلّمك إلى الشرطة.'

خاف الرجل كثيراً. خرج من المحل بسرعة البرق. عاد بعد نحو عشرين دقيقة ومعه الشريط. لوى عنقه واعتذر. أعطيته المبلغ الذي وعدته به ومشيت.

جلست على مسافة بضع مئات من الأمتار عن المحل ووضعت جهاز الفاكس جانباً. حملت شريط الفيديو بين يدي. لم يكن الحصول على هذه الأشرطة سهلاً. على الرغم من أن التصوير تم في الجزائر، فإن الفلم كان لابد من إرساله إلى أوروبا لتحريره وطبعه. والعمل بعد ذلك على تهريبه إلى أفريقيا لإعادته إلى الجزائر، حيث كانت الأشرطة تُوظَّف للدعاية والتجنيد. كانت هذه تجارة شديدة الخطر.

بدأت أسحب الشريط الأسود من الفتحة. شريط بطول عشرات الأمتار. فرمته نتفاً صغيرة.

لم يكن لدي أي فكرة عمن كان قد رآه. قد يكون أي شخص. كانت الشرطة عاكفة على تكنيس البلاد لاجتثاث الإسلاميين، وكانت على الدوام ستجد أناساً راغبين في الكلام. لو أن أحداً قام بربط هذا الشريط بمليكة، لكان مصيرها السجن. وبالتالي فقد تعين عليّ أن أجهز عليه، أن أخربه تماماً. كان الشريط خطراً جداً علينا جميعاً.

السينما

في اليوم التالي اتصلت بياسين من جديد. أبلغني بأن الزبون كان سيصل في الثامنة من ذلك المساء، وطلب مني اختيار مكان للقاء. قلت له إنني سأكون أمام سينما باريس مدخِّناً باستمرار. كان الزبون يستطيع أن يتعرف عليًّ بهذه الطريقة (طريقة التدخين المتواصل).

وصلت إلى السينما في الثامنة تماماً. كنت متوتراً بعض الشيء سلفاً بسبب الشريط. المدينة كلها بدت أيضاً متوترة. دوريات مسلحة كانت تجوب الشوارع.

كنت قد أمضيت عدداً من السنوات في المغرب هارباً من الشرطة. وحين غادرت قبل سنة، ظننت أنني كنت قد خَلَّفْت كل شيء ورائي.

بقيت واقفاً أمام السينما أكثر من ساعة، مدخناً السيجارة بعد الأخرى. لم يقترب مني أحد. أجهزت على "الباكيت". أصبحت في حيرة من أمري. تسارعت دقات قلبي. بدأتُ أفكر بالاحتمالات المرعبة. ربما كان هذا الزبون أحد عملاء الجهاز السري المغربي وكان يعاينني أو يختبرني. وقد يكون أمين وياسين قد عرف أنني خُنْتُهم وقررا تعريضي للقتل.

لم أكن قادراً على متابعة الانتظار. زاد توتري؛ صرت أشعر كما لو كان كل شرطي عابر محدِّقاً فيّ أنا. كان لابد لي من أن أفعل شيئاً، فاهتديت إلى كوة هاتف واتصلت بياسين.

ما إن رفع السماعة حتى بادرته: 'ما الذي يجري؟ لم يظهر أحد.'

'إنه هناك' قال ياسين. 'لقد مر بالسينما ولكنه لم يرك.'

'يا للغرابة!' قلت. 'أنا الشخص الوحيد الواقف أمام السينما والذي يدخن دون توقف.'

'هيا عد إلى المكان وانتظر. سأتصل به وأبلغه بأنك هناك.'

اشتريت علبة دخان أخرى وعدت إلى مكاني السابق أمام السينما. بقيت واقفاً مدة خمس وأربعين دقيقة أخرى. لا أحد. بدأت يداي ترتجفان. تملّكني الغضب. مشيت إلى كوة الهاتف؛ عاودت الاتصال بياسين.

'أوكي، قل فقط كيف يبدو. صِفْه لي. سأهتدي أنا إليه إذا كان هو عاجزاً عن الاهتداء إليّ'

رد ياسين: 'لا أستطيع وصفه.' كنت أعرف لماذا: كان يخشى من أن يكون خطه مراقباً فيكشف هوية زبونه.

لم أبالِ بالأمر. قلت له: 'اسمع ما أقوله لك: إما أن تصفه لي، أو أبادر أنا إلى نسيان الصفقة كلها. لن يحصل على السيارة أبداً.'

'لا أستطيع إعطاءك الأوصاف. أنت تعرف أنني لا أستطيع أن أفعل ذلك.'

'إذن سأحتفظ بالسيارة.'

أخيراً أذعن ياسين. كان يعرف أنني عنيد وقد أقرر الاحتفاظ بالسيارة.

'أوكي، موافق. إنه قصير القامة، نحو 165 سنتيمتراً. مائل إلى الصلَع. له لحية بيضاء.'

أعدت سماعة الهاتف إلى مكانها ومشيت نحو السينما. على مسافة نحو 150 متراً عن المدخل، رأيت رجلاً ينطبق عليه الوصف الذي زوّدَني به ياسين للتو. لدى اقترابي أكثر أدركت طبيعة المشكلة: لم يكن الرجل يدرك ماهية المهمة التي كان ينفذها. كان عجوزاً في أواخر ستينياته. ومن جلبابه استطعت أن أستنتج أنه كان مغربياً. كان واقفاً ببساطة على الرصيف متلفتاً حوله بلا هدف. لم يكن يحمل أي دليل.

اقتربت منه لَفَفْتُه بذراعيّ ورحت أقبله على الوجنتين. قلت: 'ما أسعدني برؤيتك! آسف جداً أنني لم أهتد إليك من قبل. ما أكثر ما بحثت عنك...'

حدّق الرجل فيَّ مرتبكاً. انقضضت على ذراعه وجررته معي. تابعت الكلام معه بصوت مرتفع كل الوقت. كيف حال الأولاد؟ ثم بصوت أنعم: 'معي هدية لك. جلبتها من بلجيكا هل تعرف من أرسلها؟'

دُرْت لأنظر إليه، رد علي بنظرة. بدا متوتر الأعصاب.

قال: 'أمين وياسين'. كان صوته يرتجف قليلاً.

أومأت برأسي. بعد ذلك، مشينا لبضع دقائق أخرى. واصلت الكلام، كما لو كنا صديقين قديمين خارجين إلى مشوار.

أخيراً سأل: 'أين هي الهدية، إذن؟'

قلت: 'اطمئن. إنها في مكان آمن. سنستلمها غداً. بعد تسجيل السيارة ودفع الرسم.'

وقف الرجل حيث كان ونظر إلي قائلاً: 'لا يا أخ، لسنا بحاجة إلى ذلك.'

'بل نحن بحاجة، من الطبيعي أن نكون.' كانت السيارة مسجلة باسمي أنا في المغرب. فحين كانت أي سيارة أجنبية تدخل البلاد، كانت السلطات الجمركية تسجلها في بنك معلوماتها. والطريقة الوحيدة لشطب اسمي من السجل تمثل ببيع السيارة إلى شخص آخر. أما إذا لم أفعل فكنت سأبقى مسؤولاً عما يحدث للسيارة كما عن كل ما فيها. وكان وارداً جداً أن أُسأل عنها أيضاً لدى خروجي من المغرب، إذن كان من المحتمل أن تحاول السلطات معرفة ما قد فعلته بالسيارة التي كنت قد أدخلتها.

شرحت هذا كله للعجوز، وحاول هو أن يطمئنني. 'لا تخف يا أخ. لدينا عميل على الحدود. قام بشطب الملف من الكمبيوتر وانتهى. لن يحصل شيء.'

لم أصدقه. لم أكن واثقاً بأمين وياسين. لم ينبهاني إلى مدى دقَّة الإجراءات الأمنية في المغرب، ومن الواضح أنهما لم يكونا يباليان بما كان محتملاً أن يحصل لي بعد أن أصبحت هنا. وأنا أفكر بالأمر أدركت أن من شأن عدم عودتي إلى بلجيكا أن يكون مناسباً جداً بالنسبة إليهما. كانا قد حصلا مني على ما كانا بحاجة إليه: باتا يعرفان عنوان لوران، وقادران بسهولة على بدء التعامل المباشر معه. أضف إلى ذلك أنهما لم يسبق لهما أن وثقا بي قط. والآن على نحوٍ خاص، بعد أن أصبحت على مستوى الكلام معهما عن السمتكس والصواعق، ربما بات أسهل بما لا يقاس أن يتم الخلاص مني.

حَدَّقْت في العجوز وسألت بتحدٍّ: 'وما الذي يجعلني أن أثق بك؟ كنت واقفاً في الساحة لساعات وأنت تنتظرني. اسمعني جيداً، أنا لا أمزح. لن أسلمك السيارة دون إنجاز المعاملة.'

بدا مرعوباً: 'لا أعرف ما سأقوله. سيتعين عليك أن تتفق مع الأخوين.'

تركته حيث هو وذهبت إلى كوة الهاتف للاتصال بياسين. ما إن رفع السماعة حتى كررت الإنذار الذي كنت قد وجهته إلى زبونه. لا سيارة بلا أوراق رسمية. حاول ياسين إقناعي وطمأنتي؛ حاول أن يقول إن عليّ أن أصدق العجوز وأثق بكلامه. كان ثمة زبون يتولى الاهتمام بمثل هذه الأمور على الحدود. ذكّرني بأننا كنا في عجلة من أمرنا، وبأننا كنا قد ضيعنا كثيراً من الوقت.

لم أكن مستعداً لشراء أي شي من تلك البضاعة. كنت حازماً. قلت: 'أنا جاد. إما أن يدفع الرسم ويسجل السيارة باسمه، أو لا أسلمه إياها.'

مرة أخرى وجد ياسين نفسه في مأزق. بعد فترة صمت طويلة، قال: 'أوكي، لا بأس، سنرى ما نستطيع فعله. عاودْ الاتصال غداً صباحاً.'

عندما تحدثت مع ياسين صباح اليوم التالي، بدا لي بائساً. قال: 'نَفَّذنا طلباتك. معه المبلغ، سيقوم بإنجاز المعاملة وسيسلمك الأوراق. وتستطيع أنت أن تسلمه السيارة.'

لم يكن قد سبق لي أن سمعت ياسين وهو يتكلم بهذه النبرة. بدا حزيناً، يائساً.

تابع كلامه قائلاً: 'اعلم أننا نسوق هذا الرجل إلى حتفه عملياً.' وكان ياسين على صواب بالطبع. من الواضح أن هذا الزبون لم يكن أحد مجندي الجماعة الإسلامية المسلحة؛ كان مجرد تاجر أو مهرب. لم يكن سيفعل أي شيء بالسيارة أو بحشوتها. غير أن ورود اسمه في الأوراق كان من شأنه أن يجعله مسؤولاً عن

كل ما قد يحصل للسيارة حتى بعد تنازله عنها. كنت واقفاً على الوضع تماماً: لم يكن العجوز قد اتفق سوى على عملية استلام وتسليم سريعة. لم يخطر بباله قط أن يصبح منخرطاً في الحرب الدائرة.

لم يتوقف ياسين عن ممارسة الضغط. من الواضح أن العجوز كان عنصراً بالغ الأهمية بالنسبة إليه. قال: 'إنه يخاطر بحياته كما تعلم. ربما بمصير عائلته أيضاً. بله حلقات مسلسل التموين والإمداد كلها.'

كان الكيل قد طفح معي. أنا أيضاً لم أكن منخرطاً في حربهم. قلت: 'اسمع جيداً. تلك ليست مشكلتي. هاتوا لي الأوراق ونقطة على السطر.' وقطعت الخط.

التقيت العجوز في وقت لاحق من ذلك اليوم. عندما سألته عما إذا كان جاء بالمال، أومأ وقال: 'نعم. المال معي.' تكلم مثل الأموات. عيناه كانتا خاليتان تماماً من أي تعبير أو معنى؛ فقط كان ينظر أمامه محدِّقاً. 'دعنا نذهب وندفع الرسوم وننهي المعاملة.'

هبط قلبي وأنا أنظر إليه. حاولت أن أتصور حالة عائلته، مدى ما كان يمكن أن تعانيه إذا ما حُرِمَتْ منه. تصورت الشرطة في المغرب، كيف كانت تعذب المتطرفين والمخربين وتعدمهم. كنت معجباً بالعجوز. كان مستعداً لتسجيل السيارة باسمه مهما كان الثمن. كان مؤمناً بما كان يفعله.

وضعت يدي برفق على كتفه: 'انس الموضوع يا أخ. لا تقلق بشأن الأوراق.' لم أستطع السير إلى نهاية الطريق. كنت عاجزاً عن توريط هذا العجوز العذب. أخرجت المبلغ الباقي من النفقات وأعطيته إياه أيضاً.

حَدَّق في وجهي غير مصدِّق. أظن أنه كان يتوقع مني أن أبادر إلى إنكار ما كنت قد قلته. وحين لم أفعل، اتسعت عيناه وانتشرت ابتسامة عريضة على وجهه. رددت عليه بابتسامة مماثلة.

مشيت معه إلى الشارع الذي كنت قد تركت فيه السيارة. في وقت أبكر صباح ذلك اليوم كنت قد أخرجتها دفعاً من الكراج بمساعدة بعض الصبية من الجيران. لم أكن أريد أن يعرف العجوز أو أيٌّ ممن كانوا معه أيَّ شيء عني أنا أو عن ابنة عمي مليكة. أفهمته أن محرك السيارة كان هالكاً وكان سيتعين عليه أن يهتدي إلى ميكانيكي. أومأ العجوز برأسه؛ من الواضح أنه كان يعرف الحقيقة سلفاً. حين أصبحنا أمام السيارة، ناولته المفاتيح.

قلت: 'السلام عليكم'

انحنى قليلاً ورد: 'وعليكم السلام!'

مشيت بضع مئات من الأمتار، جلست في أحد المقاهي لأدخن وأرتخي. غير أنني بقيت مشغول البال بالعجوز. كنت شديد الرغبة في الاطمئنان إلى تمكنه من تحريك السيارة بأمان. لذا وجدتني عائداً إلى المكان الذي كنت قد تركته فيه قبل دقائق قليلة جداً. كانت السيارة قد اختفت.

مباشرة اتصلت وتركت رسالة لجيل أبلغته فيها بأنني كنت قد سَلَّمْتُ السيارة. عاود الاتصال فوراً وسألني عن موعد عودتي إلى بلجيكا. أفدته بأن الأمر قد يستغرق بضعة أسابيع لعدم توفري على التأشيرة التي تمكنني من دخول بلجيكا. طلب مني أن أعود بالسرعة الممكنة.

ثم اتصلت مع ياسين الذي بدا بالغ السعادة واستثنائي الاعتزاز بي وبما أنجزته من مأثرة إذ قال: 'ما شاء الله! ما شاء الله!' وبعد ذلك شكرني على إعفاء العجوز من مسؤولية توقيع الأوراق الخاصة بالسيارة.

قلت له إنني كنت بحاجة إلى مبالغ لشراء بطاقة العودة لأنني كنت قد دفعت كل ما كان معي إلى العجوز. وَعَد ياسين بتزويدي بها بسرعة، في غضون أسبوعين. قمت باستغلال الوقت لتجميع أوراقي وتقديم طلب الحصول على

إجازة السوق. كان هناك شخص في السفارة، صديق قديم لأبي، قادر على مساعدتي بشأن التأشيرة (الفيزا).

اتصلت بياسين مرة أخرى بعد أسبوعين. أفاد بأنه لم يكن بعد قد استطاع تأمين المبلغ، وبأن عليَّ أن أبقى في طنجة وأنتظر. كنت أعرف أنه كان يكذب، بالطبع. كنت قد عشت عاماً كاملاً مع هذه النوعية من البشر؛ كنت أعرف أن لديهم أكواماً مكدَّسة من المال. كنت أعرف أنني على صواب - لم يكونوا يريدون أن أعود إلى بلجيكا.

شيئان اثنان حدثا مع نهاية كانون الثاني/يناير. حصلت على إجازتي الأولى للسوق. وقامت الجماعة الإسلامية المسلحة بتفجير سيارة مفخخة في مركز مدينة الجزائر. كانت الشوارع ملأى بالناس المستعدين لاستقبال رمضان الذي كان اليوم التالي أول أيامه. قتل ما لا يقل عن أربعين شخصاً، جُرح المئات، أكثرهم من النساء والأطفال.

لا أعلم ما إذا كانت المتفجرات التي نقلتها قد استُخدمت في حادثة التفجير تلك. ولن أعلم الحقيقة أبداً - فللجماعة، بالطبع، أعداد كبيرة من الممونين. غير أنني بقيت متذكراً كم كانت الرحلة مستعجلة بإلحاح. لن أنسى طريقة حكيم في تعنيفي، والخيبة الجلية في صوت ياسين حين هددت بعدم تسليم السيارة. لن أنسى السرعة التي تحلى بها الميكانيكي في إبدال محرك السيارة في بروكسل. هل كان كل شيء موقتاً لهذا الهجوم؟

لن أعرف الحقيقة أبداً، ولكن السؤال مازال يؤرقني.

تيري

رغم حلول منتصف شباط/فبراير لم يكن ياسين قد أرسل المبلغ بعد. كنت شديد الرغبة في الخروج من المغرب، فاتصلت بجيل. هذه المرة لم يتعين علي أن

أترك رسالة؛ رفع السماعة بنفسه. بدا مسروراً بسماع صوتي، تواقاً. سأل: 'أين أنت؟ متى ستعود؟'

'مازلت في المغرب. أنا مفلس. يستمر ياسين في إطلاق الوعود ولكن شيئاً لا يصل.'

أفادني جيل بأنه كان سيزوّدني بالمال مباشرة، وأضاف: 'عد بأقصى سرعة ممكنة.'

وصل المبلغ في اليوم التالي. ألفان من الدولارات المحولة برقياً. كان المبلغ أكبر بكثير من أي مبلغ سبق لجيل أن كان قد زوّدني به.

استغرقت عملية الفيزا أسبوعاً آخر. ثم قطعت تذكرة سفري بالحافلة إلى بلجيكا.

كانت الشمس موشكة على الغروب حين وصلت إلى الميناء. كان كل من البحر والسماء متألقين باللونين الأحمر والوردي. حين تكيفَتْ عيناني ونظرتُ إلى صف السيارات والناس المتطاول انتظاراً للصعود إلى العبّارة، دُهشت. بدت التدابير الأمنية أشد صرامة حتى مما كانت قبل شهر حين دخلت البلاد. ثمة كان رجال شرطة في كل مكان، وعلى مسافة كل بضعة أمتار كان هناك جنود شهروا بنادقهم ورشاشاتهم من طراز ام بي - 5 (MP5) تصورت أنهم يبحثون عني. لقد اكتشفوا أن لي علاقة بالسيارة المفخخة المتفجرة في مدينة الجزائر وهم الآن يبحثون عني.

كانت الحافلة قد أنزلتني عند بوابة الدخول إلى رصيف الصعود إلى العبّارة، غير أن المرء كان عليه أن يمشي مسافة لا تقل عن كيلومترين للوصول إلى نقطتَيْ الجمارك والجوازات. مشيت مِشْية وسطاً بين البطء والسرعة، مركزاً نظراتي على الأمام. أبقيت وجهي هادئاً، ولكن قلبي كان يهدر داخل

صدري. ما لبث أن أحسست بشفتي متحركتين داعيتين ومسبِّحتين تماماً مثل جمال أو حكيم.

كانت الشمسشديدة القرب من الأفق وساطعة جداً إلى درجة أنها وَخَزَتْ عيني. كانت تنعكس عن ظهور السيارات، وتنشر الذهب على كل الاتجاهات. شعرت بدوار. راح عقلي يدوّم. كررت الصلوات والأدعية عشرات المرات متوسلاً الرب ألا تقوم الشرطة بسحبي من الصف واعتقالي. كنت أعرف الشرطة في المغرب. كنت أعرف ما كان سيحصل لي إذا ما اعتُقلت.

'تابعْ المَشْيَ!' قلت لنفسي. 'امشِ في خط مستقيم. لا تلتفتْ يميناً، لا تلتفتْ يساراً. امشِ فقط في خط مستقيم!' ركزت انتباهي على وقع خطواتي، أغمضت عيني نصف إغماضة لأطرد الذهب المالئ للمكان من رأسي. 'امش في خط مستقيم! تابع المشي.'

مع اقترابي من نقطة مراقبة الجوازات تباطأ قلبي. أصبحت شبه مستقيل. كنت واثقاً من أنهم إذا ما اعتقلوني فقد كانوا سيكتشفون قصة السيارة وجميع الأشياء ذات العلاقة بها. كانوا سيقومون بتعذيبي إلى أن أطلعهم على كل ما كنت أعرفه. كنت أعلم أن من شأن حياتي أن تكون قد انتهت إذا ما جرى إلقاء القبض علي.

ثم ما لبثتُ أن شعرت بالانفراج. لم تكن تلك سوى مشيئة الله. كنت بين يديه تعالى الآن. كنت سأسلم نفسي إليه سبحانه.

توقفت أمام الكوة وسلَّمت جواز سفري إلى الموظف. كنت هادئاً، وبادرته بابتسامة خفيفة. نظر إليَّ نظرة خاطفة، ثم عاين جواز سفري. دَرَسَتُه. كان أسمر البشرة مع قليل من الشعر على وجهه. شارب كثيف كان يغطي شفته العليا.

رفع رأسه. سألني:

'لماذا أنت ذاهب إلى بلجيكا؟'

بقي صوتي هادئاً. 'أمي مقيمة هناك. ذاهب أنا لزيارتها.'

أومأ وراح يعاين الجواز من جديد. ثم ختم جواز السفر وأعاده إلي قائلاً: 'رحلة سعيدة!'

كنت ضعيفاً لدى عودتي إلى بروكسل؛ شعرت بنوع من البرودة تتملكني. ما إن نزلت من الحافلة حتى اتصلت بجيل. من جديد رفع سماعة الهاتف بنفسه مباشرة؛ لم يكن ثمة أي جهاز رد آلي. طلب مني أن آخذ قسطاً من النوم، ثم نلتقي صباح اليوم التالي.

اتصلت بالبيت بعد ذلك، جاء حكيم ليقلّني. ابتسم حين رآني. قال: 'ما شاء الله! ما شاء الله! أنا فخور بك.' لم يكن قد سبق لي في حياتي كلها أن سمعت منه مثل هذا الكلام.

حين وصلت إلى البيت، وجدت كلاً من أمين وياسين مشغولين بتناول العشاء. انتصب الاثنان واقفين للترحيب. كانا أيضاً يبتسمان ويرددان عبارة: 'ما شاء الله! ما شاء الله! 'ما شاء الله!'

كان الجميع في مزاج جيد. حدّق أمين في وجهي وقال: 'اعلم أن الجميع في الجزائر يتحدثون عن هذا. لا أحد يستطيع أن يصدق أنك كنت قادراً على تحقيق مثل هذا الإنجاز. أكاد لا أصدق.'

سألته: 'لماذا؟'

'نقاط الحدود محكمة جداً. من شبه المستحيل إدخال أي شيء. ما من أحد من شأنه أن يبدي استعداداً ولو لمجرد أن يحاول.' صمتُّ لبرهة. 'لا أعتقد أنني، أنا نفسي، كنت قادراً على تحقيق مثل هذا الإنجاز.'

حَدَّقْت في بؤبؤ عينه وقلت مبتسماً، ولكن مع قدرٍ واضح من الغضب في نبرة صوتي: 'إذن لماذا أرسلتموني؟'

التقط نظراتي وراح يتكلم ببطء: 'لأنني كنت أعرف أنك الوحيد القادر على مثل هذا الإنجاز.'

بقيت نظراتنا متشابكة مدة بدت بضع دقائق. أخيراً أقدم ياسين على كسر جليد الصمت حين التفت إليّ وقال: 'أريد منك أن تتصل بلوران غداً. نريد شراء بعض الصواعق.'

حين التقيت جيل في اليوم التالي، علمت من البداية أن شيئاً كان مختلفاً. التقينا كعادتنا، وقد تبعته. غير أننا، بدلاً من التوجه إلى ساحة روجيه كما درجنا من قبل، مشينا في اتجاه آخر. مررنا بحديقة النباتات لنصل إلى فندق قريب من ساحة مادو. الفندق أيضاً كان مختلفاً: رخيص، مهلهل. مختلف كلياً عن الفنادق الفاخرة التي كنا نلتقي فيها من قبل.

لم يقم جيل بتفسير أي شيء، وأنا لم أسأل. بادر إلى التقاط الحديث من النقطة التي تركناه فيها قبل ذهابي إلى المغرب. أفدته بأن ياسين كان يبحث عن سمتكس وصواعق من جديد بدا مرعوباً.

سأل: 'هل تعتقد أنهم عازمون على شن أي هجمات داخل أوروبا؟ هل قال أمين والآخرون أي شيء من هذا القبيل؟'

لم أكن قد سمعت بأي شيء من هذا، وقلت ذلك لجيل. ثم طرح عليّ سلسلة طويلة من الأسئلة حول المغرب. أين تركت السيارة؟ كيف التقيت الزبون؟ كان استثنائي الاهتمام بمعرفة هوية الزبون، غير أنني لم أكن مستعداً لإبلاغه. كنت قد خاطرت كثيراً لحماية العجوز، ولم أكن مستعداً للغدر به الآن.

سألني جيل: 'هل تستطيع أن تصفه لي؟'

'لا أذكر.'

'كيف لا تتذكر مواصفاته؟ هل أنت عاجز حقاً عن إعطائي أي معلومة عنه؟'

'كان أقصر مني، ربما بطول 170 سم. عجوز طاعن في السن.'

أحجم جيل عن التعليق. درج على عدم قول أي شيء لدى امتاعي عن إعطائه المعلومات المطلوبة. اكتفى بالتحديق في وجهي، بنظرات جامدة، خالية من المعنى.

حين وقفت استعداداً للمغادرة قال لي إن علينا أن نلتقي ثانية في اليوم التالي، في ساعة متأخرة من بعد الظهر. كان سينتظر في مكان قريب من القنصلية الأمريكية.

عند استيقاظي صباح اليوم التالي، وجدتني في حالة أسوأ. كنت أشعر بدوار في رأسي وبدت أطرافي ثقيلة. غير أنني ذهبت إلى القنصلية الأمريكية بعد الظهر كما كنا قد اتفقنا. مشيت خلف جيل مدة طويلة، أطول من المعتاد. مشينا نحو ساعة، قاطعين المسافة إلى بوابة النامور كلها. كنت شديد التوعك إلى درجة أحسست معها بأننا قطعنا ثلاثة أضعاف المسافة.

عند أحد المنعطفات انحنيت أمام أحد المخازن لربط حذائي. لم أكن بحاجة؛ كان الحذاء مربوطاً وعلى أتم وضع. حين نظرت في مرآة الواجهة، رأيت رجلاً ماشياً خلفي على مسافة بضع خطوات. تذكرته. ما إن رآني منحنياً حتى رفع جريدته ليغطي بها وجهه وتابع المشي. ضحكت بيني وبين نفسي.

وحين التقيت جيل أخيراً أمام أحد الفنادق، قلت له همساً:

'أتعلم يا جيل. أعتقد أن هناك من يتعقبنا.'

انتفض ونظر إلي سائلاً: 'حقاً؟'

'نعم أظن ذلك.'

لم يقل جيل شيئاً عن الموضوع، بل سارع إلى تغيير منحى الكلام. قال: 'سنلتقي صديقاً لي اليوم. إنه من هنا، من بروكسل. يمكنك أن تطمئن تماماً. إنه صديق. سنتحدث معه قليلاً.'

أومأت ثم سار أمامي في الشارع. ثمة كان حشد كبير من المارة المشاة، إلا أنني ما لبثت أن رأيت على بعد نحو خمسين متراً الرجل الذي كان يتبعني نفسه.

التفتُّ إلى جيل وطلبت منه أن ينظر إلى حامل الجريدة: 'هل ذلك هو صديقك بالمناسبة؟'

فوجئ جيل: 'كيف عرفت ذلك؟ هل تعرفه؟'

كبتُّ ضحكة وقلت: 'لا، بالطبع لا. فقط قدرت. لم يسبق لي أن رأيته قط.'

بالطبع كنت قد رأيته من قبل. كان قد تعقبني في المرة الأولى التي اجتمعت فيها مع جيل. اعتقدت أنه لم يكن إلا واحداً من زبانية جيل وأشباحه.

نحن الثلاثة ركبنا سيارة كانت واقفة في مكان قريب، وبادر جيل إلى تقديم الرجل بوصفه تيري. وتيري هذا بدا منفعلاً للقائي، كما بدا لي جيل فخوراً بتقديم أحدنا إلى الآخر. كان بشوشاً وأكثر انتصاباً مما هو مألوف في جلسته.

ابتعدنا كثيراً عن مركز المدينة وجلسنا في مقهى فارغ. أخرج تيري بعض الصور من حقيبته ونشرها على الطاولة. لم يكن ثمة كثيرون، وكنت قد رأيت جميع الوجوه من قبل. بأكثريتها كانت الصور صور أمين، ياسين، حكيم، وطارق، ولكن مع بعض الرجال الذين كنت قد شاهدتهم يترددون على البيت. ثمة كانت صورة لي أنا مع نبيل أيضاً. التفتُّ إلى جيل وسألت بغضب: 'ما هذا بحق الشيطان والجحيم؟ سبق لنا أن تكلمنا عن الأمر. هذا نبيل. ليست له أي علاقة بالأمر.'

استقام جيل في جلسته: 'لا، بالتأكيد لا، بالطبع لا. تلك الصورة يجب ألا تكون هنا.' نبه تيري بإشارة تحذير لطيفة بسبابته وأمره بالتخلص منها.

سألني تيري فيضاً من الأسئلة. هل تعرف هذا الزبون؟ هل تعرف ذلك الأخ؟ إلى أين أخذ هذا الشخص السيارة؟ من أين جاء ذلك الزبون؟ كان قد سبق لي أن أجبت على كل هذه الأسئلة من قبل مع جيل، ولكن الأخير لم يكن يقول شيئاً.

فجأة، أدركت ما كان حاصلاً، قاطعت تيري 'أنتم تخططون لاعتقالهم، أليس كذلك؟'

قام تيري وجيل بتبادل النظرات السريعة ثم قال الأول: 'لا، ليس ذلك ما نحن عازمون على فعله.'

غير أنني عرفت أنهم كانوا سيفعلون. أدركت أن جيل كان يتعاون مع تيري من البداية، وأن الأخير كان يعمل في جهاز أمن الدولة Sûrete de ?tat، جهاز الأمن السري في بلجيكا. علمت أن تيري كان يتعين عليه أن يتأكد من كل شيء قبل السير قُدُماً في العملية.

تملكني الغضب. كنت قد خاطرت بكل شيء خدمة لجيل، خدمة لجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي (DGSE). غامرت بحياتي لمساعدة أولئك على اجتثاث هؤلاء الإرهابيين. ربما كنت قد اقترفت إحدى أشنع الجرائم. والآن كانوا سينسفون كل شيء عن طريق التحرك قبل الأوان.

قلت: 'لا أصدقك. ستقومون باعتقالهم.' لم يقل جيل شيئاً ولكنه حَدَجَني بنظرةٍ ذات مغزى.

تابعت كلامي: 'إنكم تقعون في خطأ جسيم. عادوا، أخيراً، ووثقوا بي. هم يتحدثون معي. يمكننا أن نقطع مزيداً من الأشواط إذا أعطيتموني وقتاً أطول.'

كنت أتوسل إليه في هذه النقطة؛ كنت ألتمس منهم فرصة متابعة العمل، الشيء الوحيد الذي كان يضفي معنى، أي معنى، على حياتي. أخيراً خرج جيل عن صمته وقال بابتسامة محكمة: 'اطمئن لا نخطط لاعتقال أحد في أي وقت قريب.'

كنت مرتبكاً. لم أكن واثقاً من قدرتي على الوثوق به. اكتفيت بطلب شيء واحد: 'حين تخططون لتنفيذ الاعتقالات، اقطعْ وعداً بأنك ستخبرني مسبَقاً.'

أومأ جيل، تحدث ببطء، بنبرة مطمئنة. ابتسم لي.

'سوف أفعل بالطبع.'

الحُمّى

أويت إلى الفراش في وقتٍ مبكر تلك الليلة. رشْحي كان قد زاد سوءاً وكنت أعاني من صداع مخيف. شعرت بشيء من التحسن عند استيقاظي صباح اليوم التالي مما شجعني على ركوب إحدى الحافلات المتوجهة إلى قلب مركز المدينة لمجرد الفرجة. كانت العودة إلى بلجيكا بالغة الروعة بعد كل تلك الأسابيع في المغرب. كان ذلك هو آخر أيام رمضان، وكنت متلهفاً لعيد الفطر في اليوم التالي. كنا سنولم، سنحتفل بالعيد.

بقي الحديث مع جيل في اليوم السابق شاغلاً بالي. كنت شبه متأكد من أن جيل كان قد كذب علي، ومن أن عمليات المداهمة آتية. تذكرت صورتي مع نبيل عند تيري. هل كنا من الأهداف أيضاً؟ هل كانوا سيرمونا في السجن مع الآخرين؟ كنت أعرف أن جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي (DGSE) كان قادراً على كل شيء. أولئك الذين كانوا مستعدين لنسف إحدى بواخر السلام الأخضر لم يكونوا مستعدين للتردد لحظة واحدة إزاء تدمير شخص مثلي.

مع حلول ساعات العصر بدأت أشعر بالمرض من جديد، في حالة أسوأ من ذي قبل. كان البرد قد اخترق سترتي ورحت أرتجف. ركبت الحافلة للعودة إلى البيت وما إن جلست حتى شعرت أنني في وضع مخيف، وضع أكثر إثارة للذعر. كان الصداع قد عاد، وكان ثمة طنين دائم في أذني. شعرت بالضعف. حين نزلت من الحافلة وبدأت المشي باتجاه البيت شعرت بأن قدمي كانتا ثقيلتين.

كان حكيم، أمين، وياسين يستقلون السيارة عندما وصلت إلى البيت. سألت:

'إلى أين أنتم ذاهبون؟'

رد ياسين: 'ذاهبون فقط لإنجاز بعض المهمات.'

'تمهلوا' قلت. 'أريد أن أتحدث معكم قبل أن تذهبوا.' كانت أصداء صوتي تتردد في أذني، غير أنني لم أكن أعرف مصدرها. كان رأسي ثقيلاً، أذناي تطنان، وفمي يتكلم وحده.

دعاني ياسين بالإشارة إلى المقعد الخلفي حيث كان حكيم. كان أمين هو السائق في حين كان ياسين في المقعد الأمامي. كان الجميع ينظرون إلي بترقب. قلت:

'أرجوك أسرعْ! لا أريد أن أتكلم هنا. ما سأقوله لكم بالغ الأهمية. هيا ابتعدوا.'

تبادل أمين وياسين نظرات خاطفة، ثم التفتا إلينا. قام أمين بتشغيل المحرك. سرنا نحو خمس عشرة دقيقة قبل أن نتوقف في منطقة صناعية خالية. أطفأ أمين المحرك، ولكنه بقي ناظراً إلى الأمام.

أذناي كانتا لا تزالان تطنان، أعلى فأعلى. بدأت أتعرق؛ عرفت أنني كنت محموماً. ثم تدحرجت الكلمات من فمي: كنت أعمل مع جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي DESE.'

صمت.

نظرت إلى حكيم الجالس بجانبي. عيناه اتسعتا، شفتاه بدأتا تتحركان بسرعة فائقة. أمين وياسين ظلا يحدّقان في الأفق البعيد. لم أكن أستطيع أن أرى سوى قفوي رأسيهما. سألني أمين: 'منذ متى؟'

بدأت أسترد الوعي، وأدركت معنى ما قلته للتو. بدأ الضباب ينقشع قليلاً في رأسي، وصرت أشعر بانقباض في صدري. أجبت: 'منذ بعض الوقت، منذ بضعة أشهر.'

لم يتحرك أحد. بدوا مشلولين تماماً. ثم تكلم ياسين. 'هل أخبرتهم بما فعلته في المغرب؟'

'نعم.'

'هل أعطيتهم اسم زبوننا هناك؟'

'لا، لم أقل لهم شيئاً عنه.' وكنت صادقاً في هذا.

فترة صمت طويلة أخرى. لم يتحرك أحد من جديد. ثم تكلم أمين مرة أخرى قائلاً: 'لماذا؟'

لم يكن ثمة أي غضب في صوته. من الواضح أنه كان كامل الهدوء. آنذاك فوجئت برد فعله. لم أفهم لماذا كان هو وياسين بمثل ذلك الهدوء. لماذا لم يصرخا تعنيفاً، أو يحاولا دق عنقي. لاحقاً كان سيتضح السبب.

فكرت لبضع دقائق حول أسلوب تفسير موقفي. حقاً، لم يكن قد سبق لي أن فكرت بالأمر ملياً قبل صعودي إلى السيارة. قلت ببطء: 'لم أفعل ما فعلته إلا من أجلكم أنتم. من أجلنا جميعاً. من أجل خدمة المجاهدين.' بدأت كلماتي تخرج الآن بسرعة أكبر: كنت أعلم أنني أستطيع أن أفيد أكثر إذا عملت من الداخل.

لعل أفضل أساليب محاربة العدو هو العمل ضده من داخله. هذه هي الطريقة التي سأعتمدها في جهادي.

لم أستطع رؤية وجه أمين، أو وجه ياسين. إلا أنني استطعت أن أرى من طرف عيني أن حكيماً كان يومئ بلطف. ما من أحد قال كلمة أخرى. أدار أمين مفتاح تشغيل السيارة، عدنا أدراجنا إلى البيت. لدى نزولي من السيارة عاينتُ الثلاثة. عيونهم كانت جاحظة، ونظراتهم بلا معنى، مثل نظرات الموتى.

لم يستغرق الحوار أكثر من خمس دقائق، إلا أنني كنت قد أمضيت سنوات وأنا أفكر به. لا أعرف لماذا أقْدَمْتُ على ما أقْدَمْتُ عليه. أعلم أنني لم أخطط للأمر مسبقاً. كنتُ في حالة نشوة، أو مثلها عندما ركبت السيارة. غير أن من كان في السيارة هو أنا، وتلك كانت كلماتي.

صحيح أنني كنت مريضاً، ولم أكن أفكر بوضوح. غير أن ذلك لم يكن هو السبب الحقيقي. فالسبب الحقيقي كان متمثلاً بأنني كنت في حالة رُعب، وكنت أعلم بأنني بحاجةٍ إلى جميع الحلفاء الذين كنت استطيع الاهتداء إليهم. لم أكن أعرف ما كان سيحدث في الخطوة التالية، غير أنني كنت أعلم بأنه كان يتعين علي أن أكون مستعداً لجميع الاحتمالات. ثمة إعصار كان موشكاً على أن يهب. كانت السماء ستمتص كل الأشياء، تعتصرها وتكورها، قبل أن تلقي بها على الأرض من جديد. كنت أنا أيضاً بين الأشياء التي كانت ستتعرض للامتصاص من قبل السماء، ولم أكن أعرف أين كنت سأستقر بعد انتهاء الإعصار.

لم أكن قادراً على الوثوق بجيل. سبق له أن غَدَرَني، أو، أقله، كان موشكاً على أن يفعل. كنت متأكداً من ذلك. غير أنني لم أكن أيضاً قادراً على أن أثق بأي من حكيم، أمين، أو ياسين. كانوا قد بحثوا أمر قتلي، وأرسلوني في مهمةٍ انتحارية إلى المغرب.

لم أكن قادراً على الثقة بأي شخص.

عيد الفطر

استيقظت مبكراً جداً صباح اليوم التالي. كنت قد أويت إلى الفراش مهدوداً من التعب في الليلة السابقة، غير أن نومي كان بالغ السوء. وحين استيقظت وجدتني في حالة حتى أسوأ. كان يتعين علي أن أنزل إلى الطبقة الأرضية لتناول الطعام مع الآخرين. كان رمضان قد انتهى. ثم أعود لأبقى في السرير باقي النهار. غير أنني لم أفعل. شعرت بضرورة الخروج من البيت وإن لم أكن أرى الأمر بهذه الصورة في ذلك الوقت. لم يكن الأمر سوى مجرد شعور في داخلي.

غادرت قبل الساعة السادسة صباحاً وذهبت إلى المدينة. جلست في أحد المقاهي ودخنت قليلاً، ثم تجولت. بقي رأسي مشوشاً وقلبي مثقلاً بكل الأشياء التي كانت قد وقعت منذ عودتي من المغرب. كنت قد تعرضت للخيانة والغدر من الجميع، وكنت قد غدرت بالجميع بالمقابل.

كان رأسي محشواً بدوّامة من الوجوه، وجوه آلاف الصور التي كنتُ قد عاينتها ومحّصتُها خلال العام الماضي؛ العجوز في المغرب، الشباب الذين مروا ببيتنا، وجه جيل حين قدمني إلى تيري، وجه حكيم حين أعلنت ارتباطي بجهاز الأمن، وجه مليكة حين أخبرتني عن مصير الشريط، وجه أمي في الصورة الألبومية، حين كانت صبية. جميع هذه الوجوه كانت تومض أمامي، ولكن دون أي نظام. لم تكن إلا وجوهاً، زحمة وجوه.

كنت شديد الرغبة في أن يَصْفُوَ رأسي. قررت أن أستقل الحافلة المتوجهة إلى حديقة سانكانتينير، حيث كنت قد قضيت كثيراً من الوقت وأنا طفل. كنت قريباً من البيت الذي كان أهلي يعيشون فيه بداية انتقالنا إلى بروكسل. حين كنت أعود أواخر الأسابيع أو الأعياد والعطل كنت أزور المتاحف هناك مع إخوتي. ما أكثر ما كنا نلهو ونلعب ساعات طويلة متواصلة، نستمتع برؤية الطائرات في متحف الجيش، بمشاهدة المومياءات في متحف الفن والتاريخ، بكل شيء.

بعد نزولي من الحافلة دخلت الحديقة، كان الشيء الأول الذي رأيته هو الجامع الذي درجت على التردد عليه مع أهلي وأنا صغير. بالطبع لم أكن أُكْثِرُ من الذهاب إلى الجامع لأنني كنت أعيش في المصح، غير أنني خلال فترات زيارتي لأهلي كنت أتابع دراسة القرآن هناك مع إخوتي. أيام الجمع ورمضان كنت أذهب إلى الجامع مع أهلي للصلاة.

دخلت متحف الفن والتاريخ. كنت أعرف المتحف مثل ظاهر يدي، كنت قد زرته مراتٍ كثيرة جداً. هذه المرة سألت السيدة الجالسة خلف مكتب الاستعلامات إذا كان ثمة أي آثار أو تاريخ إسلاميان. قالت: 'نعم ثمة قسم خاص'، وأخرجت خارطة لتدلني على كيفية الوصول إلى القسم المطلوب. قالت: 'إنه في الملحق. سيتعين عليك أن تخرج من المبنى وتدور إلى الخلف.'

كنت شديد الغضب. كان المتحف يضم مجموعات من سائر حضارات الغرب الكبرى: اليونان، روما، بيزنطة. كنت قد رأيتها جميعاً وأنا طفل. أما المجموعة الإسلامية فلم أكن قد رأيتها على الإطلاق في طفولتي لأنها كانت مخبوءة في أحد الملاحق كما لو كانت أقل جدارة من نظيراتها.

ذهبت إلى الملحق. لم يكن هناك أحد غيري. كان الضوء خافتاً وبدت المعروضات في واجهاتها الزجاجية المتلألئة قافزة نحوي من قلب الجدران. ثمة كانت أزياء وقبعات وكنوز من عصر محمد (ص). حشد من الرماح والسيوف والخناجر جمَّدَني في مكاني. كل ما عدا الحشد تلاشى. أمين، ياسين، طارق، جيل، تيري، جميعاً، اختفوا. بل لم أعد شاعراً برشّحي. صفا رأسي. كنت وحدي، وسمحت لنفسي بالانتقال إلى هذا العالم الآخر. رأيت رجالاً في دروع ثقيلة ورحت أسمع وقع سنابك جيادهم. كانوا مقاتلين مندفعين على ظهور الخيل نحو ساحات القتال، ملوِّحين بسيوفهم البراقة باتجاه السماء. كانوا يهتفون: 'الله أكبر! الله أكبر!'

غير أن هذا كان عالم جمود مثلما هو عالم حركة. كان عالماً زاخراً بالصلاة والعائلة والمعرفة، والاعتزاز الكبير أمام الأمم، والتواضع الشديد أمام الله. تصورت صلاح الدين الذي أجبر الجيوش المسيحية على الهرب من القدس.

كان ذلك عالماً آخر. كان ذلك عالماً جميلاً. ولكنه كان محصوراً، بقضه وقضيضه، في الملحق.

عندما غادرت المتحف بعد الظهر، وجدتني متعافياً من الرشح وأفضل حالاً بكثير. أخذت الحافلة المتجهة إلى حينا. ثم أقدمت على فعل شيء غير اعتيادي. مشيت إلى البيت عبر طريق مغايرة. كانت طريقاً أطول، موازية للقناة، مقتربة من البيت من جهة زقاق خلفي بدلاً من الشارع المقابل للواجهة. لم يكن ثمة ما يدعوني لأن أفعل هذا؛ مجرد مصادفة.

استقبلتني أمي على الباب. كان وجهها أحمر، وكانت تبكي وتصرخ: 'أين كنت. جاء البوليس وأخذ الجميع.'

دخلت البيت معها. كان كل شيء مقلوباً رأساً على عقب. كانت أمي تصرخ باكيةً: 'عاينوا جميع الأمكنة. فحصوا كل الأشياء.' حاولت احتضانها وطمأنتها. ثم قالت: 'أخذوا نبيلاً أيضاً. وهم يبحثون عنك.'

عندئذٍ أيقنتُ أن جيل كان يريد اعتقالي مع جميع الآخرين. كان قد كذب علي. كنت قد عملت معه عاماً كاملاً، كنت قد خاطرت بحياتي، كنت قد أعطيته أشياء كثيرة. والآن كان هو قد غدر بي.

قفزت إلى الطبقة العليا بسرعة وأخذت جواز سفري وبضع صور لي باقية من وقت استخراجي لإجازة السوق. نزلت إلى الطبقة الأرضية الثانية، عانقت أمي مرة أخرى. غادرت البيت من الطريق التي كنت قد اتبعتها عند العودة، بمحاذاة القناة.

كان سيمضي عشرة أعوام قبل أن أرى أمي من جديد.

أخذت الحافلة المتجهة إلى محطة القطار واتصلت مع جيل من إحدى الكوى الهاتفية المأجورة، غير أنه لم يرد. تركت رسالة: 'مرحباً. سأتصل بك بعد ساعة. إذا لم ترد، فسأستقل القطار إلى باريس، وسأكون صباح الغد واقفاً أمام وزارة الخارجية، صارخاً باسمك. من الأفضل لك أن ترد.' أعدت سماعة الهاتف إلى مكانه صفقاً.

بعد ساعة اتصلت ثانية. لم أتلق أي رد. قلت: 'أنا متجه إلى القطار.' أعدت السماعة إلى مكانها واستقليت القطار. كنت أعلم أن زبانية جيل كانوا سينتظرونني في وزارة الخارجية في اليوم التالي لاعتقالي. بالطبع لم أكن راغباً في حصول ذلك.

كنت لا أزال أرتجف غضباً. ظللت أفكر بوعد جيل، بطمأنته لي ووعده بأنه كان سينذرني، كان سيُبْقي نبيلاً خارج اللعبة. ندمت على كل ما فعلته في خدمته. كنت قد صدَّقْتُه حين قال لي إن لدينا الأهداف نفسها، إننا كنا نحارب الأشياء ذاتها. غير أنه كذب علي. كان على الدوام يكذب علي.

كنت أعرف ما كان يتعين عليَّ فعله. كان يتعين علي أن أجعل إقدام جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي DGSE، على اعتقالي متعذراً. إذا تمكنوا مني فكانوا سيعتقلونني وستكون كلمتهم ضد كلمتي أنا. كانت لديهم صور لي مع الجميع. كانوا يعرفون كل شيء عن الرشاشات والمتفجرات. عن الرحلة إلى المغرب. كانوا يستطيعون إبقائي وراء القضبان بقية عمري.

تعين علي أن أجعل من المتعذر على الجهاز إنكار حقيقة أنني كنت عميلاً.

'باسبورت' سيلفو بلي (جوازات من فضلكم)، صوت اختطفني من أفكاري. عنصر لضبط الحدود كان مقبلاً عبر الممر، مدققاً جميع الجوازات. حين وصل إلي، سلمته جوازي وتكلمت بهدوء:

'يجب عليك أن تعتقلني.'

صُعق بكلامي. قال: 'عفواً ماذا قلت؟'

'قلت عليك أن تعتقلني. نقطة على السطر.'

'هل اقترفت جرماً؟'

'لا. غير أنني أملك معلومات مهمة. ذات علاقة بالأمن القومي.'

نظر إلي بارتياب، ودام الجدل بيننا بعض الوقت. ثم أصريت على التحدث مع رئيسه. مشينا إلى مؤخرة القطار، حيث كان رئيس قسم ضبط الحدود جالساً في مقصورةصغيرة. مرة أخرى، عرضت قصتي: 'أريد أن أتحدث مع شخص مسؤول عن قضايا الأمن القومي.'

بدا منزعجاً: 'أنا مسؤول عن قضايا الأمن القومي.'

قلت له: 'أنا لن أصارحك أنت. القضية ملحة وعاجلة. لابد لي من أن أتحدث مع شخص من جهاز الدي اس تي '(DST) مشيراً إلى جهاز الديركسيون دولا سورفايانس دو تريتوار، نظير الدي جي اس إي (DGSE) للأمن الداخلي بفرنسا.

تجادلنا حول هذا بضع دقائق أخرى إلى أن أتعبتُه أخيراً. وافق على إنزالي في المحطة التالية وأخذي إلى المفوضية.

غير أنه كان شديد الغضب. غمغم: 'إذا كنت تحاول خوزقتي وخداعي فإنك سوف تندم.'

'أنا لا أخدعك ولا أحاول أن أخوزقك. إذا لم تسمع كلامي فإنك أنت سوف تندم.'

عند وصولي إلى المفوضية وضعوني في زنزانة. جاء الرئيس وقلت له إنني راغب في التحدث مع شخص من جهاز الدي اس تي (DST). تجادلنا حول الموضوع، إلا أنني صمدت متمسكاً بموقفي. أذعن، ولاحقاً، منتصف الليل، جاء رجل آخر. كان يرتدي ملابس مدنية. كان يصرخ من الغضب كنت نائماً. من الأفضل لك أن يكون الأمر مهماً حقاً، وإلا.'

أكدت له أنه كذلك. سألته عما إذا كان من الدي اس تي (DST) فرد بالإيجاب وأطلعني على بطاقته الشخصية. قلت له إنني بحاجة إلى محفظتي التي أُخذت مني قبل سجني في الزنزانة. ما لبث أحد الحراس أن جاء. قلَّب محفظتي وعاينها قبل أن يعيدها إلي. أخذت رقم هاتف جيل، سلمته إلى موظف الدي اس تي (DST)، وطلبت منه أن يتصل بالرقم. طلبت منه أيضاً أن يترك اسمي على الجهاز مع رسالة تقول بأنني رهن الاعتقال وأتحدث مع أحد موظفي الدي اس تي (DST). ثم رحت أنتظر في الزنزانة.

بعد ساعة جاء أحد العناصر وفتح باب الزنزانة. طلب مني أن أتبعه، وقال إن هناك شخصاً على الهاتف كان ينتظر للتحدث معي. ما إن وصلت إلى المكتب حتى رفعت السماعة. كان صوت الرجل على الطرف الآخر منفعلاً ودافئاً: كيف حالك يا عمر؟!

دُهشت. كانت تلك المرة الأولى التي يتم فيها في الأجهزة ذكر اسمي. قلت: 'أنا رائع!

رد الرجل: 'هذا جيد. سعيد أنا بسماع ذلك. الآن قل لي، ماذا أخبرتهم؟'

'لا شيء. لا شيء على الإطلاق.'

قال: 'هذا جيد. ابق صامداً. إياك أن تتكلم. سنخرجك من هناك مباشرة. سأتصل خلال بضع دقائق.'

لم يبادر الشرطي إلى إعادتي إلى زنزانتي بعد الذي حصل. انتظر معي إلى أن أعاد الرجل الاتصال. طلب مني البقاء في المحطة تلك الليلة. كانت الشرطة ستقطع لي تذكرة عودة إلى بروكسل. صباح اليوم التالي كان يتعين علي أن أتصل مع جيل ليحدد لي مكان اللقاء معه.

ما أكثر ما أصبح الجميع في المخفر كرماء ولطفاء بعد ذلك! رئيس المفوضية نفسه سمح لي بأن أدون تقرير الشرطة الخاص بي، ليقينه بأن الأمر لم يكن سوى مظاهر روتين. ومع ذلك، رفضت أن أوقع، وهو لم يلح. ثم تابعنا السهر حتى ساعات الصباح المبكرة ونحن نلهو ونلعب الورق.

أدركوا أنني كنت واحداً منهم. وأنا أدركت أنهم عرفوا. باتت أجهزة الدرك، الشرطة المحلية، الدي اس تي (DST)، جميعاً، مطلعة على حقيقة كوني أحد العملاء. لم يكن جيل قادراً على الإنكار، لم يعد جهاز الدي جي اس إي (DGSE) قادراً على إنكار الحقيقة. كل ما كان الطرفان متمتعين به من نفوذ وسيطرة علي، فقداه في تلك الليلة.

كان ثمة جهاز تلفزيون تلك الليلة في المفوضية، في غرفة الانتظار حيث لعبنا الورق. كانت ثمة تقارير إخبارية عن الاعتقالات الحاصلة في بلجيكا. لم يكونوا، بعد، يأتون على ذكر أي أسماء، إلا أنني كنت سأعرف ما هو أكثر بما لا يقاس لاحقاً.

كانوا قد اعتقلوا كلاً من أمين وياسين. حوكما في بروكسل في الخريف التالي؛ أقرا بالتهم الموجهة إليهما وحُكما بأربع سنوات سجن. أما حكيم فنال عقوبة أشد ربما لأن أشياء كثيرة - جملة السيارات، البيوت الآمنة، المخابئ، الحسابات المصرفية - كانت باسمه. كانت الجماعة قد استغلته تماماً.

علمت أن طارقاً لم يكن، في الحقيقة، إلا رجلاً يدعى علي توش، أحد كبار عناصر عمليات الجماعة الإسلامية المسلحة في أوروبا. نجا من المصيدة بطريقةٍ

ما وفر إلى هولندا. اعتقلوا أيضاً رجلاً يدعى طارق بن حبيب معروفي. كنت قد تعرفت عليه في إحدى الصور التي عرضها جيل علي. كان المعروفي هذا قد مر بالبيت في إحدى المحطات. وهذا المواطن التونسي كان عضو جماعة متطرفة ذات روابط مع الجماعة الإسلامية المسلحة. ما لبث جيل، لاحقاً، أن بيَّنَ أن الدي جي اس إي (DGSE) كان عاكفاً على تقصي حقيقة هذه الجماعة التونسية، الأمر الذي جعله شديد الاهتمام بقائمة العناوين التي كنت قد سرقتها من العلب المخزنة في المطبخ.

جرى إطلاق سراح المعروفي بعد عام واحد فقط، وقد واصل النشاط ليصبح واحداً من أهم وأبرز منظمي القاعدة في أوروبا. في أيلول/سبتمبر 2001، كان هو العقل المدبر لعملية اغتيال أحمد شاه مسعود في أفغانستان، ذلك المجاهد النبيل الذي كان قد أصبح بطلاً بنظري بعد أن شاهدت كل تلك الأفلام في مركز بومبيدو عن الغزو السوفييتي لأفغانستان. منذ ذلك الوقت كان شاه مسعود قد أضحى رئيس تحالف الشمال في أفغانستان، ذلك التحالف الذي كان معارضاً شرساً للطالبان.

نجح المعروفي في تجنيد اثنين من الانتحاريين في بلجيكا وزوَّدَهما بجوازي سفر مزورين. متظاهرين بأنهما صحفيان، قابلاً مسعوداً والناطق باسمه. قاما بتفجير العبوة المفخخة، قاتلين نفسيهما والمتحدث باسم الزعيم ومسعود مباشرة. أصبحت طريق بن لادن في أفغانستان ممهدة. وبعد يومين اثنين تهاوى البرجان التوأمان.

مغامرات جديدة

قابلت جيل في بروكسل في اليوم التالي. كان اللقاء منسقاً بعناية فائقة؛ حدد لي رقم المقصورة التي كان يجب أن أختارها للجلوس فيها في القطار،

المخرج الذي كان يتعين علي استخدامه للخروج من المحطة. كان ثمة ضباط سريون في المحطة كلها؛ كنت خبيراً في تمييزهم في أي حشد.

ما إن خرجت من المحطة حتى وجدت جيل أمامي فمشينا معاً إلى أحد مطاعم الماكونالد وجلسنا إلى إحدى الطاولات. كنت شدد الغضب منه. وكان هو متوقعاً ذلك.

قلت: كَذَبْتَ علي. قلت لي إنك كنت ستحذرني إذا ما تقرر إجراء أي اعتقالات.' كانت نبرة صوتي أقرب إلى الصراخ: 'وعدتني بعدم اعتقال نبيل.'

بقي جيل متماسكاً، كعادته دائماً. غير أنه تحدث بصوت أهدأ من المألوف، وكان أقل انتصاباً في جلسته على الكرسي. أضاف مفسراً: 'لم يكن الذنب ذنبي أنا. بعض عناصر شرطة المرور أوقفوا سيارة أمين ووجدوا فيها كميات كبيرة من الأسلحة. أوقفوه. فاضطررنا، على الأثر، أن نبادر إلى القيام بكل شيء فوراً.' لم أصدقه.

تابع كلامه: 'صحيح أننا اعتقلنا نبيلاً. وكان علينا أن نفعل. كان في البيت مع سائر الآخرين. غير أننا لم نحتجزه سوى مدة ساعتين أطلقنا سراحه بعدهما.'

أراحَني سماعُ النبأ. فرحت لأن نبيلاً كان بخير ولأن أمي لم تكن وحدها. غير أنني بقيت حانقاً على جيل. قلت: كنتم ستعتقلونني.'

أومأ جيل. 'نعم' هذا صحيح. كنا سنحتجزك لمجرد تمكينك من الحصول على المزيد من المعلومات منهم. إلا أننا لم نكن سنبقيك في الحجز على الإطلاق.' ثم اعترف بأنهم فوجئوا بعدم وجودي في البيت مع الآخرين لأن المداهمة كانت في الصباح الباكر. ثمة كانت سيارة بقيت منتظرة النهار كله، بهدف الإمساك بي لحظة عودتي إلى البيت. إلا أنهم لم يكونوا قد رأوني لأنني كنت قد عدت من الزقاق الخلفي.

توقف جيل عن الكلام ونظر إلى بؤبؤ عيني وقال: "مازلنا راغبين في أن تلتحق بهم في السجن. نريد منك أن تحصل منهم على المزيد من المعلومات المفيدة لنا." أبلغني عن وجود ضباط من الجهاز السري البلجيكي المنتظرين خارج المطعم، وحاول إقناعي بتمكينهم من اعتقالي. "بالطبع لن نتركك في المعتقل. نحن لا نريد إلا الحصول على المزيد من المعلومات. لعلك الشخص الوحيد القادر على أداء هذه المهمة."

حافظت على رباطة جأشي وهدوئي، غير أنني كنت شديد الاستياء منه. يا للوغد! كنت قد أعطيته هو وجهازه كل هذه الكنوز من المعلومات ـ كنت قد جعلت هذه المداهمات ممكنة. لم يكونوا قادرين على فعل أي شيء مما فعلوه دوني أنا. لو كانوا لما انتظروا إلى حين عودتي من المغرب. كان بوسعهم إبقائي هناك. أما الآن فقد أنجزت مهمتي، وبات راغباً في الخلاص مني. وكان يظن أنني كنت على درجةٍ من الغباء تكفي لتصديق ما يثرثر به من هراء.

ملت على الطاولة وحدقت في وجهه. قلت: "قُلْتَ لي إن لدينا الأهداف ذاتها." كانت نبرة الغضب جلية في صوتي؛ لقد كانت همسة وصرخة في الوقت عينه. "بعد عملية الاختطاف، تحدثنا عن الأمر. وعدتك بالولاء الكامل. توهمتُ أنني كنت حاصلاً على إخلاصك. إلا أنك ما لبثت أن غدرت بي."

كانت عينا جيل تزدادان اتساعاً مع كل كلمة أقولها. كنت مستعداً لأتحلى بالقدر نفسه من انعدام الرحمة في تعاملي معه مثل تعامله معي. غير أنني كنت لا أزال بحاجة إليه. قلت له: "سأخبرك الآن. سأذهب إلى أي مكان، سأفعل كل شيء لمحاربة هؤلاء الإرهابيين. كلفني بمهمة، أي مهمة. إلا أنني لن أدخل السجن من أجلك. لَستَ صاحب سلطة علي، وأنا لا أثق بك."

تراجع جيل في كرسيه قليلاً: "تمام، تمام!" قال وهو يتنهد. "إذن علينا أن نخطط معاً لشيء ما." صَمَتَ للحظة، غارقاً في التفكير.

وبعد قليل قال: "لابد من إخراجك من بلجيكا. أعطينا اسمك للانتربول ليلة البارحة. ما إن يدخل الاسم في الجهاز حتى يصبح إخراجه متطلباً لبعض الوقت." أخرج محفظة نقود وأعطاني مبلغاً من المال. قال: "غداً سنوصلك إلى فرنسا. عليك أن تتخلص من ملابسك. حذار استعمال الحافلة أو المترو. ابق بعيداً عن الأنظار."

أخذت المبلغ. سألني عن المكان الذي كنت سأمضي فيه الليل. قلت: "سأهتدي إلى إحدى العاهرات." كنت أعلم أنه كان من المحتمل أن يسعى إلى جعلهم يعتقلونني أيضاً لو أطلعته على عنوان الأصدقاء الذين كنت سأنام عندهم.

في اليوم التالي التقيت جيل في محطة القطار. أوصاني باستئجار سيارة تكسي تقلني إلى قرية قريبة من الحدود الفرنسية تدعى أنتوينغ. التقينا ثانية هناك، أوصاني ثانية باستئجار سيارة تكسي أخرى والتوجه إلى روم. ومن هناك كان علي أن آخذ سيارة أجرة ثالثة إلى قرية فرنسية صغيرة عبر الحدود مباشرة تدعى أورشي.

حين وصلت إلى أورشي وجدت اثنين من ضباط الشرطة السرية واقفين بجانب سيارة أمام الكنيسة. بعد بضع دقائق وصل جيل. دار حول الزاوية مشياً. من الواضح أنه كان يتعقبني من أنتوينغ.

ما إن رآني حتى حياني. خرج سائق من السيارة وفتح الباب له، وركبنا، جيل، وأنا والضابطين، السيارة. وبعد أن استقر كل منا في مقعده، التفت جيل إليَّ ناشراً ابتسامة هزيلة على وجهه وهو يقتبس عبارة عظيمة من كتب الأجراس قائلاً: "في الطريق إلى مغامرات جديدة! En route pour de nouvelles aventures."

الدوله باخشته (حديقة الردم) (حدائق يلدز في استانبول الغربية)

بعد وصولنا إلى باريس، قام جيل بحجز غرفة لي في أحد الفنادق. كان فندقاً رخيصاً، بالياً، وبشعاً، وحين زارني في المرة الثانية شكوت. قلت إنني كنت أظن أنني كنت جديراً بما هو أفضل بعد كل الذي كنت قد فعلته. على مضض نقلني إلى مكان ألطف.

لم يكن لدي أشياء كثيرة أقوم بها خلال فترة وجودي في باريس، إلا أن جيل دأب على تزويدي بالمال وعلى زيارتي كل بضعة أيام. من الغريب أنه طلب مني ذات يوم أن أتصل بأهلي. كان يريد أن يعرف ما إذا كانوا قد اكتشفوا أنني كنتُ، أنا وراء عملية الاعتقال. أرعبني الطلب. كان نبيل قد أوقف مع الآخرين، وعلى الرغم من أنه لم يكن قد بقي في الحجز سوى ساعتين، فإن من المحتمل بقوة أن يكون حكيم أو أحد الآخرين قد حدثه عن اعترافي قبل يوم واحد. وإذا ما نجح جيل في اكتشاف ذلك، فإن من شأنه أن يعرف أنني كنت قد غدرت به. كان سيتم اعتقالي فوراً. لم يكن ثمة أي شيء أستطيع فعله سوى تلبية الطلب. فأدرت الرقم.

نبيل رفع السماعة، وكان غاضباً. صرخ بأعلى صوته: 'أين أنت؟ انظر ماذا فعلت. إنه خطؤك، أنت، من الألف إلى الياء - الجميع باتوا في الحبس. ماما منهارة. لو كنت رجلاً حقيقياً لعدت وتحملت مسؤولية ما فعلته.'

شعرت بالارتياح. بالطبع كان غاضباً مني. من قبل، كنت قد وعدت باتخاذ تدبيرٍ ما لإبعاد طارق، أمين، وياسين عن البيت، وبالتالي كان سيفترض على نحوٍ طبيعي أن الاعتقالات كانت ذات علاقة. غير أنه لم يكن قد قال أي شيء عن جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي (DGSE)، وهذا هو المهم. من البداية كان جيل يعرف أنني كنت قد قطعت وعداً غامضاً بحمايته،

لأنه كان بجانبي حين اتصلت بنبيل بعد لقائنا الأول. وحين ذكرته بالأمر، انتفت الحاجة إلى أي مزيد من الكلام.

غير أننا أدركنا، كلانا، بعد تلك المكالمة الهاتفية، أن عملي في أوروبا بات مستحيلاً.

في الحقيقة، لم أكن راغباً في مواصلة العمل في أوروبا بعد ذلك. كنت تواقاً إلى الذهاب إلى معسكرات التدريب في أفغانستان. كنت قد رأيت عدداً كبيراً من الشباب المارين بالبيت في الطريق إلى المعسكرات، وكنت أشعر بالغيرة منهم. شعرت بالغيرة وأنا أسمع كلاً من أمين وياسين وهما يتحدثان عن الوقت الذي قضياه هناك. وما أكثر ما حلمت بالجبال! كنت متلهفاً للعيش بين الجبال.

أراد جيل إرسالي إلى تركيا. كان يتوقع أن أكون مفيداً في تركيا لأن الجهاز كان قد لاحظ اختفاء أعداد كبيرة من الرجال في فرنسا، وهم رجال كانوا خاضعين للمراقبة. كان هؤلاء يترددون على الجوامع المتطرفة يومياً ثم لا يلبثون أن يختفوا فجأة. كانوا يذهبون إلى تركيا ثم يضيعون. وبعد بضعة أشهر كانوا يعودون إلى الظهور في الجوامع نفسها بفرنسا، غير أن أحداً لم يكن يعرف المكان الذي كانوا فيه خلال فترة الغياب. كان الجهاز يقدر أنهم كانوا يمضون تلك الفترات في معسكرات التدريب. كان جيل يريد أن يعرف ما كان يجري في تركيا، كيف كان هؤلاء الرجال يذهبون إلى المعسكرات.

وافقت على متابعة الأمر، على الرغم من ارتيابي من ألا يكون جيل راغباً إلا في غَسْل يديه مني. فهو لم يزوِّدني بأيّ أسماء، أيّ صور، أيّ عناوين. بل ولم يحدد لي اسم المدينة التي كان يتعين عليّ أن أركز اهتمامي عليها. أدركت أنها كانت ورطة، طريق مسدودة، أن جيل كان يحاول خداعي مرة أخرى غير أنني لم أكن أنا أيضاً عاجزاً عن خداعه.

لم يكن قد سبق له أن أخذني بالجدية التي كان يتعين عليه أن يأخذني بها. إلا أنني كنت سأبرهن مدى جدارتي بالاحترام. كنت سأتسلل إلى المعسكرات. كنت سأفاجئه هو ومجمل جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي (DGSE)، فأجبر الجميع على الاهتمام بي.

بعد بضعة أيام، رافقني جيل إلى مطار شارل ديغول. تعين عليه أن يصحبني عبر نقطة مراقبة الجوازات لأنني لم أكن متوفراً على سمة دخول فرنسية؛ كانت معي سمة دخول إلى بلجيكا فقط. أعطاني سبعة آلاف دولار. ثم أتى على ذكر أحد الفنادق الاستانبولية الكبرى، حيث كنت سأقابل المسؤول عني. كنت سأسلمه بطاقة عودتي. وبهذه الطريقة كان جيل سيتمكن من ضمان عدم عودتي لإزعاجه هو أو الجهاز. لم يصرح بذلك، بالطبع، ولكن ذلك كان هو ما رمى إليه. لم أجادله.

كنت مسروراً من احتمال ركوب الطائرة. كنت ذاهباً إلى مكان جديد؛ كنت أقطع شوطاً على الطريق إلى أفغانستان. كذلك كنت تواقاً لرؤية تركيا أيضاً. ما أكثر ما كنت قد سمعت عن العالم العثماني وأنا طفل! أضف إلى ذلك أنني كنت قد رأيت بعض كنوز ذلك العالم في المتحف ببروكسل. فتركيا كانت مقر الإمبراطورية الإسلامية العظيمة الأخيرة. أردت أن أرى الجوامع والنساء اللواتي يغطين رؤوسهن. أردت أن أسمع الأذان.

غير أنني ما لبثت، لحظة خروجي من مطار استانبول وركوبي إحدى سيارات الأجرة، أن أدركت أنني كنت مخطئاً. تبين لي وأنا في الطريق إلى مركز المدينة أنني كنت واهماً. ثمة كانت نساء في "خراطات" قصيرة جداً (ميني سكيرت)، ورجال في سراويل جينز. ثمة كانت أضواء مبهرة وموسيقا صاخبة. بدا كل شيء شبيهاً بأوروبا مئة بالمئة. خاب أملي.

بعد نحو ساعتين التقيت المسؤول. كان قصير القامة ورياضياً جداً. قدم نفسه بشيفرة سخيفة كان جيل قد زوده بها قائلاً: "مرحباً يا سيد. أخشى ألا تكون جوزفين قادرة على المجيء إلى الموعد اليوم، أرسَلَتْ لك أطيب تمنياتها". وجهه كان بالغ الجدّية. تبعته إلى أحد الأقبية وسلَّمْته بطاقة العودة.

ثم اهتديت إلى سيارة أجرة طلبت من سائقها أن يطوف بي على المدينة. كان السائق عربياً، وسرعان ما بدأنا نتبادل الحديث. سألته عن سبب كون استانبول في هذه الحالة، وعما كان قد حصل للثقافة والتاريخ الإسلاميين.

"إن السبب هو أتاتورك" قال. لم أكن قد سمعت عن أتاتورك من قبل. أفادني السائق بأن أتاتورك هذا كان قد عَلْمَنَ البلد كله، قد شطب اللغة بل وحتى الأحرف الأبجدية. قال إذا كنت أريد أن أرى الإسلام الحقيقي فقد كان لابد لي من أذهب إلى قونيه، مسقط رأس الرومي.(*)

لم أكن أعرف شيئاً عن الرومي، إلا أنني وثقت بالعربي. وعلى أي حال، فإن جيل لم يكن قد كلفني بأي عمل آخر أقوم به. ما لبثت أن أخذت القطار الذاهب إلى قونيه؛ استغرقتْ الرحلة نحو خمس عشرة ساعة. بعد أن حجزت في أحد الفنادق وأخذت قسطاً من الراحة، طلبت من عامل الاستقبال أن يدلني على جامع.

صُعقت لدى عبوري باب الجامع، إذ رأيت عدداً من القبور داخل المسجد. فقط المسيحيون لديهم قبور في كنائسهم؛ هذا ممنوع في الإسلام. فالجامع هو بيت الله، لا بيت الأموات. كان حكيم قد لقَّنني ذلك في المغرب.

بعد أن تجاوزتُ صدمتي الأولية، بدأت أتفهم المكان الذي كنت فيه. ثمة كانت آلات موسيقية على الأرض في المسجد، مما كان يعني شيئاً واحداً فقط:

(*) الرومي: هو الشاعر الصوفي المعروف جلال الدين الرومي.

كنت في جامع للصوفيين. في الحقيقة لم أكن أعرف شيئاً، أي شيء، عن الصوفية. كنت أعرف فقط أنها غير ذات علاقة بالمطلق مع ذلك النوع من التطرف الإسلامي الذي جئت أبحث عنه. في المغرب، سبق لي أن رأيت صوفيين يرقصون في الشارع: رقصة الدراويش الدورانية. غير أن الصوفي الوحيد الذي كنت أعرف عنه شيئاً كان شخصاً يدعى كات ستفنس. كان هذا قد اهتدى إلى الإسلام حين كنت أنا مراهقاً، وبوصفي مسلماً كنت قد شعرت بالاعتزاز. غير أن حكيماً ما لبث أن لقّنني، عندما أتى إلى المغرب، أن كات ستفنس لم يكن، كغيره من معشر الصوفيين، إلا واحداً من الطواغيت. فالمسلمون لا يرقصون، لا يعزفون الموسيقا في الجوامع. كنت أعرف هذه الأمور بالطبع. غير أنني فوجئت حين سمعت من حكيم أن كات ستفنس، الذي اعتبرتُه بطلاً، لم يكن، في الحقيقة، إلا كافراً.

وبالتالي فقد أيْقَنْت أنني لم أكن مرشحاً للعثور على أي شيء في قونيه. إلا أنني لم أكن في الوقت نفسه متوفراً على أي فكرة عن المكان الذي يمكنني أن أبحث فيه عن الطريق السرية العجيبة والملغزة المفضية إلى دنيا الجهاد. استأجرتُ سيارة.

أمضيت شهراً كاملاً وأنا أسوح بالسيارة في جميع أرجاء تركيا، متحدثاً مع الناس في الشارع، مع الأئمة والعامة ممن كنت التقيهم دون استثناء أو تمييز. كنت في أنقرة، إزمير، أضَنه، إسكيشهر، بورصه ـ قطعتُ ما مجموعه ثلاثة آلاف وخمس مئة كيلومتر. لم أجد شيئاً.

ومن ثم وقعتْ لي حادثة سير ذات يوم. شاحنة صدمتني وقذفتني في هاوية. تدحرجتْ سيارتي عن الصخرة واستقرت على عمق 25 متراً تحت مستوى الطريق. كنت محظوظاً إذ نجوت سالماً، ولكن السيارة تدمّرت.

تابعت الشاحنة طريقها دون أن تتوقف؛ اختفتْ؛ فص ملح وذاب. بعد الحادثة بيوم جاء رجل من وكالة تأجير السيارات إلى الفندق. لأن الشاحنة كانت

قد اختفت، كان سيتعين علي أنا أن أسدد مبلغ الألف والمئتي دولار المحدد في عقد تأمين شركة التأجير. سددت الفاتورة غير أن ذلك أجهز على كل ما كان معي.

عدت إلى استانبول وفعلت الشيء الوحيد الذي كنت أستطيع فعله: اتصلت مع جيل. تركت رسالة على جهاز هاتفه المزود بآلة التسجيل، إلا أنه لم يعاود الاتصال. تركت رسالة أخرى بعد يومين. لا رد. مع حلول آخر الأسبوع كنت أتضرع عبر جهازه: "أرجوك جيل، اتصل بي. رد علي. وقعت لي حادثة، اضطررت إلى دفع كامل الأضرار. لا أملك قرشاً".

لا شيء، رغم كل شيء.

وهكذا فإنني أقْدَمْتُ على ما كان يجب أن أُقْدم عليه: ذهبتُ إلى القنصلية الفرنسية. حين وصلت إلى هناك، سألني أحد الحراس عن غرضي. قلت له إنني مواطن فرنسي، وقد ضاع مني جواز سفري. أشار إلى الباب ومنه إلى السلّم المفضي إلى أحد المكاتب.

ذهبت ووقفت في الصف. حين جاء دوري، اقتربت من المرأة الجالسة خلف المكتب. لاحظت أن هناك مكتباً آخر خلفها، وأن الباب كان مفتوحاً. ألقيت نظرة خاطفة. رأيته، إنه الرجل الذي كان قد استلم مني تذكرة العودة في يومي الأول باستانبول. حين رآني جحظت عيناه اندهاشاً. لم تكن لديه أي فكرة عن هويتي، غير أنه كان يعرف أنني جاسوس. والجواسيس لا يكشفون عن وجوههم في المباني الرسمية.

مشى باتجاهي بسرعة ودعاني بالإشارة إلى إحدى الزوايا. بصوت خفيض، طلب مني رقم هاتف. أعطيته بطاقة الفندق، فقال لي إن أحداً كان سيتصل بي في غضون ساعتين.

ثمة شخص اتصل بي فعلاً بعد أقل من ساعتين، ولكن المتصل لم يكن جيل. كان شخصاً آخر، ما لبثت أن انتهيت متعقباً إياه عبر شوارع استانبول تماماً كما كنت قد تعقبت جيل في بروكسل. أعطاني ألفاً وخمس مئة دولار وقال إن جيل كان مشغولاً جداً وكان سيتصل بي في غضون يومين.

وحين تكلمت، أخيراً، مع جيل، عَبّر عن أسفه الشديد لعدم تمكنه من الاتصال من قبل، قائلاً إنه كان غارقاً في العمل. كان لا يزال يظن أنه قادر على خداعي. قال إنه كان سيأتي إلى استانبول خلال يومين.

التقينا في مطعم وقلت له إنني كنت أضيع وقتي في تركيا. عبرت عن رغبتي في الوصول إلى جذور هذه الشبكات الإرهابية في الباكستان وأفغانستان. كنت أريد التسلل إلى معسكرات التدريب. عيناه زاغتا. قال: 'ذلك مستحيل.'

سألته: 'لماذا يكون مستحيلاً؟'

'لمجرد أنك لن تستطيع الوصول إلى المعسكرات. لابد من أن تكون مزوداً بكتاب توصية من أحد المجنِّدين المعتمدين في أوروبا كي تتمكن من الاختراق.'

أزحت هذه المشكلة جانباً. كنت واثقاً من أنني كنت قادراً على الاختراق إذا استطعت الوصول إلى هناك.

تابع كلامه قائلاً: 'ستكون بحاجة إلى تأشيرة دخول باكستانية. ولن يكون الحصول عليها سهلاً.'

قلت ناشراً على وجهي ابتسامة عريضة: 'لم لا؟ هل لأني لا أبدو إرهابياً؟'

حصلت على التأشيرة. لم يستغرق الأمر سوى خمسة أيام، لم أستطع أن أحصل إلا على تأشيرة سياحية مدتها خمسة عشر يوماً فقط. غير أن المدة كانت كافية. حين عاد جيل إلى استانبول بعد أسبوع، فوجئ بحصولي على أي شيء بالمطلق، وأبدى إعجابه.

التقينا في حدائق الدولمه باخشته (حدائق الردم). كان يوماً ربيعياً جميلاً. تسلقنا التلة (تلة قصور يلدز) واهتدينا إلى مقعد مطل على البوسفور. أمهلني مدة سبعة أشهر. إذا لم أعد خلال تلك المدة، كان سيقطع علاقتي. كان رقم الهاتف سيتعطل، لن يعود يعمل. ثم ناولني ألفاً وخمس مئة دولار.

قال: 'اعلمْ أنكَ لَسْتَ أول من يحاول التسلل إلى المعسكرات.'

سألته: 'ماذا جرى للآخرين؟'

'أكثرهم لا يصلون. يعودون أصفار الأيدي. بعضهم لا يعودون بالمطلق.'

'أما أنا فسوف أصل كما سوف أعود' قلت بثقة.

'تمام. على بركة الله. ولكن إذا لم تفعل - حسناً، ذلك أيضاً مقبول.' ونظر إليَّ نظرة ذات معنى وقال: 'يمكنك أن تذهب إلى حيث تشاء. لن نزعجك.'

في تلك اللحظة خَفَّتْ نار غضبي من جيل. صحيح أنه كان عديم الأهلية للثقة، غير أنني كنت قد أمضيت في الكلام معه وقتاً أطول من أي شخص آخر خلال فترة عملي لديه وبتوجيهه التي دامت عاماً كاملاً. وكنا، كلانا، نريد، آخر المطاف، الأشياء ذاتها، على الرغم من أنه كان قد تعين علينا أن نسعى إليها بطريقتين مختلفتين. كان عليه هو أن يؤدي وظيفته. كنت أعرف ذلك. غير أنني كنت أعرف أيضاً أنه لم يكن يريد، في أعماقه، أن يلحق بي أي أذى. كان راغباً في أن يوفر لي مخرجاً، وكان قد أعطاني مبالغ كبيرة من المال لأبدأ حياةً جديدة.

إلا أنني لم أكن أنا راغباً في أي حياة جديدة. كنت متمسكاً بحياتي ولكن على نطاق أوسع ومستوى أعلى. أظن أن جيل كان، هو الآخر، يريد أن انجح.

أطرقت مثبِّتاً نظري على علبة سجائر المارلبورو وأشرت إلى الشعار قائلاً:

'فني، فيدي، فيتشي' (veni, vidi, vici) (جئتُ، رأيتُ، انتصرتُ)(*) ابتسم جيل.

وقفت، تصافحنا. بقي على المقعد. ثم دُرْتُ وغادرت الحديقة نازلاً نحو البوسفور.

* *

(*) عبارة شهيرة أطلقها يوليوس قيصر بعد انتصاره في إحدى معاركه في آسيا الصغرى عام 47ق.م.

المشهد الثاني

أفغانستان

أبطال المشهد:

- **ابو انس:** يأخذ عمر من لاهور إلى بيشاور
- **ابن الشيخ:** أمير معسكر خالدان
- **أبو بكر:** مدرب فلسطيني في معسكر خالدان؛ أمير في غياب ابن الشيخ
- **أبو همام:** مدرب أريتيري في معسكر خالدان؛ يقود تدريب جري أول يوم لوصول عمر
- **أبو سهيل:** مدرب يمني في معسكر خالدان؛ يدرب عمر على استخدام الرشاشات
- **عبد الحق:** متدرب مغربي من لندن في معسكر خالدان
- **عبد الكريم:** متدرب فرنسي من أصل جزائري في معسكر خالدان؛ يعود إلى الظهور في معسكر دارونتا
- **أسد الله:** يزور معسكر خالدان لفترة وجيزة؛ يعود إلى الظهور في معسكر دارونتا بوصفه مدرب متفجرات
- **أبو يحيى:** مدرب يمني في معسكر خالدان؛ يدرب عمر على المتفجرات؛ يعود إلى الظهور في معسكر دارونتا
- **أبو حديفة:** متدرب سعودي في معسكر خالدان؛ يجري إخضاعه للاستجواب عند مجيئه
- **حمزة:** متدرب مصري صغير السن مولود في كندا؛ شقيق أسامة
- **أسامة:** متدرب مصري صغير السن مولود في كندا؛ شقيق حمزة
- **أبو سعيد الكردي:** يوصل عمر من بيشاور إلى دارونتا
- **أبو زبيدة:** يرتب الأمور لعمر في بيشاور
- **أبو موسى:** كردي عراقي؛ مقيم في دارونتا
- **أبو جهاد:** أمير معسكر دارونتا

تسلسل زمني

آذار/مارس 1991: قوات المجاهدين تستولي على بلدة خوست وتطرد منها سلطات الحكومة الأفغانية، بقيادة محمد نجيب الله.

نيسان/أبريل 1992: نجيب الله يستقيل من رئاسة الجمهورية الأفغانية.

1992/6/28: برهان الدين رباني يتولى رئاسة الجمهورية الأفغانية.

خريف 1994: حركة الطالبان تبرز بوصفها قوة سياسية داخل أفغانستان.

1994/12/24 - 1995/1/3: القوات الروسية تهاجم العاصمة الشيشانية غروزني ويجري صدها.

1995/1/19: القوات الروسية تحتل غروزني بعد حرب استنزاف مطولة.

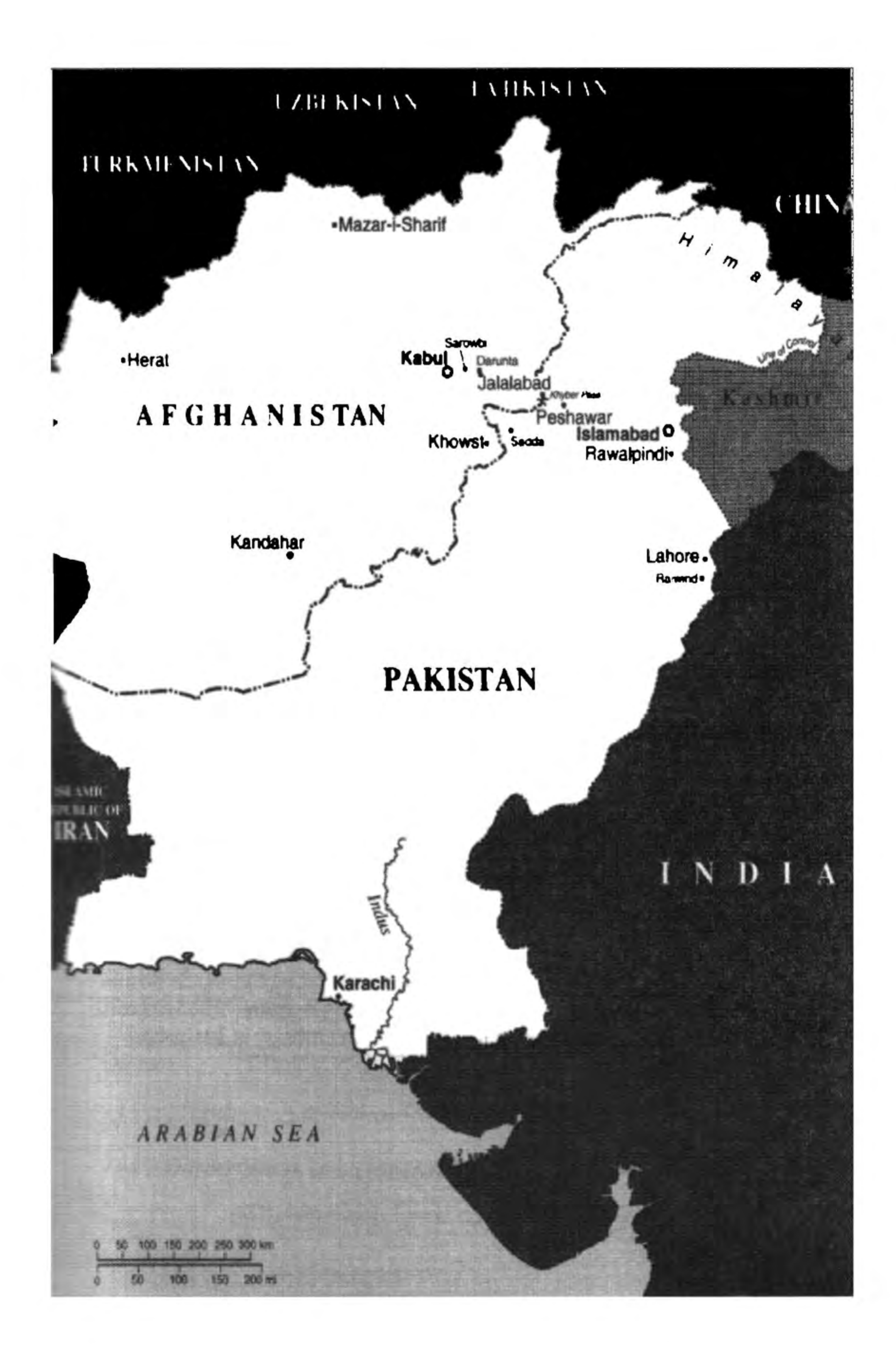
1995/2/7: يجري إلقاء القبض في الباكستان على رمزي أحمد يوسف المشتبه بتفجير 1993 لبرجي مركز التجارة العالمي.

1995/7/11 - 1995/7/16: قوات صرب البوسنة تدخل سريبرينيتسا وتقترف مذبحة يُقَدَّر عن عدد ضحاياها بسبعة آلاف نسمة من مسلمي البوسنة.

1995/7/26: انفجار قنبلة في أحد قطارات الآر إي آر RERتحت محطة سان ميشيل بباريس، ومقتل ثمانية وجرح أكثر من مئة.

1995/11/11: توقيع اتفاقيات سلام دايتون لوضع حد للحرب في البوسنة.

1995/11/19: هجوم بسيارة مفخخة على السفارة المصرية في إسلام أباد ومقتل ثمانية عشر شخصاً مع جرح خمسة وسبعين.



•Mazar-i-Sharif
H i m a l a y a
•Herat
Sarowbi
Kabul
Darunta
Jalalabad
Khyber Pass
Line of Control
Kashmir
AFGHANISTAN
Peshawar
Khowst
Islamabad
Rawalpindi
Kandahar
Lahore
PAKISTAN
IRAN
INDIA
Indus
Karachi
ARABIAN SEA
0 50 100 150 200 250 300 km
0 50 100 150 200 mi

الباكستان

في ليلتي الأخيرة باستانبول، أخَذْتُ نَفْسي إلى أفخر المطاعم في المدينة. طلبت أغلى قنينة نبيذ في القائمة، شربتها، ثم طلبت قنينة ثانية.

عند استيقاظي صباح اليوم التالي كنت متعباً. تناولت الفطور في فندقي وأجهزت على علبة سجائري. كنت أعلم أنني لم أكن لأدخن سيجارة أخرى على امتداد فترة طويلة جداً من الزمن.

استقلّيتُ سيارة أجرة إلى المطار للالتحاق برحلتي إلى كراتشي. كان الوقت مبكراً؛ ومع توفري على وقت أقتله ومبالغ كبيرة من المال في جيبي، توجهت إلى مخازن السوق الحرة. بعد الاستعراض انتهيت إلى شراء مصباح بطاريات جيب وسكّينة جيش سويسرية ذات سلسلة طويلة من الشفرات المختلفة. بدا هذان الغرضان كما لو كانا الشيئان الوحيدان اللذان كان من المحتمل أن أجدهما لازمين في المعسكرات.

ثم توجهت إلى البوابة وجلست. نظرت حولي في الصالة إلى الآخرين المنتظرين، غير أنني كنت لا أزال مرهقاً فتطلبَتْ عودتي إلى التركيز بضع دقائق. وبعد ذلك رأيت أمامي شيئاً مثيراً للانتباه: رجلاً معمَّماً. لم أستطع رؤية وجهه لجلوسه مديراً ظهره لي. إلا أنني أردت، غريزياً، أن أعرف المزيد عنه. وقفت ومشيت حوله فأصبحت قادراً على الجلوس في مواجهته، على مسافة نحو ثلاثة صفوف.

من الواضح أنه كان شاباً، في الثلاثينيات، غير أن وجهه كان يشي برجل أكبر سناً بكثير. بَشَرتُه كانت سمراء ومحروقة بالشمس، وثمة كانت تجاعيد عميقة حول عينيه. كان يرتدي زياً شبيهاً بالزي الأفغاني مع صدرية داكنة فوق السروال والقميص. كان يحمل مسواكاً في فمه. شفتاه كانتا تتحركان.

بعد زوجين من الدقائق، جاء رجل أعمال وجلس بجانبي. أشعل سيجارة وبدأ يدخن. وأنا أهم بالوقوف اقتربَتْ مني امرأة فتية. كانت تريد احتلال مقعدي وسألتني عما إذا كنت عائداً. كانت جميلة، جذابة تماماً، مرتدية خراطة قصيرة وبلوزاً مفتوحاً. هززت رأسي وابتعدت. توجهتُ نحو الرجل المعمم، وجلست إلى جانبه.

قال بما يشبه الهمس وهو ينظر إلى رجل الأعمال: 'المسلمون الذين يدخنون ليسوا مسلمين. إنهم من الطواغيت.' كانت لهجته الإنجليزية باكستانية أكثر منها أفغانية.

علَّقْتُ، ملمِّحاً إلى المرأة ذات الخراطة: 'وكذلك المسلمات اللواتي يرتدين مثل تلك الألبسة.'

أومأ برأسه، ثم تابع صلاته وتسبيحه. بقينا صامتين إلى أن حان موعد الركوب.

استقريت في مقعدي على الطائرة، رحت أفكر بالتغيير الذي ستتعرض له حياتي من جديد. كنت سأضطلع بدور مختلف تمام الاختلاف عن الأدوار السابقة. غير أنه لم يكن في الحقيقة دوراً جديداً، أو حتى دوراً بالمطلق. فحين كنت طفلاً كنت قد حلمت بخوض الحروب - بمحاربة اليابانيين، محاربة الألمان. ولاحقاً، في باريس، كنت قد حلمت بمحاربة الروس في أفغانستان. وبعد ذلك بالقتال في البوسنة، ومن ثم في بلاد الشيشان. والآن، أخيراً، ها أنا ذا على الطريق. كنت منفعلاً.

بعد ساعة طيران في الجو، شعرت بيد تربت على كتفي. رفعتُ رأسي؛ رأيت الباكستاني. سأل: 'في أي جهة تقع مكة؟'فوجئت؛ ثمة كانت خارطة طيران على جميع الشاشات في الطائرة. أشرت إلى الخارطة أمامنا وأفهمته أسلوب قراءتها. قلت له إن مكة واقعة إلى يمين الطائرة.

شكرني ومشى بضع خطوات إلى الأمام. ثم خلع سترته وبسطها على الأرضية أمامه. إحدى المضيفات انتبهت إلى ما كان يفعله وقالت له:

'لا تستطيع أن تقف هنا. يجب ألا تقفل ممر الخروج.' تجاهلَها الرجل، رفعتْ صوتَها: 'يا سيد، يا محترم، يتعين عليّ أن أطلب منك التحرك. أنت لا تستطيع إغلاق باب الطوارئ المخصص للخروج.'

أخيراً رفع رأسه وقال: 'عليَّ أن أقيم صلاتي.'

هزت برأسها وراحت تتكلم معه بصوتٍ منخفض. قام، غير أن صوتيهما ما لبثا أن أصبحا أعلى؛ كانا يتجادلان. قال: 'لا شيء سيمنعني من أن أقيم صلاتي. لا يهمني المكان الذي أنا فيه، على ظهر جمل أو على متن طائرة. سأقيمها.'

هزت المضيفة رأسها، وقالت كلاماً آخر. ثم أخرج الرجل ورقة من جيبه وهزها في وجهها صارخاً: 'رائع، خذي بطاقتي وأعيدي لي ما دفعته لأغادر الطائرة فوراً.'

بدت المضيفة مرتبكة وخائفة. من الواضح أنه لم يكن مازحاً؛ حقاً بدا مقتنعاً بقدرته على مغادرة الطائرة وهي في الجو. قفزتُ من مقعدي واقتربت منهما. ابتسمتُ للمضيفة.

قلت لها بصوت مشبع مودة: 'لماذا لا تسمحين له بأن يصلي؟ لن يستغرق الأمر سوى دقيقتين. أستطيع أن أقف هنا احتياطاً.'

نظرتْ إلي طويلاً، صامتة. أخيراً هزت كتفيها. دارت نحوه، عَبَسَتْ، ثم ابتعدت. نظر الباكستاني إليَّ، حنى رأسه قليلاً. رأيت أنه كان بالغ الامتنان. ثم دار وأقام صلاته.

بعد انتهائه عدت إلى مقعدي فتبعني وجلس بجانبي. سألني: 'لماذا لم تقم الصلاة؟'

أجبت: 'أنا أتبع السنة.' فحسب السنة يمكن إعفاء المسلمين من فرض الصلاة الجسدية في أثناء السفر البعيد. يقوم المرء بأداء الصلاة داخلياً، بعقله، بدلاً من ذلك. أومأ الباكستاني وسألني عن وجهتي.

كراتشي.'

بدا مستغرباً. 'لماذا كراتشي؟'

عاينته باهتمام. عيناه كانتا لامعتين، تُشعّان تصميماً.

قلتُ بما يشبه الهمس: 'أريد أن أؤدي فرض الجهاد.'

عيناه جحظتا: 'ولكن لماذا كراتشي، أيها الأخ؟'

هززت كتفي وابتسمت: 'في الحقيقة أنا لا أعرف كثيراً عن الباكستان. بالصدفة قطعت تذكرة إلى كراتشي.'

'لا، إياك يا أخ أن تبقى في كراتشي. إنها بالغة الخطر هذه الأيام، ليست آمنة بالنسبة إلى الأجانب، صمت برهة. 'عليك أن تذهب إلى إسلام أباد بدلاً من كراتشي.'

أخرج من حقيبته قطعة من الورق وقلماً وبدأ يكتب. لم أتعرف على اللغة. بعد انتهائه من الكتابة، رفع رأسه وناولني الورقة قائلاً: 'أعرف شخصاً يستطيع مساعدتك. هو مقيم في راوالبندي، على بعد بضع كيلومترات من إسلام أباد. حين تصل إلى إسلام أباد اعط هذا العنوان لأي سائق تكسي فيوصلك إلى هناك.' ثم انحنى علي واقترب كثيراً ليقول: 'مهما حصل، يا أخ، إياك أن تتفوه بكلمة جهاد على مسامع أحد. إنها خطرة جداً. عليك أن تتحلى بالحذر.'

أومأت امتناناً. وبنبرة بالغة الجدية شكرته على مساعدته قائلاً: 'الحمد لله. يجب أن يكون الله قد أرسلك لي.'

ابتسم لي وعاد ليضطجع في مقعده.

كان الظلام لا يزال مخيماً عندما نزلت من الطائرة في كراتشي، إلا أن الحرَّ كان قد بات لا يُطاق. عبرت الفسحة الإسفلتية إلى صالة المسافرين والمكاتب لشراء تذكرة إلى إسلام أباد. حين أنجزت المهمة نظرت من الشباك. كانت السماء قد بدأت تضيء، هرعت إلى مسجد المطار لأقيم صلاة الفجر. كان الانزلاق إلى إيقاع الحياة هذا، إلى أنماط نشأتي الأولى، بالغ السهولة.

بعد وصولي إلى إسلام أباد، اهتديت فوراً إلى سائق تكسي وأعطيته ورقة العنوان التي كان الباكستاني قد زودني بها. حين جلست أدركت مدى تعبي من الطيران الطويل؛ جسمي كله كان يؤلمني. غير أني حين اضطجعت إلى الخلف وتمددت، مركزاً عيني، بدأت ألاحظ كل ما حولي. أدركت أنني كنت في عالم مختلف كلياً عن أي شيء سبق لي أن رأيته من قبل. كانت الموسيقا الصادحة عبر راديو التكسي غريبة، هندية. كانت الشوارع غارقة في الفوضى: ثمة كانت حشود من الحمير والعربات والبشر مندفعة إلى جميع الجهات، جنباً إلى جنب مع أعداد كبيرة من السيارات والشاحنات ذوات الأحجام المختلفة، وكل منها تُزمِّر للأخريات. كانت البيوت صغيرة، متلاصقة، مرقَّعة من الحجر والمعدن وما لا يدري إلا الله من مواد أخرى. وفوق كل شيء كانت ثمة رائحة غريبة، كريهة لم يكن قد سبق لي أن خبرت مثلها، مخيِّمة. الغبار في كل مكان. سحب الغبار المقذوفة من عجلات الشاحنات في الشوارع. طبقات الغبار المجللة لأجساد الحيوانات في الطرق. أكوام الغبار البادية على ملابس المارة من البشر. الغبار في عيني، في حلقي.

وصلنا إلى راوالبندي في أقل من ساعة، إلا أننا تابعنا السير بعد تجاوز البلدة في طريق ترابية شديدة الوعورة. كنت أراقب كل انعطافة وأسجلها في ذاكرتي، للاطمئنان إلى قدرتي على الاهتداء إلى الطريق وحدي إذا ما

اضطررت. ما لبث السائق أن أوقف السيارة على طرف الطريق. طلب الورقة مني، ثم نزل من السيارة حاملاً إياها. بقيت في السيارة ورحت أنظر إلى ما حولي. رأيت بوابة، خلفها مئذنة وعدد من المباني. لم أعرف ما إذا كان يتعين علي أن أنزل من السيارة أم لا. ربما كان السائق قد توقف لمجرد السؤال عن الاتجاهات.

قرع البوابة. سرعان ما فتحها شاب في زي باكستاني. قام السائق بتسليمه الورقة، فاختفى الشاب وغاب بضع دقائق. حين عاد كان متبوعاً برجل أكبر سناً بكثير. تبادل مع السائق كلمات قليلة، ثم مشى السائق عائداً إلى السيارة.

قال موجهاً كلامه إلي: 'وصلنا.' دفعت الأجرة، وهو دلني على البوابة. كان الشاب لا يزال واقفاً هناك، رَحَّبَ بي وأدخلني إلى المجمَّع فيما دارت سيارة التكسي وانطلقت مبتعدة. لم يقل شيئاً، ولكنه أشار نحو باحة مكشوفة. ثمة كان نحو ثلاثين رجلاً من أعمار مختلفة، مرتدين جميعاً زياً باكستانياً مؤلفاً من السروال والقميص بأحد اللونين الأبيض أو السُّكَّري.

عبر الباحة استطعت أن أرى عدداً من الصبية الصغار في نوع من غرفة الصف المؤقتة. ثمة كان معلم، يمشي بينهم حاملاً عصا. كان الصبية يرتلون آيات من القرآن صراخاً، وكانت وجوههم. مشدودة من فرط التركيز. كانوا يتدربون على التجويد. ومثل معظم المسلمين كنتُ قد تعلمتُ القرآن بالطريقة ذاتها، صَوْتياً، قبل أن أتعلم أي لغة عربية. وكان أساتذتي، مثل أساتذتهم، مستعدين لضربي إذا أخطأت في لفظ أي كلمة. ومع أن المسلمين يتكلمون مئات اللغات المختلفة في أرجاء العالم المتباينة، فليس ثمة سوى قرآن واحد ووحيد. فالإسلام لا يبيح أي تجديدات أو بدع، طارئة أو غير طارئة.

نظرتُ إلى الشاب الواقف بجانبي من جديد. كان يناولني كيساً للنوم. ابتعدت لأفرشه فأتمدد عليه. هز برأسه وأشار إلى باب عند طرف الباحة. خلفه

كان ثمة غرفة صغيرة، فارغة، مكيفة. تركني الشاب هناك، وغادر مغلقاً الباب خلفه. قمت بنشر كيس النوم واستلقيت فوقه. خلال ثوانٍ معدودة كنت غاطاً في النوم.

بعد بضع ساعات، أيقظني الشاب وسلمني بعض الألبسة. كانت مؤلفة من سروال وقميص كالسراويل والقمصان التي كان الآخرون يرتدونها. كانت بدلتي المؤلفة من السروال والقميص بيضاء اللون. بعد ارتدائها اقتادني إلى بقعة أخرى، قريبة من المسجد، حيث أقمت صلاتي مع الآخرين.

ثم أخذني إلى غرفة أخرى، أكبر بكثير من تلك التي كنت قد نمت فيها. وفي الوسط كان هناك شيخ جالس فوق عدد من الوسائد. لحِيته كانت بيضاء مع خطوط حمراء من خضاب الحناء. ورقتي كانت على الأرض أمامه.

بدأ يحدثني بالإنجليزية، ولكن لهجته كانت ثقيلة جداً بالكاد استطعت أن أفهم ما كان يقوله. قال شيئاً عن حمد الله من أجلي ومن أجل ذلك الذي أرسلني. ثم شيئاً عن الذهاب إلى لاهور في اليوم التالي مع إخوة آخرين. أدى هذا إلى إثارة أعصابي. كنت أنا راغباً في الذهاب إلى أفغانستان، ولاهور كانت في الجهة المعاكسة. لم يكن أمامي أي خيار؛ لم يكن ثمة أي سبيل ليفهم كل منا الآخر فيما لو طرحت عليه أي سؤال. ما لبث أن أعاد إليَّ الورقة. شكرته وعدت للانضمام إلى الآخرين.

كان الظلام قد بدأ يخيم والجو يغدو ألطف قليلاً. جلست في الباحة مع الآخرين ورحت أنظر حولي. لاحظت أن البعض كانوا طاعنين في السن، سبعين أو ثمانين. بدا الأمر كله غريباً بنظري، وراودني شعور بأن هناك خَلَلاً ما. كنت قد جئت لأداء فريضة الجهاد، إلا أن المجاهدين لا يخوضون المعارك بالصبية الصغار والشيوخ الطاعنين في السن.

لم أفهم اللغة التي كان الرجال يتكلمونها، غير أن عدداً منهم سرعان ما اقتربوا مني وسألوني بلغة عربية مهلهلة عن المكان الذي جئت منه. قلت: أنا من المغرب. أومؤوا. أحدهم قال إنه من بيشاور، وثالث كان من فيصل أباد ورابع من إسلام أباد.

تكلمنا عن أشياء أخرى، غير أننا بقينا عاجزين عن قول الكثير لأن أياً منا لم يكن يتقن العربية. من المؤكد أن أحداً لم يأت على ذكر الجهاد، إلا أن الرجل الذي كنت التقيتُه على الطائرة كان قد نَبَّهني إلى مدى خطر الكلام عن مثل هذه الأمور داخل الباكستان، وبالتالي فقد ظننت أن ذلك كان هو سبب امتناع الجميع عن ذكر كلمة الجهاد.

كنت لا أزال مهدوداً من التعب فنمت في وقتٍ مبكر. شعرت بقدرٍ قليل من الضيق وأنا ممدد. لم أصل إلى المعسكرات بعد، كما لم أكن واثقاً مما إذا كنت أغدو أقرب أم أبعد. غير أنني كنت على يقين بأنني كنت سأصل إليها آخر المطاف. مؤقتاً كنت شاعراً بما يكفي من الفرح لمجرد أنني كنت في الباكستان. غَطَطْت في نومٍ عميق.

التبليغ

صباح اليوم التالي استيقظنا قبل الفجر وأقمنا الصلاة. ثم جَمَعْنا حوائجنا وخرجْنا مشياً من المجمّع حيث كانت إحدى الشاحنات بانتظارنا. بادر الآخرون إلى رمي حوائجهم في الشاحنة والبدء بتسلقها، وأنا انضممت إليهم لأحذو حذوهم. غير أنني فجأة شعرت بيد تشدني إلى الخلف. 'لا، أنت انزل' قال أحدهم.

للحظة الأولى شعرتُ بالرعب. هل جرى اكتشافي؟ هل كانوا قد تمكنوا، بطريقةٍ أو أخرى، من معرفة حقيقة كوني جاسوساً؟ إلا أنني حين التفتُّ وجدتني

أمام رجل ينشر ابتسامة عريضة على وجهه ويقول: 'أنت اركبْ هنا!' مشيراً إلى قمرة القيادة. 'أنت ضيفنا في الباكستان.'

في البدء كنت مسروراً لأنني لم أكن في الصندوق المكشوف للشاحنة. ثمة كانت سحابة كثيفة جداً من الغبار تتصاعد من الطريق، وحتى في هذه الساعة المبكرة كنت أشعر بالقيظ الحارق.

غير أنني، بعد ما وصلنا إلى الطريق الرئيسي، أدركت أن مكاني كان هو الأسوأ. لم يكن قد سبق لي أن رأيت مثل هذا الأسلوب في القيادة. كان الشارع ضيقاً جداً، وكان مزدحماً بجميع أنواع وسائط النقل: الدّراجات، عربات الجر، الشاحنات، عربات الحمير، عربات الباعة.

لم يكن ثمة أي نظام ضابط بالمطلق. بدا سائقُنا مولعاً باختيار الجهة التي يسير عليها مزاجياً. وحين كان يسبق أي واسطة نقل كان ينحني على المقود ويندفع إلى الأمام دون أن ينظر إلى الجهة التي يندفع نحوها. عادةً، كانت ثمة سيارة أخرى، إن لم تكن شاحنة، قادمة كان ذلك نوعاً من اللعب بالأعصاب، وأعصابه بدت قوية قوة غير عادية. كثيراً ما كان يجبر خصمه على الخروج عن الطريق كلياً. شعرت كما لو كنت قد أُصبت بخمس عشرة ذبحة قلبية خلال الساعة الأولى.

لم تكن المشكلة محصورة بسائقنا وحده. فالطرق كانت ملأى بالمجانين من أمثاله. كل بضعة كيلومترات كنت أرى سيارات محطمة، دراجات هوائية مطوية، شاحنات تحولت إلى أشلاء، على قارعة الطريق. شعرت بالحنين إلى الشوارع المنظمة والمنضبطة في أوروبا.

بعد نحو ساعتين وقفنا أمام مسجد صغير بجانب الطريق للوضوء والصلاة. حين عدنا إلى الشاحنة حاولتُ الصعود إلى الصندوق الخلفي مع الآخرين. ولكن

هؤلاء ابتسموا ومنعوني قائلين: 'أنت ضيفنا' ثم أشار الرجل نفسه الذي سبق له أن أجلسني في القمرة، إلى مقدمة الشاحنة. أطلقت زفرة قوية وأخذت مكاني بجانب السائق المجنون.

تابعنا السير كل النهار، وبعده الليل، حتى صباح اليوم التالي، دون أن نتوقف سوى ساعات قليلة على الطريق لأداء الصلاة. أخيراً وصلنا إلى لاهور، حيث انتقلنا إلى شاحنة أخرى وتابعنا السير بعد اجتياز المدينة.

توقفتْ الشاحنة في قرية غبراء غير بعيدة عن لاهور ونزلنا منها جميعاً. كان أول شيء لاحظته هو الرائحة النتنة القوية للفضلات البشرية. كانت الرائحة تزكم الأنوف. رأيت قناة على أحد جانبي الطريق فيها سيل متواصل من المياه المالحة النتنة. على الطرف الآخر كانت ثمة صف طويل من المحلات ذوات الألوان الزاهية العارضة للألبسة، الأطعمة، العطور، وأشرطة التسجيل للبيع. جُل الناس في الطريق كانوا يرتدون الزي نفسه، السروال والقميص الأبيضين. بدا الأمر منافياً للمنطق نظراً للغبار الكثيف جداً المحيط بنا من جميع الجهات.

جامع عملاق كان مهيمناً على كل شيء في القرية؛ كان الجامع محاطاً بعددٍ من المباني المتعنقدة حوله. ثمة كانت فسحة واسعة مكشوفة فيما بين المباني جلس فيها مئات الرجال تحت الشمس اللاسعة. كانوا جميعاً يرتدون الزي الأبيض نفسه.

جماعتنا الصغيرة مشت نحو باب المجمّع. رجلان كانا يحرسان المدخل، بِيَدِ كل منهما عصا خشبية كبيرة. سَألانا عن الجهة التي جئنا منها، فأجبناهما. فجأة جاء أحد الحراس وأبعدني عن الجماعة. قادني إلى غرفة كبيرة، مكيَّفة، أبرد بكثير من صالة المدخل. كان انفراجاً يكاد لا يصدق بعد البقاء مدة طويلة في الحر الشديد.

كان ثمة نحو ثلاثين رجلاً مبعثرين في الغرفة، البعض ممدد، آخرون جالسون أو واقفون في مجموعات صغيرة، يتحدثون. سمعتهم يتكلمون عدداً غير قليل من اللغات المختلفة، رغم أنني لم أستطع التعرف عليها جميعاً، أعني اللغات. من ملابسهم استطعت أن أتبين أن عدداً كبيراً منهم كانوا من السعودية. أيضاً كان هناك بعض الأفراد من شمال أفريقيا ـ مغاربة، توانسة ـ لابسين ملابس خروج عادية. ما من أحد منهم كان يرتدي السروال والقميص، الزي الباكستاني الأبيض.

ما لبثتُ أن فهمت أنني كنت في هذه الغرفة لأنني كنت أجنبياً. أما أولئك الذين جئت معهم فقد كانوا جميعاً باكستانيين فجرى نقلهم إلى الباحة الخارجية المكشوفة الواسعة التي كنت قد رأيتها من المدخل. كانت النار تشويهم فيما كنت أنا مستمتعاً بالجو الرطب. في تلك اللحظة بالذات أدركت أن لا علاقة لهذا المكان بالجهاد على الإطلاق. ففي معسكرات التدريب كان الجميع متساوين. كنت أعرف ذلك من الأفلام التي رأيتها ومن كلامي مع كل من أمين وياسين. وكنت أعرف ما يكفي من القرآن كي أدرك أن المسلمين لا يفرِّقون بين البشر على هذا النحو. لم أكن مستعداً للبقاء في هذا المكان طويلاً.

فجأة سمعتُ صوتاً شد انتباهي. رجل مسن كان جالساً أمامي خلف مكتب. قال بالإنجليزية: 'أعطني جواز سفرك ومحفظة نقودك من فضلك!'

فوجئت وشعرت بشيء من القلق. قلت: 'أستطيع إعطاءك ما معي من مال. أما جواز سفري فأفضل أن أحتفظ به.'

ابتسم بلطف بالغ. قال: 'اطمئن. جميع الحجاج يفعلون هذا. إنها طريقتنا في حفظ الأوراق والحوائج العائدة لضيوفنا. سنعيدها إليك عند رحيلك.'

لم أر مخرجاً من المأزق، ناولتُه جوازَ سفري وثمان مئة دولار من المبلغ الموجود في حزامي. أبقيت الباقي من الدولارات في الحزام. ثم قادني الحارس

إلى غرفة أخرى، ووضع أشيائي على الأرض. نظرت حولي ولاحظت أن عيون الجميع كانت ناعسة، بلهاء، فارغة، بلا معنى. حين التقطت رائحة العطور الثمينة لأحد الرجال، أيقنت أن هؤلاء لم يكونوا مجاهدين. في الحقيقة لم يكونوا حتى مسلمين أتقياء؛ فالعطور ممنوعة لأنها تحتوي على الكحول. لم يكونوا سوى أناس أغنياء في غمرة عطلة غريبة.

رافقني عنصر الحراسة إلى غرفة جديدة، غرفة أشبه بمكتبة. مجموعة من رجال أكبر سناً كانوا جالسين على وسائد ممددة على الأرض. كان الجميع ذوي لحى طويلة مُحَنَّاة. من الواضح أن أحدهم كان هو المسؤول؛ كان جالساً في الوسط وكانت وسادته أعلى قليلاً من نظيراتها. أعداد من الكتب كانت مبعثرة أمامه، ولكن دون أي نسخة من القرآن.

قام الحارس بتمرير شيء إلى هذا المسؤول. وفيما كان هذا يقلِّب الشيء ويعاينه رأيت أن الشيء الممرر لم يكن سوى الورقة التي كان الرجل المعمم قد زودني بها ونحن في الطائرة. ألقى نظرة سريعة أخرى على الورقة ثم رفع رأسه ونظر إلي داعياً إياي إلى الجلوس بالإشارة: 'أهلاً وسهلاً. كم من الوقت ستبقى معنا؟' سأل.

قلت: 'ثلاثة عشر يوماً.' في تلك اللحظة شعرت بالسعادة لأنني لم أستطع الحصول على ما هو أكثر من تأشيرة سياحية في استانبول. أومأ الرجل وراح يتكلم. أقر بأنني لا أذكر ما قاله. بعقلي كنت قد غادرت المكان. لم تكن هذه سوى إحدى الطرق الدينية، وعلاقة هؤلاء بالإسلام كانت واهية.

خلال اليومين التاليين كنت سأطلع على المزيد من هذا المكان. اكتشفتُ أنني كنت في رايوند، مقر قيادة جماعة التبليغ. يومياً كنا نُلقَّن دروساً لا عن القرآن بل عن تعاليم محمد إلياس الذي كان قد أسس الحركة. على العموم كانت الجماعة

مهتمة بالتبشير والهداية، بالاهتداء إلى المسلمين الذين ضلوا طريقهم وباتوا بحاجة إلى من يعيدهم إلى حظيرة الإيمان. ذلك هو معنى التبليغ بالعربية. ذلك هو كل ما كانت الجماعة تسعى إليه: إيصال الرسالة. كانت الجماعة ضد أي نوع من أنواع العنف.

بوصفي مهتدياً جديداً، كان من المفترض أن أحضر الدرس كل صباح. ولكن كثرة العدد كانت تساعد على ضياع الأمر. أكثر الوقت كنت أتجول فقط. كنت أميل إلى محادثة الأجانب في المقام الأول، لأن كثيرين منهم كانوا يتكلمون اللغة العربية أو الإنجليزية أحياناً.

الجميع كانوا ودودين جداً، ولكن شديدي النعومة. كثيرون منهم كانوا يدخنون، بل وقد شاهدت مرة أحد السعوديين يخرج قنينة صغيرة من جيبه ويوزع أقراصاً بيضاء على بعض العرب الآخرين. صُعقت.

أحياناً كنت أحدثهم عن الجهاد. وحين قلت إن الجهاد كان يعني بنظري قتال المجاهدين ضد الروس، أو البوشناق ضد الصرب، بدوا مذعورين. كانوا يسارعون إلى الرد قائلين: 'لا يا أخ. إن الجهاد يعني الحب. إن الجهاد يعني هداية الضالين إلى الصراط المستقيم. إن الجهاد يعني إنقاذ الأرواح.'

في اليوم الثالث انفجرتُ. قلت: 'حقاً؟ أهذا هو الجهاد؟' ورحت أرفع صوتي: 'لسنا إلا على مسافة بضعة أميال من الحدود مع الهند. إذا أغار الهندوس غداً علينا ليقتلونا، فما الذي ستفعلونه؟ هل سترفعون مصاحفكم في الهواء فيما هم يسددون الرصاص إلى صدوركم؟ أهذا هو جهادكم؟' اكتفى الرجال بالإيماء الخالي من المعنى والهمهمة حول التبليغ.

ثمة كان شخص واحد في رايوند أحببتُه، رجل من بلاد الشيشان في سن قريبة من سني. كان هناك مع ابنه المراهق. وصل إلى المكان بعدي بنحو يومين،

وعلى الفور اكتشفت أنه مختلف. لم يكن غنياً؛ ذلك واضح من ملابسه. لم يكن ناعماً مثل الآخرين أيضاً.

بعد ظهر ذلك اليوم رأيته يتحدث مع أحد الحراس. من الواضح أن الشيشاني كان شديد الحزن. بعد انتهاء الحوار،اقتربت منه وسألته عن المشكلة. قال بالإنجليزية: 'ابني بحاجةٍ إلى تجهيزات مدرسية، تكاليف دراسة. وأنا لا أملك أي مال. أنفقت كل ما كان معي للوصول إلى هنا.'

أفادني بأنه كان قد هَرَّبَ ابنه من بلاد الشيشان لحمايته من الحرب الدائرة هناك. كانت الطريقة الوحيدة لإخراجه من البلاد متمثلة بتأشيرة دراسية، وكانت الباكستان هي الأرخص. غير أنه كان يعلم أنه إذا أرسل ابنه إلى الجامعة فإن الفتى كان سيتم تجنيده وتدريبه في المعسكرات وإعادته إلى بلاد الشيشان للقتال. حدثني عن مدى هول الحرب في بلاد الشيشان، عن أن الروس كانوا يدمرون البلاد كلها، تماماً كما سبق لهم أن فعلوا بأفغانستان. كان الرجل يريد إنقاذ ابنه. امتلأتْ عيناه بالدموع وهو يتكلم.

تلك الليلة، جاء الشيشاني وابنه إلى حيث كنت قد نشرت كيس نومي. قاما بنشر كيسيهما بجانب كيسي. تابعْتُ الأب وهو يتحدث بلطف مع ابنه، وعلى الرغم من أنني لم أفهم كلماته فإنني استطعت أن أرى مدى حبه لابنه. كان يبتسم وهو يساعد ابنه في الاستعداد للنوم. غير أن الابن كان بارداً، قاسياً. عيناه كانتا ميتتين؛ بقي الفتى صامتاً جل الوقت.

بعد غرق الأب في بحر النوم، كنت قادراً على سماع تقلّب الابن. بعد بضع دقائق، همست سائلاً إياه: 'لقد جافاك النوم، أليس كذلك؟'فرد علي همساً أيضاً: 'بلى.'

انتظرت دقيقة لأرى ما إذا كان سيقول شيئاً آخر، غير أنني لم أسمع منه سوى أصداء تقلّبه المتواصل من جهة إلى أخرى. سألته من جديد: 'الوضع صعب في الشيشان، أليس كذلك؟'

سادت فترة صمت طويلة، ثم همس لي عبر الظلمة بلغة إنجليزية مكسرة: 'ليتني أستطيع قَتْلَهم جميعاً!'

صباح اليوم التالي، أخذت مبلغ أربع مئة دولار من حزامي وقدَّمْتُه إلى والد الفتى. لم يقل شيئاً، كما لم أقل أنا أيضاً أيَّ شيء. غير أن عينيه كانتا ممتلئتان بالدمع.

سرعان ما جرى نقلي إلى لاهور لأداء فريضة الخروج، فريضة المشاركة في مهمة التبليغ أو الهداية. في فريق مؤلف من اثني عشر شخصاً توغّلنا في الأحياء الفقيرة. من الواضح أن الناس هناك كانوا قد شاهدوا فرقاً قادمة من المركز للتبشير والهداية. رَحَّبوا بنا وقدموا لنا الطعام ودعونا إلى منازلهم.

قضينا ثلاثة أيام في لاهور متجولين في الأسواق والشوارع. لم يكن قد سبق لي أن رأيت مثل هذا الفقر في حياتي. صحيح أن هناك أحياء فقيرة في المغرب، ولكنها ليست شبيهة بهذه. ثمة كانت أسْيقة المياه المالحة المكشوفة المتدفقة في الشوارع، وكان حتى الكبار يخوضونها بأقدامهم الحافية.

كان من المفروض أن أثقّف الناس بالمبادئ الستة للحركة، غير أنني لم أكن قد أبديت أي اهتمام بالدروس فبقيت جاهلاً بها. عوَّضْتُ عن ذلك كيفما اتفق. كنت برفقة دليل للترجمة.

رأيت أعداداً كبيرة من الرجال والنساء ذوي الأفواه الحمراء جراء مضغ البان، الذي هو نبات مخدِّر يباع في الشارع على الملأ. أغضبني الأمر؛ قلت لهم إنه مخدِّر، من عمل الشيطان، من عمل الطواغيت. لاحقاً في اليوم نفسه، فيما

كنت جالساً أمام الجامع، جلس رجل إلى جانبي وسألني عما إذا كان قادراً على الالتحاق بجماعتنا. نظرت إليه. كان يحمل حجاباً علقه بشريط جلدي حول عنقه. قلت له: 'لا، لا يمكنك أن تأتي معنا.'

صُعق لجوابي: 'لِمَ لا؟'

'بسبب ذلك' قلت مشيراً إلى الحجاب.

'وما العيب فيه' سأل. مضيفاً 'إنه يحميني.'

سألته: 'هل يحميك؟ كيف يمكنه أن يحميك. وحده الله قادر على حمايتك. وأنت تهينه بحملك لذلك الحجاب.'

جحظت عينا الرجل، ثم مدَّ يده إلى رقبته وخلع القلادة.

مع حلول اليوم الثالث كان فريقنا قد توسع إلى ستة وعشرين عضواً. كنت أنا من جَنَّد أكثر الأعضاء الجدد وحدي. كانت بعثة ناجحة جداً إلى درجة أن الشيوخ المسؤولين دعوني إلى المكتبة فَوَرَ عَوْدتي.

قال الشيخ الجالس في المركز: 'نحن فخورون بك. سمعنا عن خروجك، عن عدد الذين جئت بهم. نعتقد أنك ذو مستقبل عظيم هنا.' غير أن غمامة داكنة ما لبثت أن غطت وجهه، قبل أن يتابع قائلاً: 'غير أننا سمعنا من الآخرين أنك تحدثت عن الجهاد المسلح. نحن قلقون بشأن هذا. إنها طريق الضلال. فالجهاد الصحيح الوحيد هو جهاد التبليغ.' ثم أوصاني بألا أتكلم عن الجهاد المسلح مرة أخرى.

اعترفْتُ له بضحالة ثقافتي الإسلامية، وبأن الناس الذين أعرفهم كانوا، حين يتحدثون عن الجهاد، يعنون شيئاً مختلفاً جداً عما يعنيه الناس في رايوند. أومأ، ثم عَبَّر عن رغبتهم في إبقائي أطول مدة ممكنة، وفي متابعة أداء فريضة الخروج.

قلت له: "سيكون البقاء مستحيلاً بالنسبة إلي. لم يبق لي سوى بضعة أيام في تأشيرة الدخول." طلب مني أن أطمئن، وقال إنه قادر على تمديد الإقامة. كان سيجري اتصالاً ثم كنت سأذهب إلى لاهور في اليوم التالي. سَجَّلَ عنواناً على ورقة ناولنيها.

في اليوم التالي، عُدْتُ إلى ملابس الشارع واستعدت جواز سفري من العجوز الذي كان قد استلمه مني في اليوم الأول. أخذت سيارة تكسي أقلّتني إلى مكتب الجوازات الإقليمي بلاهور. أرسلوني إلى مكتب آخر لتمديد الإقامة. في أقل من ساعتين كانت إقامتي قد تمددت من 15 يوماً إلى ثلاثة أشهر.

عدت إلى المجمَّع وحزمت حوائجي. ذهبت إلى العجوز خلف الطاولة وطالبته بإعادة أموالي. بدا مصعوقاً تماماً: "ماذا تعني؟ إلى أين أنت ذاهب؟"

أجبته: "أنا خارج من هنا. أنا ذاهب إلى بيشاور." رفع سماعة الهاتف للاتصال بأحدهم ولكن مجموعة من الرجال كانت قد تحلَّقَتْ حولي في هذه الأثناء. نصحني الجميع بألا أذهب، أفادوا بأن تلك طريق خطرة، بأن بيشاور بالذات زاخرة بالمخاطر. قال الجميع إن عليّ أن أبقى معهم وأعمل بسلام.

أبعدتُهم عني. لم يكن ثمة أي سبيل لإقناعي بأي شيء، وأكدت لهم ذلك. أخيراً أنهى العجوز مكالمته. بوجهٍ يقطر استياء ناولني دولاراتي الثمان مئة. قال: "أنت تسير في طريق الضلال." ضحكت. كانت هي الطريق القويمة بالنسبة إليّ أنا. كنت قد بددتُ أسبوعين كاملين هنا، غير أنني كنت قد كسبت ثلاثة أشهر إقامة. لم تكن صفقة رديئة.

ما إن خرجت من المجمَّع وتوغلت في الشمس الساطعة حتى عادت رائحة الأسيقة النتنة إلى الانقضاض علي من جديد. تذكَّرْتُ الخرافة التي سمعتها مرات كثيرة من الداخل، خرافة أن محمداً إلياس كان قد عاش في الهند ولكن

رائحة الفردوس كانت تفوح منه وهو يعبر الحدود جالباً معه وروده العطرة إلى رايوند.

ضحكت. كانت رائحة الغائط تملأ المكان كله وتزكم الأنوف.

أبو أنس

كنت أعلم أنني ملزم بالوصول إلى بيشاور. وكنت على يقين بأنني إذا ما وصلت إلى هناك كنت سأهتدي إلى طريقي المفضية إلى المعسكرات. كنت أعرف هذا لأنني كنت قد شاهدت رامبو الثالث. ففي طريقه إلى عمق أفغانستان، توقف رامبو في بيشاور ليتسلح. لذا كنت أعرف أن هناك معبراً حدودياً قريباً من بيشاور، وقَدَّرْت أن الأسلحة كانت هي الأخرى تذهب إلى هناك. كانت بيشاور، بنظري، أنسب أمكنة رصد الطريق إلى الجهاد.

ما إن غادرتُ مركز التبليغ في رايوند حتى استأجرت سيارة تكسي أقلّتني إلى محطة القطار في لاهور. لم يكن ثمة أي قطار متجه إلى بيشاور خلال الساعات السبع عشرة القادمة، وكان من شأن الرحلة أن تستغرق يومين كاملين. سارعت إلى سيارة أجرة بدلاً من الانتظار وذهبت إلى المطار وقطعت تذكرة على رحلة جوية في السابعة من مساء ذلك اليوم، فأكون في بيشاور في التاسعة.

كان الوقت عصراً حين كنت قد انتهيت من شراء تذكرتي وكنت موشكاً على إقامة صلاة العصر. كنت قد رأيت مسجداً صغيراً بالقرب من موقف سيارات المطار، فتوجهت إلى هناك. كنت لا أزال على مسافة خمسين متراً من المسجد حين رأيت حشد من الناس ذوي جلابيب التبليغ البيضاء. شَتَمْتُ همساً؛ فأطرقت وتوجهت نحوهم. كنت مرتدياً ملابسي العادية وآملاً في ألا يتعرفوا علي.

غير أن أحدهم ما لبث، بالطبع، أن فعل. نادى: 'يا عمر إلى أين؟ هل أنت عائد إلى الوطن؟'

رفعت رأسي. لم أتذكر الرجل الذي ناداني. كان يبتسم لي وينظر إلي تلك النظرة شبه البلهاء والفارغة التي كانت تميز الجميع في المركز. غمغمت: 'أنا ذاهب إلى بيشاور.'

على الفور سحابة سوداء غطت وجهه وسأل بنبرة مثقلة بقلق عميق: 'وما الذي يجعلك تذهب إلى بيشاور؟'

لم يكن لدي ما يكفي من الوقت لأرد عليه.' كان علينا أن نقيم صلواتنا. غير أن حشداً كبيراً ما لبث أن تحلَّق حولي فور انتهائنا من الصلاة. طلب الجميع أن أجالسهم بضع دقائق. امتثلْتُ فجلسنا جميعاً أمام المسجد. كان ثمة رجل مسن في الحشد، تولى الكلام أولاً؛ قال: 'إن الله هو الذي ساقك إلى التبليغ. والله هو الذي منحك موهبة إعادة الناس إلى الإسلام. لماذا أنت مصر على الهروب من قَدَرك؟'

همهم الآخرون موافقين ونظروا إلي بعيونهم الواسعة، الغبية. كنت قد تحملت ما يكفي، وقفت لأمشي، وقلت وأنا أدور لأغادر المكان: 'قَدَري موجود في بيشاور.'

خلفي راحوا يصرخون بأصوات حزينة: 'لا، لا. ارجع من فضلك! اجلس معنا. عد إلينا. أنت تقترف خطأ جسيماً. ارجع من فضلك!'

أزعجني الأمر. كنت قد تحملت أسبوعين كاملين من هذا الهراء، وكنت أريد أن أضع حداً له مرة وإلى الأبد، فَدُرْتُ نحوهم وتكلمت بصوتٍ مرتفع قائلاً:

'فلسفتي ليست شبيهة بفلسفتكم. أنتم تخوضون جهادكم والقرآن بيدكم. أما أنا فأخوض جهادي والقرآن في جعبتي، مع رشاش كلاشنكوف بيدي.'

ثم أدرت ظهري ومشيت باتجاه المطار. لم أكن قد قطعت خمس خطوات حين سمعت صوتاً ينادي:

'يا عمر!'

يا للمصيبة! لن يكفّوا عن المحاولة. عدت ورأيت رجلاً جالساً وحده بجانب المسجد. كان يرتدي جلباباً سكّري اللون مثل الآخرين، غير أنه لم يكن واقفاً مع الجماعة. رفع يده ودعاني إليه بالإشارة. شعرت بالفضول، تقدمت بضع خطوات نحوه.

قال: 'اطمئن أنا لست واحداً منهم.' تكلمَ بالعربية وفاجأني. الآخرون جميعاً تكلموا معي بالإنجليزية.

قلت: 'السلام عليك أيها الأخ!' وأنا أتقدم نحوه. وكلمتُه بالعربية قائلاً: 'إذا لم تكن واحداً منهم فكيف عرفت، إذن، اسمي.'

دعاني بالإشارة إلى الجلوس بجانبه، ففعلت. قال إنه أبو أنس. وراح يشرح بصوتٍ هادئ، متوازن قائلاً: 'كنت معك في مركز التبليغ. غير أنني لست منهم. كنت أراقبك.'

'ماذا تعني؟'

'راقبتك. استمعت إلى ما كنت تقوله. رأيت أنك لم تكن كالآخرين، وأنك راغب في خوض جهاد حقيقي. إلا أنني لم أستطع أن أفاتحك هناك. إنه لأمر شديد الخطورة.'

لم أعلّق.

قال: 'أستطيع مساعدتَك. أنا على الطائرة نفسها المتجهة مساء اليوم إلى بيشاور.'

كان يعرف أنني ذاهب إلى بيشاور، مما كان يعني أنه كان دائباً على تعقُّبي في المطار. هذا الرجل أثار شكوكي، حاولتُ أن أكتشف حقيقته. كان يعتمر قبعة

من طراز باكول، تلك القبعة الأفغانية التقليدية التي كنت أعرفها من صور شاه مسعود. إلا أنه كان يرتدي زياً باكستانياً مؤلفاً من سروال وقميص. كانت البدلة قديمة؛ كان القماش مهترئاً وفيه عدد من الثقوب. 'إذا كان على هذه الدرجة من الفقر فكيف استطاع أن يستقل الطائرة من لاهور إلى بيشاور؟' تساءلْتُ. لم أستطع أن أعرف هذا الرجل أو الجهة التي كان يعمل عندها، غير أنني كنت مدركاً لحقيقة أن الباكستان كانت تغلي بالجواسيس والأجهزة السرية. تعين علي أن أتحلى بقدرٍ استثنائي من الحذر. حين أحجمت عن الرد. تكلم من جديد.

قال: 'لدينا بضع ساعات قبل الطيران. تعال نعد إلى المطار ونجلس هناك نتحدث. الجو هناك ألطف، ويمكننا أن نتناول شراباً ما. ليس الكلام هنا في الخارج آمناً.'

أومأت، وعدنا مشياً إلى صالة الاستقبال والمغادرة في المطار. جلسنا في المقهى وطلبنا، كلانا، شراب الفانتا الغازي. ومن ثم، دون أي كلام، أخرج ورقة من حقيبته ووضعها على الطاولة. سأل: 'هل تعرف هذه؟'

أذهلني ما رأيته حين نظرت: نسخة من نشرة الأنصار. حملتُها لأعاينها وأدركت على الفور أنها النشرة الحقيقية؛ تعرفت على خاتم طارق. نظرت إلى التاريخ ورأيت أنها حديثة لم يمض على صدورها سوى أسبوعين.

أحسست بامتلاء عيني بالدموع. انفعلت، بالطبع، لأنني أيقنت مباشرة أن أبا أنس كان حقيقياً، أنه كان سيساعدني على الوصول إلى المعسكرات. أدركت في تلك اللحظة أنني كنت سأصل عما قريب إلى قلب أفغانستان.

غير أن رؤية نسخة الأنصار هي الأخرى أحْزَنَتْني، لأنها ذكّرتني بأهلي، بحكيم الذي كان قد ضل طريقه تماماً، بنبيل الذي كان قد أضاع كلاً من أخويه حكيم وعمر في اليوم نفسه، وبأمي التي كانت أسرتها قد تمزقت أشلاء مع بيتها.

قلت وأنا أهز رأسي: "هذا غير قابل للتصديق. نعم غير قابل للتصديق." رفعتُ رأسي، وكنت أعلم أن أبا أنس قد رأى أن عيني كانتا دامعتين.

قلت: "أنت لا تعرف أيها الأخ. أنا قادم من بلجيكا. كنا نطبع الأنصار في بيتي أنا. كنا نوزعها بالبريد على العالم كله. غير أن البوليس داهم البيت واعتقل الجميع. أنا هربت، وذلك هو سبب وجودي هنا. جئت إلى هنا لأداء فريضة الجهاد."

جحظت عينا أبي أنس للحظة عابرة. من الواضح أنه تأثّر. ثم نظر إلي مدقّقاً وتحدث بنبرة معزِّية: "نعم يا أخ، سمعتُ عن الاعتقالات. لا حول ولا قوة إلا بالله!"

من الجلي أنه تأثّر بشحنة العاطفة التي حَمَلَها صوتي وبالدموع التي ملأت عينيّ. كنت أعلم أنه اعتقد أنني كنت مزعوجاً من تعرض أهلي للاعتقال، وقد كان، بالطبع، على صواب. غير أن أفضل ألوان التمثيل تعوِّل، كما يعرف كل ممثل، على عواطف فعلية.

مال أبو أنس عليّ وتكلم بهدوء بصوته البعيد عن التكلف قائلاً: "خاطرتَ إذْ حاولتَ المجيء إلى بيشاور دون عنوان، دون اسم صلة الوصل." صمتَ وعاينَني باهتمام، ثم تابع: "إذا جئت معي، أستطيع أن أوصلك إلى بعض إخوتنا العرب في بيشاور. سيدرّبونك، وسيساعدونك على دخول أفغانستان."

يا إلهي! كم أنا محظوظ! "اللهم لك الحمد!" قلت: "إنني محظوظ حقاً إذ ساقك الله إليّ." حقاً شعرت بالامتنان لأبي أنس، ولكن ليس فقط للأسباب التي خَطَرَتْ بباله.

قال لي إن علينا بعد تركنا للمقهى مباشرةً أن نتظاهر بعدم معرفة بعضنا بعضاً. كنا سنجلس في مقعدين بعيدين أحدهما عن الآخر في الطائرة. وبعد

الوصول إلى بيشاور كنت سأذهب مباشرةً إلى موقف التكسي لأنتظره هناك. كنا سنُمضي اللَيل في مركز التبليغ في بيشاور، ثم نلتقي العرب في اليوم التالي. وافقت وافترقنا دون أي كلمة أخرى.

مع إقلاع الطائرة إلى لاهور، حَدَّقت عبر النافذة وأنا أفكر بمدى كوني محظوظاً. لم يكن قد مضى على وجودي في باكستان سوى أقل من شهر، وكنت قد نجحت في الاهتداء إلى من كان قادراً على إيصالي إلى المعسكرات. تمنيت للحظة أن يكون جيل قادراً على رؤيتي الآن والتأكد من أنه كان هو وجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي DGSEعلى خطأ فيما يخصني. غير أنني سرعان ما أزحت تلك الأمنية جانباً. تعين علي أن اطرد كلاً من جيل، الجهاز، وكل ذلك الجزء من حياتي، من رأسي وعقلي وذاكرتي إذا كنت أريد النجاح في المعسكرات.

بيشاور

بعد وصولنا إلى بيشاور، توجهت مباشرةً إلى موقف التكسي. كل بضع ثوانٍ كان سائق جديد يعرض عليَّ الخدمة ويحاول أن يغريني بركوب سيارته مقابل أبخس الأسعار. بعد نحو عشرين دقيقة، خرج أبو أنس أخيراً من المطار. كان معه رجل باكستاني. قال أبو أنس إن الرجل كان سيتولى قيادة السيارة التي ستقلنا إلى مركز التبليغ حيث كنا سنمضي الليل.

خلال الرحلة شرح أبو أنس أن السفر تلك الليلة إلى مخيم اللاجئين كان شديد الخطر. كنا سنذهب إلى هناك في اليوم التالي للقاء العرب. كان علي أن أحرص على عدم استثارة أي شكوك، قال أبو أنس. أبلغني أن مراكز التبليغ كانت خاضعة لإدارة المخابرات، الشرطة السرية. وبعد وقتٍ طويل علمت أن مجموعة من ضباط الجيش كانت قد حاولت الإطاحة بالحكومة في الخريف السابق.

وبعد اعتقال الجماعة، تبين أنها كانت ذات علاقات مع جماعة التبليغ. لم يكن أبو أنس أن أطلعني على أي من هذا، بل اكتفى بتحذيري من إكثار الكلام طوال بقائنا داخل المركز، ومن النطق ولو بكلمة عربية.

كان ذلك في ربيع 1995، فترة خطرة بالنسبة إلى العرب في الباكستان. كان التطرف الإسلامي صاعداً، وكانت رئيسة الوزراء بناظير بوتو، دائبة منذ سنوات على اجتثاثه، ولاسيما بعد تهديد الولايات المتحدة بإدراج الباكستان على قائمة الدول الإرهابية لديها. غير أنها بدت موشكة على خسارة المعركة: قبل عام واحد، قُتل اثنان من موظفي القنصلية الأمريكية في كراتشي وهما في الطريق إلى العمل. وقبل بضعة أشهر من وصولي إلى الباكستان، كان رمزي أحمد يوسف، العقل المدبر لتفجيرات مركز التجارة العالمي في 1993، قد أوقف في إسلام أباد، مما شد أنظار العالم إلى دور البلد في تفريخ التطرف الإسلامي. كانت بوتو عازمة على إقناع العالم بأنها كانت متشددة مع الإسلام المتطرف. وكانت استثنائية التصميم على إثبات ذلك لأمريكا. كانت في زحمة التفاوض لشراء عدد من مقاتلات اف - 16، وبقيت الصفقة معلقة جراء العقوبات الأمريكية.

كانت حكومة بوتو بالغة التشدد مع العرب الذين كانوا يحمّلون مسؤولية التحريض على التطرف داخل الباكستان. وقبل عام واحد، كانت الحكومة قد أمرت مخضرمي الحرب السوفيتية - الأفغانية العرب بمغادرة البلاد. وحين أحجموا عن الرحيل، بدأت الشرطة سلسلة من الحملات العنيفة لطردهم عنوة. ومع حلول عام 1995 كانت الحملة على العرب تزداد حدةً مع بدء الحرب في البوسنة بالوصول إلى نهايتها وشروع المزيد من المقاتلين العرب في التدفق من جديد على كل من أفغانستان وباكستان عائدين من أتون ذلك الصراع.

كان وقتاً خطراً بالنسبة إلى أي عربي في الباكستان.

أمضينا الليل في مركز التبليغ خارج بيشاور. لم يكن الوضع مختلفاً في شيء عن نظيره في رايوند؛ ثمة كان مئات من الناس الجالسين على الأرض، وفي وجوه الجميع النظرات المزجَّجَة نفسها. كنت قد صرت أمقت هؤلاء الضعفاء الضائعين مع فلسفتهم القائمة على العزوف عن الفعل.

أبو أنس وأنا لم نتبادل أي كلام في تلك الليلة. توضَّأنا وأقمنا صلاتنا وتناولنا عشاءنا، ثم أوينا إلى النوم في وقتٍ مبكر جداً. صباح اليوم التالي ارتديت سروالي وقميصي الأبيضين، وأنا وأبو أنس أقمنا الصلاة مع الآخرين. غادرنا المركز وتناولنا طعام الفطور في مقهى قريب، ثم استقلينا حافلة متوجهة إلى مخيم اللاجئين في بيشاور. قطعنا في الحافلة عدداً من الكيلومترات على طريق مزدحم بالمحلات، البشر، الحيوانات ووسائط النقل من جميع الأصناف مما جعل تسميته بشارع صعباً. عناصر الشرطة المسلمون كانوا في كل مكان، في زيهم الرسمي المؤلف من السروال والقميص الأسودين مع البيريه.

في إحدى المحطات غَمَزني أبو أنس فنزلنا من الحافلة وبدأنا المشي. كنا في قلب مخيم اللاجئين. ثم كانت محلات، أكشاك لبيع الطعام، وبشر في كل مكان. خيمة بعد خيمة بعد خيمة. عند أحد المنعطفات توقف أبو أنس لشراء بعض الخبز واللحم. قال لي إن عنده زوجاً وخمسة أطفال، وكان عليه أن يأخذ طعاماً لأنه كان غائباً منذ أسبوع.

منذ أسبوع. مع حساب وقت السفر لم يكن إلا مكلَّفاً بمراقبتي في رايوند لبضعة أيام، حسب تقديري. عدت بذاكرتي إلى الرجل الذي كنت قد التقيته في المطار باستانبول، الرجل الذي أرسلني إلى التبليغ. في البدء، فكرت أنه كان عضواً في الطريقة أراد فقط تجنيدي، أما الآن فلم أعد متأكداً. لم يكن يرتدي زياً أبيض كالآخرين، وكان يعتمر عمامة أفغانية. والآن كان ثمة أبو أنس الذي اندس في التبليغ في كل من رايوند وبيشاور، مع أنه لم يكن، بوضوح، واحداً من الجماعة. هل كان عثوره علي في رايوند صدفة؟ أم أنه كان مبعوثاً للعثور علي؟

مَشَيْنا عبر جزء من المخيم ثم تابعنا الطريق خارجه في ممر ترابي. أشار أبو أنس إلى الأفق نحو الجبال الداكنة المتعالية في البعيد. قال: 'تلك هي أفغانستان.' ثم أشار إلى أحد الوديان 'هناك، ذلك هو معبر خيبر.'

مع مواصلتنا المشي أشار إلى صف من المنازل، كانت هذه أكبر من أي بيوت في المخيم. بدت متينة مبنية بالطوب. قال إن العائلات العربية تعيش هناك، معظمها عائلات رجال استشهدوا في الحرب ضد الروس. بعض الرجال كانوا لا يزالون أحياء وموجودين في أفغانستان، مشاركين، حسب كلامه، في القتال ضد حكومة برهان الدين رباني في كابول.

مع متابعتنا المشي بدأت الأرض تتغير. كان المخيم على مساحة منبسطة تماماً، أما هنا فكانت ثمة تلال صغيرة وبدت الأرض أكثر وعورة. على مسافة نحو خمس مئة متر من محيط المخيم وصلنا إلى مجموعة بيوت. وقفنا أمام أحدها، وطلب مني أبو انس أن أنتظر فيما دخل هو وطلب من عائلته إعداد غرفة لي.

بعد بضع لحظات خرج من البيت واقتادني إلى الداخل. أخذني إلى غرفة فيها سرير وطلب مني أن أرتاح لمدة ساعتين. وعدني بأن يوقظني عند صلاة الظهر، وبأنه في هذه الأثناء كان سيحاول الاتصال بابن الشيخ عبر الراديو. لم يكن قد سبق لي أن سمعت بذلك الاسم من قبل، إلا أنني لم أشغل بالي بالأمر. سارعت إلى إغلاق الباب وتمددت على السرير.

وأنا أعاين السقف تذكرت الحلم الذي حلمت به في بروكسل. حكيم وأنا كنا ماشيين بين الجبال. ساقاي تعبتا وأردت التوقف؛ أردت أن أبدأ جهادي. قال لي: 'لا، يا أخ. ليس بعد. لست جاهزاً.'

مع انزلاقي إلى النوم كَلَّمْتُ نفسي همساً: 'جاهز أنا الآن، يا أخ. أنا جاهز الآن.'

ابن الشيخ

كانت الغرفة مضاءة بنور الشمس حين جاء أبو أنس لإيقاظي. كان وقت صلاة الظهر قد حان. وفيما كنا نهم بالخروج من بوابة بيته التفت إليّ وقال: 'نحن ذاهبان الآن إلى الجامع للصلاة، غير أن عليك ألا تتكلم مع أحد، أي أحد. ولا كلمة واحدة. حين تنتهي من صلاتك اخرج واجلس وحدك.' ثم تابع يقول إنه كان قد ذهب ليجري اتصالاً مع ابن الشيخ الذي كان سيلتقينا في المسجد. انفعلت. لم تكن لدي أي فكرة عن هوية ابن الشيخ، إلا أنني كنت متأكداً من قدرته على مساعدتي في الوصول إلى المعسكرات.

أخذني أبو أنس إلى مسجد صغير أقمنا فيه صلاتنا. ثمة كان نحو عشرة عرب آخرين واثنين من زنوج أفريقيا. لم يتكلم أحد مع أحد آخر. ما إن انتهينا حتى ذهبت إلى الخارج وجلست على صخرة ورحت أقرأ في مصحفي. بعد نحو عشرين دقيقة، سمعت صوتاً من خلفي يقول: 'أيهما تعتقد أنه ابن الشيخ؟'

التفتُّ. كان صاحب الصوت هو أبا أنس. ثمة رجلان بدءا يظهران. أحدهما كان قصيراً، والآخر طويلاً. قلت: 'ليست لدي أي فكرة.'

جلس أبو أنس إلى جانبي وابتسم قائلاً: 'أقله خمِّنْ أيها الأخ!'

نظرت ثانية إلى الرجلين. القصير كان استثنائي اللياقة البدنية. حتى تحت ملابسه كنتُ قادراً على القول بأنه مؤلف من عضلات خالصة. بشرته كانت سمراء وجافة من الشمس. الرجل الآخر كان ناحلاً بعض الشيء وبدا أثيرياً. كان ثمة شيء ملكي يحيط به، أشبه بأحد مقاتلي الماساي (إحدى القبائل التانزانية) كان ذا لحية سوداء وبشرة كاشفة جداً. بدا غير ذي علاقة بالجهاد. قلت لأبي أنس: 'أعتقد أنه الأقصر.'

رد: 'أنت مخطئ يا أخ. إن الطويل هو ابن الشيخ.' ثم نهض ومشى نحو الرجلين. تحادث الثلاثة بإيجاز، ثم ابتعد الأقصر إلى الطرف لينتظر تحادث أبي أنس وابن الشيخ وحدهما.

بعد بضع دقائق رأيت أبا أنس يبتعد بصحبة الرجل القصير، عائداً نحو جهة بيته. اقترب ابن الشيخ مني وقال: 'السلام عليكم!'

رددت: 'وعليكم السلام!'

ثم جلس إلى جانبي وراح يمطرني بالأسئلة: 'من أين أنت؟' كان صوته هادئاً وموزوناً مثل صوت أبي أنس.

'من المغرب' أفدته.

ابتسم. 'لا يا أخ، قصدت من أين جئت إلى هنا؟'

قلت: 'من بلجيكا'

سأل: 'حقاً؟' بقي وجهه شبه جامد وهو يتحدث، إلا أنني استطعت أن ألاحظ أن في عينيه ذكاء شرساً. 'ما الذي دفعك إلى مغادرة بلجيكا؟ هل أرسلك أحد إلى هنا؟'

صمتُّ بضع ثوانٍ قبل أن أبادر إلى الرد. كان جسمي كله متوتراً. كنت قد رويت قصتي كاملة لأبي أنس، وكنت مسافراً بجواز سفر يحمل اسمي الحقيقي. وإذا كان أبو أنس قد قرأ الأنصار فإن ابن الشيخ قد قرأها أيضاً بالتأكيد. إذن، هو كان يعرف عن المداهمات في بروكسل. تمثل السؤال الوحيد بما إذا كان يعرف شيئاً عن دوري فيها أم لا. خلال تلك الثواني القليلة قام عقلي باستعراض شريط الاحتمالات. ربما كان حكيم والآخرون قد صدقوا تفسيري لسبب التحاقي بجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي (DGSE).

أو ربما لم تتوفر لهم فرصة إخبار أحد عن اعترافي لأنهم اعتقلوا بُعيد ذلك. ولكن ماذا إذا حصل؟ ماذا إذا كان أبو أنس قد حدد هويتي وجاء بي إلى هنا لإعدامي عقاباً على خذلان المجاهدين؟ كل شيء بدا ممكناً في هذه اللحظة، غير أنني كنت أمام خيار وحيد دون سواه.

أخذتُ نفساً عميقاً. 'غادرت لاضطراري إلى الهرب.' فترة صمت. 'ربما سبق لك أن سمعت عن المداهمات في بروكسل.' فترة صمت ثانية؛ نظرت إليه، غير أنه لم يقل شيئاً. لم يعط أي إشارة عما إذا كان على علم بما حدث أم لا. وبالتالي فقد تابعت: 'قبل نحو شهرين شُنَّتْ حملةٌ على الجماعة الإسلامية المسلحة في بلجيكا. داهمت الشرطة بيتنا. كنا نطبع الأنصار فيه ونوزعه منه. اعتقلتْ جميع الإخوة.' نظرت إلى ابن الشيخ من جديد. لا شيء مرة أخرى. فقط التحديق البارد نفسه.

تابعت الكلام: كانت الشرطة تبحث عني، فتعيَّن علي أن أغادر البلد. انتقلت جواً إلى تركيا أولاً، ثم جئت إلى الباكستان لألتحق بالجهاد.'

كان ابن الشيخ يصغي باهتمام إلى ما كنت أقوله وأنا أروي قصتي، غير أن شيئاً مما قلته لم يبدُ مفاجئاً بالنسبة إليه. لم يسأل إلا سؤالاً واحداً: 'ما أسماء الإخوة في بلجيكا؟'

أجبت مباشرة: 'أمين وياسين.' لم يكن ممكناً أن أكون عارفاً ما إذا كان قد سبق لهما أن التقيا ابن الشيخ، إلا أنني كنت أعرف أنهما كانا في معسكرات التدريب. كنت شبه متأكد من أن طارقاً لم يسبق له أن كان فيها؛ كان مفرط النعومة، أوروبياً أكثر مما ينبغي.

ما إن خرجتْ الكلمات من فمي، حتى ابتسم ابن الشيخ لي ونهض واقفاً. بدا كما لو كنت قد عشت انقلاباً. 'تعال يا أخ، تعال نعد ونلم حوائجك. ثم سنذهب معاً وسأقدمك للإخوة الآخرين.'

ابن الشيخ وأنا عدنا مشياً إلى بيت أبي أنس. كان الأخير بانتظارنا على الباب. رأيت ابن الشيخ يعطيه غمزة خفيفة، فعاد أبو أنس مندفعاً إلى الداخل. وحين عاد، كان يحمل كيساً. ابتسم لي ابتسامة دافئة وهو يناولني الكيس.

قال: 'حفظك الله! يا أخ'

لم أر أبا أنس بعد ذلك قط، إلا أن ابن الشيخ كان سيخبرني لاحقاً أنهما قاتلا جنباً إلى جنب في أفغانستان خلال الحرب ضد الروس.

الاستجواب

بعد وداع أبي أنس، أعادني ابن الشيخ إلى قلب مخيم اللاجئين. كان مكاناً غريباً باعثاً على الضياع. ثمة كانت بيوت، خيم، بُنى أخرى متزاحمة ومتراكمة دون أي منطق واضح. على امتداد أحد الجانبين كان ثمة سور عالٍ مقطع بسلسلة من الأبواب. في بعض الأمكنة كانت المسافة الفاصلة بين الأبواب عشرة أمتار وفي أمكنة أخرى خمسة أمتار. لم يكن هناك أي ناظم.

كنا في حي آخر من المخيم غير الذي مشينا عبره، في وقتٍ سابق من النهار، أبو أنس وأنا. كان المكان هنا أهدأ بكثير، أقل ازدحاماً. والوجوه التي كنت أراها كانت وجوهاً عربية، لا أفغانية.

توقف ابن الشيخ أمام أحد الأبواب وطرقه. أحدهم فتح الباب من الخلف، فلم أستطع رؤيته. التفت ابن الشيخ إليَّ وطلب مني أن أنتظر حيث كنت لبضع دقائق، ثم دخل البيت. وحين ظهر خاطبني قائلاً: 'ادخل من فضلك وانضم إلى الإخوة. سأرسل شخصاً يمكّنك من الدخول في غضون ما لا يزيد على ساعتين.'

قال ذلك ودار ليمشي مبتعداً. لم أعرف ما يمكن توقعه، غير أنني كنت مضطراً، دون أي خيار آخر، لتجاوز عتبة الباب. كان البيت ندياً في الداخل،

ومظلماً. ما إن تكيفتْ عيناي حتى رأيت سبعة رجال عرب جالسين على الأرض. جميعهم كانوا شباباً، في أواخر عشرياتهم أو أوائل عشرينياتهم. جميعاً كانوا في ملابس عادية - سراويل جينز، وسترات رياضية. وأنا أضع كيسي على الأرض، كنت قادراً على الإحساس بأن عيونهم كانت تحرقني.

قلت: 'السلام عليكم!'

ردوا جميعاً: 'عليكم السلام.'

دعوني إلى الجلوس على الأرض معهم بالإشارة. جلست وبدؤوا يتكلمون معي. جميعاً كانوا يتكلمون بهدوء وبصوت منخفض، ويكثرون من الابتسام. لاحظت أن عدداً منهم كانوا ذوي لكنة جزائرية. سألوني عن المكان الذي جئت منه وكيف كانت رحلتي. أشعروني بأنني شخص مرحَّب به.

ثم أمطروني بوابل من الأسئلة عن بلجيكا. استمروا يبتسمون ويتكلمون بالأصوات الهادئة ذاتها، غير أنني سرعان ما اكتشفت أنهم كانوا يمتحنونني، أن ابن الشيخ كان قد تركني هناك للاستجواب. كان يعلم أنني كنت على صلة بالجماعة الإسلامية المسلحة، فوقع اختياره على مجموعة من الجزائريين لشيٍّ (لاستجوابي شياً على النار).

رويت لهم القصة نفسها عن بلجيكا، تلك التي سبق لي أن كنت قد رويتُها لكل من أبي أنس وابن الشيخ. حدثتهم عن الأنصار وعن الاعتقالات. لم يعلق أحد ولو بكلمة واحدة، ولم أكن قادراً على معرفة ما توصلوا إليه من استنتاج؛ جميعاً حافظوا على التعبير الهادئ نفسه طوال فترة الحوار. سألوا عن السنة التي أمضيتُها في بروكسل، ولكن دون أي تحديد. كانوا مباشرين ومداورين في الوقت نفسه: لم يشيروا إلى أي أحد بالاسم، وكانوا يطرحون الأسئلة على نحو غير منظم. أدركت أنه قد تعين عليّ أن أتحلى بالحذر، بالدقة البالغة في إجاباتي.

سألني أحدهم عن الحرب في الجزائر وعن رأيي في كل من جبهة الإنقاذ الإسلامية (الفيس FIS) والجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا GIA). كنت قد سمعت كثيراً، وكثيراً جداً، من أمين وياسين فتمكنت من الرد فوراً. كانت الجبهة طاغوتاً، قلت للشباب، لأنها كانت تطالب بانتخابات. فقط الجماعة كانت تخوض جهاداً حقيقياً. لم يقل المحقق شيئاً. ثم قفز أحد الآخرين إلى موضوع جديد.

بدأت أعصابي تتوتر. لم أكن قادراً على معرفة ما كان هؤلاء يعرفونه عني، أو السبب الذي من أجله كان ابن الشيخ قد أتى بي إلى هنا. أسئلة الشباب بدت عشوائية، ولم يكونوا يبادرون إلى التعليق على أي من أجوبتي. لا ردود أفعال على الإطلاق. الابتسامة الوديعة نفسها مهما قلت. تمنيت أن ينتهي الأمر.

سأل أحدهم: "ما اسمك أنت يا أخ؟"

"عمر الناصري"

ثم صمت. صمت كلي، شامل. التعابير تغيرت تماماً مع خروج الكلمات من فمي. صُعق الجميع.

تجمد الزمن بالنسبة إلي. بدا وكأن قنبلة انفجرت في الغرفة. هل كانوا يعرفون من أكون؟ هل كانوا قد سمعوا بهذا الاسم من أحدهم في بلجيكا؟ نظر الرجال إلى بعضهم البعض نظرات قلقة، غير أن جميع الأشياء وكل الأشخاص كانوا في حركة بطيئة. أُصبِت بالشلل.

تصوَّرتُني ميتاً. بدا واضحاً من وجوههم أن الأمر قد انتهى. عرفوا أنني جاسوس. عرفوا أنني كنت سبب مداهمات بروكسل. كانوا سيقتلونني. ومع ذلك فإنني وجدت اليقين محرِّراً بعض الشيء بعد كل هذه الأسابيع المثقلة بالقلق. كنت أعرف مصيري؛ أصبحتُ بين يدي الله أخيراً، وما من شيء كان يستطيع أن يغيّر قَدَري المكتوب. كنت سأموت هنا، بمشيئة الله. وقد بدا ذلك شبه محتوم حين شعرت بيدٍ تضغط على ظهري.

"قل لنا يا أخ، أهذا هو اسمك الحقيقي؟" جاء الصوت عن يميني. كان الرجل الجالس بجانبي قد وضع يده على لوح كتفي.

دُرت نحوه وقلت: "نعم ذلك هو اسمي الحقيقي." لم يكن ثمة أي شيء يمكن عمله بعد الآن. كانوا قد كشفوني.

ثم تكلم الرجل من جديد "نحن لا نستخدم أسماءنا الحقيقية على الإطلاق يا أخ. حين تأتي إلى هنا عليك أن تترك كل شيء خلفَك - بيتَك، أهلَك، هويتك. لابد لك من اعتماد اسم جديد."

بدا وكان سَدّاً قد انهار؛ تدفق طوفان التوتر كله من جسدي. ذلك كان سبب انصعاقهم الشديد: كنت قد أخفقت في استخدام أي اسم مستعار. لم يكن قد خطر لي أنني بحاجة إلى مثل هذا الاسم. بدا وكأني كنت قد نجوت قبل ثوانٍ قليلةٍ من إعدامي. شكرت الله وحمدته على إنقاذه لي.

قلت: "أنا آسف جداً. لم أعرف ذلك. ليس عندي سوى اسمي الحقيقي." ضحك الحاضرون ضحكة هادئة، وبادرني الرجل الجالس إلى يميني قائلاً إن عليّ أن أختار اسماً جديداً.

قررت أن أعتمد اسم أبي بكر، صديق النبي الصدوق والخليفة المنتخب الأول في الإسلام. أومأ الآخرون موافقين، ثم بدؤوا يقفون. كان الاستجواب قد انتهى، وأنا كنت لا أزال على قيد الحياة.

المواد الكيميائية

ما إن انتهتْ الأسئلة، حتى طلب مني أحد الشباب أن أحمل أمتعتي وأتبعه إلى غرفة أخرى. هناك طالبني بإطلاعه على ما كان في كيسي. فتحت الكيس وأفرغت محتوياته على الأرض: كيس نوم، بعض الملابس العادية، نظارات راي - بان، سكينتي العسكرية السويسرية الجديدة ومصباح جيب، وبعض لوازم التواليت: أداة حلاقة، فرشاة أسنان، وما إليهما.

أولاً، حمل نظارات الراي ـ بان وقال: 'لن تكون بحاجة إلى هذه في المعسكر. سيتعين عليك أن تتعلم فن القتال دونها.' أخذ معظم ملابسي أيضاً، مُزيحاً جانباً فقط كنزة وبعض الملابس الداخلية لآخذها معي. رفض كيس النوم. 'سيتوجب عليك أن تتآلف مع البرد في الجبال التي أنت متوجه إليها.' ثم رفع السكينة العسكرية السويسرية وحملها أمامي ناظراً إليَّ نظرة عتاب: 'لا يمكنك أن تحمل صليب المسيحيين وأنت منخرط في القتال تحت راية الله.' أخيراً، حمل آلة حلاقتي، وابتسم بلطف. تذكرت أنني لم أكن قد حلقت منذ وصولي إلى الباكستان. كنت قد 'رَبَّيْتُ' لحية قصيرة. قال: 'من المؤكد أنك لن تكون بحاجة إلى هذه في المعسكرات.' تبادلنا الضحك.

لَمَّ الرجل جميع حوائجي الباقية وأعادها إلى كيسي. قال إن الأشياء المتبقية كانت ستنتظر عودتي. ثم طلب مني ترك جواز سفري وسائر أنماط التعريف بهويتي التي كانت بحوزتي. عَبَّرْت عن عدم رغبتي في التخلي عن جواز سفري، اكتفى بمجرد هز الكتف وسمح لي بالاحتفاظ به.

ثم طلب مني أن أودع الإخوة الآخرين في البيت؛ كان يستعد لنقلي إلى مكان آخر لقضاء الليل. بعد كلامي مع الآخرين عدنا إلى ضوء الشمس ومشينا بضع دقائق في الأزقة الضيقة لمخيم اللاجئين.

بعد قليل توقفنا أمام باب آخر. قَرَعه، استقبلنا رجل عربي وسمح لنا بالدخول. ثمة كان خمسة عرب آخرون في الداخل؛ بدوا أكبر سناً ممن كانوا في البيت الأول، وأكثر جدية. كانوا جميعاً متربعين على الأرض، عاكفين على القراء. نظرت إلى أطراف الغرفة؛ ثمة كانت كتب وملفات في كل مكان.

دليلي حَيّا الآخرين وقدَّمَني إليهم. رفعوا رؤوسهم للحظة، رادين على التحية. ثم اقتادني إلى غرفة أخرى وأبلغني بأنني كنت سأمضي الليل هنا. قال إنه كان سيعود لأخذي من هنا لاحقاً بعد الظهر.

وضعت حوائجي على الأرض وعدت إلى الغرفة الأمامية. كان الرجال مستمرين في المطالعة. ذهبت إلى أحد الرفوف وأخذت بضعة ملفات. ما من أحد حتى رفع رأسه.

عدت إلى غرفتي، جَلَسْتُ على السرير، وفتحت الملف الأول. داخل الملف كانت صورة فوتوكوبي تالفة لأحد أنواع الكتب التعليمية أو التدريبية. كانت القراءة صعبة في بعض الأمكنة لأنها كانت نسخة عن نسخة عن نسخة. غير أن الأحرف على الغلاف كانت واضحة: الولايات المتحدة الأمريكية.

كان ما بيدي دليل حرب المدن. كان يفصّل سيناريو قيام الروس بمهاجمة إحدى مدن ألمانيا الغربية، ويقدم خطة لكيفية صد الجيش الروسي بالاستناد إلى تكتيكات حرب العصابات. تضمن الملف عدداً كبيراً من الصفحات، وكان تفصيلياً إلى أبعد الحدود. كان يفسر أسلوب وضع القنّاصة على المباني، أسلوب نَصْب الكمائن، أسلوب استخدام المباني للاختباء. كان يشرح كيفية حمل الرشاش في البيئة المدينية، وكيفية استهداف العدو في الأحياء القريبة.

كان ثمة مصنف آخر في الملف. كان الأخير كله عن استخدام المتفجرات. توجيهات حول كيفية زرع الألغام المضادة للدروع وكيفية نصب أفخاخ خادعة بوضع القنابل في جثث الموتى. ثمة كانت تعليمات أيضاً عن كيفية صنع القنابل، غير أن الأوراق كانت مشتملة على أعداد مبالغ بها من المعادلات الكيميائية التي لم تكن، بأكثريتها، مفهومة بالنسبة إلي.

حملت ملفاً آخر واستعرضته أيضاً. كان هذا، هو الآخر، من أمريكا: دليل عمليات الخطف، مع رسوم توضيحية لبيت كبير وتعليمات حول كيفية التغلب على الحراس الواقفين في الخارج. إلا أنني ما لبثت أن توقفت عن القراءة لأنني سمعت جلبة في الغرفة الأخرى. كان الآخرون يستعدون للوضوء. كان موعد صلاة العصر قد حان.

الحارس الآتي من البيت الأول عاد بُعيْد الصلاة وطلب مني مرافقته للقاء أحدهم. تبعته إلى خارج البيت، شرح لي أن الرجل الذي كنا سنقابله كان مصرياً. 'إنه بالغ اللطف. سوف تحبه. لقد قاتل في الحرب ضد الروس. فقد إحدى ذراعيه وإحدى ساقيه في الحرب. الآن هو عاكف على دراسة المواد الكيميائية.' كنا موشكين على لقاء أحد صانعي القنابل.

حين وصلنا إلى البيت، قام رجل في الثلاثينيات من العمر بفتح الباب. كان يضع على عينيه نظارات سميكة، ولكن عينيه خلفهما كانتا متقدتين وفعّالتين. كان يحمل قناعاً أبيض علقه حول رقبته. كان ذا ساق وذراع صناعيتين، وتفوح منه روائح كيميائية قوية، واخزة.

بدا المصري مباغتاً برؤيتنا في البداية، غير أنه ما لبث أن رحَّبَ بنا بحرارة ودعانا إلى الداخل. قادنا إلى حديقة صغيرة، ندية خلف المنزل، جلسنا فيها. بقيت مُقلاً جداً في الكلام خلال المحادثة التي تبعتْ. معظم الوقت، ظل المصري يتكلم مع دليلي. بالإصغاء إليهما عرفْتُ أن دليلي كان في أفغانستان منذ مدة قصيرة جداً، وأنه كان سيعود في غضون بضعة أيام. غير أنهما بقيا يثرثران ثرثرة فارغة أكثر الأحيان. لم أتعرف على الأسماء المذكورة، كما لم أستطع متابعة مجمل الحديث لأن لغتي العربية لم تكن بعد قوية جداً.

بعد نحو عشرين دقيقة، وقفنا. ابتسم المصري وهَنّأني. قال: 'ليت عندنا مزيداً من الإخوان من أمثالك!' ثم خرجنا، الدليل وأنا، لنعود إلى أتون قيظ بعد الظهر.

مصباح الغاز

بعد ظهر اليوم التالي، جاء أحد الشباب إلى البيت الآمن وطلبني. لم يكن قد سبق لي أن رأيته من قبل، إلا أنه قال لي إن ابن الشيخ كان قد بعثه. ودّعت

الإخوة الآخرين، ثم استقلينا، الشاب وأنا، حافلة متجهة من مخيم اللاجئين إلى الجزء الرئيسي من بيشاور.

نزلنا من الحافلة في مركز المدينة ثم استأجرنا سيارة تكسي أقَلَّتنا إلى حي آخر من المدينة. لم تكن المنطقة شبيهة بأي شيء مما كنت قد رأيته في الباكستان حتى ذلك التاريخ. كانت نظيفة ومنعشة. من فوق الأسوار، استطعت أن أرى أن البيوت كانت فخمة جداً.

توقفت السيارة ونزلنا منها ورحنا نمشي. قال دليلي: 'هذه منطقة حياة آباد. عدد كبير من العرب يقيمون هنا، رجال خاضوا حرب الجهاد ضد الروس.'

تشوَّشْت. لم تبد هذه شبيهة ببيوت مجاهدين. تساءلت بصوت مرتفع عما إذا كانوا قد كسبوا ثرواتهم من السلب والنهب ومن غنائم الحرب، غير أن دليلي شرح لي أنهم جلبوا أموالاً معهم لدى مجيئهم إلى الباكستان من البداية. كثيرون كانوا قد تزوّجوا من أفغانيات وبقوا بعد انتهاء الحرب. آخرون قُتلوا في الحرب، إلا أن عائلاتهم لم ترحل لأنها كانت قد اختارت الباكستان وطناً لها.

كنا في ساعة متقدمة من بعد الظهر، فاقتادني الدليل إلى جامع جميل كان قريباً. بدا وكأنه مبنيٌّ كُلُّه من الرخام. ثمة كانت باحة فسيحة مكشوفة في وسطها بحرة أقمنا فيها صلاتنا. الآخرون في المسجد بدوا مختلفين عن أي بشر كنت قد رأيتهم في الباكستان منذ وصولي. ملابسهم كانت أنعم، جلودهم أقل خشونة. بل واستطعت أن أشم عطوراً تفوح من بعضهم.

بعد انتهائنا من الصلاة، اقترب منا صبيان. كانا يعرفان دليلي على ما بدا، سلّما علينا بحماسة كبيرة كانا يتكلمان العربية. من وجهيهما ولهجتهما استنتجت أنهما كانا مصريين.

سأل أحد الصبيين وعيناه جاحظتان: 'هل أنت موشك على أخذه إلى المدرسة؟'

تجهم الدليل، وراح يتكلم بما يشبه الهمس قائلاً: "حذار التكلم هكذا أمام الملأ. سأشكوك لأبيك. يجب ألا تقول هذه الأشياء أبداً." الصبيان اللذان كانت عيونهما شديدة التألق إلى تلك اللحظة، اكتأبا فجأة. ثم ما لبثا أن ابتعدا بسرعة البرق.

ثم التفت الدليل إليّ وطلب مني أن أنتظر حيث كنت. كان بحاجةٍ لأن يتكلم مع أحدهم. حين عاد بعد عشر دقائق، كان شيء ما قد تغير. بدا أكثر رصانة، أقل انفتاحاً عليّ. قال: "علينا أن نشتري لك بعض الملابس الأفغانية." استأجرنا سيارة تكسي أقلتنا إلى سوق أقمشة كبيرة كانت قريبة. اختار لي طقماً أخضر اللون مؤلفاً من سروال وقميص، إضافةً إلى باكول (قبعة أفغانية).

تناولنا وجبة العشاء في السوق. ثم بادرنا، فيما كانت السماء تزداد ظلمة، إلى استئجار سيارة تكسي أخرى أقلّتنا إلى أعماق حياة أباد. كانت البيوت أكبر من سابقاتها، وهي مصفوفة في مجمعات طويلة. وحين نزلنا من التكسي، مشى الدليل متوغلاً في الشارع الفرعي فتبعته. توقف بعد دقيقة أو نحوها ودار ليتأكد من أن السائق كان قد رحل. ثم دُرْنا إلى الوراء وعدنا أدراجنا إلى الجهة التي كنا قد جئنا منها.

تبعته مسافة بضعة مجمعات سكنية. مشينا جيئة وذهاباً عدداً من المرات لنرى ما إذا كان أحدهم يتعقبنا. كان الظلام قد حل، والضوء الوحيد كان صادراً عن مصابيح الشارع المنشورة في الحي. بعد بضع دقائق وصلنا إلى باب دارة (فيلا) كبيرة. توقف الدليل وقرع عدداً من المرات. طاق. طق ـ طق ـ طق. طاق ـ طاق. لعلها كانت نوعاً من "الشيفرة".

فُتح الباب، إلا أنني لم أر أحداً واقفاً هناك. غير أنني ما إن خطوت إلى الداخل حتى رأيت رجلاً بنظارات واقفاً خلف الباب. ناوله الدليل قصاصة ورق، ثم تبادل الاثنان بضع كلمات. تكلما بقدرٍ كبير من الهدوء والسرعة إلى درجة لم

أستطع أن أفهم من كلامهما شيئاً. ثم قال الدليل: 'وداعاً' لكلينا، الرجل الآخر وأنا. خرج الدليل من البيت بسرعة فائقة إلى درجة أنني لم أجد ما يكفي من الوقت لأرد عليه.

كان البيت مظلماً تماماً تقريباً في الداخل. النور الوحيد كان صادراً عن مصباح غاز صغير كان الرجل حاملاً إياه بإحدى يديه. ركزت نظري وعاينّت الرجل فرأيت أن لحيته كانت مشذبة بما يتناسب مع وجهه. لم تكن اللحية لحية مجاهد.

دعاني بالإشارة إلى ابتاعه نحو داخل البيت في العمق. كان المكان صامتاً مئة بالمئة. نحن الاثنين كنا وحدنا. قادني إلى إحدى الغُرف، رفع مصباحه، وأبلغني بأننا كنا سننام هناك. ثمة كان فراشان على الأرض وثمة كانت طاولة صغيرة، لا شيء آخر. على الطاولة كانت نسخة من القرآن.

سألني صاحب البيت عما إذا كنت متوفراً على ملابس أفغانية فعرضت عليه السروال والقميص من السوق، إلا أنه اكتفى بهز رأسه ومغادرة الغرفة. ثم ما لبث أن عاد ومعه ملابس أخرى. ناولنيها فلاحظت أن هذين السروال والقميص كانا أعتق بكثير، أكثر اهتراءً.

ثم حل موعد صلاة المغرب. دلني على أحد الحمامات حيث توضّأت، ثم صلينا معاً. ما إن انتهينا حتى تربّع على الفراش والتقط بعض الأوراق ودلني أنا على القرآن. جَلَسْنا هادئين في فراشينا نقرأ في ضوء مصباحه. بعد مدة، وضعت القرآن جانباً وتمددت فيما واصل هو القراءة. وسرعان ما غرقت في نومٍ عميق.

أيقظني مضيفي قبل الفجر واقتادي إلى غرفة أخرى صلينا فيها صلاة الفجر جمعاً. وقبل أن تبدأ أشعة الشمس بالتسلل إلى البيت، اقترب من طاولة

وكتب رسالة. ثم التفت إلي وقال: "في بضع دقائق سيأتي رجل ليُدخلك إلى أفغانستان ويوصلك إلى المخيم."

وكلمة مخيم تعني "معسكراً". عملياً، كانت تلك المرة الأولى التي يقول فيها أي شخص إنني كنت ذاهباً إلى معسكرات التدريب. شعرت بنوع من القشعريرة الخفيفة، لا لمجرد الانفعال، بل ولإدراكي حقيقة أنني كنت في حضرة شخص هائل النفوذ والسلطة. صوته كان هادئاً مثل أصوات آخرين كنت قد التقيتهم في مخيم اللاجئين، مثل صوتي أمين وياسين. غير أن درجة من الحدة كانت تميزه لدى كلامه، درجة لم يكن قد سبق لي أن رأيتها من قبل عند أي كان. وما نسيت لن أنسى الوضوح الكامل لتلك اللحظة.

تابع المضيف كلامه: "إياك أن تقول ولو كلمة واحدة للدليل. إذا أمرك بأن تفعل شيئاً، فإن عليك أن تنفذ. يجب ألا تسأله أي أسئلة، أو تخبره بأي شيء على الإطلاق." أومأت موافقاً.

بعد قليل، قُرع الباب. قال صاحب البيت: "تعال معي. خذ حوائجك." فُتح الباب وهناك كان شاب أفغاني واقفاً. مضيفي مرر إلى الأفغاني الرسالة التي كان قد كتبها للتو. لدى مغادرتي للبيت طلب مني الرجل أن أتذكره في دعواتي، صلواتي الشخصية. ثم صدم صدري وكتفي بصدره وكتفه.

كنت قد رأيت هذه الحركة في مخيم اللاجئين. معظم العرب يعبرون، لدى لقائهم بأحد أو وداعهم له، عن قدرٍ كبير من العاطفة، بل ويقبل بعضهم بعضاً. أما المجاهدون فلا يفعلون شيئاً من ذلك. تحيتهم تبقى معبرة عن كل من التحدي والاحترام في الوقت نفسه.

كانت تلك تحيتي الأولى بوصفي أحد المجاهدين.

مناطق الحدود

تبعت الدليل من البيت. مشينا قليلاً ثم استقلينا سيارة تكسي قطعنا بها بضعة كيلومترات. كانت الشمس موشكة على البزوغ من تحت الأفق. أنزلتنا السيارة بجانب الطريق ووقفنا هناك بضع دقائق. بعد قليل، رأيت سيارة بيك آب بعيدة متجهة نحونا.

تسلقنا، الدليل وأنا، إلى الصندوق الخلفي للبيك آب. كان هناك أكياس طحين في أرضية الشاحنة فجلسنا عليها. ثمة كان عدد قليل من الرجال والنساء، الباكستانيين جميعاً، مع عدد من فراخ الدجاج أيضاً.

ابتعدنا عن بيشاور جنوباً نحو ستة إلى سبعة كيلومترات. لم أتفوه بكلمة واحدة خلال الرحلة، غير أنني عاينت وجه دليلي. كان شاباً، صغير السن؛ ومع أن بشرته كانت خشنة من الشمس، فإنها لم تكن بعد ممزقة بالتجاعيد العميقة التي كان قد سبق لي أن رأيتها لدى آخرين. كان ذا جبهة عريضة، وبدا أنفه أشبه بالأنوف الآسيوية، بدلاً من أن يكون طرياً مثل الأنوف الأفغانية الأنموذجية. ربما لِما كان الرجل الآخر قد قاله لي في الصباح، أو لأسباب أخرى، لم أثق به تماماً.

كانت الطريق مدروزة بحواجز التفتيش الخاضعة للميليشيات القبلية المختلفة. كانت هذه رحلة خطرة؛ هؤلاء كانوا من الشيعة، وكنت أنا سنياً عربياً مسافراً برفقة سني أفغاني. سررت لأنني كنت ملتحياً، لأن ذلك كان يساعد على إخفاء ملامحي.

في أحد الحواجز أوقفنا أربعة رجال. كانوا جميعاً بملابس سوداء وحاملين بنادق كلاشنكوف. أمروا اثنين من الباكستانيين بالنزول من الشاحنة، وبدؤوا يجادلونهما عما كان في كيسيهما. أخيراً، أوقفوا الرجلين ونحن تابعنا الطريق دونهما.

في مكان قريب من بلدة تحمل اسم سَدّه، توقفت الشاحنة. أمرني الدليل بالنزول، ثم ركبنا بيك آب من طراز تويوتا سارتْ بنا في طريق أضيق، غير مبعدة. قطعنا عدداً من الكيلومترات. في إحدى المراحل أشار الدليل إلى الأمام وسأل: 'هل ترى تينك الشجرتين؟' كان يتكلم بالعربية. 'ثمة تلة خلفهما. تلك هي أفغانستان.'

بعد قليل وصلنا إلى الحدود، وإن لم أدرك بداية أنها كانت حدوداً لعدم وجود أي إشارة أو مبنى ينبئ بذلك. ثمة كان باكستانيان بملابس عسكرية واقفان في ظل شجرة.

أمرني دليلي بأن أعطيه حوائجي والمشي مباشرة عبر الحدود دون توقف. وإذا سألني أحد أي سؤال فإن علي أن أبقى ماشياً دون رد وكان هو سيأتي بعدي ليتحدث مع الموظفين. أما أنا فكنت ممنوعاً من الكلام مع أي كان.

حين وصلت إلى الحراس وجدتهم يفتشون أناساً آخرين عابرين في الاتجاهين. نظرت إلى المسافرين الآخرين ولاحظت أن ملابسهم كانت مهترئة ومجللة بالغبار. عندئذ أدركت سبب قيام صاحب البيت بتجريدي من السروال القميص الجديدين؛ ولولا ذلك لبرزت مثل نار على علم.

معظم العابرين للحدود كانوا يحملون طروداً وأكياساً كبيرة. كان من الواضح أن الحراس لم يكونوا مهتمين بما في هذه الطرود والأكياس، بل بمقدار المبلغ الذي كانوا يستطيعون الحصول عليه ابتزازاً جراء السماح لهؤلاء الناس بالمرور. كانت أيديهم دائمة الحركة المكوكية إلى جيوبهم ومنها. كانوا أكثر انشغالاً من أن يلاحظوا مروري مشياً دون حوائج.

ثمة كانت أعداد من سيارات التكسي - الشاحنات والعربات رباعية الدفع - واقفة في الجانب الأفغاني من الحدود. استقل الدليل إحداها وتبعته. توغلنا

أعمق في أفغانستان، على طرق ضيقة متعرجة كالأفاعي عبر التلال الجرداء. كان الظُّهر قد حل، وكانت الشمس حارقة. كانت أشعة الشمس تنعكس مثل ألسنة اللهب عن صفحات الصخور السوداء لجبال أفغانستان.

بعد مسيرة نحو أربعين دقيقة مررنا بمقبرة. أعمدة طويلة، بعضها بطول ستة أمتار، كانت الأعمدة منتصبة بجانب عدد من القبور. كان كل منها مزيناً بقطعة قماش لماعة بألوان الأحمر، الأبيض أو الأخضر. هذه كانت أضرحة المجاهدين. تذكرتها من جميع الأفلام التي كنت قد شاهدتها.

رأينا عدداً كبيراً من هذه المقابر على الطريق. ومع اقترابنا من أحدها، لاحظت جماعة من خمسة رجال ذوي عمامات بيضاء. كانوا واقفين بجانب سيارة بيك آب في داخلها مدفع كبير من المدافع المضادة للطائرات. ثمة كان على سطح الشاحنة دولاب تتدلى منه مئات الأشرطة السوداء المتألقة وهي ترفرف مع النسمات الخفيفة. أدركت مباشرة أن هذه لم تكن سوى أشرطة فيديو. كانوا من الطالبان.

اصطف الرجال في الطريق وأجبروا السائق على التوقف. ولدى اقتراب أحدهم من السيارة، صُعقْتُ حين رأيت مدى صغر سنه؛ لم يكن فوق السادسة عشرة من العمر. كان يحمل رشاش كلاشنكوف بيد وعصا بالأخرى. مد رأسه إلى داخل السيارة ووخز آلة التسجيل بالعصا، ثم راح يتكلم مع السائق. انحنى السائق إلى الأمام، سحب كاسيتاً من الجيب، ودسه في آلة التسجيل. بدأت الآلة تدور؛ كان الشريط تلاوة للقرآن. ابتسم الطالب الحدَث ولَوَّح سامحاً لنا بمتابعة السير.

مع مواصلتنا السير بدأت الأرض تتغير. صارت الطريق أقل غباراً، وبتنا نرى وفرة أغزر من النباتات. وبعد قليل شاهدت قرية أمامنا، ونهراً. ثمة كان أطفال يلعبون في الطريق، وبنات يغسلن في النهر.

بإيعاز من الدليل أوقف السائق السيارة وسمح لنا بالنزول. ومن هنا، تابعنا الطريق، الدليل وأنا، سيراً على الأقدام عبر القرية وبدأنا نتسلق التلال. ومع متابعتنا للسير، زاد الدليل من سرعته على نحوٍ مطرد. بعد قليل أصبحتُ عملياً في حالة عدو. كنت أعرف أنني ملزم بعدم التكلم معه، فلم أستطع مطالبته بالإبطاء. بعد نحو كيلومترين، كنت أعاني كثيراً في الحقيقة وبدأت أتساءل عما إذا كان يحاول الهرب مني عمداً. لم أكن متأكداً قط من قدرتي على الثقة به.

بعد مدة صار بعيداً عني حتى بتُّ غير قادر على رؤيته. كنت وحيداً بين الصخور السوداء. بدأت أتساءل: أمن الممكن أن يعرف أنني جاسوس؟ أن تكون الأيام القليلة الأخيرة مكيدة مُحْكَمة لقَتْلي؟ تذكرت الفلم الذي رأيته في مركز بومبيدو حيث قام المجاهدون بنصب كمين لرتل سوفيتي، وتساءلت عما إذا كان يتعين عليَّ أن استمر في اتباع هذا الرجل. لم أكن أعرف شيئاً عنه، أو عن المكان الذي كان يأخذني إليه. للحظات فكرت بالدوران إلى الوراء، ثم طَرَدْتُ الفكرة من رأسي. كنت هنا لسبب محدد. كان لابد من المثابرة مهما حصل.

كنت أتصبب عرقاً جراء المشي بهذه السرعة في الجو اللاهب، وكانت ساقاي مرهقتين. توقفت لخفض رأسي وأخذ بعض النفس للتعافي. حين رفعت رأسي، رأيت الدليل واقفاً على صخرة أمامي. ناداني: 'عجِّلْ وإلا فاتتنا وجبة الغداء.'

منذ تلك النقطة تابعنا سوية. انحدرنا عائدين في قلب أحد الأودية. كان المكان أشبه بواحة بين حشد من التلال السوداء. كان كل شيء أخضر ونديا، واستطعت أن أرى بريق الماء في الأفق البعيد.

فجأة، دويٌّ قوي، بام. بام بام لم أدرك سبب الدوي مباشرة. بعد قليل، أصوات أخرى. بوم. بوم. تات ـ تات ـ تات ـ تات.

عندئذ أدركت ما كان يجري: رشاشات، مدافع، تفجيرات، قذائف مورتار. كشّر الدليل قائلاً: 'ها قد وصلنا يا أخ. هذا معسكر خالدان.' تلك كانت المرة الأولى التي أسمع فيها كلمة خالدان.

تبعت الدليل انحداراً على سفح التلة إلى قاع الوادي حيث استطعت أن أرى بعض المباني المعششة في ممر ضيق بين جبلين عاليين. ثمة نهر كان ينحدر من الجبال ويتدفق على الوادي ويعبر المعسكر. إلى يميني كانت هناك فسحة واسعة، مستوية. وفي مكان مرتفع بعيداً إلى اليسار ثمة كانت بقايا نوع من أنواع برج المراقبة.

توقفنا أمام المبنى الأول. التفتَ الدليلُ إليّ ونظر إلى عيني مباشرة وأمرني وهو يشير إلى قدمي: 'ابق واقفاً هنا.' أرادني أن أتسمَّر في المكان ذاته. ثم ركض مع الممر واختفى خلف المبنى.

بقيت واقفاً مدة بدت ساعة كاملة. كانت الشمس تحرق وكان العرق يقطر في عيني مختلطاً بأشعة الشمس المزيفة. تمنيت أن تكون نظاراتي الشمسية، الراي - بان، معي. كنت أشعر بالضعف والدوار جراء المشي؛ لم أكن قد تناولت أي طعام كل النهار. فجأة بدا كل شيء سورياليا، مهدِّداً. كانت الشمس عديمة الرحمة قد جردت السماء من كل لون، وبدت الصخور السوداء عناصر تهديد على الخلفية السديمية البيضاء.

لم تكن لدي أي فكرة عما كان سيحصل بعد قليل. دليل لم أكن أثق به كان قد تركني واقفاً هنا وحدي. لم أكن قد رأيت أي شخص آخر على امتداد عدد من الكيلومترات. ما الذي كان القدر يخبئه لي هنا. كنت قد بالغت في المخاطرة بحياتي. لم يكونوا ليجدوا أي صعوبة في اكتشاف حقيقة كوني جاسوساً. غير أنني عدت لأحاكم بنفسي قائلاً لو كانوا يريدون قتلي، لاستطاعوا أن يفعلوا ذلك في بيشاور، أو حتى قبل ذلك. كان أبو أنس قادراً على قتلي في لاهور.

لعلعة الرصاص اختطفَتني من أحلامي اليقْظى. تات ـ تات ـ تات ـ تات. من هذه البقعة في قلب الوادي السحيق استطعت أن أسمع أصداء الطلقات وهي تتردد بين الجبال. كل انفجار كان يتضاعف في الجو مع صداه الخاص. بانغ. بانغ. بانغ.

كنت قادراً على الإحساس بالتفجيرات في جسدي. بدأت أعيش الرعشة الأولية ذاتها التي أحسست بها حين أطلقت النار من البنادق مع إدوار للمرة الأولى. أدركت أنني كنت قد حلمت بهذه اللحظة لسنوات. كنت بين جبال أفغانستان وكان هناك إطلاق نار من حولي في جميع الجهات. تات ـ تات ـ تات ـ تات.

طردت من رأسي جميع الأفكار السوداء، إذ أيقنت أنني كنت قد بلغت هدفي. كنت جاهزاً للشروع في جهادي.

خالدان

في الحقيقة لم يكن وقوفي هناك قد امتد لأكثر من خمس دقائق حين جاء إليّ رجل وهو يعدو. كان صغير السن، في أوائل ثلاثينياته. كان يحمل رشاش اقتحام بيده اليمنى؛ بدا الرشاش كلاشنكوفاً، وإن أكثر لمة. جسمه كان مشدوداً على نحو لا يصدق، قوياً. كان يتحرك مثل القطط، بهدوء ولكن بقدرٍ هائل من الدقة.

كنت بالغ التأثر بحضوره الجسدي الاستثنائي إلى درجة أنني لم أنتبه، حتى بات واقفاً أمامي، إلى أنه كان قصير القامة، ربما 165 سنتيمتراً، لا أكثر. قَدَّرْتُ أنه كان فلسطينياً. فوجوه الرجال الفلسطينيين تشترك في شيء معين، في نوع من الشحوب الذي يعكس نوعاً من التسليم بالضياع من جهة، وشيئاً من الالتزام بالقَدَر من جهةٍ ثانية. كنت قد رأيت ذلك الشحوب على شاشات التلفزيون مئات المرات.

وقف الرجل أمامي وقال: 'السلام عليكم!'

'عليكم السلام.'

ثم أخذ كيسي من يدي ورماه على الأرض. في حركة واحدة بالغة السرعة فتَّشَ جسدي كله بلمسة يده الخفيفة. حركاته كانت دقيقة، موزونة. العملية كلها لم تستغرق أكثر من ثانيتين.

تحت بدلة السروال والقميص اكتشف حزامي الذي كان يحتوي على جواز سفري وأموالي. أخذ الحزام مني وسأل: 'معك أي شيء آخر؟'

قلت لا؛ عَدَّ النقود أمامي. قال لي إنه كان سيعطيني لاحقاً ورقة أوقعها بشأن حوائجي. ثم وضع يده على ساعدي وسأل: 'ما اسمك يا أخ؟'

قلت: 'عمر الناصري.'

فوجئ، تراجع خطوة. عاود السؤال: 'أهو اسمك الحقيقي؟'

شعرت بالدم يصعد إلى وجهي؛ خجلت من نفسي. كنت قد أجبت غريزياً؛ لم أكن بعد قد تآلفت مع اسمي الجديد، وهذا الرجل العجيب كان قد أربكني. سارعت إلى تصحيح خطئي ورحت أتمتم: 'اسمي أبو بكر.'

ابتسم وقال: 'ذلك الاسم أخذه أخ آخر؛ سيتعين عليك أن تختار غيره.'

فكرت لثانية ثم سألت: 'ما رأيك باسم أبو إمام؟'

قال: 'موافق، ذلك رائع.' ثم اقتادني إلى داخل المجمَّع، بعد سلسلة من المباني. وأنا أتبعه، لاحظت ثانية كم كانت خطواته، حركاته محكمة وموزونة. كل ذرة من ذرات جسده بدت مفعَّلة. كان جسده مشدوداً مئة بالمئة، مثل أسد يتهيأ للانقضاض.

قادني إلى داخل مركز المجمع، إلى مبنى شيد من الطوب ذي سقف معدني. شرح أن هذا كان هو المسجد، وأن عليّ أن أجلس هناك وانتظر قدوم الآخرين. قبل رحيله انحنى عليّ وتكلم بصوت كان هادئاً ولكنه حاد محذّراً إياي: 'يجب أن تتذكر دائماً أنك هنا لأداء فريضة الجهاد. لست هنا للتحدث مع الآخرين. نحن لا نطرح أسئلة على إخواننا. لا نميط اللثام عن أي شيء حول أنفسنا. يجب أن تبقى متركزاً على رسالتك الجهادية.'

أومأت موافقاً، وتابع يقول: 'كذلك يجب ألا تتكلم مطلقاً مع أي أفغاني. مع الأدلاّء، الحراس، الطباخين. ولا كلمة واحدة.'

أومأت ثانية لأبين له أنني فهمت. ثم دار واختفى بالسرعة التي كان قد ظهر بها، وقدماه تلامسان الأرض برفق مثل أقدام راقصي الباليه.

جلست وحدي في المسجد وتركت الجو المظلم الندي يغمرني. شعرت أن جسدي ارتاح قليلاً. عيناي لم تعودا تدمعان من الشمس الحارقة. تواصلت أصداء الانفجارات وأصوات إطلاق النار مترددة في الجبال، غير أنني كنت قد بدأت التآلف معها.

بعد دقائق قليلة، هدأ كل شيء فجأة. ساد المسجد صمت كامل: لا طيور تصدح، لا قنابل تنفجر، لا شيء. كنت قادراً على سماع صوت تنفسي ونبض قلبي اللذين كانا قد بدءا يتباطآن بعد كل هذا الفيض من الرياضة والقلق.

فجأة فُتح الباب صَفْعاً بجلبة صاخبة. خمسة رجال عمالقة تسللوا إلى المسجد. جميعاً كانوا في العشرينيات، من ذوي البشرة البيضاء والعيون الشهلاء. كان مع كل منهم رشاش كلاشنكوف عُلق على صدره، وحزام مثقل بالقنابل اليدوية والذخائر. كانت عيون الجميع مطوقة بالدوائر نفسها التي كنت قد رأيتها لدى أمين وياسين.

حين رآني الرجال جالساً هناك، ابتسموا واقتربوا مني. استطعت أن أفهم من لهجتهم أنهم كانوا من الشيشان، فتحدثت معهم بالإنجليزية. قدموا أنفسهم بالأسماء التي كانوا قد اعتمدوها: أبو أنس، أبو عمر، وأبو... تبادلنا التحية بالطريقة الأنموذجية، طريقة ملامسة الكتف بالكتف. استطعت أن أحس بالقوة الوحشية الكامنة في أجسادهم.

كان الوقت وقت صلاة الظهر، وما لبث المسجد أن بدأ يزدحم. استطعت أن أدرك من وجوههم أن هؤلاء الرجال كانوا من سائر أنحاء العالم: من شمال أفريقيا، من الشرق الأوسط، من آسيا الوسطى.

وفيما كانت الصلاة موشكة على البدء، تذكرت أنني لم أكن متوضئاً. درت إلى من كان بجانبي وسألته عن الحمام. أمسك بذراعي برفق ورافقني إلى خارج المسجد وعبر فضاء مكشوف نزولاً إلى ضفة النهر. ثم أشار إلى مجموعة من الأكشاك بين حشد من الصخور الكبيرة. طلب مني أن آخذ سطل ماء من النهر وأتوضأ هناك. غَمَسْت يدي في الماء. مع أن الشمس كانت حارقة، فإن الماء كان بارداً كالثلج. أدركت أن الماء آتٍ مباشرةً من الثلوج المتراكمة على الجبال.

بعد انتهائي من وضوئي، عدت إلى المسجد لإقامة الصلاة. لاحظت أن أولئك الذين كانوا متنكبين الكلاشنكوفات كانوا قد وضعوا أسلحتهم على الأرض بين أرجلهم في أثناء الصلاة. وما إن انتهينا حتى وقف الرجل الذي استقبلني عند وصولي إلى المعسكر ليقدمني إلى الجماعة وقال: "هذا أبو إمام. إنه أخوكم. التحق اليوم بجهادنا."

ابتسمت لجميع الرجال الذين رحّبوا بي في المسجد وهتفوا: "ما شاء الله! ما شاء الله! ما شاء الله!"

غادرنا المسجد ومشينا باتجاه المقصف الذي كان في المبنى الأول الذي كنت قد رأيته عند مدخل المعسكر. كان المبنى حجرياً إلا أن السقف كان من أغصان

الأشجار اليابسة التي بدت أشبه بسعف النخيل. كنت قد رأيت هذه الشجيرات على الطريق إلى المعسكر. من الداخل كان السقف مبطناً بصفحات النايلون لاتقاء المطر.

جلسنا جميعاً على الأرض وتناولنا نوعاً من الشوربة المصنوعة من الفاصولياء. كان الطعام مقزِّزاً، غير أن الجوع كان قد هدني فأكلت مهما كان. وحين انتهينا من وجبتنا، جاءني رجل آخر وطلب مني أن أتبعه. ناولني كيس نوم رقيقاً وعدداً من البطانيات، ثم قادني عبر المعسكر إلى مجموعة من المباني الصغيرة واقتادني إلى داخل أحدها. أبلغني بأن هذا كان مكان نومي. نظرت حولي ورأيت أن عدداً من الأشخاص كانوا يقيمون هنا أيضاً. حوائجهم كانت مضبوبة بعناية ومركونة إلى جدران الغرفة. لم تكن ثمة أي أرضية ممهدة، فقط الأرض القاسية للجبال الأفغانية.

مساء بعد العشاء، توزعنا على مجموعات صغيرة للتدرب على التجويد، تلاوة القرآن. كنا مقَسَّمين إلى مجموعات وفقاً لمستوى معرفتنا الروحية. جماعتي كانت تضم خمسة من الشيشان وجزائرياً. جميعاً كنا مبتدئين.

شرح لي أحد المتدربين أن الرجل الذي كان قد قَدَّمني في المسجد كان أمير المعسكر، أبا بكر. ضحكتُ بيني وبين نفسي متذكراً أنني كنت، عن غير قصد، قد اخترت اسمه في بيشاور. ثم أفادني الرجل بأن أبا بكر كان الأمير الوحيد في غياب ابن الشيخ، الذي كان سيتولى الأمارة لدى عودته.

بعد انتهائنا من دروسنا، تجمعنا ثانية في الساحة الرئيسية أمام المسجد. لفت أبو بكر أنظارنا. أعطى أوامره للحراس الليليين، وزودنا بكلمة السر في تلك الليلة. ثم اختار أحد الإخوان ليتولى رفع الأذان فجر اليوم التالي.

ثم قام أبو بكر باستعراض أحداث النهار. دون تسمية أحد على نحوٍ مباشر، امتدح إنجازات معينة وانتقد إخفاقات محددة لبعض الإخوان. أحدهم كان في

الحمام حين خرج فريقه إلى التدريب. قام أبو بكر بتذكير الجميع بأن هذا إهمال وسلوك غير قويم بالنسبة إلى أي مجاهد. ما من مجاهد إلا ويبقى مهتماً بسائر إخوانه. إنها مسألة حياة أو موت.

بعد أن أنهى أبو بكر كلامه، توجهتُ إلى المهجع ووضعت حوائجي على الأرض الباردة. كانت درجات الحرارة قد انخفضت انخفاضاً كبيراً لدى غروب الشمس، وراح البرد يخترق ملابسي إلى جسدي. لم أشعر بالدفء إلا بعد بضع دقائق تحت كيس النوم والبطانيات.

ما لبثت نبضات قلبي أن تباطأت. ارتخى جسدي، وبدأت أفكر بكل شيء كان قد حدث. كنت قد استيقظت في بلد آخر ذلك الصباح. كنت في استانبول قبل أقل من شهر. والآن كنت هنا، في معسكر للتدريب مع المجاهدين. كل شيء بدا غريباً ولكنه مألوف كلياً في الوقت نفسه. كان هذا ما كنت قد توقعته تماماً وحلمت به وتطلعت إلى ممارسته بعد مشاهدة كل تلك الأفلام، بعد القراءة عن الحرب ضد الروس، بعد الاستماع إلى كلام كل من أمين وياسين. رحت أفكر بدوي القصف الذي كنت قد سمعته ورشاشات الكلاشنكوف التي كان الإخوان يحملونها، وأيقنت أنني كنت سأجد كثيراً من المتعة هنا.

كنت منفعلاً وتواقاً لطلوع الفجر. غير أنني، في اللحظات الأخيرة قبل الاستغراق في النوم، أجبرت نفسي على تأمل مهمتي. تلك الليلة، وسائر الليالي التي أعقبتْها في العام التالي، بقيت حريصاً على تذكير نفسي بحقيقة أنني كنت جاسوساً.

أبو همام

لم أنم كثيراً تلك الليلة. فبعد ما بدا نحو ساعة أو اثنتين فقط، أيقظتني أصوات تقلبات الآخرين في الظلمة. حين فتحت عيني، وجدت الظلام دامساً لا

يزال. وفيما كنت أحاول التركيز أدركت أن وقت الصلاة الأولى كان يجب أن يكون قد حان. كان الوقت صيفاً، وأشرقت الشمس في ساعة مبكرة جداً.

توضّأنا وتوجهنا إلى الجامع للصلاة مع الآخرين. كان البرد لا يزال شديداً. بعد الانتهاء من الصلاة، احتشد الجميع في الساحة أمام المسجد. قَسَّمَنا أبو بكر إلى ثلاث مفارز وعين لكل منها مدرباً مختلفاً.

ثم ركضنا جميعاً إلى أمام المعسكر، حيث كانت فسحة منبسطة واسعة. كانت الشمس قد بدأت تناغي قمم الجبال وكان جسدي لا يزال متجمداً من برد الليلة الماضية. قمنا بعدد من الحركات والتمرينات الجماعية تحمية لعضلاتنا. لاحظت أن جميع الآخرين كانوا ذوي لياقة بدنية استثنائية، وبدأت أشعر بالقلق. منذ سنوات وأنا بعيد عن جميع أنواع الرياضة وألوانها.

ذلك الصباح تم إلحاقي بمفرزة يقودها مدرِّب اسمه أبو همام. كان هذا أريتيرياً، وبشرته أكثر سواداً بما لا يقاس من بشرة الآخرين. حركاته كانت رشيقة، ولكن بطريقة مختلفة عن طريقة أبي بكر.

لم يتوفر لي وقت كافٍ لدراسة أبي همام قبل بدء تمارينا. دون أن ينبس ببنت شفة، بدأ الجري باتجاه أحد الجبال العالية خلف المعسكر، وحَذَوْنا حَذْوَه. ما لبثنا أن وصلنا إلى سفح الجبل ورحنا نعدو صعوداً.

في البدء بدت الحركة منشطة. شعرت بالدفء في جسدي، متغلباً على الصقيع الذي كان في الليلة السابقة. غير أنني بدأت، بعد نحو مئة متر، أحس بوخزة في عضلات الفخذ الرباعية. كان الآخرون قد سبقوني كثيراً؛ كنت الأخير في الرتل. ثمة كان رجل واحد على الدرجة نفسها تقريباً من البطء، غير أنه كان بديناً تماماً ويرتدي سترة واقية من الرصاص لابد أنها كانت تزن عشرين كيلوغراماً أو أكثر. لم يكن أحد مرتدياً سترة واقية؛ افترضت أنه طُلب من هذا

أن يفعل ما فعله لتخفيف الوزن. على مسافة غير بعيدة منا كان ثمة سعوديان. من الواضح أنهما كانا أكبر سناً بكثير من الآخرين، في الدرجات العليا من أربعينياتهما. كان قلبي ينبض بقوة إلى درجة أنني كنت قادراً على سماعه. واضح أن تدريبي لم يبدأ بداية موفقة.

بعد نحو خمس عشرة دقيقة، اختفى باقي أفراد المفرزة، بمن فيهم الرجل البدين والسعوديان متوسطا العمر، خلف إحدى التلال. وحين وصلت إلى هناك متأخراً بضع دقائق، رأيت الجميع واقفين معاً في مكان أعلى بمئات الأمتار على سفح الجبل. كان أبو همام عاكفاً على إصدار التعليمات فيما كان الآخرون يمطون أجسادهم.

كنت شديد الفرح من احتمال الحصول على قسط من الراحة وهرعت بأقصى ما استطعت من سرعة. غير أنني كنت شديد التخلف فاستغرق وصولي إلى حيث كان الآخرون عدداً غير قليل من الدقائق. وفيما كنت موشكاً على الوصول، سمعت أبا همام يهتف بأعلى صوته: 'تكبيرا'

ردد الآخرون مثل جوقة: تكبيرا الله أكبرا تكبيرا الله أكبرا تكبيرا الله أكبرا تكبيرا الله أكبرا.'

تماماً فيما كانت الأصداء تتراجع، وصلت إلى حيث كانت المفرزة. أخيراً توقفت عن الجري، غير أن قلبي كان لا يزال يخفق وساقاي بدتا مشلولتين تحتي. انحنيت لأستعيد أنفاسي، وما إن رفعت رأسي حتى رأيت أبا همام واقفاً أمامي مباشرةً. قال:

'ما شاء الله! يا أبا إمام!'

حاولت أن أرد، إلا أنني لم أكن قد استعدتُ نَفَسي. لم يخرج أي صوت من فمي. إلا أن ذلك لم يكن مهماً؛ كان قد دار. سرعان ما بدأ يجري من جديد وجميع الآخرين يتبعونه.

هبط قلبي. لم أعرف ما إذا كنت قادراً على المتابعة؛ خارت قواي. كل ما كنت قد تناولته من طعام هو ذلك الحساء المرعب غداء وعشاء، وما من أحد منا كان قد تناول أي فطور ذلك الصباح قبل الشروع في التمارين الرياضية.

بقيت واقفاً لثوانٍ ثمينة أخيرة قليلة، لأستأنف الجري بعدها. في دقيقة واحدة وجدتُني متخلفاً كثيراً عن الآخرين. كانت الشمس قد ارتفعت، وباتت تسخِّن ظهري. ما لبثت الحرارة ومعها الإرهاق أن بدأت تسبب لي الدوار.

بعد نحو نصف ساعة، درت حول إحدى الزوايا ورأيت أن المفرزة كانت متوقفة مرة أخرى. دعوت الله ملتمساً بقاءها ما يكفي من الوقت كي أتمكن من أخذ قسط من الراحة، ولكن أبا همام سارع، لحظة وصولي، إلى الدوران والانطلاق من جديد.

ناديت: 'يا أبا همام!' استدار ونظر إلي نظرة مزاح. بقبقت الكلام محاولاً لم أنفاسي قائلاً: 'يا أبا همام. أنا هنا من البارحة فقط. ليتنا نرتاح هنا ولو لبضع دقائق قليلة إضافية كي أنال قسطاً من الراحة!'

نشر على وجهه ابتسامة عريضة، مبرزاً أسنانه البيضاء الناصعة على خلفية بشرته الداكنة وقال: 'يا أبا إمام، في المعركة لا يمكن لشخص واحد أن يعرقل الجماعة.' كان صوته ناعماً، جذلاً.

رَجَوْتُه أن يسمعني ورحت أقول: 'قبل أن يصبح أي مجاهد قادراً على القتال، لابد له من أن يتدرب. أنا هنا من يوم أمس فقط، والآن تريد أنت، على ما يبدو، أن تقتلني حتى قبل أن أغدو مجاهداً.' ابتسم أبو همام ثانية ثم ضحك ضحكة ناعمة. وبعد ذلك دار وبدأ يتسلق الجبل قفزاً.

واصل أبو همام الجري، واستمرت المفرزة تجري خلفه. ما من أحد بدا منهكاً، بمن فيهم حتى ذلك البدين صاحب السترة الواقية أو السعوديان كبيرا

السن. كانوا، بالطبع، يرتاحون بين الوقت والآخر. وكلما زاد تخلفي، كانت مدة استراحتهم تطول مع توقف أبي همام. ولأنني لم أكن أستطيع أن آخذ قسطاً من الراحة، كنت أغدو أبطأ فأبطأ. مع كل خطوة كنت أصلي داعياً الله أن يلهم أبا همام بالالتفاف والتوجه نزولاً، نحو طريق العودة إلى النهر والمعسكر. إلا أنه لم يفعل بالطبع.

دام جرينا نحو أربع ساعات ذلك الصباح. حين وصلت إلى المعسكر وجدتُني هالكاً من التعب. أما الآخرون فكانوا مصطفين أمام المقصف منتظرين وصولي. ما إن وصلت حتى بدأ أبو همام بقراءة التفقد منادياً كلاً من أعضاء الفريق بالاسم. وبعد إنجاز مهمة تفقدنا جميعاً، سُمح لنا أن نشرب ماء ونتناول فطورنا. لم يكن ثمة سوى كأس شاي وكسرة خبز، غير أنني أجهزت عليهما بسرعة.

وكما علمت في الأيام التالية، كان هذا يوماً عادياً في خالدان. كان الشيء نفسه سينتظرنا كل يوم. كنا سننهض من النوم قبل الفجر لنصلي، ثم نخرج مباشرة للقيام بالحركات السويدية في الساحة ثم ننطلق للتدريب في الجبال.

لم أكن أجري باستمرار في جماعة أبي همام؛ كان لدينا مدربون مختلفون في أوقات مختلفة. لم يكن الجري نفسه على الدوام؛ أحياناً كنا نقوم بأشياء أخرى: نقفز، نزحف، نسبح في النهر المتجمد. كنا نصطحب الأسلحة، لا لمجرد زيادة الوزن ومضاعفة مستوى الصعوبة، بل ولنكون قادرين على إتقان فن نقل المعدات والمواد إلى الجبهة. ذات يوم حملنا عدداً من الصواريخ وتسلقنا بها الجبال. بعضها كان كبيراً، أطول من متر. كانت هذه لنسخة أصغر من نسخ الكاتيوشا، أو عضو ستالين التناسلي، راجمة الصواريخ المتعددة التي كان السوفييت قد استحدثوها في الحرب العالمية الثانية. ذلك اليوم لم يكن أحد يعدو. كان يكفي أن نصمد تحت وطأة الصواريخ العملاقة.

كثيراً ما كنا نجري حفاة. ليس في الصيف فقط؛ كنا نركض حفاة حتى فوق الصقيع أواخر الخريف. كان الأمر مرعباً في البداية؛ كانت الصخور مدببة وحادة وممزقة، وكنت أعود إلى المعسكر وقدماي غارقتان في الدم. مع الزمن كان أبو همام سيعلمني فن المشي فوق الصخور، فن قياسها بنظراتي لأحدد المكان الذي أضع فيه قدمي. علمني كيف أشكل قدمي وأُقَوْلبها وفقاً لشكل كل صخرة كي أتمكن من الانسياب على الأرض دون أن أحس بشيء. تلك هي الطريقة التي تعلمت بها كيف أمشي مثل أمين وياسين.

كان أبو همام يجري على نحوٍ مغاير. لم يكن جسمه مشدوداً مئة بالمئة ثمل جسم أبي بكر، وبقيتْ حركاته أقل دقة وإحكاماً. كان ثمة ملمح ملكي في حركته، ولكن مع ارتخاء في الوقت نفسه. لم يكن قط يبدو ناظراً إلى الصخور أمامه. مرة فكرت بالأمر، إذ وجدت ارتياحه إلى هذه الطبيعة بطريقةٍ مختلفة عن الآخرين منطوياً، بنظري، على معانٍ كثيرة. كان قد نشأ وترعرع وهو يقاتل في جبال الوادي الانهدامي في حرب العصابات ضد الحكم الأثيوبي.

أبو سهيل

كنت وحدي في المعسكر، وهو أمر غير مألوف. جُل الآخرين كانوا يأتون ويذهبون في مجموعات مؤلفة من ثلاثة أو أكثر: الشيشان، الطاجيك، الكشميريون، السعوديون، الجزائريون، وإلخ. هذه المجموعات كانت تتدرب سوية. أما أنا فلم يكن معي أحد لأتدرب معه، ولذا فإن أبا همام طلب مني بعد طعام الفطور صباح اليوم الأول أن أنضم إلى مجموعة أبي سهيل. وأبو سهيل هذا كان سلفاً مشغولاً بتدريب فريق من الشبان الشيشان الذين كانوا قد وصلوا قبل عدد من الأسابيع.

كان أبو سهيل من اليمن. شاب في أوائل العشرينيات من العمر. ناحل جداً، بشرته فاتحة. هادئ ورابط الجأش.

غرفة صفنا الدراسي كانت مبنى صغيراً على مسافة بضع مئات من الأمتار بعكس اتجاه النهر من المقصف. كنا نجلس فيما يقوم أبو سهيل بالشرح على السبورة. في اليوم الأول، بدأ بتعليم الشيشان شيئاً عن صواريخ الأرض - جو. كان يرشدهم إلى طريقة إجراء الحسابات الضرورية للتسديد الصائب. كنت أبقى متفرجاً، غير أنني كنت ألتحق بالحصة الدرسية في منتصفها ولا أفهم معظم ما يقال.

كنا نقْطَع الدرس للعودة إلى الجامع لأداء صلاة العصر. وبعد العودة إلى الصف، كان أبو سهيل يترك الشيشان يدرسون وحدهم، ويكرس الجزء الباقي من بعد الظهر لتعليمي عن الأسلحة الفردية. غير أنني حرصت في ذلك اليوم الأول على عدم لمس أي سلاح، لأن الأشياء التي يجب تعلمها كانت كثيرة. في ذلك اليوم، كما في الأيام كلها، كان الدرس تفصيلياً على نحوٍ يتعذر تصديقه. بالنسبة إلى كل سلاح، كل رشاش، كان أبو سهيل يصر على تلقيني اسم القطعة وشرح نوعية الذخيرة المطلوبة. ثم كنت أتعلم إجراءات أمان كل بندقية. كان أيضاً يتعين علي أن أحفظ عن ظهر قلب عنوان الجهة المصنعة بل وحتى اسم المخترع: ماركوف، كلاشنكوف. تعلمت مميزات كل مسدس أو رشاش: حجم بيت النار، الوزن والطول، طاقة السبطانة، المدى. أنسب الحالات التي يتم استخدام السلاح فيها: الاغتيالات، حرب المدن، وإلخ....، أسلوب حساب مسار الطلقات المقذوفة، طريقة الفك والتركيب، كيفية المسح والتنظيف.

تعين علي أن أتعلم كل هذه الأشياء قبل أن أمد يدي على الرشاش. كنت نافد الصبر. كلما تعلّمت عن سلاح جديد، كنت أريد أن أحمله بيدي مباشرة.

كنت سريع التعلُّم. جزئياً لأن أبا سهيل كان يُمضي وقتاً طويلاً في العمل معي وحدي، لأن الشيشان كانوا متقدمين كثيراً عليّ. وجزئياً لأنني كنت، سلفاً، أعرف الكثير من الوقت الذي عشته مع إدوار.

خلال ذلك الشهر، كنت سأتعلم فنون استخدام سلسلة طويلة ومتنوعة من الأسلحة. عَرّفني أبو سهيل بمسدسات ورشاشات لم يكن قد سبق لي أن رأيتها من قبل. كانت تلك، بأكثريتها، أسلحة ألمانية وروسية من مخلفات الحرب العالمية الثانية. في الأسابيع الأولى، تدربت على ماركوف بي ام، مسدس سوفيتي نصف آلي اختُرع في الأربعينيات من القرن الماضي؛ التوكاريف تي تي، مسدس نصف آلي استخدمه السوفييت في الحرب العالمية الثانية؛ الوالتر بي بي كي، مسدس ألماني كان يستخدمه اللوفتوافه (سلاح الجو) (كنت أعشق الوالتر بي بي كي، إذ كان المسدس الذي درج جيمس بوند على حمله)؛ السيغ - ساور، نسخة معدلة لمسدس كان الألمان قد اخترعوه خلال الحقبة النازية؛ واللوغار، وهو السلاح الذي صممته المصانع الألمانية للأسلحة والذخائر أوائل القرن العشرين. الاسم الحقيقي للسلاح هو مسدس بارابيلوم. وكلمة 'بارابيلوم' هذه مأخوذة من شعار الشركة اللاتيني: سي فيس باسم، بارا بيلوم Si vis pacem, para bellum (إذا أردت السلم فاستعد للحرب).

بعد أن تعلمت تلك الأمور، صار أبو سهيل يعلمني كيفية استخدام مدافع رشاشة أكبر. بداية تدربت على العوزي، الرشاش الذي كنت أمقته كثيراً. وهو رشاش خفيف صممه عوزييل غال في أعقاب حرب 1948 العربية - الإسرائيلية. بعد ذلك، تدربت على رشاشين حربيين سوفيتيين إضافيين: الديغتياريف دي بي، الذي هو رشاش خفيف من عشرينيات القرن العشرين، والآر بي دي الذي تم استحداثه بعد وقتٍ طويل. إنه رشاش يذخَّر بحزام ثنائي المنصب الموصول.

أخيراً علمني أبو سهيل عن الأسلحة الأسطورية التي اخترعها ميخائيل كلاشنكوف. أولاً بندقية كلاشنكوف ايه كي - 47 وهي بندقية اقتحام تعمل على الغاز. وقد حملتْ عامَ الاختراع اسماً لها. هذه هي البندقية التي قام السوفييت بتزويد الدول العميلة بها في طول العالم وعرضه؛ استخدمها الفييت كونغ كما

استخدمها الساندينيون في نيكاراغوا. في بعض أجزاء أفريقيا ثمة آباء يسمون أولادهم الذكور كلاش تكريماً للبندقية ومخترعها.

وبعد ذلك تعلمت أسلوب استخدام البي كي والبي كي ام. وهذان مدفعان آليان مئة بالمئة يتغذيا من حزام الذخيرة. كل منهما مجهز بقاعدة ثنائية القوائم ويمكن استخدامهما على الأرض أو من على ظهر وسائط النقل. أحببت البي كي ام حباً استثنائياً؛ إنه سلاح بالغ الدقة. كنت أستطيع التسديد على الهدف وإصابته على مسافة كيلومتر كامل.

أخيراً، انتقلنا إلى مدافع أكبر. كنت قد أصبحت بمستوى الشباب الشيشان، فصرنا نتلقى التدريب معاً. أولاً تدربنا على الدوشكات: الدي اش كي والدي اش كي ام 12.7. بدأنا بالأول وقضينا أياماً نتعلم عنه داخل غرفة الصف. إنه مدفع ثقيل جداً؛ لا يمكن نقله إلا على مقطورة. إنه المدفع الذي نصبه السوفييت على أبراج دباباتهم.

وحين حان وقت اختبار الدي اش كي ميدانياً، طلب أبو سهيل متطوعاً يتولى إطلاق الضربة الأولى. جميعنا رفعنا أيدينا - كنا، بلا استثناء تواقين لاختباره. وقع اختيار أبي سهيل على أحد الشباب الشيشان، أصغر أعضاء المفرزة سناً بما لا يقاس. كان في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر؛ كان لا يزال بجسم صبي، ولد، لا رجل.

كمن الصبي خلف المدفع. كان المنصب الثلاثي بحجمه، وتعين عليه أن يمد ذراعه من فوق رأسه ليضع يده على الزناد. طلب منا أبو سهيل أن نتراجع جميعاً ولكن دون أن نسد آذاننا.

لم يكن أحد منا مهيأ لسماع الدوي حين انطلقت قذيفة الدوشكا. لم يكن الدوي شبيهاً بأي شي سمعته من قبل. قام الانفجار بشحن الوادي وراحت

الأصداء تتردد على الجوانب. جميعاً قفزنا إلى الخلف بضعة أمتار، بمقدار ما استطعنا الابتعاد عن المدفع الغول.

بعد أن خَفَّتْ الأصداء، رفعنا رؤوسنا. كان الصبي الشيشاني واقفاً في المكان نفسه تماماً الذي كان يقف فيه قبل الإطلاق. كان لا يزال رافعاً يده فوق رأسه وكان إصبعه لا يزال ملفوفاً حول الزناد. غير أنه كان يزعق بأعلى صوته. كان وجهه ملتوياً من الألم. لم يترك المدفع إلا بعد أن جاءه أبو سهيل وحرر إصبعه برفق من الزناد. وبعد ذلك لم يعد ثمة أي متطوعين.

بعد الدوشكات درسنا الآر بي جيات، قاذفات الصواريخ السوفيتية المضادة للدروع. تدربنا على الآر بي جي - 7، وهي نسخة مبكرة استُخدمت أولاً في ستينيات القرن الماضي، ومن ثم الآر بي جي - 18، وهي نسخة أخف، قصيرة المدى، كانت أسهل على الحمل لقابليتها للتفكيك. أخيراً، تعلمنا كيفية استخدام الآر بي جي - 22، التي هي النسخة المخترعة في الثمانينيات. إنها بالغة القوة إلى درجة أنها قادرة على اختراق متر من الإسمنت أو أربع مئة ميليمتر من التصفيح.

كنا متوفرين على جميع هذه الأسلحة في خالدان، وقادرين على التدرب على أي منها. غير أننا لم نكن نتعلم عن أسلحة المعسكر فقط؛ فأبو سهيل كان يطلعنا على مواصفات جميع أسلحة العدو أيضاً. ففي المعركة قد يترك العدو أسلحته وراءه بعد التعرض للهزيمة. أو كان من المحتمل أن نغير على أحد معسكرات العدو ونسطو على أسلحته. في أي من الأحوال، كنا بحاجةٍ لنتعلم عن جميع صنوف الأسلحة على الأرض.

كان أبو سهيل يعرض علينا صور مدافع - رشاشات من أمريكا مثل الام - 16 . ويعلما جميع الأشياء التي تعلمناها عن الأسلحة الأخرى، ولكن نظرياً فقط هذه

المرة. كذلك كان يطلعنا على المواصفات المميزة لأسلحة العدو؛ كيف أن الهاونات الأمريكية كانت، مثلاً، تقذف رشقات مختلفة عن نظيرتها الروسية التي كنا نستخدمها نحن.

لدى انتهائي من تعلّم كل ما كان متوفراً لمعرفة المرء حول مدفع أو رشاش معين، كان يُسمح لي باستخدامه في الرمي. كان ثمة حقل واسع أبعد، في الاتجاه المعاكس لتدفق النهر، من غرفة الصف، كنا نتدرب فيه في مواجهة سفح الجبل. ومع كل قطعة سلاح، كان يتعين علي أن أتعلم كيف أسدد غريزياً، دون أي رؤية. تعلمت كيف أشهق وأزفر في الوقت نفسه تماماً، لأن الزفير يكون ملازماً لأكثر حالات الجسم ثباتاً وأكثر حالات اليد دقة.

كنت مولعاً بالمسدسات اليدوية أكثر، بالماركوف والوالتر بي بي كي خصوصاً، لأنهما كانا الأصعب في الإطلاق. أكثر المسدسات لا يمكن إطلاقها إلا باليدين كلتيهما، غير أنني كنت أحب إطلاق النار من المسدسات بيد واحدة فقط، كما كان إدوار قد علمني. كنت مغرماً بتحدي نفسي.

كذلك كنت أحب الاختبارات التي كان أبو سهيل يجريها لي، لأنني كنت أنجح دائماً. حين علمني الكلاشنكوف حدد لي الوقت ليرى المدة التي تلزمني لفك الرشاش وتركيبه مغمض العينين. في المحاولة الأولى كان معظم المجندين يستغرقون نحو دقيقتين. أما أنا فكنت أنجز العملية في أقل من ستين ثانية. كنت أرى مدى إعجابه وهو يهتف: 'ما شاء الله! يا أبا إمام، ما شاء الله!'

أعتقد أن أبا سهيل أدرك من طريقة تعاملي مع الأسلحة أنني كنت على دراية سابقة بها. غير أنه لم يسألني قط عن أي شيء. تلك كانت القاعدة في المعسكر. لم نكن نتبادل الأسئلة.

خلال هذه الأسابيع أصبحت شديد التعلق بأبي سهيل. كان ماهراً وذكياً ومفيداً جداً. كان يدفعني بقوة، غير أنه تميز بلطف لم أكن قد رأيتُه لدى أي من

المدرِّبين الآخرين؛ وبنوعٍ من الحزن أيضاً. فهو لم يكن يمزح مثل الآخرين، أو يضاهيهم ضحكاً. كان هناك نوع من العزوف في وجهه، نوع مما يشبه الفراغ. أصبحت مقتنعاً بأنه كان قد مر بتجربةٍ مرعبة، بأنه كان يسعى، عبر رعايته لي وللآخرين، إلى التماثل للشفاء أيضاً. إطراؤه كان يعني الشيء الكثير بالنسبة إليَّ جزئياً لأنني كنت أعرف أن ذلك كان يعني الشيء الكثير بالنسبة إليه هو أيضاً.

كنت أعشق التدريب. كنت أعشق جُلَّ الأشياء ذات العلاقة بالتدريب. كنت أعشق الشعور المصاحب للإمساك بالسلاح، للارتداد بعد إطلاق النار. كنت أعشق الإحساس بإتقان كل سلاح، معرفته معرفة كلية. وكنت أعشق الجلبة المصاحبة لحفلات الرمي. يا لها من جلبة! مجموعات كثيرة مختلفة كانت تطلق النار في الوقت نفسه؛ مجموعات على سائر مستويات التأهيل المختلفة. ثمة كانت مسدسات ورشاشات اقتحام وهاونات متفجرة على سفح الجبل. بدا الأمر كما لو كان المرء في حضرة جوقة، وكنت أحياناً أرتعش وأحمد الله الذي أوصلني إلى هنا.

لم نكن مطالبين قط باقتصاد الذخيرة، وكان على الدوام ثمة شيء جديد للتدرب عليه. كانت الذخائر مخزَّنة في كهوف قريبة من المعسكر. ثمة كان ما مجموعه ثلاثة كهوف للأسلحة، وقد دخلت اثنين منها. من الخارج كانا، كلاهما، يبدوان صغيرين، بعرض متر واحد فقط. كان يتعين علي دخول الفتحة زحفاً. أما في الداخل فكان الكهفان كبيرين جداً.

لم يكن الكهف الأول يحتوي إلا على الذخائر: الآلاف المؤلفة من مختلف أنواع الطلقات وقذائف المورتار. كانت جميعاً مخزَّنة في صناديق خشبية مدسوسة في الجدار بالقرب من سقف الكهف. أعداد كبيرة من الصناديق كانت مختومة بأرقام وكلمات بالروسية. أما الكهف الثاني فلم يكن يشتمل إلا على الألغام، جميع أنواع الألغام دون استثناء. ومثل الذخائر كانت الألغام أيضاً مخزَّنة

في صناديق، استطعت أن أميِّز من الكتابات أنها آتية بأكثريتها من روسيا، إيطاليا، والباكستان. بدا المخزون لانهائياً.

أيضاً كان هناك كهف ثالث، وهو الأكبر في المعسكر. غير أنه لم يُسمح لي بدخوله قط؛ كان محظَّراً على أكثرنا. ولهذا السبب بالذات، كنت شديد الرغبة في معرفة ما بداخله. كان المدربون ومعهم عدد قليل من الإخوان الآخرين أيضاً مخولين بدخوله. على الدوام كنت ألح على هؤلاء طالباً منهم إطلاعي على ما كانوا قد رأوه، ولكنهم درجوا على الكلام همساً قائلين إنه لم يكن مسموحاً لهم أن يتكلموا عن ذلك.

أحد أولئك الذين كان مسموحاً لهم بالدخول كان أخ مغربي يدعى عبد الحق. رأيته يدخل الكهف عدداً من المرات وأنا هناك، غير انه لم يتكلم عن الأمر قط. لم أكن أعرف عبد الحق جيداً على الإطلاق. كان صغير السن، في عشرينياته، إلا أنه كان قد فقد جزءاً كبيراً من شعره. كان الأقصر بين الإخوان في المعسكر. لعل الشيء الوحيد الذي كنت أعرفه عنه هو أنه كان، مع أخته، يعيش في لندن.

الليل

بعد الانتهاء من التدريب على السلاح، كنا نؤدي صلاة المغرب ثم نجتمع في المقصف. على الدوام كنا نتناول الطعام معاً. كان ثمة أفغانيان تَوَلَّيا مهمة إعداد الطعام لنا؛ كانا يقيمان في مكان بجانب المقصف، قريباً من مدخل المعسكر وخلف كوخهما مباشرةً، عند أسفل الجبل، كان هناك كوخ صغير لخبز الخبز. أحد الأفغانيين كان أصم وأبكم، غير أن ذلك لم يكن مشكلة على الإطلاق لأننا كنا ممنوعين بحزم من التكلم مع الأفغان.

تمثلت المشكلة بكون الطعام سيئاً للغاية، والطبق نفسه كل يوم. على الدوام كنا جائعين؛ ما من أحد إلا ونقص وزنه كثيراً منذ مجيئه إلى خالدان. لوَجْبَتَيْ

الغداء والعشاء كنا باستمرار نتناول نوعاً من الشوربة المخلوطة المصنوعة من البقول. نادراً ما كنا نتناول اللحم، رغم وجود أعداد من فراخ الدجاج المتراكضة حول بيت الطباخين، وقيامها بين الحين والآخر بطبخ أحد الفراخ، وهو الأمر الذي كنا نكتشفه من الرائحة.

في وقتٍ مبكر، لاحظت أن الجميع كانوا يضيفون كميات كبيرة من الملح إلى طعامهم. بدايةً اعتقدت أن الأمر لم يكن إلا لإخفاء المذاق. إلا أنني ما لبثت أن أدركت لاحقاً أن أجسامنا كانت بحاجة ماسة إلى المعادن. ففي غياب اللحم لم نكن نحصل على المغذيات التي كنا بحاجةٍ إليها لدعم ما كانت هذه الأجسام تبذله من جهد، وتتعرض له من عناء. دأب المدربون، بالطبع، على تذكيرنا بأننا ما كنا لنكون متمتعين بترف تناول اللحم على أرض المعركة أيضاً.

كان هناك، دائماً، درس ديني بعد العشاء. لم يكف الأمير والمدربون عن تذكيرنا المطّرد بأن هذا كان العنصر الأكثر أهمية في عملية الارتقاء إلى مرتبة مجاهد. فقبل الشروع في القتال في سبيل الله، تعين علينا أن نفهم ونستوعب ما كان سبحانه قد دعانا إلى فعله.

في بعض الليالي كنا نمارس التجويد وفي ليالٍ أخرى كنا نعكف على دراسة القرآن والحديث، جملة الأقوال والأفعال المأثورة عن النبي محمد ﷺ. أحياناً كان المدربون يتولون تعليمنا. وأحياناً أخرى، كان مجندون آخرون، عرب بأكثريتهم، لأنهم عموماً أعلى مستوى تعليمياً، يقومون بتعليمنا.

تعلّمنا أشياء كثيرة خلال هذه الدروس المسائية المنتظمة، غير أن الجزء الأكبر مما تعلمناه كان ذا علاقة بقوانين الجهاد وشرائعه. ثمة ما يزيد على مئة وخمسين آية في القرآن عن الجهاد، إضافةً إلى مئات الإشارات في الأحاديث النبوية. كنت قد قرأت الكثير من التبريرات في الأنصار لبعض أشنع الممارسات

الحربية. غير أنني لم أبدأ بالاطلاع، شخصياً، على ما كان القرآن يقوله فعلاً عن الجهاد، إلا بعد أن جئت إلى خالدان.

ثمة، بطبيعة الحال، سلسلة طويلة من أنواع الجهاد المختلفة. ثمة الجهاد الداخلي الذي يمارسه كل مسلم حقيقي دائماً. ثمة جهاد المعرفة والبحث العلمي. ثمة الجهاد باللسان الذي يأخذ جميع صنوف الأشكال. قد يعني التبشير، الهداية، كما رأيت عند جماعة التبليغ. أو قد يعني الدعوة السياسية الصريحة، عبر إلقاء المواعظ أو عن طريق مظاهرات الاحتجاج، أو حتى من خلال الدعاية الخالصة كما كانت تفعل نشرة الأنصار. ثمة الجهاد الذي يخاض بالأفعال، مثل القيام برحلة الحج إلى مكة، أو حتى تقديم التبرعات النقدية لدعم أسْمى آيات الجهاد الذي هو القتال في سبيل الله، وخوض الحرب المقدسة.

على نحوٍ شبه كلي كان كلامنا يبقى متركزاً على هذه الصيغة الأخيرة من الجهاد بالطبع. تعلمنا جميع قواعد الاشتباك. ينبغي تجنب القوة ما لم تكن ضرورية ضرورة مطلقة، وحتى في هذه الحالة يجب استخدامها بما يتناسب مع قوة العدو. أما حين تصبح القوة ضرورية، فإن أحداً لا يستطيع التهرب من واجبه. إذا ما تعرضت امرأة واحدة في الطرف الآخر من العالم للاغتصاب أو السبي، فإن على جميع المسلمين أن يتآزروا ويحتشدوا للقتال إلى أن يتم إنهاء الظلم. ذلك هو أمر الله.

وقبل القتال، يتعين على كل أخ أن يعد نفسه. أولاً وقبل كل شيء يجب أن يستعد روحياً. بالإيمان، يستطيع أي جيش أن يسحق عدواً متفوقاً عليه بعشرة أضعاف من حيث الحجم. كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين (البقرة: 249).

إن أنواعاً أخرى من الإعداد حيوية أيضاً. فأي مجاهد يجب أن يكون جاهزاً معنوياً وأخلاقياً؛ لابد له من التطهر من جميع الخطايا وإعداد نفسه للمثول بين

يدي الله نقياً. كذلك يجب أن يعد جسده ليكون على أعلى درجة ممكنة من القوة. ويتعين على كل أخ أن يتعلم كل شيء يستطيع تعلمه في مجالات العلوم والتكنولوجيا، حتى يكون تفوقه على العدو شاملاً وكلياً.

ولابد لأي مجاهد من أن يمتثل لجملة من القواعد الصارمة بعد دخوله ساحة المعركة. ذبح الأبرياء ممنوع. لا مجال للقتل دون تمييز، لقتل النساء والأطفال، للتمثيل بجثث العدو وتشويهها. لا مجال لهدم المدارس أو الكنائس أو شبكات الماء أو حتى مراعي المواشي. لا مجال لقتل كائن من كان وهو يصلي بصرف النظر عما إذا كانت الصلوات إسلامية أو مسيحية أو يهودية أو غيرها.

تعلمت مدى أهمية القتال في سبيل قضايا عادلة. يتعين على أي مجاهد أن يقاتل في سبيل الله فقط، لا من أجل الكسب المادي، ولا لأغراض سياسية. إنه يقاتل والحق في صفه، ويقاتل خدمة لخلق الله. وكلما زاد إيمانه بالله عمقاً، تضاعفت قدرته على تكريم صنع الله وتشريفه.

إن المؤمنين الصادقين هم أولئك الذين اشترى الله أرواحهم مقابل وعد الفردوس. "يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار. ومن يولهم يومئذ دُبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير." (الأنفال: 14 و15).

فوجئت بمدى دقة قواعد الجهاد في الحقيقة. أدق بما لا يقاس من أي مواثيق حقوق إنسان سبق للغرب أن حلم بها. في الحقيقة دأب مدرسونا، دونما كلل أو ملل، على تكرار أن هذه المبادئ هي التي تميز المسلمين عن غير المسلمين. فالكفار هم الذين يقتلون دون تمييز، على نحوٍ مخالف للشرائع. إنهم يدمرون مدناً كاملة، بل ويبيدون كتلاً سكانية إجمالية. إنهم يقصفون الكنائس والجوامع والمدارس.

قرانا عن البريطانيين والفرنسيين الذين قهروا الشعوب في أرجاء العالم كله وسرقوا أوطانها لصالح مستعمراتهم. قرأنا عن هتلر ومعسكرات اعتقاله. قرأنا عن كيفية قيام الأمريكيين بذبح الكوريين والفيتناميين. قرأنا عن هيروشيما وناغازاكي كما عن القصف السجادي نهاية الحرب العالمية الثانية. وبالطبع قرأنا أيضاً عن الأهوال التي اقترفها الإسرائيليون في فلسطين، إلا أننا جميعاً كنا نعرفها سلفاً. دأب الكفار على قتل وقصف وتدمير كل شيء في طريقهم. كانوا وحوشاً.

اطلاعي على هذا كله جعلني، بالطبع، أعيد النظر بما كنت أعرفه عن الحرب في الجزائر. كانت الجماعة الإسلامية المسلحة قد اقترفت عدداً كبيراً من الأشياء المحرمة في الشرع الإسلامي. كان أفراد الجماعة قد قتلوا المدنيين، بل وأعدموا مدارس كاملة بالرصاص. غير أنني ما لبثت، مع مرور الوقت، أن تعلمت شيئاً عن قوانين الجهاد: ثمة مجال. ثمة هامش في إطار حدود الشرع لجميع ألوان التفسير والتأويل.

ثمة هامش خصوصاً حين يكون الأمر متعلقاً بتحديد هويات الأعداء من جهة وهويات الأبرياء من الجهة المقابلة. يبدو الأمر بسيطاً بالطبع ـ فالأعداء هم أولئك الذين يحملون السلاح. غير أن تحديد العدو، وفقاً لشرائع الجهاد، يمكن توسيعه ليشمل سلسلة الإمداد من أولها إلى آخرها: ليشمل كل من يدعم العدو بالمال أو السلاح، أو حتى بالطعام والماء؛ حتى أولئك الذين يوفرون التأييد المعنوي ـ الإعلاميون الذين يكتبون دفاعاً عن قضية العدو، مثلاً. غير أنني رحت أتساءل: إلى أي مدى يمكن مد سلسلة الإمداد؟ ربما إلى كل من يدلي بصوته في انتخابات النظام المعادي؟ وماذا عن أولئك الذين لا يؤيِّدون أياً من الفريقين بالمطلق؟ ما المدى الذي يمكن بلوغه؟

عموماً يُعتقد أن النساء بريئات؛ غير أن من شأنهن، مع ذلك، أن يكن من الأعداء. إذا كانت امرأة معينة تصلي وتلتمس من الله حماية زوجها، فهي ليست من الأعداء. أما إذا كانت تصلي من أجله لتمكينه من قتل مسلم، فإنها منهم. يصح الأمر على الأولاد. أي صبي صغير يمكن إعفاؤه من تبعات صلواته؛ فهو أصغر من أن يكون مسؤولاً. أما إذا حمل طعاماً أو حتى رسالة إلى مقاتل من الأعداء، فإنه ينقلب، فوراً، إلى عدو.

أصبحت أدرك كيف يمكن لأي شخص أن يغدو عدواً حسب منطق أي متطرف.

الجمعة

أيام الجمع كانت مختلفة عن سائر الأيام. لم يكن ثمة أيُّ جَرْي، أي تدريب على السلاح. في الصباح كنا نكتفي بساعة رياضة في الباحة الموجودة أمام المعسكر. ثم كنا نعقد اجتماعاً في الساحة ويقوم الأمير بتقسيمنا إلى مجموعات. كان يكلف كل مجموعة بمهمة سخرة محددة: تنظيف المسجد، جمع الحطب اللازم لنار الطباخين، ملء خزانات الماء الكبيرة في المقصف. غير أن واحدة من المهمات لم يبادر الأمير قط إلى إحالتها على أحد: مهمة تنظيف التواليتات. بدلاً من التكليف كان يطلب متطوعين. لا أحد من الإخوان كان يرفع إصبعه بالمطلق، لقذارة العمل. كنت أنا استثناء.

كل ما كنا نفعله في المعسكر كان مستلهماً من مبادئ السنة، أشكال السلوك التي شرّعَتْها ممارسات النبي محمد ﷺ خلال سني ولايته. فالمسلمون يعتقدون أن هذه العادات لم تكن إلا من إملاءات الله المباشرة على النبي. والسنة تحدد قواعد معينة لكل جانب من جوانب الحياة اليومية بدءاً بطريقة إلقاء التحية على أحدهم وانتهاءً بالصحة والنظافة الشخصيتين.

لعل أبا هريرة هو الصحابي الأكثر تزويداً للمقتبسين بالأحاديث. وهو يروي أن من المقبول أن يلوذ المرء، حين يكون مسافراً في الصحراء أو مفتقراً إلى الماء، بالحصى وسيلة لتنظيف نفسه. يقول ما معناه إن رسول الله (عليه الصلاة والسلام) قال: إذا قام المرء بمسح مؤخرته بالحصى (بعد قضاء الحاجة التي تفرضها الطبيعة)، فإن عليه أن يستعمل عدداً مفرداً من قطع الحجر. وبالتالي فإن الحمامات (التواليتات) كانت ملأى بالحصى. نعم بالحصى أي بقطع الحجر المغطاة بالغائط.

من المؤكد أنني لم أكن مستمتعاً بتنظيف الحمامات، إلا أنني كنت أستطيع إنجاز العملية بسرعة فائقة.

لم تكن تستغرق مني عملية كنس الحصى في كل حمام ثم شطفها بسطول من ماء النهر سوى خمس عشرة دقيقة. وبعد الانتهاء كان يبقى لدي وقت أقضيه وحدي. كنت أستطيع القراءة أو الاستماع إلى الراديو، أو مجرد مراقبة الآخرين وهم ينقلون الحطب والسطول الثقيلة. تلك الأعمال كانت تستغرق ساعات. درجت على التطوع لتنظيف التواليتات أسبوعياً.

وبعد إنجاز مهمات السخرة كنا جميعاً نغتسل ونغسل ملابسنا في النهر. كنت على الدوام شديد الحرص على غسل كيس نومي. فالأكياس كانت عتيقة وملطخة، وكنت أعرف السبب. ففي الأفلام عن الحرب السوفيتية ـ الأفغانية، كنت قد رأيت المجاهدين وهم يرحّلون الجثث من أرض المعركة. كثيراً ما كانت الجثث ملفوفة بأكياس النوم. ومنذ ذلك التاريخ كانت هذه الأكياس قد استُخدمت من قبل أعداد كبيرة من المجاهدين. وبالتالي لم يكن غريباً أن يكون عدد كبير من الإخوان قد أصيبوا خلال فترة وجودهم في خالدان بأصناف مرعبة من الالتهابات والأمراض الجلدية.

كان يوم الجمعة يوم الاجتماع. بدلاً من إقامة صلاة الظهر، كنا نجتمع في المسجد لسماع الموعظة أو الخطبة. أحياناً كان أحد المدربين يتولى الخطابة. كثيراً ما كان أبو سهيل وأبو همام يخطبان، ولكن أحد المتدربين كان في مرات موازية يتولى مهمة الخطابة. لم يكن أحد مختاراً خطيباً؛ كان الجميع يستطيعون أن يحضّروا خُطَباً ويتطوعوا. ومع ذلك فإن العرب كانوا، عموماً، هم الذين يتقدمون للاضطلاع بالمهمة. كانوا أكثر رسوخاً عقائدياً من الآخرين، وأعلى درجة تعليمية.

أحياناً كانت الخطب عن تاريخ الإسلام. كان إخوان يتحدثون عن أئمة مهمين وذوي تأثير، مثلاً. إلا أن المواعظ كانت في الغالب سياسية، عن مختلف ألوان الجهاد التي كان المسلمون يخوضونها في طول العالم وعرضه، عن سَطْو الكفار على أراضي المسلمين.

في المساء، بعد الخطاب، كنا نجتمع للمناقشة. كنا نستطيع أن نسأل الخطيب عن أي شيء كان قد قاله، حتى ولو كان الأمير هو من ألقى خطبة ذلك اليوم. كان أحد أكثر الأمور إثارةً للدهشة في المعسكر: الجميع كانوا متساوين. بالطبع كان يتعين علينا أن نطيع الأمير حين يعطينا أوامر محددة، غير أننا كنا نُمَكَّن على الدوام، إذ ما بدا أمر ما غريباً أو غير عقلاني، من تحديه ومطالبته بالتفسير. كان هذا ينطبق على الجميع؛ كنا نستطيع أن نعارض ونناقض ونناقش كلما شعرنا بالحاجة إلى مثل هذه المحاججات التي كانت تدوم ساعات وساعات. لم يكن ثمة أي تنظيم تراتبي حقيقي، أي شعور بالمرجعية، أي إحساس بالخضوع. لعله المكان الأكثر ديمقراطية الذي سبق لي أن كنت فيه.

في أماسي أيام الجمعة، كان أبو سهيل يعقد حلقات بحث ودروساً حول فقه سيد قطب، ذلك الفقيه المصري المعروف، وعقيدته. كنت دائم الحضور. كان أبو سهيل يقرأ علينا من مؤلفات الفقيه، ولاسيما من في ظلال القرآن ومعالم في الطريق، وهما أهم كتبه.

كنت مسحوراً بهذه الدروس، بالأسلوب اللطيف الذي كان أبو سهيل يعتمده في تعليمنا، ولكن أيضاً وهذا أهم، بالأفكار. فلدى قطب سمعت اللغة المنطوية، بنظري، على معنى. أذهلتني كتاباته بوصفها ذهنية بشراسة؛ كان قطب باحثاً حقيقياً. تحدث أبو سهيل عن أن قُطباً كان قد تابع دراسته الجامعية في القاهرة، بل وكان قد حصل حتى على شهادة ماجستير من إحدى الجامعات في أمريكا. كان عميق الاحترام لتعاليم الإسلام، ولكنه كان قادراً على الكتابة عن تلك التعاليم بأسلوب بدا حديثاً وواقعياً. كتب عن العالم الذي كنت أعيش فيه، لا عن عالم ما قبل قرون.

كتب قطب عن الإسلام بوصفه شيئاً أكثر من دين. بنظره كان الإسلام نظاماً اجتماعياً كاملاً مشتملاً على كل ما هو موجود في العالم. فقط عبر الخضوع الكامل لله كنا قادرين على حل مشكلات الأرض - مشكلات الجهل والظلم والفقر. كانت فلسفته ذات شحنة سياسية عالية. كان الله سيده الوحيد. حُكم الدين كان الشكل الشرعي الوحيد للحكم؛ كل ما عدا ذلك لم يكن إلا طاغوتاً. وقد تعين على المسلمين المقيمين في بلدان ذات حكومات علمانية أن يقاوموا تلك الحكومات. كان قطب مؤمناً بالثورة.

شرح لنا أبو سهيل كيف كان سيد قطب قد عاش وفقاً لمعتقداته. ففي 1948، في أعقاب المهانة التي لحقت بمصر في الحرب العربية - الإسرائيلية، بادر ضابط شاب في الجيش يدعى جمال عبد الناصر إلى تشكيل حركة عُرفت باسم حركة الضباط الأحرار بهدف إطاحة النظام الملكي. وفي 1952 نجح الضابط في تحقيق الهدف. بداية سارع قطب إلى تأييد عبد الناصر فعُيِّن مستشاراً ثقافياً لمجلس قيادة الثورة في الحكومة الجديدة. ولكن العلاقة سرعان ما أصبحت مشحونة بالمرارة. كان قطب، مثل كثيرين غيره، قد توقع من عبد الناصر إقامة دولة إسلامية. وحين لم يفعل، بادر قطب إلى نقل تأييده إلى حركة الإخوان المسلمين الأكثر ثورية التي كانت تعارض عبد الناصر.

في 1954، حين أقدم أحد أعضاء حركة الإخوان المسلمين على محاولة اغتيال عبد الناصر، قامت الحكومة بحَظْر المنظمة. سُجن قطب مع آخرين كثر. تلك هي الفترة التي كتب فيها كلاً من كتابي في ظلال القرآن ومعالم في الطريق. بعد عشر سنوات أُطلق سراح قطب من السجن. إلا أنه ما لبث أن اعتُقل من جديد بعد أشهر قليلة فقط، في آب/أغسطس 1964 وحوكم محاكمة صورية. حُكم عليه بالإعدام وأُعدم شنقاً عام 1966. قضى شهيداً في سبيل عقيدته.

لم يكن عندنا كهرباء في خالدان، بالطبع، وبالتالي فإن الإنارة كانت بمصابيح الكاز أو الشموع في الليل. لذا فإن ظهور جهاز للتلفزيون، بعد أشهر من وصولي، فاجأني. ظهر الجهاز ذات يوم جمعة مربوطاً بمولد ديزل.

تلك الليلة شاهدنا عدداً من الخطب من إلقاء عبد الله عزام. وعزام هذا كان، كما قيل لنا، قد وُلد في الضفة الغربية ولكنه هاجر إلى الأردن بعد النكسة (المعروفة في الغرب باسم حرب الأيام الستة) في 1967. التحق بالجهاد ضد الاحتلال الإسرائيلي، ثم تابع دراسته للحصول على الدكتوراه من جامعة القاهرة حيث أصبح صديقاً لعائلة سيد قطب.

مع انقضاء سبعينيات القرن العشرين، نأى عزام بنفسه عن الجهاد الفلسطيني وانتقل إلى العربية السعودية. راح يركز على الجهاد العالمي بدلاً من نظيره المحلي، وبات مقتنعاً بحاجة الأمة (الإسلامية) إلى قوة عسكرية منظمة لدحر الكفار. وحين أقدم السوفييت على اجتياح أفغانستان، هاجر إلى الباكستان مع عائلته ليكون أكثر قرباً من القتال.

ما لبث عزام أن استقر في بيشاور، حيث أسس مكتب الخدمات، منظمة مكرسة لمساعدة المجاهدين المنخرطين في معارك القتال ضد السوفييت عبر الحدود في أفغانستان، ولتدريب المجندين الجدد الذين كانوا يتدفقون على

الباكستان من بلدانٍ أخرى. كذلك قام بزيارة أفغانستان ليكون شاهداً على بطولة المجاهدين.

وقبل اغتياله في 1989، أصبح عزام أحد أهم وأبرز الدعاة الداعين إلى الجهاد. ومن خلال كتبه وتعاليمه بقي حياً في قلوب عدد كبير من المسلمين، ولاسيما الشباب، في طول العالم وعرضه.

فيما كنا نتابع الأشرطة تلك الليلة استطعت أن أهتدي إلى السبب. كان شديد العمق والتعقيد ولكنه كان حماسياً وملتهباً في الوقت نفسه. كان يتحدث عن تدمير إسرائيل، وعن الجهاد العالمي. إلا أن تصريحاً واحداً كان بالغ الأثر في نفسي. فقد أعلن: 'إن عشق الجهاد قد استولى على حياتي، على روحي، على مشاعري، على قلبي، وعلى عواطفي. إذا كان الاستعداد إرهاباً، فنحن إرهابيون.'

باستمرار بقيت صلاة الجمعة الأكثف بين أحداث الأسبوع. فبعد أسبوع كامل من الجري والكفاح والعمل مع إخواننا، كنا يوم الجمعة نلتقي لنرتاح ونعبد الله كما لو كنا شخصاً واحداً. أحياناً كان هذا الأخ أو ذلك يتأثر عاطفياً فتنهمر الدموع من عينيه.

أنا أيضاً كنت أتأثر. واقفاً بين هؤلاء المجاهدين كنتُ أستطيع أن أشعر بروح الله مالئة كياني كله. كنت أنجرف مثل الآخرين بسيل مشاعر الحب والمودة والأُخُوَّة. كنت فرداً في عائلة، عضواً في جماعة، جماعة كرَّسَتْ نفسها لله.

مع مرور الأسابيع، صار الانفصال عن إخواني أكثر صعوبة بالنسبة إلي. إنَّ تذكر حقيقة أنني لم أكن واحداً منهم، أنني كنت جاسوساً، أصبح يتطلب جهداً أكبر ليلة بعد ليلة.

عبد الكريم

ثمة كان جزائريان اثنان فقط في خالدان في أثناء وجودي هناك. أحدهما، عبد الكريم، كان في فرقتي لدراسة التجويد المسائية، وكان أيضاً ينام في المهجع نفسه معي. مثلي أنا، لم يكن قد جاء مع جماعة؛ كان وحده. لغته العربية كانت بائسة، أسوأ من لغتي أنا بكثير. إلا أن لغته الفرنسية كانت ممتازة.

لدى وصولي الأول إلى المعسكر، كان هناك جزائري آخر أيضاً، وهو أبو جعفر الذي كان أكبر قليلاً في السن من عبد الكريم. رأيتهما يتحدثان معاً عدداً من المرات، ولكن أبا جعفر ما لبث أن رحل فبقي عبد الكريم وحيداً من جديد.

ذات يوم جمعة، أوائل الصيف، أنهيت تنظيف التواليتات مبكراً وتوجهت إلى المدخل الشمالي للمعسكر، بعيداً عن المقصف في أعلى النهر. كان ثمة شلال صغير متدفق من جوف أحد الجبال حيث كنا نملأ أواني مياه شربنا. كنت قد جلبت مطرتي لأملأها؛ كان يوماً حاراً جداً.

في طريقي إلى الشلال، مررت بالجامع ورأيت عبد الكريم جالساً وحده تحت شجرة. لوحت له وسألته عما إذا كان يريد أن أجلب له بعض الماء. ابتسم وقال: 'نعم، من فضلك' وناولني مَطَرَتَه.

ذلك النوع من الإيحاء كنا نُقَدم عليه باستمرار في المعسكر. كنا مهتمين بعضنا بالبعض الآخر لأننا كنا هناك للسبب نفسه. كنا نجلب لبعضنا الطعام والماء وندعم بعضنا في حالات الضعف أو التعب أو المرض. حين كان أحد الإخوان يغادر المعسكر، كان يترك جُلَّ ما بحوزته وراءه: معطفه، حذاءه، مذياعه. كل ما لديه كان يقدمه إلى إخوانه.

عندما عدت إلى الجامع واقتربت من عبد الكريم، رأيت موقداً صغيراً أمامه. كان يغلي ماء في إناء. ثمة كان مرطبان بجانب الموقد: مرطبان نسكافه.

لم أكن قد ذقت طعم القهوة منذ كنت في بيشاور - لم نكن نتناول سوى الشاي المُرّعب مع الفطور - فبدأ لعابي يسيل.

ثم ما لبثت أن لاحظت شيئاً آخر. كان عبد الكريم عاكفاً على تنظيف كلاشنكوفه، وكان يفعل ذلك بطريقة خاطئة كلياً. كنت اعرف أن عبد الكريم كان يعرف كيف ينظف سلاحه. أنا لم أكن قد استلمت كلاشنكوفي بعد، إلا أن إدوار كان قد علمني كيف أنظف سلاحاً، أي سلاح، وكنت قد مارست ذلك مئات المرات.

غير أن إدراك أن عبد الكريم لم يكن يمسح رشاشه بطريقةٍ صحيحة لم يكن يتطلب اختصاصياً. كان يكشطه بورق الزجاج. لعل هذا هو أحد أسوأ الأشياء الممكنة التي يمكن لأي سلاح أن يتعرض له، لأنه يترك خدشات صغيرة على المعدن داخل الرشاش من شأنها أن تجمع الرطوبة التي تؤدي إلى الصدأ. وأي رشاش صدئ من شأنه أن يستعصي، أو يكبو.

كل شيء حول هذا بدا لي خطأ. على الدوام كان يتم تلقيننا بأن نتعامل مع أي قطعة سلاح بقدرٍ كبير من الاحترام، لأن الإخوان الآخرين الذين كانوا سيأتون بعدنا، كانوا سيستخدمون المعدات نفسها. كان عبد الكريم يتصرف تصرفاً مفرطاً في أنانيته. وقد استطعت أن أفهم من حركات يديه الوجلة ونظراته المرتابة أنه كان يعرف ما كان يقترفه من إثم. كان ثمة نوع من المكر والمراوغة في حركاته. من الواضح أنه كان شديد التوتر.

جلست إلى جانبه. قلت: 'أيها الأخ، ليست تلك الطريقة الصحيحة لمسح أي سلاح أو تنظيفه.' مددت يدي. 'هات، دعني أبين لك كيف.'

غمغم: 'أعرف الطريقة. لم أعد أبالي. مهما فعلتُ لن أستطيع إرضاء أبي بكر. سيبقى الرشاش دون مستوى إرضاء أبي بكر.'

ابتسمت. كنت أعلم أن من شأن المدرب أن يغدو أكثر تشدداً وقسوة كلما قطعت عملية التدريب شوطاً أبعد. ولاسيما فيما يتعلق بصيانة الأسلحة. ففي المراحل المتأخرة من التدريب ـ التدريب التكتيكي ـ كان الإخوان يطلقون النار على نحوٍ مطّرد. وكلما تكاثرت جولات الرمي كان من شأن الأسلحة أن تتسخ أكثر. فيُمْضي المدربون وقتاً أطول وهم يعاينونها للتأكد من تحلّي المجندين بالحرص على صيانة أسلحتهم.

تركت موضوع الأسلحة. كنت أريد فنجان قهوة فطلبته منه. لبى طلبي بالطبع، ولكنه رجاني ألا أُخبر أحداً. كان الوحيد المسموح له باحتساء النسكافه في المعسكر، وكان الأمير قد طلب منه أن يُبْقي الأمر سراً.

كانت مادة النسكافه قد أفادتني بمعلومة معينة: علمت أن عبد الكريم كان شخصاً مهماً. لم يكن ثمة أي امتيازات خاصة في المعسكر، ولا أي أسرار. إذا ما كان مسموحاً له باحتساء القهوة فيما الآخرون محرومون منها، فلعل من شبه المؤكد أن هناك شيئاً جعله ذات قيمة غير عادية.

كان عبد الكريم تواقاً للكلام. وبسبب ضعف لغته العربية لم يكن يستطيع التحدث مع معظم الإخوان الآخرين. أما أنا فكنت، حسب كلامه، أتكلم الفرنسية مثله، وقد أسعده ذلك. بسرعة فائقة، بدأ يتكلم عن الجماعة الإسلامية المسلحة. وما لبث أن وصل إلى موضوع الأنصار. ذكّرته بعدم جواز الكلام عن حيواتنا السابقة، غير أنه لم يستطع الالتزام. كان الكلام يتدفق منه، واستطعت أن أرى من حركات يديه أنه كان يزداد انفعالاً باطراد. عيناه كانتا تتحركان بسرعة يميناً وشمالاً، كما لو كان خائفاً من شيء معين.

ثم التفتَ إليَّ على نحوٍ مفاجئ وراح يرغي فيما بدأت عيناه تتسعان وتجحظان من محجريهما قائلاً: "أنت، نعم أنت جاسوس. أنا أعرف ذلك. الفرنسيون بعثوك للتجسس عليّ".

كاد قلبي يتوقف عن الخفقان. كيف عرف؟ ما الذي كنت سأفعله؟ كان جالساً والكلاشنكوف في حضنه. وأنا أعزل. كنا وحدنا، على مسافة مئات الأمتار من الإخوان الآخرين. راح عقلي يدور بسرعة ـ تعين علي أن أقول شيئاً.

قلت وأنا أضحك: "سارع إلى استغفار الله أيها الأخ! هل تظن أنك على هذه الدرجة من الأهمية حتى يبالي الفرنسيون بإيفاد عميل إلى أفغانستان البعيدة من أجلك أنت؟" ثم وقفت.

قال: "لا، بالطبع لا. أنا آسف. أرجوك تعال. اجلس واشرب بعض القهوة معي." راح يشرح أنه كان قد عاش في خوف وهو في فرنسا، أنه كان ملاحقاً ومراقباً باستمرار. وحين سمعني متحدثاً بالفرنسية عن الجماعة تذكر كل ما كان قد سبق أن تعرض له وعانى منه.

عدت إلى الجلوس وضحكت بيني وبين نفسي. كنت واثقاً من أن هذا الزبون لم يكن مستعداً لإفلات الشخص الوحيد الذي كان يستطيع أن يتحدث معه في المعسكر كله.

كان عبد الكريم مختلفاً عن جميع الآخرين في خالدان، كان ذلك واضحاً. في البداية تساءلت عما إذا كان مدمن هيروئين. كنت قد رأيت مدمني هيروئين في شوارع المغرب، مما جعلني قادراً على تمييز وجوههم وحركاتهم إضافةً إلى جنون الارتياب العميق في عيونهم. بالطبع، لم يكن ثمة أي مخدرات في المعسكرات، وقد تساءلت عما إذا كان قد سُمح له باحتساء النسكافه تخفيفاً لشدة معاناة الإقلاع.

بصرف النظر عما إذا كنت على صواب أم لا حول هذا الأمر، فإن من المؤكد أن عبد الكريم كان استثناء من سائر ألوان القواعد والضوابط مثل التوعات الجامحة في نبرة كلامه، الحركات العصبية، التأرجحات المزاجية السريعة، فيض

المعلومات المتدفق منه دون أي التماس أو طلب. كان من شأن أي أخ آخر أن يتعرض للطرد من المعسكر بسبب واحد من هذه العيوب. ومع أن بعض الوقت كان يجب أن ينقضي قبل أن أفهم السبب، فقد أيقنت، حتى في هذا الوقت المبكر، أن عبد الكريم كان سيبقى شخصاً بالغ الإثارة. كان ثمة سبب وراء السماح له بالبقاء.

في ذلك اليوم، كما في الأيام التالية، صرت أعرف المزيد عن عبد الكريم. كان أكثرُ كلامه عن الجماعة.' والجماعة، مثلها مثل اللغة الفرنسية، كانت مسألة مشتركة بيننا.

أخبرني عبد الكريم أن له زوجاً في فرنسا. كان عازماً على الطلاق بسبب عدم تدينها. غير أنهما كانا أبوين لابنة، وكانت الزوج قد أخذتها عند افتراقهما. كان يريد استرجاع البنت ليتمكن من تنشئتها نشأة إسلامية قويمة.

فيما بعد، كان سيتحدث أكثر عن السياسة. اتضح لي أن عبد الكريم كان متطرفاً حقيقياً، متطرفاً خالصاً مئة بالمئة. ما أكثر ما كان يقول لي: 'إن شاء الله ستغدو فرنسا مسلمة ذات يوم.' ثم تحذو أوروبا حذو فرنسا، فيتم تكنيس الكفار من القارة.

ذات يوم، تحدثنا عن المداهمات في أوروبا. كنت شديد الرغبة في اكتشاف ما كان يعرفه، إلا أنني لم أكن قادراً على سؤاله مباشرة. ولكن لم يكن ثمة أي داعٍ للسؤال مع عبد الكريم؛ ما لبث أن قفز إلى قلب الموضوع تلقائياً. شكا بصخب من مدى هول المداهمات وبعدها عن الإنصاف. وافقته وأومأت معبراً عن التعاطف، حدثته عن تجربتي الخاصة، عن أن الشرطة كانت قد داهمت بيت أمي واعتقلت أخي، وحاولت أن تلقي القبض علي أنا أيضاً.

ومن ثم سألته، ببراءة: 'من الذي أبلغ الشرطة؟ هل لديك أي فكرة؟'

ربما كنت قد عانيت من القلق لو اضطررت إلى انتظار جوابه. غير أنني لم اضطر. مباشرةً زودني عبد الكريم باسم فرنسي من أصل جزائري لم يكن قد سبق لي أن سمعت عنه. شعرت بقدرٍ كبير من الارتياح لسماع ذلك. ربما كنت آمناً آخر المطاف.

مع مرور الزمن، تطور بيني وبين عبد الكريم نوع من الصداقة. صرنا نقضي فترات طويلة من الوقت ونحن نتحدث بالفرنسية ونحتسي القهوة. كان جميلاً بالنسبة إلي أنا أيضاً أن أجد شخصاً كان يتكلم لغتي الأصلية ويفهم العالم الذي كنت قد جئت منه.

ذات ليلة، كنا، عبد الكريم وأنا، جالسين وحدنا أمام الجامع. كنا حريصين على اللقاء في غياب الآخرين؛ لم نكن نريد أن يرى الآخرون احتساءنا للنسكافه. وعلى حين غرة سمعنا جلبة. كان الصوت منبعثاً من محطة البث الإذاعية، ذلك المبنى الصغير القريب من المقصف حيث كان المدربون يجتمعون ليلاً.

بام.

نهضنا، كلانا، واقفين ورأينا أحدهم يطلق النار في الهواء من كلاشنكوفه. بام بام بام بام. ثمة كانت رشقات عديدة من بنادق كثيرة في وقتٍ واحد، مع أصوات أناس محتفلين. سمعنا وقع أقدام جارية نحونا، وسرعان ما ظهر أحد المدربين. قال: 'افتحوا الراديو. كان ثمة هجوم في باريس'.

أدرنا مفتاح الراديو وسمعنا التقارير المذاعة عبر الإذاعة الفرنسية الدولية (راديو فرانس انترناسيونال). قبل ساعة فقط، كانت قنبلة قد انفجرت في إحدى عربات قطار الآر إي آر (RER) السريع تحت محطة سان ميشيل القريبة من نوتردام. ثمة كانت ضحايا مؤكدة، وأخرى إضافية متوقعة. وكان هناك مئات الجرحى، كانت الفوضى سائدة.

ثمة آخرون كانوا قد سمعوا أصوات إطلاق النار وخرجوا مسرعين لينضموا إلينا. كنا نحتفل في الساحة الواقعة أمام الجامع. ما من أحد كان يتفوه بكلمة واحدة عن الجماعة الإسلامية المسلحة لأننا كنا ممنوعين من ذلك. ما من أحد إلا وأدرك فوراً أن الجماعة كانت هي المسؤولة.

كان عبد الكريم مشرقاً؛ كان يهتف: 'ما شاء الله! توت لا فرانس ديفندرا موسلمان (فرنسا كلها ستصبح مسلمة)'. نظر إليَّ مكشراً وكرر هتافه. فرنسا كلها ستكون مسلمة.

علقت: 'إن شاء الله، إن شاء الله يا أخ!' ثم أجبرت نفسي على الابتسام.

في الأيام والأشهر القادمة كنا سنطلع على المزيد من المعلومات عن التفجيرات. قُتل ثمانية أشخاص، وجُرح المئات. كانت الحلقة الأولى في سلسلة هجمات جرت في فرنسا ذلك الصيف. في آب/أغسطس، انفجرت قنبلة بالقرب من قوس النصر. وفي الشهر نفسه اكتشف البوليس قنبلة على سكة القطار خارج ليون. قنبلة ثالثة انفجرت في مدرسة يهودية بليون. وفي شهر تشرين الأول/أكتوبر تم تفجير عبوتين ناسفتين في اثنتين من محطات القطارات بباريس. عشرات الناس جُرحوا في أثناء حملة التفجيرات غير أن أحداً لم يُقتل لحسن الحظ بعد الانفجار الأول في السان ميشيل.

أمضيت فترة طويلة من الوقت وأنا أفكر بالتفجير الحاصل في باريس، وبرد فعل الآخرين في المعسكر. ثمة أمر صعقني على نحوٍ خاص: لم يخطر ببال أحد أن يسأل عن ركاب القطار. من المؤكد أن هؤلاء كانوا أبناء سبيل أبرياء - لا أعداء؟ ما تبرير مثل هذا النوع من الهجوم؟

أبو بكر

من المؤكد أن أبا بكر كان استثنائياً؛ أحياناً كان يبدو فوق البشر. وكلما راقبته أكثر ازددت إعجاباً بانضباطه كما بقوته ولياقته البدنيتين. كان دائم

الحركة؛ في كل دقيقة كان يقظاً، كان عاكفاً على التدريب. خلال المواعظ، كنتُ أتابعه وهو يلعب بأصابعه بصمت، لاوياً إياها إلى الأمام وإلى الخلف لجعلها أكثر مرونة. كان يستطيع ثنيها كثيراً إلى درجة أن أظافره كانت توشك على ملامسة رسغيه. مرة شاهدت أبا بكر وهو يقفز عن صخرة بارتفاع لا يقل عن سبعة أمتار. لم يجفل حين قفز، وحين وصل إلى الأرض لم يقلّص جَسَده أو يتكور ويتدحرج مثل الآخرين. اكتفى بثني ركبتيه قليلاً ثم مشى. عدد من الإخوان حَذَوا حذوه وقفزوا عن الصخرة في ذلك اليوم، وكثيرون كسروا سيقانهم وكواحلهم. اثنان منهم بقوا مجبصنين مدة أسابيع.

على الرغم من أننا لم نكن مخوَّلين بالتكلم مع بعضنا عن أي شيء خارج المعسكر، فكثيراً ما كنا نفعل. أشياء كثيرة عن أبي بكر عرفتها بهذه الطريقة. عرفت أنه كان أردنياً ذا أصل فلسطيني. عرفت أنه كان أميراً للمعسكر أحياناً فقط، خلال فترات غياب ابن الشيخ. عرفت أنه كان استثنائي الجرأة. لم يكُف الإخوان عن الحديث المطّرد عن شجاعته في معارك بطاجكستان وكشمير.

لم أتدرب مع أبي بكر قط، لأنه كان، معظم الوقت، مشغولاً بتدريب مجندين للقيام بعمليات خاصة. أكثر الرجال الآتين إلى المعسكرات كانوا يبقون ستة أو سبعة أشهر، لاتباع دورة تدريبية كاملة. غير أن مجموعات كان من شأنها أن تأتي أحياناً لقضاء فترة أسبوعين فقط للتدرب على تنفيذ مهمات محددة.

غير أن أبا بكر كان أحياناً يتولى إدارة تدريبات وتمارين خاصة لمجمل المعسكر. كان يعشق قيادة مسيرات الجري الليلية بين الجبال. عدداً من المرات خلال أشهر وجودي في خالدان، أمرنا أن نستيقظ منتصف الليل.اجتمعنا في الساحة، ثم اندفع قفزاً إلى الجبال في قلب الظلام الدامس وما كان لنا إلا أن نتبعه.

كنت أمقت جميع أشكال الجَرْي، إلا أني كنت أشد كرهاً لمسيرات الجري الليلية. على الدوام كنت أتعب وأضيع. هذا وكانت الليالي باردة، حتى في الصيف. وقد زادت سوءاً مع اقترابنا من الخريف. كذلك كانت عمليات الجري خطرة. في العديد من الليالي كانت السماء ملبدة بالغيوم فنبقى محرومين حتى من ضوء القمر والنجوم لهدايتنا. لم نكن نستطيع أن نرى شيئاً على الإطلاق؛ كنا مضطرين للاكتفاء بهداية صوت الإخوان أمامنا. كثيراً ما كنا نجري في ممرات ضيقة معلقة على سفوح الجبال. في أي لحظة كان خطر السقوط في الهاوية السحيقة ماثلاً. خطوة واحدة خاطئة كان من شأنها أن تفضي إلى الموت.

ذات ليلة، كانت السماء استثنائية الصفاء وقادنا أبو بكر في مسيرة جَرْي ليلية إلى قلب تضاريس الجبال. تابعنا الجري نحو ساعة كاملة في ضوء القمر إلى أن وصلنا إلى هضبة مستوية، وما لبث أن أوقفنا. سأل: "هل يستطيع أحد أن يشير إلى اتجاه القبلة (مكة)؟" عشرات المجندين رفعوا أيديهم وأشاروا إلى جهات مختلفة. بقي أبو بكر غير متأثر.

رفعت يدي. قلت: "إنها في الاتجاه المعاكس لمكان بزوغ القمر." كنت أعرف أنه لم يكن يريد معرفة موقع مكة. بل كان يريد أن يقف على طريقة عمل عقولنا. كنت أعرف أشياء كثيرة عن الكواكب بسبب ولعي الطفولي المهووس بالخيال العلمي، الذي كان قد تطور إلى اهتمام أعم بالعلوم خلال فترة وجودي في باريس وبروكسل. كنت أعرف أن الشمس، مثلها مثل القمر، كانت تشرق من الشرق. ولأننا كنا في أفغانستان فإن مكة كانت في الغرب. عندما شرحت هذا للإخوان، أومأ أبو بكر وهتف: "ما شاء الله يا أبا إمام! إنه جواب جيد."

بعد انتهاء أبي بكر من اختباره، انطلق إلى الجري من جديد وتبعناه. بعد نحو نصف ساعة، أوقفنا مرة أخرى. راح يشرح لنا ونحن مندسون أحدنا بالآخر في جو الليل البارد قائلاً: "حين أقول "اختبئوا!" أريدكم أن تنبطحوا على الأرض

فوراً. عندكم خمس ثوانٍ." ثم بيَّنَ مدى أهمية الاختباء لدى سماع هدير أي حوامة في الجو، ومدى تضاؤل احتمال الاهتداء إلينا إذا ما انتشرنا على أوسع نطاق ممكن. لابد من ترك ما لا يقل من مسافة خمسة أمتار بين العنصر وزميله. ولعل الأمتار العشرة هي المسافة المثالية.

ثم انطلق يعدو من جديد. وتابع العدو. دام ذلك ما لا يقل عن خمس وأربعين دقيقة قبل أن يعطينا الإشارة. وما إن فعل حتى انبطحنا أرضاً. ربما سقطنا قريبين من بعضنا أكثر مما كان ينبغي، غير أن الظلام كان دامساً مما جعل الرؤية متعذرة. كانت ثمة هاوية إلى الجهة اليمنى، وبالتالي فإن أحداً لم يكن يريد أن يبالغ في الجري بعيداً عن الجماعة. أضف إلى ذلك أننا كنا نجري في تشكيلة محكمة من البداية، حيث لم يكن يفصل بين الأخ والأخ سوى قدمين اثنتين، مما أبقى الإكثار من التباعد أمراً صعباً.

لم يكن قد مضى على انبطاحي سوى ثانيتين حين سمعت أزيزاً حاداً وشعرت بشيء يطن ماراً بكتفي الأيمن. ثم صوت آخر، وشيء يضرب الأرض على يميني مباشرةً فيثير الغبار. فجأة أدركت أنهما كانتا رصاصتين. كان أبو بكر ينبهني بالطلقات النارية.

ثم سمعت صوتاً ينادي باسمي. خلعت وجهي عن الأرض. ونظرت. كان أبو بكر واقفاً عند رأسي مباشرة. تات. تات. أطلق رصاصتين أخريين مَرّتا على مسافة بوصات قليلة عن كتفي. أوعز: "تحركْ يا أبا إمام. أنت قريب جداً من أخيك، لا يجوز." وبعد ذلك دار وانتقل إلى التالي، وراح يطلق النار قريباً منه.

لاحقاً في الليلة ذاتها، فعلها مرة أخرى. كنا نجري منذ ما مجموعه أكثر من خمس ساعات، حين أعطى الإشارة. كان الجميع مهدودين من التعب. بضعة إخوان لم ينبطحوا على الإطلاق؛ كانوا قد نسوا التعليمات.

تات ـ تات ـ تات ـ تات. على الفور بدأ أبو بكر يطلق النار باتجاه الرجال الذين ظلوا واقفين. كانت الرصاصات تتطاير عن يمينهم وشمالهم؛ بعضها اقترب مسافة ستة سنتيمترات. استطعت أن أرى أن بعضهم كانوا قد شُلوا تماماً من الخوف.

إلا أنني أصبحت الآن على يقين بأن أي رصاصة من بندقية أبي بكر لم تكن لتصيب أي أخ مطلقاً. كان رامياً ممتازاً، كلي الثقة بمهارته. تلك كانت طريقته اللطيفة لتذكيرنا بضرورة الامتثال لأوامره.

كان أبو بكر كمالياً (بمعنى نُشْدان الكمال) في كل ما كان يفعله. كذلك كان شديد النزعة الانضباطية. ذات يوم، رأيت بعض الرجال من الفريق الذي كان يدربه يزحفون مع مجرى النهر. كان الخريف قد قطع شوطاً، وكان الماء شديد البرودة. ولكنهم كانوا في الماء رافعين كلاشنكوفاتهم أمامهم مبحرين بين الصخور وعبر الماء الجليدي.

كانت الصخور بالغة الحدة حتى أن بعض الإخوان كانوا ينضحون دماً حين خرجوا من النهر. سألت أحدهم عما كانوا يفعلونه فأجابني بأنهم كانوا يعاقَبون لأنهم أخفقوا في مسح رشاشاتهم وتنظيفها على نحوٍ صحيح في الليلة السابقة.

على الفور فهمت لماذا كان عبد الكريم غاضباً من أبي بكر يوم رأيته عاكفاً على تنظيف بارودته بورق الزجاج. وكما لو كان الزحف في الماء المتجمد غير كافٍ، درج أبو بكر على عادة معاقبة مجنديه عبر جَعْل مسح البواريد تلك الليلة أكثر صعوبة بما لا يقاس. كان سيتعين على كل أخ أن يمسح الماء كله من جوف السلاح إلى أن يجف تماماً ثم يقوم بتزييت الآلية كلها. كان من شأن ذلك أن يستغرق ساعات طويلة. كان أبو بكر صارماً.

مرة اختفى أبو بكر مدة يومين. سألت أحد المدربين عنه وأفادني بأن أبا بكر كان مريضاً. قررت أن أعوده في الكوخ الذي كان يعيش فيه مع بعض المدربين الآخرين. أردت أن أرى مدى قدرتي على القيام بأي شيء من أجله.

بدا أبو بكر في حالةٍ مرعبة. كان منشوراً على الفراش وعيناه مغمضتان، شبه عاجز عن الحركة. كان قد أصيب بالملاريا التي كانت متفشية في المعسكرات. سُحُب البعوض كانت مالئة للأجواء.

جلست إلى جانبه قائلاً: "السلام عليكم! لم أعرف بمرضك إلا الآن. كيف تشعر؟"

"بخير يا أخ. أنا بخير." إلا أنه كان يئن ويحرك رأسه من جهة إلى أخرى في أثناء الأنين.

كانت ثمة محقنة على الأرض بجانبه، معبأة بسائل ما. حملتها. "لم هذه يا أبا بكر؟"

"إن فيها دواء" أجاب. "يُفترض أن يأتي أحدهم ليحقنني. ليتك تطلب من الدكتور!" كان يلمّح إلى أخ كان يتولى رئاسة مستوصف المعسكر.

"أنا أستطيع أن أحقنك." قلت عارضاً خدمتي. كنت قد أمضيت فترة طويلة من الزمن في مشافي بلجيكا وحُقنت بالكثير من الأدوية والمهدئات حتى أصبحت عارفاً تماماً ما كان يجب فعله.

نظر إلي بامتنان: "إذن أنت تعرف كيف؟"

أومأت، وطلب مني أن أُقْدم. حملت المحقنة، أبرزت الوريد، حقنت الدواء بسرعة فائقة. بدا مندهشاً حين أبلغته بأن الحقن قد تم.

ابتسم لي وقال: "سبق لي أن حُقنت عدداً غير قليل من المرات منذ أن جئت

إلى أفغانستان ولكن هذه المرة هي الوحيدة التي لا يؤلمني فيها الحقن أيها الأخ. شكراً.'

كنت بالغ السعادة لأني كنت قد استطعت أن أساعده. حين وقفت استعداداً للمغادرة تلفتتُحول الغرفة. تلك هي المناسبة التي رأيت فيها شيئاً ساحراً: بارودة قنص عملاقة. كنت قد تعلمت من أبي سهيل كل الأمور عن بنادق القنص، غير أنني لم أكن قد رأيت ولو واحدة في المعسكر. كنت شديد الرغبة في اختبارها.

يجب أن يكون أبو بكر قد لاحظ تعبير الاندهاش على وجهي، إذ قال: 'أنا آسف يا أخ. إنها أمريكية ولسنا متوفرين على الخرطوش المناسب.'

ذات يوم، كانت مجموعة منا جالسة خارج المسجد حين أبلغنا أبو بكر بأنه، هو وأبا سهيل، كانا سيغادران في غضون بضعة أيام للقيام بمهمة مع مجموعة طاجيكية كان يدربها. كان أبو الشيخ قادماً ليحل محله.

كنت جالساً بجانب أبي بكر، وفي إحدى المحطات التفتَ إليّ وسأل مبتسماً: 'هل تريد أن ترافقنا؟'

لم أعرف ما أقوله. توقعت أنه كان يمزح، لأنني لم أكن قد تدربت مع الطاجيك كما لم أكن أعرف شيئاً عن المهمة. إلا أنني تمتمت: 'بالتأكيد.'

حافظ أبو بكر على ابتسامته وتابع يقول: 'إذا جئت معنا فهل ستكون قادراً على قطع رأس جندي روسي؟'

'بالطبع' أجبت بحزم. كنت قد شاهدت ذلك في أحد الأفلام، وكنت أعرف أن هذا كان هو الرد المطلوب. وعلى أي حال كنت أعلم أنني لم أكن لاضطر لفعل ذلك ليقيني بأن أبا بكر كان يختبرني فقط.

ناشراً الابتسامة ذاتها على وجهه عاود أبو بكر السؤال: 'ماذا لو جلبت معي جندياً روسياً إلى المعسكر؟ هل ستكون مستعداً لقطع رأسه هنا أمامنا في الساحة؟'

توقفتْ نبضاتُ قلبي. تساءلت عما إذا كان عازماً فعلاً على الإتيان بمثل هذا التصرف، وعما إذا كنت أنا سأضطر لقطع رأس أحدهم لأثبت أنني مجاهد حقيقي. سألت نفسي: 'ما الذي أفعله أنا هنا بحق الجحيم؟' غير أنني أجبت بالطريقة الوحيدة المتاحة لي:

'بالطبع يا أبا بكر! بالطبع!'

المتفجرات

كانت الرحلة التالية من تدريبنا هي الرحلة المخصصة لموضوع المتفجرات. كنا نتدرب مع أبي يحيى الذي كان من اليمن. وهذا الجزء من تدريبنا دام نحو أسبوعين. مثل التدريب على المسدسات والرشاشات كان هذا الجزء من التدريب نظرياً من ناحية وعملياً من ناحيةٍ ثانية. أمضينا قدراً كبيراً من الوقت في غرفة الصف الدراسية ونحن نتعلم كل شيء تجب معرفتُه عن المتفجرات الرئيسية - التي إن تي، الديناميت، وسائر المتفجرات البلاستيكية: سي 1، سي 2، سي 3، سي 4 وسَمْتَكْس. تعلمنا أن الأمريكيين كانوا يحاولون استرجاع كميات من السَّمْتَكْس من المجاهدين في أفغانستان لأنها شديدة الخطر. خلافاً للمتفجرات الأخرى كانت مادة السمتكس هذه غير قابلة تماماً للتحري.

تعلمنا عن اطراد كل مادة متفجرة ومظهرها. تعلمنا فن التعرف على المتفجرات المختلفة عن طريق الشم والتذوق؛ كنا نضع كمية قليلة على رؤوس ألسنتنا. كان لبعضها، مثل الديناميت، مذاق حلو بسبب الغليسرين.

تعلمنا عن جميع الأصناف المختلفة من الألغام الأرضية، وسائر أنواع المتفجرات المختلفة المستخدمة في كل منها. تعلمنا كيف ننصُب لُغْماً وكيف ننزع

فتيله. تعلمنا كيف نزرع حقل ألغام. تعلمنا كيف نُفَخِّخ أي لغم بحيث يتفجر آنياً بمن يحاول نزع فتيله.

تعلمنا عن جميع أشكال الرمانات والقنابل اليدوية المختلفة، وعن أيِّها يجب أن يُستخدم وفقاً لوضعنا في معركة معينة. تعلمنا متى يجب علينا وصل القنابل بأجهزة توقيت، ومتى يتعين علينا أن نتركها تتفجر بفعل الضغط أو الصدم.

تعلمنا عن أنواع الصواعق المختلفة، وقد ظل أبو يحيى دائباً على تذكيرنا بمدى حساسية الصواعق وخطورتها. علَّمنا أبو يحيى فن التعامل معها بقدرٍ كبير من الأناة والنعومة كي لا تتفجر في وجوهنا.

كرسنا فترات طويلة من الوقت على تعلم تدابير الأمان، على إتقان فن حساب منطقة التفجير بالاستناد إلى كمية المتفجرات المستخدمة، والمسافة التي يجب أن نتركها بيننا. أوضح أبو يحيى أن من شأن بقائنا على احتكاك بأنواع معينة من المتفجرات فترات زمنية أطول مما ينبغي أن يفضي إلى تعريضنا لعلل صحية معينة بما فيها علة العُقْم.

كان أبو يحيى يعلمنا كيمياء المتفجرات وفيزياءها. وقد تعلمنا الفرق بين المتفجرات عالية الكثافة ومنخفضتها، وكيف نحسب تأثير قنبلة معينة استناداً إلى تسارع تفجرها. علمنا أبو يحيي التركيبة الكيميائية لكل نوع من أنواع المتفجرات، كما فسر لنا ردود الأفعال الحاصلة بعد الانفجار. شرح لنا أنواع الرضوض المختلفة التي يمكن أن تنشأ بالاستناد إلى المسافة التي كانت تفصل الضحايا.

تماماً كما كان أبو سهيل قد فعل في أثناء التدريب على المسدسات والبنادق والرشاشات، فإن أبا يحيى قام أيضاً بإعطائنا دروساً عن أسلحة غير موجودة في المعسكر ولكنها قد تتوفر يوماً. وفي أحد الأيام علمنا كل ما كنا بحاجةٍ إلى معرفته عن المتفجرات النووية.

كان هناك مخزون هائل من الألغام في المعسكر، وأحياناً كنا نتدرب بألغام حية كي نتمكن من دراسة قوة التفجيرات وتأثيرها. بدأنا بالألغام المضادة للدروع التي كانت عموماً محشوة بالتي إن تي. وقد كانت تنفجر دائماً من الأرض إلى الأعلى، خلافاً للألغام المضادة للأفراد القابلة للانفجار في الاتجاهين كليهما.

تعلمنا عن العبوات الناسفة والألغام المرتدة التي تُدفن تحت الأرض وتُفجَّر بشريط موصول. ولدى صعق أي لغم مرتد فإن من شأنه أن يقفز بضع أقدام في الهواء ثم ينفجر على مستوى الرأس أو الصدر، ويبعثر الشظايا بقوة غير قابلة للتصديق. وهذه الألغام كانت شديد الفعالية في عمليات الهجوم على قطعات المشاة حيث يكون الناس محتشدين.

مارسْنا عمليات زرع حقول الألغام التي هي عمليات لا تترك أي مجال لأي نوع من أنواع اللامبالاة. أولاً، كنا نرسم خارطة حقل الألغام بإحداثيات بالغة الدقة. ثم كنا نزرع الألغام. وبعد بضعة أيام كان سيتعين علينا أن نعود إلى الموقع والعثور عليها. كنا نعرف أن علينا أن نرسم خرائطنا بعناية فائقة، وأن نزرع الألغام في الإحداثيات الصحيحة تماماً وبدقة. وإذا انحرف أي مجاهد في أي من المرحلتين، فإن احتمال تعرضه للنسف باللغم الذي زرعه بيده يكون وارداً بقوة.

بالفعل كنت استمتع بالتدرب على المتفجرات. كنت أعشق الدقة المطلوبة في التعامل معها، جنباً إلى جنب مع التركيز الشديد المطلوب أيضاً في إنجاز كل شيء بشكلٍ صحيح مئة بالمئة. كنت أتسمَّر في مكاني لدى رؤية الوميض المبهر الذي كان يومض لأجزاء بالألْف من الثانية قبل الانفجار وسماع الدوي الهائل الذي كان يظل يتردد لانهائياً على جداري الصدع العميق.

لن أنسى ما نسيت اليوم الأول الذي سمح فيه أبو يحيى لمجموعتنا أن تحدث انفجاراً حقيقياً. أمضينا بعد الظهر ونحن نحفر خمسة عشر ثقباً في

فضاء مكشوف خلف المعسكر ونحوشها بمادة السمتكس. ربطناها بفتيل صاعق من النوع الذي يستعمله المهندسون في علميات النسف الخاضعة للتحكم. ملأنا الثقوب بالتراب ثم قادنا أبو يحيى إلى إحدى القمم العالية.

حين أصبحنا جميعاً جالسين على حافة الجرف، قام أبو يحيى بإدارة ذراع صندوق الجحيم لتوليد شحنة كهربائية. ثم ضغط المقبض بعنف لإدخال الشحنة في الفتيل الصاعق. بعد ثوانٍ قليلة ثمة كان بريق أزرق. وبعده بريق أزرق ثانٍ، فثالث. خمس عشرة ومضة متلاحقة على فترات أقل من أجزاء الثانية، مثل سهام بريق منبثقة من باطن الأرض. وأخيراً بوم بوم بوم مع تفجر السمتكس. خمس عشرة صفعة رعد من قاع الوادي. يا للسحر الآسر!

يوماً خلال فترة تدريبنا على المتفجرات، كُلفنا بحل مشكلة عملية في المعسكر. كانت الهطولات المطرية الغزيرة قد دامت عدداً من الأيام، وكانت أعداد من الكتل الصخرية الكبيرة قد تدحرجت من قمة الجبل إلى قلب النهر أمام المعسكر. كانت الصخور تعيق التدفق ويتجمع الماء وراءها.

أخذنا أبو همام في ذلك اليوم لإزاحة الصخور بالتي إن تي. بجانب الكتل الصخرية زرعنا خمساً وعشرين كيلوغراماً من التي إن تي، كمية أكبر بكثير من أي كمية سبق لنا أن استعملناها من قبل. كانت الكمية أكبر بكثير مما هو مطلوب، غير أن أبا همام أراد أن يمتعنا برؤية انفجار حقيقي.

إعداداً للتفجير، أدخلنا الفتيل الصاعق في كمية صغيرة من السمتكس وربطناه بالتي ان تي. ثم وصلنا الشبكة كلها بكبل كهربائي كَرَّنّاه مسافة ثلاثين متراً تقريباً إلى صخرة عملاقة في أعلى النهر.

احتشدنا جميعاً خلف الصخرة. طلب أبو همام منا ألا نسد آذاننا. كان يتعين علينا أن نتدرب على مقاومة جَلَبَة هذه التفجيرات في أرض المعركة. ثم

أمرنا بأن نوصل الكبل بالبطارية. تلفَّتَ مرة أخرى للتأكد من أن أحداً لم يكن قريباً من التي ان تي، وأمرنا بالتفجير.

بدأ أحد الشباب الشيشان يدير ذراع صندوق الجحيم. كنا جميعاً منتظرين قاطعين التنفس؛ كان الآخرون يستمتعون بالتفجيرات مثلي تقريباً، وكان من شأن هذا أن يشكل التفجير الأكبر الذي سبق لنا أن كنا قد رأيناه. بعد ثوانٍ قليلة ضغط الشيشاني على المقبض بقوة.

و... لا شيء. لا انفجار. وقفنا، مسحورين، نظرنا نحو أسفل النهر لنرى ما كان قد حدث. كانت مادة التي ان تي لا تزال هناك. قام أبو همام بمعاينة الكابلات ونظر إلى البطارية في صندوق جهنم. كل شيء كان على الوجه الصحيح. أخذ الذراع بيده هو وراح يديرها. انبطحنا جميعاً وقبعنا ننتظر الانفجار. ضغط أبو همام المقبض، مرة أخرى، لا شيء.

بدا أبو همام في حيرة. وقف وتوجه نحونا، سأل مازحاً: 'إذن، من منكم يريد أن يصبح شهيداً؟' من منا كان يريد أن يتطوع لتفكيك التفجير عن طريق سحب الصاعق. تبادلنا النظرات وابتسمنا ابتسامات عصبية. كنا في مواجهة سؤال جدي.

رفعتُ يدي. قلت: 'أنا سأفعل ذلك.' إذا كان أحد سيغدو شهيداً فأنا هو. راح الشباب الشيشان يتبادلون النظرات، ثم ينظرون إلي؛ كانوا في حال من الذهول. حتى أبو همام بدا مندهشاً. غير أنه هز كتفيه قليلاً وذكّرني بوجوب التحلي بالحذر في التعامل مع الصاعق؛ لقد كان مشحوناً، وأكثر خطراً بما لا يقاس مما هو في العادة. وبطبيعة الحال كنت أعرف ذلك ـ إذا لمسته بطريقة خاطئة، فقد كان من شأنه أن يشعل التي ان تي. كان من المحتمل أن أتفجر نُتَفاً.

حين انتهى أبو همام، درت نحو الآخرين، حَيَّيْتُ الجميع، قلت: 'السلام عليكم.'

ردوا: 'عليكم السلام ورحمة الله وبركاته.' نعم السلام والرحمة؛ كان هذا طبيعياً. أما بركات الله، فماذا عنها؟ بدت لي نوعاً من الدعاء قبل الموت.

درت ومشيت مع مجرى النهر عبر الصخور نحو الكتل الصخرية الكبيرة والتي ان تي. في الحقيقة لم أكن أفكر في تلك اللحظة. كنت على ما يشبه اليقين بأنني كنت سأموت، ومسلِّماً بالأمر. ومع ذلك كان ثمة جزء صغير من كياني مقتنعاً بأن هذا لم يكن قَدَري الحقيقي. كنت سأعود يوماً إلى أوروبا. أجلي لم يكن قد جاء بعد.

لم يكن لدي سوى ثوانٍ قليلة لأفكر ملياً بهذا كله قبل أن أجد نفسي أمام الصخور الكبيرة، راكعاً بجانب مادة التي ان تي. كانت المادة صماء، مسالمة في تلك اللحظة. كنت أنا بعيداً عن المعسكر كما عن الجماعة، ولم يكن ثمة أي أصوات على الإطلاق، باستثناء خرير الماء اللطيف. كنت أدرك أن من الممكن أن أموت في أي ثانية، أن موتي بدا محتملاً. إلا أن الرعب لم يتملكني.

ملت إلى الأمام، وبطرفي اثنتين من أصابعي سحبتُ الصاعق بقدرٍ كبير من الانتباه. كان كاوياً بحرارته. حملته برهة في يدي ثم وضعته برفق على صخرة قريبة ليبرد. رفعت يدي وأبلغت الآخرين بالإشارة أن الوضع بات آمناً.

مازلت عاجزاً عن تفسير سبب تطوعي في ذلك اليوم. في الحقيقة، تطوعت دون تفكير. في تلك اللحظة، شعرت بأن الأمر كان حاسماً بالنسبة إلى مهمتي، رسالتي. ولكن أي رسالة؟ رسالتي بوصفي مجاهداً؟ أم رسالتي بوصفي جاسوساً؟ بالنسبة إلى الرسالتين، كلتيهما، كما أفترض.

كنت قد أصبحت شديد الالتصاق بإخواني في الجماعة في هذه المرحلة، وكنت قد أمضيت أشهراً متحدثاً عن، ومفكراً بمتطلبات الجهاد. شعرت أن من

واجبي بوصفي مجاهداً أن أُضحي بنفسي لله من أجل مساعدة إخواني. لم يكن ثمة أي خيار آخر، ولم أكن أخاف الموت. غير أنني كنت في الوقت نفسه، أدرك، بطبيعة الحال، أن من شأن إقدامي على نزع الصاعق أن يزيل أي شكوك محتملة لدى أي شخص في المعسكر حول التزامي.

رسالتاي، جاسوساً ومجاهداً، باتتا الآن واحدة ومجسِّدتين للرسالة ذاتها. كنت قد أَذَبْتُ نفسي كلياً في بوتقة دَوْري. غير أن ذلك هو ما يجب على أي جاسوس أن يفعله كي ينجح. ما من أحد يستطيع أن يعيش حياة مزدوجة طويلاً ويتوقع الفوز والاستمرار دون انكشاف. كان لابد لي من أن أغطس منخرطاً مئة بالمئة.

ومع ذلك فإن الأمر كان شديد البساطة بالنسبة إلي. لحظة حطَّتْ الطائرة في كراتشي كنت قد توجهتُ مباشرةً إلى المسجد كما لو كنت قد درجت على أداء صلواتي الخمس في اليوم حياتي كلها. هنا في خالدان كثيراً ما كنت قد حلمت بالعودة إلى بلاد الشيشان مع أعضاء مجموعتي وتوظيف ما كنت قد تعلمته لإفناء الغزاة الروس.

أي رسالة كانت هي إذن؟ هل كنت جاسوساً ناجحاً لأنني استطعت أن أذيب نفسي تماماً في بوتقة دوري بوصفي مجاهداً؟ أم كنت مجاهداً صالحاً لم يصبح جاسوساً إلا بالصدفة؟

التكتيكات

بعد انتهائنا من المتفجرات، انتقلنا إلى التدريب التكتيكي الذي دام عدداً من الأشهر. وفي هذا التدريب تعلمنا كيف نقاتل في أوضاع واقعية من صميم الحياة. تعلمنا كيف نشغِّل أجهزة البث اللاسلكي وشيفرة المورس. تعلمنا كيف نعطي إشارات ليلية باستخدام الضوء. تعلمنا كيف نجمع المعلومات عن خطط

العدو، وكيف ننشر معلومات زائفة عن خططنا نحن. تعلمنا كيف ننصب كميناً في المدن وبين الجبال. تعلمنا كيف نرد لدى الوقوع في كمين نصبه العدو. تعلمنا كيف ننسق بين مجموعات متعددة تمهيداً لأي هجوم. تعلمنا كيف نوظف أسلوب التمويه من أجل الاقتراب من أحد الأهداف. تعلمنا كيف نسعف إخواننا في الميدان، وكيف نرحِّلهم ونخليهم من الميدان عند الضرورة. تعلمنا كيف نداهم بيتاً وكيف ندافع عنه. تعلمنا كيف نختطف ونغتال، وكيف نقتل بأيدينا.

تعلمنا مهارات متباينة من مدربين مختلفين. كان المدربون يتنقلون بين المجموعات من مجموعة إلى الأخرى. وأحياناً كان المدربون يغيبون أسابيع دفعة واحدة. وأحياناً أخرى كان مدربون يأتون من معسكرات أخرى للبقاء مدة أسبوعين فقط أو نحوها. في أوقات معينة كانت مجموعات كاملة تُرَحَّل إلى معسكرات أخرى، ثم تعود بعد بضعة أسابيع. لم نكن نعرف، بالمطلق، أين كانت تذهب، لأن طرح الأسئلة كان محظوراً.

مرة غادرت مجموعة مؤلفة من سبعة شيشان المعسكر. وبعد ستة أسابيع عاد خمسة منهم. أحدهم كان يعاني من حروق في كل جسده. أيٌّ منهم لم يقل كلمة واحدة عما كان قد حدث، وما من أحد سأل إلا أنه كان واضحاً أنهم كانوا يتبعون دورة متقدمة في دراسة المتفجرات وأن اثنين منهم كانا قد تفجرا.

كان ابن الشيخ قد جاء إلى المعسكر قبل مغادرة أبي بكر وأبي سهيل إلى طاجكستان ببضعة أيام، وتولى تدريب مجموعتنا على الاغتيال. كنا نتدرب في الحقل المكشوف الممتد أمام المعسكر. نظمنا مسارات معقدة لتقليد حالات واقعية قد نجد أنفسنا فيها بعد عودتنا إلى أوطاننا. ففي أحد المواقف، مثلاً، تعلمنا كيف نغتال أحدهم في مقهى رصيفي على أحد الشوارع المزدحمة. كنت سأجلس خلف أحد الشيشان على دراجة نارية يقودها باتجاه الهدف. ومع اقترابنا من الأخير كان سيبطئ وأنا سأقفز عن الدراجة إلى الأرض ثم اندفع باتجاه الهدف

فـأتوقف لأطلق النار مـن رشـاشي ثم أقـفـز لامـتطاء الدراجـة النارية من جـديد لتأخذني بعيداً. كان من الصـعب ضبط التوقيت بدقة وقد تدربنا على العملية مرات عديدة.

بل وقـد كـان الوضع أكـثـر صـعـوبة لدى كـون الرامي والهـدف، كليـهـمـا، متحركين. كانت ثمة أشرطة مشدودة عبر الحقل، وعليها أهداف قابلة للتحريك بالشد من جهة إلى أخرى. كنا نتدرب على إطلاق النار عليها من داخل شاحنة متحركة، أو من المقعد الخلفي لدراجة نارية. حتى قبل البدء بالتجربة، أمضى ابن الشيخ ساعات طويلة معنا في غرفة الصف وهو يعلّمنا فنون حساب سائر المتغيرات: سرعة الطلقة، المسافة بين الرامي والهدف، سرعة كل من العربتين أو الجسمين المتحركين.

كانت هناك سلسلة لها أول وليس لها آخر من المتغيرات، وقد تَدَرَّبْنا على كل منها. حقاً كنتُ مستمتعاً بالتحدي الذي ينطوي عليه الأمر، وعشقتُ الإحساس المرافق للوصول آخر المطاف إلى مستوى إتقان العملية بعد عددٍ من الاختبارات والمحاولات المتكررة. كذلك كنت في الحقيقة أحب العمل مع الشيشان. كنت شديد الإعجاب بهم. على الرغم من أنهم كانوا أصغر مني سناً بكثير، فقد وجدتهم مكرِّسين أنفسهم كلياً لتعلم كل شيء يستطيعون تعلُّمه.

مع مرور الزمن، تعلَّمْنا كيف نعمل كفريق. على الدوام كنا نعرف غريزياً أمكنة وجود إخواننا، وتعلمنا تنسيق حركاتنا بدقة. أحياناً كان يسود شعور كما لو كنا جسماً واحداً يتحرك معاً، جسماً أحادياً قاتلاً.

ومما فاجأني أن الشيشان كانوا أسرع مني في تعلم أشياء كثيرة. كنت قد قضيت أعواماً وأنا أتدرب على السلاح عندما كنت أعيش مع إدوار، في حين كانوا قد بدؤوا لتوِّهم. وقد كانوا صغاراً جداً في السن؛ ربما لم يكن أكبرهم سناً

قد تجاوز الثامنة عشرة. غير أنني ما لبثت أن بدأت أرى أنهم متفوقون على ارتباطاً عاطفياً بوطنهم. بدوا شديدي التوق للعودة إلى مسقط الرأس لقتل الروس.

بالطبع، لم أطرح عليهم قط أي أسئلة، كما لم يسألوني أي سؤال. إلا أنهم أماطوا اللثام عن أنفسهم شيئاً فشيئاً مع مرور الوقت. جميعاً كانوا مسكونين بأشياء كانوا قد رأوها في بلدهم. قدم كل منهم، بطريقته الخاصة، وَصْفاً لحضور الموت الدائم في قريته، بل في عائلته بالذات على الأغلب. تحدث بعضهم عن المعركة الرهيبة التي جرت في غروزني شتاء العام الماضي. تحدثوا عن القصف السجادي والتدمير والجثث الممددة في الشوارع.

لم يكن الشيشان يعرف بعضهم بعضاً منذ وقتٍ طويل. التقوا في إسلام أباد. أرسلتهم أسرهم التي أرادتْ إبقاءهم بعيدين عن الحرب. غير أن أياً منهم لم يكن راغباً في أن ينأى بنفسه عن هذه الحرب. ما إن وصلوا إلى الجامعة في إسلام أباد حتى جُندوا للمجيء إلى المعسكرات. كانوا ممنونين لأنهم جُلبوا إلى هنا، وشديدي الغضب والسخط على أولياء أمورهم الذين حاولوا إبقاءهم بعيدين عن الجبهة. بعد أن شرحوا هذا لي، فهمت ذلك التوتر المرعب الذي كنت شاهداً عليه في مركز التبليغ بين الأب الشيشاني وابنه.

أصغر الصبية، ذلك الصغير جداً، الذي كان أوّل مطلقي النار من مدفع الدي اش كي، كان هو الأشرس بما لا يقاس. كان طفلاً عذب المنظر، أشقر الشعر، أبيض البشرة، وأزرق العينين الواسعتين. كان مختلفاً عن الآخرين، أكثر جدية. لم يكن يبتسم أو يضحك قط مع الآخرين. نادراً ما كان يتكلم، ولكنه إذا فعل فقد كان لئيماً. ففي حين كان الآخرون يتحدثون عن العودة إلى الوطن لقتل الجنود الروس، دأب هو على الكلام عن حز رقابهم.

شعرت بالأسف من أجل الصبي، وأردت مساعدته. حاولتُ قدر استطاعتي أن أساعده في أثناء التدريب، كما حاولت ملاطفته قليلاً خارج ساعات التدريب. ومع ذلك فإنه لم يطّلعني على قصته إلا بعد عددٍ من الأشهر. كان الروس قد اجتاحوا قريته ونشبت معركة رهيبة. وفي أحد الأيام قصف الروس بيته بقذيفة مورتار. جميع من في البيت قتلوا فوراً، أفراد عائلته جميعاً. لم يقتصر الأمر على أبويه وإخوته وأخواته. كان شاملاً للعائلة كلها. كان شاملاً لخمس عشرة شخصاً.

مدربون مختلفون كثيرون جاؤوا من معسكرات أخرى لإكسابنا مهارات محددة. طوال أسبوعين، اتبعنا دورة تدريبية رياضية متخصصة بقيادة جزائري يدعى أسد الله. كان ضخماً. وبعينيه الخضراوين وشعره الأحمر، بدا أشبه بلاعب رَغْبي(*) إيرلندي.

وفي مرة أخرى جاءنا مدرب لمدة ثلاثة أسابيع ليعلمنا فن القتال بالأيدي. كان الإخوان في المعسكر يتهامسون بأنه كان كولونيلاً (عقيداً) في الجيش المصري، فرقة الوحدات الخاصة. وقد علمنا أشياء كثيرة. علّمنا فن مراوغة الاعتقال، فن الهرب بعد الاعتقال، فن تحويل حاجيات صغيرة إلى أسلحة قاتلة، فن تجريد العدو من سلاحه فاستخدام هذا السلاح ضده.

علّمنا كيف نقتل شخصاً بصمت عن طريق الاقتراب منه من الخلف وغرز السكين في المكان المناسب تماماً لتفجير الرئتين كي يتم الاختناق آنياً. علمنا كيف نقتل دون أسلحة بالمطلق، باليدين أو القدمين العاريتين فقط. كنا نتبادل ممارسة هذا كله، وكان هناك عدد كبير من الإصابات خلال هذه الأسابيع.

(*) الرغبي هو أحد أشكال كرة القدم، وهو شائع في البلدان الانجلو - سكسونية.

قضينا أياماً في تعلم تكتيكات المراقبة والرصد. تعلَّمنا كيف نراقب مبنى تمهيداً لنسفه. كان يتعين علينا أن نعرف ما إذا كان ثمة حُراس أو كاميرات فيديو، طبيعة مواد البناء، النقاط الأضعف في الهيكل، الأمكنة الأكثر كثافة في المبنى وفي أي أوقات من اليوم.

تعلمنا أيضاً كيف نراقب أهدافاً بشرية، لأن المراقبة جزء أساسي من عملية التخطيط لأي اختطاف أو اغتيال. مرة، زُوِّدنا باسم أحد الإخوان في المعسكر وطُلب منا أن نخضعه للمراقبة أياماً، مسجلين ملاحظاتنا عن كل من حركاته وفي أي وقت. لم يكن مسموحاً أن نمكّن الأخ من الغياب عن أعيننا، غير أننا كنا ملزمين أيضاً بألا نمكِّن أحداً من اكتشافنا. دَلَّنا أبو يحيى على نبات تنمو على الوجوه السفلية من أوراقه فطور صالحة للأكل، كنا نستطيع تناولها لسد الجوع دون أن نمكّن الهدف من الخروج من دائرة الرؤية.

علَّمنا أبو يحيى كيف نوظف مهارات المراقبة والرصد لدينا من أجل تنفيذ أي عملية اختطاف. وقد بين أنه من الأفضل دائماً خطف الشخص من بيته بالذات كي لا يكون ثمة أي شهود. غير أن من الجوهري بادئ ذي بدء اكتشاف ما هو جارٍ داخل البيت. لابد من معرفة أولئك الذين يعيش الهدف معهم. متى يغادر المنزل صباحاً ومتى يعود؟ متى يكون سهران ومتى يكون نائماً؟ كيف يتحرك داخل البيت؟ هل يملك سلاحاً، أي سلاح، أم لا؟ تعلَّمْنا كيف نرصد منزلاً للحصول على جملة هذه المعلومات، غير أن أبا يحيى أفادنا بأن أفضل وسائل جمع المعلومات الاستخباراتية الدقيقة تبقى على الدوام متمثلة برشْوَة بعض أفراد العائلة أو تهديدهم.

وبعد ذلك علَّمَنا أبو يحيى كيف ننظم عملية الاختطاف الفعلي. كيف نتسلق الجدران أو نتسلل عبر البوابات دون أن يرانا أحد. كيف نقتل الحُراس وندخل البيت. كيف نباغت الهدف من الخلف ونقيِّده، وكيف نخدِّره بتغطية وجهه بقطعة

قماش مبللة بالكلوروفورم. حذَّرَنا من ترك قطعة القماش على الوجه طويلاً، خشية تعرض الضحية للموت، فلا يعود ذا نفع.

علَّمَنا أبو يحيى هذا كله بالاستناد إلى دليل تعليمي عملاق. جميع المدربين كانوا يصطحبون الكتاب نفسه؛ كان الغلاف أخضر وأحمر مع رشاشي كلاشنكوف وكتابة بالأحرف العربية. كان الكتاب يضم بين دفتيه آلاف الصفحات ويحتوي على تعليمات حول كل نوع من أنواع العمليات العسكرية والفدائية، بدءاً بنزع فتيل لغم أرضي مفخخ وانتهاءً باستهداف طائرة بصاروخ أرض ـ جو.

كانت ثمة رسوم توضيحية في الدليل، وكان المدربون يطلعوننا عليها أحياناً لمساعدتنا على فهم بعض الجوانب. لم أكن أجيد التكلم بالعربية بعد، رغم أنني كنت أتحسَّن باطّراد، كما أن الشيشان لم يكونوا قادرين على التكلم بإنجليزية سليمة. وبالتالي فإن الرسوم كانت مفيدة جداً.

ذات يوم، طلب أبو يحيى منا أن نتحلق حوله لننظر إلى رسوم فصل الاختطاف، التي كانت تبين العملية خطوة خطوة. أمتعتني رؤية الرسوم التي عرضها علينا. كنت قد رأيتها من قبل: كانت هي نفسها رسوم الكتب التعليمية الأمريكية التي كان قد وقع اختياري عليها وأنزلتها عن الرفوف في البيت الآمن ببيشاور.

الأمير

بين الوقت الذي التقيت ابن الشيخ فيه ببيشاور ويوم وصوله إلى خالدان كنت قد عَرفت مزيداً من الأشياء الكثيرة عنه. فالجميع في المعسكر كانوا يتحدثون عن ابن الشيخ، على الرغم من أننا كنا ممنوعين من الثرثرة والقيل والقال. عرفت أنه أمير خالدان مع العديد من المعسكرات التدريبية الأخرى. عرفت أنه من ليبيا ومعروف باسم ابن الشيخ الليبي. عرفت أنه كان قد قاتل ضد الروس في ثمانينيات القرن العشرين.

بعد ذلك، واصل ابن الشيخ القتال ضد محمد نجيب الله الذي كان رئيساً لجمهورية أفغانستان خلال السنوات الأخيرة من الاحتلال السوفيتي، وكان السوفييت، حتى بعد انسحاب الجيش الأحمر، قد استمروا في دعمه. كان عديم الرحمة في جهوده الرامية إلى تحرير البلاد من المجاهدين الذين كانوا يكرهونه. أخيراً تم إجباره على التخلي عن الرئاسة في 1992، حين نجحت فرق المجاهدين المنافسة في السيطرة على كابول. سارع المجاهدون إلى اقتحام مخازن الأسلحة الحكومية الملأى بكميات هائلة من الأسلحة والذخائر فصاروا أكثر قدرةً على القتل.

كان ابن الشيخ بالغ القسوة والصرامة، مثل سائر المدرِّبين. كان الجميع، بمن فيهم أبو بكر، يجلّونه. كان ابن الشيخ هو الأقوى في المعسكر، إلا أنه كان أيضاً وديعاً في تعامله. مرة، حين كنت مريضاً، تولى رعايتي. في الصباح كان يسلق البيض ويجلبه لي إلى المهجع، وكان يأتي خلال النهار ليسأل عن حالي. جلب لي شوربة دجاج وأوضح أن الدجاج غني بالفيتامينات والمعادن ومن شأنه أن يساعدني على التعافي. لم يدم ذلك إلى الأبد بالطبع. بعد ثلاثة أيام أمرني بالشروع في التدريب من جديد. قلت له إنني كنت لا أزال شاعراً بالمرض، غير أنه لم يبالِ. بقي مصراً على أن من شأن الهواء النظيف أن يناسبني.

كان دقيقاً جداً في التدريب، إلا أنه لم يكن سادياً مثل أبي بكر. كان يطالبنا بأشياء كثيرة، غير أنه لم يكن يقول أي كلام نابٍ. وكان يتحدث عن الجهاد بطريقةٍ مغايرة لطرائق الآخرين. لم يكن يقول شيئاً عن القتال من أجل جماعة محددة أو ضد عدو بعينه. كان الجهاد، بنظره، قضية كوكبية. ما من شيء تفعله وما من قتال تخوضه، بصرف النظر عن المكان، إلا ويكون من أجل الأمة الإسلامية جمعاء.

كـان حـصـول كل منا على كـلاشنكوفـه الخـاص يتم خـلال التـدريب على التكتيكات. كان الأمر بالغ الإثارة. قام أبو همام بتسليمنا إياها، الشيشان وأنا، وأسمعنا محاضرة طويلة حول كيفية التعامل معها. وأوضح أن الرشاش كان أمانة، ملكية غير عائدة لنا، ولكننا مسؤولون عنها كلياً.

قال أبو همام: "عليكم أن تحافظوا على بنادقكم مثل حفاظكم على حدقات عيونكم. إنها أشبه بقطع من أجسادكم. ستتعطل إذا أهملتموها. يجب عليكم أن تنظفوها وتمسحوها ليلياً. تذكَّروا أن البارودة هي حياة المجاهد. من يفقد سلاحه، يفقد حياته. إنه كل شيء. إنه ابنك، زوجك. حذار أن تنسى ذلك ولو للحظة."

سرعان ما أصبح كلاشنكوفي جزءاً مني. صرت أنام معه في كيس النوم ليلاً وأصطحبه إلى المسجد عند الصلاة. كنت أعرف مكانه في أي ثانية من دقائق وساعات أي يوم. غير أنه لم يكن مذخَّراً على الإطلاق؛ ذلك هو القانون. تعين علينا أن نُبْقي الذخيرة منفصلة عن السلاح ما لم نكن في نوبة حراسة. وإلا فقد كان من المحتمل أن يجهز بعضنا على بعضنا الآخر.

ذات مساء، كنت جالساً بالقرب من الجامع متحدثاً مع ابن الشيخ وعدد من الآخرين. كل الوقت كنت ألعب بكلاشنكوفي، دائباً على تحريك مقبض التذخير: فوق وتحت برفق. غير أنني لم أكن منتبهاً، وفي إحدى المرات سحبْتُ مقبض التذخير إلى الخلف وأحدث الرشاش طَقْطَقة مسموعة. لم يحدث شيء؛ لم يكن ثمة أي ذخيرة في السلاح، ولو كان لتعين علي أن أشد على الزناد قبل أن تنطلق الرصاصة. غير أن ذلك لم يكن يهم. ما إن سمع ابن الشيخ النقرة حتى التفتَ إلي وقال بحزم: "اسمع يا أبا إمام. ليست البارودة للعب." ثم أمرني أن أجري نحو الجبل صعوداً ونزولاً.

سألته: كم مرة؟

أجاب: 'إلى أن أوعز إليك بالتوقف.'

تابعت الجري صاعداً نازلاً مدة زادت على الساعة. كنت منهكاً أساساً من تدريبات ذلك الصباح، وبدوت في حالة بائسة. ما لبثت أن سمعت أزيز طلقة وصفعة عالية لدى اصطدامها بصفحة إحدى الصخور على مسافة خمسة عشر متراً مني. انتهت العقوبة، عدت إلى المعسكر.

عوقبت كثيراً خلال الفترة التي أمضيتها في خالدان، أكثر من أي شخص آخر. خلافاً لحال المتدربين الآخرين لم أكن أخاف ابن الشيخ أو المدربين الآخرين. من البدايات ذاع صيتي بوصفي مهرِّجاً للصف. لدى قيامي بالترجمة من العربية إلى الإنجليزية للشيشان في أثناء التدريب، كنت أتعمد دائماً إقحام بعض النِّكات أو الطرائف الصغيرة. كان الشيشان يضحكون وكان المدربون ينزعجون. عنَّفَني ابن الشيخ على هذا، كما عنَّفَني على القيام بالشيء نفسه في أثناء المحاضرات المسائية. كان الشيشان يتفجرون ضحكاً في منتصف الدروس الدينية وكان ابن الشيخ يغضب مني. غير أنني لم أقلع عن عادتي، حتى قرر آخر المطاف، منعي من متابعة الترجمة في الدروس المسائية.

كنت مشاغباً من نواحٍ أخرى أيضاً، ولو على نحوٍ غير خطير في أي شيء. كنت أهتدي إلى طرق قصيرة مختصرة في أثناء تمارين الجري الصباحية، وكان ابن الشيخ يسائلني عنها ويعاقبني عليها. مرات كثيرة عاقبني هو ومدربون آخرون بالجري الإضافي وغيره من التمرينات الأخرى بغية تحسين سلوكي. وحين كان ابن الشيخ يصر على إلزامي الانضباط كان يقرِّب وجهه من وجهي كثيراً ويحدِّق في عيني مباشرة. كان ثمة نوع من التحدي؛ كان يريد أن يرى مدى قدرتي على الصمود. باستمرار كنت أردُّ بالقَدْر نفسه من التحديق ولم يسبق لي أن مكَّنْتُه من التقاط أي إشارة تشي بالارتباك.

في الأماسي، حين كان ابن الشيخ يوزع المهام، كان يتم، على نحوٍ شبه دائم، اختياري لمهمة الحراسة الليلية. كانت مهمة مرعبة؛ كان الجو بارداً جداً، وكان الأمر يعني عدم النوم الليل كله. جرى تكليفي بمهمة الحراسة الليلية على نحوٍ مبالغ فيه إلى درجة أن الأمر ما لبث، بعد شهرين، أن أصبح نوعاً من المزاح. حين كان ابن الشيخ يهم بإعلان أسماء المكلفين بالحراسة الليلية، كنت أتقدم إلى الأمام حتى قبل ورود اسمي. كان الإخوان يضحكون من ذلك أيضاً، الأمر الذي لم يفد إلا في مضاعفة غضب ابن الشيخ.

تمثَّلَتْ المهمة الممتازة والمرغوبة الوحيدة في خالدان برفع الأذان، بالدعوة إلى الصلاة. فالمؤذن كان يستطيع البقاء في المعسكر طوال النهار ويسترخي فيما الآخرون يتدربون. لم أُكلف بالمهمة سوى مرة واحدة، غير أن الإخوان سارعوا إلى الاحتجاج على بشاعة صوتي. لم يعد يتم اختياري مؤذِّناً مرةً أخرى.

مرة بعد أخرى، دأب ابن الشيخ والآخرون على شرح مدى أهمية أن يكون كل واحد من الإخوان جزءاً لا يتجزأ من الجماعة. فالأخيرة جوهرية لأنها تجعل كلاً من الإخوان أقوى. من شأن غيابها أن يؤدي إلى عثارنا بسهولةفائقة.

كان ذلك صحيحاً بالطبع. وحين كنت مع الشيشان شعرت بنوع من الذوبان في بوتقة الجماعة. ومع أنني كنت أمزح أحياناً، فقد أعطيت كل ما كان عندي للجماعة ولتدريبنا. ومع تزايد اطلاعي على ما كانوا قد شهدوه من معاناة في بلاد الشيشان، تزايدت رغبتي في الذهاب معهم والانتقام. كان جهادهم قد أصبح يخصني.

ولكن من نواحٍ مهمة، لم أكن مثل الإخوان الآخرين. كنت قد نشأت وترعرعت في أوروبا، بكل ما ينطوي عليه ذلك من نزعة فردية. كنت مستقلاً في تفكيري ومستعداً لأن أرفع صوتي معترضاً حين لا أوافق على شيء ما. كنت حراً بطريقةٍ مختلفة عن الآخرين.

ذات يوم جمعة، مَلَلْتُ أخيراً من تنظيف التواليتات. كانت مقزِّزة للنفس على الدوام، إلا أنها ما لبثت، مع تزايد برودة الجو، أن أصبحت أسوأ وأشنع لأن الإخوان لم يعودوا ينزلون إلى النهر لتنظيف أنفسهم.

تلك الليلة، بعد انتهاء الصلاة، قررت أن أقول شيئاً. يجب أن يكون أبو بكر قد شعر بشيء من هذا، لأنه حين وقف ليسأل عما إذا كان لدى أحد منا أي أسئلة نظر إليّ مباشرة. رفعت يدي فوراً.

'هات يا أبا إمام! ما الذي تريد قوله؟' قال أبو بكر وهو يدحرج عينيه قليلاً، فيما راح بعض الإخوان يضحكون ضحكة مكتومة.

وقفت ودُرْتُ لأواجه الجماعة. قلت: 'باسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.' مرتِّلاً بجدية زائفة. ثم اقتحمت الموضوع قائلاً: 'إخواني الأعزاء، هذه الليلة أريد أن أتحدث عن هذا الغائط الذي تتركونه لي كي أنظِّفَه وأغسله. يقول النبي إنكم تستطيعون استعمال الحصى لتنظيف أنفسكم إذا لم يكن الماء متوفراً. غير أن هناك ماء على مسافة خمسة أمتار من الحمامات! وما امتناعكم عن استعمال الماء إلا لأنه بارد جداً، فيتعين علي أنا كل يوم جمعة أن أغسل غائطكم عن أكوام الحصى.'

ساد الصمت وعدت أنا إلى الجلوس. نظرات الإخوان راحت تتنقل بين ابن الشيخ وأبي بكر، ذهاباً وإياباً، ومن ثم تعود إليَّ. لم يسبق لأحد أن تكلم بهذه اللغة من قبل في المعسكر، وكان الجميع ينتظرون رؤية العقاب الذي كنتُ سأناله هذه المرة. ولكن شيئاً لم يحصل. تبادل ابن الشيخ وأبو بكر نظرة خاطفة، ولكن أياً منهما لم ينبس ببنت شفة.

فيما بعد، قبيل مغادرتي لمعسكر خالدان، أخبرني أبو بكر أنهما، هو وابن الشيخ، كانا، بعد أن بقيا وحدهما تلك الليلة، قد كررا رواية القصة عدداً من

المرات. قال أبو بكر إنه لم يكن قد سبق له في حياته أن سمع ابن الشيخ يضحك بهذا الصخب والعمق.

طاجكستان

ذات يوم، وصل إلى المعسكر رجل وحده، بلا دليل. جميعاً كنا في المقصف حين وقف أمام المعسكر؛ تبادلنا النظرات دون كلام. قام ابن الشيخ من مقعده ومشى إلى الخارج، وتابعناه يتحدث مع الرجل الجديد لبضع دقائق. كان الرجل أفريقياً، لم يكن واضحاً أهو صومالي، أثيوبي، أم أريتيري. غير أني كنت أستطيع أن أرى من نظراته أنه كان يعاني من خلل ما.

ما برح اثنان من المدربين أن خرجا وراحا يكلمانه فيما عاد ابن الشيخ إلى المقصف. نبه ابن الشيخ من كان يحمل كلاشنكوفه منا أن يبقى يقظاً وأن يُبّقيَ سلاحه في متناول اليد.

خرجنا إلى التدريب بعد الغداء، وعند عودتنا كان الأفريقي قد رحل. علمنا أن أبا بكر كان قد بطحه أرضاً وقيده ثم جرى الاتصال لاسلكياً لطلب إحدى عربات الدفع الرباعي من أجل إعادته إلى الباكستان.

ذلك المساء شرح ابن الشيخ أن الرجل كان قد جاء بلا أوراق. كان قد سبق له أن تدرب في المعسكر، ولكنه كان قد عاد إلى الباكستان. والآن كان راغباً في العودة. فوجئت بأن يكون قد أعاد أخاً سبق له أن كان في المعسكر، وبهذه الطريقة المسرحية المثيرة، فسألت عن الأمر. بدايةً، أوضح ابن الشيخ أنه كان مُلْزَماً بالحذر، وعاجزاً عن قبول أي كان في المعسكر دون الأوراق السليمة. إلا أنه ما لبث أن أضاف أن الأفريقي كان يعاني من خلل معين، خلل في رأسه. وكان من المهم إبقاء أمثال هذا بعيدين عن المعسكر جراء احتمال انطوائهم على الخطر. كان قد رأى أخاً فقد عقله بَغْتَةً جراء التعب من القتال. وذات يوم كان

ذلك الأخ قد حمل رشاشه ودخل المسجد وراح يطلق النار. قتل أربعة من الإخوان وجرح عشرة آخرين جروحاً بليغة. كان على ابن الشيخ أن يتحلى بقدرٍ كبير من الحذر.

كان التعب أو الإجهاد العصبي الناجم عن القتال واقعاً. أحياناً كان يفضي إلى الجنون، وأحياناً إلى مجرد اللامبالاة. في أحد الأيام حدد لي ابن الشيخ بقعة في ميدان التدريب الواقع خلف المعسكر. أخبرني أنه، قبل بضعة أشهر من وصولي، كانت جماعة شيشانية مؤلفة من سبعة تتدرب على مدافع المورتار. أحد أفراد الجماعة كان مصادفة قد حمل قذيفة مفخخة بدلاً من أخرى نظامية وما إن أدخلها في السبطانة حتى انفجرت وقتلت الجماعة كلها.

أحياناً كنت أظن أنني كنت، أنا أيضاً، موشكاً على فقدان عقلي. ذات يوم جمعة، بُعيد وصول ابن الشيخ إلى المعسكر، كنت آخُذُ غَفْوةً عند مدخل أحد الكهوف عندما رأيت حلماً بالغ الحيوية. حلمت بأنني كنت مستلقياً أمام الكهف نفسه، وكان أبو سهيل واقفاً عند رأسي مصوِّباً رشاشاً إلى جبهتي.

لحظة كان موشكاً على الضغط على الزناد، أفَقْتُ من النوم. مضت ثوانٍ غير قليلة قبل أن أدرك أن أبا سهيل لم يكن هناك فعلاً ـ لم يكن واقفاً فوق رأسي، بل ولم يكن حتى في المعسكر. كان لا يزال في طاجكستان مع أبي بكر. لم يكن ما رأيته إلا كابوساً. غير أنني كنت أتصبب عرقاً، وكان قلبي ينبض بسرعة.

قبل عدد قليل من الأيام أخبرنا ابن الشيخ بأنه كان قد سمع من أبي بكر عبر اللاسلكي. يوم الجمعة السابق، كان أبو سهيل قد فقد عقله. خلال تنفيذ المهمة، تعين على الجماعة عبور نهر خطر. ثلاثة من الطاجيك كانوا قد غرقوا. وعلى الأثر كان أبو سهيل قد فقد عقله ولم يكن قد تعافى بعد.

صعقني أن يكون هذا كله قد حصل في اليوم الذي حلمت فيه بالذات، وأدهشني أيضاً أن يكون شيء شبه ملموس رابطاً إياي بهؤلاء الإخوان. أما فيما يخص أبا سهيل فلم أُفاجأ كلياً. تذكرت مدى حدة اهتمامه بنا في أثناء التدريب. كان مولعاً بنا جميعاً، ويريدنا أن ننجح. استطعت أن أتصور المشاعر التي كانت قد راودته بالضرورة حين قضى أولئك الطاجيك نَحْبَهم، الألم الشديد الذي كان ذلك قد سَبَّبَه. استطعت أن أرى أن ذلك كان كافياً لدفعه إلى الجنون.

لم يعد أبو بكر إلى المعسكر لمدة أسابيع بعد إصابة أبي سهيل بالجنون. وحين عاد، كان برفقة أبي سهيل. غير أن الأخير لم يبق في المعسكر إلا ساعات قليلة جرى إبعاده بعدها، وإرساله إلى الباكستان للمعالجة. لم أر أبا سهيل بعد ذلك قط.

كنت أعرف أن عبور أفغانستان برفقة أبي سهيل كان، بالضرورة، أمراً بالغ الصعوبة بالنسبة إلى أبي بكر، لأن الأول كان قد بات عاجزاً عن الدفاع عن نفسه. وهي رحلة بالغة الخطورة على أي حال مع بقاء نار الحرب الأهلية مستعرة في أفغانستان. كنت شديد الإعجاب بأبي بكر جراء ما أبداه من شجاعة ووفاء.

لم يبادر أبو بكر قط إلى أي كلام مباشر معي عما كان قد حدث في طاجكستان، إلا أنني سمعت، مع الزمن، قصصاً عن ذلك من الآخرين. بعد فقدان أبي سهيل لعقله، تركه أبو بكر لرعاية بعض الأفغان القريبين من الحدود المؤقتة. ثم انطلق مع الطاجيك لمساعدتهم في مهمتهم الأولى. كان قد قَتَل عدداً من الروس وهو هناك، وبعض الإخوان تهامسوا زاعمين أنه كان قد قطع رؤوسهم.

قام أبو بكر مرات كثيرة بمرافقة المجموعات الكشميرية والطاجيكية التي كان قد سبق له أن دَرَّبَها. كان يدرك أن التدريب في المعسكر لم يكن مثل الواقع

على أرض المعركة. أراد أن يتأكد من أن طلابه كانوا يتذكرون كل شيء سبق لهم أن تعلموه ويعرفون كيف يوظفون مهاراتهم على الجبهة. ومع مرور الزمن، اكتشفت أن هذه كانت طريقة أبي بكر للتعبير عن المحبة.

العرب

بعد نحو شهرين من وصولي إلى خالدان، رحل عبد الكريم. لم أودِّعه. عدت من التدريب ذات عصر وفوجئت بأن أشياءه لم تعد موجودة. ذلك هو ما حصل. لم يكن ثمة أي شيء خارق للعادة حول مغادرة عبد الكريم. فالناس كانوا يأتون ويذهبون باستمرار، ونادراً ما كنا نودِّع. لم يكن أحد مستاء من الأمر. ما من أحد منا إلا وكان يعرف بأنه هنا لسبب أو آخر.

متدربون كثيرون بقوا عدداً من الأشهر، مثلي أنا. غير أن آخرين كانوا يبقون أسبوعين فقط لاكتساب مهارات محددة جداً: كيفية الانقضاض على رتل أو نسف أحد الجسور. هذه المجموعات كانت عموماً من طاجكستان، أوزبكستان، قيرغيزستان، كشمير وبلاد الشيشان؛ أي من أمكنة قريبة، إلى حدٍّ ما، من المعسكرات. كانوا يتدربون بمعزل عن جميع الآخرين، إما مع أبي بكر أو ابن الشيخ، عادةً، ولم نكن إطلاقاً نرى ما كانوا يفعلونه. أحياناً، كانت المجموعة ذاتها ترحل ثم تعود من جديد لتتعلم شيئاً جديداً.

بعد رحيل عبد الكريم، صرت أقضي وقتاً أطول وأنا أتحدث مع إخوان من أمكنة أخرى. كنت مولعاً بالكشميريين. كانوا يتحدثون عن حربهم، ويصرون على وصف الهنود بعدو شرير لا يعرف معنى الرحمة. غير أنهم كانوا يحدثونني أكثر الأحيان عن أرضهم وعن مدى حبهم لها. لم يكن قد سبق لي أن سمعتُ أناساً من أي مكان يتكلمون بهذه الجدية والعمق عن جمال أرضهم - عن البحيرات والأنهار والجبال المُعانقة للسماء.

كذلك كان الكشميريون يتحدثون عن طريقهم إلى المعسكر. فهم لم يأتوا، كما فعلت أنا، عبر بيشاور. أولاً تلقوا التدريب في إحدى وحدات الجيش الباكستاني التي ما لبثت أن أوصلتهم إلى المعسكرات. كانت روايات الجميع متطابقة.

أما الطاجيك فكانوا يحاربون الاحتلال الروسي لوطنهم، كما لم يكونوا أقل من الشيشان حقداً على الروس. أحد أكثر الإخوان الذين التقيتهم في المعسكر حدةً كان طاجيكياً. كان يمارس تمارين زائدة وحده إضافةً إلى كل ما كان يتلقاه مع مجموعته. كان يدحرج الصخور ويتسلق الجروف والصدوع الخطرة يومياً ليكتسب مزيداً من القوة. يداه كانتا داميتين باستمرار لدى عودته إلى المعسكر لتناول العشاء.

لم يكن الطاجيكي يتجاوز الرابعة عشرة من العمر. أما الآخرون في مجموعته فكانوا في عشرينياتهم، مما أبقى الصبي وحده في أوقات الفراغ. ثمة كان نوع من ملعب التمارين السويدية المكشوف بالقرب من النهر والحمامات، وكنت أراه هناك وحده. ثمة كانت أثقال بديلة مصنوعة من قضبان معدنية على أطرافها كتل من الصخر مثبتة بالإسمنت. كنت أراه يرفعها ساعات طويلة. كانت الأثقال تبدو أثقل منه بكثير.

انجذبتُ إلى الصبي، وحزنت عليه؛ بدا وحيداً. حاولت التحدث معه وممازحته، إلا أنه بقي مخيف الجدية وعصياً على الابتسام. فيما بعد، فاتحت أحد أعضاء مجموعته وسألته عن سبب إصرار الصبي على التدرب المفرط. روى لي الطاجيكي قصة إجبار الروس للصبي على حضور عملية إعدام جميع أفراد أسرته رمياً بالرصاص عن قرب.

كنت فخوراً بالحَدَث الطاجيكي. كان قد أخذ مصيره بيديه. رفض الإذعان لمقتل عائلته. حتى في مثل هذه المرحلة المبكرة من العمر، فهم واجبه بوصفه

مسلماً. ومع ذلك لم أستطع قط أن أتآلف مع هذه القصص، مع هؤلاء الأطفال الذين كانوا قد عانوا هذه المعاناة كلها. لم أشعر بأي أسف بالنسبة إلى المجاهدين الأكبر سناً، لأنهم كانوا، مثلي أنا، مستعدين لأن يموتوا. كانوا قد حددوا خيارهم. إلا أن قلبي كان ينفطر إزاء إجبار هؤلاء الأطفال على التضحية بأرواحهم في هذه السن المبكرة، قبل أن تتاح لهم فرصة تناول قرن من الآيس كريم أو تقبيل فتاة.

الصبي الطاجيكي لم أودِّعه قط أيضاً. غادر ذات يوم مع باقي أفراد المجموعة. ومثل كثيرين ممن التقيتهم في خالدان، من المحتمل أن يكون في عداد الأموات.

بعض المجاهدين العرب مروا بالمعسكر في طريق عودتهم من الحرب في البوسنة. خلال الصيف كله، ظللنا نتابع تقارير إخبارية عن البوسنة عبر الإذاعة الفرنسية الأولى (RFI) وهيئة البي بي سي (BBC) العالمية. غير أن الإذاعتين كانتا تركزان أكثر الأحيان على جملة المساعي الدبلوماسية المبذولة في كل من واشنطن، باريس، لندن، وغيرها.

أما العرب العائدون من الجبهة فكانوا يتحدثون عن الواقع على الأرض. سمعنا عن المذبحة في سيربرينيتسا، حيث قام الصرب بطرد عشرات آلاف البوشناق من بيوتهم. سمعنا عن جملة الفظاعات التي أعقبت ذلك في بوتوكاري، حيث كان اللاجئون قد هربوا ولحق بهم الصرب. سمعنا عن عمليات الاغتصاب والقتل وشحنات الرجال الذين فُصلوا عن عوائلهم، أُعدموا، ودُفنوا في قبور جماعية. سمعنا كيف أن الصرب جمعوا الرجال وحشروهم في مبانٍ ثم ضربوهم بالقنابل اليدوية لقتلهم جميعاً دفعة واحدة. سمعنا عن الرجال الذين نجوا عن طريق الجري أياماً عبر الغابات، عن وصولهم إلى المناطق الآمنة مسربلين بالدم فاقدين عقولهم تماماً جراء الأهوال التي كانوا قد تعرضوا لها.

سمعنا أن القوات الدولية لم تفعل شيئاً لحماية البوشناق. سمعنا أن قائد قوات حفظ السلام الهولندية شوهد وهو يتناول الطعام والشراب مع الجنرال الصربي راتكوملاديتش. سمعنا أن الجميع تخلَّوا عن المسلمين وسمحوا بالإجهاز عليهم.

غير أن العرب لم يكونوا أيضاً معجبين حقاً بالبوشناق رغم كرههم للصرب. كانوا يقولون العديد من الأشياء ذاتها عن مسلمي البوسنة، تلك الأشياء التي كنت قد سمعتُها من أمين وياسين. كانوا يقولون إن البوشناق لم يكونوا مسلمين حقيقيين لأنهم يشربون الخمر ويسمعون الموسيقا ولأن نساءهم لا يقمن بتغطية رؤوسهن.

مع تسلل الصيف إلى عباءة الخريف، مزيد من العرب جاؤوا إلى المعسكرات مشحونين غضباً من البوشناق. فهؤلاء كانوا قد غدروا بالمجاهدين. كانت حفيظة العرب ثائرة لأن إخوانهم البوشناق بدؤوا يطردونهم من البلاد أو يعتقلونهم بعد أن كانوا قد قدموا أرواحهم دفاعاً عن هؤلاء الإخوان. بل وثمة قلة روت قصصاً عن قيام بوشناق بقتل عرب ممن قاتلوا في صفهم.

غير أن عمليات الاغتصاب كانت في الحقيقة هي الأكثر إزعاجاً للعرب. قيل إن الصرب اغتصبوا الآلاف والآلاف من البوشناقيات، وأعداد كبيرة منهن غدون حوامل. لم يكن الرجال البوشناق مستعدين للمسهن. كانوا شديدي الحقد على الصرب إلى درجة أنه بدا من المستحيل أن يتصوروا تنشئة أطفال أنصاف أعداء. إلا أن العرب كانوا مقتنعين بأن من واجبهم الزواج من هؤلاء النساء وتنشئة أولادهن ليصبحوا مجاهدين قادرين على نحر الصرب، أشقائهم بالدم.

خلال رياضة الجري الصباحية في أحد الأيام وجدتني منخرطاً في حوار مع أحد العرب العائدين من البوسنة. كلانا كنا في مؤخرة الرتل خلال فترة

الجري، ومع الانتهاء من الجري كنا قد أصبحنا بعيدين وغير قادرين على رؤية الإخوان. قررنا أن نقطع المسافة الباقية مشياً بدلاً من الجري، وفي أثناء المشي حدثني عن أنه كان قد رأى شيئاً جديداً في ساحة المعركة. كان الشيء نوعاً من البوصلة التي تستخدم الأقمار الصناعية توخياً للدقة؛ كان العرب يستخدمونها للتسديد. بدا الأمر مفيداً حقاً، وسألته عن سبب عدم اصطحابه واحدة لنستخدمها في المعسكر. ابتسم وقال إنه كان سيرسل واحدة فور حصوله على الفيزا والسماح له بالعودة إلى الوطن.

نسيت كل شيء عن ذلك الحوار، وفوجئت حين جاء ابن الشيخ بعد ثلاثة أشهر ومعه طرد من العربي آنف الذكر. سألني ابن الشيخ رافعاً الطرد: 'أتعرف ما هذا؟'

أجبت: 'نعم أعرف بالطبع. حدثني عنه العربي. إنه جهاز يدعى جي بي اس (GBS)' كنت مسروراً جداً لمعرفتي شيئاً لم يكن ابن الشيخ يعرفه. التمعت عينا ابن الشيخ، وشكرني على التفكير بالطلب من العربي أن يرسل الجهاز.

في اليوم التالي رأيت عبد الحق يعبث بالجهاز، وثارت حفيظتي. كان مصحوباً بدليل باللغة الإنجليزية، وكان يحاول تعلم طريقة الاستخدام. رأيت ذلك بعيداً كلياً عن الإنصاف. لم يكن حصولنا على الجهاز إلا بسببي أنا، آخر المطاف. كان يجب على ابن الشيخ أن يمكّنني أنا من استخدامه أولاً.

بعد بضعة أيام، اكتشفت السبب. كان الجهاز معروفاً باسم جي بي اس (GPS)، لا جي بي اس (GBS). وابن الشيخ كان يمتحنني وسقطتُ في الامتحان.

كان هناك عرب آخرون كثيرون بالطبع، من سائر أجزاء شمال أفريقيا والشرق الأوسط. غير أن السعوديين كانوا الأبرز. ثمة مجموعات سعودية كانت

تأتي إلى خالدان لتبقى فترات قصيرة؛ كانوا مختلفين عن الجميع هناك. كانوا أكبر سناً، في أربعينياتهم وخمسينياتهم، وأقل خشونة.

كان يتضح مباشرةً أن هؤلاء كانوا أغنياء. فهم لم يأتوا في الحقيقة للتدريب كما كان الجميع يفعلون. كانوا يأتون في رحلات سياحية. لم يكونوا مطالبين بالجري معنا في الصباح، إذ كان أكثرهم يبقون نائمين ولا يخرجون من المهاجع إلا عصراً للّعِب بالبنادق.

لم نكن ننزعج بوجودهم ـ على العكس من ذلك تماماً. فوجودهم كان يفضي إلى تحسين الطعام كثيراً، يجعله خالياً من الحشرات الموجودة عادةً. كنا نحصل على الزبدة والعسل مع الخبز، وهو ما لم يكن يحصل على الإطلاق دونهم. في بعض الأيام كنا نحصل حتى على اللحم.

لم يكونوا مجاهدين، إلا أنهم كانوا على الدوام يبدون ودودين ولطفاء جداً. ذات ليلة عانيت من حمى شديدة. كنت جالساً خارج الجامع في وضع مرعب حين رأتني حفنة من السعوديين. جلسوا معي مباشرةً وراحوا يرعونني. جلبوا لي ماء وطمأنوني إلى أنني كنت لن ألبث أن أتحسن بسرعة. ثم وضع أحدهم يده على جبهتي. وبيده الأخرى فتح القرآن وراح يقرأ. شعرت بكثير من الراحة جراء برودة يده ونعومة صوته المردد للكلمات التي كنت قد سمعتها مرات لا تُعد ولا تُحصى من قبل.

بعد فترة بدأ أفراد الجماعة يقومون ليذهبوا إلى النوم. أنهى الرجل قراءة السورة القرآنية، أغلق المصحف، ورفع يده عن جبهتي. غريزياً قلت له: "لا من فضلك. أرجوك أن تبقى وتعيد يدك على جبهتي. إنها عظيمة." كنت أشبه بمن يتوسل. مع ذهاب أصدقائه إلى مهجعهم الليلي، عاد الرجل إلى الجلوس بهدوء، مد يده، وراح يقرأ من جديد.

هذان هما الشيئان اللذان افتقدتهما بالنسبة إلى خالدان بعد الرحيل: الشفقة والإحساس بالألفة. جميعاً كنا إخوة، كنا نفعل ما نستطيعه لبعضنا البعض. كان اليقين بأن كلاً من الإخوة كان مستعداً للتضحية بحياته من أجلي، تماماً كما كنت أنا سأفعل، رائعاً. لم يكن قد سبق لي أن شعرت مغموراً بمثل هذا الفيض من الحب، محاطاً بهذا القدر من العناية في حياتي. أنا أيضاً أردت أن أرعاهم بالمقابل. ذات مرة، أعطيت ابن الشيخ بعض المال لشراء ذبيحة نأكلها في المعسكر. أوصيته ألا يشي بمصدر الذبيحة، لأنني لم أكن أريد إشاعة ذلك. وبعد بضعة أيام كانت رؤية الإخوان بالغي السعادة بعد الإجهاز على اللحم رائعة. لاحقاً صرت أعطي ابن الشيخ مبالغ لشراء ما كان بحاجة إليه من طعام، ذخائر، مؤن أخرى.

في الصيف، كنا جميعاً نذهب للسباحة في إحدى برك النهر. كنا نبدو سخيفين حقاً. كثيرون من الإخوان كانوا يسبحون مرتدين ملابسهم، ونحن الآخرين كنا نغطي أجسادنا من السرة إلى الركبتين غير أنني كنت أعشق الماء مع ذلك كما كنت قد درجت على أن أفعل وأنا طفل في بلجيكا، وكنت سعيداً فيه. كان الآخرون ينظرون إليَّ باحترام لأني كنت قوياً وقادراً على القفز إلى الماء من صخور عالية فوق النهر.

كل ما كنا نفعله في خالدان كان متركزاً على هدف وحيد: الاستعداد للجهاد. لذا فإننا كنا نتدرب حتى ونحن نمارس رياضة السباحة. كنتُ السبّاح الأفضل ودَرَجْتُ على التباهي بنقل كتل ثقيلة من الصخر عبر النهر في أعمق نقاطه. كان الآخرون يحاولون تقليدي، غير أنهم لم يكونوا متمتعين بما يكفي من القوة مما كان يضطرهم دائماً إلى إلقاء الصخور في الماء قبل الوصول إلى الضفة الأخرى.

غير أن الإخوان ما لبثوا أن انزعجوا مني وراحوا يحاولون أن يتفوقوا علي. غير أنني كنت قادراً على أن أكون أسرع منهم في السباحة، ولم يستطيعوا قط

أن يمسكوا بي. خَطَرَتْ لأحد الشيشان فكرة أفضل: غَطَس في الماء وحاول أن يشدني إلى الأسفل من تحت. أحسست بيده على كاحلي وفقدت توازني. سَقَطَتْ الصخرة في النهر وبدأ جسمي يغطس.

لم يدم الأمر كله سوى بضع ثوانٍ، غير أن ما أذهلني كثيراً هو مدى تحلي الأخ بالمهارة في سحبي إلى الأسفل والمسارعة بعد ذلك إلى تحرير ساقي فور نزول رأسي إلى ما تحت الماء. لم يكن يحاول إيذائي؛ أراد فقط أن يُفْهِمني أنه قادر على فعل شيء. تأثرتُ كثيراً بما حصل، ولاسيما حين فكرت بأشقائي. حين كنا نذهب معاً إلى المسبح خلال عطلنا الصيفية في المغرب، كانوا يحاولون إقحامي في الماء وإغراقي وكنت أنا أرد عليهم بالمثل. ما أكثر ما كنا نبالغ!

صحيح أننا لم نكن أسرة في خالدان. كنا شيئاً أفضل بكثير.

بلاد الشيشان

كان ابن الشيخ ألمعياً في جميع المجالات. سبق له أن كان قائداً في الحرب ضد الروس، وكان يعرف كل ما يمكن أن يُعرف عن الأسلحة والقتال. غير أنه كان مثقفاً في الوقت نفسه؛ من الواضح أنه كان واسع الاطلاع وعميقه. كان يتحدث بقدرٍ أكبر من الذكاء والبلاغة مقارنة بجميع الآخرين في المعسكر. وكان صاحب كاريزما خارقة للعادة. حين كان يتكلم كان جميع الإخوان يصغون إليه مشدوهين.

خلال نقاشاتنا في الأماسي كان ابن الشيخ يكثر من الكلام عن الجهاد، وواجب المسلمين في طول العالم وعرضه. كان يشرح الفرق بين فريضة الجهاد وكفاية الجهاد - بين الجهاد الإلزامي أو الدفاعي والجهاد الهجومي أو الاستباقي. جميعاً كنا، برأيه، نخوض فريضة الجهاد، معركة استرجاع أراضي الخلافة (الإسلامية) من الكفار. وحده الخليفة كان يستطيع إعلان كفاية الجهاد فيوعز إلى المسلمين بشن الهجوم على الكفار في البلدان غير المسلمة، لإجبار أولئك

على الاختيار بين الموت والاهتداء إلى الإسلام. غير أن الخلافة كانت قد انتهت مع انهيار الإمبراطورية العثمانية، فلم يبق أي خليفة يمكنه أن يصدر مثل هذا الإيعاز. كان ابن الشيخ يقول لنا إن كل معركة نخوضها لم تكن إلا جزءاً من معركة أكبر لاستعادة الخلافة.

إن معركة استعادة أرض فلسطين من إسرائيل كانت المعركة الأهم التي كان أي مجاهد يستطيع أن يخوضها في حياته. فالقدس قلب الإسلام. وحين يتعرض أي إنسان للخطر فإنه يسارع أولاً إلى حماية قلبه؛ فقط بعد ذلك يبادر إلى حماية باقي أعضاء الجسد. لم تكن فلسطين قضية الجهاد الوحيدة، بالطبع، غير أنها بقيت الأكثر حسماً وأهمية.

كان الجهاد ضد الهندوس في كشمير حيوياً أيضاً. فالهندوس وثنيون. إنهم يعبدون البقرة، تماماً مثل هارون وأتباعه الذين أداروا ظهورهم إلى موسى وراحوا يعبدون العجل الذهبي. لم يكن الهندوس أولئك سوى أحفاد قبيلة يهودية ارتحلت إلى الهند قبل قرون عديدة.

لقد كنت أعتقد أن الشيعة لم يكونوا إلا جماعة كبيرة أخرى من الأعداء. إنهم أصحاب بِدْعَة، أسوأ الذنوب في الإسلام. ليس ثمة أي تجديد، أي ابتداع أو بدعة في الإسلام. ليس هناك سوى القرآن، السنة. ذلك هو السبب الكامن وراء إتقان كل طفل مسلم فن لفظ كلمات القرآن صوتياً (فونَتيكياً). ذلك هو السبب الكامن وراء تولّي قوانين السنة إملاء سلوك كل مسلم. تبقى إيران عدوة أساسية للإسلام، عدوة أخطر من أمريكا أو روسيا أو حتى إسرائيل. الآخرون كَفَرة، أما الشيعة فأخطر بكثير. إنهم دائبون على العمل لتدمير الإسلام وتخريبه من الداخل.

البوسنة، بلاد الشيشان، أوزبكستان، طاجكستان - كلها أساسية وجوهرية. في جميع هذه الحالات كان المجاهدون مشتبكين مع الكفار بغية استعادة

السيطرة على الأراضي الإسلامية. بدا هذا واضحاً للجميع. وما بدا حتى أكثر وضوحاً من ذلك هو مدى أهمية إطاحة أنظمة الحكم العلمانية في العالم الإسلامي. فنظام الحكم الديني هو الشكل المقبول الوحيد للحكم بالنسبة إلى أي دولة مسلمة. أما الآن فلم يكن هناك أي نظام حُكْم ديني إلا في إيران بالطبع، وكون الأخيرة شيعية لم يكن يشكل أي عزاء. أما سائر البلدان الأخرى - من المغرب إلى الجزائر، إلى تونس، إلى ليبيا، إلى الأردن، إلى مصر.... - فكانت خاضعة لحكم الكُفّار لأنها كانت محكومة من قبل البشر بدلاً من الله.

غير أنني كنت أظن أن أنظمة الحكم هذه معادية للإسلام لسبب آخر أيضاً. ما من أحد إلا ويعرف أن هؤلاء الحكام ليسوا إلا دُمى بأيدي قوى أخرى: روسيا، أمريكا، فرنسا، إنجلترا. قوى فارضة نفوذها على العالم الإسلامي كله، منصِّبةً قيادات دُمى لخدمة مصالحها. والجهاد ضد جملة هذه الأنظمة العلمانية لم يكن، في سائر الحالات، إلا حَمْلة صليبية، حرباً مقدسة، ضد النفوذ الأجنبي.

ذات ليلة، سأل أحد الإخوان عن مسرح الجهاد التالي المحتمل. أشار ابن الشيخ دون تردد إلى العراق. فهو غني نفطياً، وحكومته ضعيفة. إن حرب الخليج والعقوبات كانتا قد شلّتا صدام حسين. بات الشعب مستعداً للثورة لأنه عانى طويلاً من الاضطهاد في ظل صدام. كان ثمة سبب آخر لاستهداف العراق: إذا نجح المجاهدون في كسب العراق، فإن إيران سكون قد حوصرت. يا لها من فرصة داهمة بإلحاح شديد!

ومع ذلك فقد كان هناك بَلَدان مسلمان بقينا حريصين على تجنب مناقشتهما بالمطلق، أعني أفغانستان وباكستان. كنا ضيوفاً في كليهما. دأبنا على تسمية أفغانستان بـ "أرض الجهاد" لأنها كانت قد رحَّبَتْ بنا ومكّنتنا من الإقامة والتدريب استعداداً لمعاركنا في أرجاء العالم. والباكستان كانت حليفة أيضاً؛ فالعديد منا جاؤوا عبر الباكستان وحصلوا على مساعدة الباكستانيين في

الطريق. يضاف إلى ذلك بالطبع أن الكشميريين كانوا قد دُربوا من قبل الجيش الباكستاني.

لم تكن ثمة أي حكومة في أفغانستان. كان رئيس الجمهورية وزعيم تحالف الشمال برهان الدين رباني متشبثاً بأظافره بالسلطة، فيما أحزاب متنافسة كانت تفرض حصاراً على كابول. أما نحن فكنا حريصين على عدم توجيه أي انتقاد إلى الحكومة الباكستانية أيضاً. الشخصية الوحيدة التي كنا نتحدث عنها تمثلت ببناظير بوتو - كنا نحتقرها. لم نكن نذكرها باسمها 'بوتو' حين نتحدث عنها؛ كنا نقول: 'العاهرة بوتو.' كان سبب كرهنا الشديد لها متمثلاً بكونها داعية غربية بنظرنا؛ كانت قد عاشَتْ في أمريكا وتعلمت هناك. وهي الآن ألعوبة بيد الحكومة الأمريكية. إلا أنني اعتقد أن حقيقة كونها امرأة هي التي جعلتنا نشعر بأننا أحرار في مهاجمتها.

بالطبع كنا نتحدث عن أمريكا، لأنها كانت الشيطان الأكبر. جميعاً كنا نعرف تلك الحقيقة. غير أن أمريكا لم تكن أمريكا في الحقيقة؛ كانت خاضعة لتحكم إسرائيل. ذلك أيضاً كان واضحاً للجميع. كل ما كانت أمريكا تفعله لم يكن يكتسب معنى إلا من هذا المنطلق، منطلق دعم إسرائيل، بالطبع ولكن إضافةً أيضاً إلى نمط سلوكها في باقي أجزاء العالم. كان الأمريكيون عازمين على شل البوشناق تماماً، فمكّنوا الصرب من قتل أعداد كبيرة منهم ومحاصرتهم. فقط بعد ذلك، بعد أن بات البوشناق بلا أي حول أو قوة، بادرت أمريكا إلى مساعدتهم مقابل التزام البوشناق بطرد جميع المجاهدين العرب الذين كانوا حماتَهم الوحيدين أو اعتقالهم. من الواضح أن الخيوط كانت بأيدي اليهود.

كنت أعلم أن فلسطين كانت قضية الجهاد الأهم، غير أنني لم أكن أريد الذهاب إلى هناك. كنت راغباً في أن أواصل القتال طويلاً، وكنت أعلم أنني لن

أستمر طويلاً في القتال إذا ما ذهبت إلى الشرق الأوسط. كنت سأثبِّتُ قنبلة على صدري وأفجر نفسي فينتهي كل شيء.

لم يكن ذلك لعدم اهتمامي بفلسطين - لعل العكس هو الصحيح. فقبل كل شيء آخر - قبل الغزو السوفيتي لأفغانستان، قبل انقضاض الصرب على البوسنة، قبل اجتياح الروس لبلاد الشيشان - كانت ثمة إسرائيل. إحدى ذكرياتي الأولى هي مشاهدة أشرطة الأخبار مع أبي حين نجح الجيش المصري في دحر القوات الإسرائيلية للسيطرة على قناة السويس في 1973. فرح والدي كثيراً حتى أنه قذف الوسادة إلى الهواء.

ثم كانت الحرب اللانهائية في لبنان. مثل جميع الآخرين، أرعبني حصار بيروت في 1982. كان الإسرائيليون همجيين. هاجموا براً، هاجموا جواً، هاجموا بحراً. قتلوا ما يزيد على عشرة آلاف مدني في سعيهم إلى اقتلاع منظمة التحرير الفلسطينية.

قامت إسرائيل بتدمير بيروت، إلا أن ذلك لم يكْفِ. ثم جاء الأمريكيون وأجهزوا على ما بقي من منظمة التحرير الفلسطينية، غير أن ذلك، هو الآخر، لم يكف. بعد شهر واحد، قامت إسرائيل بعزل مخيمي صبرا وشاتيلا للاجئين في بيروت الغربية. سلَّحَتْ المسيحيين، الكتائب اللبنانية، وأطلقت يدهم في المخيم مع أوامر قضت بقتل كل من في الطريق. زعمت الكتائب أنها كانت تبحث عن منظمة التحرير الفلسطينية، ولكنها لم تكن، في الحقيقة، إلا دائبة على قتل المسلمين. وقد فعلت: قتلت النساء، الأطفال، الجميع. قتلتهم بالرصاص والبلطات والسكاكين.

بقي الإسرائيليون عند محيط المخيم وأطلقوا القنابل الضوئية لتمكين الكتائب من مواصلة الذبح في الليل. وحين انتهى كل شيء سارع الإسرائيليون إلى إرسال الجرافات لطمر مئات الجثث المنشورة في الشوارع.

في البداية كان مقاتلو منظمة التحرير الفلسطينية أبطالاً بنظري؛ كانوا يقاتلون لاسترداد أرض إسلامية. غير أن عرفات ما لبث أن غَدَر بالإسلام وخانه في مؤتمر مدريد سنة 1991، ولاحقاً عبر اتفاقات أوسلو في 1993. بعد ذلك خبا بريق منظمة التحرير الفلسطينية في عيني. وخلال الصيف الذي أمضيته في باريس، كنت قد شاهدت فلماً وثائقياً عن الحرب وتبين لي أن مقاتلي منظمة التحرير الفلسطينية لم يكونوا يشبهون المجاهدين في شيء. فمنظمة التحرير الفلسطينية لم تكن إلا حزباً سياسياً مسلحاً. لم تكن تقاتل في سبيل الأمة الإسلامية. كانت تقاتل لأغراض سياسية فقط.

كلما كنت أشاهد شريطاً عن منظمة التحرير الفلسطينية في مركز بومبيدو، كان ثمة موسيقا تصويرية مصاحبة. حتى المسيحيون بدوا أكثر تقوى. كثيرون منهم كانوا يحملون صلباناً صغيرة مثبتة على أعقاب مدافعهم الرشاشة. أما منظمة التحرير الفلسطينية فكانت مشغولة بالإصغاء إلى الموسيقا. لا، مستحيل، هؤلاء لم يكونوا مجاهدين.

جل الإخوان كانوا يعرفون الأمكنة التي كانوا سيتوجهون إليها بعد مغادرة المعسكر؛ كانوا سيعودون إلى الأمكنة التي جاؤوا منها لمباشرة جهادهم. أما أنا فلم أكن قد جئت من أي مكان، أو مع أي جماعة. كنت قادراً على اختيار جهادي الخاص. كنت أستطيع أن أقاتل حيثما أشاء.

وهكذا لم يتعين علي أن أفكر ولو لثانية واحدة حين سألني ابن الشيخ، ذات ليلة، عن المكان الذي كنت أرغب في التوجه إليه بعد مغادرة خالدان، قبل أن أجيب: "بلاد الشيشان. أريد الذهاب إلى بلاد الشيشان."

حراس الليل

في إحدى الليالي أيقظني صوت إطلاق النار. كان الصوت قريباً جداً من المعسكر. جلست في كيس النوم ومددت يدي إلى بارودتي. طارتْ.

بام. بام. بام. تات ـ تات ـ تات ـ تات. انفجارات ومزيد من إطلاق النار. كان الظلام دامساً، لم يكن ثمة إلا القليل من النور القَمَري الفضي. تلمَّسْت حولي في الجهات كلها بحثاً عن كلاشنكوفي، إلا أنني لم أجده في أي مكان. تملَّكَني الرعب. إذا فقدت سلاحي فستكون لي مشكلة رهيبة مع الأمير.

ثم انتزعت نفسي من الحالة. بام. بام. بام. تات ـ تات ـ تات ـ تات. بام. الرشاشات كانت تقترب أكثر فأكثر. سواء أكنت سأقع في مشكلة أم لا، فإننا كنا بصدد مشكلة أكبر. كان المعسكر متعرضاً للهجوم، وأنا كنت بلا سلاح. ثم تبين أن جميع الإخوان في الغرفة كانوا أيضاً بلا أسلحة. أحدهم كان قد دخل ونحن نيام وأخذها جميعاً. كنا عزّلاً بلا دفاع.

فجأة اقتحم شخص الغرفة. كانت عيناي قد تطابقتا مع الظلام وحاولت النظر إلى وجهه غير أنني لم أر شيئاً. كان الرجل مقنَّعاً. كان محتملاً أن يكون أمريكياً، أحد عناصر الطالبان، أي شخص آخر.

دون أن ينبس ببنت شفة غافل المقنعُ أحدَ الإخوان وألقى بشيء فوق رأسه. وبحركة واحدة طوق فريسته بذراعه. حمل الأخ عن الأرض وجره إلى الخارج. قبل أن أتمكن من الرد، كانا قد اختفيا. رُحْتُ أنا والأخوة الباقون نتبادل النظرات في صمت صاعق. لم تكن العملية كلها قد استغرقت أكثر من بضع ثوانٍ.

استمر إطلاق النار دقيقة أخرى، ثم توقف. صمت مخيف خيم على المعسكر. تبادلنا النظرات، غير أن أحداً لم يكن يعرف ما العمل. ثم أطل أحد المدربين من الباب قائلاً: "هيا تحركوا الآن. لقد أخذوا أسلحتنا. لابد لنا من الحصول على بواريد جديدة."

جباهنا جميعاً كادت تلامس الأرض مذلة ونحن نجري باندفاع عبر المعسكر نحو مستودع الأسلحة. جُل الإخوان كانوا موجودين، باستثناء الحراس الليليين مع

عدد قليل من الآخرين الذين كانوا غائبين، بمن فيهم أبو بكر. بعض الرجال بدوا مبهورين تماماً، وآخرون كانوا يفركون عيونهم. كان العدو قد استخدم رمانات مدوِّخة لإعمائهم في أثناء الهجوم.

بهدوء، وبأقصى سرعة ممكنة، تسلَّقْنا الجبال للتفكير بتحركنا التالي. لم تكن العودة إلى المعسكر آمنة بعد الآن، في عتمة الليل. كنا سننتظر حتى بزوغ الفجر.

صباح اليوم التالي عرفنا أن العملية كلها لم تكن إلا حيلة. تَعَلُّم كيفية تنظيم عملية إغارة كان جزءاً من التدريب، والباقي منا كانوا بحاجة إلى معرفة ما ينبغي فعله إذا ما تعرض معسكرنا للحصار. وهكذا فإن إحدى المجموعات الشيشانية كانت قد ابتعدت مدة يومين من أجل التخطيط للهجوم. ما إن أصبحوا جاهزين حتى بادر المدربون إلى نزع الأزناد من كلاشنكوفات الحراس الليليين كي لا يقتلوا أحداً. وما إن نمنا نحن الباقين. حتى جاؤوا وسطَوا على بنادقنا أيضاً.

خلال الهجوم كانوا قد أخذوا الحراس وبعض الإخوان رهائن. جروهم إلى أحد الكهوف وقاموا باستجوابهم الليل كله. أخذ الرهائن والاستجواب كانا أيضاً اثنين من أجزاء التدريب.

صباح اليوم التالي، شرح لنا أبو بكر كيف كانوا قد حاولوا كسر مقاومة أحد الإخوان، وكان صبياً في السابعة عشرة فقط. كان مناوباً بوصفه حارساً ليلياً حين تعرض المعسكر للهجوم. أراد المهاجمون معرفة نوعيات الأسلحة المتوفرة في المعسكر، ولكن الصبي لم يكن مستعداً للبوح بأي شيء. وَجَّهَ الشيشان فوهات بنادقهم إلى رأسه وصفعوه بقوة، إلا أنه بقي صامتاً. ثم أطلقوا عدداً من الرشات على مسافة سنتيمترات من قدميه وهددوه بالقتل إذا لم يتكلم. أخيراً، بدأ يتصدع.

قال: 'لدينا خمس وسبعون دبابة. وعندنا الآلاف والآلاف من البنادق. نتوفر على خمسين صاروخاً من طراز ستنغر. ثمة ما يزيد على ثلاث مئة مقاتل، والمنطقة المحيطة بالمعسكر كلها ملغمة.'

ضحك أبو بكر وهو يروي القصة. كان الصبي قد فعل ما هو مطلوب تماماً: كان قد أعطى مستجوبيه أكثر مما كانوا راغبين في الحصول عليه، وجعل جيشه يبدو أقوى بكثير مما كان في الواقع.

ما أكثر ما كُلِّفتُ بواجب الحراسة الليلية عقاباً! غير أنه تم في إحدى الليالي اختياري لتولي منصب رئيس الحرس. كان ذلك تكريماً، لأنه كان يعني اضطلاعي بمسؤولية التأكد من أداء الحراس لمهماتهم على نحوٍ صحيح.

كل ليلة، كان هناك أربعة حراس معينين في قطاعات مختلفة من المعسكر. كان رئيس الحرس يشرف على الجميع. تلك الليلة كان هناك شيشانيان، طاجيكي واحد وكردي مكلفون بواجب الحراسة. كنت أعرف الكردي قليلاً، وكنت معجباً به، مما شجعني على ممازحته. كان مكلفاً بحراسة واجهة المعسكر بدءاً بالنهر وحتى ما بعد المقصف مروراً بمدخل المعسكر وعمق المنطقة الواقعة خلف كوخ الطباخين.

انتظرت نحو ساعتين متيحاً للكردي فرصة التناغم مع دوريته. ثم اختبأت خلف المقصف منتظراً اقترابه. ما إن سمعت صوت تنفسه حتى صرخت: 'دْرَشْ!' مطلقاً الكلمة التي تعني 'قف!' بالأفغانية - وهي كلمة كنا قد تعلمناها جميعاً لحظة وصولنا إلى المعسكر.

سمعت صراخ الكردي، واختلست النظر حول الزاوية فرأيته مصوِّباً بندقيته باتجاهي. بدا مرعوباً. من خلف المقصف نطقتُ كلمة السر التي كنا قد اعتمدناها، وأعلنت اسمي. ثم تقدمت نحوه ووقفْت أمامه. كان الكردي قد خفض سلاحه وراح ينظر إلي بغضب.

قلت ضاحكاً: 'أوقعتك في الفخ'.

رد مغمغماً: 'لن تستطيع مرة أخرى.' لم ير أيَّ شيء مضحك في الأمر. دار ومشى مبتعداً لاستئناف دوريته.

بالطبع لم يكن باستطاعتي ترك الأمر يقف عند هذا الحد. كان لابد لي من الإيقاع به من جديد. مشيت بعكس اتجاه النهر مسافة كيلومتر ونيف، بعيداً إلى عمق المعسكر. تسلقت السفح مسافة مئة متر تقريباً على الضفة اليمنى للنهر. دُرت إلى الوراء وتوجهت نحو المعسكر مع سفح الجبل وصولاً إلى حيث كوخ الطباخين تماماً، ثم نزلتُ متسللاً خِلْسةً. ثمة كانت كثرة من الشجيرات في كل مكان وكنت قادراً على الإحساس بأشواكها وهي تمزق قدمي.

أخيراً وصلت إلى ما خلف كوخ الطباخين مباشرةً. كان ذلك جزءاً غريباً من المعسكر، ولم يكن أحد يطرقه إلا أثناء الاضطلاع بواجب الحراسة. كان المكان مسكوناً (بالأرواح). لدى استخدام المجاهدين للمعسكر خلال الحرب ضد الروس، جعلوا التواليتات هناك لأن المكان كان الجزء الأكثر انخفاضاً من النهر. غير أن الروس كانوا في أحد الأيام قد أغاروا على المعسكر فيما كان عدد من المجاهدين مشغولين بالهدوء. كان الروس قد تسللوا من خلف الجبل الذي نَزَلْتُ عن سفحه للتو، فوصلوا بالتالي إلى التواليتات أولاً. قتلوا جميع من كانوا في المعسكر.

لم يكن سبب الخضة مقتصراً على كثرة عدد القتلة. فالمسلمون يؤمنون بأن الشياطين تسكن دورات المياه؛ بل وثمة دعاء معين لطردها. صحيح أن التواليتات قد زالت الآن. كانت قد نُقلت إلى الطرف الآخر من المعسكر؛ ولكن الشياطين كانت، مع ذلك، لا تزال تتردد على هذا المكان وتجوسها بصحبة أرواح المجاهدين المذبوحين. ما من أحد منا إلا وكان قد أحس بحضور هذه وتلك في هذا الوقت أو ذاك.

تسللت خلسة عبر الشجيرات وقطعت مسافة عدد من الدقائق إلى أن سمعت الكردي مقترباً. ببطء شديد، دون إحداث أي صوت، مشيت نحوه. واصل التحرك ـ لم يسمعني. أصبحت قريباً جداً منه، اقتربت أكثر. كانت المسافة بيني وبين وجهه أقل من خمسين سنتيمتراً حين صرخت: 'دُرَشْ'!

أطلق الكردي زَعْقة بأعلى ما توفر له من نَفَس في رئتيه. كاد يموت فَزَعاً؛ يجب أن يكون قد ظن أن الشيطان كان قد جاء ليختطفه. إلا أنه ما لبث، بعد برهة، أن أدرك أنني كنت أنا من كان يقف أمامه، فأمطرني بوابل من النظرات الغاضبة، الحانقة.

قلت له: 'يجب عليك، في الحقيقة، أن تتحلى بقدرٍ أكبر من الحذر. لو كنتُ عدواً لكنتَ أنت في عداد الأموات الآن.'

من الواضح أن الكردي لم يستسغ حصافتي. اكتفى بالتجهم.

قبل أن يدور على عقبه ويسير في الاتجاه المعاكس، قال: 'يا لك من زبون خطر'!

كان في المعسكر حارس متفرغ واحد، ولكن أحداً لم يكن يكلمه لأنه كان أفغانياً، وكنا جميعاً نعرف أن علينا ألا نتكلم مع الأفغان. خلال النهار كان ينام في مبنى صغير قريب جداً من كوخ الطباخين. لم يكن يخرج إلا في الليل حيث كان يجوس خلال المعسكر وحده ملقماً كلاشنكوفه.

كان معه ثلاثة كلاب في المعسكر: اثنان كبيران من كلاب الرعاة، أسود ورمادي، وكلبة بيضاء كانت أصغر قليلاً. كانت الكلاب تجول في المعسكر خلال النهار. لم يكن أحد يعرف أسماءها لأن أحداً لم يكن يتكلم مع الحارس. غير أن الإخوان ما لبثوا، مع مرور الزمن، أن أضفوا على الكلاب أسماء من عندهم. صرنا ننادي الأسْوَد: بوش، الرمادي: ريغان. أما البيضاء فكانت تاتشر.

الجاسوس

ذات يوم، بعد نحو شهر من وصولي إلى خالدان، كنا نتدرب على المتفجرات خلف المعسكر عندما شاهدنا أبا بكر وأحد المدربين الآخرين يصطحبان رجلاً ويسيران به باتجاه الكهوف. كان الرجل مقيد اليدين ومعصوب العينين.

وبعد يومين جرى تقديم الرجل نفسه إلينا بوصفه مجنداً جديداً. كان اسمه أبا حديفة، ومن العربية السعودية. في تلك الليلة، شرح لي عبد الكريم أنه كان قد أُخذ إلى الكهف لاستجوابه بسبب رسالة إذاعية من بيشاور. كان ابن الشيخ قد اكتشف نوعاً من الخلل في أوراق الرجل فبادر، قبل السماح له بدخول المعسكر، أن يتيقن مئة بالمئة من عدم كونه جاسوساً. من الواضح أن إفادات أبي حديفة كانت جميعاً مطمئنة وسليمة لأنه كان بيننا الآن. لم يطرح أحد أي سؤال.

بعد يومين، أوعز ابن الشيخ إلى أبي حديفة طالباً منه تعليمي التجويد، مما وفر لي فرصة قضاء فترة طويلة من الوقت معه. بدأت ألاحظ فيه أشياء أثارت شكوكي؛ أشياء صغيرة في البداية ولكنها بدأت تتراكم. لاحظت أنه كان ذا لياقة بدنية ممتازة، أفضل بكثير من سائر السعوديين الآخرين، بمن فيهم حتى الشباب، ممن كانوا يأتون إلى المعسكر. ثمة كان شيء ما رخو في السعوديين أو حولهم لأن حيواتهم كانت بالغة اليُسر. غير أن جسم أبي حديفة كان مجدولاً بالعضلات.

ومع مرور الزمن، بدأت أكتشف أن العديد من طباع أبي حديفة كانت هي الأخرى غريبة بعض الشيء. مثلاً، رأيته يوماً في مدخل مهجعه. كان أخ آخر خلفه مباشرة. سارع أبو حديفه إلى مسك الباب مفتوحاً من الداخل وسمح للأخ بالمرور قبله. لم تكن تلك سوى لفتة بسيطة، إلا أنها كانت حركة غريبة: أيٌّ عربي حقيقي كان سيخرج من قبل، ثم يبادر إلى تثبيت الباب خلفه.

إلا أن الشيء الأكثر فضائحية في أبي حديفة كان متمثلاً بحذائه. الجميع في المعسكر كانوا ينتعلون أحذية جلدية. أما هو فقد كان حذاؤه من الكتان الضارب إلى الصفرة. كنت قد رأيت هذا النوع من الأحذية من قبل، وأعرف مصدرها. كانت أحذية خاصة بالجيش الأمريكي. في بداية حرب الخليج، كانت ثمة تقارير تلفزيونية كثيرة حول مدى معاناة الجنود الأمريكيين لانتعالهم جميعاً تلك الأحذية الريفية السوداء الثقيلة نفسها المصنوعة لتجهيز أفراد الجيش في فيتنام. كانت تلك مصممة لخوض الأنهار الموحلة والغابات ومرعبة في رمل الصحراء وقيظها. فالجلد الأسود كان يغدو كتلة نار في الشمس إضافةً إلى أن الأحذية لم تكن تتنفس على الإطلاق. لذا فإن الجيش كان قد سارع إلى التعاقد على تصنيع مئات الألوف من أزواج الأحذية الكتانية الصحراوية الخفيفة للجنود. كان أبو حديفة ينتعل زوجين من هذا النوع.

بدا لي واضحاً تماماً أن أبا حديفة جاسوس. إلا أنني لم أكن قادراً على فعل شيء بشأن ذلك. على الرغم من يقيني لم يكن لدي أي برهان. وما أكثر ما قيل لنا في خالدان أن المجاهدين لا يخمنون، لا يضربون أخماساً بأسداس، على الإطلاق، بل يصدرون أحكاماً قاطعة فقط بالاستناد إلى ما يعرفونه لأن أحداً لا يستطيع أن يدخل في عقل شخص آخر. وهكذا التزمت الصمت بشأن أبي حديفة ولم أفاتح أحداً عنه على الرغم من هواجسي الملحة.

أحياناً، مع وصول جماعة من الإخوان إلى المرحلة الختامية من تدريبها، كانت هذه الجماعة تقدم عرضاً في الليل هناك في الساحة أمام المعسكر. كان أفراد الجماعة يستعرضون مهاراتهم في الرمي، يؤدون قتال التحام، ويصنعون حلقات أغصان يشعلونها ثم يقفزون عبر اللهيب. كانت العروض مثيرة دائماً لأنها كانت تبين مدى تناغم هؤلاء الإخوان، مدى إتقانهم لفن التحرك المتناسق كما لو كانوا جسداً واحداً. كانت النار قاطعة للأنفاس على خلفية السماء المظلمة وكانت

البنادق تقذف شرارات بدت أشبه بألعاب نارية صغيرة. كان المشهد نوعاً من أنواع السيرك.

في إحدى الأماسي، قررت أن أتابع التمثيل من مكان مرتفع على سفح الجبل. وحين انسحَبْتُ من الجماعة انتبه إلي أبو حديفة وسألني: 'إلى أين؟' صارحته، فقرر أن يرافقني.

تسلقنا علّوة وجلسنا نراقب الإخوان وهم يجرون ويقفزون ويتدحرجون تحتنا في الميدان. أي منا لم ينبس ببنت شفة خلال بضع دقائق، غير أنني ما لبثت أن التفتُّ إليه وقلت بهدوء: 'اسمع يا أبا حديفة.' دار نحوي وحدَّقْتُ في عينه مباشرة ثم تابعت: 'أنا أعرف من تكون. لا أملك أي دليل، وبالتالي لن أُخْبر الآخرين. غير أنني أريدك أن تعرف أنني أعرف حقيقتك.'

استجاب لتحديقي ولكنه أحجم عن التعليق ولو بكلمة. ثم أدار رأسه وتابع مشاهدة العرض.

ما لبث الصمت الثقيل فيما بيننا أن قُطع بعد بضع دقائق، حين أزّت رصاصة مرت بنا واصطدمت بصفحة صخرة على مسافة نحو عشرة أمتار. ثم رصاصة أخرى. فثالثة. التفت أبو حديفة إلي؛ بدا قلقاً. نظر إلى الساحة في الأسفل ورأيت أن الإخوان كانوا يرمون مستهدفين صفحة صخرة إلى اليسار من المكان الذي كنا جالسين فيه. لم أبالِ بالأمر. كان الشباب قد قضوا أشهراً وهم يتدربون على الرمي، وكانوا، بالتالي، يعرفون ما كانوا يفعلونه.

غير أن أبا حديفة لم يكن على المستوى نفسه من الثقة. قال: 'يا أبا إمام، ألا تعتقد أن علينا أن ننزل الآن؟'

نظرت إليه وسألت: 'لماذا؟' كانت الطلقات تضرب الصخور باستمرار، مطلقة شرارات صغيرة.

"بسبب الطلقات يا أبا إمام. قد تصيبنا." استطعت أن أقرأ في وجه أبي حديفة أنه كان مرعوباً.

قلت بهدوء: "لا، أنا سأبقى هنا." ثم ابتسمت وتابعت: "جئت إلى هنا، في التحليل الأخير للجهاد. إذا أصابتني إحدى طلقاتهم في رأسي." مشيراً إلى الإخوان هناك في الأسفل "فسأكون شهيداً!" كنت أداعب أبا حديفة، غير أنني لم أكن أمزح. كان يعرف ذلك.

حَدَّقَ أبو حديفة فيَّ مرة ثانية. ثم قام. ودون أي كلمة، استدار وبدأ يعدو منحدراً على سفح الجبل.

المصباح

كانت الطوبوغرافيا المرحلة الأخيرة من تدريبنا. في هذه الحلقة من الدورة التدريبية كنا نتعلم فن استهداف أشياء وأشخاص من مسافات طويلة. كنا ندرس خرائط طوبوغرافية ونتعلم معادلات رياضية معقدة كي نتمكن من تقدير زاوية الرمي الصحيحة. ثمة مدافع معينة تستطيع إصابة أي هدف بدقة من مسافة ثلاثة كيلومترات شرط التحلي بقدرٍ كبير من الدقة في الحسابات.

كانت الحسابات الرياضية صعبة لوجود عدد كبير من المتغيرات الواجب أخذها في الحسبان: الارتفاع، سرعة الريح، مدى حَتّ السبطانة، نمط شحنة الدفع، وما إلى ذلك. كنت قد درست الرياضيات في المرحلة الثانوية كلها ببلجيكا، مما مكّنني من الاستيعاب بسرعة. غير أن ما أثار إعجابي هو أن عدداً كبيراً من الإخوان الآخرين كانوا أيضاً يستوعبون الدروس بسرعة. كثيرون من العرب كانوا بالطبع جيدي التعليم؛ إلا أن الطاجيك، الأوزبك، والكشميريين عموماً لم يكونوا كذلك، وإن ظلوا على الدوام قادرين على المجاراة بطريقة ما. في الحقيقة كانوا في الغالب أفضل من الآخرين. بدوا فاهمين للعلوم غريزياً.

ذات يوم، بعد قضاء أسبوع كامل في غرفة الصف عاكفين على إجراء الحسابات، أخرجنا أبو همام للتدرب على الرمي. حملنا مدفع مورتار إلى ما خلف المعسكر وتسلقنا به الجبل. وعبر وادٍ عريض كان ثمة جبل آخر مكلل بكومة من الصخور. كان أحدهم قد راكمها هناك لتشكل هدفاً.

كنا قد أنجزنا الحسابات في غرفة الصف وكانت دفاترنا بأيدينا. حفرنا ثقباً صغيراً في الأرض لتثبيت قاعدة المورتار ثم نشرنا القوائم المزدوجة لتثبيت المدفع في مكانه. اصطففنا وراح كل منا بدوره يعدل زاوية سبطانة المورتار ويرمي الهدف.

جميعاً أخطأنا الهدف في الجولة الأولى، وطلب منا أبو همام ملاحظة الأمكنة التي سقطت فيها قذائفنا بالفعل كي نتمكن من تعديل حساباتنا. خَرْبَشْنا على أوراقنا واصطففنا في رتل من جديد. مرة أخرى، أخطأنا الهدف جميعاً. بدأنا نشعر بالإحباط. كنا قد تدربنا أشهراً طويلة، وتملكنا إحساس بالتفوق. ومع ذلك كنا في وضعٍ بائس. كنا قد أمضينا أسبوعاً كاملاً لمجرد الوصول إلى هذه اللحظة، ولا أحد فينا كان قادراً على إنجاز المهمة.

عدنا للقيام بمحاولة ثالثة؛ الأخوان الأولان أخطآ الهدف من جديد. قررت هذه المرة ألا أستخدم الورق، أن أكتفي بعدسة التسديد. كان مسار القذيفة قَطْعاً ناقصاً، وبما أن قذيفتي كانت قد أصابت نقطة فوق الهدف في المرة السابقة، فقد أدركت أن علي أن أرفع الفوهة قليلاً. أما سائر المتغيرات الأخرى فبقيت ثابتة، لم يكن ثمة ما يدعو إلى إعادة حساب كل شيء.

هذه المرة حطت القذيفة فوق الهدف. حين درت إلى الوراء، استطعت أن أرى أن الآخرين كانوا معجبين. إلا أنني ما لبثت أن رأيت ما لفت نظري: كان ابن الشيخ جالساً على قمة التلة فوقنا، يراقب. لم أكن قد رأيت أو سمعت أنه وصل

وفوجئت حين شاهدته هناك، عاكفاً على معاينتنا. حين التقتْ نظراتنا، أومأ إلي طالباً أن أذهب إليه. تسلَّقْت التلة وجلست بجانبه.

سأل: 'لماذا لم تستخدم دفترك؟' وقبل أن ينهي كلامه قام أحد الشيشان بالإطلاق. قذيفته سقطت على بعد خمسين متراً إلى يسار الهدف.

أجبت قائلاً: 'إنه مثل رمي أي حجر. ليس المرء بحاجة إلى أي حسابات.' حين بدأت الكلام وضع ابن الشيخ إصبعه على شفتيه ملمحاً إلى وجوب خفض الصوت. افترضت أنه لم يكن يريد تشتيت أذهان الآخرين. فتابعت همساً: 'يستطيع المرء أن يُدخل التعديلات عن طريق القذف أقوى أو أضعف أو من خلال القذف أعلى أو أخفض. يعمل المدفع بالمبدأ نفسه.'

ابتسم ابن الشيخ لي بمودة ولطف، ثم همس في أذني قائلاً: 'جيد جداً يا أبا إمام. ولكن لا تخبر الآخرين. أريد أن أرى ما إذا كانوا يستطيعون إدراك ذلك بأنفسهم.'

صدمني تعليقه إذ وجدته شديد الغرابة. ما أكثر ما كان ابن الشيخ أن أوصانا بتقاسم كل ما لدينا مع إخواننا، بمساعدتهم عند كل فرصة مناسبة! بوصفنا جماعة كنا أكثر من مجرد حاصل جمع أجزائنا لأن كلاً من الإخوان كان يساهم بمهارات مختلفة ومعارف خاصة. كنا نعلِّم بعضنا البعض أشياء جديدة الوقت كله.

نهض ابن الشيخ ومشى نحو الإخوان الذين واصلوا الإطلاق على الهدف دون إصابته كل مرة. رحت أتساءل عن السبب الذي جعل ابن الشيخ يطلب مني أن أحتفظ باكتشافي لنفسي.

ذات ليلة، جاء ابن الشيخ إلى باب غرفتنا بعد ساعة أو اثنتين فقط من ذهابنا إلى النوم. أمرنا بالاجتماع أمام المسجد. طلب منا أن نكون حفاة ودون سترات. ونبه إلى أن من شأن من يجلب معه مصباحاً أن ينال عقاباً قاسياً.

لحظة خروجي من الباب، لاحظت أن السماء كانت سوداء فاحمة. لم يكن ثمة أي قمر في تلك الليلة، بل ولا أي نجوم. عدت إلى الغرفة قلَّبْتُ حوائجي في الكيس إلى أن اهتديت إلى مصباح الجيب الصغير الذي كنت قد اشتريته في مطار استانبول. دسَسْتُه في سروالي وتلمست طريقي فوق الصخور إلى المسجد. لم أكن قادراً على رؤية أي شيء على الإطلاق، غير أنني كنت أستطيع سماع بعض الأصوات. سمعت إخواناً ورائي، واستطعت أن أستنتج أن بعضهم كان يتعثر ويسقط وهو يتلمس طريقه بيديه عبر الظلام. تمكنت من أن أسمع أصواتاً كثيرة تتحدث أمامي، فعرفت أنني كنت سائراً في الاتجاه الصحيح.

ما إن تحررت من بين الصخور وشعرت بالأرض المستوية أمامي، حتى أدركت أنني قريب من المسجد. بدأت الأصوات تعلو أكثر، فمددت يدي أمامي. وإذا بيدي تلامس وجه أحد الإخوان فأتأكد من أنني في المكان الصحيح.

وفيما نحن واقفون هناك بانتظار وصول الجميع لنتمكن من تلقي أوامرنا، أدركت أنني كنت أرتجف. كان الخريف قد قطع شوطاً. باتت النهارات أبرد، أما الليالي فغدا تحملها شبه متعذر. وما إن اكتمل اجتماعنا حتى بادر ابن الشيخ إلى الكلام. أمرنا بأن نصطف رتلاً الواحد خلف الآخر وأن نضع أيدينا على أكتاف من هم أمامنا من الإخوان. لم أكن أستطيع رؤية حتى نقرة (رقبة) الأخ الذي كان أمامي، غير أنني تصورتُنا أفعى مؤلفة من نحو مئة مجاهد. كنت قريباً من الذيل مع عدد قليل من الإخوان ورائي.

بدأنا المشي. لا أحد منا كان قادراً على رؤية المكان الذي كنا فيه، غير أنني كنت أستطيع أن أشعر بحدوث انقلاب مثير في درجات زاوية الانحدار بعد المئات القليلة الأولى من الأمتار. كنا بادئين بتسلق أحد الجبال. لم أكن أستطيع أن أعرف شيئاً سوى ما كنت أحس به تحت قدمي، حيث لم أكن أشعر إلا بالصخور. وقد كانت مؤلمة جداً لراحَتيْ قدميَ لأنني لم أكن أستطيع النظر إلى الأمام قبل التخطيط لكل خطوة جديدة.

يجب أن نكون قد مشينا ثلاث ساعات بهذه الطريقة. في البداية كنا متوجهين غرباً؛ عرفت ذلك من الجهة التي توجهنا إليها عند مغادرتنا للمعسكر. إلا أنني، بعد فترة، فقدت أثر حتى ذلك؛ كان الحفاظ على الإحساس بالتوجه دون أي نقاط علام متعذراً. كنت أعرف أننا كنا نتسلق مكاناً عالياً جداً، لأن الطريق كان شديد الانحدار والرياح تزداد قوة باطراد وتخترق قميصي الرقيق.

بعد مدة، صارت حواسي الأخرى تعوض عن افتقاري إلى الرؤية. كنت أستطيع سماع حفيف الألبسة في الريح، والتمييز بقدرٍ أكبر من الوضوح بين الصخور تحت قدمي. بعضها كان أقسى وبعضها انعم. كانت لكل منها درجة حرارة مختلفة قليلاً. كان جسمي قد اكتسب قدراً من الدفء بفضل الحركة، واستطعت أن أحس بيدي ترتخيان على كتفي الأخ الذي كان أمامي بعد تطابقي مع وتيرة مسيرتنا العجيبة، العمياء، المتوغلة في الجبال.

فجأة، انهد جسمي على الأخ الذي كان أمامي، ومال الأخ الذي كان ورائي على ظهري. كان الشريط قد توقف. في البداية لم أستطع فهم ما حصل، إلا أنني ما لبثت أن سمعت حفيفاً خفيفاً منبعثاً من أمامي. ظننت أنه الريح، إلا أنني أدركت، مع تصاعد الحفيف، أن الصوت كان همساً. كان الإخوان يتكلمون أحدهم مع الآخر، ممررين رسالة إلى حلقات السلسلة. لم أستطع سماع ما كان يقال إلى أن استدار الكشميري الذي كان أمامي وهمس قائلاً: 'ابن الشيخ يطلب أبا إمام إلى مقدمة الرتل.'

اضطربت، غير أنني كنت قد تلقيت أوامري. مستخدماً قدمي تحسست حولي من الطرفين. استطعت أن اكتشف أن الانحدار كان نزولاً عن يميني، فخطوت على يسار الإخوان ورحت أمسح بيدي كلاً من الإخوان وأنا أتلمس طريقي ببطء فوق الصخور نحو مقدمة الرتل.

بعد بضع دقائق وصلت إلى رأس الأفعى. سمعت صوت ابن الشيخ، رغم أني لم أره. 'هات مصباحك يا أبا إمام!'

يا للعنة! أكَلْتُها. كيف عرف باصطحابي لمصباحي؟ بدأت أدوخ وأنا أتذكر ما كان قد قاله من قبل: كل من يتم اكتشاف مصباح معه سيعاقَب بشدة. كان ابن الشيخ قد عاقبني عدداً غير قليل من المرات، ولم يكن عقابه لطيفاً على الإطلاق. ما الذي كان يعنيه بالعقوبة الشديدة؟

لم يكن ثمة أي شيء أستطيع فعله. دسست يدي في سروالي وسحبت المصباح. تلمست طريقي نحو صوت ابن الشيخ، وحين أصبحت أمامه تحسست بحثاً عن يده ووضعت المصباح في راحته.

على الفور أضاء ابن الشيخ المصباح ووجَّهَه نزولاً إلى يمين الجماعة. فهمت مباشرةً: كان أحد الإخوان قد سقط. كنا ماشين على حافة هاوية سحيقة جداً، هاوية شديدة الانحدار، وكان الأخ قد هوى نحو خمسة عشر متراً إلى الأسفل. كان محظوظاً: صخرتان كبيرتان كانتا قد قطعتا مسار سقوطه. علق جسمه بينهما.

بعضنا في مقدمة الرتل انحدر بسرعة لنجدته. كان ابن الشيخ يتولى القيادة، والمصباح بيده. حين وصلنا إلى الشخص رأيت أنه أحد الشيشان. لا أحد أفراد مجموعتي، بل أحد الأشخاص الأكبر سناً ممكن كنت قد التقيتهم في المسجد في اليوم الأول من وصولي إلى المعسكر. كان الدم يغطيه وكان يصدر أنيناً خفيفاً. لم يكن يتحرك على الإطلاق.

سارعنا إلى تشكيل نقالة من بعض الأغصان السائبة، خلعنا قمصاننا واستخدمناها لوصل الأغصان ببعضها. مدّدنا الشيشاني على النقّالة، وبقيادة ابن الشيخ وبيده المصباح، انطلقنا مسرعين على طريق العودة إلى المعسكر.

كان الفجر موشكاً على البزوغ حين كان الجميع قد اندلقوا نازلين من الجبل. أقمنا صلاة الفجر ثم توجهنا إلى المقصف لتناول الفطور. بعد بضع دقائق، جاءنا أحد المدربين ليخبرنا أن الأخ كان قد كسر ذراعاً وساقاً. كانوا سينقلونه إلى مشفى في خوست.

ونحن موشكون على الانتهاء من الفطور دخل ابن الشيخ المقصف. وحين بدأ يتقدم نحوي، هبط قلبي. أعددت نفسي لعقوبة مرعبة؛ كنت قد خالفت أوامره الصريحة. صمت الجميع أيضاً. كانوا أيضاً ينتظرون سماع ما كان سيقوله.

ما لبث ابن الشيخ أن فعل شيئاً غير متوقع: ناولني المصباح. قال: 'شكراً يا أبا إمام. شكراً! أعرتني مصباحك.'

لم يكن الآخرون أقل مني اندهاشاً. استطعت أن أرى نظراتهم متقافزة من شخص إلى آخر وهم يحاولون استيعاب ما كان قد حصل للتو. إلا أن ابن الشيخ لم يقدِّم أي تفسير إضافي. فقط جلس وبدأ يتناول فطوره.

الطالبان

كنا معزولين عن باقي العالم في خالدان، وكنت أنا مسروراً بذلك. ونحن هناك كنا بعيدين عن سائر ضغوط الحياة الطبيعية ومشاغلها. لم يكن لدينا سوى هم واحد: أن نصبح مجاهدين.

غير أننا كنا متوفرين على أجهزة راديو. وخلسة، في ساعة متأخرة من الليل، كنت أحياناً أحاول الاهتداء إلى شيء من الموسيقا. نتف عجيبة كانت تتسلل عبر الأثير من الصين، من الهند، ومن أمكنة أخرى. كان هناك كثير من التشويش على الدوام، مما كان يجعل السماع صعباً. عادةً كان الصوت يختفي بالسرعة التي انبثق بها. فقط مرة واحدة سمعت إحدى الأغاني من البداية إلى النهاية: 'زومبي' لفرقة كرانبري.

غير أننا كنا نستطيع سماع الأخبار دائماً. كانت إذاعتا البي بي سي (BBC) والآر اف واحد (RFI) تصلان دائماً واضحتين، وكنا، الإخوان وأنا، تواقين لسماع ما كان يحصل في أوطاننا. ففي صيف وخريف 1995 كان ثمة فيض دائم من الأنباء عن أفغانستان أيضاً. في تلك الفترة كان رباني رئيساً للجمهورية. كان هو وأحمد شاه مسعود، قائده العسكري، مسيطرين على العاصمة: كابول. ولكن عليها وحدها؛ لأن المدينة كانت في حالة حصار دائم. بدعم الجهاز السري الباكستاني كانت حركة الطالبان تتقدم عبر البلاد متحركة باتجاه كابول. كان غلب الدين حكمتيار وحزبه الإسلامي يخوضان حرباً ضد رباني وشاه مسعود منذ سنوات، وكانا الآن يحاربان الطالبان أيضاً.

لم يكن أحد في المعسكر معجباً بالطالبان. لم نكن نتحدث عن ذلك صراحة، لأننا كنا نتلقى النصح بألا نتحدث عن سياسة البلد المضيف. غير أن الهمس كان، بالطبع، متواصلاً مصحوباً ببعض التعليقات المرتجلة. كان المدربون والإخوان يقولون كثيراً من الأشياء نفسها التي كنت قد سمعتها سابقاً من أمين وياسين: الطالبان مبالغون في تطبيق الشريعة؛ مفرطون في التشدد؛ أهل بدعة. كنت أكره الطالبان. وأنا في بلجيكا كنت قد قرأت عنهم ورأيتهم على شاشة التلفزيون. كانوا أشراراً، بعيدين كلياً عن الحضارة والمدنية. كنت أتقزز من الإعدامات وعمليات قطع الرؤوس، ومن نشرهم للخوف في أرجاء البلاد. كذلك كنت أكره الطالبان لأنهم كانوا أعداء شاه مسعود، الذي كان لا يزال بَطَلي ومَثَلي الأعلى، ذلك المجاهد النبيل الذي كان حائزاً على احترام حتى أعدائه.

لم أكن، بالطبع، أتحدث عن هذا مطلقاً. لا أحد منا كان يفعل. كانت حركة الطالبان قد استولت على مساحات شاسعة من أفغانستان، ونحن كنا بحاجة إلى أفغانستان، أرض الجهاد. كنا بحاجة إليها للإقامة والتدريب.

في أحد الأيام، ونحن نغادر المسجد بعد صلاة العشاء، أقبل علينا أحد المدربين مسرعاً. طلب منا أن نترك بنادقنا في المسجد. أعدنا البواريد إلى المسجد وخرجنا إلى الساحة الواقعة أمام المعسكر متلهفين لرؤية ما كان حاصلاً. كان ابن الشيخ يتحدث مع أحد الأفغان من أهالي القرية. كانا يتكلمان بصوت منخفض؛ من الواضح أن خللاً ما كان قد حصل. ثم دار ابن الشيخ ومشى إلى داخل المقصف بسرعة.

فجأة سمعنا جلبة محرك. شاحنة رباعية الدفع كانت تتقدم ببطء منحدرة عن سفح الجبل باتجاه المعسكر. وخلف الشاحنة، استطعت أن أرى مجموعة صغيرة من الرجال متجهة نحونا سيراً على الأقدام. بعد بضع دقائق وصلت الشاحنة إلى المعسكر وتوقفت. نزل منها ستة رجال. كانوا متكبين رشاشات الكلاشنكوف ومدافع الآر بي جي (RPG). بعد قليل مشى تسعة آخرون باتجاه المعسكر.

كانت مجموعة غير عادية، غير شبيهة في شيء بالطالب الشاب الذي كنا قد التقيناه في طريقنا إلى المعسكر. هؤلاء الرجال كانوا أكبر سناً، في أواخر عشرينياتهم على الأقل. وقد بدوا مثل زبانية جهنم. ملابسهم كانت قذرة ووجوههم مغطاة بالقذارات والتجاعيد. وجدتني متقززاً منهم على الفور.

كان المشهد غريباً. جميعاً كنا واقفين هناك دون رشاشاتنا في مواجهة هذه العصبة من المرتزقة المخضرمين. لا أحد من الإخوان أبدى أي عواطف. كان الفضول سيد الموقف. ومن الجدير ذكره أيضاً أن الطلاب لم يكونوا عدوانيين حين اقتربوا. ثلاثة منهم ابتسموا؛ من الواضح أنهم كانوا قادة. أما الآخرون فظلوا متجهمين.

مع خروج المدربين للترحيب بهم، التفتُّ لأنظر إلى داخل المقصف. كان ابن الشيخ يستعجل الإعداد لاستقبالهم، فسألته عما إذا كنت قادراً على مد يد

المساعدة. بدا ممتناً، وتعاونا على نشر سجادة كبيرة من الفرو وصففنا أطباقاً للعشاء.

غادرت مع شروع الطلاب في ولوج المقصف. خرج ابن الشيخ للحظات ليبلغ الإخوان بعدم وجود عشاء لهم تلك الليلة. ترنَّحْنا لحظات قليلة، ثم مشينا مبتعدين. غير أنني حرصت، قبل المغادرة، على إلقاء نظرة سريعة إلى داخل المقصف. كان ابن الشيخ جالساً في صدر حلقة الطلاب وإلى جانبه أبو بكر. ثمة أمر فاجأني: كان أبو بكر لا يزال مصطحباً بندقيته.

ذلك المساء، فيما كنا جالسين بانتظار رؤية ما كان سيحدث، قال لي أحد المدربين إن الطالبان كانوا قد جاؤوا مرة من قبل، قبل نحو ستة أشهر. لم يكونوا قد وصلوا إلى المعسكر في تلك المرة لأن أحد القرويين كان قد جاء لتنبيه ابن الشيخ إلى أنهم في الطريق. ومع بعض القرويين كان ابن الشيخ قد خرج للقائهم.

كان الطالبان يأتون لغرض واحد: كانوا يريدون أسلحة. كانوا دائبين على مسح أفغانستان الجنوبية متنقلين من معسكر إلى آخر، مطالبين الأمراء بتسليم كل ما كان بحوزتهم من سلاح. وكانوا يحصلون عليها، لأن الأمراء كانوا خائفين. غير أنهم لم يصلوا تلك الليلة إلى خالدان لأن ابن الشيخ قطع الطريق عليهم. حدثني المدرب عن أن ابن الشيخ كان قد أمضى ست ساعات في الحوار مع الطالبان، مستعيناً بترجمة أحد القرويين. آخر المطاف، كان قد أقنعهم بترك خالدان وشانه. فهذا المعسكر لم يكن يدرِّب أحداً للقتال في أفغانستان، كما شرح ابن الشيخ لهم. كان فقط عاكفاً على تدريب مجاهدين للقتال في باقي العالم. إن الإخوان في المعسكر كانوا يخوضون الجهاد نفسه الذي كانت حركة الطالبان تخوضه، ولكن في أمكنة مختلفة.

بعد بضع ساعات رحل الطالبان. لم يبح بما يجري في تلك الليلة أي من ابن الشيخ أو أبي بكر. إلا أن أحد الإخوان ما لبث أن أقْدَم، يوم الجمعة، على سؤال ابن الشيخ عما إذا كان جهاد الطالبان شرعياً. صمت ابن الشيخ قليلاً، ثم أجاب باقتضاب قائلاً: 'لم يأت أي منكم إلى هنا ليقاتل مع الطالبان. انتم هنا لتتدربوا كي تقاتلوا في أوطانكم.'

ألح الأخ من جديد، فخطا ابن الشيخ خطوة إضافية. من الواضح أنه كان يختار كلماته بعناية. قال إن الطالبان لم يكونوا جيدي التعليم مثلنا، بمعنى عدم استيعابهم الشريعة كما نستوعبها نحن. إلا أن رباني كان يريد نشر الديمقراطية في أفغانستان في حين كان الطالبان يريدون جعل أفغانستان دولة إسلامية. لهذا السبب بالذات كان الطالبان جديرين بشيء من الدعم.

وأفاد ابن الشيخ: 'إذا اختار أي منكم أن يقاتل في صف الطالبان يوماً، فلن يكون اختياره خطأ.' أخذ نفساً قبل أن يتابع قائلاً: 'ولكن من الأفضل بما لا يقاس أن تخوضوا جهادكم ضد محتلي القدس أو قتلة الشيشان.'

المستوصف

في أحد أيام الخريف كنت ماشياً بالقرب من المسجد حين استوقفني ابن الشيخ. ناداني وطلب مني الجلوس معه. وما إن استقرينا حتى بدأ يتكلم: 'أنت يا أبا إمام لن تذهب إلى بلاد الشيشان مع الإخوان. نحن بحاجة إليك في أمور أخرى.'

صُعقت. لم أكن أتوقع هذا على الإطلاق. طوال أشهر، كنت قد عكفْتُ على التدرب مع الشيشان حالماً بالذهاب معهم، بعد الانتهاء من التدريب، إلى بلاد الشيشان. كنا، جميعاً، قد تحدثنا عن ذلك. كنت قد أدمنت على كره الروس منذ سماعي لما كانوا قد فعلوه للإخوان في مجموعتي. ما أكثر ما حلمت بان أصبح

مجاهداً! كلما أطلقت رصاصة أو فَجَّرْت لغماً أو مارست تدبيراً تكتيكياً معيناً، كنت أفعل ما أفعله متوقعاً قرب احتمال توظيف مهاراتي ضد الغزاة الروس. كنت مؤمناً بالحرب الشيشانية.

لم أكن، مع ذلك قادراً على أن أفعل شيئاً. صحيح أنني كنت على الدوام قادراً على معارضة أي أمر يطرحه ابن الشيخ إذا بقي ملتبساً، أو أخفقتُ أنا في فهم ما كان يفعله. أما هذا فقد جاء بصيغة أمر مباشر وصريح، مما اضطرني لالتزام الصمت. فقط أومأت ومشيت إلى المهجع.

عصر ذلك اليوم، خرجت إلى الجبال وحدي. ظل عقلي شغّالاً. كنت مسحوقاً ومرتبكاً. تابعت التسلق أعلى فأعلى حتى كاد المعسكر يخرج من ساحة الرؤية، ثم جلست فوق بعض الصخور ورحت أحدق في الشمس الغاربة. لفتت نفسي بذراعي اتقاء لبرودة ريح الخريف. ومن ثم بدأت أناجي الله: 'لماذا، يا الله، لا تمكّنني من الذهاب إلى بلاد الشيشان؟ لماذا لا تريدني أن أصبح شهيداً؟'

بالطبع، لم يأتني أي جواب. لم يكن ثمة سوى لحن الرياح العازفة عبر الوديان. تابعت المناجاة: 'إذا لم تمكّني من الذهاب إلى بلاد الشيشان، فمكّني، اللهم، إذن، من أن أعيش حياة طبيعية. مكّني من أن أغدو زوجاً. مكّني من أن أصبح أباً لطفل. مكّني من امتلاك بيت.'

تخدَّر وجهي من البرد. اكتشفتُ أنني كنت أبكي وأن الدموع كانت تتجمد على وجنتي. ومن ثم رأيتها، أمامي مباشرة. امرأة جميلة مشرقة ذات شعر خرنوبي طويل وابتسامة وديعة. لقد سمعني الله واستجاب لدعائي. ولكنها ما لبثت، وبالسرعة نفسها، أن تلاشت واختفت وبقيتُ وحدي.

في اليوم التالي أبلغني ابن الشيخ بأنني كنت سأتولى إدارة المستوصف. أخ أثيوبي كان قد أداره خلال الأشهر الماضية القليلة، إلا أنه كان مغادراً فصار

تأمين البديل مطلوباً. لم يسبق لي أن حصلت على أي تدريب في المجال الطبي، ولكنهم ربما ظنوا أن لدي خبرة لأنني كنت قد حقنتُ أبا بكر.

كان المستوصف قريباً من المسجد، أمام أحد الكهوف. لم يكن كبيراً، إلا أنه كان مملوءاً بسائر أنواع الأدوية، الضمادات، مضادات الحشرات، وأدوات الجراحة. ثمة كان أيضاً عدد من الكتب والنشرات التعليمية بالإنجليزية الشارحة لأشكال معالجة أصناف الإصابات والأمراض المختلفة.

كنت قد توقفت عن التدرب مع الشيشان فأصبحت بداية متوفراً على الكثير من الوقت في المستوصف. صحيح أنني كنت لا أزال أمارس الرياضة مع الإخوان في الصباح، إلا أن الجزء الأكبر من بعد الظهر كان قد أصبح مُلْكاً لي. رحت أكرس هذا الوقت على تنظيم جميع المؤن الطبية على الرفوف، وقراء الكتب.

غير أن المرضى ما لبثوا أن بدؤوا يترددون. إخوان كثيرون أصيبوا بداء الملاريا في المعسكر، إضافةً إلى أن سائر أنواع الأمراض الجلدية كانت موجودة. كذلك كان أفغان من القرية القريبة يأتون للاستطباب، جراء المعاناة من مشكلات هضمية بسبب تلوث مياه الشرب.

أحياناً كان عدد المرضى النائمين ليلاً في المستوصف يصل إلى خمسة، وكنت أنا مسؤولاً عن رعايتهم. لم يكن ذلك صعباً؛ كنت قد قضيت كثيراً من الوقت في المشافي وأنا صغير مما جعلني محصَّناً ضد الانزعاج من مرافقة المرضى. إذا لم أعرف ما هم بحاجة إليه، كنت أستطيع الرجوع إلى الكتب. إلا أنني افتقدت ساعات التدرُّب مع الشيشان وصرت أشعر بالملل.

كنت في المقصف عصر أحد الأيام حين قام أحد المدربين باقتحام المكان وطلب مني أن أذهب إلى المستوصف. قال إن ابن الشيخ كان هناك بانتظاري. حين وصلت إلى المستوصف رأيت أحد الطباخين الأفغان، ذلك القادر على

الكلام، واقفاً مع ابن الشيخ وصبيين من القرية. أحدهما كان في نحو الثانية عشرة وحاملاً صبياً أصغر بكثير على ذراعيه. لم يكن الصغير يتجاوز السادسة أو السابعة.

كان رأس الصبي الأصغر مغطى بقطعة قماش، وحين قام الصبي الأكبر بنزع الغطاء شاهدت فجاً كبيراً في الجمجمة. كان الصبي الأكبر سناً يحاول شرح ما كان قد حصل، في حين كان الطباخ يترجم. كان الصبي الصغير قد سقط على صخرة فَجَّتْ رأسَه.

أجلست المفجوج على كرسي قرب مدخل المستوصف لأحصل على ما يكفي من الضوء لمعاينته. الفج كان عميقاً جداً. رأيت نتفاً من جمجمته. كان الدم يتدفق من الجرح. كانت بقع الدم تغطي الصبيين كليهما، ثم ما لبث أن غطتني أنا أيضاً.

كان الصبي منهكاً تماماً. عيناه كانتا غائمتين جراء الصدمة ورأسه ظل يتدحرج من جهة إلى أخرى. تعين علي أن أثبّت رأسه بيدي كي أتمكن من معاينة الجرح. بدا صغيراً بين يدي.

تدخل ابن الشيخ ليقول: "ستكون بحاجة إلى خياطة الجرح يا أبا إمام."

تلقيت الأمر، غير أنني لم أكن أعرف شيئاً عما كان يجب فعله. لم أكن قد فعلت ما هو أكثر من إعطاء المهدئات وصرف مبيدات الحشرات حتى تلك اللحظة. من المؤكد أنه لم يكن قد سبق لي أن مارست الجراحة. لعل الشيء الوحيد الذي كان قد سبق لي أن خِطْتُه في حياتي كان ثقباً في سروالي الجينز.

كان لابد لي من أن أفكر بسرعة. تذكرت أنني كنت قد وقعت عن الدراجة وأصبت بجرح بليغ في ساقي في إحدى العطل الصيفية بالمغرب. نقلتني أمي إلى

المستشفى. بذلت كل ما استطعتُ بذله من جهد لأتذكر ما كان قد حصل هناك بدقة. كنت اعرف أن التدبير الأول الذي اتخذه الأطباء تمثل بإعطائي إبرة كزاز في البطن مباشرة. هرعت إلى رفوف الأدوية وانقضضت على الكزاز وعلى إحدى الحقن. حقنت الصبي في البطن، تماماً كما كان الأطباء قد فعلوا معي. فكرتُ لثانية فتذكرت ما كان بعد إبرة الكزاز: كان لابد من تنظيف الجرح. اختطفت قارورة ماء مقطر ورحت أغسل الجرح وامسح الدم والتراب عن جلدة الرأس.

ولكن الصبي بدأ يزعق بقوة حين لمست رأسه. طلبت من الطباخ أن يوعز إلى الصبي الأكبر سناً بتهدئة المفجوج، غير أن هذا أيضاً لم يفد. تعين علي أن أعطي الولد مسكناً للألم. هرعت إلى الداخل واختطفت زجاجة ليدوكائين عن الرف، جنباً إلى جنب مع إبرة. كنت قد استعملت الليدوكائين من قبل لمعالجة أخ يعاني من الطفح الجلدي، غير أنني لم أكن قادراً على تقدير الكمية التي كان يتعين عليَّ إعطاؤها لطفل.

لم أكن أعلم ما إذا كان مسموحاً زَرْق الليدوكائين في جرح مفتوح، غير أنني كنت ملزماً بأن أفعل شيئاً. كان الولد يصرخ من الألم ولم أكن حتى قد بدأت بتثبيت القطب. فزرقت قليلاً من المادة مباشرةً في رأس الصبي عند أحد طرفي الجرح. انتظرت بضع ثوانٍ لأرى ما إذا كان رد فعله سلبياً، غير أن الوضع بدا على ما يرام، فَزَرقْتُ المزيد في الطرف الآخر.

بعد نحو دقيقة توقف الصبي عن الزعيق. صحيح أن رأسه ظل يتدحرج من جهة إلى أخرى، كما كان يفعل من قبل، إلا أن عينيه كانتا ذابلتين قليلاً الآن، ونهنهاته أقرب إلى النشيج. مدَّدْتُه على طاولة. جملة المواد - الإبر والخيوط - كانت موجودة في الخزنة، غير أنني لم أكن أعرف ما أفعله بها. أتيت بأحد الكتب الموضوعة على الرف. كان فيه عدد كبير من الصور بما في ذلك سلسلة

كاملة من الصور الموضحة خطوات خياطة أي جرح. وضعت الكتاب مفتوحاً على الصور ذات العلاقة ووضعته على الطاولة بجانب الصبي ورحت أتبع التعليمات.

في البداية، حاولت تقليد ما رأيته في الصور بدقة، لأن الكتاب كان يؤكد أهمية استخدام نوع خاص من القطب كي لا يبقى أي أثر. غير أنني لم أستطع أن أتقيد بالطريقة لأنها كانت تستغرق وقتاً طويلاً مما جعلني اكتفي بالقُطَب المباشرة التي كنتُ استخدمها لخياطة ثقوب سروالي.

كنت شاعراً بحمّى. مع أن الجو في الخارج كان جليدياً، فقد كان العرق يتصبب من جبهتي. أوعزت للطباخ بالإشارة أن يمسح جبيني بقطعة قماش. لم أكن أريد لعرقي أن يلوث جرح الصبي أو يغبش عيني وأنا عاكف على إجراء العملية.

حين ضغط الأفغاني بقطعة القماش على جبيني مرت بخاطري صورة غريبة. كانت تلك صورة سبق لي أن كنت قد رأيتها مرة بعد مرة على شاشات التلفزيونات الأوروبية: صورة طبيب أنيق عاكف على إجراء عملية جراحية محاط بباقة من الممرضات الجذّابات. كُنَّ يمسحْن جبينه ويفعلن كل ما يطلبه منهن. بدا المشهد كله سوريالياً جداً في تلك اللحظة. ما أبعد الثرى من الثريا! وما أبعد الطباخ الأفغاني من الممرضة الجذابة!

بعد ثوانٍ، انتفض الصبي وراح يزعق من جديد. بدأ يستعيد الوعي وأنا في منتصف عملية إغلاق الجرح. صار يضرب يميناً وشمالاً على الطاولة وكان الصبي الأكبر يجد صعوبة في تثبيته. حملت زجاجة الليدوكائين وملأت الإبرة. لم أعيّر الكمية هذه المرة، لم أكن مبالياً. كنت مرعوباً.

دسست الإبرة مباشرة في جلدة الرأس، تماماً كما من قبل. في أقل من دقيقة توقف الزعيق. بدا بارداً؛ جسمه الصغير هدأ تماماً. تدلى رأسه إلى جهة وامتد لسانه إلى خارج فمه.

نظر الصبي الأكبر إليّ بعينين فزعتين. شعرت بالرعب؛ كنت قد أعطيت الصبي كمية أكثر مما ينبغي من مادة التخدير. أو ربما كان قد نزف كثيراً فغاب عن الوعي. انحنيت فوقه لأرى ما إذا كان لا يزال يتنفس. وجدته يفعل فأكملت الخياطة بأقصى سرعة ممكنة. الوقت كله ظللت أصلي داعياً الله ألا يموت الصبي.

بعد الانتهاء، نظرت ثانيةً إليه. كان الوجه شاحباً تماماً. العينان مفتوحتان قليلاً، إلا أنهما كانتا تبدوان متدحرجتين في المحجرين دون رؤية. قمت بتنظيف جلدة الرأس بمادة البيتادين Betadine لتطهيرها وغطيتها بضماد. ثم رحت أنتظر وأنا أصلي.

بعد خمس عشرة دقيقة أفاق الصبي قليلاً. كان لا يزال شديد الضعف على ما بدا، وعيناه لم تكونا متركزتين على أي شيء. إلا أنه كان موشكاً على الشروع في النشيج من جديد مما جعلني أطمئن. استدعيت الصبي الأكبر، ومعه الطباخ الأفغاني. حملت زجاجة مضادات حيوية عن الرف وشرحت للطباخ أن على الصبي أن يتجرعها يومياً لمدة أسبوعين، ثم يأتي إلى المستوصف للمعاينة. أومأ الصبي الأكبر باحترام.

انتظرنا بضع ساعات إلى أن كان الصبي قد استعاد ما يكفي من القوة للجلوس. ثم حمله الصبي الأكبر بين ذراعيه وخرج به من المستوصف إلى قلب الليل البارد. لم تعد نبضات قلبي سريعة كما كانت من قبل، غير أن الرعب كان لا يزال يتملكني.

حين دخلت المقصف بعد بضع دقائق، نظر إلي ابن الشيخ نظرة ترقب وسأل: "هل سيكون بخير؟"

أجبت: "إن شاء الله!"

كانت الأيام القليلة التالية هي الأكثر إجهاداً في حياتي. كنت شديد الخوف من أن أكون قد قتلت الصبي. كان بالغ الضآلة والهشاشة. ما الذي كنت قد فعلته؟

ثم، ذات يوم، وأنا جالس في المستوصف دخل علي وهو يقفز مع الصبي الأكبر. كانت الفترة منذ إجراء العملية أقل من أسبوعين. استدعيت الطباخ الأفغاني للترجمة. أفاد الصبي الأكبر بأن المفجوج كان بخير: كان ينام ويأكل جيداً دون أي مشكلات على ما بدا.

أزَلْتُ الضماد ورأيت أن الجرح كان يلتئم. عقّمت مقصاً وأزلت القطب. لم يبدُ الصبي متألماً على الإطلاق. بعد الانتهاء لففت الجرح بضماد جديد. ثم قلت للصبيين أن يعودا للمعاينة قريباً. ابتسما وخرجا عدواً من المستوصف وهرعا عبر الحقول إلى القرية. مازلت قادراً على سماع صدى ضحكاتهما وهما يغيبان في الغسق. كان ذلك أحد أسعد أيام حياتي.

بعد ذلك بنحو أسبوعين رحل الشيشان. خرجت مع أبي همام ذات عصر لتنفيذ عملية تدريبية خاصة، وحين عدت كان الشيشان قد ذهبوا. لم أودِّعهم قط. ليتني أعرف ما إذا كان أحد منهم لا يزال على قيد الحياة!

أسامة

في أحد الأيام وصل إلى المعسكر صَبيّان. كانا حتى أصغر سناً من الشيشاني الأصغر في مجموعتي، أو الطفل الطاجيكي بالغ الحدة. كان الصبي الأكبر دون الثانية عشرة، والأصغر في نحو العاشرة.

وقف ابن الشيخ لتقديمهما في المسجد ذلك السماء. قال: 'هيا من فضلكم رحبوا بأخَوَيْكم الجديدَيْن. هذا حمزة' مشيراً إلى الأكبر، 'وهذا أسامة' مشيراً إلى الأصغر. حين التفتُّ تذكرتهما فوراً: كانا الصبيين اللذين كانا قد سلّما على

دليلي في مسجد حياة أباد ببيشاور. كان الدليل قد عنَّفَهما حين سألا عما إذا كان مكلفاً بإيصالي إلى المدرسة.

مع مبادرتنا جميعاً إلى الترحيب بحمزة وأسامة، لاحظت أن التحية كانت محاطة بقدرٍ أكبر من التبجيل مقارنةً بما كان مألوفاً. كان الصبيان يبدءان تدريباتهما في سن مبكرة جداً وكانت آيات الإعجاب بادية على وجوه الإخوان.

لم يتم ضم حمزة وأسامة إلى أي مجموعة مثل غيرهما من الإخوان. أغلب الأحيان، كانا يمضيان ساعات بعد الظهر مع مدربهما عاكفين على إتقان فنون استعمال الأسلحة الخفيفة من مسدسات ورشاشات. غير أنهما كانا، في أوقات أخرى، يلتحقان بي أنا. كنت قد أنجزت كل تدريباتي في هذه المرحلة، إلا أن أبا همام كان، في أيام معينة، يصطحبني إلى الحقول للمزيد من التدريب، على المتفجرات عادة. كنت أتحدث مع الصبيين بالإنجليزية، ولاحظت أن لديهما كليهما لكنة أمريكية قوية. غير أنني لم أعرف كثيراً عنهما في البداية، لأن كلاً منهما كان يكره الآخر وكانا في حالة حرب دائمة؛ لا في حالة مجرد شجار ومناقرة كما يحصل بين الإخوة والأشقاء عادةً، بل في حالة حرب حقيقية.

ذات يوم كانت مجموعة منا جالسة فوق تلة قريبة من المعسكر. كان حمزة وأسامة يتدربان في حقل الرمي مع أحد المدربين. كان حمزة يطلق النار ببارودة كلاشنكوف وكان أسامة يتدرب. على رشاش بي كي (PK). كلاهما كانا بائسين، من الواضح أنهما لم يكونا يعرفان شيئاً عن الأسلحة. بدا واضحاً أنهما كانا قد نسيا كل ما كانا قد تعلماه في غرفة الصف.

وكالعادة كانا أقل اهتماماً بالتدريب منهما بالتشاجر فيما بينهما. وبعد بضع دقائق توقفا عن إطلاق النار على الأهداف واستدار كل منهما نحو الآخر. ومع أننا كنا بعيدين، استطعنا أن نسمعهما يصرخان. فجأة حمل أسامة رشاشه البي كي (PK) ووجهه نحو أخيه. وسارع حمزة على الفور إلى تسديد كلاشنكوفه على

أخيه بالمقابل. صُدمْنا جميعاً. لم يسبق لأي منا أن وجَّه سلاحه نحو غيره من المجموعة بهذه الطريقة. كان الصبيان يتصايحان بأصوات أعلى فأعلى. إصبعاهما كانا على زنادي رشاشيهما.

أقدِّر أن الجميع على التلة اعتقدوا أن الصبيين كانا موشكين فعلاً على قتل كل منهما الآخر. وربما كانا قد فعلا لو لم يكن المدرب قد سارع إلى القفز للوقوف بينهما والمبادرة إلى إبعاد كل منهما عن الآخر. ما إن انتهى الفلم الكابوسي حتى تبادلنا النظرات المفعمة رعباً. لم يكن قد سبق لنا أن رأينا شيئاً كهذا في المعسكر. كان الولدان قد انتهكا جميع القواعد والأصول التي كنا قد تَلَقَّنّاها وحفظناها عن ظهر قلب منذ اليوم الأول للتدريب. بعد قليل، عدنا نضحك ورحنا نعلّق مازحين على ما كان قد حدث، على الرغم من أنه لم يكن مثيراً للسخرية على الإطلاق. أدى المشهد إلى استنفار أعصابنا.

ذات يوم، جاء والد الصبيين إلى خالدان. لم تدم زيارته سوى بضع ساعات. جاء مستقلاً سيارة رباعية الدفع مع بضعة رجال، ولكن ابن الشيخ أبعدهم بسرعة إلى داخل مخبر المتفجرات قبل أن تتوفر لي فرصة معاينتهم.

ما من أحد كان يتحدث عن مخبر المتفجرات الذي كان خلف المسجد، بالقرب من مدخل كهوف الذخيرة. كنا ممنوعين منعاً باتاً من الدخول. في الحقيقة لم نكن مخوَّلين حتى النظر إليه. غير أن المبنى كان مجهزاً بنوافذ زجاجية وكانت رؤية المعدات ميسَّرة - الأكواب الصيدلانية الكبيرة - أنابيب الاختبار، كل شيء، تماماً مثل أي مخبر مدرسي.

الشخص الآخر الوحيد الذي سبق لي أن رأيته داخلاً إلى المخبر كان أسد الله، ذلك المدرب الجزائري أحمر الشعر الذي جاء إلى خالدان لمدة أسبوعين. رأيته يدخل المخبر مع ابن الشيخ عدداً من المرات. وفيما عدا ذلك أدمنّا على مجرد التظاهر بأن المخبر لم يكن موجوداً.

كان الصبيان دائمي إلحاق الأذى كل منهما بالآخر، مما جعلهما يكثران من المجيء إلى المستوصف. كانا شديدي الاختلاف. فأسامة كان مفرط النشاط؛ كان دائم النَّطْوَطة وكثير الكلام، في حين كان أخوه أهدأ، وأكثر تحفظاً.

بعد قليل، بدأ أسامة يحدثني عن أهله. علمت أن والد الصبيين، مصري، وعالم. والولدان كانا قد ترعرعا معظم الوقت في كندا، غير أنهما كانا يعيشان الآن في بيشاور. كانا مع والدهما في خوست سنة 1991، خلال المعارك الشرسة والعنيفة التي تمخضت عن إطاحة نجيب الله وإخراجه من السلطة.

كان أسامة دائم التباهي بأبيه الذي كان، برأيه، شخصاً مهماً على معرفة بكثير من الناس. قال لي: 'أبي هو أحد أقرب أصدقاء زبيدة.'

سألت: 'ومن يكون زبيدة هذا؟' لم أكن قد سمعت بالاسم من قبل.

نظر إليَّ أسامة مستغرباً. سأل: 'ألم تلتقه حين كنت في بيشاور؟'

أجبت: 'لا أعلم. ما شكله؟'

مع شروع أسامة في وصفه، أدركت الشخص الذي كان يشير إليه: إنه الرجل الذي كنت قد بقيت معه في ليلتي الأخيرة بالباكستان، في ذلك البيت المظلم، العجيب. ذلك الذي كان قد زوَّدَني بالسروال والقميص العتيقين، وسلَّمني إلى الدليل الذي جاء بي إلى أفغانستان.

أضاف الصبي مثرثراً: 'إن زبيدة مهم جداً. إنه الذي يتولى نقل جميع العرب إلى المعسكرات ومنها.'

في أحد الأيام سأل أسامة عن شخص آخر. قال: 'هل تعرف أسامة؟'

أجبت: 'أعرفه بالطبع. أنت أسامة.'

'لا، لم أقصد أنا. أسألك عن أسامة الآخر.'

سألته: "ومن يكون؟" كنت واثقاً من أن الصبي كان راغباً في إخباري.

قال: "إنه بالغ الأهمية. هو أحد أفضل أصدقاء أبي. هو من يدفع قيمة كل الطعام هنا."

مع مرور الزمن، كنت سأعرف نتفاً إضافية عن أسامة. عرفت أنه بالغ الغنى، كان قد شق طرقاً في سائر أرجاء أفغانستان بعد انتهاء الحرب الأهلية.

وذات يوم سألت: "من أين هو أسامة هذا؟"

بدأ الصبي يقول شيئاً، ثم ما لبث أن منع نفسه. بدأ وجهه يحمر وهو يقول: "أعتقد أنه من الإمارات... لا أعرف. لا أستطيع أن أتذكر. قد أكون مخطئاً..."

كانت تلك المرة الأولى التي أراه فيها يحاول إخفاء شيء. كان فاشلاً جداً في ذلك. إلا أنني كنت قد سجلت أن من الضروري أن يكون أسامة شخصاً مهماً نظراً لمحاولة الصبي حجب المعلومات. كان لابد من انقضاء عامين آخرين قبل أن أكتشف السبب.

أما حمزة فنادراً ما كان يتكلم. لعله لم يجد أي فرصة ليفعل، فأخوه لم يكن يكف عن الثرثرة. إلا أن ابن الشيخ أمر في إحدى الليالي بنقله إلى المستوصف جراء إصابته بالحمى ومعاناته من آلام في المعدة. تعين على حمزة أن يقضي الليل في المستوصف، وكنت معه.

تلك هي المناسبة التي أخبرني فيها ما كان قد رآه خلال المعركة في خوست. ليلة بعد أخرى كان يرى السماء مشتعلة بقذائف المورتار والصواريخ. مرة، سَقَطَتْ قنبلة في مكان قريب من المكان الذي كان، مع أبيه، واقفاً فيه في الساحة العامة. غير أن القنبلة لم تنفجر. تنحى الجميع بضع دقائق منتظرين حصول شيء، إلا أن شيئاً لم يحصل. بقيتْ القنبلة هامدة حيث هي.

قال ما إن اتضح أن القنبلة لم تكن موشكة على الانفجار، حتى اندفع حشد من الأفغان لإنقاذ المعدن مع ما فيه من مادة متفجرة. كان الناس شديدي الفقر ودائبين على إعالة أنفسهم عبر بيع نتف من الذخائر وغيرها من المواد إلى المجاهدين.

تحلق الأفغان حول القذيفة، وراح أحدهم يضربها بمطرقة لفتحها من أجل الحصول على المواد الموجودة بداخلها. انفجرت القذيفة. كانت ثمة كرة نار عملاقة، وبعد انقشاع الدخان تبين أن جميع الأفغان كانوا جثثاً هامدة. كانت الأطراف وقطع الملابس مبعثرة في أرجاء الساحة كلها.

ابتسم حمزة وهو ينهي رواية القصة ويقول هازاً رأسه ضاحكاً: 'أليس ذلك غباء؟ إن الأفغان شديدو الغباء.' غير أنني استطعت أن أقرأ في عينيه ما يشي بأن القصة كانت ما تزال تُؤرِّقه وتُحزِنه، رغم انقضاء خمس سنوات على وقوع أحداثها.

ممر خيبر

وبعد ذلك ما لبث أن جاء دوري أنا للرحيل عن خالدان في أحد الأيام. لم يكن أي إنذار مسبق. أتى أحد المدربين إلى المستوصف ليبلغني بأن ابن الشيخ كان يريد أن يكلمني، فمشيت إلى كوخه. كان واقفاً أمام أفغاني لم يكن قد سبق لي أن رأيته من قبل. حَيّاني ابن الشيخ، ثم تكلم وقال: 'اذهب وهات حوائجك. ستغادر في ساعة.' ناولني رسالة مختومة. 'أنت ذاهب إلى معسكر آخر، حيث ستتلقى تدريباً متقدماً في المتفجرات. بعد أن تصل إلى بيشاور سلّم هذه الرسالة إلى أبي زبيدة، وهو سيتولى الباقي.'

أخذت الرسالة وعدت إلى المهجع للملمة أشيائي. لم يكن لدي أي وقت للتفكير بما كان حاصلاً. الآخرون جميعاً في حقول التدريب. ولم يكن ثمة،

بالتـالي، من أودّعه. حملت كيسي وخـرجت به إلى أمـام المعسكر حيث كـان ابن الشـيخ وأبو بكـر ينتظرانني مع الدليل. تبـادلنا التـحـية، وقـال أبو بكـر: 'صَلِّ من أجلنا أيها الأخ!' كان وجهه مفعماً بالدفء والمودة.

في تلك اللحظة، غمرني إحساس بأنني كنت سأراهما، كليهما، مرة أخرى، فقلت: 'سأعود إليكما، إن شاء الله!'

أعـادني الدليـل إلى البـاكسـتـان، وإن سلكنا طريقـاً مغـايرة هذه المرة. بعـد وصولنا إلى بيشاور ذهبنا لأداء الصلاة في الجـامع نفسه الذي كنت قد رأيت فيه كلاً من أسامة وحمزة قبل بضعة أشهر.

مـا إن انتـهـينا من الصـلاة حـتى اسـتـقلينا سـيـارة أجـرة أوصلتنا إلى حي بيشاوري لم يكن قد سبق لي أن رأيته. كان فـاخراً، مثل حيـاة أباد. ما لبث الدليل أن أوقف السائق، ثم انتظر اختفاءه. وبعد ذلك مشينا بضع مئات من الأمـتار إلى أن وصلنا إلى بوابة دارة (فيلا) كبيرة. قام الدليل بقرع الجرس، وسـرعان ما جاء رجل يحمل كلاشنكوفاً ليُدخلنا. مشـينا نحن الثـلاثة عبـر حـديقـة ندية ومنعـشـة وصولاً إلى داخل المنزل. كان المكان جميلاً من الداخل، مفرطاً في أوروبيته، أشبه بصور كنت قد رأيتها لقـصـور ومـزارع في الريف البـريطاني. كان ثمـة عـدد من الرجال يجوسون المكان حاملين بنادق رشاشة.

تسلّقنا السلّم المفـضي إلى غـرفـة كـبـيـرة حـيث كـان رجـلان جـالسـين على وسـادتين على الأرض يحتسيـان الشـاي. الحـارس الذي كان قد أدخلنا طلب مني أن أجلس وانتظر. ثم رافق الدليل الأفغاني إلى خارج الغرفة.

بعد بضـع دقائق دخل رجل أشقر. كان أبيض البشـرة أزرق العينين. في البداية ظننتـه ألمانيـاً، إلا أنه مـا لبث أن قدم نفسـه قـائلاً: 'السـلام عليـكم! أنا أبو سـعـيـد الكردي.' كان الرجل كردياً. قدمتُ نفسي وطلب مني أن أحمل كيسي وأتبعه.

استأجرنا تكسي أوصلنا إلى أحد مواقف الحافلات، حيث استقلّينا الحافلة التي أوصلتنا إلى مخيم اللاجئين. أعادني أبو سعيد إلى نفس البيت الآمن الذي كنت قد أمضيت فيه ليلتي الأولى في مخيم اللاجئين، وطلب مني أن أترك حوائجي هناك. غادرنا البيت وذهبنا إلى حي المخيم الذي كان أبو أنس قد دلني فيه، في يومي الأول هناك، على البيوت الكبيرة العائدة للمقاتلين العرب وعائلاتهم. كانت البيوت مفصولة قليلاً عن باقي المخيم، وأجمل بما لا يقاس. أكبر ومبنية بالطوب.

توقفنا أمام أحد البيوت وقرع أبو أنس الجرس. أدخلنا أحد الحراس. في الداخل، في غرفة الجلوس، رأيت الرجل الذي كنت قد أمضيت معه ليلتي الأخيرة في الباكستان قبل الذهاب إلى خالدان. الرجل ذو النظارات واللحية القصيرة (السكسوكة). عرفت من أسامة وحمزة أن هذا كان أبا زبيدة.

اقتادني أبو زبيدة إلى داخل مكتبه، تاركاً أبا سعيد في غرفة الجلوس. وما إن أغلق الباب، حتى مررت إليه الرسالة التي كان ابن الشيخ قد أعطاني إياها. بعد أن قرأ وضع يده على كتفي وابتسم لي ثم قال: 'ما شاء الله! لقد أبليت بلاءً حسناً في خالدان. أنا فخور بك. غداً أنت ذاهب إلى معسكر جديد قريب من جلال أباد، حيث ستبدأ التدرب على المتفجرات.'

أبو سعيد وأنا بقينا في البيت الآمن تلك الليلة. كان ثمة عدد غير قليل من الرجال، إلا أنني لم أتذكر أياً منهم من زيارتي الأولى.

صباح اليوم التالي استأجرنا، أبو سعيد وأنا، سيارة أجرة رباعية الدفع تسلقت بنا الجبال، نحو ممر خيبر. كانت دَهْشَتي تتزايد باطّراد. كنت أعاني من السأم خلال أسابيعي الأخيرة في خالدان، وكنت أتطلع بلهفة إلى القيام بشيء جديد. أضف إلى ذلك أنني كنت تواقاً لتعلم المزيد عن المتفجرات التي كانت مادتي المفضَّلة في الدورة التدريبية التي جرت في خالدان.

مع تسلقنا متوغلين في عمق ممر خيبر زاد المشهد جلالاً ومهابة على نحوٍ مطرد. قمم الصخور على جانبي الطريق كانت على ارتفاع مئات الأمتار، معانقة للسماء، وكان ثمة حشد من القلاع وأطلال الحصون في كل مكان. رحت أتطلع بشوقٍ ولهفة إلى مغامرتي الجديدة.

ما أكثر ما كنتُ قد قرأتُ عن ممر خيبر! وكم أحسست بأنني في شيء أشبه بالحلم الذي لا علاقة له بالواقع وأنا هناك! أعظم الجيوش في التاريخ مرت من هنا. كان داريوس قد عبر عصفاً على رأس قواته الفارسية، وبعده كان الاسكندر الأكبر وجنكيزخان. ثم جاءت جيوش المغول، التتار، الأتراك، المُغُل والأفغان جميعاً. وبعد كل ذلك أتى البريطانيون. وأنا أنظر محدقاً عبر النافذة، تصورت أجيال المقاتلين المتعاقبة الزاحفة عبر هذه الأرض الجافة التي لا تعرف معنى الغفران والصفح.

اختطفني أبو سعيد من أحلامي اليقظة مع اقترابنا من المعبر الحدودي. أبلغني بأن عليّ ألا أرد على الحراس إذا أوقفوني. كان يجب، بدلاً من ذلك، أن أتظاهر بالجنون. أن أقلِّب رأسي من جهة إلى جهة. أن أبدو كما لو كنت في نوبة صرع. ينبغي ألا أتفوه ولو بكلمة عربية واحدة مهما حصل. كان هو سيتولى كل شيء بالمعالجة.

عندما وصلنا إلى الحدود، استطعت أن أرى أن هذا كان من شأنه أن يكون أخطر بكثير من عبوري الحدودي الأول إلى داخل أفغانستان. ثمة كانت حشود من الناس، السيارات، والشاحنات في كل مكان، مع أعداد كبيرة جداً من رجال الشرطة. وكان هناك مكتب جمركي حيث كان مطلوباً مني، ربما، أن أبرز أوراقي. لم أكن قد رأيت جواز سفري منذ يوم وصولي إلى خالدان، حيث تركته مع أبي بكر. بالطبع لم يكن سيفيدني في شيء ـ لعل العكس كان هو الصحيح. كنت في

زي أفغاني في حين كان جواز سفري مغربياً، إضافةً إلى أن إقامتي كانت قد انتهت قبل أشهُر.

وقفت في الصف الطويل الممتد خلف مبنى الجمارك. كان الحشد يزحف ببطء عبر البوابة. ومع اقترابي من الحراس استطعت أن أرى أن هؤلاء كانوا عموماً يوقفون الناس لمجرد التفتيش على الأسلحة والمهربات. كانوا يوقفون بعض الأشخاص لمدة أطول من أجل تدقيق الوثائق.

عندما أصبحت أمام الحارس رفعت ذراعي ليتمكن من تفتيشي كما كان قد فعل مع الآخرين. انتظرت أن يقول شيئاً، غير أن دفعة من الخلف قذفتني إلى الأمام قبل أن يفتح فمه. أحدهم كان يصرخ جرفني السيل البشري المتدفق إلى الأمام.

سرعان ما وجدتني متجاوزاً نقطة الحراسة. لم أفهم ما كان قد حدث، غير أنني عرفت أنني كنت محظوظاً، وتابعت المشي. حين التفتُّ إلى الخلف شاهدت أبا سعيد صارخاً في وجه الحرس بلغة لم أفهمها. أدركت أنه كان قد أخرج الفلم كله.

ما إن أصبحنا، كلانا، على الجانب الأفغاني من الحدود حتى استأجرنا، أبو سعيد وأنا، سيارة أجرة أخرى. توقفنا في جلال أباد لفترة وجيزة كي يتمكن أبو سعيد من التزود ببعض المؤن. كانت جلال أباد مدينة تجارية صاخبة، وكانت الشوارع محاطة من الجانبين بصفوف من المحلات التي تبيع مختلف أصناف البضائع. فوجئت برؤية سائر أنواع الأجهزة الإلكترونية المعروضة للبيع - تلفزيونات، آلات تسجيل ستيريو. سألت أبا سعيد عن سبب إحجام الطالبان عن وضع حد لهذا فشرح لي أن جلال أباد كانت أشبه بنوع من الأرض المحرَّمة في الحرب الأهلية. لم تكن خاضعة لأي من الأطراف المتقاتلة؛ لا لرباني ولا لحكمتيار ولا للطالبان.

وبعد أن انتهى أبو سعيد من التزود بما كان بحاجة إليه، ركبنا سيارة أجرة أخرى رباعية الدفع وانطلقنا لقطع مسافة بضعة كيلومترات أخرى، حتى وصلنا إلى قرية صغيرة. أفادني أبو سعيد بأن القرية كانت تدعى دارونتا، وهو الاسم الذي كان يطلق أيضاً على المعسكر الذي كنا متوجهين إليه.

أنزلتنا السيارة هناك، ثم تقدمنا سيراً على الأقدام عبر القرية. أمامنا ما لبث الطريق أن غابت في ثنايا أحد الجبال العالية. قال أبو سعيد: "تلك هي الطريق المفضية إلى كابول." واصلنا المشي. كان ثمة نهر ناحية اليمين، ثم ما لبثنا أن وصلنا إلى جسر. سرعان ما أدركنا من الضجيج أنه كان في الحقيقة رأس أحد السدود، وحين نظرت إلى الخلف رأيت خزاناً كبيراً.

كان هناك حارسان عند مدخل الجسر. حَدَجانا بنظرة خاطفة ولكنهما لم يفعلا شيئاً. في الطرف الآخر من الجسر كانت ثمة طريق ترابية ضيقة. ومع متابعة السير على هذه الطريق الترابية شاهدت المخلفات الصدئة لجميع أنواع العربات العسكرية السوفيتية المبعثرة بين التلال. وبعد مسافة، رأيت ما بدا أشبه ببيتين كبيرين. غير أنني ما لبثت، مع اقترابنا أكثر وبروز الهيكلين على نحوٍ أوضح، أن أدركت أنهما لم يكونا بيتين بل دبابتين عملاقتين. كانتا نقطة للتفتيش أو حاجزاً.

كان الحاجز محروساً بعدد من الأفغان. بدأ أبو سعيد يكلمهم، وكان واضحاً أن الجميع كانوا يعرفون بعضهم البعض. وفيما كنت واقفاً أنتظر فراغهم من الكلام، عاينت العربتين المدرعتين. رأيت أنهما كانتا من نمطين، كنت قد درستهما، كليهما، في خالدان، وإن لم أكن قد رأيت أياً منهما فعلياً. إحداهما كانت من طراز بي ام بي - 1 (BMP-1) عربة مشاة سوفيتية تطلق صواريخ مضادة للدروع شديدة الانفجار. أما الثانية فكانت من طراز زد اس يو - 23 - 4 ZSU-23-4، معروفة باسم شيلكا. وهي أكبر حتى من البي ام بي - 1 (BMP-1) ومجهزة بمنظومة دفاع جوي موجهة رادارياً.

شعرت بالاعتزاز وأنا أقف هناك أمام العربتين المدرعتين. كنت قد تخرجت من (أكاديمية) خالدان وكنت الآن موشكاً على البدء بشيء أكبر. العربتان المدرعتان كانتا شاهدتين على صحة توقعاتي: كنا قريبين جداً من خطوط جبهات الحرب الأهلية. من الواضح أن كل ما كان خلف الحاجز كان جديراً بالحراسة.

دارونتا

مع متابعة السير صعوداً، راح أبو سعيد يوضح أن دارونتا كانت مؤلفة فعلياً من عدد من المعسكرات المتمايزة لمجموعات جهادية مختلفة. ثمة كان معسكر يديره العرب؛ آخر يديره الكشميريون. ونحن كنا متوجهين إلى معسكر الحزب الإسلامي الذي هو الفريق الموالي لحكمتيار.

كانت الشمس موشكة على الغروب لدى اقترابنا من المعسكرات، فتوقفنا أولاً في المعسكر العربي لأداء الصلاة. أفهمني أبو سعيد أن هذا لم يكن المعسكر الذي كنت سأتدرب فيه. كنا سنغادر بعد انتهائنا من الصلاة. أوصاني بالحذر، وبعدم قول أي شيء عن نفسي للإخوان في المعسكر.

توجهنا مباشرةً إلى المسجد للصلاة، وبعد الانتهاء من الصلاة ابتسم المتدربون العرب لنا مرحبين بنا. من الواضح أنهم تعرّفوا على أبي سعيد. جميعاً كانوا شباباً في مقتبل العمر؛ ذكّروني بالمجندين الجدد الذين كانوا يصلون إلى معسكر خالدان.

اصطحبني أبو سعيد إلى داخل المبنى الرئيسي لمقابلة أمير المعسكر. جلسنا وشربنا الشاي معه، وتحدث هو وأبو سعيد باللغة العربية. لم أفهم كل ما كانا يقولانه فتركت عقلي يجوس المكان برفقة عيني.

بدأت أدرس هؤلاء المجاهدين. جميعاً كانوا فتياناً. حاولت أن أتصور آفاقهم

المستقبلية. تصورتهم ينسفون السفارات، يختطفون الرسميين، يسطون على الطائرات.

لم يسبق لي أن نظرت إلى أحد في خالدان من هذا المنظار على الرغم من أن أولئك كانوا بالطبع، فتياناً مثل هؤلاء تماماً وكانت لهم آفاق مستقبلية تنتظرهم. غير أننا كنا متركزين الوقت كله على تدريبنا، وحين لم نكن نفعل ذلك كنا أكثر تعباً وإجهاداً من أن نستطيع أن نفكر. لم يكن أي مجال ذي شأن يُترك للخيال.

كان الوضع مختلفاً في خالدان لسبب آخر أيضاً. هناك، لم أكن أفكر بنفسي بوصفي شخصاً منفصلاً عن الإخوان. كنت واحداً منهم. أما هنا، فوجدتُني خارج الحلبة. كنت أعرف أنني لن أتدرب مع هؤلاء الشباب. إذن كنت قادراً، للحظة واحدة، على رؤيتهم بعينَيْ جاسوس.

برَبْتَة خفيفة على كتفي، أشار أبو سعيد أن وقت رحيلنا قد حل. ودَّعْنا الأمير ثم عُدنا القهقرى خارجين من المعسكر لمتابعة السير في الطريق النازلة. مرة، أشار أبو سعيد إلى دشمة قوية التحصين أمامنا. أفهمني أنها محطة بث تلفزيوني وإذاعي عائدة لحكميتار والحزب الإسلامي.

ومع دخولنا إلى معسكر الحزب الإسلامي، توقف أبو سعيد وكلَّمني شارحاً:

'هذا هو المكان الذي ستتدرب فيه. هذا المعسكر عائد للمقاتلين العرب في الحزب الإسلامي، وكثيرون من أولئك المقاتلين العرب يأتون إلى هنا من الجبهة للراحة. غير أنك لست واحداً منهم. أنت لست عضواً في جماعة حكمتيار. أنت هنا لسبب مختلف. لا سلطة لأمير المعسكر عليك، باستثناء تنظيم أعمال الطبخ والتنظيف والحراسة اليومية في المعسكر. فيما عدا ذلك تستطيع أن تفعل ما يحلو لك.'

بدت محاضرة أبي سعيد شديدة الغرابة بنظري. في خالدان، كانت كل دقيقة من وقتنا مخططة لنا، وكان الأمير مطلق السلطة والنفوذ. إن هذه النوعية من الحرية التي كان أبو سعيد يصفها بدت لي ملوّبة، مسيلة للعاب المعنوي والفكري. تابع أبو سعيد محاضرته: 'لتوّي علمْتُ من الأمير هناك أن مدربك لن يكون هنا إلا بعد بضعة أسابيع أخرى. أصيب، وأُسعف إلى بيشاور للمعالجَة.' وجدتني شديد الارتباك. ما الذي كنت سأشغل نفسي به هنا، دون أمير فعلي ودون مدرب؟

نظرت إلى ما حولي ونحن نهم بالدخول إلى المعسكر. كانت ثمة صالات تخزين عند المدخل، ثم عدد من 'البراكيات' في الداخل. غير أن ما لفت نظري حقاً تمثل بعربة البي ام بي - 1(BMP-1) القابعة وسط المعسكر. وعلى مسافة خمسة عشر متراً رأيت دبابة تي - 55(T-55) وهي أيقونية. إذ كنت قد رأيت واحدة في أي من جُل أشرطة الفيديو الجهادية التي شاهدتها. بدأت أقدر أنني كنت، حتى دون وجود أي مدرب، سأجد أشياء كثيرة جديرة بأن تشغلني في دارونتا.

دَلَّني أبو سعيد على بناء صغير من الطوب وسط المعسكر. كان ذلك هو المسجد. كان هناك رجلان جالسان في الداخل، وقدمني أبو سعيد إليهما. أحدهما أبو موسى، كردي عراقي، والآخر أبو حميد، من الأردن. كلاهما كانا يعيشان في المعسكر. ربما كانا في أوائل ثلاثينياتهما، بالغي الود. نظرت من حولي داخل المسجد فوجدت المكان ملآن بالكتب. كان هناك جهاز تلفزيون أمام أحد الجدران.

غاب أبو سعيد دقيقة، وحين عاد كان معه رجلان. أحدهما أبو جهاد، أمير المعسكر. من الجزائر. والثاني كان مفاجئاً لي. صديقي من خالدان: عبد الكريم. من الواضح أنه فوجئ مثلي حين رآني، غير أن الأمير بدأ الكلام قبل أن تتاح لنا فرصة تبادل أي كلمة.

كرر أبو جهاد كثيراً من الأشياء التي كان أبو سعيد قد قالها لي: أن المعسكر عائد لحكمتيار، والإخوان من الجبهة آتون ذاهبون. مسؤوليات السخرة اليومية موزعة على الجميع. أما الآن فلم يكن في المعسكر سوانا نحن الخمسة: أبو موسى، أبو حميد، أبو سعيد، عبد الكريم، وأنا.

ثم توجه أبو جهاد إليّ مباشرةً وقال: 'ربما سمعت أن أسد الله، مدربك، أصيب اليوم. اتصلنا بإخواننا في بيشاور قبل بضع دقائق، وعلمْنا، لسوء الحظ، أنه لن يستطيع العودة قبل شهر أو نحوه. يمكنك أن تقتل الوقت إلى أن يعود بالتدرب على الدبابات هنا، جنباً إلى جنب مع أي أسلحة تحظى باهتمامك.'

ضحكت بين وبين نفسي. بدا وكأن عطلة صيفية بادئة: لا دروس طوال شهر كامل وجميع الأسلحة المدهشة للعب بها. وكذلك فإن عبد الكريم كان هنا، بما كان يمكنني من أن أتكلم بالفرنسية من جديد. من شأن هذا أن يكون أكثر انطواءً على المتعة والتسلية بما لا يقاس من العمل في صيدلية خالدان.

وقفنا حين أنهى الأمير كلامه. أقبل عبد الكريم علي راسماً ابتسامة عريضة على وجهه: 'الحمد لله أنك هنا أيها الأخ!' ثم قادني إلى مطبخ مشاة نقال في وسط المعسكر. ثمة كان سخان في الداخل، والطاقة الكهربائية مأخوذة من السد الذي مشيت فوق جسمه في طريقي إلى هنا. ونحن نتبادل الكلام، قام عبد الكريم بغلي الماء وأعد لنا فنجانين من النسكافه.

صيد السمك

عبد الكريم وأنا تكلمنا عدداً من الساعات في تلك الليلة الأولى. حدثني الأخ عن أسد الله، مدرب المتفجرات، الذي كان قد عَرَّض نفسه للإصابة في وقتٍ سابق من اليوم لدى إعداد الآر دي إكس (RDX). سألته عما إذا كان هذا أسد الله نفسه الذي كان قد جاء إلى خالدان، ذلك المدرب الجزائري الذي كان قد أمضى فترات طويلة جداً من الوقت في مخبر المتفجرات. فقال إنه هو.

استأنفنا من حيث انتهينا في لقائنا الأخير. أخبرني عبد الكريم أنه كان، بعد مغادرة خالدان، قد أقام في بيشاور مدة شهرين عاكفاً على إتقان فن تزوير الوثائق - جوازات السفر، بطاقات الاعتماد (المصرفية)، تذاكر الهوية. كان قد وصل إلى دارونتا قبلي بشهر تقريباً. ومن ذلك الوقت كان دائباً على الدراسة مع أبي موسى، الكردي العراقي الذي كنت قد التقيته في المسجد. كان يتعلم فن تركيب أجهزة تحكّم عن بعد لتفجير العبوات الناسفة.

شاءت الأقدار أن ننام عبد الكريم وأنا في الغرفة نفسها بدارونتا. كانت هي غرفة أسد الله أيضاً، غير أن متسعاً إضافياً بات متوفراً بعد غياب الأخير.

خلال الأسابيع التالية، كنت أحياناً سأحضر مع عبد الكريم الدروس التي كان الأخير يتلقاها من أبي موسى في مجال الأجهزة الإلكترونية. في خالدان كنا قد تعلمنا أموراً أساسية جداً مثل كيفية تفجير عبوة باستخدام ساعة أو هاتف خليوي. أما عبد الكريم فكان يتعلم شيئاً أصعب بكثير. كان يتعلم فن تركيب أجهزة تفجير عن بعد من الصفر. كانت ثمة سائر أنواع المكوِّنات: المعالجات الصُّغْرية، لوحات المفاتيح. غير أن العمل نفسه كان شاقاً ومتطلباً لقدرٍ هائل من التركيز. ومع ذلك فإن عبد الكريم كان تواقاً للتعلم. كان بحوزته كتاب مدرسي ضخم، وكان يبقى منكباً عليه إلى ساعات متأخرة من الليالي.

سائر أصناف الأسلحة كانت متوافرة في دارونتا، وقطع كثيرة منها كانت أكثر تعقيداً بما لا يقاس من تلك التي تعاملنا معها في خالدان. كانت موجودة في كل الأمكنة. صالتا التخزين عند المدخل كانتا مملوءتين بالأسلحة، كما كانت ثمة مستودعات تموين أخرى كثيرة خلف المسجد ملأى بمختلف أنواع البنادق، الألغام، والقنابل اليدوية (الرمانات).

دَرَّبَني الأمير أبو جهاد على عدد كبير من الأسلحة الجديدة خلال هذه الأسابيع الأولى. تعلمت كيفية استخدام حنفية الايه تي - 4 (AT-4 Spigot)،

وهي سلاح مضاد للدروع ضخم يتطلب مجرد نقله ثلاثة عناصر. ينبطح الرامي مائلاً للإطلاق وتندفع القذيفة الصاروخية بسرعة فائقة. ما إن تنطلق حتى تسير بسرعة تصل إلى نحو مئتي متر في الثانية. ثمة سلك طويل يصل القذيفة بالراصد مما يمكنهما من التواصل. فالقاذف يستطيع توجيه القذيفة الصاروخية بدقة فائقة نحو أهداف على بعد اثنين من الكيلومترات.

كذلك تدربتُ على الاس بي جي ـ 9 (SPG-9). وهو رشاش روسي يطلق صواريخ مضادة للدروع، تماماً مثل البي ام بي ـ 1 (BMP-1). الذي كنت قد رأيته أمام المعسكر. أحدث السلاح دوياً مخيفاً عندما أطلقته، غير أنني لم أكن متوفراً على أي شيء أسد به أذني. تعين علي أن أتعود عليها.

ومع ذلك فإن بواريد القنص كانت هي المفضلة عندي. لم أكن قد أطلقت من أي واحدة منها في خالدان؛ لعل بارودة القنص التي كنت قد اقتربت منها كثيراً هي تلك التي كنت قد رايتها في غرفة أبي بكر يوم زرته لإعطائه إبرة. أما هنا في دارونتا فكانت ثمة أعداد كبيرة من بواريد القناصة من طراز دراغونوف. كنت شديد الفرح لتمكني أخيراً من استخدام واحدة منها. كنت قد اشتريت أعداداً من بواريد الدراغونوف لياسين في بلجيكا، غير أنها، على الدوام، كانت مفككة حين كان لوران يسلمني إياها. كانت بارودة الدراغونوف سلاح الهدّاف، الرامي الماهر، وكنت عاشقاً لدقتها.

لم نكن نعاني من أي نقص ذخيرة في دارونتا. ثمة كان رصيد لا نهائي في المستودعات وكان أبو جهاد سخياً جداً معنا، يسمح لنا أن نستخدم ما نريد وبمقدار ما نشاء. ولم نكن نقصِّر في الاستفادة من هذين السخاء والوفرة. لم يكن ثمة أشياء أخرى يمكننا أن نفعلها.

في إحدى الليالي، قررنا عبد الكريم وأنا، أن نصطاد السمك بقنبلة يدوية. ذهبنا إلى البحيرة وقذفناها في الماء. غير أن توقيتنا كان خاطئاً. كانت الرمانة

معيرة على أن تنفجر بعد عشر ثوانٍ، إلا أننا بكّرنا في قذفها وكانت قد أصبحت بعيدة عن السطح عندما انفجرت. في المرة الثانية قررنا استخدام السمتكس. استعملنا صاعقاً متفجراً وكانت النتيجة ممتازة. مئات فراخ السمك طفت على السطح، وسارعنا، عبد الكريم وأنا، إلى السباحة نحو وسط البحيرة ومعنا سطلان لالتقاط عشائنا.

في إحدى المرات استخدمنا بارودة الدراغونوف لصيد البط. كانت العملية ناجحة بمعنى واحد: كنا قادرين على قتل البط بسهولة. غير أننا كنا قد وقعنا في خطأ استخدام طلقات خارقة للدروع، وحين ذهبنا لالتقاط البط وجدناها ممزقة أشلاء. ما كنا لنستطيع أن نستسيغ تناولها وهي كذلك.

على الرغم من أننا كنا نلهو معاً، فإنني أستطيع أن أقول إن شيئاً كان قد تغير بالنسبة إلى عبد الكريم. بات أهدأ مما كان في خالدان، ولكن أكثر حزناً أيضاً. كثيراً ما كنت أعود إلى غرفتنا فأجده مخربشاً خربشات عابثة على هوامش كتابه التعليمي بدلاً من أن يكون عاكفاً على الدراسة.

كان عبد الكريم فناناً رائعاً. كان يرسم صوراً تفصيلية بالغة الروعة للأشخاص. كان استثنائي الولع برسم محاربي العصور القديمة مثل تلك التي كنت قد رأيتها في المتحف ببروكسل: صور أوائل المجاهدين بملابسهم الحربية الكاملة. غير أن صفة مشتركة كانت جامعة لسائر رسومه؛ كانت بلا وجوه.

مرات كثيرة سألت عبد الكريم عما إذا كان ثمة خلل. عادة كان يراوغني. غير أنه ذات ليلة أقر بأنه كان مكتئباً لأن الجبهة الإسلامية المسلحة في فرنسا كانت قد أوفدته إلى معسكرات التدريب كي يصبح مجاهداً. قال إنه كان شديد التوق لأن يصبح شهيداً. غير أن أمراً واحداً كان يمنعه: أمر ابنته. إذا ما قضى فإن مطلَّقَتَه، وهي من الطواغيت، كانت ستتولى تربية ابنته. لن يبقى من يقوم بتنشئة الطفلة نشأة مسلمة.

أبو جهاد

كان عبد الكريم خبيراً بجغرافية المعسكر، فأطلعني على مختلف الأجزاء والأقسام. على أحد أطراف المعسكر ثمة كان عدد من المستودعات المحفورة بعمق. كانت ملأى بأجزاء مكوِّنة للمتفجرات. وهذه الأجزاء كانت تخزن في صناديق منفصلة لمنعها من التفاعل. وداخل المستودعات كان كُلُّ صندوق معنوناً بعناية: آسيتون، حمض آزوت، حمض كبريت، أمونيوم، سيليلوز، مسحوق الألمنيوم، وما إليها.

كانت المخابر على بعد نحو خمسين متراً من المستودعات، بالقرب من طرف المعسكر. أحدها كان مخصصاً للتدريب على المتفجرات، وآخر على السموم. وخلف المخابر كانت هناك زريبة صغيرة ملأى بالأرانب.

غير أنه لم يكن هناك أحد في دارونتا يستطيع تدريبنا على المتفجرات، مما أبقى معظم وقتنا ملكاً لنا. أحياناً كنا نذهب إلى جلال أباد، ونزور السوق. وفي أوقات أخرى، كنا نشاهد أفلاماً في المسجد. كان هناك حشد هائل من أشرطة الفيديو الدعائية التي كنا نستطيع مشاهدتها في أي وقت. على الدوام كنت من عشاق الأفلام، وقد تذكرت أنني كنت قد افتقدت متابعة البرامج التلفزيونية وأنا في خالدان. أمضيت كثيراً من الوقت في المسجد خلال تلك الأسابيع الأولى عاكفاً على استعراض المجموعة الكبيرة من الأفلام عن المجاهدين خلال الحرب السوفيتية ـ الأفغانية.

ذات يوم وجدت نفسي في المسجد مع أبي موسى، ذلك الكردي العراقي. كنا نشاهد فلماً كان قد سبق لي أن رأيته من قبل في مركز بومبيدو، فِلْم ذلك المجاهد المسرحي المثير الواقف على برج إحدى الدبابات هاتفاً: "الله أكبر!" وهو يرفع كلاشنكوفه فوق رأسه. قلت لأبي موسى إنه كان أحد أفلامي المفضلة.

وافقني الرأي: 'نعم، إنه فلم عظيم. تلك الدبابة مدهشة.' غير أن أبا موسى كان يضحك وهو يقول هذا، فسألته عن السبب ورد علي بسؤال: 'ألم تتعرف عليها؟ إنها دبابتي!'

عندئذ أدركت ما عناه: كانت الدبابة هي التي - 55 (T-55). الواقفة قرب واجهة المعسكر. أخبرني أنه كان قد استولى عليها خلال إحدى المعارك في كابول، وأنه كان يسوقها لدى تصوير الفلم. ذُهلت. هذه الصورة كانت قد انغرست في عقلي قبل عقد من الزمن، مما جعلني أبادر إلى انتهاز الفرصة حين سألني أبو موسى عما إذا كنت راغباً في تعلم فن استخدام هذه الدبابة.

علمني أبو موسى كل ما يمكن تعلُّمَه عن التي - 55 (T-55). القيادة، تدوير المحرك، تشغيل المدفع. وحين اقتنع بأنني أصبحت جاهزاً، سمح لي بأن أخرج فيها وحدي. سقتها إلى فسحة مستوية قريبة من المعسكر وهو يراقب. كانت الدبابة ثقيلة جداً وصعبة المناورة. ثم ما لبثتُ أن وجدت نفسي متسلقاً سفح التلة، متجهاً نحو معسكر الكشميريين. بطرف عيني رأيت أبا موسى دائباً بعصبية على الإيماز إلي بالإشارة طالباً مني أن أتوقف. ضغطت على المكابح بأقصى سرعة استطعتها. حين وصل أبو موسى، شرح لي أن سفح التلة كان مدروزاً بالألغام التي تركها السوفييت وراءهم. عَرَّضْتُ نفسي لخطر النسف.

فيما بعد، عَزَّيْت نفسي. رأيت احتمال لومي على الخروج عن المسار الصحيح غير وارد لحداثتي في امتلاك إجازة السوق التي لم أحصل عليها إلا قبل أشهر.

على امتداد عدد غير قليل من الأسابيع، كنا، عبد الكريم وأنا، المتدربَيْن العربيين الوحيدين في المعسكر. أما الآخرون الذين كنا نراهم فكانوا من مقاتلي الحزب الإسلامي الذين كانوا يأتون من الجبهة لقضاء بضعة أيام. كنا نتجنب

التحدث معهم بعد أن قيل لنا إننا لم نكن متبنين رسالتهم وإنّ من الضروري ألا ندس أنوفنا في سياستهم.

كان مقاتلو الحزب الإسلامي يتناولون الطعام معنا ويصلّون معنا في المسجد وبالتالي فقد كنا، بطبيعة الحال، نسمع ما كانوا يتحدثون عنه. أكثر الأحيان كانوا يتحدثون عن الطالبان. كنا في أواخر خريف 1995، وكنا نسمع عبر الراديو عن معركة كابول العنيفة. مع أن رباني ومسعود كانا صامدين فإن الطالبان كانوا قد حققوا مكاسب كبيرة. غير أن كثيرين ظلوا مقتنعين باستحالة فوز الطالبان بالعاصمة وحدهم، بأن عليهم أن يتحالفوا إما مع حكمتيار وقواته أو مع أمير الحرب الأوزبكي الجنرال رشيد دوستم، اللذين كانا لا يزالان يسيطران على قطاعات واسعة من البلاد.

كان جميع مقاتلي الحزب الإسلامي مقتنعين بأن على حكمتيار أن يقف في صف الطالبان. كانوا يكرهون الرباني، ويرون التحالف (مع الطالبان) فرصة للخلاص منه مرة وإلى الأبد. غير أنهم، جميعاً، كانوا يعرفون أن أبا جهاد، أمير المعسكر، كان ضد الفكرة. كان كامل الولاء لحكمتيار الذي لم يكن راغباً في التحالف مع الطالبان.

بطبيعة الحال كنا، عبد الكريم وأنا، في صف الأمير. كنا نعرف أن الطالبان أهل بدعة. غير أننا لم نكن على علاقة بحكمتيار مما دفعنا إلى أن نكتم آراءنا. أما أبو موسى وأبو حميد، الأردني، فلم يكونا، على ما بدا، مُباليَيْن بأي من الطرفين.

ما لبث التوتر أن تفجر. قرر المقاتلون تنصيب أمير جديد بدلاً من أبي جهاد. طرحوا الأمر على التصويت، ولكنهم اختلفوا لأن التصويت لم يكن بالإجماع. بعضنا لم يُدْلِ بصوته فانزعجوا. غير أن أي مشكلة لم تنشأ لأن أبا جهاد سرعان

ما كان قد اكتشف تفاصيل العملية. لم يكن غاضباً؛ اكتفى بلزوم فراشه. بقي في غرفته وكانت وجباته تصله إلى حيث هو. أعلن للملأ أنه كان مريضاً.

بعد بضعة أيام، عُدْناه، عبد الكريم وأنا، للسؤال عن صحته. حين دخل غرفته تبين بوضوح أن أبا جهاد لم يكن يعاني من أي علة. فقط كان مستاء من انقلاب الإخوان عليه. لم يفهم سبب عدم حبهم له، وكان متأثراً عاطفياً. استمر الوضع أسبوعاً، حتى أولئك المعارضون للأمير بدؤوا يقلقون. لم يكن أبو جهاد قد أزيح من منصبه؛ كان لا يزال أمير المعسكر، وكان لابد لشخص ما من أن يكون مسؤولاً. وهكذا فإن مجموعة من مقاتلي الحزب الإسلامي عقدت اجتماعاً وقررت زيارته في غرفته. قال له أفراد المجموعة إنهم كانوا شديدي الرغبة في أن يكون أميراً، ورجوه أن يعود إلى الإمارة.

بعد بضع ساعات، عاد أبو جهاد إلى الظهور، فعادت المياه إلى مجاريها. انتهت المسرحية الدرامية. غير أني لم أستطع إلا أن أرى أن هذا كان تصرفاً غريباً بالنسبة إلى أي أمير، ولاسيما بالنسبة إلى أمير على بعد بضعة كيلومترات فقط من منطقة تدور فيها رحى الحرب.

بعد صلاة ظهر أحد الأيام أبلغنا أبو جهاد بعزمه على الانتقال إلى المعسكر الكشميري. سألَنا عما إذا كان أحد منا يريد إيصال رسالة إلى بيشاور أو المعسكرات الأخرى، أو عما إذا كان أي منا راغباً في مرافقته. راودني الفضول؛ قررت الذهاب معه.

مع أن المعسكر الكشميري لم يكن يبعد سوى نحو أربع مئة متر، فقد تعين علينا أن نلف بالسيارة حول المعسكر العربي، وصولاً إلى الطريق ومن العودة إلى تسلق التلة حيث كان موقع المعسكر الكشميري. كانت المساحة الفاصلة بين معسكرنا ومعسكرهم مدروزة بالألغام، ولم نكن نستطيع الاقتراب منها.

استقبلنا قائد المعسكر لدى وصولنا، وتقدمنا رجوعاً باتجاه مبنى صغير مجهز بجهاز اتصال إذاعي. اتصل أبو جهاد مع بيشاور ومن ثم مع معسكرات أخرى في ساروبي وخوست. وفيما كنت جالساً أصغي، كشميري شاب جاء بالحلويات والشاي. وبعد ذلك اتصل أبو جهاد مع ابن الشيخ تبادلا الكلام عدداً من الدقائق، ثم ناولني السماعة. قلت:

'السلام عليكم! كيف الأحوال عندكم؟'

'عليكم السلام! ماذا عن التدريب؟' بدا سعيداً بسماع صوتي. قلت له:

'نحن بانتظار عودة أسد الله.'

'مفهوم. أنت يا أبا إمام تركت لنا هنا مشكلة كبيرة.' استغفرت لثانية؛ كنت مدمناً على توبيخات ابن الشيخ. غير أنه تابع يقول: 'أنت مشهور في القرية. منذ إنقاذك للصبي، جميع أهل القرية يأتون إلى المعسكر طلباً للرعاية الطبية. ليس لدينا أحد يتولى علاجهم، باتوا موشكين على الإجهاز على كل مخزوننا من الأسبرين!'

سمعته يضحك على الطرف الآخر من الخط، فضحكت أيضاً. افتقدت ابن الشيخ.

ساروبي

كنا في المسجد أحد الأيام حين سألنا أبو جهاد عما إذا كنا راغبين في السفر معه إلى أعالي هضبة لاتاباند. دبابتان كانتا للتو قد سقطتا في أحد الوديان السحيقة حيث تم إجبار مسعود وجيشه على الانسحاب من موقعه جراء تقدم قوات الطالبان. كان أبو جهاد وأبو موسى ذاهبين لإنقاذ بعض التجهيزات من الدبابتين. كان ثمة جهاز تسديد بالأشعة تحت الحمراء أراده أبو موسى لنفسه كنا سنبقى بضعة أيام في معسكر الحزب الإسلامي في ساروبي.

كنت أستمع إلى الراديو، وكنت أعرف كل شيء عن ساروبي من خلال التقارير الإذاعية. كان المعسكر قاعدة حكمتيار الرئيسية، بسبب موقعه الاستراتيجي ذي الأهمية الاستثنائية. فساروبي كانت على مسافة نحو خمسة وسبعين كيلومتراً من كابول، إضافةً إلى كونها حاضنة سد عملاق كان يولد كل الطاقة الكهربائية المغذِّية للعاصمة. معركة عنيفة كانت دائرة حول ساروبي خلال الخريف كله.

انقضضنا، عبد الكريم وأنا، على فرصة اللحاق بركب أبي جهاد؛ أردنا رؤية خطوط الجبهة. بدأنا الرحلة صباح اليوم التالي الباكر. كان أبو جهاد وراء مقود شاحنة بيك آب من طراز تويوتا، وكان أبو موسى جالساً معه في القمرة. أما عبد الكريم وأنا فكنا في الصندوق الخلفي المكشوف مع اثنين من محاربي الحزب الإسلامي.

لم يسبق لي في حياتي أن بردت كما فعلت وأنا في صندوق الشاحنة المكشوف. كان الوقت أواخر الخريف، وكان ثمة رياح عاتية بالغة الشراسة تعصف عبر الصدوع والوديان الانهدامية. والطرق كانت شديدة الوعورة. قطاعات كبيرة منها كانت مدمرة بالقنابل والألغام. ثمة كانت حواجز على الطريق، غير أن الحراس لم يكونوا يوقفوننا.

كنت أعرف هذه الطريق - الطريق من جلال أباد إلى ساروبي - من مطالعاتي ومن الأفلام الوثائقية. كانت بؤرة كمائن غير عادية خلال الحرب مع السوفييت. كنت أستطيع رؤية شواهد تلك المعارك في كل مكان. فالوادي السحيق تحت الطريق كان مترعاً بحطام الدبابات والمدافع السوفيتية. استطعت أن أتخيل المجاهدين منقضّين كالرعود على الغزاة السوفييت.

وصلنا إلى ساروبي في ساعة متأخرة من بعد الظهر وعبرنا القرية إلى المعسكر الواقع خلفها مباشرةً. كان ثمة أفغانيان يحرسان المدخل، طلبا منا

التوقف بالإشارة. تكلم معهما أبو جهاد لدقيقة، ثم فتحا البوابة وسمحا لنا بالدخول.

نبهنا أبو جهاد إلى احتمال وجود حكمتيار في المعسكر. وإذا كان، فإنه كان سيقابله. قال إن حكمتيار كان ينام في إحدى الدشم عند قاعدة السد حين كان هو - أبو جهاد - في ساروبي. ولكن ما كان أكثر إثارة من احتمال لقاء حكمتيار تمثل بالحشد غير العادي من الأسلحة والمدافع المنتشرة حولنا. ثمة كانت دبابات مثل التي - 55 (T-55) والتي - 64 (T-64) الأحدث، الشيلكات التعددية، العديد من راجمات الصواريخ الكبيرة والصواريخ العملاقة المرافقة. كانت هذه أسلحة فعلية لجيش فعلي.

في هذا الجزء من المعسكر لم يكن هناك سوى أفغانيين، فتابعنا السير إلى جزء آخر من المعسكر عائد للعرب من مقاتلي الحزب الإسلامي. عبرنا جسراً ورأينا السد إلى يسارنا. بدا عملاقاً، وصخب الماء المندفع فوقه كاد يصم الآذان.

بعد قليل وصلنا إلى بعض المهاجع. كنت أرتجف لحظة تزولي من الشاحنة. قادنا أبو جهاد إلى أحد المباني، حيث استقبلنا عدد من المجاهدين العرب. أقمنا الصلاة معاً في مسجد صغير قريب ثم تناولنا وجبة العشاء وتحدثنا على وقْع دَويّ السد في الأفق البعيد.

في اليوم التالي تسلقنا بالسيارة إلى هضبة لاتاباند برفقة عدد من المقاتلين العرب من معسكر ساروبي. كانت الطريق ملغمة بكثافة شديدة مما اضطرنا إلى تجنبها والسير بدلاً من ذلك على مجرى جرى تجفيفه للنهر.

صادفنا شاحنة كبيرة مع شروعنا في التسلق إلى هضبة لاتاباند. ومع اقترابنا أكثر، استطعت أن أرى ثلاثة حراس مسلحين حول الشاحنة. اقترب

أبوجهاد بالسيارة من الشاحنة ونظرت أنا إلى داخلها. كانت الشاحنة ملأى بالألغام وسائر أنواع الأسلحة الأخرى.

كان ثمة رجل بجانب الشاحنة. ما إن مَيَّزَ أبا جهاد حتى ابتسم وحيا ملوحاً. كان يحمل مخلباً معدنياً مكان يده اليمنى. تبادل هو وأبو جهاد الكلام لبضع دقائق ثم تابعنا السير. شرح أبو جهاد أن الرجل كان صياد ألغام مشهوراً دأب على كسب الكثير من المال عن طريق استخراج المواد المتفجرة في الداخل وإعادة بيعها للمجاهدين.

تطلب الوصول إلى الدبابتين مدة خمس ساعات. استطعنا رؤيتهما من الطريق؛ كانتا قد سقطتا في المضيق، في وادٍ بعمق عشرين متراً تقريباً. كانتا اثنتين من دبابات التي - 55 (T-55) الجديدة.

نزلنا جميعاً من الشاحنة، وربض الآخرون على حافة الطريق للنظر إلى قلب المضيق. كنت أعاني من مغص شديد مزحوماً جداً فانطلقت نحو التلة وقبعت خلف بعض الصخور لأقضي حاجتي. وحين انتهيت وقفت فرأيت أبا جهاد يلوح إلي بذراعيه وهو يصرخ: 'ماذا تفعل أنت هناك، يا أبا إمام؟ لماذا ابتعدت عن المجموعة؟'

أجبته صارخاً: 'كان علي أن أفعل. كان الأمر ملحاً.'

'اسمع يا أبا إمام، التلة ملأى بالألغام. مسعود كان هنا بالتحديد!'

فجأة، فهمت. جيش مسعود المنسحب قد لغم الطريق لتغطية جناحه. غير أني لم أكن قادراً على فعل شيء بعد أن فعلت ما فعلته. مشيت نازلاً عن التلة آملاً ألا يحصل مكروه.

سفح الوادي السحيق كان شديد الانحدار مما جعل إنقاذ المعدات من الدبابتين مهمة محفوفة بالمخاطر. كنا ثمانية أشخاص، غير أن اثنين من الإخوان

بقيا مع الشاحنة في حين بادرنا نحن الباقين إلى النزول متمسكين بحبل ثخين إلى الدبابتين. وفيما عكف أبو جهاد وأبو موسى على فك القطع الكهربائية التي كانا قد جاءا للحصول عليها، انشغلت أنا بمعاينة داخل الدبابتين. كتل جافة من الدم كانت تغطي المقاعد والجوانب في الدبابتين.

في طريق عودتنا إلى ساروبي تلك الليلة، توقفنا في إحدى محطات الحزب الإسلامي، على هضبة مرتفعة. 'تعالوا ننزل!' قال أبو جهاد. 'نستطيع أن نرى كابول من هنا.'

وفيما انشغل الآخرون بالحديث مع الأفغان المتمركزين في المحطة، مشينا، عبد الكريم وأنا، إلى حافة الصخرة. ثمة كانت سلسلة من الجبال أمامنا وبعدها سهل فسيح. وهناك في الأفق البعيد، استطعنا أن نرى ومضات قذائف المدفعية المضيئة. أما دوي الانفجارات فكان يستغرق بضع ثوانٍ ليصل إلينا حيث كنا واقفين عابراً المشهد كله.

كانت المرة الأولى التي أرى فيها حرباً حقيقية. بقينا، عبد الكريم وأنا، واقفين هناك بضع دقائق، إلى أن نادانا أبو جهاد. أقمنا الصلاة مع الأفغان ثم توجهنا نحو المعسكر عائدين.

أفغاني، أفغاني

أقمنا في ساروبي نحو أسبوعين. لم نقابل حكمتيار قط، غير أننا أمضينا وقتاً ممتعاً مع المجاهدين العرب كنا بصدد مستوى جديد تماماً من المدفعية. ثمة كانت راجمتي المفضلة العملاقة للصواريخ من طراز فروغ - 7 (FROG-7). كانت القذائف الصاروخية هائلة؛ كانت الواحدة تزن أكثر من خمس مئة كيلوغرام.

ومع ذلك فإن أكثر ما تعلمتُه كان حول سياسة الحرب. أدركت مدى عمق حقد مقاتلي الحزب الإسلامي على مسعود، وهو أمر أحزنني. كانوا يسخرون من

طريقة اعتماره قبعته الباكول مائلة إلى الخلف. بدوا مقتنعين بأنه كان ألعوبة بيد الفرنسيين لأنهم سمعوه في إحدى الليالي عبر الراديو يتكلم باللغة الفرنسية مع أحد قادته الميدانيين.

قال لي أحد الرجال إنهم كانوا قد تحدثوا مع مسعود قبل بضعة أيام. سمعوا صوته عبر الراديو فدخلوا على الموجة نفسها. احتد النقاش وراحوا يهينونه ويشتمونه. انتظرهم مسعود إلى أن انتهوا، ثم طلب من العرب أن يغادروا أفغانستان قائلاً إنه لم يكن ثمة أي جهاد بل معركة داخلية مجردة صراعاً على الأرض والسلطة. لم يكن ثمة ما يدعو العرب إلى الانخراط.

والمجاهد الذي روى لي القصة كان يسخر من غباء مسعود. وقد قال إن الجماعة استأنفت شتائمها بعد أن أنهى مسعود كلامه. غير أن هذا المجاهد اعترف بأن مسعوداً بقي بالغ التهذيب واللباقة خلال الحوار كله.

لم يكن جنود الحزب الإسلامي يثقون بالأفغان على الإطلاق. بين الحين والآخر كانوا يزورون المعسكر الأفغاني الواقع على الطريق، إلا أنهم كانوا يفضلون البقاء وحدهم معظم الوقت. كانوا يروون قصصاً عن المعارك التي دارت حول كابول أوائل التسعينيات ويتحدثون عن مدى سرعة نقل الأفغان لولاءاتهم. أفادوا بأنهم كانوا قد شاهدوا أفغاناً يقتلون مجاهدين عرباً، حتى وهم يقاتلون مع الطرف نفسه. دأبوا على تنبيهنا: 'إياكم أن تثقوا بالأفغان!' كان قد سبق لي أن سمعت عدداً من التعليقات المشابهة في خالدان، رغم أن أحداً لم يطلقها على نحوٍ صريح ومباشر. بدأت أفهم سبب منعنا الدائم من الكلام مع الأفغان من أدلاّء، حراس، أو طبّاخين.

إن ظاهرة عدم استساغة مقاتلي الحزب الإسلامي للأفغان كانت بالغة الحدة إلى درجة أن حكمتيار نفسه لم يكن ناجياً من الشتائم والإهانات. أحياناً كان الرجال يسخرون من الحرب، يهزون أكتافهم، ويهتفون: 'حكمتيار، رباني -

أفغاني، أفغاني.' كان المعنى واضحاً: لم تكن هوية من يستولي على كابول ذات أهمية؛ لا فرق بين أفغاني وأفغاني آخر، في النهاية.

في البداية، أربكني هؤلاء الرجال. لماذا كانوا هنا بالمطلق؟ من الواضح أن أعواماً من المعارك كانت قد جعلتهم قساة ميالين إلى الشك والكلبية. كانوا أكبر سناً من الفتيان الذين كنت قد التقيتهم في خالدان، أقله في ثلاثينياتهم. عيونهم كانت فارغة، نظراتهم بلا معنى. كانوا جميعاً قد قاتلوا ضد السوفييت، ويتكلمون عن تلك الحرب باعتزاز وبنوع من الحنين الماضوي (النوستالجيا). أما الآن فبدوا هائمين فقط بعشق الحرب؛ لم يكونوا يتحدثون عن أي شيء آخر. كانوا مولعين بتقديم روايات تفصيلية لقصص معارك كبرى كانوا شهوداً عليها بين الطالبان وتحالف الشمال. كانوا يكرهون الأخير كما يكرهون الأول؛ يكرهون تحالف الشمال ويكرهون الطالبان، غير أنهم كانوا ينتشون وتستولي عليهم البهجة وهم يتحدثون عن صداماتهما الطاحنة. ما كان يشغلهم ويحركهم لم يكن متمثلاً بالإيديولوجيا، أي إيديولوجيا، بل بالقتال نفسه، بالحرب ذاتها.

ليلاً كنا نجتمع في المهاجع ونطلق العنان للكلام. لم يكن لدينا سوى مصابيح الغاز للإضاءة، لأن تحالف الشمال كان دائباً على قصف المنطقة. كنا نلف أجسادنا بالبطانيات لاتقاء البرد القارس، وكان المجاهدون يُسمِعوننا قصصاً من خطوط الجبهة. كنت أنبهر بهذه القصص، بالوصف التفصيلي لدقائق معارك شهيرة كنت قد سمعت عنها فقط.

غير أن أحد المجاهدين روى ذات ليلة قصة عن طائرة تحطمت فوق كابول قبل الإطاحة بحكومة نجيب الله في 1992 ببضعة أشهر. لدى تعرض الطائرة للإصابة قذف الطيار الأفغاني نفسه منها. وفيما هو سابح في الجو فوق الأرض بمظلته، رفع يديه إلى الأعلى معلناً رغبته في الاستسلام. غير أن العرب لم يوقفوا إطلاق النار. جُرح الطيار، وما إن وصل إلى الأرض واستقر حتى ألقوا القبض عليه.

راح المجاهدون يتناقشون حول أفضل طرق إعدام الطيار لدى تلقي الأمر بالراديو من مقر قيادة الحزب الإسلامي. قيل لهم أن يُبقوا الأسير حياً؛ قد يدلي بمعلومات قيمة. ولكن المقاتلين العرب ظلوا يضربون الطيار ضرباً مبرحاً إلى حين وصول المحققين. ولدى وصول هؤلاء كان الطيار قد أصبح في حالة بالغة السوء فأوعزوا للعرب بنقله إلى المستشفى. لم يكن المقاتلون يريدون للطيار أن ينجو ويبقى على قيد الحياة، فقرروا على الطريق حقنه بزيت المحرك - بزيت المحرك الأسود اللزج - في الجسم مباشرةً.

وصل المحققون إلى المستشفى بُعَيْد العرب. أفادهم المجاهدون بأن الطيار كان على حافة الموت لأنه كان قد أصيب بجرح بالغ حين قفز من الطائرة. قام المحققون بمعاينة الطيار لمدة دقيقتين ورأوا أن الاستفادة منه كانت مستحيلة، ففوضوا العرب بإعدامه. سارع هؤلاء إلى رمي الطيار في إحدى الحفر وأطلقوا عليه النار، جميعهم، دفعة واحدة. قامت الطلقات بتمزيق جسد الطيار نتفاً. تفجّرت أمعاؤه من بطنه ناشرةً وابلاً من حبات الأرز في كل مكان.

ثم جاء التعليق "العبقري" على القصة: "كان غداء الطاغوت أرزاً!" فضحك الجميع مقهقهين. لعلها أكثر القصص التي سبق لي أن سمعتها في حياتي إثارة للتقزز وبعثاً على الغثيان.

وبعد عدد من الليالي، روى مجاهد آخر قصة دارت أحداثها في أثناء انسحاب السوفييت من أفغانستان. قبيل الفجر كان قد تسلل إلى إحدى حاميات نجيب الله وقذف قنبلة يدوية عبر إحدى النوافذ. ولكنه، لحظة خروج القنبلة من يده، سمع صوتاً منبعثاً من الداخل يهتف: "الله أكبر!" كان الوقت وقت صلاة الفجر.

بعد ثوانٍ، انفجرت القنبلة، وقتلتْ جميع من كانوا في الداخل.

قال الرجل إنه انزعج في البداية. ساءه احتمال أن يكون قد قتل مسلمين وهم يؤدون الصلاة. تأثر كثيراً إلى درجة أنه استشار فقيهاً جليلاً مطلعاً على القرآن حول المسألة. ولكن الأخير طَمْأنَه وهَدَّأ من روعه قائلاً: "أنت يا أخ تقاتل تحت راية الإسلام. أما هم فيقاتلون تحت راية الكفار. في النهاية، لن تكون إلا مشيئة الله". من المؤكد أن مشورة الفقيه كانت بلسماً بالنسبة إلى المجاهد. بعد كل شيء، كان لا يزال هنا.

أسد الله

عندما عدنا إلى دارونتا، كان هناك عدد أكبر من الناس مقارنةً بالعدد الذي كان لدى ذهابنا. تذكرت بعضهم من خالدان: أبا يحيى، المدرب اليمني، مع اثنين من المدربين السعوديين تذكرتهما أيضاً. كانوا جميعاً قد جاؤوا، مثلي تماماً، للتدرب على المتفجرات.

أخبرني أبو يحيى أن أسد الله، مدرب المتفجرات، كان في حالة أفضل ومتوقعاً أن يعود إلى دارونتا قريباً. وصل بعد نحو أسبوع مصطحباً ثلاثة قيرغيزيين. هؤلاء أيضاً كانوا سيتدربون معنا.

بدأنا التدرب على المتفجرات في اليوم التالي. كان ثمة نوع من غرفة الصف في أحد المهاجع، وكان أسد الله سيكتب المعادلات على السبورة أو سيقدم عروضاً على طاولة كبيرة. قبل كل شيء علَّمنا تدابير الأمان. أنفقنا أياماً على هذا، حافظين عن ظهر قلب درجتي الحرارة والرطوبة التي ينبغي تخزين العناصر المكوِّنة المختلفة في ظلهما، ومطلعين على معدات الأمان المختلفة - القفازات، أقنعة الغاز، النظارات - الواجب استخدامها مع المواد الكيميائية والمتفجرات المتنوعة. علَّمنا أسد الله ما كان ينبغي فعله إذا طرأ خلل في تجربة ما.

ما أكثر ما كان يكرر التحذير التالي: 'معكم تأشيرة إقامة، وتجلبونها معكم إلى الصف كل يوم. أستطيع أن أجردكم منها في أي وقت. إذا انتهكتُم أياً من تدابير الأمان فسأعيدكم إلى المكان الذي جئتم منه فوراً'. كنا على يقين بأنه لم يكن مازحاً.

كنا نُمضي إما في غرفة الصف أو في المخبر مدة لا تقل عن عشر ساعات كل يوم. لم نكن نتوقف عن الدراسة إلا لتناول الطعام أو لإقامة الصلاة. كنا نستخدم معادلات رياضية وكيميائية معقدة وكان العمل يتطلب تركيزاً شديداً. تعلمنا فن صنع أي متفجرة من نقطة الصفر. ذلك كان هو الهدف: لم نكن مؤهلين للحصول على متفجرات حربية أو صناعية في الأماكن التي كنا سنتوجه إليها. كان سيتعين علينا أن نتدبر أمورنا بما تقع عليه أيدينا.

تعلمنا كيف نصنع جميع أنواع الأشياء: المسحوق الأسود، الآر دي اكس (RDX)، التتريل، التي ان ني (TNT)، الديناميت، السي 2 (C2)، السي 3 (C3)، السي 4 (C4)، السمتكس، النيتروغليسرين، وما إليها. تعلمنا كيف نركّب كلاً من هذه المواد من منتجات يمكن العثور عليها في المحلات التجارية أو سرقتها من المخابر المدرسية. فكل من شراب الذرة، صباغ الشعر، الليمون، أقلام الرصاص، السكر، البن، الملح الإنجليزي، كرات العث، البطاريات، أعواد الثقاب، الدهان، المنظّفات، المبيِّض، زيت المكابح، السماد، الرمل وإلخ.... يحتوي مكوِّنات أنواع مختلفة من المواد المتفجرة. تعلمنا كيف نحلل كلاً من هذه المنتجات، بل وكيف نقوم بإعادة تركيبها محوِّلين إياها إلى قنابل. بل وقد تعلَّمتُ كيف أصنع قنبلة من بولي الخاص.

درجنا على اختبار المتفجرات في الخارج، قريباً من بعض الخرائب عند طرف المعسكر. على الدوام تقريباً كنا نستخدم كميات ضئيلة، غير أننا كنا نحرص على قياس تسارع الانفجار لاحتساب النتائج المتوقعة إذا ما تم استخدام

جرعات أكبر. كنا نتحدث عن كيفية ومكان استخدام الأنواع المختلفة من المتفجرات. تعلّمْنا فن تحديد المواد التي يتعين علينا استخدامها لنسف أحد القطارات، كمية المتفجرات اللازمة، وأسلوب تثبيت العبوة على السكة لإحداث الحد الأقصى من التأثير. تعلمنا فنون نسف السيارات والبيوت.

تحدثنا كثيراً عن الطائرات. هذه كانت صعبة النسف بسبب الحراسة المشددة المفروضة على المطارات. كانت مادة السمتكس هي الأسهل على صعيد إدخالها إلى الطائرة لأن تحريها، كما تعلمنا، كان شبه مستحيل. غير أن هذه المادة كانت صعبة التوفير كما ذكَّرَنا أسدُ الله. وبالتالي فإننا دأبنا أيضاً على الإحاطة بالمتفجرات السائلة.

كنا ندوِّن الملاحظات عن كل شيء في الدفاتر الصغيرة التي زُوِّدْنا بها في المعسكر. إلا أن المطلوب، آخر المطاف، كان حفظ كل شيء عن ظهر قلب. فحين كانت الحاجة ستدعو إلى استخدام المتفجرات، لم نكن لنتوفر على أي كتاب أو دليل تعليمي نسترشد به. كان لابد لنا من معرفة ما يجب القيام به غريزياً. وبالتالي فقد دأبنا على مراجعة المعادلات وتكرارها مرات كثيرة إلى أن نصبح قادرين على تكرارها ونحن نيام. وكل يوم أحد كان أسد الله يمتحننا ليطمئن إلى استيعابنا للدروس.

لم يكن ثمة أي مزاح في صف أسد الله. لم يكن يعرف معنى الابتسام، وكان يطالبنا بالانتباه الكامل. كنت أعرف مدى عجزي عن الاضطلاع بدور مهرج الصف هنا إذا رغبت في النجاح. لعل أبشع المخالفات التي ارتكبتها هو تمرير الملاحظات إلى عبد الكريم في الصف. وكان الأخير عاكفاً، بدوره، على رسم الصور في هوامش دفتري وكتابة عبارات ساخرة تحتها.

ذات يوم، كنا في المخبر حين دَلَق أحد القيرغيزيين كأساً من الماء على أحد المتدربين. مازحاً، ادعى أن المسكوب كان حمضاً للكبريت. كان أسد الله يراقب

العملية كلها وبادر فوراً إلى طرد القيرغيزي من المخبر. في غضون ساعة واحدة كان الأخ في الطريق عائداً إلى الباكستان. كان أسد الله محقاً بالطبع. فالمتفجرات شديدة الخطر وأي منا كان يمكنه أن يقتل المجموعة كلها باقتراف خطأ بسيط.

في أحد الأيام، حَدَّثَنا أسدُ الله عن حادثة كانت قد وقعت خلال تدربه هو على المتفجرات. كانت مجموعته عاكفة على تعلم فن صنع النيتروغليسرين، وأحد الإخوان لم يكن منتبهاً. سمح للمواد أن تسخن أكثر مما كان مطلوباً. لحسن الحظ التفت المدرب في الوقت المناسب تماماً ورأى من مدرج ميزان الحرارة أن المادة كانت موشكة على الانفجار. ثمة كان سبعة آخرون في المخبر، وكان من شأن الانفجار أن يقتلهم جميعاً. صرخ بأعلى صوته: 'إنها موشكة على الانفجار!'

كان هناك حوض جليد بجانب المتدرب، وكان يتعين عليه أن يدلق المواد على الجليد لتبريدها. غير أنه آثر، بدلاً من ذلك، أن يندفع وبيديه القنبلة الموقوتة السائلة نحو الباب. لحظة وصوله إلى خارج الباب انفجر الخليط. أدى الانفجار إلى بتر ذراعيه فوراً وإلى تخريب إحدى عينيه.

سألت: 'هل بقي الأخ حياً؟'

أجاب أسد الله: 'نعم. هو يعيش في لندن الآن، ويخطب في الجوامع. اسمه أبو حمزة.'

لم تكن لدي أي فكرة عن الرجل في ذلك الوقت، كما لم يكن هناك أي سبيل لمعرفة مقدار الأهمية التي كان سيصبح منطوياً عليها في حياتي.

غاز الخردل

في أحد الأيام أنزلنا أسد الله إلى مكان قريب من البحيرة للتدرب على إعداد تفجير كبير حقاً. كانت هناك شاحنة روسية معطلة على سفح التلة،

أنزلناها جراً إلى مستوى سطح الماء. ثم حشوناها بالمتفجرات. استخدمنا خمسين كيلوغراماً من الآنفو ANFO. نيترات الأمونيوم/زيت الوقود - مع اثني عشر لغماً مضاداً للدروع.

وصلنا الصاعق بفتيل طويل. كنا قد حسبنا سلفاً أن احتراق الفتيل كاملاً كان سيستغرق مدة دقيقة كاملة. أمر أسد الله أحد القيرغيزيين بالبقاء مع الشاحنة لإشعال الفتيل. أما الباقي فابتعدنا نحو مئتي متر متسلقين سفح التلة واحتشدنا في حلقة محكمة خلف الصخور لمراقبة الانفجار.

لوح أسد الله للقيرغيزي على الشاحنة موعزاً إليه بالإشارة أن يشعل الفتيل. جميعاً حبسنا أنفاسنا حين انحنى الأخ على الفتيل. وما إن انتصب واقفاً حتى انطلق بسرعة مبتعداً عن الشاحنة ومقبلاً نحو سفح التلة. كان يجري كما لو كان هارباً من جيش من العفاريت - لم يكن قد سبق لي أن رأيت أحداً يجري بمثل هذه السرعة الفائقة. سحابة غبار كانت متطايرة من حوله. حين وصل إلى الصخور حيث كنا واقفين ألقى بجسده على الأرض بالقرب منا.

لحظة انبطاحه على الأرض انفجرت الشاحنة. بدأت العملية بالوميض الأزرق الذي كنت قد رأيته مرات كثيرة، ولكن هذه الومضة كانت أكثر حدة وقوة من أي نظير سبق لي أن رأيته. ومن ثم بوووم. كرة نارية عملاقة انبثقت من الشاحنة، أعقبتْها كتلة كثيفة من الدخان الأسود راحت تصعد إلى السماء مثل نَبْتة فطر كاملة الأوصاف. الوادي كله امتلأ بالدوي.

بقينا جميعاً واقفين حيث كنا للحظات جاهدين لاستيعاب مدى هول ما كنا قد رأيناه للتو: ثم اندفعنا مسرعين نزولاً عن السفح المنحدر لمعاينة المكان الذي كانت فيه الشاحنة. كان الانفجار قد أحدث حفرة قطرها خمسة أمتار وعمقها متران. كانت الحفرة ملأى بنتف المعادن المتبقية من الشاحنة. كان تأثُّر الجميع استثنائياً حين اكتشفنا أن ستة فقط من الألغام الأحد عشر كانت قد انفجرت.

كان أبو سعيد الكردي يتردد على المعسكر. كان يقيم معنا بضعة أيام متواصلة ثم يغادر ليغيب أسبوعاً ليعود بعده. كثيراً ما كان يجلب معه متدربين جدداً. غير أنه كان هو وأبو موسى ينشغلان بين الحين والآخر، خلال مجموعة الأسابيع، بمشروع معقد. كانا يستخدمان المختبر الملاصق للمكان الذي كان أسد الله يدرّبنا فيه، وكنا نستطيع أن نراهما عبر النافذة. كثيراً ما كانا يبقيان هناك لساعات متواصلة.

قَدَّرْتُ أنهما ربما كانا يعالجان بعض السموم. فأبو سعيد كان قد علمنا في وقتٍ مبكر نُتَفاً عن السموم. كنا قد تعلمنا كيف نصنع السيانيد من المشمش، واختبرناه بدرجات مختلفة من القوة على الأرانب. وحين قام أبو سعيد بزرق السيانيد مباشرةً في أرنب، نفق هذا على نحوٍ مباشر تقريباً. ثم رششنا قليلاً منه على الجزر وقدمناه للأرانب. استغرقت عملية القتل بهذه الطريقة مدة أطول، نحو أربع وعشرين ساعة.

ذات ليلة، كان أبو سعيد وأسد الله يناقشان مشروعهما في المسجد، فتعمدت الإصغاء. علمت أنهما كانا يحاولان تحويل غاز الخردل إلى سلاح، وكانا يواجهان صعوبة في جمع العناصر في قذيفة هاون. في الأسابيع اللاحقة شاهدتهما يطلقان قذائف مورتار باتجاه الوادي تكراراً. غير أن شيئاً لم يكن يحصل، فينتظران نحو ساعتين ثم ينزلان زحفاً إلى قاع الوادي في ملابسهما الواقية لاستعادة المورتارات واكتشاف الخلل الحاصل.

غير أن العملية ما لبثت أن نجحت في أحد الأيام حين سقطت القذيفة في الوادي ثم انفجرت ناشرةً سحابة كثيفة من الدخان. وحين رأى أبو موسى وأبو سعيد ما كان قد حصل، رقصا طرباً وراحا يهتفان: "تكبير! الله أكبر! تكبير! الله أكبر! تكبير! الله أكبر! تكبير! الله أكبر!" - أربع مرات متكررة. انقضّا على رشاشيهما وصارا يطلقان النار في الهواء بجنون، وخرج أهل المعسكر جميعاً للاحتفال معهما.

بعد عددٍ من الأسابيع رأيت حلماً مفعماً بالحياة حيث وجدتُني ماشياً في شوارع لندن. لم يكن قد سبق لي أن كنت في لندن، غير أني أيقنت في الحلم أني كنت هناك. كنت مقترباً من كنيسة بيضاء كبيرة. أمامها كان يقف أربعة من الجنود الملكيين الهنود في الزي العسكري للقرن التاسع عشر: القلانس أو العمائم، الأوشحة العريضة، السترات الأنيقة. غير أن ملابسهم كلها كانت بيضاء ناصعة.

لم يكن الرجال يحرسون الكنيسة. كانوا يحاولون نسفها. كان أمام كل منهم مدفع، وكانوا جميعاً يطلقون الحمم على الكنيسة المَرَّةَ بعد الأخرى. إلا أن قذائفهم لم تصب الكنيسة قط. بدأ الهنود يشعرون بالإحباط وتملّكني الضيق وأنا أراقبهم. كنت واثقاً من نجاحي في إصابة الهدف بسهولة. قلت: 'دعوني أحاول. أنتم لا تعرفون ما تفعلونه.'

وضعت قذيفة في المدفع وأطلقْتُها. أصابت الكنيسة تحت البرج مباشرة، ترنح المبنى وسقط أرضاً. سحابة دخان أسود انفجرت في الهواء، مؤدية إلى تلطيخ السماء البيضاء الناصعة.

استيقظتُ وأنا أرتجف، وحين استيقظ عبد الكريم رويت له ما رايته في الحلم. وجدني مكتئباً، وقال إن هناك في المعسكر العربي أخ خبير في تفسير الأحلام. زَوَّدني عبد الكريم باسم الأخ ونصحني بالذهاب إليه.

بعد ظهر ذلك اليوم، مشيت إلى معسكر العرب، وحين سألت عن قارئ الأحلام بالاسم دلني أحد الإخوان على أحد المباني الصغيرة. كان ثمة شاب في الداخل مرتدياً جلباباً أبيض. كان متربعاً وعاكفاً على القراءة. تنحنحت للفت نظره فرفع رأسه. سألته: 'هل تستطيع مساعدتي في حلم؟'

قال: 'بالطبع. أغلقْ الباب واجلسْ. هات اروِ لي حلمك.' بعد إسماعه كل شيء، طرح علي السؤال التالي: 'هل أنت متأكد من أن المبنى كان كنيسة، ولم يكن جامعاً؟'

'بلى، أنا متأكد. شاهدتُ الصليب.'

نهض الأخ ومشى إلى كومة كبيرة من الكتب المراكمة بجانب الجدار. حمل واحداً وراح يقرأ وحده. نظر إليَّ. قال: 'هذا نبأ جيد جداً أيها الأخ.'

سألت: 'لماذا؟'

'ستذهب إلى بلاد الكُفر. ستقاتل الكفار وسوفَ تنتصر.'

أبو خَبَب

في أحد أيام أواخر الخريف كنا في الهواء الطلق عاكفين على اختبار بعض الحسابات. كنا نتعلم كيف نفجر قنبلة على سكة حديدية مستخدمين شحنة مخروطية حين رأيت سيارة تويوتا رباعية الدفع تقتحم المعسكر. نظر أسد الله بطرف عينه ثم توجه إلى الجماعة وقال: 'انظروا! إنه أبو خبب.'

كنا جميعاً قد سمعنا الاسم من قبل. مرات كثيرة خلال الدروس كان أسد الله قد حدثنا عن أننا كنا نتعلم تقنيات ومعادلات اجترحها رجل يدعى أبو خبب. انفعلنا جميعاً برؤيته شخصياً.

نزل من السيارة خمسة رجال وطفلان صغيران. تذكرت أحد الرجال فوراً: كان هو المصري صاحب الأطراف الاصطناعية الذي كنت قد التقيته قبل أشهر في بيشاور. كان يحمل حقيبة ظهر. كان ثمة رجل آخر معه أكبر منه قليلاً في السن، أقله في أربعينياته. كان متميز المظهر؛ بدلاً من الباكول (القبعة الأفغانية) التقليدية كان يعتمر عمامة سوداء. كان يضع نظارات على عينيه، وذا لحية محنّاة. بقي الرجال الثلاثة الآخرون ملتصقين بالرجل الأكبر سناً. من الواضح أنهم كانوا حُراساً شخصيين (بودي غاردات). اثنان كانا متنكبين رشاشي كلاشنكوف، والثالث كان يحمل آر بي جي (RPG).

جميعاً رَحّبْنا بالضيوف، ثم أبلَغَنا أسد الله بتعليق الدروس في ذلك اليوم وصَرَفَنا. وفيما كنت أهم بالمغادرة سمعت صوتاً ينادي من الخلف: 'أبو إمام! أبو إمام.' التفتُّ فرأيت الرجل الأكبر سناً يومئ إليّ داعياً إياي إلى الالتحاق بهم. عدت إليهم. سألني الرجل الأكبر سناً: كيف حالك، يا ولدي؟' بلكنة مصرية قوية.

أجبته: 'الحمد لله!'

ثم تكلم المصري ذو الأطراف الصناعية: 'سمعنا عنك أشياء جيدة جداً أيها الأخ.' تساءلت عما عناه. لم يكن قد مضى على وجودي في دارونتا سوى شهر واحد، وبالتالي فإن من المؤكد أنه كان يلمّح إلى خالدان، حيث ذاع صيتي بوصفي الأكثر تعرضاً للعقاب في المقام الأول. ثم تابع: 'الإخوان من أمثالك مرحب بهم دائماً في الجماعة.'

كنت على علم بالجماعة. كانت مجموعة كفاحية مصرية انشقت عن تنظيم الإخوان المسلمين حين دان الأخير أعمال العنف الحاصلة في سبعينيات القرن العشرين. كنت أعرف من خلال الراديو في خالدان أنهم ادعوا المسؤولية عن محاولة اغتيال الرئيس المصري حسني مبارك في وقتٍ سابق من ذلك الصيف.

همس الرجل الأكبر سناً في أُذُن أسد الله الذي تجهم قليلاً. ثم قادني المصري ذو الأطراف الصناعية باتجاه الخرائب حيث درجنا على اختبار المتفجرات. جاء الأكبر سناً معنا، وبصحبته اثنان من الحراس الشخصيين. أما الحارس الثالث فبقي قريباً من السيارة مع الطفلين. رأيت أسد الله يتسلل خلسة عائداً وحده إلى داخل المخبر.

حين وصلنا إلى الخرائب فتح الشاب حقيبة ظهره وأخرج علبة معدنية صغيرة. داخل العلبة كانت ثمة عبوات أصغر لا يزيد حجم أي منها على حجم علبة الكبريت. انحنى ليضع إحدى العبوات الصغيرة عند أساس الخرابة.

سألت: "ما هذا؟"

قال: "إنه الآنفو (ANFO). نقوم باختباره."

ثار اهتمامي. كنا دائماً نجرب بكميات قليلة من المتفجرات ثم نحسب ما يمكن للتأثير أن يكونه لدى استخدام كميات أكبر. غير أنه لم يكن قد سبق لي أن رأيت شخصاً يجرب كمية بمثل هذه الضآلة. أمرنا، بالإشارة، أن نبتعد، وجلست مع الرجل الأكبر سناً على أحد الصخور. تزاحم الحراس الشخصيون خلفنا. ثم قام المصري بتفجير عبوة صغيرة، وانحنى ليعاين النتائج.

في هذه الأثناء راح الأكبر سناً يحدثني: "أين تريد أنت، يا أبا إمام، أن تخوض جهادك؟" ظل ينظر إلى الأمام بخط مستقيم وهو يتكلم. عيناه كانتا متركزتين على صاحب الأطراف الصناعية.

لم أعرف ما كان يُفتَرض أن أقوله، فبُحت بالحقيقة: "أنا أريد أن أذهب إلى بلاد الشيشان."

أومأ الرجل بصمت، وواصل النظر إلى الأمام. ما لبث الأصغر سناً أن عاد إلينا ليعْلمنا بأنه أنجز عمله. قام الأكبر سناً، حَذَوْتُ حَذْوَه. وفيما كنا عائدين سيراً على الأقدام إلى السيارة رباعية الدفع التفت إلي الأكبر سناً. كان مبتسماً. "أرجو أن تزورنا بعد أن تنهي تدريبك." ثم ركب السيارة مع الآخرين وانطلقت السيارة بهم.

بعد بضعة أيام كنا خارجين من غرفة الصف في ساعة متأخرة من بعد الظهر، حين شاهدنا أبا جهاد وأبا موسى مقبلين علينا جرياً. توقفا أمام المسجد وراحا يطلقان النار في الهواء من رشاشيهما الكلاشنكوف، وهما يهتفان بصوت واحد: "تكبير! الله أكبر!"

كان أبو جهاد مكشراً عن أسنانه. كان يقول: "فعلوها! نسفوا السفارة المصرية!" ثم هرع عائداً إلى الداخل لإبلاغ المعسكرات الأخرى بالراديو.

في غضون دقائق كانت ثمة تفجيرات منبعثة من سائر المعسكرات. كانت قذائف الشيلكا والبي ام بي (BMP) وطلقات المدافع المضادة للطائرات تنطلق معاً. مئات الخيوط الزرقاء والخضراء كانت متطايرة في السماء الداكنة. في لحظة عابرة تصورت الأمر شبيهاً بما كان يمكن أن يحصل إذا ما تعرضت دارونتا للهجوم بالطائرات في وقتٍ من الأوقات.

كانت الهتافات تتردد من كل حدب وصوب: 'تكبير! الله أكبر!'

في تلك الليلة، كما في الأيام التي تلت، كنت سأعرف المزيد عما كان قد حدث. انتحاريان كانا قد نسفا السفارة المصرية في إسلام أباد. كانا قد اقتحما المبنى بسيارتين مملوءتين بالمتفجرات. القنبلة الأولى لفتت أنظار الجميع؛ هرع الناس خارجين من سائر المباني القريبة من السفارة لرؤية ما كان قد حصل. ثم أحدثت السيارة الثانية انفجاراً هائلاً، نشرت الشظايا في جميع الاتجاهات.

تمخض الانفجار عن انهيار أحد طرفي السفارة كلياً كما عن حفرة بعمق مترين. عدد كبير من الناس انسحقوا حين انهار الإسمنت المسلح فوقهم. كانت الحصيلة مقتل ثمانية عشر شخصاً وجرح خمسة وسبعين آخرين.

مباشرةً أعلنت الجماعة مسؤولياتها عن الهجوم. طالبتْ بإطلاق سراح زعيمها الروحي الشيخ عبد الرحمن. من المعروف أن الشيخ عبد الرحمن هذا، وهو المتهم بتدبير مؤامرة 1993 لنسف مركز التجارة العالمي، كان ينتظر المحاكمة في أحد سجون الولايات المتحدة.

وخلال ما تلا من أسابيع وأشهر، سمعنا عبر الراديو أن بناظير بوتو كانت قد أطلقت حملة ملاحقة كبرى ضد العرب. كانت ثمة مداهمات بوليسية في طول البلد وعرضه. وأعداد كبيرة هربت إلى أفغانستان، بل وقد وصل إلى خالدان اثنان من أولئك الملاحقين. أفادا بأن العرب لم يعودوا آمنين على الجانب الآخر من الحدود، أي في الباكستان.

بُعَيْد نسف السفارة في إسلام أباد، جرى اعتقال مهندس كندي يدعى أحمد خضر في الباكستان. اتُّهم بتمويل عملية الهجوم على السفارة بأموال ابتزها من جمعيات خيرية ـ إنسانية كندية. ادعى خضر البراءة وأُطلق سراحه من السجن بعد بضعة أشهر. كان رئيس الوزراء الكندي قد مارس الضغط على بناظير بوتو خلال زيارة رسمية إلى الباكستان.

كنت سأعرف المزيد من المعلومات عن خضر هذا بعد 9/11، حين قامت الولايات المتحدة بإدراج اسمه على جدول أسماء إرهابيين مشبوهين. عرفت أنه كان صديقاً حميماً لأسامة بن لادن منذ عقد ثمانينيات القرن الماضي، حين دأب الرجلان على تمويل المجاهدين في الحرب ضد السوفييت. ثم ما لبث خضر أن أصبح أحد أبرز جامعي التبرعات لابن لادن.

قُتل خضر عام 2003 في أفغانستان في تبادل لإطلاق النار مع الجيش الباكستاني. ابنه الأصغر، عبدول، كان معه، وأصيب بالشلل النصفي السفلي خلال الهجوم. كذلك كان أبناء خضر الآخرون موجودين أيضاً في أفغانستان في ذلك الوقت. وأكبرا لأبناء، عبد الله، تمت إدانته في ماساتشوستس في شباط/فبراير 2006. كان متهماً بشراء أسلحة للقاعدة، بالتآمر لقتل جنود أمريكيين، وبالتخطيط لاستخدام أسلحة دمار شامل. ابن آخر اسمه عمر أُلقي القبض عليه في 2002 بعد أن قيل إنه قتل ممرضاً من الجيش الأمريكي برمانة يدوية. وهو الآن سجين في خليج غوانتانامو. أما أخوه الأكبر عبد الرحمن فقد جرى اعتقاله في أفغانستان سنة 2001. تم تسليمه إلى الأمريكيين ونُقل إلى خليج غوانتانامو. في إحدى المراحل ارتد وراح يعمل لدى وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه CIA) أولاً في غوانتانامو، ومن ثم في البوسنة. روى قصته على شاشة التلفزيون في 2004، وهوليوود عاكف الآن على تحويل حياته إلى فلم.

كان أحمد خضر هو الرجل الذي رأيته داخلاً مختبر المتفجرات في خالدان بصحبة ابن الشيخ. أما عبد الرحمن فكان الابن الذي عرفتُه باسم حمزة، والذي أخبرني عن الأفغان الذين قُتلوا أمامه في خوست. وكان عمر هو أخاه الأصغر الذي عرفته باسم أسامة. كان الأخير هذا هو المشاغب الذي كان يكثر من الكلام عن أصدقاء والده المهمين.

كان من الشائع على نطاق واسع أن مصرياً يُدعى أبا خبب المصري كان العقل المدبر لعملية نسف السفارة. لم يكن أبو خبب، بطبيعة الحال، إلا اسماً مستعاراً. أما اسمه الحقيقي فكان مدحت المصري. قيل إنه نجح في تجنيد الانتحاريَيْن من معسكرات دارونتا.

بعد 9/11، عرفت أن المصري كان كبير خبراء المتفجرات لدى القاعدة، متخصصاً في مجالات جملة الأسلحة الكيميائية والبيولوجية. وقد أُشيع أنه كان قد خطط للهجوم على السفارة مع رجل يدعى أيمن الظواهري، الذي هو الآن نائب أسامة بن لادن. حين أصبح بن لادن صاحب الأمر والنهي في المعسكرات أواخر التسعينيات، جرى تكليف المصري بمهمة تطوير أسلحة غير تقليدية للقاعدة.

في دارونتا، قام المصري بتدريب مجند جزائري يُدعى أحمد بسام، وهو الذي اعتُقل في 1999 على الحدود بين الولايات المتحدة الأمريكية وكندا. كان ينقل شاحنة متفجرات، عازماً على استخدامها لنسف مطار لوس أنجلوس عشية الألفية الجديدة. كذلك قام المصري بتدريب أبو القنبلة الحذائية المعروف ريتشارد رايت، وزكرياس موسوي، 'المختطِف رقم 20'، الذي يقضي الآن حكماً بالسجن المؤبد. ويظن أن المصري تولى أيضاً تدريب عناصر الهجوم على اليو اس اس كول (USS Cole) في اليمن عام 2000.

في كانون الثاني/ يناير 2006، قُتل المصري بطائرة مطاردة أمريكية بلا طيار في دامادولا الباكستانية. كان الأمريكيون يحلمون بقتل أيمن الظواهري الذي كان يُعْتَقد أنه كان موجوداً مع المصري في ذلك الوقت. كانت المكافأة المخصصة لمن يجلب رأس المصري خمسة ملايين من الدولارات عندما قضى.

ليس ثمة أي صور للمصري، أقله مما أتيحت لي رؤيتها. وبالتالي ليس ثمة ما يمكّنني من أن أعلن عن يقين أنه كان هو الرجل الذي رأيته في داروتنا في ذلك اليوم. غير أن ذلك محتمل جداً.

الحرب النفسية

مع مجيء رمضان في شتاء ذلك العام، كنت أزداد قلقاً. كنا قد أنهينا تدريباتنا على المتفجرات أوائل فصل الشتاء. ذات يوم، أبلغنا أسد الله بانتهاء الدورة، هنأنا، ثم غادر المعسكر مع جميع المتدربين. بقينا، عبد الكريم وأنا، وحدنا مع مقاتلي الحزب الإسلامي.

لم يكن لدينا شيء كثير نفعله بعد ذلك سوى مراجعة المعلومات التي كنا قد تعلمناها في أثناء الدورة. بقيت أُمضي ساعات كل يوم وأنا أتدرب على البورايد والرشاشات، إلا أنني لم أكن أتعلم أي شيء جديد. كنت أقضي أوقاتاً طويلة متسكعاً لمجرد قتل الزمن؛ لم نكن ملزمين بالرياضة إلا حسب رغبتنا. كل يوم جمعة كنا نلعب كرة القدم هنا في معسكر العرب مع المجندين الجدد. كان مضحكاً أن يرى المرء الإخوان متراكضين في الساحة في سراويلهم وقمصانهم، (أزيائهم الباكستانية)، غير أني كنت أمضي أكثر الوقت متفرجاً. في الحقيقة لم أتعلم لعبة كرة القدم في حياتي.

قَتْلاً للفراغ صرت أكرس فترات طويلة من الوقت للتأمل والتكفير. فكرت بالتفجير الحاصل في الباكستان طويلاً. ظللت أتصور وجه المصري وهو يقول: 'أرجو أن تأتي لزيارتنا. أرجو أن تأتي لزيارتنا.'

بدا الأمر أشبه بكابوس. عرفته أنه كان يريد أن أصبح أحد انتحارييه. كان يجب أن يكون قد سمع قصة تطوعي لتفكيك العبوة المنصوبة في النهر، وظن أنني شديد التوق لأن أصبح شهيداً. صحيح أنني كنت قد راوغت القدر في تلك المرة، إلا أنني كنت متأكداً من تجنيدي قريباً لأداء مهمة أخرى. كانت لديهم خطط بالنسبة إلي، وإلا لماذا كانوا يُبْقونني في دارونتا؟ في المرة القادمة هل كان سيُطلب مني الالتحاق بمهمة - أم كان سيتم إجباري على القيام بها؟

كنت قلقاً بشأن أشياء أخرى أيضاً. كلما طالت إقامتي هنا، كان احتمال اكتشاف حقيقة كوني عميلاً يتزايد. ثمة كان جزائريون في كل مكان. قد يحصل مع مرور الوقت أن يتواصل أحدهم مع أمين وياسين فيكتشف من أكون. تذكرتُ القصة المرعبة التي كنت قد سمعتها في ساروبي، قصة الطيار الذي حُقن بزيت المحرك ثم جرى تمزيقه بالرصاص. لم أكن أريد أن تكون نهايتي مثل نهايته.

وبين وقتٍ وآخر، كنت أتذكر جيل. تذكرت ما قاله لي في الحديقة الاستانبولية. كانت لدي مدة سبعة أشهر؛ وبعدها كان سيتم بَتْري. فترة الأشهر السبعة كانت قد انقضت.

في أحد الأيام، دَخَلْنا، عبد الكريم وأنا، الجامع ورأينا شخصاً معلقاً بعوارض السقف من كاحليه. عيناه كانتا معصوبتين، وكان يزعق. كان هناك عدد من الإخوان واقفين حوله. تذكرت بعضهم من معسكر العرب. كانوا يعنِّفون الأسير، وأحدهم كان يصوب بندقيته على رأس هذا الأسير.

المشهد جمّد الدم في عروقي. قلت لنفسي: هذا هو ما يفعلونه للجواسيس. هذا هو ما سيحصل لي إذا ما تم اكتشافي. كدت أتقيأ، ولكن أبا موسى جاء وأخرجنا من المكان قبل أن يتفاقم الأمر أكثر قائلاً: 'تعالا، هذا ليس لكما!'

سألته: 'وما الذي يجري؟' أصبحت أكثر فضولاً.

قال: 'إنهم من المعسكر الآخر. أحد الإخوان مكلف بمهمة. الآخرون يعدونه للاستجواب تحسباً لاحتمال وقوعه في الأسر.'

'لماذا لا نستطيع أن نشاهد؟' سأل عبد الكريم.

هز أبو موسى برأسه قال: 'لأننا لا نعرف ما سيقوله. قد يكشف شيئاً عن مهمته وأنتما يجب ألا تعرفا أي شيء عنها.'

من المؤكد أنه رأى مدى انزعاجنا كلينا، لأنه بادر بعد بضع ثوانٍ إلى اقتراح تزويدنا بكتاب عن الاستجواب. غير أننا حين فتحناه، وجدناه مكتوباً باللغة العربية. كان النص أكثر تعقيداً من قدرتنا، كلينا على فهمه؛ كلانا كان ضعيفاً.

وافق أبو موسى أن يقرأ لنا أجزاء منه بصوت مرتفع على مسامعنا. عدنا إلى الغرفة، وبدأ يقرأ في الكتاب. بدأ الكتاب باستعراض مراحل الاستجواب والتحقيق المختلفة: من الاعتقال إلى التهديدات وصولاً إلى التعذيب عبر الاستجواب الأولي. ثم جاءت قائمة بالأشياء المختلفة القابلة للاعتماد من قبل المحققين: التعليق بسقف الزنزانة من الكاحلين، الضرب بالأيدي أو العصي أو الكوابل، الوقوف العاري أياماً متواصلة، قلع لأظافر، حرق الجلد بالسجائر أو ألسِنة اللهب، التعرض لهجوم الكلاب، الضرب على البطن، إحداث صدمات كهربائية للأعضاء التناسلية. كانت القائمة طويلة جداً وأخبرنا أبو موسى بأن كل هذه التقنيات كانت قد استُخدمت مع الإخوان في بلدان مختلفة.

كان الدرس الأول بسيطاً: على أي مجاهد أن يبقى متكتماً. لعل الوسيلة الفضلى للحيلولة دون إماطة اللثام عن الأسرار هي عدم التوفر عليها في المقام الأول. أدركتُ الآن أن هذا كان السبب الكامن وراء منعنا الجازم، منذ اليوم الأول، من التكلم مع بعضنا عن أي شيء من خارج المعسكرات. كان السبب متمثلاً بالخوف من وجود جواسيس. كانوا يريدون الاطمئنان إلى أن أياً من الإخوان لن يكون قادراً على الكشف عن أشياء كثيرة إذا ما تعرض للانهيار تحت الضغط.

إلا أن الإيمان، لا الكتمان، كان السلاح الأهم والأمضى في جعبة المجاهد. فأي مجاهد حقيقي قادر على مقاومة أي شيء إذا كانت معاناته في سبيل الله. لابد له من الاستعداد للاستجواب والتعذيب تماماً مثل الاستعداد للأنواع الأخرى من المعارك. كان أبو موسى بالغ الوضوح في هذا الشأن: لم يكن الاستجواب إلا أحد أشكال الحرب النفسية. وكما في الحرب الفعلية، لم يكن ثمة أي احتمال لهزيمة الأخ. فهو إما أن يدحر عدوه، أو يقضي شهيداً.

غير أن هناك خطوات ملموسة أيضاً. قبل الانطلاق إلى تنفيذ أي مهمة لابد للأخ من مناقشة قائده حول ما يتعين عليه قوله للمحققين إذا ما وقع في الأسر. يجب ألا ينحرف عن تلك الخطة المرسومة. يجب ألا يبوح بأي معلومات، كما يجب أن يدرك أن البوح لن يفيد في شيء. لن يتمخض إلا عن المزيد من التعذيب لأن المحققين سيرون أن لدى الأسير أسراراً يمكن أن يكشف عنها. غير أن المحققين كانوا سيبقون شديدي الحرص على عدم قتل الأسير، لأن الجثة لن تفيدهم في شيء.

وكما شرح أبو موسى، فإن الاستجواب كان فرصة عظيمة بالنسبة إلى أي أخ. كان الأخير يستطيع معرفة المزيد عن العدو ونشر الأضاليل التي من شأنها أن تساعد جماعته في بلوغ أهدافها. وهذا النوع من التوظيف كان يتطلب مهارة، وعلى أي أخ أن يتدرب لاكتسابها تماماً كما يتدرب على استعمال السلاح، أي سلاح. يجب أن يتقن فن تضليل محققيه ومستجوبيه. كلما طال الاستجواب زادت المعلومات التي يمكن للمحققين أن يكشفوا عنها فيما يخص معرفتهم واستراتيجيتهم. ويستطيع الأخ توظيف تلك المعلومات لصياغة ردوده الخاصة، لتزويد العدو بأكاذيب على أنها حقائق. عملية الاستجواب لم تكن بالنسبة إلى أي مجاهد سوى تكتيك حربي آخر.

بعد ظهر ذلك اليوم، أنجز أبو موسى مهمة القراءة لنا، ورحت أنا أفكر بما كنت قد تعلمته أصبحت أفضل فهماً للسبب الذي جعل أبا بكر بالغ السعادة بالأخ الذي كان قد أخذه رهينة خلال المداهمة الليلية في خالدان. كان الأخ قد وظف عملية الاستجواب لخدمة جماعته. كان يحاول زرع الخوف في قلب العدو ودفعه إلى التراجع.

بعد سنوات كثيرة، كنت سأعود إلى التفكير بهذه العبرة مرة أخرى، حين بدأت أعرف المزيد من المعلومات عن ابن الشيخ الليبي ودوره في إطار ما بات يُعْرَف باسم القاعدة. واصل ابن الشيخ إدارة معسكرات التدريب في أفغانستان على امتداد عقد التسعينيات، وكان قريباً من بن لادن. أُلقي القبض عليه في وقتٍ مبكر حين قام الأمريكيون باجتياح أفغانستان بعد هجمات 9/11، وتم نقله جواً إلى مصر حيث قامت وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه CIA) بتعذيبه. وهنا قال لمستجوبيه إن صدام حسين كان قد زَوَّد القاعدة بمعلومات حول بناء وتركيب أسلحة كيميائية. إن المعلومات المأخوذة من ابن الشيخ هي المعلومات التي كان جورج دبليو بوش وكولن باول يلمحان إليها حين أفادا بأن لديهما إثباتات تؤكد أن صدام حسين كان على علاقة بالقاعدة. استخدما ما صدر عن ابن الشيخ لتسويغ غزو العراق.

فيما بعد قال ابن الشيخ إن قصة صدام حسين لم تكن صحيحة. وبالفعل فإن وكالة الاستخبارات المركزية (السي آي ايه CIA) كانت قد عرفت أن قصة ابن الشيخ لم تكن جديرة بالاعتماد قبل أن يُقَدِّم كون باول على الإشارة إليها في خطابه الشهير أمام الأمم المتحدة بوقتٍ طويل. غير أن الأمر كان قد فقد أهميته لدى بروز هذه الحقيقة على السطح. فأمريكا كانت قد دخلت الحرب.

كثيرون يزعمون أن ابن الشيخ كذب على سجانيه نتيجة اليأس، لأنه كان يتعرض لتعذيب بالغ الوحشية. أنا أعرف أن ذلك ليس صحيحاً. كان يدير هذه

المعسكرات، وكل شيء تعلمناه هناك كان ابن الشيخ قد تعلمه قبلنا بكثير. كان قد أعد نفسه للاستجواب تماماً مثل الأخ في المسجد الذي كان عاكفاً على إعداد نفسه. كان يعرف ما تعين عليه أن يفعله.

ما من مجاهد حقيقي يخشى الألم، ولاسيما إذا كان مفعماً حماسة مثل ابن الشيخ. لا قيمة للألم. يستطيع الإنسان أن يتقن فن عدم الإحساس به. وما من مجاهد حقيقي يخاف الموت. فالموت في سبيل الله هو غاية الحياة.

لا، مستحيل، إن ابن الشيخ لم يتعرض للانهيار تحت وطأة التعذيب. تعامل مع مستجوبيه بالقدر نفسه من المهارة التي درج على استخدام رشاشه بها. كان يعرف ما كان مستجوبوه يريدون معرفته، وكان هو سعيداً بتزويدهم بذلك. كان راغباً في رؤية صدام مطاحاً به حتى أكثر من الأمريكيين. وكما كان يقول لنا في خالدان، فإن العراق كان ميدان الجهاد الكبير التالي.

في مكان ما، في إحدى غرف التعذيب السرية، كان ابن الشيخ قد ربح معركته.

العمل الدعائي

كنت غارقاً في بحر من السأم فقررت ذات يوم بتنظيم سقائف التخزين القريبة من مدخل المعسكر. كنا، أبو جهاد وأنا، قد دخلناها بحثاً عن ذخائر معينة فرأيت كم كانت في حالة من الفوضى. سألت أبا جهاد عما إذا كان مسموحاً بأن أقوم بترتيبها. بدا متفاجئاً بطلبي، غير أنه رحَّبَ بالاقتراح.

في اليوم التالي سلَّمني مفاتيح المستودع وبدأت فرز الموجودات. في الغالب، ثمة كانت كميات كبيرة من الأسلحة موزعة على صناديق مختلفة وفقاً لعائديتها الملكية. في خالدان كانت الأسلحة كلها عائدة للمعسكر، أما في داورنتا فكانت ملكاً لمجاهدين متنوعين. فعلى جبهات القتال كان المجاهدون قادرين على تملك

كل ما يغنمونه من العدو. صحيح أننا كنا، جميعاً، قادرين على استخدامها، غير أن هويات مالكيها كانت معلومة.

كانت ثمة أعداد من الصناديق الخشبية في حجرات المستودع أيضاً. أحد هذه الصناديق لفت نظري. كان عائداً لمخرج سينمائي عربي كان قد زار دارونتا قبل بضع أسابيع. لم يبق في المعسكر سوى ليلة واحدة، وفي السهرة كنا جميعاً قد جلسنا سوية في المسجد فيما قام هو بعرض بعض الأفلام التي كان قد أخرجها. فوجئت لأنني كنت قد شاهدت عدداً كبيراً من هذه الأفلام من قبل في أوروبا: أفلام عن أفغانستان، البوسنة، بلاد الشيشان.

لاحقاً في تلك الليلة، أفادني أحد مقاتلي الحزب الإسلامي بأن المخرج السينمائي كان مشهوراً. كان قد أخرج مئات الأفلام الدعائية. وهذه الأفلام كانت تُطبع في أوروبا وتباع في المساجد وأمامها بعد صلاة أيام الجمعة.

كان المخرج قد جلب معه صندوقاً إلى المعسكر. قبل مغادرته، رأيته يحجزه ويغلق عليه في إحدى الحجرات الكائنة أمام المعسكر. ثمة كانت فسحة للتخزين أيضاً، حيث درج مقاتلو الحزب الإسلامي على ترك أشيائهم وحوائجهم فيها عند ذهابهم إلى الجبهة. كنت قد نسيت صندوق المخرج السينمائي تماماً، غير أنني شعرت الآن برغبة جامحة في معاينة ما فيه. في أعماقي، راودني إحساس بأنني راحل قريباً من أفغانستان. كان يتعين علي أن أعود إلى أوروبا قبل أن يعمد جيل إلى بتري. وقد فكرت أن علي أن أسعى إلى جمع بعض المعلومات الملموسة قبل لقائه. كنت قد أمضيت في أفغانستان ما يقرب من عام، آخر المطاف، ولم أكن قد عرفت الاسم الحقيقي ولو لواحد من المجاهدين.

بعد إنجازي لعملية ترتيب المستودع، تلفَتُّ حولي لأرى ما إذا كان أحد يراني. ثم سارعت إلى خلع قفل صندوق المخرج. تسارعت نبضات قلبي. كنت سأُعدم فوراً لو رآني أحدهم. كنا ممنوعين حتى من طرح الأسئلة على بعضنا البعض. إن

تفتيش ممتلكات شخص آخر كان انتهاكاً صارخاً لجميع المبادئ التي كنا قد تعلمناها. صورة الطيار ووقود المحرك مرت أمامي خطفاً مرة أخرى.

شعرت بالعرق المتصبب على جبهتي وأنا أفتح الصندوق. كان في الصندوق أعداد من أشرطة الفيديو، مسدس ماكاروف عيار 9 مم، ومجموعة من جوازات السفر الأوروبية والخليجية، بأسماء مختلفة. لم يكن هناك أي شيء استثنائي الفائدة بالنسبة إلي، فسارعت إلى إغلاق الصندوق وإعادته إلى مكانه بين الصناديق الأخرى. شعرت بقشعريرة تتملك جسدي وأنا أمشي عائداً إلى المهاجع لإعادة المفاتيح إلى أبي جهاد.

بدلاً من الاكتفاء باستعادة المفاتيح، طلب مني أبو جهاد أن أرافقه إلى حجرات المستودع ليتمكن من إلقاء نظرة على ما كنت قد أنجزته من عمل. أدركت أن الشك راوده حول احتمال أن أكون قد سرقت شيئاً من أحد الإخوان الآخرين. إلا أنه ما لبث، بعد قيامه بعَدّ جميع قطع الأسلحة في الصناديق، أن تأكد من أن شيئاً لم يكن ناقصاً. فشكرني على ما بذلته من جهد.

بعد بضعة أسابيع عاد المخرج السينمائي إلى المعسكر. كان في بلاد الشيشان. ليلة وصوله عرض علينا بعض الأفلام التي كان قد التقطها بما فيها فلم عن شامل باساييف. كنت أعرف كل شيء عن باساييف ـ كان بطلاً عظيماً. كنت قد عرفت عنه كل شيء في خالدان، عبر الاستماع إلى الأخبار المذاعة بالراديو.

في الصيف الماضي، كان باساييف قد قاد مجموعة صغيرة من المجاهدين واقتحم مشفى في بلدة بوديونوفسك الروسية. كان في المشفى نحو ألف وخمس مئة روسياً، أخذهم باساييف ورجاله رهائن. حاول الروس اقتحام المشفى وتحرير الرهائن مرتين. ولكن باساييف ورجاله صدوهم. أخيراً نجح باساييف في اجتراح اتفاق مع رئيس الوزراء الروسي. مقابل تحرير الرهائن، اضطرت

روسيا أن تمنح باساييف مروراً حراً للعودة إلى بلاد الشيشان. وافق الروس أيضاً على وقف العمليات العسكرية فوق الأراضي الشيشانية.

في الفلم الذي عرضه المخرج السينمائي السعودي علينا، بدا باساييف متباهياً برشاش جديد. كان الرشاش مزوداً بكاتم للصوت ولا يحدث لدى الإطلاق سوى نقرة صغيرة في السبطانة. كان باساييف يتحدث عبر مترجم، وقال إن الرشاش كان الطراز الروسي الأحدث. في إحدى المراحل التفَتَ إلى الكاميرا، لَوَّحَ، وأرسل تحياته إلى جميع الإخوان في معسكرات التدريب في أفغانستان. يجب أن يكون مطّلعاً على أن المخرج كان عازماً على العودة إلى داروننا، لأنه خصَّنا بالذكر.

في اليوم التالي كان المخرج لا يزال في المعسكر. رأيته في صلاة الفجر، ومن ثم رأيته ظهراً. غير أنني شعرت بأن هناك خللاً في المرة الثانية؛ كان متجهم الوجه. على الفور استنفرتُ أحاسيسي.

بعد صلاة الظهر، وقف أبو جهاد وقال لنا بصوتٍ واضح الجدية والوقار: "هذا الصباح، اكتشفنا أن شخصاً فتح صندوق صديقنا المودع في حجرة التخزين" وهو ينظر إلى المخرج. "وكما تستطيعون أن تروا نحن مستاؤون جداً".

ثبّتُّ نظري إلى الأمام دون أي تعبير، ولكن قلبي في صدري كان ينبض متسارعاً. لم أفاجأ حين التفت أبو جهاد نحوي قائلاً:

"أبا إمام، أنت كنت في المستودع بضع ساعات وحدك. هل فتحت الصندوق؟"

كان ردي جاهزاً: "لا، أيها الأخ، لم أفعل" قلت بصوت هادئ. "ألا تتذكر أنك عاينت المكان معي بعد قيامي بإعادة ترتيب كل شيء؟ لو كنتُ قد خلعتُ الصندوق، لكنتَ، قد لاحظتَ، بالتأكيد".

لاحظت تدفق الدم على وجه أبي جهاد الذي راح يقول محاولاً الابتسام: 'أنت على صواب، يا أبا إمام. أنا آسف.' ثم التفت إلى الآخرين، وفي تظاهر زائف بالقوة قال إن أحداً لن يُسمح له بالدخول إلى المستودع إلا في حضوره هو من الآن وصاعداً.

بعد كل شيء، كان جميع مقاتلي الحزب الإسلامي ودودين جداً معي. والتوتر في العلاقة بين المجاهدين وأبي جهاد لم يزدد إلا سوءاً خلال فصل الشتاء، مع مواصلة الطالبان زحفهم نحو كابول. جميع الإخوان كانوا بالغي السعادة لقيامي بإيقاف الأمير عند حده.

أرض الجهاد واسعة

كنت في المطبخ أجْلي الأطباق ذات مساء حين رأيت شاحنة رباعية الدفع متوغلة في المعسكر. نزل منها عدد من الرجال وكان ابن الشيخ أحدهم. أزحت الأطباق جانباً ومشيت نحوه، وتبادلنا التحية. كنت سعيداً برؤيته.

ما لبث الآخرون أن خرجوا من المهاجع وذهبنا جميعاً إلى المسجد للكلام. حدثنا ابن الشيخ عن رحلته ومدى صعوبتها. تعين عليهم أن يختاروا طرقاً وممرات خطرة عبر الجبال المكللة بالثلوج لتجنب اجتياز الحدود الباكستانية من جهة، والتوغل في مناطق القتال من الجهة المقابلة.

بعد انتهائه من رواية قصته، التفت إليَّ: 'ما رأيك يا أبا إمام بمشوار؟' تبعته إلى خارج المسجد، غير أن الرياح اللاذعة لسَعَتْنا صفعاً فور خروجنا. ما لبثنا أن وجدنا نفسينا قابعين معاً أمام شاحنته.

بدأ الكلام قائلاً: 'مضى نحو سنة على قيام أبي أنس بإيصالك إلينا يا أبا إمام. وخلال هذه الفترة تعلمت عدداً كبيراً من الطرق المختلفة لمحاربة الطواغيت.' أومأت، وتابع: 'أتذكر أنك كنت، حين كنت في خالدان، تتحدث عن رغبة في خوض جهادك في بلاد الشيشان، أليس كذلك؟'

'بلى، ذلك هو ما أريده.'

تنفس أبو جهاد الصعداء. 'أرض الجهاد واسعة يا أبا إمام. ولكن الأهم هو الجهاد إلى القدس الشريف. هناك في القدس، يتمادى أعداء الله في فرض معاناة كبيرة على إخوتنا وأخواتنا من المسلمين والمسلمات.'

كان ابن الشيخ قد قال هذا عدداً كبيراً من المرات في خالدان: القدس هو قلب الإسلام، وأولى أوليات المجاهدين. غير أنني لم أكن راغباً في الذهاب إلى القدس. لم يكن قد سبق لي أن رغبت في الذهاب إلى هناك لأنني لم أكن أريد أن أجاهد عن طريق تفجير نفسي في إحدى الأسواق أو الحافلات. من المؤكد أنني لم أكن قد حصلتُ على كل هذا التدريب من أجل ذلك، أليس كذلك؟

غير أن أبا جهاد ما لبث أن بدأ يشرح: 'علينا أن نقاتل الصهاينة بكفاءة؛ لابد لنا من ضربهم في أضعف نقاطهم وأكثرها هشاشة. نحن بحاجةٍ إلى إخوان يستطيعون أن يعيشوا في كنفهم، يستطيعون أن يراقبوهم، أن يرصدوا تحركاتهم. نحن بحاجةٍ إلى مخططات وصور لأنْديتهم، لكُنُسهم، لبنوكهم، لقنصلياتهم. لجميع الأمكنة التي يحتشدون فيها بأعداد كبيرة.

تابع أبو جهاد كلامه قائلاً: 'لا نستطيع أن نرسل كائناً من كان للقيام بمثل هذه المهمة. نحن بحاجة إلى أخ يستطيع مقاومة جميع الإغراءات ويبقى طاهراً ونقياً من الداخل وهو يتابع الحياة بين صفوف الكَفَرة. نحن بحاجةٍ إلى شخص متوفر على رصيد غير محدود من الصبر والتصميم. إن التمثل، الاهتداء إلى مهمة، العثور على التوثيق السليم، سيستغرق وقتاً. إن الاهتداء إلى مجموعة إخوان، أربعة أو خمسة مسلمين مستعدين للقيام بالمهمة سيتطلب وقتاً.'

كنت أعرف ما كان سيلي. منحنياً علي قال أبو جهاد:

'أنت، يا أبا إمام، عشتَ في أوروبا سنوات عديدة. وتتحدث بعدد من اللغات.

أنت ذكي. أنت جريء، أنت مستقل. لهذه الأسباب كلها، نحن نعتقد بأن أفضل خدمة تستطيع أن تؤديها للأمة هي أن تعود إلى أوروبا".

أجبت: "سأبقى دائماً مستعداً لتنفيذ أي أمر أتلقاه منكم. ولكن لماذا لا أستطيع أن أذهب إلى بلاد الشيشان؟"

قلت ذلك دون أن أعنيه. بالطبع، لو جاءني ابن الشيخ في ذلك اليوم وطلب مني الذهاب إلى بلاد الشيشان، لما ترددت في الاستجابة، لكنت قد ذهبت. كنت مؤمناً بذلك الجهاد. غير أن كل ما كان يهمني حقاً في تلك اللحظة كان متمثلاً بالخروج من دارونتا. كنت أتطلع إلى أن أفعل شيئاً - أي شيء - جديداً أو أكبر مما كنت أفعله هنا في دارونتا.

إلا أنني فوجئت إذ أدركت مدى انفعالي حين قال ابن الشيخ إنني كنت مرشحاً للعودة إلى أوروبا. على امتداد ما يقرب من السنة كنت قد حرصت على كبت هذا الجانب من شخصيتي. في الحقيقة كنت قد نجحت نجاحاً شبه كامل في الإجهاز عليه وقتله. كنت مجاهداً؛ لم أكن قادراً على التفكير بأي شيء آخر. لو كنت قد فعلت لكنت قد تعرضت للتداعي فالانهيار؛ لكانت الحياة قد أصبحت غير قابلة لأن تُطاق، ولكان الآخرون قد تمكّنوا من رؤية ما خلف قناعي.

على نحوٍ مباغت، في تلك اللحظة عاد كل شيء. افتقدت حياتي في الغرب. افتقدت الخمرة افتقدت السجائر. افتقدت المأكولات الفاخرة والجرائد والشراشف الناعمة. وأكثر من كل شيء افتقدت الجنس. وهكذا فإنني لم أنسحق هذه المرة حين قال ابن الشيخ إنني لم أكن لأستطيع الذهاب إلى بلاد الشيشان. شعرت بالارتياح.

تابع ابن الشيخ كلامه: "الإخوان في بلاد الشيشان ليسوا بحاجة إلى أن تقاتل معهم ميدانياً. إنهم بحاجة إلى المال. وأفضل طرق مساعدتك لهم هي

دعمهم مالياً، عبر إرسال التبرعات إلى المعسكرات من خلال المكتب.' صمت قليلاً. 'وما نحن جميعاً بأمس الحاجة إليه هو وجود عدد أكبر من الإخوان في بلاد الكفر.'

أنجز ابن الشيخ مهمته. أعطاني أمراً، أومأت موافقاً.

ثم تغيرت نبرة صوت ابن الشيخ. 'هل تستطيع السفر بهويتك الحقيقية أم أن هناك مشكلة بينك وبين السلطات؟'

'أعتقد أنني أستطيع أن أسافر إلى تركيا. يمكنني شراء جواز سفر هناك.'

'حسناً. سنتخذ الترتيبات بعد الوصول إلى بيشاور. جواز سفرك وأشياؤك الأخرى هي هناك مع أبي زبيدة. سنذهب غداً. غير أن عليك، يا أبا إمام، أن تعلم أن الوقت عصيب جداً بالنسبة إلى العرب في الباكستان.' نَبْرتُه كانت مظلمة. 'قامت الشرطة بمداهمة البيوت في طول البلاد وعرضها. إنهم يعتقلون أي عربي بلا تأشيرة إقامة.'

رحت أفكر بجواز سفري وبتأشيرة الإقامة المنتهية صلاحيتها منذ ثمانية أشهر عليه.

'هات لي دفاترك الآن يا أبا إمام.' كان يلمح إلى الملاحظات التي كنت قد دونتها في أثناء الحصص الدرسية مع أسد الله.

هرعت إلى المهجع لالتقاط دفاتري وجلبها إلى الشاحنة. وأنا أناوله إياها، دس ابن الشيخ يده في جيب سترته وسحب رزمة من الأوراق النقدية. قال:

'هاك. هذه لك. إنها مكافأة من الشيخ لكل من الإخوان.' ثم نزل من الشاحنة ومشى عائداً إلى المسجد.

في طريق عودتي إلى المهجع نظرت إلى المبلغ. كان قد أعطاني روبيات

باكستانية تساوي أربع مئة من الدولارات تقريباً. آنذاك لم تكن لدي أي فكرة عمن كان يشير إليه حين قال إن المبلغ كان مكافأة من الشيخ. أما الآن، فأفترض، بالطبع، أنه كان يقصد أسامة بن لادن.

عندما وصلت إلى غرفتي، كان عبد الكريم موجوداً. كان قد استلم مبلغ الأربع مئة دولار أيضاً. حين قلت له إنني كنت موشكاً على الرحيل، بدا حزيناً وقال: "غير انك جئت بعدي، والآن تغادر قبلي!" لم يكن، على ما بدا، أقل مني توقاً للرحيل عن دارونتا.

سألته: "هل تعبت من الجهاد وسئمتَه يا عبد الكريم؟"

أجاب: "لا، قطعاً لا. لم أقصد ذلك. أردت فقط أن أذهب إلى خطوط الجبهة. أريد أن أعود إلى أوروبا، أريد أن أشرع في تأدية رسالتي."

فهمت بالطبع. كان ذلك ما أردته أنا أيضاً، وإن بطريقتي الخاصة. طمأنته: "لا تقلق يا أخ، ساعتك لا ريب آتية وبسرعة. إنشاء الله!"

ابتسم: "إنشاء الله!"

غمرني إحساس بالأمان وأنا أستعد للذهاب إلى النوم في تلك الليلة، أكثر مما كنت قد شعرت به في ليلتي الأخيرة في استانبول. بالطبع، كانت أعصابي متوترة، بسبب ما كان ابن الشيخ قد قاله عن أخطار السفر عبر الباكستان. غير أني أحسست في أعماقي بأنني كنت سأنجح، بأن قَدَري كان عازماً على إعادتي إلى أوروبا.

دقَّقْتُ في ما كان ابن الشيخ قد قاله لي عن قراره القاضي بإعادتي إلى أوروبا. فهمت أكثر مما كنت قد فعلت من قبل لماذا عاملني في خالدان على نحوٍ مختلف عن معاملته للآخرين. لماذا أتاح لي فرصة البقاء بل وحتى الارتقاء على الرغم من اختصار المسافات في أثناء الجري، من معاندة المدربين، ومن

اصطحاب مصباح الجيب المحظور. هذه الليلة كان ابن الشيخ قد أماط اللثام عن وجهه: كان يرى استقلالي ذُخْراً. خلافاً لحال أكثر المجاهدين في المعسكر كنت أفكر بنفسي. لم أكن بحاجةٍ لأي دفع أو حفز من الآخرين. في المعركة، لابد للمجاهد من أن يفكر مع إخوانه، ومن أن يعتمد عليهم مئة بالمئة. أما إذا كنتُ عازماً على تشكيل خلية في أوروبا - ذلك بالتأكيد هو ما كان يطلبه مني - فإنني كنت سأجد نفسي مضطراً للتحرك من منطلق مبادرتي الخاصة.

يا لها من مفارقة باعثة على الحيرة! بنظر ابن الشيخ كنت المجاهد المثالي المناسب لمثل هذه المهمة لأنني كنت فرداً. غير أنني لم أكن هذا الفرد المطلوب إلا لكوني قد نشأت وترعرعت في أوروبا، بكل ما تنعم بها من حريات. كان ابن الشيخ يريد تدمير الغرب بأسلحته الخاصة.

العبور

صباح اليوم التالي كنا جميعاً واقفين بالقرب من المسجد حين جاءت سيارة تويوتا زرقاء رباعية الدفع. كانت مدموغة، كما لو كانت سيارة إسعاف، بهلال أحمر على أحد الجانبين. أحد مقاتلي الحزب الإسلامي أفادني بأن الشاحنة عائدة لحكمتيار. نزل ابن الشيخ من الشاحنة وحيا الإخوان جميعاً. ثم دار نحوي وقال: 'دقت ساعة الرحيل يا أبا إمام!'

ودعت الجميع واعداً أن أتذكرهم في صلواتي وردوا بالمثل. ثم صعدت إلى الشاحنة لأكون مع ابن الشيخ. كان ثمة ثلاثة آخرون في السيارة. الأول الذي لاحظته كان هو الدليل الأفغاني الذي كان قد أوصلني إلى خالدان في ذلك اليوم الأول من مجيئي. كان هناك سائق أيضاً. وعلى الأرض في الصندوق الخلفي كان ثمة رجل أفريقي ممدد على نقّالة.

أوضح ابن الشيخ أن المريض كان قد أُخذ رهينة خلال محاولة حكمتيار الانقلابية ضد رباني في 1994. ولم يتم الإفراج عنه إلا مؤخراً. أفادني ابن

الشيخ أن الرجل كان قد فقد عقله في أثناء محنته، فبات وجوده على الجبهة خطراً.

ناولني ابن الشيخ حقنتين، قارورة كلوروفورم، وبعض قطع القماش. قال لي إن وظيفتي كانت متمثلة بضمان بقاء الأخ نائماً خلال الرحلة إلى بيشاور. تعين عليّ أن استخدم الكلوروفورم حتى الاقتراب من نقطة الجمارك عند ممر خيبر، والمبادرة بعد ذلك إلى حقنه بإحدى الحقنتين. وقد تعين علي أن أستخدم الحقنة الثانية عند الوصول إلى حاجز البوليس الأخير قبل مخيم اللاجئين.

خرجنا من المعسكر، وبعد نحو خمس عشرة دقيقة بدأت عينا المريض تفتحان ببطء. فتحت قارورة الكلوروفورم وبللت قطعة القماش بعناية، تماماً كما كنت قد تعلمت في درس الاختطاف في خالدان. ما إن قمت بسد أنف المريض حتى جحظت عيناه. كانتا متقدتين وشرستين. أدركت بعد بضع ثوانٍ أنه كان يحبس نفسه، فضغطت على القماش أكثر لسد منخريه به. لاحظت التوتر في وجهه وهو يقاوم الاستنشاق. كان لابد لي من إعادته إلى النوم، غير أنني تذكرت أيضاً من التدريب أن من شأن بقاء القماش على وجهه مدة أطول من اللازم أن يؤدي إلى قَتْله. ما إن غامت عيناه قليلاً حتى سارعت إلى إبعاد قطعة القماش المبللة بالكلوروفوم.

تعين علي أن أكرر العملية كل نصف ساعة تقريباً. ما من مرة إلا وقاومني فيها، وما من مرة إلا واضطررت لأن أُبقي قطعة القماش على وجهه مدة أطول من المرة السابقة. من الواضح أن هذا الرجل كان يعاني من خلل معين. فهمت السبب الكامن وراء رغبة الإخوان في إبعاده عن الجبهة - كان الزبون مضطرب العقل.

كنا قد تسلقنا وصولاً إلى قلب الممر حين أمرني ابن الشيخ بحقن المريض بالإبرة. كان نائماً سلفاً حين فعلت، فلم يقاوم. ثم قام السائق بإيقاف السيارة

فبادرنا: ابن الشيخ، الدليل وأنا، إلى النزول. كنا على مسافة نحو مئتي متر من الحاجز.

قال لي ابن الشيخ: 'سنعبر الحدود سيراً على الأقدام.' أما التويوتا فكانت ستلحق بركب العربات الأخرى. ذكّرني ابن الشيخ بضرورة الامتناع عن الكلام. كلمة عربية واحدة كان من شأنها أن تكفي لاعتقالي.

كان ثمة حشود من البشر لدى اقترابنا من المعبر. الجميع كانوا يتزاحمون مندفعين نحو الحاجز. دخلت في الرتل وسرعان ما بدأت أحس بجسمي مدفوعاً إلى الأمام من قبل مَنْ هم ورائي. كنت هذه المرة أكثر ثقة مني عند الدخول مع أبي سعيد. كنت أعرف أن لدى ابن الشيخ خطة تمكّننا من تجاوز الحرس.

سمعت صوتاً ينادي من الخلف: 'أبو إمام! أبو إمام!' فالتفتُّ. كان صاحب الصوت هو ابن الشيخ نفسه. كان هو والدليل لا يزالان واقفين على بعد خمسة عشر متراً خلفي. لم أنتبه إلى أنهما كانا قد توقفا. كانا، كلاهما، يلوحان بهلع طالبين مني أن أعود إلى الخلف.

درت بسرعة لأنظر إلى الحاجز، وما إن فعلت حتى سارع حارسان إلى السماح للرجل الذي كانا يفتشانه بالمرور والاندفاع نحوي. كانا يصرخان متوجهين إلي أنا بلغة لم أفهمها. كنت قد تدربت على التعامل مع مثل هذا الوضع: تجمدت حيث كنت ورفعت يدي في الهواء. على نحوٍ مفاجئ، شعرت بألم حاد في ساقي. كان أحد الحارسين قد ساطني بكرباجه. أما الحارس الآخر فرفع كلاشنكوفه ووجهه نحوي مباشرة.

نظرت إلى الأمام ورأيت حارسين آخرين كانا قد أمسكا ابن الشيخ والدليل. كانا يدفعانهما باتجاهي. كان الحارسان يضربانهما بالعصي ويركلانهما بلؤم. لم يصرخ أي منهما؛ بقيا صامتين تماماً. جميعاً كنا قد تدربنا على الرد بهذه

الطريقة عند الاعتقال. غير أنني لم يكن قد سبق لي أن رأيت التطبيق العملي للأمر، وصُعقت حقاً بتصرف ابن الشيخ. ربما كان أنشط من قابلتُهم من الرجال؛ ثمة كانت على الدوام طاقة شرسة كامنة خلف تحديقه الموزون. والآن، بين أيدي الحراس، بدا وكأن الحيوية كلها قد تبخرت من جسده. عيناه كانتا فارغتين تماماً كان قد قلب شخصيته رأساً على عقب.

لم يكن لدي وقت للتفكير بهذا. كنا بحاجة إلى مهرب. تقاطعت نظراتي مع نظرات الدليل وأشرت برأسي إلى جيب سترتي. قرأت في وجه الحارس أنه فهم ما قصدته: ثمة مبلغ من المال في الجيب. همس الدليل في أذن الحارس الذي كان يمسك به. ترك الأخير ذراعي الدليل الذي تقدم نحوي ومد يده إلى جيبي وأخرج نحو نصف رزمة الأوراق النقدية: الأوراق النقدية التي كان ابن الشيخ قد سلمني إياها في الليلة السابقة. مرر الأوراق خلسة إلى الحارس.

نظر الحارس إلى المبلغ، قال شيئاً بما يشبه الهمس، ثم دفع بالدليل نحوي. من الواضح أن الحارس كان قد رأى الأوراق النقدية وكان يرغب في الحصول على المزيد. وفيما كان الدليل مشغولاً بسحب الباقي من الأوراق من جيبي، نظرت إلى ابن الشيخ. كان الحارس ممسكاً به بإحدى يديه، ويتابع ضربه بالعصا باليد الأخرى. كان المشهد مرعباً؛ من المؤكد أن الضرب كان مبرحاً والموقف مؤلماً جداً. غير أن ابن الشيخ بقي صامتاً. ظل يبتسم راضياً فيما يواصل الحارس ضربه، الأمر الذي كان يضاعف من غضب الحارس.

ما إن أنجز الدليل تسليم المبلغ كله حتى توقف الضرب. سمح الحراس لنا جميعاً بالمرور. كان ابن الشيخ أول من مر وهو يحملق فيَّ.

لمت نفسي كثيراً وبعنف وأنا أعبر الحاجز. كنت أنا السبب في كل ما كان قد حصل. أدركت أن ابن الشيخ لم ينوِ قط المرور بالحاجز. هو والدليل كانا قد سارا

إلى الحاجز لمجرد التأكد من مرور الشاحنة. من المؤكد أنهما كانا يفكران بطريق أخرى، سرية، غير أنني كنت قد أفسدت الخطة غَفْلَةً مني. كنت غاضباً من نفسي. كنت قد خذلتُ ابن الشيخ.

إلا أنني تعلمت شيئاً تلك الليلة ـ شيئاً مهماً. لم أكن فهمت فهماً كاملاً الطريقة التي كان أمين وياسين قد اعتمداها في الرد هناك في بروكسل حين أفدتهما بأنني كنت أعمل مع جهاز الاستخبارات الخارجية (الدي جي اس إي DGSE) بكل الشرائع كان يتعين عليهما إعدامي. كانت تلك هي المرة الثانية التي كنت أخونهما فيها، ولم أكن مديناً لهما بأي مبلغ من المال. غير أنهما أحجما عن قول شيء، عن فعل شيء، أي شيء، بله الإعدام.

في تلك الليلة، قرأت في عيني ابن الشيخ الفارغتين البلهاوين سبب رد فعلهما في ذلك اليوم. عرف أمين وياسين أنهما وقعا في المصيدة. ربما أنا مزوَّد بجهاز. ربما كانت الشرطة محاصِرة للسيارة وتنتظر إشارة اعتقالهما. في الحدود الدنيا، كانا خاضعين للمراقبة. فأمين وياسين كانا في المعسكرات وكانا قد تدربا على التعامل مع لحظات كهذه أدركت أنهما لم يكونا قد صدقا كلمة واحدة من التفسير الذي كنت قد قدمته. كانا يتقنان فن الصمت لأن التحقيق كان قد بدأ، بمقدار ما كان الأمر يخصهما.

مدينة أشباح

وصلنا إلى بيشاور ثم توجهنا إلى مخيم اللاجئين. صُعقْت حين نظرت إلى ما حولي: كانت الشرطة في كل الأمكنة، وحواجز الطرق الواحد بعد الآخر. ومع اقترابنا أكثر أومأ ابن الشيخ لي لينبهني إلى ضرورة حقن المريض بالإبرة الثانية. مع اقترابنا من الحاجز الأخير كان غائباً عن الوعي.

قبيل الحاجز، نزلنا، ابن الشيخ وأنا، من الشاحنة وسرنا باتجاه القطاع العربي من المخيم. دُهشت حين وصلنا. كنت في المكان مرتين من قبل؛ هذه المرة

كان كل شيء مختلفاً. بدا المكان مخيفاً؛ كانت الشوارع خالية. أوضح ابن الشيخ أن البيوت كانت الآن خاوية، وأن الشرطة كانت، بعد الهجوم على السفارة المصرية، قد حاصرت المخيم مدة أسبوع واعتقلت عدداً كبيراً من الإخوان. كان البعض محظوظاً إذ نجح في الهرب عبر الحدود إلى أفغانستان.

أعادني ابن الشيخ إلى البيت الآمن حيث كنت قد أقمت في المرتين اللتين زرت فيهما بيشاور. أبلغني بأن بقائي هنا كان سيدوم أسبوعاً حارساً للبيت. ثم أخرج من جيبه بعض المفاتيح ودرنا على ثلاثة بيوت أخرى. قال إن عليّ أن أتفقد كلاً منها يومياً للتأكد من أن شيئاً لم يحدث لها. جميع البيوت كانت فارغة من كل شيء سوى أعداد ضئيلة من الصناديق والعلب والحقائب. قال لي إن عليّ أن أعيد هذه إلى البيت الآمن حيث كان أحد الإخوان سيأتي ليستلمها في غضون بضعة أيام.

ثم ذهبنا إلى البيت الرابع، في مواجهة البيت الآمن على الجانب الآخر من الشارع حيث كنت سأقيم. قام ابن الشيخ بفتح الباب ومددنا رأسينا إلى الداخل. ثمة كان سعوديان تذكرتهما من خالدان وصبي باكستاني لا يزيد عمره عن خمسة عشر عاماً. تبادلنا التحية ثم شرح ابن الشيخ أنه كان سيتعين علي أن آتي إلى هنا يومياً لتناول وجبتي الغداء والعشاء.

وبعد ذلك عدنا، ابن الشيخ وأنا، إلى البيت الآمن. دخل إحدى المقصورات وسحب جراباً ومسدس ماكاروف وقدمهما إلي. قال إن علي إذا ما حصل أي خطأ أن أخبر السعوديين في البيت وهما سيتصلان به عن طريق أبي زبيدة. ثم ابتسم، وَدَّعَني، وخرج من الباب.

كان الوقت ساعة متأخرة من بعد الظهر حين غادر ابن الشيخ، وحان وقت صلاة المغرب. توضّأت ثم عبرت الشارع. الصبي الباكستاني فتح الباب لي.

هذه المرة استطعت أن أعاين المكان. سرعان ما أيقنت أن هذا كان بيت عائلة غنية: ثمة كان مطبخ فيه فرن مايكروويف وجمّادة، وفي غرفة الجلوس أو المعيشة كان هناك جهاز تلفزيون كبير وفيديو. كانت ثمة حديقة خلف البيت، محجوبة عن الشارع بأسوار عالية. كان هناك مسكبة خُضَر في الزاوية وملعب صغير لكرة القدم. كان المكان زاخراً بالأرانب.

بعد أداء الصلاة جمعاً تناولنا طعام العشاء سوية. عبر السعوديان عن سعادتهما لرؤيتي وأفهماني أنهما لم يكونا قد غادرا البيت منذ نحو ثلاثة أشهر. بعد انتهاء العشاء عدت إلى بيتي. وفيما كنت مستلقياً أستعد للنوم، انتبهت إلى أنها كانت المرة الأولى التي كنت سأنام فيها وحدي في غرفة مستقلة منذ نحو عام.

أمضيت الأسبوعين التاليين في بيشاور. تمثلت مهمتي الأولى بتفتيش الصناديق والعلب والحقائب قبل أن يأتي أحد لاستلامها. أردت أن أرى إذا كان هناك أي شيء في داخلها يمكنني إخبار جيل عنه لدى لقائنا من جديد. انتظرت حلول الظلام، ثم قلبت ما في كل منها مستخدماً مصباح الجيب. لم أعثر على شيء ذي أهمية، ملابس وحاجيات شخصية فقط في الغالب.

كنت أمضي كثيراً من الوقت مع السعوديين. كنا نلعب تنس الريشة في الحديقة، ونشاهد أفلام الفيديو معاً. كانا متوفرين على مخزون هائل من أشرطة الفيديو، معظمها للتدريب. ثم كانت أفلام عن الاختطاف، عن الرصد، عن صنع القنابل. كان ثمة عدد كبير من الأشرطة الدعائية: معارك الجماعة الإسلامية المسلحة، اغتيال أنور السادات، تفجيرات 1983 لثكنات الجيش الأمريكي في بيروت.

مرة سألت الصبي الباكستاني عما إذا كان المصري موجوداً، أبو الأطراف الصناعية. أومأ، فسألته عما إذا كان يستطيع أن يذهب ويطلب منه مزيداً من

الأفلام عن المتفجرات. خرج مسرعاً وعاد بعد نصف ساعة ومعه خمسة أشرطة فيديو تدريبية. كل منها كان يتضمن تعليمات تفصيلية، خطوة ـ خطوة، عن كيفية تصنيع المتفجرات المتطورة.

يومياً كنا نذبح رأسين من الأرانب ونأكلهما في وجبة العشاء. كنت آمل ألا يُستخدم أي منها لاختبار السموم أو المواد الكيميائية كما كان يحصل في دارونتا. غير أنني لم أكن واثقاً إذ عثرت ذات يوم فيما كنت أتطفل مفتشاً زوايا البيت على قليل من المسحوق الفضي على الأرض في إحدى الغرف الخلفية. لمست المادة بإصبعي وجدتها مسحوق الألمنيوم، الذي كنا نستخدمه هناك في دارونتا لصنع القنابل. وبعد بضعة أيام عثرت، في مرآب أحد البيوت الأخرى، على بعض آثار نيترات الأمونيوم التي تتحول إلى متفجرة الآنفو ANFO إذا ما اجتمعت مع زيت الوقود.

من الواضح أن كل الأشياء، أو جُلها بالأحرى، كانت قد مُسحت قبل مجيء الشرطة. أما قبل ذلك فإن القطاع العربي كله من مخيم اللاجئين كان، باعتقادي، يبدو أشبه بمخبر كبير للأسلحة.

ذات يوم، مر الصبي الباكستاني بالبيت الآمن. أبلغني بأن علينا جميعاً أن نغادر، بأن المخيم لم يعد آمناً بالنسبة إلى أي منا. سارعت إلى لملمة أشيائي وخرجت معه. كان السعوديان هناك بانتظارنا، وتوجهنا جميعاً نحو الشارع الرئيسي.

استقلينا حافلة متوجهة إلى بيشاور ومنها إلى أخرى خارجة منها إلى الجهة الأخرى. وصلنا إلى منطقة سكنية حضرية متواضعة لم يكن قد سبق لي أن كنت فيها من قبل. بعد النزول من الحافلة سرنا على الأقدام إلى منزل كبير رن الصبي الباكستاني جرس بابه رنة رمزية. فُتح الباب وكان يقف خلفه أبو سعيد الكردي الأخ الذي كان قد أخذني عبر الحدود وأوصلني إلى دارونتا. قادنا جميعاً

إلى القسم الخلفي من البيت، إلى غرفة بدت أشبه بمكتب كان على الطاولة جهاز كمبيوتر نقال وعدد غير قليل من جوازات السفر.

أبو زبيدة وابن الشيخ كانا جالسين في كرسيين في العمق قريباً من الجدار الخلفي؛ قاما بالترحيب بنا. ثم بادر ابن الشيخ إلى سحب الآخرين من الغرفة كي يمكّن أبا زبيدة من التكلم معي وحدي. قال الأخير: 'اسمع يا أبا إمام، غداً ستذهب إلى إسلام أباد. سأزوّدك باسم أخ في الجامعة سيساعدك في شرعنة أوراقك. عليك أن تغادر البلد فوراً. بات بقاؤك أي وقت إضافي خطراً جدا. قد يعتقلونك في أي لحظة، ودون تأشيرةُ إقامة سيلقون بك في السجن.' صمت ' لن يمكّنوك من الخروج.'

ناولني أبو زبيدة بعض المال لشراء تذكرة السفر الجوي، ثم أعطاني جواز سفري. لم أكن قد رأيته منذ سنة، منذ تركته مع أبي بكر في يومي الأول بخالدان. ثم كتب ثلاثة أرقام على ورقة: 'الأولان خليويان. ما إن تصل إلى أوروبا حتى تستطيع الاتصال معي على هذه الأرقام. عادة تستطيع الوصول إليَّ أيام الجمع. لا تستخدم الرقم الثالث إلا بعد اختبار الأولين. إنه رقم أحد الإخوة في الجامعة هنا في بيشاور يمكنك تحميله أي رسائل.'

وبعد ذلك دوَّنَ عنوانَيْ صندوقَيْ بريد مختلفين إضافةً إلى رقم الحساب المصرفي. قال لي إن علي، بعد الاستقرار في أوروبا والبدء بكسب مرتَّب، أن أرسل التبرعات برقياً إلى ذلك الحساب. كذلك سجل رقم موجة إذاعية. وقال لي إنها الموجة التي يستخدمونها في التواصل مع المعسكرات وبينها. وإذا توفر عندي جهاز قوي فأستطيع، كما قال، استخدامه للاتصال من أوروبا.

أخيراً فتح أبو زبيدة دُرْج مكتبه وحمل دفتراً. إنه دفتري أنا من دارونتا. قال: 'سأوافيك بهذا فور نجاحك في الاستقرار وفي تزويدنا بعنوان آمن.' ثم

تحـدثنا، كـلانا، عن المكان الذي يجب أن أذهب إليـه. لم يكن يفكر بأي مكان محدد على ما بدا. كان من شأن أي من إنجلترا، فرنسا، بلجيكا، ألمانيا، أن يكون مفيداً برأيه.

وبعـد ذلك نهض أبو زبيـدة من مكانه وفتـح البـاب. نادى على أبي مـوسى الكردي الذي كـان يتحدث مع السعوديين. قـال: 'سيـرافقك أبو سعيـد الآن إلى مـركـز المدينة لشـراء بعض الملابس. أنت بحـاجـة لأن تبـدو باكسـتـانيـاً من الآن وصاعداً.'

أخذني أبو سعيد إلى مركز مدينة بيشاور حيث اشترى لي سروالاً وقميصاً باكستانيين. ثم أخذني إلى حلاق لحلاقة ذقني. وفيما كنت جالساً في الكرسي، عاينت صورتي المنعكسة في المرآة الضبـابيـة أمـامي. لم يكن ثمة أي مـرايا في المعسكرات، وبالتالي فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي تتاح لي فيها فرصة دراسة وجهي منذ ما يقرب من عام كامل. بالكاد تعرفت على نفسي. كانت لحيتي بطول خمسة عشر سنتيمتراً وبشرتي متشققة ومشوية بالشمس.

غير أن الدائرتين المستقرتين تحت عيني هما اللتان صدمتاني أكثر من أي شيء آخر. كانتا حالكتي السواد إلى درجة أنهما بدتا أشبه بأصبغة الوجه. تذكرت أنني لم أنعم بنوم ليلي حقيقي منذ خروجي من تركيا. فصلاة الفجر، التمارين الليلية، الإجهاد المستمر - ذلك كله كان محفوراً في وجهي. كنت قد رأيت هذه العيون مرات كثيرة من قبل، رأيتها عند أمين وياسين، وعند جميع الإخوان في المعسكرات. لم يخطر لي قط أن من شأن عيونهم أن تصبح عائدة لي.

بعد ذهاب لحيتي، عدنا أبو سعيد وأنا، سيراً على الأقدام إلى البيت. دلني على غرفة فيها عدد من أكياس النوم وحين نظرت إلى الأرض فوجئت بحقيبة السفر التي كنت قد حملتها معي من أوروبا. فتحتها، فيها الأشياء كلها: ملابسي،

آلة الحلاقة، نظارات الريبان. الشيء الوحيد الناقص كان السكين العسكري السويسري، ذلك المزيّن بالصليب.

صباح اليوم التالي، حان وقت الرحيل. بعد أداء صلاة الفجر احتشدنا جميعاً عند الباب: أبو سعيد، ابن الشيخ، أبو زبيدة، وأنا.

بادرني ابن الشيخ قائلاً: 'تذكر لا تتحدث مع أحد. ليس ذلك آمناً.' أومأت وابتسمت. كنت قد أدمنت تلقي الأوامر والإيعازات. ثم حيّاني هو والآخرون وتمنوا لي رحلة آمنة إلى خارج الباكستان. وَعدوا بالدعاء لي في صلواتهم كما وعدتهم بالشيء نفسه بالمقابل.

انحنيت أخرجت نظارات الريبان من حقيبتي ووضعتها على عيني. حين انتصبت واقفاً كان ابن الشيخ يضحك وهو يقول بدفء: 'انظر إلى نفسك. لقد أصبحت واحداً منهم من الآن.'

أنا أيضاً ضحكت. ثم درت، فتحت الباب، خرجت إلى شفق الصباح الباكر.

* *

المشهد الثالث

لندنستان

أبطال المشهد:

- **جيل:** ضابط جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) الذي قام بتوظيف عمر في بروكسل

فاطمة: شابة يقابلها عمر في باريس

دانييل: ضابط في الجهاز السري البريطاني

ابو قتادة: رجل دين في نادي شباب الريشات الأربع

ابو الوليد: نائب أبي قتادة في نادي شباب الريشات الأربع

خالد: شاب جزائري على علاقة بالجماعة الإسلامية المسلحة؛ يتردد على نادي شباب الريشات الأربع ثم لا يلبث أن يأخذ عمر إلى مسجد حديقة فينزبوري

سمير: شاب جزائري على علاقة بالجماعة الإسلامية المسلحة؛ صديق خالد

ابو حمزة: رجل دين في مسجد حديقة فينزبوري

عمر بكري محمد: رجل دين مؤيد لأبي حمزة خلال السجال مع القاعدة

علي توش: 'طارق' من بروكسل؛ العقل المدبِّر المزعوم لتفجيرات مترو باريس عام 1995

الكساندر: ضابط جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الي جي اس إي DGSE)؛ يحل محل جيل في لندن

مارك: ضابط جهاز سري بريطاني؛ يحل محل دانييل

بني: ضابطة جهاز سري بريطاني

عبد الحق: مدرب مغربي من خالدان

تسلسل زمني:

1995/11/4 : اعتقال رشيد رَمْضا في لندن بالارتباط مع تفجيرات متروباريس في 1995.

تشرين الثاني/نوفمبر، 1996: بيان صادر عن أمير الجماعة الإسلامية المسلحة عنتر الزوابري يعلن فرض الشريعة في الجزائر.

تشرين الثاني/نوفمبر، 1996: يقال إن علي توش موجود في لندن.

خريف 1996: أبو حمزة يبدأ الوعظ في مسجد حديقة فينزبوري؛ أبو قتادة يدين الجماعة الإسلامية المسلحة.

1996/12/13 : انفجار قنبلة في أحد قطارات البير PER تحت محطة بورت - رويال بباريس، 4 قتلى 180 جريحاً.

آذار/مارس 1997: استيلاء أبي حمزة على مسجد حديقة فينزبوري.

1997/3/29 : مذبحة تقترفها الجماعة تودي بحياة المئات في قرية سيدي مسعود الجزائرية.

تشرين الأول/أكتوبر 1997: أبو حمزة يدين الجماعة.

1997/2/23: بدء محاكمة 39 إسلامياً على علاقة بتفجيرات مترو باريس 1995 في باريس.

1998/2/13 : السلطات الحكومية الجزائرية تعلن أن علي توش قُتل في الجزائر في أيار/مايو 1997.

1998/2/18 : محكمة باريسية تحكم على 36 شخصاً على علاقة بتفجيرات مترو باريس في 1995؛ علي توش يُحْكم غيابياً بعشر سنوات سجن.

1998/2/23: أسامة بن لادن وأيمن الظواهري يصدران فتوى تدعو إلى الجهاد ضد الأهداف العسكرية والمدنية في طول العالم وعرضه.

1998/3/5: اعتقال فريد ملوك في بروكسل بعد تبادل إطلاق النار مع البوليس البلجيكي.

1998/5/26 : الشرطة في فرنسا، بلجيكا، ألمانيا، إيطاليا وسويسرا تلقي القبض على عشرات نشطاء الجماعة المشبوهين في سلسلة من المداهمات.

1998/8/7 : مقتل 271 وجرح الآلاف في هجومين على السفارتين الأمريكيتين في نايروبي الكينية ودار السلام التانزانية.

جسر غَلَطه

كانت أمسية ربيعية جميلة وكنت أحتسي الخمر فوق جسر غلطة الاستانبولي مطلاً على القرن الذهبي. السياح متزاحمون. قوارب شراعية في البوسفور، صيادو سمك فوقي على الطبقة العليا من الجسر. صناراتهم عانقت الشمس عند إلقائها في الماء.

أسبوع كامل كان قد انقضى على تركي لابن الشيخ وأبي زبيدة في بيشاور. كان هذا أحد أخطر أسابيع حياتي. الطريق إلى إسلام أباد والمدينة نفسها كانتا مبتليتين بأعداد كبيرة من الشرطة والجواسيس الدائبين على البحث عن العرب لاعتقالهم. أنا نفسي كدت أتعرض للاعتقال حين وقعت في خطأ تمكُّن أحد كَتَبَة الفندق من رؤية جواز سفري وعليه تأشيرة الإقامة المنتهية مُدتّها. غير أنني استطعت، بعد قدرٍ كبير من القلق إضافة إلى الحصول على مساعدة موظف بالغ السذاجة في السفارة المغربية، أن أحصل على الأوراق الضرورية.

في تلك اللحظة كنت فاقداً للأمل من الخروج من الباكستان إلى درجة أنني قمت بالرحلة الجوية الطويلة إلى حد العبث من إسلام أباد إلى استانبول عبر أبو ظبي والقاهرة. لم أبال؛ وجدت السكون داخل الطائرة مريحاً على نحوٍ لا يصدق بعد عام كامل من الإجهاد المتواصل. أعتقد أنني أرعبت المضيفة في الشوط الأول من الرحلة إذ طلبت، بعد الإجهاز على وجبة الطعام المقدمة في الجو، أربع وجبات أخرى، الواحدة بعد الثانية. بدت الوجبات شهية على نحوٍ مطلق.

اتصلت مع جيل فور وصولي إلى استانبول. أقله حاولت أن أفعل - رقم الهاتف الذي استخدمته دائماً كان قد قُطع. لم أُفاجأ.

لم يكن في جيبي سوى بضعة دولارات. كنت قد أنفقت المبلغ الذي كان جيل قد زوَّدَني به كله في المعسكرات. كنت قد أعطيته لابن الشيخ كي يشتري طعاماً

ومؤناً وأسلحة. ذهبت إلى الفندق الذي كنت قد نزلت فيه من قبل. توقعت أن يتذكروني، صَدَقَ حَدْسي. أطلعتُ موظف الاستقبال على حاجتي للذهاب إلى البنك لسحب بعض المال لأتمكن من الدفع، فسمح لي بالصعود مباشرة إلى الغرفة.

ثم ذهبت إلى القنصلية الفرنسية. تصرفت تماماً كما كنت قد فعلت في المرة السابقة التي كنت فيها باستانبول وبحاجة للإمساك بجيل. أفهمت حارس الباب أنني مواطن فرنسي أضاع جواز سفره. توجهت إلى الغرفة التي كنت قد توجهت إليها بالذات، وعلى الفور رأيتُ الرجل نفسه. بدا شديد الاندهاش برؤيتي. دعاني إلى وسط الغرفة وطلب مني رقم هاتف المكان الذي يمكن العثور علي فيه بصوت هامس.

بعد ساعتين اتصل جيل معي في فندقي. سأل: "كيف حالك؟ كيف كانت رحلتك؟" كلماته كانت ودودة وصوته مثقلاً بعدم التصديق.

"أنا بخير، شكراً. كانت رحلة عظيمة، وإنْ طويلة قليلاً." تحدثت كما لو كنت عائداً من إجازة لم تدم سوى أسبوعين. "نَفَدَ ما كان معي من أموال."

"لم يعد معك أي مال؟"

"نحو عشرة دولارات فقط."

"أستطيع أن أتدبر الأمر." قال جيل "انتظر مني اتصالاً خلال نصف ساعة."

حين عاود جيل الاتصال قال لي إن المبلغ كان في الطريق. أضاف أنه مشغول جداً الآن ولكنه كان سيأتي إلى استانبول في غضون ثلاثة أيام.

قال جيل: "عليك أن تأخذ قسطاً من النوم من الآن إلى ذلك الوقت. استرخِ."

بعد ساعة، اتصل مكتب الاستقبال ليبلغني بأن طرداً كان ينتظرني. نزلت إلى الاستقبال قام المناوب بتسليمي ظرفاً. كان الظرف محشواً بمئات الدولارات.

وهكذا فإنني وجدتُني مسترخياً ذلك المساء فوق جسر غَلَطه مع الغروب وأمامي وجبة عشاء شهية من لحم الخروف والسمك مدعومة بالنبيذ التركي. شعرت كما لو كنت فوق قمة العالم. لم يكن قد سبق لأحد أن صَدَّقني؛ ما من أحد كان قد اعتقد بتوفري على شيء أقدمه. كان جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) مستعداً لإيداعي السجن وغسل اليدين مني. ثم حاول الجهاز أن يدفع لي مقابل الاختفاء. غير أني ها أنا ذا الآن، عائد من معسكرات التدريب الأفغانية ومعي كنوز من المعلومات. لم يكن الجهاز سيحاول الخلاص مني هذه المرة. إنه بحاجة إلي.

نمت ست عشرة ساعة متواصلة تلك الليلة، وحين استيقظتُ توجهتُ إلى أحد الحمامات. قلت للحاجب إنني كنت سأدفع ضعف المبلغ إذا ما حصلتُ على حمام جيد فعلاً. دَلَّني على مُكَيِّس قادني إلى المشلح. خلعتُ ملابسي ودخلت المَقْلى. غرقت في بحر من البخار.

مع شروع المكيّس في فرك جلدي بإسفنجة خشنة، أدركت أنه كان علي أن أدفع له عشرة أضعاف الأجرة. كان هذا هو الحمام الحقيقي الأول الذي أحصل عليه منذ وصولي إلى الباكستان. بالطبع كنا قد اغتسلنا في النهر بخالدان وفي البحيرة بدارونتا، غير أنني لم أنْظَفْ تماماً طوال فترة وجودي في المعسكرات.

دام فرك المكيِّس لجسمي كله أكثر من ساعة. حَمْلَقْت في الماء السائل باتجاه البالوعة ـ وجدته أسود اللون كثيفاً.

كنت مرهقاً حين خرجت من الحمام فعدت إلى الفندق ونمت عدداً إضافياً من الساعات. ثم تجولت في المدينة واهتديت إلى مطعم يطل على مرسى آتاكوي.

مع طلب زجاجة النبيذ الأولى وإشعال سيجارة، تأملت مدى سهولة قيامي بخلع ثوب المجاهد ـ سهولة موازية لسهولة ارتدائي لذلك الثوب. كنت قد بدأت أدخن من جديد خلال أيامي الأخيرة في الباكستان لأثبت أنني لم أكن أحد المتطرفين العرب. ومن قال إني كنت متطرفاً عربياً؟! كنت أوروبياً.

وهنا في استانبول ها أنا ذا أعود بسرعة إلى التناغم مع إيقاعات الحياة في الغرب. ثمة النبيذ، الطعام، الشراشف. منذ لحظة وصولي استغرقت في متابعة البرامج التلفزيونية: السي ان ان CNN، البي بي سي BBC مهما كان البرنامج. تذكرتُ مدى تعطّشي للأخبار في المعسكرات. هناك لم نكن نسمع سوى نتف عبر الراديو، وفي المناسبات النادرة التي كنا نحصل فيها على جريدة مضى على صدورها عدد من الأسابيع. في المعسكرات لم نكن نحس بمرور الوقت إلا مع عبور الشمس للسماء والتعاقب البطيء للفصول. كنا في عالم يخصنا وحدنا.

في البداية، تصورتُ الأمر مفتاحاً، شيئاً أديره فَتْحاً وإغلاقاً في داخلي حسب الطلب من أجل الدخول في دور معين. ما من جاسوس إلا ويكون بحاجة إلى مثل هذا المفتاح، مثل هذه القابلية لإغلاق أجزاء كاملة من نفسه أشهراً بل أعواماً متواصلة. كنت قد أدَرْتُ هذا المفتاح في المطار بإسلام أباد قبل عام.

إدارة المفتاح إلى الجهة المعاكسة كانت أسهل من ناحية وأصعب من ناحيةٍ أخرى. أسهل لأنني كنت أعشق حياتي وحريتي في الغرب. فبمقدار ما كنت أكره نفسي فيه، كنت مولعاً بالنعم وأسباب الرفاه وجميع الأشياء المادية التي دأبتُ على شجبها بوصفي مجاهداً.

غير أن هذا التحول كان أكثر صعوبة، أيضاً، لأنني كنت قد تغيرت خلال فترة غيابي. كنت قد تعلمت شيئاً جوهرياً عن نفسي. كنت قد تعلمت أنني كنت مسلماً في العمق. بالطبع كنت قد عرفت هذه الحقيقة منذ زمنٍ طويل، من

البداية وعلى الدوام. كنت دائم الإيمان بالله. ومنذ سنواتي الأولى في المدرسة الكاثوليكية خارج بروكسل كنت قد أدركت أنني، بوصفي مسلماً، كنت شيئاً خاصاً. غير أن ذلك الشعور لم يتجاوز هذه الحدود.

في بلجيكا، كثيراً ما كنت أسخر من حكيم والآخرين على وَرَعهم واستعراضهم للتقوى أما الآن فلم أعد متأكداً. في المعسكرات كنت قد التقيت بأناس من عددٍ كبيرٍ من الأمم والطبقات والجماعات العرقية المتباينة كانوا جميعاً يتقاسمون شيئاً واحداً: كانوا جميعاً مدفوعين بنفس نار محبة الإسلام وأوطانه. هذه النار كانت تحركني أنا أيضاً. أحياناً كانت تلتهمني على نحوٍ شبه كامل.

حصلتُ على تعليمي في الغرب وذهبتُ إلى أفغانستان جاسوساً. لم أكن هناك إلا لمحاربة هؤلاء الإرهابيين، هؤلاء الناس الدائبين على ذبح النساء والأطفال في ساحات الذبح والقتل بالجزائر. إذا بقيتْ النار متقدة في داخلي رغم كل هذا، فقد كانت دائبة، بالضرورة، على حرق قلوب الشباب المسلم في كل مكان؛ أليس كذلك؟

كنت أعلم أنني لم أكن قادراً قط على مواكبة الرجال الذين كنت قد التقيتُهم في أفغانستان حتى آخر الشوط. من المؤكد أنني لم أكن مستعداً للوصول إلى حيث وصل أولئك الرجال في ساروبي، أولئك الذين كانوا قد عذَّبوا وقتلوا شقيقاً مسلماً بعد الاستسلام. إن آيات التطرف والغلو هي التي قلبتْني رأساً على عقب آخر المطاف - يا للهوَّة السحيقة والواسعة الفاصلة بين اللاهوت الذي كنا نتلقنه من جهة، والمعارك التي كانت تخاض على الأرض من الجهة المقابلة!

إلا أنني كنت، مع ذلك، أتفهم هؤلاء الرجال، وإن بقيت حريصاً على أن أنأى بنفسي عن مناهجهم. كنت أتفهم غضبهم وسخطهم الشديد إزاء تعرض المزيد

من أرضهم للسرقة والنهب. الأمكنة كلها من القدس إلى أفغانستان فالبوسنة والجزائر وبلاد الشيشان كانت واحدة بنظرهم. وهذه لم تكن إلا أحدث تجليات رحى حرب ظلت دائرة منذ قرون، حرب أبدية ضد الإسلام. لم يولد المجاهدون قَتَلة. وُلدوا مسلمين، وبوصفهم مسلمين كانوا مسؤولين عن الدفاع عن أرضهم.

في اليوم الثالث، وهو الأخير قبل مجيء جيل، تجولت في السلطان أحمد، مدينة استانبول القديمة. تبقى المدينة القديمة أحد أجمل الأمكنة على الأرض: ثمة الشوارع المرصوفة، قصر توب قابي المجيد، وقبل كل شيء آيا صوفيا والمسجد الأزرق المتقابلان عبر الحديقة الغنية، الخضراء خلال رحلتي الأولى إلى استانبول كنت في عجلةٍ من أمري راغباً في البدء بإنجاز مهمتي فلم أر شيئاً من المدينة. أما الآن فكنت في فترة إجازة بين مهمتين، وكنت متوفراً على الكثير من الوقت.

تجولت في آيا صوفيا في ساعةٍ متأخرة من بعد الظهر، الحجم وحده أرهبني. غير أنني ما لبثت، مع اتضاح معالم الأجزاء الداخلية، أن لاحظت جمال الهندسة المعمارية: ثمة قبة مجيدة في الأعلى سابحة كما لو كانت بلا وزن فوق صف من الشبابيك المقنطرة. الأشعة الذهبية منسكبة في كل مكان.

لعله أجمل الجوامع التي سبق لي أن رأيتها. غير أنه كان كنيسة أيضاً، وذلك هو ما بهرني أكثر من كل شيء. فاللوحات الفسيفسائية الغنية لرسوم يسوع ومريم والقديس يوحنا بطريرك القسطنطينية صاحب الفم الذهبي كانت جميعاً لا تزال موجودة. كان المفروض ألا تكون: فتمثيل أي شكل إنساني يُعد كفراً وتجديفاً عند المسلمين. وعند استيلاء العثمانيين على القسطنطينية وقلب الكنيسة إلى جامع قاموا بتغطية اللوحات بطبقة من الجص. غير أن المعماريين العثمانيين دأبوا، بين الحين والآخر، عبر القرون المتعاقبة، على إزالة طبقة الجص، تنظيف اللوحات الفسيفسائية واستعادتها، فمعاودة تغطيتها من جديد.

كان العثمانيون قادرين على تدمير هذه اللوحات والصور، ولكنهم لم يفعلوا. فضّلوا إبقاءها نابضة بالحياة.

التئام الشمل

انتظرت جيل ظهراً خارج محطة امينينو(*) للقطارات، تنفيذاً لطلبه. بعد بضع دقائق رأيته عن بعد. وكما هي عادته كان يدخن.

انطلق يمشي فتبعته، تماماً كما كنت قد فعلت مرات كثيرة من قبل. قادني أولاً مع القرن الذهبي ومن ثم انعطف وراح بتسلق المرتفع عبر أزقة مزدحمة بالباعة. عبرنا ممرات ضيقة وشوارع فارغة وأسواقاً مشبعة بروائح التوابل. مضى نصف ساعة، ثم نصف ساعة آخر. بالطبع كان هناك شخصٌ يتبعني. لم يكن ثمة ما يدعو جهاز الاستخبارات الخارجية (الفرنسي) (الدي جي اس إي DGSE) إلى الثقة بي بعد الذي حصل؛ كنت عائداً للتو من أفغانستان، ويجب أن يكونوا قد طرحوا تساؤلاً عن الجهة التي أقف في صفها.

أخيراً، توجّهنا نحو قلب المدينة القديمة. كنا قد مشينا نحو ساعتين كاملتين حين توقف جيل في النهاية في شارع مرصوف خلف آيا صوفيا. سرت صعوداً بجانبه.

سألني: 'هل تعتقد أن أحداً يتبعك؟' كان يبتسم، وحاجباه مقوسان.

ضحكت: 'لا، بالطبع لا.'

'هل أنت متأكد؟'

'مئة بالمئة.'

ثم تبادلنا الضحك وتصافحنا ورحنا نمشي جنباً إلى جنب.

(*) هذه المحطة معروفة باسم محطة السيركجي في تركيا.

مشينا ساعات طويلة بعد ظهر ذلك اليوم عبر المدينة القديمة وحديقة غولخانه إلى الماء فالعودة. رويت له قصة رحلتي البادئة صباح اليوم الذي وَدَّعْتُه فيه في حدائق دولمه باخشته: الرجل الذي التقيته على الطائرة، إقامتي مع التبليغ، لقائي أبا أنس، ومن ثم بيشاور وخالدان وابن الشيخ وعبد الكريم وساروبي وداورنتا وغاز الخردل والسفارة المصرية وأبو زبيدة وأرقام الهواتف وجميع الخطوات التي كنت قد مررت بها لأتمكن من العودة إلى أوروبا.

كنت أنا المتكلم معظم الوقت. لم يُبْدِ جيل أي رد فعل على أي شيء مما أقوله، وبقي شبه عازف عن الكلام. غير أنه طلب مني أن أسير بخطوات أبطأ ثلاث مرات. كنت قد تدربت في الجبال الأفغانية، مما أبقاه شبه عاجز عن مسايرتي.

آخر المطاف، جلسنا في مقهى. قال جيل: 'لا حاجة لإخباري بأي شيء إضافي الآن. في غضون يومين سنلتقي أحد أصدقائي وسيطرح مزيداً من الأسئلة.'

ناولني مغلفاً سميكاً محشواً بالأوراق النقدية. تحدثنا لبضع دقائق أخرى ثم وقف ليغادر المكان. قال: 'هات جواز سفرك معك في المرة القادمة.' ثم اختفى في الشارع المزدحم.

بعد يومين، التقيت جيل في صالة استقبال أحد الفنادق الفخمة على الضفة الأخرى من القرن الذهبي، في حي التقسيم. أعطيته جواز سفري. وفيما نحن في المصعد قال لي: 'صديقي سيسألك بعض الأسئلة حول كيفية دخولك إلى الباكستان، حول من التقيتَهم، وحول ما فعلته وأنت في أفغانستان وحول أمور مشابهة. أرجو ألا تنزعج من الأسئلة، أو من طريقته في طرحها. فقط أجب على الأسئلة بوضوح وصدق، كما أعرف أنك ستفعل.' ابتسم ابتسامة خفيفة.

ثم قادني جيل إلى داخل جناح في وسطه طاولة كبيرة. بعد دقائق، وصل رجل أصلع، متوسط العمر. كان يحمل حقيبة جلدية ويرتدي معطفاً بيجاً، من ذلك النوع الذي يرتديه العملاء في أفلام الجاسوسية من الدرجة الثالثة. قبع (أصدر صوتاً كصوت الخنزير) متوجهاً نحونا نحن الاثنين محيياً، ثم ألقى بحقيبته على السرير وجلس.

'هات جواز سفرك!' هذه كانت أولى الكلمات التي تفوه بها. بادر جيل إلى تقديم جاوز السفر إليه. بدأت أفهم سبب تنبيهات جيل في المصعد.

'أريدك أن تخبرني بكل ما حدث. من لحظة نزولك من الطائرة في المطار الباكستاني إلى لحظة خروجك من الطائرة في مطار استانبول.'

كررت رواية القصة التي كنت قد سردتها على مسامع جيل قبل يومين، ولكن الرجل سألني حشداً هائلاً من الأسئلة في أثناء السرد. لم تكن الأسئلة أسئلة عما كنت قد رأيته أو عمن كنت التقيته أو عما كنت قد تعلمته في المعسكرات، بل أسئلة مجردة للتأكد من صحة روايتي. ما المدة التي استغرقتها رحلة السيارة إلى خالدان من الحدود؟ ما مواصفات مخيم اللاجئين في بيشاور؟ كم هو عمر أبي زبيدة؟

استطعت أن أستنتج من أسئلة الرجل أنه كان يعرف الكثير عن باكستان وقد سبق له أن أمضى وقتاً هناك. غير أنني استطعت أن أرى أيضاً أنه كان يحاول أن يوقعني في الفخ، أي فخ. من بداية المقابلة إلى نهايتها نشر جيشاً كاملاً من مختلف أنواع الأسئلة السخيفة والمثيرة للسخرية. إذن، أبو زبيدة هو أمير دارونتا؟ تقول إنك عبرت إلى الباكستان من كراتشي؟ إذن، خالدان قريبة من إسلام أباد؟

أخيراً طفح الكيل. سألت بصوت مرتفع: 'ما هذا الهراء العاهر؟' كنت هناك للحديث عن أمور بالغة الخطورة والجدية، عن مواقع وقنابل وخلايا نائمة. غير

أنهم لم يكونوا يريدون أن يسمعوا أي شيء عن مثل تلك الأمور. كانوا يظنون أنني كنت قد اصطنعت القصة كلها، ركّبْتها من نسج الخيال.

أعلنت بصوت كالنباح: "هذا تبديد لوقت الجميع. لماذا تحاول دفعي إلى قول أشياء نعرف كلانا، أنت وأنا، أنها غير صحيحة؟"

نهض جيل واقفاً بسرعة. قال:

"أظن أن هذا يكفي لهذا اليوم."

فوجئ الأصلع، على ما بدا، ولكنه ما لبث أن لملم أشياءه، ارتدى معطفه، ورحل. ما إن انغلق الباب خلفه حتى التفت جيل إليّ مبتسماً ابتسامة مرتبكة، وقال: "حَذَّرْتُك من احتمال أن يكون الأمر مزعجاً."

سارت عملية الاستجواب على نحوٍ أفضل في اليوم التالي. كان الأصلع أكثر تهذيباً، لم يعد إلى طرح أي أسئلة مفخخة أخرى. بعد الانتهاء، قمنا، جيل وأنا، بجولة عبر المدينة. بدا قلقاً. مرة سأل: كيف ستقوم بإنجاز المهمة؟

"إنجاز ماذا؟"

"تنفيذ ما أمرك به أبو زبيدة وابن الشيخ. أن تجترح لك مكاناً تحت شمس أوروبا. أن تؤلف خلية."

فوجئت بالسؤال، على الرغم من وجوب عدم حصول ذلك باعتقادي.

قلت بحزم: "بمساعدتكم، كما أفترض."

"غير أن ذلك ليس، يا هذا، ما كانا يتوقعانه." ثم راح جيل يشرح أن من شأن أي عضو خلية نائمة أن يكون ملزماً عادةً بحيازة جواز سفر مزور بطريقةٍ ما، أو بالحصول على جواز سفر رسمي من إحدى الدول الشبيهة ببلغاريا أو رومانيا.

رأيت المنحى الذي بدأ الحوار يتخذه فأوقفته حيث هو قائلاً: 'أنا لن أفعلها بتلك الطريقة' وأنا أحملق في وجهه. 'خاطرت بحياتي أكثر من مئة مرة هناك في أفغانستان. ما الذي يدعوني إلى المخاطرة معكم من جديد؟ ماذا إذا حصل خلل ما؟ ماذا إذا جرى اعتقالي؟ أكون قابعاً في زنزانتي مع جواز سفري البلغاري وتستطيعون أنتم أن تتظاهروا بأنكم لم يسبق لكم أن سمعتم بي قط.'

بقي جيل صامتاً. لم يكن قادراً على إنكار الحقيقة؛ كان قد حاول إرسالي إلى السجن مرة من قبل.

تابعت كلامي: 'عندما وافقت على هذا سألتني عن الثمن المقابل المطلوب لعملي. قلت لك إنني أريد أن يتولى جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) رعايتي. أعتقد أن الوقت قد حان الآن لتقوموا بذلك.'

بدا جيل محرجاً جداً أمام الموقف. من الواضح أنه لم يكن قد خطط لهذا. مضى ما يقرب من الدقيقة من الوقت قبل أن يتكلم. قال:

'لابد لي من الذهاب إلى باريس. سأعود في غضون أسبوعين.' ثم أعطاني رقماً هاتفياً جديداً وقال إن بوسعي الاتصال وترك رسالة إذا ما رغبت في التكلم معه.

حين عاد جيل، قال لي إنه كان قد تعين علي أن أذهب إلى داكار للحصول على جواز سفر فرنسي. لم يبين السبب. راح يفصّل معتذراً أن من المتعذر أن أطير إلى داكار عبر أوروبا، لعدم توفري على تأشيرة مرور (فيزا ترانزيت). ثم ناولني مغلفاً.

قال: 'ثمة في المغلف خمسة آلاف دولار. اذهب وابحث عن مكتب سفريات يؤمن لك سفراً إلى السنغال دون المرور بأوروبا. اتصل بي بعد تأمين ذلك، وسنلتقي ثانية.'

توصلت إلى قطع تذكرة سفر مضحكة؛ تبين أنه كان من شبه المستحيل الوصول إلى داكار دون المرور بأوروبا. تمثل البديل بأنه تعين علي أن أطير عبر دبي، نايروبي، وأبيجان. وفوق كل شيء، كانت الرحلة ستستغرق أكثر من أربعة أيام.

التقيت جيل ثانية في اليوم التالي في أحد المقاهي المطلة على البوسفور. أبلغني بأنه كان قد رتب لي لقاء مع أحد أصدقائه في داكار. كنت سأعطيه جواز سفري المغربي، فيزودني هو بجواز سفر فرنسي جديد بدلاً منه. أما نحن الاثنين، جيل وأنا، فكنا سنلتقي ثانية في باريس.

أصبحنا، كلانا، قادرين على الاسترخاء وأخذ نَفَس عميق بعد تمام اتخاذ جميع الترتيبات. تركنا المعسكرات وراءنا ورحنا نتحدث عن استانبول والسياح والمأكولات وهندسة العمارة بدلاً من المعسكرات.

غير أنه، لحظة انتهائنا من تناول الغداء، رفع رأسه ونظري إليّ وعلى وجهه تعبير بالغ الجدية. بدأ يقول: "ليكن معلوماً لديك أن أحداً لم يصدق بأنك كنت ستعود. أما أنا فأكّدْت لهم بأنك كنت ستفعل. التزمت بقطع يدي اليمنى إذا ما تلاشيت واختفيت. كنتُ على هذه الدرجة من الثقة بك. غير أنه خلال الأشهر القليلة الأخيرة كان أحدهم يبادر، كلما دخلتُ المكتب، إلى الاستهزاء بي طارحاً سؤال: "ألم تبتر يدك اليمنى بعد؟"

أطلق جيل ضحكة خفيفة وهو يكمل القصة. ثم استعاد تعبيره الجاد، وقرّب وجهه من وجهي قائلاً: "شكراً على عودتك!

باريس

قضيت مدة شهر في السنغال منتظراً جواز سفري. أخيراً ظهر رجل في فندقي وقدم نفسه صديقاً لجيل. أعطاني رزمة من الدولارات والفرنكات وجواز

سفر جديد. حين فتحته لأرى ما بداخله قرأت اسم 'أبو إمام المغربي.' كان ذلك هو الاسم المغربي الذي اعتمدته في المعسكر. أزعجني ذلك. كنت أعرف بالضبط مقصد جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) من هذا. كان الإخوان في الجهاز متأكدين من شبه استحالة السفر جواً بهذا الاسم بمبادرة مني دون معرفتهم، وذلك بالتحديد كان ما أرادوه. كانوا يريدون إبقائي تحت سيطرتهم.

التقيت جيل حين نزلتُ من الطائرة في مطار شارل ديغول. أخذني إلى نفس الفندق الذي كنت قد أقمت فيه بعد مغادرة بلجيكا. صعدنا إلى إحدى الغرف دون التوقف في مكتب الاستقبال، دخلنا الغرفة. ما إن أصبحنا داخل الغرفة حتى بادرتُ إلى سحب جواز السفر من جيبي وتسليمه إياه. قلت: 'إن الاسم ينم عن ذكاء. غير أنه سيتعين عليك أن تحصل على جواز جديد.'

كشّر جيل قليلاً وهو يأخذ جواز السفر قائلاً: 'كانت مَزْحَة.'

يا لها من حجة كسيحة! (عذر أقبح من ذنب). لم يكن الجهاز معروفاً بروح الدعابة تحديداً. غير أنني عضضت لساني.

ثم قال لي جيل إنني كنت سأقيم في باريس بضعة أسابيع إلى أن يتم اتخاذ الترتيبات اللازمة للشروع في مهمتي التالية. أوصاني بالاسترخاء والاستمتاع بمباهج المدينة.

قال: 'عليك أن تشتري معطفاً مطرياً' وهو يغادر.

سألت: 'لماذا؟' كنا في منتصف فصل الصيف.

'ثمة أمطار كثيرة حيث أنت ذاهب.' ثم رحل.

خلال الأسابيع التي أعقبت، تردد جيل على غرفتي الفندقية مرات كثيرة. سألني فيضاً من الأسئلة عن أفغانستان. تحدثنا عن التدريب. كان استثنائي

الاهتمام بالمتفجرات. أطلعته على كيفية تعلمنا صناعة عدد كبير من المتفجرات المتطورة من مواد بسيطة وعلى تعليمنا لأساليب نسف السيارات، القطارات، المباني، والطائرات. أطلعته على التجارب مع غاز الخردل والسيانيد.

غير أن جيل بقي متركزاً على الأوروبيين في المعسكر. أخبرته عن المغربي المقيم في لندن، ذلك الذي صار يستعمل الجي بي اس (GPS) بدلاً مني. وأخبرته بالطبع عن عبد الكريم. كان جيل شديد الاهتمام به، وسألني جميع أنواع الأسئلة. وصفت له عبد الكريم، وأفدته بأن الجماعة الإسلامية المسلحة هي التي كانت قد أرسلته إلى المعسكرات. حدثته عن أن الأخير كان قد تدرب معي على المتفجرات وكان عازماً على مغادرة المعسكرات في موعد غير بعيد.

سألني جيل: 'هل تعتقد أنه سيعود إلى فرنسا؟'

أجبته: 'أشك. قال لي إن البوليس كان دائباً على إزعاجه هنا.'

'هل سيقيم في أوروبا، أم سيذهب إلى مكان آخر؟'

'سيبقى في أوروبا. له ابنة هنا. قد يذهب إلى بلجيكا. أعلم أن له معارف هناك.'

عاد جيل إلى موضوع عبد الكريم مرات كثيرة.

قضيت معظم وقتي في باريس مستمتعاً بمباهج المدينة. صحيح أنني كنت في باريس من قبل، إلا أن هذه كانت المرة الأولى التي أكون فيها متوفراً على المال. تسلقت برج إيفل وشاهدت مختلف أنواع المتاحف وأمضيت سهراتي متنعماً بتناول الطعام في المطاعم الباهظة وباحتساء المشروبات الروحية في البارات الفاخرة. ثمة كانت فتيات جميلات في كل الأمكنة. وبعد عام كامل مع الرجال فقط، تذوقت نَكْهة كل واحدة منهن.

ومن ثم التقيت زَوْجي ذات عصر. بالطبع لم تكن زوجي آنذاك، إلا أنني عرفت أنها ستكون فور رؤيتي لها. كانت واقفة في قاعة استقبال الفندق مع أربع صديقات. جميعهن كن جميلات، وإن علقت عيناني بواحدة دون غيرها. كانت أهدأ من الأخريات، وأضأل. كانت ذات شعر أسود طويل وبشرة بيضاء. تذكرتُها مباشرة: كانت هي الفتاة التي كنت قد رأيتها في حلمي في جبل خالدان، حين طلبت من الله زوجاً وعائلة.

اقتربت من البنات وعاكستهن. بعد أن قلت لهن بأني كنت وحدي في باريس، لم يتأخرن في دعوتي إلى تناول العشاء معهن. في تلك الليلة ذهبنا جميعاً إلى أحد المطاعم المصفوفة على امتداد ضفة السين. الفتيات، جميعهن، كن فطنات وفاتنات ـ أو أقله اعتقدت أنهن كن كذلك. لا أستطيع أن أتذكر، بالفعل. كنت كامل التركيز على واحدة، على فاطمة، كل السهرة. كانت كثيرة الخجل؛ بالكاد نظرتْ إليّ. غير أنها في إحدى اللحظات أقدمت على إعطائي قطعة قريدس من طبقها ونظراتنا تقاطعت، وأدركت أنها كانت تبادلني الإحساس نفسه.

بعد العشاء طلبت منها أن نأخذ مشواراً معاً. أمضينا ساعات طويلة ونحن نتجول في المدينة في ظل الأجواء الصيفية الدافئة. أخبرتني عن حياتها بوصفها عربية مترعرعة في ألمانيا، وأطلعتها على حياتي بدوري. في إحدى المنعطفات سألتني عن عملي الذي كنت أكسب منه معاشي. توقفت عن السير وأمسكت برسغها لإيقافها أيضاً.

قلت: 'لا أستطيع أن أبوح لك بكل شيء. كل ما أستطيع قوله لك هو أن هناك أناساً في العالم يريدون القيام بأعمال شنيعة جداً. وأنا أريد منعهم.'

من نظراتها أدركت أنها ارتبكت. غير أنها لم تسأل أي أسئلة أخرى، وواصلنا المشوار. كنت شديد الرغبة في إقناع فاطمة بقضاء الليل معي. حاولت أن أقبّلها غير مرة، إلا أنها ظلت تبعدني. غير أنها لم تعد إلى غرفتها في الفندق

تاركة إياي وحدي في الوقت نفسه. أخيراً، فيما كانت الشمس دائبةً بمداعبة وجه المدينة، مكّنتني من تقبيلها لمرة واحدة.

'تتزوجينني؟' قلت وأنا أبتعد.

ابتسمت. لم تقل نعم، غير أنها لم تقل لا، أيضاً.

بعد ظهر ذلك اليوم زارتني فاطمة في غرفتي لوداعي. انتهت إجازتها وكانت عائدة إلى ألمانيا. ناولتْني ورقة عليها رقم هاتف وقالت إنه لإحدى صديقاتها. قالت إنها لم تكن تعرفني معرفة تكفي لجعلها تعطيني رقمها الخاص. تبادلنا قبلة ثانية، ثم ذهبت.

لم يكن لدي فائض من الوقت للتفكير بفاطمة، لأن جيل جاء في صباح اليوم التالي الباكر إلى الفندق. أعطاني جواز سفر وتذكرة هوية فرنسية باسم بابلو رودريغيز. أوضح أن من شأن السفر باسم إسباني أن يكون أسهل بكثير من السفر باسم عربي. وأنا أجيد التكلم بالإسبانية ـ تعلمتها عندما عملت دليلاً سياحياً في المغرب. أبلغني بأنني كنت سأغادر متوجهاً إلى لندن صباح اليوم التالي.

فوجئت. كنت على الدوام قد افترضت أنني كنت سأعمل في مكان ما من أمكنة القارة (الأوروبية). لم تكن إنجلترا تعني شيئاً بالنسبة إليّ. عندما كنت أتصور ما هو موجود إلى الشمال من فرنسا لم أكن أتخيل سوى الماء. وما كنت أعرفه عن لندن لم يكن يعجبني. كنت أتصور السخام والضباب وجاك السفّاح.

سألته: 'ولماذا لندن؟'

أجاب: 'هناك عدد كبير من الناس المهمين في لندن. نريد أن نعرف المزيد عنهم.' عندئذ أدركت ما عناه: كنت أتابع في الصحف أخباراً عن التشدد في ملاحقة عناصر الجماعة الإسلامية المسلحة في فرنسا غداة تفجيرات باريس. أعداد كبيرة منهم كانوا قد نزحوا إلى لندن.

سألني جيل: 'هل أنت خائف؟'

قلت: 'بالطبع لا.' ومع ذلك لم يخطر لي أن أتساءل عما كان يمكن أن ألقاه في لندن. كنت أعرف أن كلاً من حكيم، أمين وياسين كانوا في السجن. ولكن من الذي كانوا قد أطلعوه على ما جرى؟ متى كان سيتم إطلاق سراحهم؟

لندن

غادرت باريس في اليوم التالي مع جيل. تظاهرنا بأن أحدنا لا يعرف الآخر. استقلينا الحافلة إلى كاليه، حيث عبرنا الجمارك. كانت المرة الأولى التي أسافر فيها بجواز سفر أوروبي وأدهشني الأمر: جعلني الموظف أمر بما لا يزيد إلا قليلاً عن نظرة خاطفة. تذكرت الإذلال الذي كنت أعاني منه وأنا أعبر الحدود بجواز سفر مغربي. كم من الوقت ستقيم؟ أين؟ هل أستطيع رؤية تذكرة العودة؟ ما معك من مال؟ بدا كما لو أنني كنت قد أصبحت شخصاً مختلفاً كلياً لمجرد توفري على جواز سفر أوروبي.

سافرنا باليوروستار إلى دوفر، ثم استقلينا حافلة أوصلتنا إلى لندن. كان جيل جالساً بجانبي كل الوقت. حين نزلنا من الحافلة في محطة فكتوريا أعطاني جيل بطاقة تأكيد الحجز في أحد فنادق وست كنزنغتون. قال لي إنني كنت سأقيم هناك لبعض الوقت. قال إن علي أن أتصل به صباح اليوم التالي لاتخاذ ترتيبات لقائنا التالي. ثم اختفى في البحر البشري.

أدركت عندئذ أن جيل كان قد سافر معي الطريق كلها من باريس لمجرد الاطمئنان إلى عدم اختفائي. لم أكن، آخر المطاف، إلا إرهابياً محترفاً، وتعين عليه أن يبقيني تحت المراقبة. أما وقد أصبحت في لندن فقد كانت ثمة عيون كثيرة في الأجهزة السرية البريطانية لرصد كل حركة من حركاتي.

ذهبت إلى الفندق ومناوبة الاستقبال دلتني على غرفتي. تركت حوائجي على السرير وخرجت لاستكشاف المدينة.

لم تكن لندن شبيهة بتلك التي كنت قد تصورتها. كانت أنظف بكثير من باريس. غير ملوثة بالسخام على الإطلاق، كما كنت قد توقعت. قمت بجولة في الحافلة ذات الطابقين وعلى الفور عشقت هندسة العمارة الفكتورية. لم يكن ثمة أي ناطحات سحاب في ذلك الجزء من المدينة، وبالتالي فإن جميع الأشياء كانت متناسبة.

غير أن ما فاق كل شيء في إثارة دهشتي هو البوليس. حين نزلت من الحافلة لم أستطع تمييز المكان الذي كنت فيه. رحت أعاين خارطتي، وحين رفعت رأسي رأيت شرطياً مقبلاً. توتر جسدي غريزياً، غير أن الشرطي ما لبث أن سأل عما إذا كان يستطيع مساعدتي في الاهتداء إلى طريقي. بعد أعوام من محاولة الهرب من البوليس في المغرب، ومؤخراً في الباكستان، أذهلني هذا اللطف.

جيل وأنا التقينا في اليوم التالي في فندق فاخر قريب من غرين بارك. استقبلني في مكتب الاستقبال. كانت الأجهزة البريطانية تتبعني منذ وصولي إلى لندن. كنت متأكداً من ذلك. وبالتالي لم يكن ثمة ما يدعو إلى تكرار لعبة القط والفأر المألوفة.

قادني جيل إلى غرفة اجتماعات. أوصاني بعدم المبادرة الآن إلى الذهاب إلى الجوامع أو إلى السعي لإقامة علاقات. كان ينبغي أن أوظف الأسبوعين التاليين لمعرفة المدينة. سألته عن الطريقة فأفاد بأنه كان يتعين علي أن أظهر وأتصرف كما لو كنت واحداً من المهاجرين تماماً. أوضح أن من المهم بالنسبة إليّ الشروع في بناء غطاء مناسب لي. طلب مني أن أتصل خلال أسبوع إثباتاً للوجود (تفقد).

خلال ذلك اللقاء، طلبتُ من جيل شيئاً واحداً فقط: أشرطة تسجيل القرآن. بدأت أشعر بالانزلاق بعيداً عن لغة القرآن وإيقاعاتها. توقفتُ عن الذهاب إلى

الجامع أو التحدث مع أناس يعرفون لغة القرآن مثل الإخوان في المعسكرات. غير أنني كنت أعرف أنه مطلوب مني أن أحتفظ بها - باللغة القرآنية - على رأس لساني إذا ما كنت راغباً في إقناع الإخوة المسلمين في لندن بصدقي.

امتثلتُ لنصيحة جيل. قضيت الأسبوعين التاليين عاكفاً على التعرف على لندن. خلال النهار كنت أتجول في المدينة أو أتردد على المتاحف، وفي الأماسي كنت أغير على البارات ودور السينما القريبة من لستر سكوير. عشقت حيوية لندن والأنوار الساطعة والناس ذوي هذا العدد الكبير من الألوان.

اتصلت مع جيل بعد الأسبوع الأول، وحين عاود الاتصال طلب مني الذهاب إلى المحطة في اليوم التالي للذهاب بالقطار إلى مطار ستانسند. زودني باسم أحد الفنادق القريبة وطلب مني لقاءه هناك في مكتب الاستقبال.

استغرقتْ الطريق إلى ستانسند نحو ساعة من الوقت. وفيما كنت متوجهاً نحو نقطة اللقاء، رفعت رأسي فرأيت شخصاً واقفاً خلف واجهة زجاجية. كان مشغولاً بتوجيه عدسة آلة التصوير نحوي.

انتظرت جيل في بهو الانتظار. وفيما كنت جالساً هناك، رأيت رجلاً معلقاً آلة تصوير كبيرة حول رقبته خارجاً من خلف الواجهة. صعقني الافتقار إلى الحصافة والدقة.

لم يزد الأمر إلا سوءاً حين وصل جيل واصطحبني إلى الطابق العلوي. بصعوبة منعت نفسي من الضحك حين دخلت الغرفة. كانت مغطاة كلياً بالمرايا. غير أني لم أقل شيئاً. فتح جيل حقيبته وأخرج منها علبة.

ناشراً ابتسامة على وجهه قال: "شكراً على مجيئك إلى هنا. أردت إيصال هذه إليك." ناولني العلبة فنظرت إلى ما بداخلها: أشرطة تسجيل القرآن التي كنت قد طلبتها.

ثم عقد جيل حاجبيه وقال: "آسف. نسيت شيئاً. سأعود في دقيقة."

خرج جيل من الغرفة، وأنا عاينت المكان. الشيء الأول الذي رأيته تمثل بمحفظة نقود جيل. كانت مرمية مفتوحة فوق الحقيبة. كانت محشوة بكمية كبيرة جداً من الأوراق النقدية إلى درجة أن أعداداً من ذوات الخمسين جنيهاً كانت بادية.

تملّكني الغضب. هل كان البريطانيون يعتقدون حقاً بأن مستوى غبائي كان كافياً لجعلي أسرق من جيل؟ كنتُ واثقاً من أن جيل لم يكن من النوع الذي يمكن أن يبادر إلى اعتماد مثل هذه الخطة المثيرة للسخرية، غير أنني انزعجت منه أيضاً لأنه تواطأ معها.

ابتسمتُ للمرايا على كل من الجدران ثم ذهبت إلى الحمام. جلست على المقعد وأفرغت ما في جوفي تاركاً الباب مشرعاً لضمان حصولهم على الصورة عبر آلة التصوير المنصوبة.

حين عاد جيل إلى الغرفة، لم يحاول حتى أن يتظاهر بأن اجتماعنا كان له هدف آخر. كان الموقف محرجاً، فقررت كسر جليد الصمت.

قلت: "شكراً جزيلاً على الأشرطة. ولكنني سأكون، كما تعلم، بحاجة إلى آلة تسجيل ستيريو للاستماع إليها."

ثم نظرت إلى جيل بتكشيرة كبيرة ذات معنى: "أنا متأكد من أنك قادر على تزويدي بواحدة" قلت مع شيء من الدعابة اللطيفة في صوتي: "أعني، لا تبدو مفتقراً إلى المال اللازم."

دانييل

في الأسبوع التالي، قابلت جيل في فندق آخر قريب من غرين بارك. حين دخلت الغرفة، أبلغني بأن أحد أصدقائه البريطانيين كان سيلحق بنا. بعد بضع

دقائق اقتحم الغرفة رجل طويل القامة في الثلاثينيات من العمر. ألقى بحقيبته على الأريكة ثم شهر يديه نحوي قائلاً:

'اسمي دانييل. أنا مع أجهزة الاستخبارات البريطانية. سأكون مسؤولاً عنك خلال فترة وجودك في إنجلترا.' تصافحنا، وجلس إلى الطاولة.

مباشرة كرهت دانييل. كرهت طريقته في قذف الحقيبة، أسلوبه في الكلام، منهجه في الإعلان عن أنه كان سيتولى 'المسؤولية' عني كما لو كنت أحد حيوانات السيرك. نظرت إلى جيل فرد بابتسامة متعاطفة. ثم جلسنا.

'إذن أنت تزعم أنك كنت في أفغانستان، أليس كذلك؟' كانت السخرية واضحة على وجهه. ثم ما لبث الموقف أن اكتسب معنى: كان دائباً على مراقبتي منذ أسبوعين، أو أقله، على الإصغاء إلى ما قاله من كانوا يفعلون ذلك. عرف أني كنت مستغرقاً في بحر اللهو مُكْثراً من الرقص والشرب والتدخين. كان الأخ قد تصور شخصاً مختلفاً حين كُلِّف بالعمل معي، وقد خاب أمله.

أجبته: 'ما سبب وجودي هنا باعتقادك؟'

مثبتاً نظره علي قال: 'حسناً. الآن سأطرح عليك بعض الأسئلة.'

بلغ الغضب أوجه، فتحت فمي لأقول شيئاً.

قبل أن أتمكن من الكلام قاطعني دانييل قائلاً: 'لا. أنا هو من سيطرح الأسئلة. أما أنت فلست في وضع من يسألني عن أي شيء.'

نظرت إلى جيل. كان يمعن النظر في أظافر يديه. قلت لدانييل 'اسمع يا أنت. لَسْتُ على ما يرام. بالفعل أنا مريض. لابد لي من مراجعة الطبيب.' لم أكن مستعداً لتمكين هذا الوغد من التحكم بالحوار.

بدا مندهشاً، مرتبكاً. سألته: 'كيف أهتدي إلى طبيب في لندن؟'

تمتم متلعثماً: 'أفترض أنك تستطيع الذهاب إلى طبيب عام.'

'أنا لستُ مواطناً بريطانياً.'

'حسناً، أعتقد أنه يكفي أن تقدم عنوانك وتثبت أنك مقيم.'

'غير أني لست مقيماً في شقة بعد. سيتعين عليك أن تساعدني. هل عندك طبيب؟ تستطيع أن تدلني على عيادة طبيبك، أليس كذلك؟'

بدا دانييل مخبَّلاً تماماً الآن. حاول أن يحدد لي اتجاهات معينة في البداية: يمين، ثم يسار، ثم إشارات ضوئية، وما إلى ذلك. غير أنني تظاهرت بالتشوش والارتباك فتوقف عن الوصف وراح يرسم خارطة لي. وفيما كان هو متركزاً على الخارطة، رمقت جيل بنظرة خاطفة. كان لا يزال ممعناً النظر في أظافر يديه، إلا أنني استطعت رؤية ابتسامته الخفيفة.

خرجت من ذلك الاجتماع فور انتهاء دانييل من رسم الخارطة. لم يكن الاجتماع التالي، بعد أسبوع، أفضل حالاً. جيل وأنا اجتمعنا في فندق جديد في الحي نفسه. حين دخل دانييل وضع حقيبته على الأرض بدلاً من قذفها. ولكن موقفه، باستثناء ذلك، لم يكن قد تغير.

جلس ووضع النظارات على عينيه. قال: 'أريدك أن تحدثني عن جميع الأمكنة التي كنت فيها وسائر الأشياء التي فعلتها منذ رؤيتي لك قبل أسبوع.'

غَطْرَسَتُه استفَزّتني. سألته: 'ما الذي تعنيه بـ "سائر الأشياء"؟ ساخراً.' 'هل تريدني أن أحدثك عن كل شيء أكلتُه؟ عن كل مطعم كنت فيه؟ عن كل فتاة قبّلتها؟ أو ربما كانوا غلماناً؟ عن الوقت الذي قضيته في المراقص ودور السينما والبارات؟ تريد أن تعرف كل شيء؟'

مال دانييل إلى الخلف وأومأ قائلاً: 'نعم، ذلك بالتحديد ما أريد معرفته.'

'وأنا لن أخبرك بشيء من ذلك. إذا كانت هذه هي الشروط فلن أعمل عندك. أنت لا تملكني.'

كانت فترة صمت طويلة بعد ذلك. بقي جيل محجماً عن الكلام؛ من الواضح أنه كان محرجاً أيضاً. لم يكن يبادر إلى التدخل لتدوير الزوايا كعادته. كان في إنجلترا الآن، تعين عليه أن يصمد أمام هذه المهزلة مثلي تماماً.

كانت نبرة دانييل أكثر هدوءاً حين رد قائلاً: 'نحن نريد معرفة هذه الأشياء من أجل أمنك.'

طفح الكيل. انفجرت: 'يا للهراء! هل كنتم تتولون ضمان أمني عندما كنت في أفغانستان أفكك الصواعق وأعطل الألغام؟ هل كنتم تتولون ضمان أمني على كل حاجز في الباكستان، حيث كانت الشرطة تعتقل كل عربي منحوس يصادفونه؟ أين كنتم آنذاك؟'

عينا دانييل جحظتا، وفمه بات مقفلاً.

تابعت بعنفوان: 'دعك من هذا الهراء السخيف عن الأمن. أنا سأتولى الاهتمام بأمني الخاص. وسأحتفظ بحياتي الخاصة لنفسي.'

في لقائنا الثالث لم تكن وقاحة دانييل قد تضاءلت إلا قليلاً. جئت إلى الاجتماع منزعجاً لأنني كنت مشغولاً بالبحث عن شقة دون نجاح، لم أكن قد عثرت على واحدة. طلبت من جيل ودانييل أن يساعداني ولكنهما اعتذرا. كان من المهم أن أعثر على الشقة وحدي، تماماً مثل أي شخص عادي آخر. كان لابد لي من تأمين غطاء لي.

ثم دس دانييل يده في حقيبته وسحب مغلفاً مملوءاً بالصور ورماه على الطاولة. قام بنشر الصور وطلب مني أن أدله على من عرفته من أصحابها.

نظرت، رأيتهم: أمي، حكيم، أمين، ياسين، طارق. كان قد مضى عام ونصف العام منذ أن غادرت بلجيكا، وها أنا ذا كنت أعاين الصور ذاتها.

فيما كنت أشير إلى مَنْ عرفتهم، نظرت إلى جيل. كان يحملق وهو ينظر إلى الطاولة بإمعان. استطعت أن أقرأ من نبضات عروق جبهته أنه كان حانقاً. أدركت أن الممارسة كانت مخيبة له أيضاً. لم تكن الأجهزة البريطانية واثقة بالفرنسيين؛ كانت مصرة على الاستمرار في اختباري لاكتشاف حقيقتي. كان الموقف مهيناً لكلينا.

بعد إزاحة الصور بدأ دانييل يخبرني بطلبات الأجهزة البريطانية مني. قال: 'ثمة أشخاص نريدك أن تعرف المزيد عنهم. إنهم إسلاميون متطرفون. نريدك أن تهتدي إليهم في الجوامع والمساجد أو غرف الصلاة هنا في لندن.'

ذلك ما كنت أتوقعه. قلت: 'مفهوم. لماذا لا تزودونني بقائمة جوامعكم التي يتعين علي أن أبدأ منها؟'

هز دانييل برأسه: 'لا. لا أستطيع أن أفعل ذلك. عليك أن تكتشفها بنفسك. لا تستطيع أن تزورها كما لو كنت مجرد سائح.'

سألت: 'ولكن كيف يفترض فيَّ أنا أن أعرف أين أبحث؟ لم يمضِ على وجودي هنا سوى شهر واحد.'

'ذلك، تحديداً، هو بيت القصيد. عليك أن تتعلم وحدك، ذاتياً. لابد لك من الشروع في تمضية فترات زمنية أطول مع العرب الآخرين.' صحيح أن دانييل لم يكمل، غير أن وجهه كان يشي بالجملة التالية التي كانت محتملة بكل تأكيد. 'توقف عن إضاعة الوقت مع البنات في المقاهي.'

ثم أعطاني دانييل رقم هاتف، وقال: 'يمكنك استخدام هذا الرقم للاتصال بنا نحن الاثنين: جيل وأنا. هذا هو الرقم الوحيد الذي يجب عليك أن تستعمله خلال وجودك في إنجلترا.'

نظرت إلى جيل وسألته: 'وماذا عن رقم هاتفك أنت؟'

بقي جيل صامتاً بضع ثوانٍ. بدا شديد الحزن. وحين تكلم أخيراً اتضح أنه كان يختار كلماته بعناية. قال: تستطيع أن تستعمل رقم هاتفي إذا كانت لديك أي مسألة شخصية تخصني. أما فيما يخص عملك هنا، فستكون ملزماً بالاتصال مع دانييل.'

أبو قتادة

يوم الجمعة التالي ذهبت إلى جامع ريجنتس بارك لأداء صلاة الجمعة. في الداخل كانت ثمة سلسلة واجهات لجميع أنواع العروض التي تلقي الضوء على تاريخ الجامع. كانت وزارة حربية تشيرتشل قد اشترت الموقع في 1940 تعبيراً عن الشكر لمسلمي الهند الذين قضوا دفاعاً عن الإمبراطورية البريطانية. كان من الواضح تماماً أن هذا لم يكن المكان الذي يمكن العثور فيه على أي إسلاميين متطرفين.

كان الجامع كبيراً. في الداخل، كانت الأرض مفروشة بالسجاد الفاخر، وثمة كانت ثريا عملاقة متدلية من السقف. جلست فيما تدفق سيل المصلين على القاعة، ثم استمعوا إلى الإمام الذي تحدث عن أهمية التحلّي بالاستقامة وحب عمل الخير. لم يكن الكلام خطاباً متطرفاً.

في نهاية المحاضرة، ذكّرنا الإمام بثالث أركان الإسلام، الزكاة وهو التبرع الإلزامي. حَضَّنا على التبرع بسخاء للفقراء ونحن خارجون. في كل جامع في كل بلد في العالم لابد للإمام من أن يتحدث عن الزكاة. غير أن أي إمام متطرف لن يدعو إلى إعطاء الفقراء. سيطلب من جمهوره أن يتبرعوا بالمال لصالح المجاهدين على جبهات القتال كما لصالح الأرامل والأيتام الذين يتركونهم وراءهم.

بعد المحاضرة، أديت الصلاة ومشيت نحو الباب. ثمة كان جامع زكاة واقفاً خلف طاولة جميع ألوان النشرات الإخبارية الرسمية. مررت بالقرب منه وخرجت إلى أمام الجامع. كنت أعرف ما كنت أبحث عنه. في كل جامع بأوروبا، بعد صلاة الجمعة، لابد من وجود رجال واقفين أمام الجامع لبيع نشرات سياسية عائدة لهذه الجماعة أو تلك. على الفور اهتديت إلى الرجل الذي كان يبيع نشرة الأنصار ودسست عشرين جنيهاً في صندوق تبرعاته. استطعت أن ألاحظ أنني لفتُّ نظره، غير أنه لم يقل شيئاً.

قرأت النشرة أمام الجامع. خاتم الجماعة الإسلامية المسلحة لم يكن هو ذلك الذي كان طارق يستخدمه في بروكسل، فيما عدا ذلك كانت النشرة هي هي إلى حدٍّ كبير. كانت ثمة مواد احتفالية مشيدة بالهجمات على القرى، الأرتال العسكرية، ومخافر الشرطة، جنباً إلى جنب مع بيانات إحصائية عن عدد الجنود الذين قتلهم الجهاد وكميات الأسلحة والذخائر التي تم الاستيلاء عليها من قبله. ونحو خواتيم النشرة كانت سلسلة من التقارير عن المعارك الجهادية في كل من فلسطين، بلاد الشيشان، وكشمير. إلا أن الجزء الأهم ورد، بنظري، على الصفحة الأخيرة بالذات. كانت هناك دعوة لحضور ندوة يوم الأحد القادم. كان شيخٌ يدعى أبو قتادة سيلقي محاضرة.

إذا كانت الأنصار مؤيدة لهذا الشيخ، فإن من شأن الأخير أن يكون بالضرورة، فيما كنت أعلم، على علاقة بالجماعة الإسلامية المسلحة. كان من شأن أبي قتادة أن يفتح لي الطريق.

التقيت جيل ودانييل لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم؛ دائماً كنا نجتمع يوم الجمعة. حين عرضت عليهما نسخة الأنصار، كان الرجلان، كلاهما، سعيدين، على ما بدا.

قلت لهما: "سأحضر الندوة. أعتقد أنها ستكون طريقة مناسبة لتمكيني من الشروع في إقامة الجسور."

تدخل دانييل: "نعم يجب أن تذهب. ولكن ابق متواضعاً. أريد أن يراك الناس هناك، ولكن حذار التحدث مع أي كان بعد."

عُقِدَت الندوة في باحة إحدى المدارس. حين دخلت كان هناك نحو خمسين رجلاً ممن سبقوني جالسين على الكراسي المقابلة للمنصة في الصدر. جلهم كانوا حليقي الذقون وفي ملابس غربية. كانت الندوة قد بدأت وكان ثمة ثلاثة رجال أمام الغرفة يتبادلون الكلام باللغة العربية.

لم يكن قد سبق لي أن رأيت صورة أبي قتادة من قبل، إلا أنني عرفته مباشرة. كان محاطاً بنوع من الهالة؛ من الواضح أنه كان هو المسؤول عن إدارة الحوار. كان في ثلاثينياته، إلا أنه كان أكرش من الآن. كان في زي يشبه الزي الأفغاني، على الرغم من أنه لم يكن أفغانياً. لم تكن الملابس إلا نوعاً من البيان السياسي - كان يستعرض ولاءه لأرض الجهاد.

مع إصغائي إلى كلام أبي قتادة، اتضح لي أنه ذكي جداً، واسع الاطلاع. لم أستطع استيعاب كل شيء باللغة العربية، إلا أنه كان يقود الحوار حول صحة بعض الأحاديث (النبوية). الآخران كانا يساهمان بين الحين والآخر، وكان أفراد من الجمهور يطرحون أسئلة أيضاً. وقد استطعت أن أميز من لهجتهم أنهم كانوا مغاربة وجزائريين بأكثريتهم، على الرغم من وجود بعض الباكستانيين أيضاً. كانت المناقشات بحثية (أكاديمية) خالصة على نحوٍ صارم - لعل الشيء الوحيد الذي جعل الندوة تخريبية هو كونها معلنة في نشرة الأنصار.

بعد انتهاء الندوة، وقف أبو قتادة وأورد حديثاً شريفاً قائلاً ما معناه: "حسب رواية أبي هريرة (رضي الله عنه) عن النبي (عليه السلام) أنه قال: إن الله (جل

وعلا) قال: أنفق (تصدق) يا ابن آدم، فسأنفق أنا (سأتصدق أنا) عليك.' ثم ختم أبو قتادة الندوة قائلاً: 'أرجو أن تتبرعوا قدر استطاعتكم للمجاهدين، كما لأسرهم وأراملهم وأيتامهم الذين تركوهم وراءهم.'

دسست خمسين جنيهاً في صندوق التبرعات عند الخروج، وحملت نسخة من النشرة الإعلامية عن طاولة قريبة من الباب. في النشرة كانت ثمة دعوة إلى حلقة مناقشة مع أبي قتادة وثلاثة من رجال الدين لموضوع الجهاد. كانت الحلقة ستتم مساء الخميس من الأسبوع نفسه في مكان يعرف باسم مركز الريشات الأربع للشباب.

الرِّيَش الأربع

بعد بضعة أسابيع وُفِّقت أخيراً بالعثور على شقة. كان الأمر قد استغرق عدداً من الأسابيع. درجت على استعراض الإعلانات في الصحف كل يوم أحد، غير أن الأرقام التي كنت أتصل بها كانت دوماً تشي بأن الشقق باتت مؤجرة. في نهاية المطاف، وجدت إعلاناً في لوحة للإعلانات خارج إحدى محطات المترو، هو الإعلان الذي قادني إلى الشقة التي أعيش فيها الآن في كنسال غرين، في منزل تعود ملكيته إلى سائق تكسي برتغالي.

في تلك الجمعة ركبت قطار خط بيكرلو من كنسال غرين إلى ماريلبون. تبعت الأسهم المرسومة على إحدى صفحات النشرة الإعلامية ومشيت باتجاه ريجنتس بارك. رأيت رجلاً يتقدمني بخطوات قليلة في زي أفغاني. لحقته وعرضت عليه النشرة قائلاً: 'السلام عليكم أيها الأخ، هل تستطيع أن تدلني على هذا العنوان؟'

'عليكم السلام يا أخ. أنا أيضاً ذاهب إلى هناك.' تكلم بالإنجليزية بلكنة أفغانية قوية.

قادني إلى مبنى آجري كبير في جادة روسمور ودخلنا. كان هناك ما لا يقل عن 150 رجلاً متربعين على بُسُط الصلاة المفروشة فوق أرض ملعب لكرة السلة. دلني الأفغاني على سُلَّم فنزلت لأتوضأ وحين عدت انضممت إلى الرجال الآخرين في الملعب.

عاينت الوجوه من حولي جُلّهم من شمال أفريقيا. ورأيت أيضاً بضعة هنود وباكستانيين مع حفنة من الزنوج. أكثر الرجال كانوا يرتدون ملابس عادية، غير أنني لاحظت عدداً في جلابيب كما في أزياء أفغانية مؤلفة من السروال والقميص. إلا أن عدداً كبيراً من مرتدي الزي الأفغاني كانوا من الشرق الأوسط وشمال أفريقيا، لا من أفغانستان.

كان هناك ثلاثة رجال على منصة منصوبة في صدر الغرفة، وكان ثمة آلة تصوير فيديو مركبة في مواجهتهم. أحد الرجال كان أبا قتادة، وآخر كان أحد رَجُلَيْ الدين اللذين كانا معه في الندوة في وقت سابق من الأسبوع. أما الثالث فلم أتعرف عليه.

أومأ أبو قتادة إلى الجمهور فجلس الجميع بهدوء وسكون. 'السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. باسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.'

كان صوت أبي قتادة صافياً وعميقاً وهو يتلو الصلاة أو الدعاء. الحمد والشكر كله لله والسلام والبركات على رسوله.

ثم بدأ أبو قتادة يتكلم عن واجبات الجهاد. قال إذا وقعت ولو امرأة (مسلمة) واحدة رهينة بأيدي الكفار، فإن من واجب ومسؤولية كل مسلم في طول العالم وعرضه أن يجاهد في سبيل تحريرها. ثم تابع يورد قائمة مستويات الجهاد المختلفة: جهاد القلب، جهاد اللسان، جهاد المعرفة، جهاد اليد، وجهاد

السيف. وقد بين بوضوح أن الجهاد المسلح كان الأشرف والأنبل بين سائر أشكال الجهاد. فوجئت باللغة التي كان أبو قتادة يستخدمها. كانت شبه مطابقة لتلك التي كنت قد سمعتها في المعسكرات. للحظة خاطفة عدت بالذاكرة إلى مسجد خالدان. وحين عدت إلى الانتباه، كان أبو قتادة قد انتقل إلى التمييز المألوف بين الجهاد الدفاعي أو الإلزامي من ناحية والجهاد الهجومي من ناحيةٍ ثانية.

ثم راح أبو قتادة يتحدث عن الجزائر، فلاحظت أن الجمهور الذي بقي صامتاً حتى هذه النقطة بدأ يصدر أصواتاً. بعضهم كانوا يتهامسون. وما إن فتح أبو قتادة باب تلقي الأسئلة للمناقشة حتى بادر عدد غير قليل من الرجال إلى رفع أيديهم. طرحوا أسئلة صريحة ومباشرة جداً. هل الجهاد في الجزائر جهاد إلزامي، فرض؟ هل المسلمون الذي لا يقفون في صف الجماعة الإسلامية المسلحة هم مسلمون أساساً؟

رد أبو قتادة على أكثرية الأسئلة بنفسه، غير أنه حرص على إعطاء الكلام، بين الحين والآخر، للرجل الجالس بجانبه، ذلك الذي كان في الندوة الأولى. وقد قدمه أبو قتادة باسم أبو الوليد. على النقيض من أبي قتادة. كان أبو الوليد ناحلاً جداً. وقد بدا أصغر قليلاً في السن من أبي قتادة وذا ملامح عربية واضحة.

أصغيت باهتمام إلى صوته حين قدم أجوبة إلى الأسئلة. وعلى نحوٍ مباغت تذكرت: كان أبو الوليد هذا في المعسكرات. حتى حين صار الجمهور من حوله أكثر انفعالاً، بقي صوته هادئاً، موزوناً. ثم عاينت أبا قتادة من جديد لأرى ما إذا كنت قد غفلت عن هذا في انطباعي الأول. مزاجه كان مختلفاً. كان لصوته هامش أوسع للحركة، وكان وجهه مفرط النعُومة. من المؤكد أن أبا قتادة لم يسبق له أن كان مجاهداً على الإطلاق.

التقيت جيل ودانييل في اليوم التالي، وأطلعتهما على ما جرى في المناسبتين اللتين رأيت فيهما أبا قتادة. قلت لهما إن هناك متطرفين في مركز الرِّيَش الأربع للشباب وإن أبا الوليد كان قد سبق له أن تدرب في المعسكرات. أبلغتُهما بأن الحوار كله قبل يومين دار حول الجماعة الإسلامية المسلحة.

بدا الرجلان راضيين عن عملي. كرر دانييل ما كان قد قاله في لقائنا السابق، مؤكداً ضرورة عدم بروزي الآن.

غير أن دانييل هذا لم يطرح علي عن الاجتماع سوى سؤال واحد: 'هل قالوا شيئاً عن مهاجمة إنجلترا؟'

المال

ذهبت مرة أخرى إلى الرِّيَش الأربع في اليوم التالي لأداء صلاة الجمعة، وكررت الذهاب جمعة بعد جمعة بعد ذلك. ثمة كانت محاضرات ونقاشات في أماسي أخرى خلال الأسبوع وكثيراً ما كنت أحضرها أيضاً. على الدوام كان أبو قتادة يقدم عروضاً تنم عن اطلاع واسع جداً. كان يتحدث عن اللاهوت وقد بدا واضحاً أنه مطلع على جوانب كثيرة من الإسلام. لم تكن المحاضرات سهلة. كان أبو قتادة كثير التطلب من الجمهور.

كان أبو الوليد يجلس بجانب أبي قتادة معظم الوقت، ويتلو خطبة الجمعة في غياب أبي قتادة. أحياناً، حين كنت أتخلف بعد الصلاة للمساعدة على إعادة ترتيب سجادات الصلاة، كنت أرى أبا قتادة وأبا الوليد يعدّان الأموال المتراكمة في صندوق التبرعات. وبعد الانتهاء كان أبو الوليد يحزم الأوراق النقدية ويأخذ الرزمة معه.

درستُ الرجال الذين كانوا يترددون على الرِّيَش الأربع بعناية فائقة جداً. بعضهم كانوا من صغار السن، غير أن هناك كان أيضاً أعداد غير ضئيلة ممن

هم في الثلاثينيات والأربعينيات. بدوا متعلمين؛ كانوا مطلعين على القرآن جيداً وكانوا يصغون إلى الخطب والمواعظ باهتمام. من الواضح أن أبا قتادة كان يتكلم لغة مفهومة بالنسبة إليهم.

تبين لي وجود عدد من المتطرفين في الرِّيَش الأربع. لاحظت جميع الأشياء التي كان حكيم قد لقنني عنها في المغرب قبل سنوات: طريقة هؤلاء الرجال في التحريك الدائم لشفاههم، الصلاة الصامتة، طريقتهم في أداء الصلاة، أسلوبهم في تثبيت أنظارهم على الأرض أمامهم، سراويلهم التي كانت تبقى دائماً فوق الكاحل.

ولدى عدد قليل جداً منهم لاحظت شيئاً آخر أيضاً: مِشْيَتَهم. كانت المشية الخفيفة التي سبق لي أن رأيتها في المعسكرات ذاتها. وحين درست هؤلاء الرجال بقدرٍ أكبر من التدقيق، لاحظت أشياء أخرى أيضاً ـ الأصوات الهادئة، العيون الفولاذية الثابتة، الدوائر الداكنة تحتها.

كل يوم جمعة، بعد انتهاء الصلاة، كنت ألتقي دانييل وجيل وكانا يسألانني عن الرِّيَش الأربع. قام دانييل بطرح الأسئلة ذاتها عدداً من المرات: هل يقوم أبو قتادة بتحريض الناس على الجهاد داخل إنجلترا؟ هل يشجع أتباعه على مهاجمة الأراضي الأمريكية أو البريطانية؟

أراد دانييل وجيل معرفة ما إذا كنتُ قد سمعت اسم أبي قتادة في أفغانستان، وأفدتهما بأنني لم أفعل. أرادا أن يعرفا ما إذا كنت مقتنعاً بأن أبا قتادة كان عاكفاً على تجنيد أشخاص لإرسالهم إلى المعسكرات. قلت لهما: 'لا أعلم، غير أن من الواضح أن هناك رجالاً في الرِّيَش الأربع سبق لهم أن كانوا في معسكرات التدريب.' وقد ذكّرتهما بأن أبا قتادة دأب على تكرار حقيقة أن حياة الجهاد هي الرسالة الأسمى والأنبل بالنسبة إلى أي مسلم.

ذات يوم أعطاني دانييل هاتفاً خليوياً، قائلاً وهو يقدمها: 'إياك أن تضيّع هذا.'

'اطمئن. لن أضيعه.'

بقي دانييل ممسكاً بالهاتف وتابع يقول: 'أعني ما أقوله. عليك أن تكون شديد الحرص على هذا. حذار نسيانه في أي مكان! تيقّن من وجوده معك كل الوقت، مفهوم؟'

'مفهوم.' مددت يدي لأخذ الهاتف ولكنه لم يكن مستعداً لإفلاته بعد.

واصل دانييل كلامه: 'إذا تعطل هاته إلي، مفهوم؟ حذار أخذها إلى أحد محلات الأجهزة الإلكترونية أو أي محلات شبيهة!'

بدأ الدم يغلي في عروقي. فهمت القصة: كان الهاتف موصولاً. لم يكن دانييل حاذقاً جداً في طرحه للأمور في الحقيقة.

كان دانييل يقوم دائماً بجلب الصور معه إلى الاجتماعات. أكوام منها في كل مرة. كان يدلقها على الطاولة ويطلب مني استعراضها والإشارة إلى أي شخص أتعرف عليه.

تعرفت على كثيرين، لأن جُل الصور كانت ملتقطة خارج مركز الرِّيَش الأربع. وبالتالي فقد كنت أشير إلى الرجال الذين كان سبق لي أن رأيتهم فيسألني دانييل عن معلوماتي حول كل منهم. لم أكن أعرف شيئاً عن أي منهم؛ كان دانييل قد طلب مني التزام الهدوء، وعدم الشروع في بناء علاقات. ثم كان يسألني عن انطباعاتي العامة. هل الرجل لافت للنظر؟ هل ذلك يبدو متعصباً بنظرك؟ كنت أعرف كيف أميز فكنت أحدد له من ينبغي تشديد مراقبته. دَوَّنَ صفحات كثيرة من الملاحظات.

ذات يوم جمعة طلب دانييل وجيل مني أن أتصل مع أبي زبيدة وأن أزوِّده برقم هاتفي الخليوي. عندما اتصلت بالرقم الذي كان الأخير قد زوَّدني به رفع السماعة في الطرف الآخر أحد الأشخاص. لم أتذكر صوته. قلت له إنني راغب في التكلم مع أبي زبيدة فسألني عن اسمي. قلت له: أبو إمام المغربي.'

كانت ثمة خشخشة، ثم جاء صوت آخر عبر الخط. 'السلام عليكم، أبا إمام. أنا أبو سعيد. كيف حالك أيها الأخ؟' كان المتكلم أبا سعيد الكردي، الرجل الذي كنت التقيته في بيشاور وكان قد رافقني إلى دارونتا. بدا سعيداً بسماع صوتي.

أجبته: 'الحمد لله! كيف حالك أنت؟'

أبلغني أبو سعيد بأن أبا زبيدة لم يكن هناك، إلا أنه - أي أبو سعيد - كان يستطيع أن يمرر رسالتي إليه أفدته بوجودي في لندن وأعطيته رقم الهاتف. قلت له إنني كنت سأوافي أبا زبيدة بعنواني فور استقراري.

بدا دانييل وجيل شديدي الانفعال عندما أنهيت المكالمة. أعتقد أن دانييل كان أخيراً قد أيقن أنني حقيقي ولستُ زائفاً، وأنني قادر على أن أكون ثميناً جداً بالنسبة إليه.

قلت لهما: 'سأبادر إلى استئجار صندوق بريدي. وسأكون بحاجة إلى بعض المال لإرساله برقياً إلى أبي زبيدة.'

بغتة، توقف الرجلان عن الابتسام. بَدَوَا مصعوقين، سأل دانييل: 'ماذا تعني؟'

'يتعين علي أن أرسل مبلغاً من المال إلى أبي زبيدة. ذلك هو السبب الكامن وراء تزويده لي برقم الحساب المصرفي.' ثم رحت أشرح من جديد ما كان ابن الشيخ قد قاله لي في الليلة الأخيرة بدارونتا: كان متوقعاً مني أن أرسل مالاً دعماً للجهاد. كان ذلك أحد أسباب قيامهم بإيفادي إلى أوروبا.

بصوت أقرب إلى الهمس قال دانييل: "لا نستطيع إرسال أي مبالغ إلى هؤلاء الناس. ذلك ممنوع." أومأ جيل موافقاً.

سألتُهما: "حسناً، وكيف تتوقعانني أن أحافظ على غطائي، إذن؟ للتو قلت لهم إنني أقيم في لندن وعندي هاتف خليوي. هم واثقون، بالطبع، من أنني سأرسل لهم مالاً." غضبتُ من كليهما. كانا يورطانني في جميع المواقف الخطرة، دون أن يُقْدما، كلاهما، على أي مخاطرة.

نظر الرجلان إليَّ بصمت، ثم أحدهما إلى الآخر. تنحنح جيل وتكلم بهدوء قائلاً: "لماذا لا نتحدث عن هذا الأمر في وقتٍ آخر؟"

رسالة

خلال زياراتي القليلة الأولى للرِّيَش الأربع استطعت أن ألمس أن مستوى التوتر كان صاعداً. أفراد من الجمهور كانوا يزيدون من تأكيد موضوع الحرب في الجزائر. كانت الحرب الأهلية متصاعدة ميدانياً؛ كانت الجماعة الإسلامية المسلحة دائبة على مضاعفة عدوانيتها باطّراد. بدؤوا يقتلون عائلات كاملة، بل قرى بأسرها دفعة واحدة. كل من لا يدعم الجماعة كان هدفاً مشروعاً. في إحدى المحطات تنكر أعضاء الجماعة بزي الشرطة وأقاموا حاجزاً أوقفوا فيه حافلتين ملآنتين بالمدنيين. حَزّوا رقاب الجميع عن آخرهم. أكثر من ستين نسمة، بمن في ذلك عدد من النساء، الأطفال، والمسنين. في مناسبةٍ أخرى، اقتحموا مسجداً أثناء الصلاة. أمام الإمام وجميع الآخرين المجتمعين للصلاة، قاموا بقطع رؤوس أربعة رجال بالخناجر والبلطات.

كانت الجماعة قد أعلنت نفسها المعارضة الشرعية الوحيدة للنظام العسكري. فقط الجماعة كانت قادرة على فرض الشريعة، وتحديد مواصفات المسلم الحقيقي. كل من لا يقيم الصلاة، كل من لا يبادر إلى دفع الزكاة مباشرة

إلى الجماعة، كل امرأة تغادر المنزل دون حجاب - كل هؤلاء كانوا مرتدّين، يستحقون الإعدام. كانت الجماعة تزيد تماثلاً مع الطالبان يوماً بعد يوم.

كانت ثمة أسئلة كثيرة حول الجماعة في الرِّيَش الأربع. كان الجزائريون، بالطبع، شديدي الهياج والانفعال. كثيرون لم يكونوا يصدقون التقارير التي كانوا يقرؤونها في الصحف. كانوا يعتقدون أن الجيش الجزائري كان يقترف هذه الفظاعات الشنيعة لتأليب الشعب على الجماعة الإسلامية المسلحة.

كعهده دائماً، بقي أبو قتادة مركِّزاً اهتمامه على مسائل اللاهوت (الفقه). وذات يوم جمعة ألقى خطبة كانت أطول من المألوف بكثير. بدأ الخطبة بالكلام عن رجال الدين، 'العلماء' المتوفرين على معرفة القرآن والسنة والحديث. قال إن دور رجال الدين هو الدفاع عن الإسلام الحقيقي ضد أهل البِدَع.

لم يأت أبو قتادة على ذكر الجماعة مباشرة في البداية، إلا أنه تحدث عن مفهوم التكفير، مفهوم إعلان شخص أو جماعة ما خارج دائرة الإسلام الحقيقي. وعَدَّه، عملياً، حكماً بالإعدام. بَيَّن أبو قتادة أن فتوى التكفير لا يمكن أن تصدر إلا عن فقهاء واسعي الاطلاع. إن أفراد الجماعة قد تجاوزوا حدودهم؛ ليسوا في وضع من يستطيع إقرار من هم المسلمون الحقيقيون. وأعلن أبو قتادة بوضوح كامل إيمانه بأن كل مسلم مكلف شرعاً بالعمل لإطاحة الأنظمة العلمانية في كل مكان. ولكنه أضاف أيضاً أن الجماعة لم تكن صاحبة حق، على الإطلاق، في قتل مسلمين آخرين.

صحيح أن الجمهور ظل يصغي باهتمام، غير أنني استطعت أن ألاحظ تزايد غضب بعض الجزائريين مع تواصل الخطبة. لا أعني الجميع، على أي حال؛ البعض ظلوا يومئون موافقين على ما كانوا يسمعونه. في نهاية الخطبة، أعلن أبو قتادة على بَتْر صِلاتِه مع الجماعة الإسلامية المسلحة. دانَهُم بوصفهم من أهل البدع. ثم أنهى الخطبة بدعاء.

كان التوتر شديداً لدى نهوضنا للمغادرة. مجموعة من الرجال تحلَّقَتْ حول أبي قتادة وأبي الوليد، وفي الأمكنة الأخرى استطعت أن أرى إخوة يتجادلون فيما بينهم. عندما خرجت صادفت رجلاً كان يوزع نسخاً لمنشور كُتب باللغة العربية، في المنشور، كان أبو قتادة يعلن رسمياً قطعه لعلاقاته مع الأنصار.

حين التقيت دانييل وجيل بعد ظهر ذلك اليوم، أعطيتهما النشرة. كما أبغلتهما بأنني كنت قد تدبرت أمر الصندوق البريدي، وكانا سعيدين. طلبا مني الاتصال بأبي زبيدة وتزويده بالعنوان. سألتهما من جديد عن المال، وكررا مراوغة السؤال والهروب منه. وعدا بالكلام عن الموضوع لاحقاً.

عندما نَقَرْتُ أرقام هاتف أبي زبيدة هذه المرة، جاء الرد من رجل مسن. أعطيته اسمي وقال لي أن أبا زبيدة لم يكن موجوداً. عرض تمرير أي رسالة فأعطيته عنوان صندوق البريد.

سأل الرجل المسن: 'أنت في لندن؟'

'نعم. أقيم هنا.'

سألني: 'هل تعرف شخصاً يدعى أبو قتادة؟' فوجئت بالسؤال. لم أكن قد سمعت باسم أبي قتادة في الباكستان أو أفغانستان.

أجبت: 'بلى. أعرفه. أراه كل أسبوع.'

'ليتك توصل إليه رسالة مني! أرجوك أن توصيه بالاتصال مع الأخ عبد الله في الباكستان. قل له إن الأمر مهم.'

وافقت على إيصال الرسالة وأنهيت المكالمة. عندما أخبرت دانييل وجيل بما كان قد حصل، كانا مسرورين جداً.

يوم الجمعة التالي، اقتربت من أبي قتادة بعد انتهاء الصلاة. لم يكن قد

سبق لي قط أن تكلمت معه من قبل، وانتظرت إلى أن بقي وحده لموافاته بالرسالة. بدا متفاجئاً في البداية. سألني: 'من أعطاك الرسالة؟'

أجبت: 'أخ في الباكستان.'

تشابكت نظراتنا لثوانٍ، غير أن أياً منا نحن الاثنين لم ينبس ببنت شفة.

بعد نحو أسبوعين، حين وصلت إلى مكان الاجتماع مع جيل ودانييل، رأيت على الطاولة مغلفاً. كان فيه ألف دولار.

'إنه المبلغ الذي طلبته' قال دانييل.

لاحقاً بعد ظهر ذلك اليوم، ذهبت إلى مكتب تبديل عملة للسياح قرب ساحة الطرف الأغر. أرسلت المبلغ برقياً إلى الحساب المصرفي الذي كان أبو زبيدة قد زوّدني برقمه.

أعطتني الأجهزة المبلغ نفسه للإرسال إلى الباكستان مرتين أُخريين بعد ذلك. على الدوام كنت أضطر لالتماس المال، غير أنني لم أكن أُجبر على ممارسة الضغط كما فعلت في المرة الأولى.

أبو حمزة

تقلص جمهور أبي قتادة قليلاً بعد صدور إعلانه عن الجماعة الإسلامية المسلحة. لاحظت أن بعض الجزائريين كفوا عن المجيء. صحيح أن الباقين كانوا لا يزالون يتحدثون عن الجزائر، ويناقشون تصرفات الجماعة الإسلامية المسلحة، غير أن الأجواء في الريشات الأربع كانت أقل توتراً. من الواضح أن الأعضاء الأشد غضباً كانوا، ببساطة، قد كفوا عن المجيء.

لدى خروجي من المركز بعد ظهر أحد أيام الجمع ناولني أحدهم منشوراً فيه دعوة إلى حوار في الأسبوع التالي. كان أبو قتادة وأبو الوليد سيكونان هناك

مع رَجُلَيْ دين آخرين: أبو حمزة والشيخ عمر بكري محمد. لم يكن قد سبق لي أن سمعت بأبي حمزة، إلا أنني كنت أعرف عن الشيخ عمر لأنه كان في الصحف وعلى شاشات التلفزيون قبل بضعة أشهر. كان قد حاول تنظيم مسيرة كبرى للمسلمين في لندن، ولكنه كان قد مُنع من قبل الحكومة البريطانية.

قررت الذهاب إلى الندوة مع أنها كانت في أحياء لندن النائية التي لم يسبق لي أن كنت فيها. حين خرجت من محطة مترو الأنفاق، لم أعرف كيف أتوجه. رأيت شابين خارجين من المحطة في الوقت نفسه وتذكرت أني رأيتهما في الريشات الأربع. عرضت عليهما المنشور وسألتهما عما إذا كانا قادرين على توجيهي، فبادرني أحدهما قائلاً إنهما كانا يذهبان إلى المكان نفسه وكان بوسعنا أن نمشي معاً.

كلاهما كانا جزائريين. أحدهما أكبر قليلاً في السن من الآخر، وأطول أيضاً. تبين لي أنهما، كليهما، كانا من الجماعة. ثمة كانت جملة الأشياء الصغيرة المميزة للمتطرفين عن المسلمين الآخرين: كلاهما كانا يرتديان سروالي جينز مكفوفين إلى ما فوق الكواحل كما كانا يعتمران اثنتين من قبعات التزلج على الرغم من أن الجو كان دافئاً في الخارج.

قدَّمْتُ نفسي باسم إمام. قدم الأطول نفسه باسم خالد والآخر باسم سمير. بدأنا الكلام، وأدركت أنهما كانا جزائريين لا فرنسيين من أصل جزائري. اكتشفت هذا لأن لغتهما الفرنسية كانت بائسة، فوجدنا أنفسنا مفضلين الكلام بالعربية.

سألني خالد: 'من أين؟'

'من المغرب.'

ابتسم وقال: 'لا، اقصد، من أين جئت؟'

صمتُّ برهة ثم قلت له: "من بلجيكا".

بادي الانشراح قال: "صحيح! أنا أعرف كثيرين في بلجيكا. لماذا غادرت؟"

فيما لا يزيد على جزء من الثانية، قُمْتُ بروز خياراتي. كنت أستطيع إخباره عن أمين وياسين. ممكن تماماً أن يكسبني ذلك نوعاً من المصداقية الفورية مع هذين الشابين، كما كان قد حصل مع ابن الشيخ في بيشاور. ثمة كان، بالطبع، احتمال ضعيف أن يكونا قد تحدثا مع أمين وياسين وباتا قادرين على اكتشاف حقيقتي. لم يبدُ هذا الاحتمال وارداً بنظري، فبادرت إلى التفسير دون تردد: "غادرت لأنه تعين علي أن أفعل. هل تعرف الأخوين أمين وياسين؟"

"نعم، بالطبع." قال خالد مندهشاً.

كنت منخرطاً في الأنصار معهما. كانت الشرطة تبحث عني عندما حصلت الحملة فتعين علي أن أغادر البلد."

لم يبدُ على أي من خالد أو سمير أي علامة شك؛ بَدَوَا بالغي السعادة لالتقائهما معي. عندئذٍ أيقنت أننا كنا سنصبح أصدقاء.

كان ذلك هو اليوم الذي رأيت فيه أبا حمزة للمرة الأولى. كان رجلاً شديد الغرابة من حيث الشكل: عين واحدة، وبلا يدين. حيث كان ينبغي ليده اليمنى أن تكون كانت ثمة ذراع اصطناعية غريبة منتهية بكلاّب فضي. بدا أشبه بقرصان. بعد بضع دقائق تذكرت: إنه الأخ الذي كان أسد الله قد حدثني عنه في دارونتا، ذلك الذي نسف يديه بتراً في أثنا إعداد النيتروغليسرين. ذُهلت.

وتضاعف ذهولي بعد أن سمعت أبا حمزة وهو يتكلم. لم يكن يعرف شيئاً عن اللاهوت (الفقه)، وهو أمر بدا غريباً بالنسبة إلى شخص تخرج في "أكاديميات" معسكرات التدريب. كان عالي الصوت مفرط الحماسة، غير أنه بدا لي أيضاً بالغ الضحالة من حيث الاطلاع. كان يحاول الدفاع عن الجماعة

الإسـلامية المسلحة من منطلقات الشرع الإسلامي، غير أنه لم يكن، على ما بدا لي، يعرف ما كان يتكلم عنه. كان الأمر واضحاً بالنسبة إلى كل من أبي قتادة وأبو الوليد أيضاً؛ نجحا في الإجهاز على كل واحدة من الحجج التي ساقها إجهازاً كاملاً. كان عمر بكري محمد أكثر إطلاعاً وقد ساعد أبا حمزة على طرح فكرته والدفاع عن قضيته.

خرجت من ذلك اللقاء مستوعباً أمرين بوضوح شديد: كان أبو قتادة باحثاً (أكاديمياً) حقيقياً، ولم يكن أبو حمزة أكثر من دجال مضلِّل (ديماغوجي).

حين حَدَّثْتُ دانييل وجيل عن الحوار مع أبي حمزة، أبديا قدراً كبيراً من الرضى. وحين أخبرتهما بما كان أسد الله قد قاله عن أبي حمزة، دُهش الرجلان واستمتعا. قالا إن أبا حمزة كان يزعم أنه كان قد فقد يديه وهو يفكك لغماً أرضياً في إحدى جبهات القتال في أفغانستان.

أبدى دانييل وجيل اهتماماً كبيراً بخالد وسمير، ولاسيما بعد إخبارهما بأنهما كانا على معرفة بأمين وياسين. فهذان الاسمان كانا من الأسماء المستعارة بالطبع ولم يكونا واردين في أي جرائد. أدرك دانييل وجيل، كما فعلت أنا، أن خالداً وسميراً يجب أن يكونا وثيقي الصلة بالجماعة الإسلامية المسلحة. أوصياني بالعمل على الاقتراب منهما أكثر.

ذات يوم جمعة، ذهبت إلى لقائي العادي مع دانييل وجيل، ولكنني لم أجد إلا الأول هناك. في المصعد ونحن ذاهبان إلى الغرفة أخبرني بأنه كان قد طلب من جيل عدم المجيء في ذلك اليوم. فوجئت؛ كان جيل دائم الحضور لاجتماعاتنا.

حين دخلنا الغرفة وجدنا مائدة عليها وجبة غداء فاخرة. التفتُّ إلى دانييل ملتمساً تفسيراً.

قال: "لم نبدأ بداية سارة. أعتقد أن ساعة بداية جديدة قد دقت".

تحدثنا في ذلك اليوم عدداً من الساعات. كان ممتعاً؛ كان يعرف أشياء كثيرة عن السياسة، وإن لم يكن عن الإسلام. سألني عن حياتي أيضاً. للمرة الأولى شعرت بأنني لم أكن مجرد مخلب بيده. باتت علاقتنا أيسر بكثير بعد ذلك.

صيد ثمين

كنت أزيد من الوقت الذي أقضيه مع خالد وسمير باطراد. ونظراً لإثباتي قَدْراً كبيراً من المصداقية فيما يخص الجماعة الإسلامية المسلحة بعد إتياني على ذكر اسمَيْ أمين وياسين، فإنهما، كليهما، كانا يتحدثان معي بصراحة كاملة. إلا أن خالداً هو الذي كان يتولى معظم الكلام. في حين بقي سمير صموتاً ومذعناً لصديقه الأكثر جرأة.

بعد فترة غير طويلة أخبرني خالد أن الشرطة كانت تبحث عنه في فرنسا بعد التفجيرات في صيف 1995. كان قد فر إلى ألمانيا، حيث عاش في فوبرتال فترة قصيرة. غير أنه لم يحس بالأمن هناك أيضاً، كما قال، فقرر الهجرة إلى إنجلترا.

في أحد الأيام أخبرني خالد بأن بعض أصدقائه الموجودين في ألمانيا كانوا في زيارة للندن وكانوا سيأتون إلى الريشات الأربع لأداء صلاة الجمعة. غير أنهم لم يكونوا قد وصلوا بعد رغم بدء الصلاة، فجلسنا: خالد، سمير، وأنا نصغي إلى خطبة أبي الوليد.

بعد بضع دقائق رأيت خالداً يدير رأسه نحو باب الباحة. التفتُّ أنا أيضاً فشاهدت ثلاثة رجال في المدخل. قشعريرة باردة عبرت عمودي الفقري. تذكرت أحد الرجال. وعلى الرغم من أنني كنت أعرف أنني أعرفه فإنني لم أكن قادراً على إماطة اللثام عن هويته الحقيقية.

فيما انطلق خالد وسمير نحو أصدقائهم، اكتفيت أنا بإمعان النظر في هذا الرجل. كان رشيق الملبس. كان يرتدي سترة جلدية سوداء مع سروال جينز، وينتعل حذاء رياضياً. بقيت عاجزاً عن تمييزه، غير أن شكاً ظل يراودني بأني كنت قد رأأيته من قبل.

كان الرجل يشي بشيء خطر؛ أحسست بالأمر في دمي. خلال الفترة المتبقية من الخطبة، بقي عقلي يدور بسرعة وأنا أحاول تذكر الرجل. كنت كثير القرب ولكن دون وصول. كنت أعرف أن هذا الرجل كان مهماً على نحوٍ معين، وأن علي أن أنأى بنفسي عنه.

مع انتهاء الصلات، اندفعت نحو مدخل الصالة، مررت، في طريقي، بسمير وخالد وودعتهما على عجل. ألقيت نظرة واحدة أخيرة على الرجل ومشيت خارجاً، بعد ذلك، إلى الشارع. عندئذ أقدمتُ على شيء كان دانييل قد أوصاني ألا أُقْدم عليه أبداً: اتصلت به عبر هاتفي الخليوي، من أمام الريشات الأربع مباشرة. كان دانييل قد حَذَّرَني من هذا لمعرفته بأن من شأنه إثارة الشكوك، غير أنني كنت متأكداً من عدم قدرتي على الانتظار إلى حين حلول موعد اجتماعنا لاحقاً في ذلك اليوم كي أخبره عن هذا الرجل. تركت رسالة لدانييل وعاود الاتصال مباشرة.

'هناك، يا دانييل شخص في الريشات الأربع. يجب أن يطبق عليه رجالك ويلتقطوا صورة له مباشرة.' كنت قد رأيت عدداً كبيراً من الصور الملتقطة خارج مركز الريشات الأربع مما جعلني على يقين بأن هناك مصورين قريبين.

سأل دانييل: 'ومن يكون؟'

اعترفت: 'لا استطيع تحديده بدقة. سبق لي أن رأيته من قبل، مع ذلك، وهو صيد ثمين جداً حسب تقديري.'

التقيت دانييل وجيل بعد ساعتين. عندما دخلت الغرفة شعرت بأنهما كانا منفعلين. لاسيما جيل بدا استثنائي النشوة. سأل: 'هل تعرف من كان ذلك؟'

'لا' قلت. لم أكن قد ميزته بعد. 'غير أنني أعتقد أنه مهم.'

كشر جيل: 'نعم. أنت على صواب مئة بالمئة. كان ذلك هو علي توش - طارق من بروكسل. كان هو المسؤول عن تفجيرات باريس في العام الماضي.'

كنت مشدوهاً. لم أستطع أن أصدق أنني لم أتذكره. كنا قد عشنا تحت سقف واحد في بروكسل مدة دامت أسابيع.

سألت: 'هل أنتما متأكدان؟'

'نحن متأكدان على نحوٍ مطلق. نجح مصورونا في التقاط صورته.'

فكرت بالموضوع قليلاً. كان طارق ذا لياقة بدنية عالية جداً حين عرفته، أما هذا الرجل فكان أكثر بدانة قليلاً. ربما كان وزن طارق قد زاد، وكان ذلك قد انعكس على وجهه. كذلك كان شعره أطول، وتساءلت عما إذا كان ذلك ما كان قد أدى إلى تشوشي. ما كان دانييل وجيل يقولانه لي بدأ يبدو أكثر إقناعاً. إذا كان ذلك صحيحاً، سأكون قد وفّرت للأجهزة فرصة هائلة.

سألت: 'ما الذي ستفعلونه؟'

قال دانييل بثقة: كلفنا عناصرنا بتعقبه. لن يفلت منا هذه المرة.'

في لقائنا التالي سألت دانييل وجيل عما إذا كان تم إلقاء القبض على علي توش. تبادلا النظرات ولم يقولا شيئاً.

ألححت: 'حسناً، ماذا حصل؟'

'ماذا؟' لم أستطع أن أصدّق ما كنت أسمعه. نظرت إلى جيل وتمكنت من رؤية مدى حدة غضبه. كيف استطاع أن يفلت منكم؟'

بدا دانييل محرجاً. كان في مقهى. كان شبابنا يراقبونه. فجأة اختفى بطريقةٍ ما.'

نظرت إلى جيل ثانية، غير أنه كان يمعن النظر في الطاولة. عدت إلى الالتفات إلى دانييل، غير أنني أدركت أنه لم يكن قد بقي أي مزيد يمكن قوله. قلت بيني وبين نفسي: 'أضيّع وقتي هنا. ليس لدى البريطانيين أي فكرة عما يفعلونه.'

بعد بضعة أسابيع انفجرت قنبلة أخرى في متروباريس. التفاصيل كانت شديدة الوضوح مثل القنبلة التي كانت قد انفجرت في متروباريس حين كنت في خالدان، هذه القنبلة وُضعت أيضاً في إحدى عربات قطارات آر إي آر RER ساعة الذروة. وحسب التقارير الإخبارية القنبلة نفسها - عبوة ناسفة مشحونة بمتفجرات ومسامير لتكون شظايا - كانت أيضاً ذاتها.

تمخض الانفجار عن مقتل أربعة أشخاص وجرح نحو مئتين. السلطات في طول أوروبا وعرضها بدأت بحثاً مكثفاً عن علي توش. كان قد راوغ الاعتقال عدداً من المرات بعد مداهمات بروكسل وفي سلسلة لاحقة من المرات الإضافية بعد التفجيرات الحاصلة في باريس في ذلك الصيف. كان سيفلت هذه المرة أيضاً.

في شباط/فبراير 1998، تحدثت السلطات الجزائرية عن أن توش كان قد قُتل قبل تسعة أشهر في مدينة الجزائر. طالب الفرنسيون بالبصمات وحين وصلت هذه البصمات أكدت الشرطة تطابقها مع ما كان لديها في الملفات عن توش. غير أن الفرنسيين الذين حاكموا العشرات من أعضاء الجماعة الإسلامية المسلحة المشبوهين في الشهر نفسه على ما اتهموا به من أدوار في تفجيرات 1995، وجدوا أن محاكمهم دانت توش غيابياً. لم يقتنعوا بموته فعلاً.

خلال تلك المحاكمات، ادعى عدد قليل من المتهمين أن توش لم يكن عضواً في الجماعة الإسلامية المسلحة على الإطلاق. أفادوا بأنهم ذهبوا ضحية استغلاله لهم، وبأنه لم يكن في الحقيقة إلا عميلاً مدسوساً زرعته أجهزة استخبارات الجيش الجزائري. هذه الشائعات لا تزال متداولة إلى اليوم.

حين يكون الأمر متعلقاً بعلي توش، لا يعود أي شيء يقيناً.

عملية الاستيلاء

لم يكن خالد سعيداً بقطع أبي قتادة لروابطه مع الجماعة الإسلامية المسلحة. ومع أنه كان لا يزال يتردد على الريشات الأربع، فإنه كان دائم الكلام عن خيانة أبي قتادة للإخوان في الجزائر. كان يتحدث أيضاً عن أبي حمزة، وأبلغني بأنه كان يحضر المزيد من لقاءاته. وذات يوم جمعة اقترح أن التقيه الأسبوع التالي في جامع فينزبوري بارك حيث كان أبو حمزة قد بدأ يخطب بانتظام.

لم أكن قد سمعت عن جامع فينزبوري بارك قبل الآن، غير أن كلاً من دانييل وجيل اهتما كثيراً حين أبلغتهما بالأمر. وبالتالي فإنني بادرت يوم الجمعة التالي إلى أخذ قطار مترو الأنفاق للقاء خالد وسمير.

لم يكن الوضع شبيهاً بما كنت قد توقعته على الإطلاق. كان دانييل وجيل بالغي الاندهاش إزاء توقعي رؤية قاعة ملأى بحشد من المتطرفين. غير أن أكثر الرجال الذين رأيتهم لم يكونوا من تلك النوعية. كانوا مهاجرين من الباكستان والهند وأفريقيا الشمالية والشرق الأوسط، لا أكثر. رأيت بضعة أشخاص في السروال والقميص، ولكن هؤلاء ربما كانوا من الأفغان؛ لم أكن متأكداً. ومع ذلك فإن معظم من رأيتهم لم يكونوا، ببساطة، إلا أناساً جاؤوا إلى الجامع لأداء صلاة الجمعة.

كانت ثمة منصة عالية أمام المسجد، وكان أبو حمزة جالساً هناك. غير أن إماماً باكستانياً كان يخطب من على المنبر. لم يكن يتكلم بالإنجليزية أو العربية فلم أفهم كلمة مما قاله.

قابلت خالد في فينزبوري بارك الجمعة التالية. كان المشهد حتى أكثر غرابة هذه المرة، كانت الفوضى سيدة الموقف في الحقيقة. كان الناس يتصايحون في كل مكان. في القاعة، على الأدراج، عند المدخل.

خطوط الجبهة كانت واضحة: العرب ضد الباكستانيين. كانوا يتجادلون بالإنجليزية فاستطعت أن أتابع كل ما كانوا يقولونه. كان الصراع حول السيطرة على الجامع. كان الباكستانيون مصرِّين على بقاء إمامهم، والعرب كانوا يريدون تنصيب أبي حمزة.

كنت أعرف الطرف الذي كان خالد وسمير يؤيدانه، فاكتفيت بالتفرج من بعيد. رأيت عدداً من الرجال الذين لم أكن قد رأيتهم في الأسبوع السابق: شباب من شمال أفريقيا بأكثريتهم. كانوا متحلقين حول أبي حمزة.

كان الصخب يتعاظم داخل المسجد. كان الناس يتبادلون الصراخ والزعيق فيما بينهم بكثير من الحدة إلى درجة أنني لم أكن سأُفاجأ فيما لو شاهدت البعض متشابكين بالأيدي. غير أن كل شيء ما لبث أن هدأ بغتة لحظة حلول موعد بدء الصلاة. كان ثمة استنكار واحتجاج: عشرات الباكستانيين والهنود بل وبعض أبناء شمال أفريقيا غادروا ببساطة. ثم مشى أبو حمزة إلى المنبر وبدأ يخطب.

أربكني ما كنت قد رأيته في ذلك اليوم كثيراً. غير أني ما لبثت أن علمت من الصحف، في الأسابيع التالية، أن أبا حمزة كان قد استولى على مسجد فينزبوري بارك. كان الأمر موضوع خلاف شديد؛ كان الباكستانيون غاضبين ومصرين على استعادة جامعهم.

غير أن أبا حمزة كان قد رسخ أقدامه، وشهد الجامع نوعاً من الانقلاب معه. صار أشخاص مختلفون يأتون إلى فينزبوري بارك بعد الانقلاب، أشخاص أكثر شباباً، أقل استقراراً في حيواتهم.

كان الجمهور الجديد أدنى مستوى تعليمياً أيضاً. أدركت هذا لأن أي شخص مطلع إسلامياً لم يكن سيصغي إلى أبي حمزة. فالأخير لم يكن يعرف شيئاً على الإطلاق. كان فقط يلوح بكلابه مسعوراً ويصرخ. كان دائم الصراخ والزعيق عن الجهاد. لم يبادر مرة إلى شرح الجهاد مثلما كان يفعل أبو قتادة؛ كان يكتفي بالصراخ عن ضرورة الجهاد. الجهاد ضد أمريكا. الجهاد ضد اليهود. الجهاد ضد الكفار. الجهاد ضد حكومات الجزائر ومصر واليمن. الجهاد. الجهاد. الجهاد.

وجدتُ قَدْراً كبيراً من الصعوبة في الاستماع إلى أبي حمزة، لا لمجرد أن صوته كان عالياً جداً، بل ولأن مواعظه كانت شديدة الغباء. غير أنني ما لبثت أن أدركت أن أبا حمزة نفسه لم يكن غبياً. كان يدغدغ مشاعر جمهوره. ومع مرور الأسابيع أسبوعاً بعد آخر تعرفت أكثر على جمهوره، نعم تعرفت حرفياً على هذا الجمهور. أعداد كبيرة من الرجال كانوا يهاجرون من الريشات الأربع إلى فينزبوري بارك، تماماً كما كان خالد وسمير قد فعلا. لا، لم يكن أبو حمزة غبياً على الإطلاق. كان يعرف أن الناس غضبوا من أبي قتادة لانشقاقه عن الجماعة الإسلامية المسلحة. كان أبو حمزة قد انتهز الفرصة المناسبة، قد أمسك باللحظة الحاسمة.

صرت أتردد على فينزبوري بارك بانتظام بعد ذلك. وحين كنت أهم بتقديم تقرير إلى دانييل وجيل عن أبي حمزة، كان الأول يبادر إلى طرح السؤال نفسه مرة بعد أخرى: هل كان أبو حمزة يحرِّض أتباعه على شن هجمات داخل إنجلترا؟

في الحقيقة لم يكن أبو حمزة يفعل ذلك. كان دائباً على تحريض أتباعه على مهاجمة كل الأمكنة الأخرى، باستثناء إنجلترا، وحدها إنجلترا. اقترب من هذا الخط الأحمر عدداً غير قليل من المرات حين حَرَّضَ أتباعه على مهاجمة كل من حاول الاستيلاء على الأرض الإسلامية. مرات كثيرة قال إن الجنود والمستعمرين البريطانيين في البلاد الإسلامية أهداف مشروعة.

غير أنني لم أكن قادراً قط على إعطاء دانييل الاقتباس الذي كان يعقد الأمل عليه. فطوال مدة مواصلتي التردد المنتظم على جامع فينزبوري بارك لم يُقْدم أبو حمزة على تجاوز ذلك الخط.

القائد الروحي

على الرغم من أنني كنت أذهب إلى فينزبوري بارك بانتظام مع خالد، فقد واصلت حضور صلوات ومحاضرات في الريشات الأربع أيضاً. كنت أفضل الأخيرة لأن أبا قتادة وأبا الوليد كانا بالغي الحصافة والصرامة في تعليمهما. لم يكونا أقل تطرفاً من أبي حمزة؛ ربما العكس تماماً في الحقيقة. غير أنهما كانا يقاربان المسائل على نحوٍ مختلف. كانا يكثران من الكلام عن القرآن والسنة والحديث. يكثران من الكلام عن الجهاد. ويكثران من الكلام عن العملية التي كان يتعين على أي إنسان أن يمر بها ليصبح مجاهداً.

علمتني تجربتي في المعسكرات أن من شأن هذه اللغة أن تكون شديدة الإغواء. فأبو قتادة وأبو الوليد كانا قادرين على التوغل في عقول أتباعهما أعمق مما كان أبو حمزة يستطيع أن يفعل في أي من الأوقات؛ كنت متأكداً من ذلك. لم يكن الأخير خطراً إلا بالقول. أما أبو قتادة وأبو الوليد فكانا كذلك بالفعل.

بالطبع، كنت أعرف أن أبا قتادة وأبا الوليد كانا خطرين لسبب آخر أيضاً. كنت أمرر لهما رسائل مباشرة من أبي زبيدة والمحيطين به في بيشاور. وذات يوم

تكلمت مع أبي زبيدة نفسه، وقد طلب مني أن أكلم أبا الوليد باسمه قائلاً: 'بلّغه أن الأمـــانة لم تصل قط. واطلُبْ منه أن يجلب الكتـــاب للإخـــوان في زيارته القادمة.'

كانت الرسائل على هذا النحو دائماً: مُشَفَّرة، غامضة. إلا أن فهمي أو عدم فهمي لها لم يكن مهماً. كان المهم هو أن الرسائل كانت تصل إلى الريشات الأربع مباشرة من الرجال المسؤولين عن إدارة معسكرات التدريب في أفغانستان.

أقله كنت أعتقد أن ذلك هو المهم. إلا أن دانييل وجيل لم يكونا موافقين على ذلك، على ما بدا، لأنهما طلبا مني بُعَيْد استيلاء أبي حمزة على جامع فينزبوري بارك أن أتوقف عن التردد على الريشات الأربع.

أصابني الذهول، وتملكني الغضب. كنت قد حقَّقْتُ تقدماً في الريشات الأربع. كنت قد نقلت رسائل من بيشاور إلى كل من أبي قتادة وأبي الوليد. كان ثمة رجال من معسكرات التدريب في الريشات الأربع. كان ذلك هو المكان الذي تحريت فيه على توش.

كان أبو حمزة ديماغوجياً (دجالاً)؛ كلباً عالي النباح، لا أكثر. جادلتُ دانييل وجيل وحاولت أن أبيِّن أن أبا قتادة كان أخطر من أبي حمزة، وإن بدا أقل سُعاراً. ولكنهما لم يكونا مستعدين للإصغاء إلى كلامي، كما لم يكونا مستعدين للتراجع.

تلقيت أوامري. من ذلك الوقت وصاعداً كان ترددي سيبقى محصوراً بجامع فينزبوري بارك.

لن تتاح لي قط فرصة معرفة السبب الكامن وراء قيام دانييل وجيل بمنعي من التردد على الريشات الأربع. ربما لأنهما كانا يشغّلان شخصاً آخر هناك ولم يعودا بحاجة إلى خدماتي. أو ربما كانا مخطئين ونقطة على السطر. وأنا الآن أعرف يقيناً أنني كنت على صواب فيما يخص أبا قتادة وأبا الوليد.

أبو قتادة الآن صاحب شهرة. جرى وصفه على أنه القائد الروحي للحركيين الإسلاميين في أوروبا. وهو الآن في السجن في إنجلترا بانتظار تسليمه إلى الأردن حيث حُكم غيابياً بجرم تدبير هجمات إرهابية.

كثيرون يعتقدون أن أبا قتادة كان داعية للقاعدة في لندن، وأن عدداً كبيراً من الشخصيات الأخطر في القاعدة كانوا من تلاميذه أو المتأثرين به. أشرطة فيديو مواعظه عُثر عليها في شقة محمد عطا، قائد هجمات 9/11.

وجمال بغال الذي اعترف لاحقاً بتدبير مؤامرة لنسف السفارة الأمريكية في باريس، قال إنه انجذب بداية إلى الإسلام المتطرف تحت تأثير أبي قتادة. ثمة روايات كثيرة تفيد بأن مقترفي جريمة تفجيرات مدريد حاولوا، حين وجدوا أنفسهم محاصرين في شقتهم من قبل الشرطة، أن يتصلوا مع أبي قتادة في السجن قبيل الإقدام على تفجير أنفسهم.

كذلك كان أبو الوليد على علاقة مع كل من البغال وعناصر تفجيرات مدريد، وإن بقي أقل شهرة جراء اختفائه في أفغانستان. يبدو أن أحداً لا يعرف أين هو الآن.

يقيناً نعرف الآن أين هو أبو زبيدة: إنه في خليج غوانتانامو. لدى إلقاء القبض عليه في 2002، كان يحتل المرتبة الثالثة على قائمة أمريكا للإرهابيين المطلوبين الأخطر، بعد بن لادن ونائبه أيمن الظواهري مباشرة. كان أبو زبيدة كبير دعاة بن لادن على صعيد التجنيد في منظمة القاعدة. كان مشرفاً على الخلايا النائمة في طول العالم وعرضه، وقد ظهر اسمه بالارتباط مع عدد من الهجمات الإرهابية.

فاطمة

كان دانييل وجيل شديدي الاهتمام بخالد، وقد ألحا علي طالبين أن أوثق علاقتي به. كنت أتحدث معه بانتظام وأذهب إلى فينزبوري بارك أسبوعياً.

كان خالداً وثيق الارتباط بكل من أفغانستان والجزائر. كثيراً ما كان يحدثني عن أحداث معينة قبل نشرها في الصحف بزمنٍ غير قصير؛ أحداث مثل مقتل أحد قادة الجماعة الإسلامية المسلحة في بيشاور، أو أحد تفجيرات السيارات المفخخة في الجزائر.

ذات يوم، قررت أن أُطْلع خالد على حقيقة قضائي لعام كامل في معسكرات التدريب الأفغانية. كنت واثقاً من أن من شأن ذلك أن يدفعه إلى المزيد من الانكشاف والبوح عن نفسه. وكنت على صواب: أعلمني خالد بأنه كان يستعد للذهاب إلى أفغانستان للتدرب في المعسكرات. أفاد بأنه كان عليه أولاً أن يحصل على الوثائق السليمة وبأنه كان موشكاً على تأمينها. كان له صديق كان عاكفاً على تزوير جواز سفر إيطالي باسمه، غير أنه كان بحاجة إلى صورة أولاً. كان يحاول العثور على عدسات لاصقة خضراء.

أدى الأمر إلى إثارة دَهْشة دانييل وجيل كثيراً. كانا على الدوام قادرين على تأكيد صحة الروايات الصادرة عن خالد حول اتصالاته الخارجية. أرادا أن يعرفا المزيد عنه، وأن يقفا على المدى الذي كان سيبلغه.

في أحد الأيام، جاء دانييل إلى اجتماعنا مصطحباً خطة. كانت الأجهزة ستستأجر مستودعاً. وكنت أنا سأبلغ خالداً بأني كنت أخزّن أسلحة في المستودع لشحنها إلى الجزائر وأسأله عما إذا كان لديه أي إخوان بحاجة إلى مكان لتخزين ذخائرهم، معبراً عن استعدادي لمساعدتهم عن طيب خاطر. وبعد ذلك، إذا ظهر خالد أو أي أحد غيره ومعه أسلحة، فإن الشرطة ستكون قادرة على إلقاء القبض عليهم متلبسين.

كدت أنفجر من الضحك. سألت: "ألا ترى أن من شأن ذلك أن يبدو مثيراً لشيء من الريبة؟"

بدا دانييل مرتبكاً. قال: "كيف ذلك؟"

شرحت له قائلاً: "لأن هؤلاء الزبائن أذكى من أن يخاطروا بما ينعمون به في إنجلترا. إن إنجلترا ملاذ آمن بالنسبة إليهم."

أومأ دانييل، غير أنه لم يكن قد استوعب معنى ما قلته على ما بدا بوضوح. تابعت. شرحت أن من شأن إنجلترا أن تكون مكاناً غبياً لتخزين الأسلحة بالنسبة إلى أي شخص، في جميع الأحوال. نقاط المراقبة الحدودية هي الجزء الأخطر في عمليات تهريب السلاح. في حين أن فرنسا، إسبانيا، ألمانيا، إيطاليا - موقعة جميعاً على اتفاقية شنغن التي أزالت نقاط المراقبة الحدودية فيما بينها، فإن بريطانيا ليست طرفاً في هذه الاتفاقية. فلماذا تقدم الجماعة على مخاطرة تخزين الأسلحة في مكان يواجه خطر حدود إضافية؟

لم أكن ملزماً بشرح هذا كله لدانييل. بات يتضح لي أكثر فأكثر أن الأجهزة البريطانية لم تكن تفهم شيئاً ذا شأن عن نمط عمل هذه الجماعات.

جاءنا دانييل بفكرة جديدة بعد بضعة أسابيع. قال: "أخْبِر خالداً بأن عندك قنبلة يدوية. سيشد الأمر انتباهه. ثم تستطيع أن تعرضها عليه. أراهن على أنه سيطلب الاحتفاظ بها، فتعطيه إياها."

سألته: "تريدني أن أزوِّد خالداً بقنبلة فعالة؟"

هز دانييل برأسه: "لا، بالطبع لا. لم أقصد قنبلة فعالة."

أدركت ما كان دانييل يريدني أن أفعله. كان يريد أن أعطي خالداً قنبلة يدوية مجهزة من الداخل بنوع من أنواع أجهزة التعقب. ثم لا تلبث الأجهزة أن تتمكن من الاهتداء إلى المكان الذي تخزن فيه الجماعة أسلحتها. يا له من جنون كامل!

سألته: 'هل تمزح؟'

أجاب دانييل: 'لا، لماذا؟'

'لأن من شأن هذا أن يكشف الغطاء عني مباشرة، فأتعرض، ربما، للقتل.'

'لماذا؟ أعني قد لا يعمدون إلى فتح القنبلة اليدوية.'

يا للحماقة! 'بل سيفعلون بالتأكيد بطبيعة الحال؛ سيفككون القنبلة. ففي أفغانستان تعلمنا كل شيء عن الرمانات؛ كيف نفخخها، كيف نفككها. بل وقد تعلمنا كيف نشرب السوائل منها! أوَتظن أن أي شخص يعرف كل شيء عن المتفجرات من شأنه أن يمتنع عن فتحها ورؤية ما فيها؟'

إن مدى ضآلة معلومات خبراء الإرهاب المزعومين هؤلاء عن عدوهم كان مثيراً لقدرٍ غير قليل من السخرية. لم يكونوا يدركون، على ما يبدو، أن هؤلاء - الإرهابيين - أناس جدّيون حائزون على قدرٍ كبير من المعارف، لا مجرد أطفال يتلهون بأسلحة دُمّيَوية مخصصة للعب.

ومما زاد غضبي من خطط دانييل أنها كشفت لي عن مدى استعداد الأجهزة لتعريضي لمخاطر فعلية. لم تبدُ هذه الأجهزة عميقة التفكير بأي أمر، أو ساعية إلى تعلم المزيد عن آليات عمل العدو. كانت تترك أوهامها تجمح بها، فتعرضني أنا لأفدح الأخطار.

شيئاً فشيئاً، أصبحت أدرك أنني كنت ألعب بالنار. بطبيعة الحال، لم يكن أي من دانييل أو جيل يعرف الخطر الذي كنت فيه، لأن أياً منهما لم يكن يعرف شيئاً عن الحوار الذي كنت قد أجريته في اليوم الذي سبق يوم المداهمات. لم يكونا يعرفان أن أميناً، ياسين، وحكيماً كانوا، جميعاً، يعرفون أنني انحرفت وتورطت بالعمل لصالح جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE).

كنت أعرف أنني كنت أعرِّض نفسي للخطر منذ اللحظة التي ذكرت فيها اسمَيْ أمين وياسين أمام خالد. غير أن الاسمين كانا بطاقة دعوتي. كان الاسمان قد مكّناني من التوغل مباشرةً في قلب المعسكرات. فما إن وصلت إلى خالدان حتى اكتشفت أن كثيرين من الإخوان هناك كانوا قد أُخضعوا للاختبار أشهراً قبل السماح لهم بالدخول. أما بالنسبة إلي فلم تكن قد استغرقت سوى يوم واحد.

وها أنا ذا الآن في وضع مرعب. الأمر الذي كان يمكّنني من أداء مهمتي بوصفي جاسوساً بات يزيد احتمالات تعرضي للانكشاف باطراد.

ذات يوم، اتضح على نحوٍ مخيف كم كنت قريباً من حافة الهاوية. حَدَّثني خالد عن أن بعض أصدقائه في بلجيكا كانوا قد زاروا أميناً وياسين في السجن. لم يقل شيئاً أكثر من ذلك، مما بيَّن أن أحداً لم يكن قد رأى وجود أي رابط هذه المرة. ولكن ما الذي كان يمكن أن يحدث في المرة القادمة، أو في المرة التي بعدها؟

كانت حياتي في لندن مضغوطة زاخرة بالإجهاد كما لم يسبق لها أن كانت قط في المعسكرات. جزئياً، كنت محبطاً لأن نشاطاتي صارت تبدو بلا أي هدف. حين كنت أعمل مع جيل في بلجيكا، كان من الواضح على الدوام أننا كنا نعمل في سبيل تحقيق شيء ما. فجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) كان يسعى للقيام بحملة اعتقالات والإجهاز على شبكة الجماعة الإسلامية المسلحة.

أما في لندن، فلم يكن الأمر واضحاً. شعرت كما لو كنت موجوداً فقط للمراقبة. أسبوعياً كنت أذهب إلى فينزبوري بارك، وأسبوعياً كان دانييل يطرح علي الأسئلة نفسها. كنت أعكف على معاينة الصور، صورة بعد أخرى، دون أن

يتمخض ذلك عن أي شيء. والمرة الوحيدة التي زوّدتُهم فيها بهدف مهم حقاً - علي توش - طيّروه من أيديهم.

في لندن شعرت بالحاجة إلى الراحة والاسترخاء أكثر من أي وقتٍ مضى. كنت أقضي فترات طويلة من الوقت في كوفنت غاردن في الأماسي، مستمتعاً باحتساء الخمر في المطعم الكائن في الطابق الأرضي والاستماع إلى عزف العازفين. كنت أعرف أن دانييل لم يكن يريد أن أذهب إلى هناك؛ كان يريدني أن أصادق العرب وأتحرى المتطرفين. غير أنني بقيت أيضاً مصراً على أن تكون لي حياتي الخاصة.

ذات يوم، قررت الاتصال بفاطمة. كنت مشغولاً خلال أشهري الأولى في لندن، مما كان قد جعلني أؤجل موضوع الاتصال. أما الآن فوجدتني راغباً في التحدث معها، في رؤيتها ثانية. أدرت الرقم الذي كانت قد زودتني به، رقم صديقتها.

ثمة كانت معجزة صغيرة. لحظة رفع الصديقة للسّماعة، كانت فاطمة في الغرفة في اللحظة ذاتها. كانتا تحزمان الأشياء وتوضّبان الشقة لأن صديقتها كانت ستنتقل في اليوم التالي. لو كنت قد انتظرت مدة أربع وعشرين ساعة أخرى، لما كنت قد وجدتها ثانية.

بدأنا من حيث كنا، فاطمة وأنا، قد توقفنا في باريس. وحين كنا ننخرط في الكلام لم نكن نعرف كيف نخرج منه. صرت أتصل بها يومياً بعد ذلك، ودفعت آلاف الجنيهات فواتير تلفونات.

دفتر الملاحظات

لعل الأمر الذي فاجأني حول دانييل هو أنه لم يسألني قط عن معسكرات التدريب في أفغانستان. كان جيل قد طرح علي بعض الأسئلة وأنا في باريس، أما

دانييل فلم يُبدِ أي اهتمام بالمطلق. الشيء الوحيد الذي استطعت التفكير به هو أن الأجهزة البريطانية لم تكن، بالضرورة، مفتقرة إلى جواسيس تابعين لها داخل أفغانستان. تذكرت الدليل الذي كان قد أوصلني إلى خالدان. فكرت بالطباخين. بالسائقين. كان من شأن شراء أحد هؤلاء أن يكون رخيصاً جداً بالنسبة إلى الأجهزة.

لم يكن دانييل شخصاً شريراً؛ بدا فقط عاجزاً عن فهم ما كان الغرب يواجهه. مبكّراً، كان هو وجيل قد سألاني عما إذا كنت قد سمعت بعبارة القاعدة في المعسكرات، عما إذا كنت أعرف ما تعنيه. كنت أعرف ما تعنيه: القاعدة تعني "الأساس" باللغة العربية. غير أنني لم أكن قط قد سمعت العبارة في المعسكرات. سألاني عما إذا كنت قد سمعت عن أسامة بن لادن. حين قالا عنه كلاماً أكثر قليلاً عنه، أدركت أنهما كانا يشيران إلى الشخص نفسه الذي كان الصبيان الكنديان، حمزة وأسامة، قد تحدثا عنه في خالدان. سألني دانييل عما إذا كان ابن لادن قائد الجهاد، وقد تعين عليَّ أن أفسر له أن بن لادن بالذات لم يكن مهماً. فالجهاد ليس حركة سياسية، أوضحت له. إن الجهاد ليس هو الجيش الجمهوري الإيرلندي، الآي آر ايه IRA أو عصابة بادر - ماينهوف. الجهاد فرض من الله. لا ضرورة لأي وساطة بشرية.

بدا جيل متفهماً لهذا الكلام أفضل من دانييل. بالطبع، كان الفرنسيون قد عاشوا قروناً مع العالم الإسلامي عند بابهم الخلفي. إلا أن جيل كان أيضاً قادراً على فهم لغة الإسلام. كان يسأل أسئلة مهمة عن خُطَب أبي قتادة وأبي حمزة. لم يكن يتردد في مطالبتي بتوضيح إحدى النقاط اللاهوتية أو الفقهية، أو بشرح معنى سورة معينة. أما دانييل فلم يبدُ مهتماً إلا بالخطر المباشر الذي كان هؤلاء الرجال ينطوون عليه بالنسبة إلى البريطانيين.

بعد البداية الصعبة ما لبثتْ علاقتُنا، دانييل وأنا، أن أصبحت جيدة. أحياناً كنا نخرج معاً لاحتساء كأس أو تناول وجبة. كان دائم اللطف والتهذيب معي؛

مرة، أقْدم حتى على مواساتي حين نشب شجار بيني وبين فاطمة. غير أني كنت أقول له الشيء نفسه كل ما التقينا: 'اسمع يا دانييل، أحس كما لو كنت لا أفعل أي شيء هنا في إنجلترا. لا أشعر بأنني ذو فائدة.'

كان يرد 'بالطبع أنت ذو جدوى.' كان يضيف إن الأجهزة كانت تراكم جميع أنواع المعلومات الاستخباراتية المختلفة بفضلي أنا. غير أن الأمر لم يبدُ كذلك بالنسبة إليّ في أي وقت. لم يقم هو أو جيل بإشعاري عن المكان الذي كانت المعلومات التي كنت أوفرها تحتله في الصورة الأكبر.

ذات يوم، نطقت بالحقيقة أخيراً. لفظت الجوهرة أو البحصة قائلاً: 'أعتقد يا دانييل أن هناك أشياء كثيرة أخرى أستطيع أن أفعلها. أما ونحن في هذا الوضع، ليس ثمة أي عمل نقوم به.'

نظر دانييل إلى الطاولة وهز برأسه. قال: 'أنت على حق. نعم أنت على حق.'

بالطبع، ثمة كانت نجاحات، أيضاً. كنت أتفقّد صندوق البريد في ساحة الطرف الأغر مرة في الأسبوع، وجدته واصلاً في إحدى المرات: طرد من جامعة بيشاور. فتحت المغلف، فوجئت إذ رأيت دفتر ملاحظاتي من دارونتا، وفيه جميع المعادلات والتعليمات الخاصة بصنع القنابل والعبوات الناسفة.

لدى صعودي إلى الحافلة عائداً إلى البيت ذلك اليوم، كنت منتشياً. كان هذا شيئاً كبيراً. لم تكن المعلومات عن المتفجرات وحدها هي التي جعلت الدفتر بالغ الأهمية، ثمة كانت جملة الملاحظات التي كان عبد الكريم قد خربشها في الهوامش. طالما دأب جيل على سؤالي عن عبد الكريم منذ عودتي من أفغانستان، وكنت أعرف أن جيل كان شديد الرغبة في الحصول على الدفتر ليتمكن من الاهتداء إلى أنموذج يمثل خط عبد الكريم.

عندما التقيت دانييل وجيل في اليوم التالي، لم يستطيعا أن يكفا عن الابتسام. كنت قد قلت لهما غير مرة إن الدفتر كان سيصل، إلا أنني لا أعتقد أنهما كانا يصدٌقانني مئة بالمئة، إلى أن أصبح الدفتر فعلاً أمامها.

جوامع موسكو كانت مراتع للجواسيس. كنت أعرف هذه الحقيقة لأن دانييل وجيل نادراً ما كانا يبدوان متفاجئين بالمعلومات التي كنت أجلبها لهما من فينزبوري بارك. لم يؤد هذا إلا إلى مضاعفة خيبتي. لماذا كانا يريدانني أن أتجسس على أبي حمزة إذا كان لديهما آخرون يفعلون ذلك سلفاً؟

على الدوام كنت خارج الأشياء في لندن، وكان الأمر صعباً بالنسبة إلي. في بروكسل، كنت في مركز القلب من عمليات الجماعة الإسلامية المسلحة؛ كنت أستطيع أن أقدم إلى جيل ما لم يكن غيري قادراً على تقديمه. وبطبيعة الحال كان هذا أكثر صواباً في أفغانستان. أما في لندن فلم أكن سوى واحد من عدد كبير من الناس المراقبين منتظرين حصول شيء - أي شيء.

في أحد الأيام بالغت في التحدي. حين سألني دانييل عما إذا كنت قد رأيت أي شخص مثير للريبة في فينزبوري بارك ذلك الأسبوع، قلت له إنني كنت قد رأيت رجلاً من الواضح أنه يعمل للام آي - 5 (MI5). بدا دانييل مصعوقاً. 'وما الذي يجعلك تعتقد ذلك؟' قال مطالباً.

صارحته. كان الأمر متعذر التفسير. لم يكن هناك سوى دلائل صغيرة: التوتر في وجهه، حركات عينيه، الترددات الصغيرة في خطوه.

ركز دانييل نظره عليَّ بحدة. 'ما شكل هذا الرجل؟'

'لستَ بحاجة لأن أصفه لك،' قلت مبتسماً.

أخذ دانييل نفساً عميقاً. أستطيع أن أقول إنه كان غاضباً. قرّب وجهه من وجهي، وقال: 'لا تلعب هذه الألاعيب معي. قل لي ما شكله. فوراً.'

'لا أستطيع ذلك فوراً. سيتعين علي أن أعود لألقي نظرة عليه. فأنا أرى مئات الوجوه في كل أسبوع.'

عرفت أن دانييل لم يقتنع على الإطلاق، غير أنه لم يكن قادراً على فعل أي شيء. قال: 'حسناً، أريدك أن تركز على هذا الرجل وتعود الأسبوع التالي مصطحباً وصفاً تفصيلياً.'

يوم الجمعة التالي اخترت أكثر أعضاء الجمهور براءةً من حيث المظهر، وقد كان مهاجراً مغربياً من الواضح أن لا علاقة له بالإسلام المتطرف. حين وصفته لدانييل شعر الأخير بقدرٍ كبير من الارتياح.

لم أكن أعرف هويات الجواسيس الناشطين في فينزبوري بارك؛ إلا أنني كنت أعرف أنهم موجودون. وكنت أريد إفهام دانييل وجيل أنهما لم يكونا قادرَيْن على خداعي.

اليمن

بعد أشهري القليلة الأولى في لندن، بدأنا: دانييل، جيل وأنا، نجتمع في شقق بدلاً من الفنادق. ثمة كانت شقق مختلفة كثيرة كنا نتناوب عليها. إحداها كانت قريبة من إلَفَنْتْ آند كاسل. ثانية على ضفة ريجنتس بارك، ثالثة في مركز لندن. جميع الشقق كانت مفروشة بأثاث بديع، ولكنها مغفلة تماماً. أحياناً فقط كنت أرى قلم أحمر شفاه أو زجاجة عطر ما بعد الحلاقة في الحمام.

ذات يوم، وصلت لأجد شخصاً ثالثاً في الشقة مع دانييل وجيل. كان صغير السن، لا أكثر من خمس وعشرين سنة. قدَّمَه جيل باسم ألكساندر. ثم شرح لي أن ألكساندر هذا كان سيحل محله في الاجتماعات من الآن فصاعداً. فوجئت؛ كنت قد عملت مع جيل لسنواتٍ طويلة ولم يكن قد خطر لي أنه كان سيتوقف يوماً عن إدارتي. في البدء بدا ألكساندر خجولاً، متحفظاً. عَزَوتُ الأمر لصغر سنه وحداثته في الوظيفة.

بعد بضعة أسابيع، رحل دانييل أيضاً. كان بديلُه رجلاً متوسط العمر يُدعى مارك. ومارك هذا كان هادئاً ولكن ليس بطريقة ألكساندر نفسها. فمارك كان أكبر سناً، وبدا مصقولاً. جاء دانييل ومارك إلى الاجتماعات معاً لبضعة أسابيع قبل أن يتولى مارك المهمة إلى أجل غير مسمى.

بعد اجتماعه الأخير معي، دعانا دانييل جميعاً - أنا، مارك، جيل، وألكساندر - إلى عشاء فاخر جداً في مقهى النهر (الريفر كافيه River Café). جاء مارك مصطحباً شخصاً آخر في ذلك المساء، امرأة صغيرة جداً من حيث السن تدعى بني. عَرَّفَ كلاً منا على الآخر وقال لي إن بني تعمل معه وإنهما، كليهما، كانا سيتقاسمان المسؤولية عني.

في غضون أسابيع قليلة، كنت قد التقيت ثلاثة مسؤولين جدد وفقدت اثنين من القدامى. لاحقاً، اكتشفت السبب على ما أعتقد: كنت قد نُقلت من الام آي 6 (MI6) المسؤول عن الأمن البريطاني دولياً، إلى الام آي 5 (MI5). الذي يضطلع بمهمة متابعة قضايا الأمن الداخلي. كنت لا أزال جاسوساً فرنسياً، غير أن البريطانيين كانوا يزيدون من تحكمهم بقضيتي، لعل هذا هو السبب الكامن وراء رحيل جيل أيضاً.

كانت تلك سهرة رائعة في مقهى النهر. تأثرت بلفتة دانييل الكريمة التي تجلَّتْ باختيار مثل هذا المطعم الجميل. أعتقد أن تلك كانت طريقته في التعبير عن احترامه لي. وفيما نحن جالسون مستمتعين بالنظر إلى التيمز غارقين في الكلام والضحك، شعرت بالفرح للمرة الأولى منذ أشهر. كان كُلُّ التوتر - بيني وبين دانييل، بيني وبين جيل، بين جيل ودانييل - قد تلاشى.

قبل أن يغادر، أخذني دانييل جانباً ليودعني. شكرَني على عملي ثم مد يده. قال: آسف للانتهاء. كان العمل معك ممتعاً جداً.

ممتعاً. تأملت ما كان قد نطق به وأنا أصافحه للمرة الأخيرة. بدت المتعة كلمة غريبة لوصف تعاوننا المؤسساتي. غير أنني كنت واثقاً من أن دانييل أراد، بصدق، أن يقول كلاماً ودياً.

لم يطرأ أي تغيير ذي شأن مع التحاق مارك، بني، وألكساندر بالركب. كنت أقوم بالعمل نفسه: أذهب إلى فينزبوري بارك، أعاين الصور، أذهب إلى فينزبوري بارك، أعاين الصور.

أما فينزبوري بارك فكان قد تغير كثيراً خلال الأشهر القليلة التي انقضت على زيارتي الأولى. كان الجمهور قد بات مؤلفاً، على نحوٍ شبه كلي، من الشباب، من الحانقين الساخطين. كان الحرس القديم قد غاب كلياً تقريباً. وكان ثمة أعداد كبيرة من الزبائن الجدد. اثنتان من غرف الطبقة الأرضية من الجامع كانتا قد حُولتا إلى مهجعين. حقيقة لم يكن يعرفها إلا القليل جداً، غير أن بابَيّ هاتين الغرفتين كانا أحياناً يُتركان مواربَين قليلاً فأجدهما كذلك في زياراتي المسائية. وعندما نظرت إلى الداخل في إحدى المرات رأيت أكياس النوم مفروشة على الأرض.

ظل أبو حمزة يُرغي ويُزيد كما كان قد درج على أن يفعل دائماً، غير أنه كان قد غَيَّرَ تركيزه قليلاً. كانت الجزائر قد أصبحت موضوعاً بالغ الحدة، حتى في فينزبوري بارك. فمذابح الجماعة الإسلامية المسلحة كانت أكبر وأكثر دموية مع كل شهر جديد. أحياناً كنت أسمع أناساً يتجادلون حول الأمر همساً.

وعلى أي حال فإن الجماعة الإسلامية المسلحة والجزائر لم تكونا موضوع أبي حمزة الرئيسي. فأبو حمزة هذا كان مهووساً باليمن. كان يؤمن بأن الثورة الإسلامية الكوكبية كانت ستندلع من اليمن. دائماً كان يقول: "ستَخْرُجُ الثورة الإسلامية من رحم عدن." إذا ما جرى اعتماد الشريعة في اليمن فإن سائر أنظمة الحكم العلمانية كانت ستتهاوى مثل حجارة الدومينو.

حاولت أن أشرح هذا كله لمارك وألكساندر. أبّديا نوعاً من العجز عن فهم سبب تعلق أبي حمزة، وهو مصري، الشديد باليمن. حدثتهما عن المهدي، المخلّص العظيم عند المسلمين، الذي كان سيقلب العالم إلى مجتمع إسلامي كامل الأوصاف، مثالي، قبل يوم القيامة، يوم البعث. ثمة آيات تعلن مجيء المهدي. وإحدى هذه الآيات: النار الكبرى في عدن. لم يكن أبو حمزة صاحب طموح سياسي فقط، كان ذا نظرة قيامية، رؤيوية ملغزة أيضاً.

بدا ألكساندر شديد الاهتمام بشرحي، أكثر من مارك بكثير. كان مارك أكثر حصافة بما لا يقاس من دانييل ـ كان ذلك واضحاً من البداية ـ غير أن معرفته بالإسلام، مثل نظيرتها عند دانييل، كانت ضحلة جداً. كان مُخيِّباً لي حين كان مارك يعود التفافاً ليطرح ذلك السؤال الأبدي المتمثل بـ: 'ولكن هل قال شيئاً، أي شيء، عن هجمات وشيكة في إنجلترا؟' بعد أن أكون قد بذلت جهداً كبيراً وأنا أشرح هذه الأفكار المهمة.

خلال هذه الأشهر وجدتني مقترباً أكثر من خالد، وغائصاً أعمق في حلقة أبي حمزة. غالباً، كنت أذهب إلى فينزبوري بارك في الأماسي لحضور المناقشات الدينية مع جماعة أصغر. أحياناً، كان أبو حمزة يعرض علينا أشرطة فيديو دعائية من الجزائر.

ذات يوم، قام خالد بتقديم واحدنا للآخر. قال لأبي حمزة إنني كنت في معسكرات التدريب قال أبو حمزة: 'ما شاء الله! ما شاء الله!' وهو يمعن النظر فيَّ بعينه الوحيدة، ثم أضاف: 'هل تستطيع أن تقابلني في المكتب بعد الصلاة؟'

'بالطبع' قلت.

بعد انتهاء الصلاة وقفت خارج المكتب الصغير على الطبقة الأولى. بعد قليل، أطل أبو حمزة مع أحد الصبية برفقته. أشار بكلابه ففتح الصبي الباب له. جَلسْنا على الأرض وطلب أبو حمزة من الصبي أن يعد لنا شاياً.

سألني أبو حمزة عن المعسكرات التي كنت فيها، وأخبرته عنها. بدا شديد الاهتمام. ثم ملت إلى الأمام قليلاً وقلت بصوت تآمري: "التقيت شخصاً يعرفك."

رفع أبو حمزة حاجبيه قليلاً.

قلت له: "تدربت مع أسد الله. حدثني عن النيتروغليسرين وعن كيفية فقدك ليديك."

أبعد أبو حمزة نظره وهمس، وهو لا يزال يتحاشى النظر إليّ: "أرجوك أيها الأخ! لا تُطلع أحداً على تلك القصة."

وَعَدْتُه بألا أفعل مطمئناً، فبدا منفرجاً. ما لبث الصبي أن عاد مع الشاي. جلسنا بضع لحظات ثم قام أبو حمزة معلناً انتهاء اللقاء.

لحظة مغادرتي، قال موجهاً كلامه إلي: "نحمد الله الذي أرسلك إلينا. قد نحتاج مساعدتك ومعارفك ذات يوم."

لم يكن دانييل وجيل قد قالا أي شيء إضافي عن دفتر المتفجرات قبل رحيلهما. وكنت شديد الرغبة في معرفة ما كان هذا الدفتر قد آل إليه. وهكذا أقدمت أخيراً، بعد شهرين من الزمن، على سؤال مارك.

قال: "سيتعين عليك أن تسأل ألكساندر. مازال عند الفرنسيين."

أحسست بشيء ولو قليل من المرارة في نبرة صوته. من البداية، كنت قد أدركت أن العلاقة بين الأجهزة الفرنسية ونظيرتها البريطانية لم تكن مريحة تماماً. وقبل رحيله، كان دانييل قد أخبرني بأن البلدين لم يكن قد سبق لهما قط أن أدارا عميلاً سوية بهذه الطريقة. من الواضح أن العملية كانت لا تزال تشكو من بعض التجاعيد. مضى عدد آخر من الأشهر قبل أن يبادر الفرنسيون إلى تسليم الدفتر للبريطانيين.

لاحقاً، أبلغني مارك بأن الأجهزة البريطانية كانت قد استعرضت جميع المعادلات والصيغ واختبرت كلاً منها. أفاد بأن الخبراء صُعقوا بمدى تعقيد وحذلقة بعض المعادلات. ثم أضاف: "أتعلم أن اختصاصيينا قالوا لي إنهم تعلموا عدداً من الأشياء من ذلك الدفتر."

مرض فقدان الذاكرة

مع انقضاء الأشهر، كانت ثمة سلسلة من حلقات الخيبة المتراصفة مع حلقات النجاح. بمساعدة خالد وسمير كنت أزداد قرباً من أبي حمزة. كنا نتسامر في مكتبه بعد الصلاة أيام الجمع، وكنت سأراقب قيامه، هو وحاشيته، بعدِّ أكوام الأوراق النقدية التي كانوا قد حصّلوها من الزكاة. لم أصدّق قط أن الأموال كانت تذهب إلى الفقراء.

مرة طلب مني أبو حمزة خدمة له. أراد مني أن أبتاع له هاتفاً إضافياً وجهاز فاكس لمكتبه. كانت الأجهزة (الأمنية) أكثر من مستعدة لتلبية الطلب عن طيب خاطر.

الجميع - مارك، ألكساندر، بني - كانوا يلحون في مطالبتي بالاقتراب أكثر من خالد. دعاني مرة إلى بيته، والجميع رأوا أن علي أن ادعوه إلى بيتي بالمقابل. رفضت الرأي بحزم ووضوح. لم أكن أريده أن يعرف مكان إقامتي.

إلا أننا بقينا قادرين على استجرار نهر من المعلومات من خالد على أي حال. في أحد الأيام ضاع منه هاتفه الخليوي وطلب مني إعارته هاتفي. أعرته الهاتف الذي كان دانييل قد زودني به، وأجرى اتصالاً مع الجزائر. استعاره عدداً من المرات بعد ذلك، واستخدمه لإجراء الاتصالات مع الجزائر وسائر أرجاء القارة الأوروبية. كانت الأجهزة قادرة على تسجيلها جميعاً.

ذلك هو الحد الذي كنت أستطيع أن أصل إليه مع خالد. لم يكن الأمر مقتصراً على خوفي أنا، بل كان يتجاوزه إلى عدم استعداد الأجهزة لتمكيني من

الانخراط في أشياء من شأنها أن تجعلني قادراً على الوصول الفعلي. قال لي خالد في أحد الأيام أن أبا حمزة كان قد نظم دورة تدريبية قتالية لعدد قليل من الإخوان، واقترح مشاركتي في التدريب لعرض بعض المهارات التي كنت قد اكتسبتها في المعسكرات.

حين أطلعت مارك وألكساندر على اقتراح خالد، امتقع لون وجهيهما. ثم منعاني منعاً باتاً من الانخراط في أي عمليات تدريبية جسدية مع رجال من فينزبوري بارك. كان محظّراً كلياً على أي عميل أن يتقاسم المهارات مع إرهابيين. وأوصياني بالاعتذار متحججاً بالانشغال بأمور أخرى إذا ما عاود خالد الطلب.

ذات يوم جمعة، صادفت خالداً خارج فينزبوري بارك، لم يكن سمير معه. حين سألته عنه، بدا منزعجاً. قال لي إن سميراً كان قد عثر على عمل وانتقل إلى سْوِنْدُون. كان خالد غاضباً لأن سميراً كان قد اختار حياة الراحة، بدلاً من متابعة الجهاد في سبيل الأمة الإسلامية.

حين أطلعت مارك على ما حصل مع سمير، ابتسم. ثم سألني: 'هل كنت تعلم أن سميراً شاذ جنسياً؟' التمعت ومضة في عينه. أضاف: 'ليس الإسلام كثير التعاطف مع الشاذين جنسياً.'

في تلك اللحظة وذلك المكان أيقنت أن الأجهزة كانت قد ابتزت سميراً عبر التهديد بالفضح، فجندته للعمل معها.

ذات يوم جمعة، طلب مني مارك وألكساندر ألا أذهب إلى فينزبوري بارك. دون زيادة؛ اكتفيا بنصحي بعدم الذهاب. وبعد يومين، قال خالد إن الشرطة كانت قد داهمت عدداً من المنازل في لندن واعتقلت بعض الإخوان. بعد ذلك لم أسمع أي مزيد عن الأمر.

أفغانستان

كان قد مضى على وجودي في لندن أكثر من سنة، كنت شاعراً بالملل، غارقاً في بحر من السأم. كنت أفعل الشيء نفسه أسبوعاً بعد أسبوع ـ فينزبوري بارك، صور، فينزبوري بارك ـ وقد بدت العملية دونما أي هدف بالمطلق. وكنت واقعاً في حب فاطمة، إلا أنني لم أكن أراها إلا نادراً لأنها كانت مقيمة في ألمانيا.

بدأت أشعر بالقلق إزاء احتمال استمرار حياتي على هذا النحو إلى الأبد إذا لم أبادر إلى وضع حدٍّ لها، فبادرت، خلال أحد لقاءاتي مع مارك وألكساندر، إلى الإلحاح على مناقشة تقاعدي. كلاهما قالا إنهما لم يكونا صاحبي قرار في الأمر، وطمأناني إلى أن أحداً كان سيتصل بي لبحث الموضوع قلت لهما إني كنت سأبقى متوقفاً عن العمل إلى أن أتكلم مع المسؤول كائناً من يكون.

بعد ثلاثة أيام، اتصل بي جيل. لم أكن قد تحدثت معه منذ عشاء مقهى النهر. رتب موعداً للقاء معي ومع مارك في لندن بعد بضعة أيام. في اللقاء سألني جيل عن طلبي، وقلت له إنني كنت لا أزال أريد الأشياء نفسها التي كان قد سبق لي أن طلبتها خلال اجتماعنا الأول في بروكسل: هوية جديدة، جواز سفر، ومساعدة على إيجاد وظيفة. قلت إنني راغب في الزواج ووضع حد لجاسوسيتي.

تبادل جيل ومارك النظرات ثم بدأ جيل بالكلام. قال: 'نحن لم نفاتحك بعد حول الأمر، إلا أننا كنا نفكر بإعادتك إلى أفغانستان.'

أفغانستان. أعجبتني الفكرة. كان من شأن العملية أن تكون أكثر إثارة مما كنت أقوم به الآن. من المحتمل أيضاً أن أُزوَّد هذه المرة بهدف معقول ومقبول. قد أتمكن فعلاً من تحقيق شيء.

سألت: 'متى؟'

لاحظت تقاطع نظرات جيل ومارك للحظات وجيزة. قال جيل: 'ربما العام القادم؟'

في تلك اللحظة أيقنت أن الرحلة إلى أفغانستان لم تكن مرشحة لأن تتحقق أبداً.

كان لي لقاء آخر مع جيل بعد ثلاثة أيام، في باريس، لمزيد من الحديث عن تقاعدي.

قلتله: 'سأبقى في أفغانستان سنة. لا أكثر. وحين أعود، أريد أن أتقاعد وأتزوج فاطمة وأعيش معها في ألمانيا.'

بقي جيل صامتاً عدداً من الثواني، ثم تكلم قائلاً:

'لستُ صاحب قرار حول ذلك. غير أني أريدك أن تناقش كل هذا مع رئيسي غداً.'

لم يكن قد سبق لجيل أن أتى على ذكر رئيسه (معلّمه) من قبل.

قلت له: 'أنا لا أريد أن أتحدث مع معلمك. أريد أن أتحدث معك أنت. أنت من وعد برعايتي، من البداية، عندما أتيت إليك في بروكسل للمرة الأولى.'

تجنب جيل النظر إليّ. اكتفى بهز رأسه. من الواضح أنه، هو الآخر، لم يكن سعيداً. وقفنا كلانا تصافحنا وتوادعنا.

عندها، لم يخطر ببالي أن يكون هذا هو الحوار الأخير لي مع جيل.

'ثمة أخ يرغب في مقابلتك.'

الكلمات فاجأتني. كنت مع خالد في فينزبوري بارك، وكانت صلاة الجمعة قد انتهت للتو.

سألت: 'من؟' ونبضات قلبي بدأت تتسارع. أرعبني احتمال أن يكون أحداً من بروكسل، شخصاً مطلعاً على ما كان قد سبق لي أن فعلته.

تابع يقول: 'شخص تعرفه. شخص من الجبال. من معسكرات التدريب.' تباطأت نبضات قلبي قليلاً، غير أني بقيت قلقاً، مثلما كان يحصل كلما بدا عالماي موشكين على التصادم. طلب خالد مني أن أذهب إلى الريشات الأربع يوم الجمعة التالي. كانا سينتظرانني هناك.

عندما أبلغت المسؤولين عني، أثرت اهتمامهم الشديد. طلبا مني إطالة اللقاء أطول مدة ممكنة، والخروج مع العنصر الجديد إلى خارج المبنى ليتمكنوا من التقاط صور واضحة.

عندما وصلت إلى الريشات الأربع، لم أستطع الاهتداء إلى خالد. جلست قريباً من الجدار الخلفي للقاعة وأديت الصلاة. حين نهضت لاحظت خالداً واقفاً مع عبد الحق، ذلك المغربي من خالدان. ذلك الذي كان يعيش مع أخته في لندن. ذلك الذي استعمل الجي بي اس GPS أولاً.

كان غريباً جداً أن يُرى هنا، في باحة مزدحمة من باحات لندن. قمت بعودة سريعة إلى حياتي في المعسكرات: مذاق الطعام، أصوات إطلاق الرصاص، الأرض القاسية، الباردة التي كنت أنام عليها ليلياً. اقتربت وصافحت عبد الحق. ابتعد خالد تاركاً إيانا وحدنا نحن الاثنين.

قال بما يشبه الهمس: 'يجب ألا يرانا أحد معاً.' ثم طلب مني أن التقيه يوم الجمعة التالي في أثناء صلاة الجمعة في ريجنتس بارك. وافقت.

عندما التقيت بني وألكساندر بعد ظهر ذلك اليوم، وجدتهما شديدي الاهتمام والحرص. كانا قد التقطا مئات الصور لعبد الحق فيما كنا خارجين من الريشات الأربع، وراغبين في التقاط المزيد في ريجنتس بارك.

أمضيت مع عبد الحق ساعتين كاملتين يوم الجمعة التالي. اقتعدنا أحد مقاعد الحديقة ونقل إلي تحيات كل من ابن الشيخ وأبي بكر. قال لي إن أسد الله كان قد تعرض لإصابة بليغة في إحدى التجارب التفجيرية وفقد إحدى يديه.

أفاد عبد الحق بأنه كان في لندن منذ ستة أسابيع، وكان عائداً إلى الباكستان في غضون بضعة أيام. سألني عما إذا كنت أنا أيضاً أخطط للعودة إلى المعسكرات.

قلت له: 'بلى. ربما خلال عام أو نحوه.'

كان عبد الحق الشخص الوحيد من المعسكرات الذي رأيته في لندن. غير أنني اطلعت على المزيد من الأخبار عن أبي بكر من ألكساندر. جاء الأخير في أحد الأيام إلى اجتماعنا وبادر إلى رمي إحدى صور أبي بكر على الطاولة أمامي. سأل: 'هل تعرف صاحب الصورة؟' كان واضح الانفعال.

قلت: 'إنه أبو بكر.' كنت متلهفاً لمعرفة المزيد.

اتسعت ابتسامة ألكساندر فصارت جسراً بين أذنيه وهو يقول: 'صحيح! للتو ألقينا عليه القبض في الأردن.'

ذلك هو آخر شيء سمعته عن أبي بكر منذ ذلك الوقت.

الجماعة الإسلامية المسلحة (الجيا GIA)

زاد سعار الحرب الأهلية في الجزائر خلال صيف 1997. وردت تقارير جديدة في الصحف عن سلاسل من المذابح على نحو يومي. كانت أصداء الصراع تتردد في فينزبوري بارك. حتى بعض أولئك الذين كانوا قد هجروا الرِّيش الأربع بسبب تأييد أبي حمزة للجماعة الإسلامية المسلحة بدؤوا

يتعرضون للاستبعاد. الخطابات التي كانت تتم همساً فيما مضى راحت تنطلق بأصوات عالية وعلى الملأ.

مع حلول شهر آب/أغسطس، كانت المذابح قد بلغت حدوداً جديدة من الضخامة. وأواخر الشهر، قتلت الجماعة مئات الأشخاص في هجوم شنته على سيدي موسى، خارج مدينة الجزائر. وصل عناصر الجماعة في ساعة متأخرة من الليل وواصلوا عمليات الذبح حتى الصباح. أحرقوا جثثاً وتركوا وراءهم رؤوساً مقطوعة مبعثرة في أرجاء القرية. وعند الرحيل، أخذوا معهم عدداً من الفتيات سبايا.

بدأت الشكوك تراود حتى خالداً. ظلَّتْ الشائعات تتطاير زاعمة أن الجيش الجزائري كان قد اقترف المذابح من أجل تعبئة الناس ضد الجماعة، غير أن خالداً كان يجد قدراً مطرد التزايد من الصعوبة في تصديق مثل هذه الشائعات. ثم ما لبث أن أبلغني بأنه كان قد علم أن الجماعة كانت قد باتت مخترقة من المخابرات، من جهاز الأمن السري. أفاد بأن الجماعة قد تعرضت للإفساد، وقد قرر هو سحب تأييده لها.

كان أبو حمزة متحلياً بما يكفي من الحصافة لرؤية ما كان حاصلاً. وعلى الرغم من أنه كان قد دأب على حشد أتباعه باسم الجماعة الإسلامية المسلحة ولصالحها في وقتٍ سابق من السنة، ما لبثت أن أصبح الآن كثير التردد والتجريبية. صار كلامه عن الجزائر في الخطب والمواعظ أقل فأقل على نحوٍ مطرد.

ذات ليلة، قام أبو حمزة بدعوة مجموعة صغيرة منا إلى مكتبه للتحدث عن الجماعة الإسلامية المسلحة. طلب من الجميع الجلوس ثم رفع سماعة الهاتف وأدار رقماً. أخيراً جاء صوت عبر الخط. ثم وضع أبو حمزة السماعة جانباً.

وشرح لنا أن الصوت عائد لأحد قادة الجماعة الإسلامية المسلحة الميدانيين في الجزائر.

كان أبو حمزة عنيفاً مع القائد تلك الليلة، وطلب منه بإلحاح تفسير أعمال الجماعة. كان القائد يتكلم عبر هاتف خليوي وكان من الصعب سماع كل ما كان يقوله، غير أنني فهمت ما فيه الكفاية. أفاد بأن القرويين كانوا من مؤيدي جبهة الإنقاذ الإسلامية. كانت الجماعة هي الممثلة الحقيقية للإسلام. وبالتالي فإن القرويين كانوا قد كفوا عن أن يكونوا مسلمين.

وبعد بضعة أسابيع، دانَ أبو حمزة الجماعة علناً، تماماً كما كان أبو قتادة قد فعل قبل عددٍ غير قليل من الأشهر. ومثل أبي قتادة، أعلن عن اعتزامه التوقف عن دعم الأنصار.

أكثر من أي شيء آخر، كان هذا الحادث قد برهن لي أن أبا حمزة كان دجالاً. كانت أهدافه تميل حيث تميل الرياح. كان بحاجة إلى الجماعة لإغواء أتباعها وإبعادهم عن أبي قتادة. أما الآن فقد بات يرى أن من شأنه أن يخسر أكثر مما يربح عبر الاستمرار في تأييد الجماعة كان جوهر القضية بالنسبة إلى أبي حمزة متمثلاً بالزكاة، بالأموال التي كان يجمعها كل أسبوع بعد صلاة الجمعة. تزايُد أعداد المصلين كان يعني تعاظم المبالغ النقدية المراكمة.

كنت شبه متأكد من الجهة التي كانت تحصل على المال. لم يسبق للجزائر أن كانت ذات أهمية بالنسبة إلى أبي حمزة. فهذا الأخير لم يكن يهتم إلا باليمن.

كان البريطانيون سينتظرون أعواماً قبل الانقضاض على أبي حمزة. لم يتم اعتقاله حتى عام 2004، وفقط لأن الأمريكيين طلبوا تسليمه إليهم. كان أبو حمزة دائباً على العمل لإقامة معسكر للتدريب في أوريغون.

كانت مشكلات أبي حمزة بادئة منذ عام 1998 حين ارتبط اسمه باختطاف ستة عشر سائحاً غربياً في اليمن. مقابل إطلاق سراح الرهائن، قيل أن المختطفين طالبوا بإطلاق سراح خمسة بريطانيين محتجزين في اليمن منذ بضعة أسابيع بتهمة السعي لشن هجمات إرهابية في البلاد. أحد هؤلاء البريطانيين الخمسة كان نجل أبي حمزة.

أوائل 2006 دين أبو حمزة في بريطانيا على جرائم منها التحريض على القتل وإثارة الأحقاد العنصرية. حُكم عليه بالسجن مدة سبع سنوات. مازالت أمريكا تأمل في تسلمه تمهيداً لمحاكمته في الولايات المتحدة أيضاً. وبين أشياء أخرى، يعكف مكتب التحقيقات الاتحادي (الاف بي آي FBI) على تقصي حقيقة المزاعم القائلة بأن أبا حمزة قد حَوَّلَ مبالغ مالية إلى صديقه وأستاذه أبي خبب المصري، مدربه السابق على المتفجرات في دارونتا.

أبو حمزة وأبو قتادة كانا، كلاهما، رئيسين لتحرير الأنصار في لندن. إلا أن الحقيقة هي وجود، أقله، رئيس ثالث لتحرير هذه النشرة أيضاً. كان اسم الأخير رشيد رمضا. جرى اعتقاله في لندن آخر سنة 1995. اتهمه الفرنسيون بكونه أحد مدبري تفجيرات مترو باريس في الصيف السابق، كان الفرنسيون شديدي الإلحاح على المطالبة به، غير أن البريطانيين ظلوا يماطلون عقداً كاملاً من الزمن قبل تسليمه. تسبب التأخير الطويل باحتكاك شديد بين أجهزة الاستخبارات الفرنسية ونظيرتها البريطانية. كان الفرنسيون محبطين كثيراً ومستائين من البريطانيين إلى درجة أنهم فكروا في إحدى المراحل باختطاف أبي حمزة من الشارع وإعادته إلى فرنسا لمحاكمته. كان الفرنسيون متأكدين من أن البريطانيين لم يكونوا مستعدين لفعل ذلك ذاتياً في أي من الأوقات.

أخيراً جرى ترحيل رشيد رمضا إلى فرنسا بداية عام 2006. وفي آذار/مارس 2006 دين بالتآمر الإجرامي في تفجيرات مترو باريس. وقد حُكم

بالسجن لمدة عشر سنوات وقد يحاكم بمزيد من تهم القتل ومحاولات القتل، كما فيما يخص تلك الهجمات.

كان رشيد رمضا يعمل في أوروبا باسم "إلياس" المستعار. وهو الاسم الذي كنت قد سمعته مرات كثيرة في بروكسل متردداً على شفاه كل من أمين وياسين وطارق الرجل الذي كنت سأكتشف لاحقاً أنه علي توش.

كأس العالم

في أحد الأيام، جاء ألكساندر إلى اجتماعنا ومعه صورة وحيدة. لم يكن هذا مألوفاً؛ درج هو ومارك على إغراقي، عموماً، بأكوام من الصور، كل مرة. وضع الصورة على الطاولة فعاينتُها باهتمام. بدا صاحب الصورة مألوفاً، غير أنني لم أستطع الكشف عن السبب.

قال ألكساندر: 'إنه عبد الكريم من المعسكرات.'

'لا.' حركت رأسي. كنت شبه متأكد من أنها لم تكن له. صحيح أن لصاحب الصورة بعض الملامح المشتركة مع عبد الكريم. ولكن الرجل لم يكن هو نفسه.

في الأسبوع التالي جاء ألكساندر مصطحباً صورة مختلفة.

قلت: 'ذلك هو عبد الكريم.' هذه المرة، تعرفت على صاحب الصورة مباشرة، حتى قبل أن يقوم ألكساندر بوضع الصورة على الطاولة.

قال: 'صحيح.' انتشرت ابتسامة عريضة على وجهه. 'أمسكنا به. اسمه فريد ملوك.'

ذُهلت، وانتظرت مزيداً من الإيضاح من ألكساندر.

قال: 'ساعَدْتَنا كثيراً بشأن هذا.' كان ذلك كل شيء. لم نتكلم عن عبد الكريم بعد ذلك مطلقاً.

اعتُقل فريد ملوك أوائل آذار/مارس 1998، خلال سلسلة من المداهمات حول بروكسل بهدف تفكيك إحدى خلايا الجماعة الإسلامية المسلحة. منذ عام 1995، كان ملوك على القائمة الفرنسية للمجرمين المطلوبين للعدالة. دين غيابياً بفرنسا في 1997 بوصفه ذا علاقة بتفجيرات مترو باريس.

لم يستسلم فريد ملوك حين دُوهم منزلُه. بادر، بدلاً من ذلك، إلى إطلاق النار على الشرطة، صمد مدة زادت على اثنتي عشرة ساعة قبل أن تتمكن الشرطة، أخيراً، من اعتقاله. تحدثت الصحف عن قيام الأمن بتفتيش المنزل والعثور على جوازات سفر مزورة، صواعق ومواد أخرى مستخدمة لصنع المتفجرات. قيل إن فريد ملوك والآخرين الذين أوقفوا معه كانوا يخططون لهجوم على دَوّري مباريات كأس العالم لكرة القدم بباريس ذلك الصيف.

لاحقاً في الربيع، قامت قوات الأمن الأوروبية بمداهمة خلايا عائدة للجماعة الإسلامية المسلحة في طول القارة وعرضها. ثمة كانت اعتقالات - بلغ المجموع نحو مئة - في بلجيكا، فرنسا ألمانيا، إيطاليا، وسويسرا، قيل إن المداهمات حالت دون هجوم كبير على مباريات كأس العالم.

في 1999 حُكم فريد ملوك بالسجن لمدة تسع سنوات. دين بعدد من التهم منها تخزين الأسلحة وإدارة حلقة اتجار رئيسية بجوازات السفر وتذاكر الهوية المزورة لصالح الجماعة الإسلامية المسلحة في أوروبا.

مرت مباريات كأس العالم في تلك السنة دون أي منغِّصات. تابعتُ أكثرها والسماعة على أذني. لم يسبق لي أن كنت لاعب كرة قدم جيداً في أي وقت، ولم يسبق لي أن اهتممت كثيراً بالمباريات وهي معروضة على شاشات التلفزة. غير أن فاطمة كانت شديدة الولع بكرة القدم وكنا نحب أن نشاهد المباريات معاً، وإن كانت مسافات شاسعة تفصل بيننا.

أحياناً كنا، مارك وأنا، نتحدث في السياسة. كان مارك ذكياً جداً، وكنت أستطيع أن ألمس أنه كان يحاول أن يفهم ما كان يواجهه ويتصدى له. غير أنه كان أيضاً يعاني من بقع سوداء كبيرة. أعتقد، مثلاً، أنه كان يفهم لماذا شكل الغزو السوفيتي لأفغانستان منعطفاً بالغ الأهمية بالنسبة إلى المسلمين. كان يفهم أن المجاهدين، في تلك الحالة، كانوا يقاتلون دفاعاً عن أرضهم.

إلا أنني حاولت أن أبين لمارك أن البلدان الإسلامية لم تكن عرضة لغزو الجيوش الأجنبية فقط. بل كانت تتعرض وبالقدر نفسه من الكثافة لغزو الأموال، الدعايات والأسلحة الأجنبية. جميع حكام بلدان الشرق الأوسط وشمال أفريقيا ليسوا إلا دمىً غربية، وجميع حكام آسيا الوسطى ليسوا إلا دمى روسية.

قلت له: 'لن تتحرروا مما تطلقون عليه اسم الإرهاب ما لم تتقلعوا من أرضنا ومن سياستنا.'

بقي مارك بادي الارتباك، فحاولت أن أشرح له الأمر بعبارات أوضح.

قلت: 'انظروا إلى ما فعلتموه في الجزائر. للمرة الأولى شهد الجزائريون انتخاباً ديمقراطياً، وحين أدرك الغرب أن الحصيلة لن تعجبه، سارعتم إلى سد جميع الأبواب.'

اعترض مارك: 'لم يكن الخطأ خطأنا. الجيش الجزائري هو الذي قطع الطريق على تلك الانتخابات.'

سألته: 'وماذا فعلتم أنتم؟ لا شيء. لم تفعلوا شيئاً. والآن تتفاوضون معهم كما لو كانوا نظاماً شرعياً.'

طرح علي سؤال: 'وما الشيء الآخر الذي نستطيع فعله؟ لابد لنا من التفاوض مع أحدٍ ما.'

أمين

ومن ثم وَقَعَتْ الواقعة في أحد الأيام. الأمر الذي طالما ذُبْتُ خوفاً منه على امتداد ثلاث سنوات منذ مغادرتي بروكسل حدث. أخيراً نجح تاريخي السابق في اللحاق بي. أقله اعتقدتُ أنه فعل.

كنت مغادراً فينزبوري بارك ذات ليلة ومتوجهاً نحو محطة المترو حين أوقفني ثلاثة رجال. جميعاً كانوا صغاراً في السن، في العشرين أو دونه. أحاطوا بي وقطعوا طريق تقدمي. على الفور شعرت بأنني كنت في خطر.

'السلام عليكم!' قال أحدهم. لم يكن مبتسماً، وكذلك الآخران.

'عليكم السلام!' أجبت محملقاً في بؤبؤ عينه.

حمل الرجل ورقة وهو يقول: 'يريد أمين رؤيتك.'

كاد قلبي يتوقف. أخذت الورقة وفتحتها. كانت ثمة ملاحظة مخربشة بالعربية: 'اتبع الإخوان. سيوصلونك إليّ. أمين.'

حافظت على هدوئي. ونظرت إلى عين الرجل. قلت: 'أنا لا أعرف أي شخص بهذا الاسم: أمين. أخطأتُم. يجب أن تكونوا باحثين عن شخص آخر.' أعدت الورقة إليه.

'نحن لم نخطئ. أمين كان في الجامع هذه الليلة، وكان واقفاً على مسافة بضع أقدام منك. وقد حددك لنا.'

رحت أُحرك رأسي يميناً وشمالاً: 'أنا آسف. ولكنكم تقعون في خطأ. أنا لا أعرف من يكون هذا.'

قلت ذلك ودفعتهم جانباً شاقاً طريقي إلى محطة المترو.

أحاسيسي كلها استنفرت مئة بالمئة تلك الليلة. كنت متنبهاً لكل شخص، لكل حركة من حولي. راقبت داخل المحطة. راقبت من كانوا في القطار. راقبت المارة وأنا ذاهب سيراً إلى البيت. راقبت كل شيء وكل شخص كي أتأكد من أن أحداً لم يكن يتعقبني.

ما إن دخلت البيت حتى أقفلتُ الأبواب وتمددت على السرير، غير أنني لم أستطع النوم، قمت وارتديت ملابسي من جديد وخرجت. مشيت حول كتلة المباني السكنية، ثم حول الكتلة الثانية من جميع الجهات للاطمئنان إلاّ أن أحداً لم يكن يرصدني. لم أجد شيئاً، فعدت إلى شقتي.

مستلقياً دون نوم تلك الليلة فكرت بالاحتمالات الواردة. بالطبع، كان حدسي الأول هو افتراض خروج أمين من السجن ومجيئه للعثور علي في لندن. كان سينتقم. كان سيأمر بإعدامي جزاء خيانتي.

غير أن احتمالاً آخر كان وارداً أيضاً، احتمالاً لم يكن أقل إثارة للرعب. ربما كان الرجال قد عمدوا إلى استخدام الاسم كما كنت أنا قد استخدمته مع خالد وابن الشيخ، رمزاً ذا دلالة بالنسبة إلى الأعضاء. كانوا يعرفون أنه اسم لم أكن لأتردد في الاستجابة له.

إذن، ما الذي كانوا يريدونه؟ لم أستطع أن أفكر إلا باحتمال واحد: كنت مدعواً إلى القيام بمهمة. أمضيت في لندن ما يقرب من عامين، وقد يكون الوقت قد حان. لم أكن قد تكلمت مع أبي زبيدة أو أي أحد غيره منذ نحو سنة، إلا أن هذا لم يكن يعني شيئاً. مهمتي بالنسبة إليهم كانت محصورة بالمراقبة والانتظار.

مع أي من الاحتمالين كنت أواجه مشكلة حقيقية. تقلّبْتُ في الفراش الليل كله. كنت أغفو ثم أستيقظ بعد دقائق في حال من الذعر. لسنوات، كنت قد نجحت في الاحتفاظ بدورين شديدي الاختلاف: جاسوس ومجاهد. غير أن كل شيء كان الآن ينهار فوق رأسي. ليتني عرفت: ما العمل؟

كان مارك، ألكساندر، بني ـ جميعاً ـ غاضبين مني حين أطلعتهم على ما كان قد حصل. أرادوا أن يعرفوا لماذا لم أتبع الرجال. بالطبع، لم أستطع التفسير. اكتفيت بزعم أنني حدست بأن الأمر لم يكن آمناً. أرادوا مني أن أهتدي إلى الإخوان من جديد في فينزبوري باركوأن أجاري عرضهم.

قال مارك: "سنزودك بعناصر أمن."

بالطبع، كان واضحاً أن أحداً منهم لم يكن مبالياً بالمطلق بأمني أنا. لم يكن قد سبق لهم أن فعلوا. ولكن لا بأس. لم يكن ثمة أي قدرٍ من الأمن كان يستطيع أن يقنعني بصواب السير خلف أولئك الرجال.

لم أكن أعرف سوى شيء واحد: كنت بحاجة إلى الرحيل. كان لابد لي من مغادرة لندن والمسارعة إلى وضع حد لحياتي جاسوساً.

إفريقيا

كنت شديد التوتر في الأسابيع التي أعقبت تواجهي مع الرجال الثلاثة خارج فينزبوري بارك. كنت موصولاً كل الوقت، متنبهاً لكل شيء ولأي شخص من حولي. واصلت الذهاب إلى فينزبوري بارك أيام الجمعة مع تجنبه في سائر الأيام والأوقات الأخرى؛ لم أكن أريد مصادفة أولئك الرجال مرة أخرى. كنت أيضاً أحرص على تجنب خالد قدر استطاعتي، وحين كنت ألتقيه كنت أتحفظ في الكلام.

جافاني النوم ـ بات الاسترخاء مستحيلاً. حتى فاطمة لم تستطع تهدئتي، لأنني لم أستطع أن أطلعها على ما كان قد حصل. لم أرد إثارة قلقها. لذا رحت أذهب إلى كوفنت غاردن كل ليلة. كنت أعرف أنني آمن في كوفنت غاردن. لم يكن من المحتمل أن يبحث عني أحد هناك، وكان ثمة حشود في كل مكان على أي حال. كنت أجلس في المقهى ساعات متواصلة، استمتع بسماع الموسيقا واحتساء

الخمر. الانقباض في صدري كان يخف قليلاً، ويصبح دوران عقلي أبطأ مما هو في باقي الأوقات. لعل هذا كان أفضل الأشياء التي كنت أستطيع أن أفعلها.

ومن ثم، في لحظة خاطفة، انقلبتْ حياتي رأساً على عقب. مرة أخرى. في السابع من شهر آب/أغسطس 1998 تعرضت السفارتان الأمريكيتان في دار السلام ونايروبي لهجومين لم يكن يفصل بينهما سوى دقائق قليلة. القتلى بالمئات؛ الجرحى بالآلاف.

تابعت تعاقب أحداث القصة ذلك الصباح على قناة السي ان ان .CNN صور الدمار تناوبت مع خبراء مزعومين حاولوا تفسير ما حدث ولماذا. طيّروا عقلي من راسي. لم يكونوا يفهمون شيئاً. دأبوا على استعمال كلمات وتعابير مختلفة، ولكنهم انتهوا، جميعاً، إلى قول الشيء نفسه: لم يحدث هذا إلا لأن المسلمين يكرهوننا.

غير أن الخبراء لم يكونوا الأكثر إزعاجاً لي. فقد تمثل أكبر أسباب إزعاجي بإحدى صور المشهد في نايروبي. قطاعات واسعة من السفارة كانت قد انهارت وكان الموقع في حالة فوضى. كان ثمة جنود أمريكيون في كل مكان، ولكنهم لم يكونوا بالزي العسكري. لم يكن أحد قد توقع حدوث هذا، وحين حدث هرع الجميع إلى الحلبة. كان الجنود يحملون بنادقهم ولكنهم كانوا لا يزالون في ملابسهم المدنية.

ثم شاهدت حدوث أمر مرعب. لم يستغرق سوى لحظة خاطفة. ثمة كان رجل أفريقي يخوض في الركام. بدا منبهراً. كان إما ضحية أو باحثاً عن واحدة. غير أن جندياً أمريكياً أبعده دفعاً. استطعت رؤية الجندي وهو يصرخ معنِّفاً الرجل ومهدِّداً إياه. على الرغم من أن السفارة كانت قد طارت، فإن الأمريكي كان لا يزال يتولى حراستها.

مرضت من الصورة. مئات الأفارقة كانوا قد قضوا في ذلك اليوم، لا بسبب ذنب اقترفوه بل لأنهم وُجدوا مصادفة في المكان حين هوجم الأمريكيون. لم يكونوا سوى أضرار جانبية، لا أكثر. ماتوا لأن الأمريكيين كانوا هناك في المقام الأول. إلا أن الجندي الأمريكي لم يكن يبالي. كل ما كان حريصاً على القيام به هو الاهتمام بالضحايا الأمريكيين، بالسفارة الأمريكية. لا شيء آخر كان ذا أهمية.

بعد ظهر ذلك اليوم فعلت شيئاً لم يسبق لي أن فعلته من قبل. أغلقت هاتفي الجوال. حين زوّدَني دانييل به طلب مني أن أحمله معي كل الوقت. وكنت قد فعلت. كان مفتوحاً دائماً، تحسباً لاتصال أحد المسؤولين معي، أو أحدهم من بيشاور، أو حتى خالد الذي كانت اتصالاته الهاتفية مسجلة دائماً. أما في ذلك اليوم فقد أقدمت على إغلاقه وتركه مرمياً على الطاولة بجانب سريري.

مشيت ساعات طويلة عبر لندن من عصر ذلك اليوم حتى ساعات متقدمة من السهرة. كل ما كنت قد حاولت إبقاءه بعيداً عن عقلي عاد واندلق دفعة واحدة. بدا كما لو أن سداً عملاقاً تعرض للانهيار. ذكريات ما كنت لأتصور أنها وقعت، كانت قد عادت فجأة. أبواي يتشاجران. أخي يُقتل بالرصاص في باحة المدرسة. داني التيس وأذني وإدوار وحكيم وأمين وياسين ولوران وطارق واجتماعي الأول مع جيل والرحلة بالسيارة إلى المغرب والمداهمات ومن ثم الباكستان وأفغانستان والمدافع والقنابل والشيشان وابن الشيخ وأبو بكر وأسد الله وأبو خبب وتفجير السفارة في إسلام أباد والتئام شملنا، جيل وأنا، في استانبول. صورة بعد صورة بعد صورة، مثل مجموعات الصور الضوئية التي كان جيل وألكساندر ومارك ودانييل وبني يعرضونها علي دائماً. ولكن كلاً من هذه الصور كانت خلافاً لحال الصور الضوئية، تعني شيئاً بالنسبة إلي، حتى وهي تمر برأسي وتغير شكلها. جميعاً بدت نُذُر شؤم ونَحْس الآن.

عندما عدت إلى الشقة في ساعة متأخرة من تلك الليلة كان جرس الهاتف يرن. رفعتُ السماعة.

'لقد اتصلا بي.' كان ذلك صوت فاطمة.

'ومن اتصل بك؟' سألت.

قالت: 'مارك وألكساندر. أخفقا في العثور عليك. لم يكن جوالك معك. يريدان أن تتصل بهما فوراً.'

لم يكن قد سبق لأي شخص من الأجهزة أن اتصل بفاطمة. كنت قد زوّدت جيل بعنوانها سابقاً، غير أنني لم يخطر لي احتمال إقدامهم على استخدامه. أدركت مباشرة أن الأمر يجب أن يكون خطيراً، فاتصلت برقم مارك وتركت رسالة. عاود الاتصال على نحوٍ شبه آني، ورتبنا موعد لقاء صباح اليوم التالي. استطعت أن ألمس من صوته أنه كان شديد التوتر.

حين وصلت إلى الشقة، وجدت أن مارك وألكساندر كانا هناك قبلي. جلسنا وبدأ ألكساندر الكلام. قال: 'قد يبدو هذا مفاجئاً، ولكننا قررنا، بسبب تفجيرات الأمس، التعجيل ببرنامج سفرك إلى أفغانستان.' ثم دفع عبر الطاولة تذكرة سفر جوية نحوي وهو يقول: 'ستغادر إلى داكار في وقتٍ لاحق من اليوم.'

لم يكن أي جانب من جوانب الأمر منطوياً على مفاجأة استثنائية بالنسبة إلي. شعرت بقدرٍ لا يصدق من الراحة. كانوا يستطيعون إرسالي إلى أي مكان، شرط تمكيني من مغادرة لندن.

جاء دور مارك في الكلام. قال: 'نريدك أن تعود إلى شقتك وتحزم ما أنت بحاجة إليه في البداية. أما الباقي فسنرسله إليك.' ثم مال قليلاً إلى الأمام. وهمس: 'اترك كال ما من شأنه أن يربطك بلندن - أرقام هواتف، عناوين، صور، كل شيء.'

عند تلك اللحظة بات الأمر واضحاً: كان البريطانيون يريدون أن يتخلصوا مني. كُنْتُ مفقوداً يوم حصول التفجيرات. في الحقيقة، يجب أن يكونوا قد توجسوا من كوني عضواً في خلية نائمة وقد اختفيت لمتابعة تنفيذ مهمة معينة. بالطبع لم أكن قادراً على لومهم. كنت قاتلاً محترفاً، عالي التدريب. منذ البداية لم يكونوا قد وثقوا بي؛ كنت أعرف ذلك. كنت قد عاندتهم وضغطت عليهم في بعض الأمور، مثل مسألة الأموال. ثمة أشياء أخرى رفضت القيام بها. وأفترض أن موقفي السياسي لم يكن هو الآخر يحظى بإعجابهم. ربما كان الوضع أسهل لو كنت قد رأيت العالم عبر مقولتي الخير والشر البسيطتين.

يجب أن يكون البريطانيون قد احتاروا في تحديد الجانب الذي كنت أقف في صفه فعلاً. بالطبع، أنا كنت على يقين بشأن الجانب الذي أقف في صفه؛ كنت عميلاً مزدوجاً. كنت قد عشت في العالمين كليهما، وفهمتهما كليهما. غير أنني لم أكن، على الإطلاق، أعمل بأوامر ابن الشيخ أو أبي زبيدة وأنا في لندن. ذلك كان واضحاً بالنسبة إليَّ على الدوام، وإن لم يكن كذلك بالنسبة إليهم.

في النهاية، كانت لدى البريطانيين، كما أعتقد، صورة في عقولهم عما ينبغي لأي جاسوس أن يكونه، وأنا لم أكن قد استطعت في أي وقت من الأوقات أن أكون عاكساً لتلك الصورة. أنا لم أكن جيمس بوند المناضل في سبيل الملكة والوطن. أعتقد أنني أربكتهم دائماً. أما الآن، في اليوم التالي لنسف اثنتين من السفارات، ربما أرعبتهم أيضاً.

طلب مني مارك أن أترك كل ما من شأنه أن يربطني بلندن، فناولته الهاتف الجوال الذي كان دانييل قد زوّدني به قبل عامين.

'لا، ماذا تفعل؟ تستطيع الاحتفاظ به' قال دافعاً الهاتف نحوي. 'خذه معك إلى داكار. تستطيع تزويد المسؤول عنك هناك به.'

حاول البريطانيون أن يتذاكوا، غير أنهم لم يستطيعوا قط أن ينجحوا في ذلك. سألت مارك: 'أنتم لا تثقون بي مئة بالمئة، أليس كذلك؟'

بالطبع، كنت أعرف الجواب سلفاً، كما كان هو أيضاً يعرفه. طوال بقاء الجوال معي، كان البريطانيون سيبقون قادرين على تحديد مكاني وتعقبي. صحيح أنهم كانوا يريدون أن يتخلصوا مني، ولكنهم كانوا أيضاً راغبين في معرفة المكان الذي أكون فيه بدقة في كل دقيقة من دقائق النهار والليل.

عندما وقفنا استعداداً للذهاب، رتبت مع ألكساندر موعداً للقاء كي يوصلني إلى المطار. كان واضحاً أنني لن أرى مارك مرة أخرى، فصافحته وقلت له وداعاً. ثم ذهبت إلى الشقة للملمة حوائجي.

في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، نهلت عدداً من كؤوس الشراب في المطار مع ألكساندر قبل مغادرتي. بين الثلاثة كنت أكثر ميلاً إلى ألكساندر. كان بالغ الجدية رغم حداثة سنه، وكنت أستطيع أن أرى بوضوح أن عمله كان ذا أهمية بنظره.

في أحد المنعطفات قلت له: 'أرجو ألا أكون قد ضيعت وقتك!'

فهم ألكساندر ما كنت أقوله. كان يدرك أنني لم أكن سعيداً في لندن. علّق قائلاً: 'أنت لم تضيع وقتنا. أستطيع أن أؤكد لك ذلك. ليتك ترى كدسة الملفات التي نظمناها بالاستناد إلى كل ما أفدتنا به. إنها أطول مني.'

أشعَرني بالامتنان إذ قال ذلك.

المشهد الرابع

ألمانيا

داكار

التقيت فيليب في المطار بداكار. قبل مغادرتي للندن، كان ألكساندر قد أبلغني بأن فيليب كان الشيف، المعلم. وهو وجيل، كلاهما، كانا يرفعان تقاريرهما إلى فيليب. ولكن حتى لو لم يكن ألكساندر قد أخبرني بذلك، لكنت قد عرفت أن فيليب هذا كان شخصاً ذا أهمية. كان متوسط العمر، ولم يكن في وجهه ما بدا غير عادي. غير أنني استطعت أن أرى على يديه وساعديه ندوباً؛ ندوباً حقيقية من شجارات حقيقية. أعجبني الرجل.

في الطريق إلى الفندق لاحظت شيئاً - صوته. علمت أنني كنت قد سمعته، ولكن تذكُّر المكان الذي سمعته فيه تطلب مني عدداً من الدقائق. ثم وجدته: كان فيليب هو الرجل الذي كنت قد تحدثت معه في الليلة التي أعقبت المداهمات، حين كنت في المفوضية على الحدود الفرنسية. كان قد كلمني بلطف بالغ في تلك الليلة، وكان قد ناداني باسمي الأول. تذكرت ذلك بقدرٍ كبيرٍ من الوضوح لأن تلك كانت المرة الأولى التي يكون فيها شخص من الأجهزة، أي شخص من أي أجهزة، على هذا المستوى من اللطف.

في هذا اليوم، اكتفى فيليب بنشر ابتسامة حين سألته عما إذا كان هو الرجل الذي كان قد اتصل بي في تلك الليلة. وبعد عدد من الأشهر كان سيقر بأن حَدْسي كان صحيحاً.

بُعيد وصولي إلى داكار، قام بِلْ كلنتون بشن غارات جوية في السودان وأفغانستان انتقاماً للهجمات على السفارتين. استهدف الأمريكيون قواعد إرهابية قريبة من خوست التي لا تبعد عن خالدان، وجلال أباد سوى بضعة أميال، والقريبة جداً من دارونتا. لم أستطع أن أصدق أن يكون جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) عازماً على إعادتي

إلى أفغانستان بعد ذلك، غير أن فيليب طمأنني أن المهمة كانت قائمة. ألحقني بناد رياضي وعين لي مدرباً شخصياً كي أتمكن من استعادة لياقتي البدنية وطلب مني التنعم بانتظار مبادرة الجهاز إلى وضع خطته موضع التنفيذ. أفاد بأنه كان كثير السفر، ولكنه كان سيتوقف في داكار عدداً من المرات شهرياً للاجتماع معي.

أقمت في فندق فاخر في داكار وكنت أحصل على مبلغ فاحش من المال أسبوعياً. آلاف الدولارات، أكثر مما كنت أحصل عليها في أي وقت من قبل. في البداية لم أفهم. وبالأحرى لم أهتم في الحقيقة. كنت متركزاً على العودة إلى العمل الميداني. من نواحٍ كثيرة، كنت أتطلع نحو أفغانستان بشوق. فبعد نحو عامين من السأم في إنجلترا، بدا النشاط المكثف للمعسكرات بالغ الإثارة. كذلك كنت أتطلع بشوقٍ إلى رؤية ابن الشيخ والآخرين بعد كل هذه المدة.

وعملي جاسوساً، هو الآخر، بدا الآن أكثر إلحاحاً. أخيراً كان العالم قد بدأ يهتم بأفغانستان. في وقتٍ سابق من السنة كان بن لادن قد أصدر فتواه ضد الولايات المتحدة، وكان الغرب قد أدرك من الهجمات على السفارتين مدى خطورة التهديد في الواقع. أخيراً، كان الناس سيضطرون إلى الاهتمام بما كان يحصل داخل المعسكرات.

غير أن فيليب ما لبث، بعد شهرين من وصولي إلى داكار، أن أبلغني بأن المهمة كانت قد شُطبت. لم أُفاجأ مئة بالمئة. منذ المرة التي كان جيل قد ذكرها لي في لندن، راودني الشك حول احتمال تحقق المهمة الفعلي. إلا أنني كنت، مع ذلك، راغباً في معرفة السبب.

'لقد اكتشفوا حقيقتي، أليس كذلك؟' نادراً ما استطعت سحب أي معلومات من فيليب، غير أنني كنت أتمكن من اكتشاف مدى إصابتي للهدف من خلال المبادرة إلى تقديم اقتراح معين. إلا أن تعابير وجهه لم تشِ بشيء هذه المرة.

قال لي: 'هناك جميع أنواع الأسباب. بعضها يخصك أنت، وبعضها يخص أشياء أخرى في هذا العالم الواسع.'

كان ذلك أقصى ما كنت سأتوصل إليه تفسيراً لما حصل، لإلغاء المهمة.

بعد بضعة أيام، أعطاني فيليب جواز سفري المغربي، واستعاد جواز السفر الفرنسي الذي كان جيل قد زوَّدَني به في باريس. الخاتم الأخير في الجواز المغربي كان ذلك الذي حصلتُ عليه في داكار قبل أكثر من عامين، قبل ذهابي إلى لندن. كان استعمال الجواز مستحيلاً. كنت سأتعرض للاعتقال الفوري في مطار داكار إذا ما تم اكتشاف بقائي في البلد كل هذه المدة. غير أن فيليب طمأنني حين عبرت عن اعتراضي. كان الجهاز (جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي، الدي جي اس إي DGSE) سيؤمن لي جوازاً جديداً في غضون أسبوعين.

بالطبع، لم يظهر جواز السفر في أسبوعين، أو في أسبوعين آخرين بعدهما. كان فيليب يطمئنني إلى أن هذه لم تكن سوى عمليات احتجاز ثانوية، وإلى أن جواز السفر كان سيصل في أي يوم. ظل فيليب يزودني بكميات عبثية سخيفة من المال كل أسبوع.

ما لبث الكيل أن طفح معي وأبلغتُ فيليب بأنني كنت راغباً في العودة إلى ألمانيا للزواج إذا لم أكن متوجهاً إلى أفغانستان. كنت قد طلّقت الجهاز. ولكن الجهاز لم يكن قد طلّقني وأطلق سراحي، وكان فيليب يحاول إقناعي بتغيير رأيي: في كل لقاء لنا كان يسألني عما إذا كنت متأكداً من رغبتي في الزواج من فاطمة. وفي كل مرة كنت أؤكد له تصميمي. أخيراً، قالها صراحةً، في أحد الأيام: 'أعتقد أنك تقترف خطأ.'

'ما الذي تعنيه؟' سألت.

'أعتقد أنك ستتزوج وتتقاعد ومن ثم، بعد ثلاثة أشهر، ستشتاق إلى عملك وستكون راغباً في العودة.'

'أستطيع الجمع بين الأمرين. أستطيع أن أعمل وأنا متزوج.'

هز فيليب برأسه. قال: 'لا. ليس أي عميل متزوج إلا نصف عميل.' ثم ابتسم ونظر إلى خاتم زواجه. 'ثق بي، أنا أعرف.'

انتظرت شهوراً في داكار. وكل ما رأيته كان فيليب يطمئنني إلى أن الجهاز كان عاكفاً على ترتيب الأمر مع الألمان فيما يخص حياتي الجديدة هناك. غير أن شيئاً لم يتحقق.

بعد خمسة أشهر، كنت قد اكتفيت وشبعت وعوداً. كان فيليب قد أبدل هاتفي الجوال البريطاني بآخر موصول مع الجهاز (وإن لم يقر بذلك قط). استخدمت الهاتف للاتصال مع فاطمة.

قلت لها: 'سئمت انتظارهم. سأهتدي إلى طريقة تمكّنني، بوسائلي الخاصة، من الوصول إلى ألمانيا.' كانت تلك الطريقة الوحيدة للضغط على الجهاز. كنت أعرف أن الأخير لم يكن يريد خروجي من تحت سيطرته وتحكمه؛ لم تكن لديه أي فكرة عما كنت سأفعله. وقد كان الجهاز يعرف أنني، إذا ما حزمت أمري، قادر على التسلل إلى أوربا بوسائلي الخاصة دون أي مساعدة. ألم أكن قد نجحت، آخر المطاف، في اختراق معسكرات التدريب الأفغانية دون مساعدة الجهاز والأجهزة كلها؟

لذا لم أُفاجأ قط حين جاءني فيليب في اليوم التالي.

ناشراً على وجهه ابتسامة عريضة بادرني: 'أخبار سعيدة! مبروك! نجحنا في حل جميع العقد. ستطير إلى ألمانيا في غضون يومين.'

لم أفهم إلا متأخراً كثيراً ما كان الجهاز يحاول فعله في داكار: كان يريد منعي من الزواج. كان ذلك هو السبب الكامن وراء المبالغ الكبيرة من المال. كان الجهاز يريد أن يبين لي مدى سحر وجاذبية حياة أي جاسوس. سلسلة لا نهائية من المدن الغريبة، من المطاعم الفاخرة الباهظة، من الفنادق الخيالية.

بالطبع، لم تكن الجاسوسية فاتنة، في أي وقت من الأوقات، بالنسبة إلي. كنت قد نمت على الأرض العارية في أفغانستان مدة عام كامل دون تناول أي طعام سوى العدس والخبز "البائت". وفي لندن عشت في شقة بالكاد متسعة لجسدي. إلا أنني لم آبه قط لكل ذلك.

تلك هي الحقيقة التي لم ينجح الجهاز قط في فهمه: حقيقة أن العملية لم تكن، في أي وقت من الأوقات، من أجل المال بالنسبة إلي. كان جيل قد افترض ذلك، وهو ما جعله، منذ البداية الأولى، لا يصدق أنني كنت سأعيد مبلغ الفرنكات الخمسة وعشرين ألفاً إلى طارق. كان قد وقع في هذا الخطأ ثانيةً في استانبول حين توهم أنه قادر على جعلي أختفي مقابل خمسة عشر ألفاً من الدولارات. وها هو ذا فيليب نفسه كان الآن مصراً على اقتراف الخطأ نفسه.

بالطبع، كنت أحب المال، وأعرف كيف أنفقه عندما يكون متوفراً. كنت أستمتع بالمطاعم الفاخرة، وفنادق النجوم الخمسة الفخمة. غير أنني لم أكن بحاجة إليها. هذه الأشياء لم تكن هي الأشياء التي تحركني وتدفعني.

وما الذي كان يدفعني إذن؟ أفترض أن أشياء متباينة كانت تحركني في أوقات مختلفة. في البداية، حين كنت في بلجيكا، كنت بحاجة إلى أن يقوم جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) بتوفير الحماية لي ولعائلتي. لم أتعاون مع الجهاز إيماناً مني بما كان يفعله، بل خوفاً من التعرض للقتل. غير أن الأمر ما لبث أن تغير مع مرور الزمن، مع اطلاعي على المزيد من

المعلومات عن الجماعة التي كنت قد تورطت معها، عن الجماعة الإسلامية المسلحة. عندئذٍ أصبحت رسالة الجهاز رسالتي.

في إحدى المحطات خلال فترة وجودي في المعسكرات، كانت رسالتانا قد تفارقتا من جديد. بالطبع، بقينا متفقين على أشياء كثيرة: لم نكن نريد رؤية الأبرياء يُقتلون، سواء في عربات مترو باريس أو في إحدى السفارات بنايروبي. غير أنني ما لبثت، بعد عودتي من أفغانستان، أن اكتشفت عجزي عن منع ذلك. حتى إذا استطعت المساعدة على وقف إحدى الهجمات، كتلك المؤامرة التي كانت تستهدف كأس العالم، فإن من شأن هجمة أخرى أن تكون موشكة على الوقوع. فهذه الهجمات. كانت حتمية طالما بقي الغرب رافضاً السعي إلى فهم عقل المسلم، منطق الجهاد. كنت قد حاولت تفسير ذلك للمسؤولين عني غير مرة. كنت قد حاولت تفسير وشرح ما كنت قد رأيته وسمعته وشعرت به في تلك المعسكرات. غير أنهم لم يكونوا مستعدين لأن يسمعوا كلامي.

قبل يوم واحد من مغادرتي، شَرَح لي فيليب ما كان سيحصل في ألمانيا. أفادني بأن ضابط الارتباط الفرنسي كان سينتظرني في المطار، ثم يساعدني في إيقافي على قدمي في ألمانيا. كنت سأقول للألمان، للسلطات الألمانية، إنني جزائري هارب من الحرب طالباً حق اللجوء السياسي. كنت سأحصل على هويتي الجديدة، والأجهزة الألمانية كانت ستساعدني في بدء حياة جديدة. كنت سأتزوج وأكون آمناً.

كنت قد بدأت أحب فيليب خلال الأشهر الخمسة التي قضيتها في داكار. أحببته لأن كان بالغ اللطف معي على الهاتف في تلك الليلة بعد المداهمات في بروكسل. وأحببته لأنه كان لطيفاً أيضاً في داكار، جرياً على عادته. أستطيع أن أقول إنه آمن بي، صدَّقني، أراد أن أبقى عميلاً. أعتقد أنه كان مؤمناً حقاً بأن هذه هي الحياة التي فُصِّلتُ لأعيشها.

في ليلتي الأخيرة، أخذني فيليب إلى مطعم أنيق خارج المدينة. كنت في مزاج رائع لأنني كنت أتطلع إلى الحياة الجديدة التي كنت موشكاً على الشروع فيها. أحسست كما لو كنت محتفلاً، طلبت طَبَق اللانغوستين (القريدس)، البند الأغلى على القائمة.

اعترض فيليب قائلاً: "لا، لا. دعك من اللانغوستين. يجب أن تجرب الفروير (سمك الأخفس) بدلاً منه. إنه أسطوري هنا."

على الفور عرفت شيئاً عن فيليب، وضحكت.

"هذا هو المكان الذي تدعو إليه عشيقاتك، أليس كذلك؟" وأنا أنظر إلى ما حولي بدا لي الأمر واضحاً وضوح الشمس. الشموع، الموسيقا الناعمة.

بدا فيليب مصدوماً أولاً، ثم ضحك أيضاً، وكنت أعرف أنني قلت الحقيقة.

هز برأسه وابتسم قائلاً: "أنت وغد وابن عاهرة فعلاً" وظل يضحك.

في تلك اللحظة بالذات، أعتقد أن كلاً منا فهم الآخر فهماً كاملاً.

ألمانيا

كان فيليب قد أعاد لي جواز سفري الفرنسي من أجل الرحلة إلى ألمانيا مما مكّنني من اجتياز الجمارك مثل النسيم حين وصلت إلى فرانكفورت. التقيت المسؤول، أوليفييه، خارج مكان استلام الحقائب. كان في أواخر عشرينياته، وبدا غير عادي إلى حد كبير. كان أحد أكثر الأوروبيين الذين سبق لي أن رأيتهم لياقة بدنية. كان ذا وجه جميل وبالغ الأناقة. لم يكن مرتدياً أي قطعة استثنائية، فقط سروال جينز وسترة فضفاضة، غير أن ملابسه كانت بديعة جداً ومفصلة تفصيلاً مثالياً. كان ضابط الاستخبارات الوحيد، ممن سبق لي أن عملت معهم، الذي بدا فعلاً شبيهاً بجيمس بوند.

أعطاني أوليفييه توجيهات دقيقة حول الخطوة التالية. كان علي أن أذهب إلى مخفر الشرطة وأقدم نفسي بوصفي لاجئاً. كنت سأحصل على بعض الأوراق من المخفر فآخذها إلى مركز قريب متخصص بإجراءات قبول اللاجئين. كنت سأُمضي الليل في المركز، ومن ثم كانوا سينقلونني إلى مركز لإقامة طالبي اللجوء. هناك كنت سأقابل عميلاً ألمانياً، كان سيتولى قيادتي عبر العملية.

قبل إنزالي من السيارة، أعطاني أوليفييه بعض الملاحظات الموجزة لقصة رحلتي إلى ألمانيا. كنت سأقول للبوليس كما لجميع الآخرين إنني كنت قد سافرت من الجزائر إلى تركيا، ثم نجحت في شق طريقي إلى قلب أوروبا عبر بلغاريا، رومانيا، هنغاريا، سلوفاكيا، وجمهورية التشيك. زوّدني بأوراق نقدية من عملات هذه البلدان لاستخدامها دليلاً داعماً لقصتي، لإثبات صحة مروري بهذه البلدان.

قبل المغادرة، أوصاني أوليفييه بألا أقلق حول أي شيء. فالجهاز السري الألماني كان قد خطط لمجيئي. أعطاني رقم هاتف يمكنني استخدامه للوصول إليه، وأخذ جواز سفري الفرنسي. ثم انطلق بسيارته مبتعداً.

ذهبت إلى مخفر الشرطة تنفيذاً لتوجيهات أوليفييه، ومنه إلى مركز القبول للتسجيل. أبلغني الموظف في المركز بأن حافلة كانت ستقلني صباح اليوم التالي إلى مدينة آيزنهوتنشتات الواقعة على الحدود البولونية.

لم أكن ناوياً أن أُمضي الليل في المركز، فحجزت غرفة في أحد فنادق مركز فرانكفورت. كذلك لم أرغب في الذهاب بالحافلة فعمدت إلى قطع تذكرة سفر بالقطار من فرانكفورت إلى آيزنهوتنشتات.

آيزنهوتنشتات هذه مدينة قميئة من مخلفات الحقبة الستالينية على الحافة الشرقية لألمانيا. وعلى بعد بضعة كيلومترات من البلدة، ثمة قاعدة عسكرية كانت تؤوي الجيش الأحمر ذات يوم. إنها الآن مركز احتجاز لطالبي اللجوء.

سجلت اسمي بالاستناد إلى الأوراق التي حصلت عليها في فرانكفورت. بقيت ست ليالي دون أي اتصال من الأجهزة. كان الوضع باعثاً على القنوط. كان المكان مزدحماً بلاجئين قادمين من بعض أمكنة الكرة الأرضية الأكثر بؤساً: من أفريقيا، سري لانكا، أفغانستان. كانوا على الطرقات لأسابيع متواصلة كي يصلوا إلى هنا، وكانوا وسخين.

هؤلاء كانوا أناس سحقهم اليأس. كانوا قد تخلوا عن كل ما كان لديهم من أوطان من أجل القيام بهذه الرحلة. كثيرون لم يكونوا، بالطبع، هاربين من الحرب أو الاضطهاد؛ كانوا هاربين من المجاعة أو الفقر المدقع الكاسر للظهر. وبالطبع فإن هؤلاء كانوا هم أولئك الذين كان يجري التخطيط لإعادتهم. فالمعاناة الرهيبة لم تكن أساساً لاكتساب حق اللجوء السياسي.

في النهاية، لم يكن مهماً في الحقيقة أن تتم معرفة أسباب وجود هؤلاء هناك، لأن أكثرهم كانوا سيعادون إلى الأمكنة التي جاؤوا منها. أعداد كبيرة منهم كانت ستموت نتيجة لذلك. كنت أعرف مدى إهمال الأوروبيين لطالبي اللجوء السياسي، مدى اعتراضهم على تمكين ذوي البشرة السمراء هؤلاء من عبور حدودهم.

كان الحزن كابوساً داخل المركز، وكنت شديد الرغبة في الخروج. اكتشفت أنني كنت أستطيع الحصول على تصريح مرور أغادر به لتمضية بضع ساعات في المدينة. غير أن أحداً من الآخرين لم يرغب في مرافقتي. بعد بضعة أيام سألت أفغانياً عن سبب بقاء الجميع داخل المركز. أفادني بأن الناس كانوا مرعوبين من الخروج. ثمة كان حليقو الرؤوس في المدينة كلها ممن دأبوا على استهداف اللاجئين مهينينهم وضاربينهم بلا رحمة بل ومجهزين عليهم قتلاً أحياناً.

في أي يوم محدد، هناك في جميع أرجاء العالم آلاف الناس الذين يصلون ملتمسين من الله فرصة العيش في بلدٍ كهذا.

لقائي الأول مع كلاوس كان في آيزنهوتنشتات. كان لقاء كارثياً مئة بالمئة. جاء أحد الحراس ليجلبني من المهجع جلباً ثم يدخلني إلى أحد المكاتب حيث كان كلاوس بانتظاري:

'غوتن تاغ. ماين نيم إست كلاوس. فِسَنْ زي فير إش بين؟'

بالطبع، كنت أعرف الألمانية - كنت قد تعلمتها من فاطمة - غير أن الطريقة أثارت حفيظتي على أي حال. فكرت بجميع اللاجئين في المركز وتصورت حالهم، وهم في مواجهة هؤلاء الأوروبيين المتعجرفين وبلغة غريبة عنهم، هم عاجزون عن فهمها.

قلت: آسف. هل تستطيع تكرار ما قلته بالإنجليزية؟'

رد بعصبية: 'أنا كلاوس. هل تعرف من أكون؟'

من الواضح أن كلاوس كان شوكة واخزة بأي لغة.

'نعم، أعرف من تكون. أنت من الجهاز السري الألماني.'

'صحيح' قال. كانت ثمة غطرسة أمقتها على وجهه. 'الآن سترد على بعض الأسئلة.'

طفح الكيل معي. كنت منتظراً منذ أسبوع في هذا الجُحْر الجهنمي. لم أكن قادراً على تحمل هذا الألماني المرعب، المتعالي.

'لن أرد على أي أسئلة هنا. إذا كنت تريد أن تطرح علي أسئلة، فبإمكاننا أن نفعل ذلك بعد العودة إلى هناك، إلى ألمانيا الغربية.' لم أكن مستعداً لتمكينه من التحكم بي، وقد كان متمكناً فعلاً طالما نحن في مركز الاحتجاز. تلبد الجو

بتهديد مكتوم: كان قادراً على تركي هنا إذا لم أطع أوامره. غير أنني كنت أكثر خبرة منه. نهضت لأغادر المكان.

سأل: 'ما الذي تفعله؟'

'أغادر المكان.'

'لا تستطيع المغادرة قبل أن تحصل على أوراقك.'

'لست بحاجة إلى أي أوراق. أستطيع السفر إلى حيث أريد.' ثم دونت رقم هاتفي الخليوي وقدمته إلى كلاوس قائلاً: 'اتصل معي خلال بضعة أيام. سنجد مكاناً آخر للكلام.'

غادرت المركز واستقلّيت سيارة أجرة إلى محطة القطار. اشتريت تذكرة إلى كولونيا حيث كانت فاطمة مقيمة. غير أني ما إن استقريت على مقعدي في القطار حتى رن جرس هاتفي.

كان المتصل هو كلاوس: 'يجب أن تعود فوراً. لابد لك من الحصول على أوراقك.' وأضاف أنه كان يتعين علي أن أمر بهذه المراحل مثل جميع اللاجئين الآخرين إذا كنت راغباً في تثبيت هويتي.

لم أكن مستعداً لقطع أي مزيد من المراحل. تذكرت ما كان جيل قد قاله لي في اليوم الأول للقائنا: إذا كنت تريد كل هذه الأشياء فسيتعين عليك أن تخدمنا أكثر. كنت قد خدمت أكثر ـ أكثر مما توقعه أي منهم. كنت قد أمضيت ست سنوات في خدمة هؤلاء البشر. كنت قد خاطرت بحياتي غير مرة. كنت قد توغلت في قلب هذا التهديد الكوكبي الذي باتوا الآن يطلقون عليه اسم القاعدة. وهل ثمة ما هو أكثر.

'لا' قلت لكلاوس. 'أنا لن أفعل ذلك. الحصول على الأوراق اللازمة لي هو من مسؤولياتك أنت. تدبر أمرك!' وقطعت الخط.

التقيت كلاوس ثانية بعد أسبوعين في فندق بمطار هانوفر. جاء إلى هناك مع رجل آخر يدعى ماتياس. كان جو الغرفة مشحوناً بالتوتر سلفاً حين وصلت؛ فور شروع كلاوس وماتياس في الكلام اتضح أنهما لم يكونا معجبين أحدهما بالآخر. ولأن ماتياس لم يكن معجباً بكلاوس وجدتني معجباً بالأول مباشرة.

في ذلك الاجتماع، كما في اجتماعات كثيرة أعقبتْ، اتضح بجلاء أن الألمان لم يكن لديهم أي خطة بالنسبة إليَّ على الإطلاق. لم يكن ثمة أي سبيل للحصول على وظيفة محترمة دون أوراق. ظل كلاوس وماتياس دائبين على تقديم الوعود بتلك الأوراق، ولكن الوعود بدت على الدوام غير قابلة للتحقق. كذلك لم يكن أي سبيل لزواجي، وهو ما أحبطني أكثر. لم نكن قادرين على العيش معاً دون زواج. في تلك الأثناء كنت أقيم في شقة صغيرة كانت فاطمة قد استأجرتها باسمها.

التقيت أوليفييه بضع مرات أخرى خلال أشهري الأولى في ألمانيا. كرر لي مرات كثيرة أنه كان عاجزاً عن فعل أي شيء. كان يتعين علي أن أعتمد على كلاوس وماتياس طالما كنت موجوداً في ألمانيا. كان جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) قد نسق كل شيء مع الألمان. غير أن شيئاً لم يبد منسقاً بنظري. فكلما أتيت على ذكر اسم أوليفييه على مسامع كلاوس وماتياس كانا يهزان برأسيهما ويطلبان مني ألا أتحدث عنه. لم يكونا مستعدين للاعتراف بوجود أي نوع من الاتفاق النافذ بين الجهازين الألماني والفرنسي. بالطبع، هما لم يقولا ذلك صراحة، غير أن رغبتهما في قابلية الإنكار الكلية كانت واضحة. كذلك لم يكونا مستعدين لتحمل مسؤوليتي.

كنت بحاجة إلى المال. كنت معتمداً في معاشي على دخل فاطمة الضئيل وقد أغاظني ذلك. كنت بحاجة إلى المال لتسديد أجرة شقتي وثمن طعامي. كذلك كنت بحاجة إلى توفير بعض المال لحفل زفافي. غير أنني كنت عاجزاً عن الكسب وحدي، دون أوراق. كان من شأن الحصول على عمل أن يكون بالغ

الصعوبة حتى بعد توفر الأوراق: فأنا في الثانية والثلاثين من العمر ولم يكن قد سبق لي أن شغلت وظيفة، أي وظيفة. أقله أي شيء أستطيع تدوينه في السيرة الذاتية الموجزة.

ثمة كانت طريقة وحيدة لكسب المال: كان عليّ أن أعمل جاسوساً. في البداية بدت الفكرة كما لو كانت فكرة جيدة. من المؤكد أن ذلك هو ما كان الألمان يتوقعونه مني. غير أنه ما لبث أن اتضح أنهم لم يكونوا متوفرين على أي وظيفة حقيقية لي. تم إرسالي إلى مركز اجتماعي إسلامي في مدينة أوبرهاوزن ذات الكتلة السكانية الشمال أفريقية الكبيرة الواقعة على بعد نحو سبعين كيلومتراً من كولونيا. صرت أذهب إلى هناك كل يوم جمعة.

عند اجتماعي مع ماتياس وكلاوس بعد كل رحلة، لم يكونا يقومان ولو بعرض بعض الصور علي. كانا يطرحان سؤال: 'ما هي انطباعاتك؟' انطباعاتي كانت بالغة البساطة: ثمة كانت مجموعة من المراهقين المغاربة الذين كانوا يلعبون الرياضة معاً ويدرسون القرآن. لم يكن هناك أي شيء يدعو للقلق.

كان الوضع أسوأ بكثير حتى من عملي في إنجلترا. كانت الوظيفة باعثة على قدرٍ كبير من السأم وعديمة الجدوى كلياً. غير أن المشكلة الحقيقية تمثلت بعدم قدرتي على القيام بها. كنت انفق مئات الماركات الألمانية شهرياً لمجرد تسديد قيمة الوقود الذي تحرقه سيارتي في الذهاب والإياب، في حين أن الألمان لم يكونوا يدفعون لي أي مبلغ ذي شأن. كانوا مطمئنين إلى عدم اضطرارهم لكوني عالقاً في المصيدة. لم أكن أملك أي أوراق، وبالتالي لم أكن قادراً على العمل لدى أي جهة أخرى.

بعد بضعة أشهر، كنت موشكاً على فقدان عقلي. أبلغت الألمان بحاجتي إلى المزيد من المال، غير أني لم أحصل عليه. بدا لي كما لو أن كلاوس كان لا يزال مصراً على معاقبتي بشأن ما كان في لقائنا الأول. كان يريدني أن استجدي

بضعة ماركات إضافية، ثم يستمتع هو برفض الطلب. كنت أحتقره. وما أكثر ما كنا نتصادم!

حاول ماتياس أن يمد يد المساعدة كلما استطاع، غير أنه بدا عاجزاً هو الآخر. مرة، ونحن وحدنا، شرح لي ماتياس إنهما، هو وكلاوس، كانا يعملان في قسمين مختلفين من أقسام الجهاز، وأنه لم يكن مخوَّلاً بالتدخل. أحياناً كان يعطيني مبالغ من جيبه الخاص. من الواضح أنه كان يشعر بالعجز مثلي.

أخيراً، حدث شيء سار. بعد تسعة أشهر في ألمانيا، حصلت على إذن الزواج. كان قد مضى نحو ثلاث سنوات على لقائي فاطمة في باريس. ومنذ ذلك اليوم، لم أفكر بها ولو لمرة واحدة بوصفها مجرد صديقة أو عشيقة. كانت زوجي المستقبلية. والآن كان المستقبل قد وصل أخيراً.

بعد صدور الأوراق ببضعة أيام، التقيت أوليفييه. كنت بحاجة إلى مال لتغطية نفقات الزفاف، وكنت سأحصل عليه من كلاوس. كنت أستحقه، قلت لأوليفييه. كان جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) قد وعد بمساعدتي على الزواج، وها أنا الآن كنت بحاجة إلى هذه المساعدة.

التقينا ثانية في غرفة أحد الفنادق بعد بضعة أيام. كان أوليفييه هناك سلفاً قبل وصولي، ووجدته جالساً خلف إحدى الطاولات. كان ثمة مغلف سميك أمامه؛ كان المغلف مفتوحاً. داخله استطعت أن أرى الخضرة المميزة للدولارات الأمريكية. جواز سفري الفرنسي، هو الآخر، كان على الطاولة. ومعهما كانت ثمة تذكرة سفر على أحد الخطوط الجوية.

جلست مقابل أوليفييه.

سألني: 'هل أنت متأكد من أن هذا ما تريد أن تفعله؟'

'ماذا تعني؟'

'هل أنت واثق من أنك تريد أن تتزوج؟'

'بالطبع. أنا واثق.'

قَطَّب أوليفييه حاجبيه. قال: 'أنت جاسوس. لا أعتقد أنك مفصَّل بما يتناسب مع الحياة الزوجية. سوت تمل.'

قلت له: 'عاكف أنا على التفكير بهذا منذ ثلاث سنوات. لم يكن الأمر قراراً متعجلاً. أنا أعرف ما أريده.'

أطلق أوليفييه زفرة. قال: 'يا للخسارة! أعتقد أننا كنا قادرين على اجتراح مآثر معاً.' بدا محبطاً حقاً. مرت فترة صمت طويلة بيننا وهو ينتظر أن أبادر إلى تغيير رأيي.

حركت رأسي وقلت: 'أنا أعرف ما أفعله.'

ابتسم أوليفييه ابتسامة باهتة. قال: 'حسناً، إذن. من الأفضل، إذن، أن أزوِّدك ببعض المال لحفل زفافك.' إلا أنه لم يمرر المغلف الموجود على الطاولة إلي. بدلاً من ذلك، انحنى على حقيبته وسحب مغلفاً أرق بكثير. فتحت المغلف لأرى ما بداخله. ثمة كانت رزمة رقيقة من الماركات الألمانية.

ثم نهض أوليفييه استعداداً للمغادرة، حَذَوْتُ حَذْوَه. مد يده نحوي، لكنه ما لبث أن سحبها فيما كنت موشكاً على مد يدي للمصافحة، قائلاً: 'انتظر، كدت أنسى. معي شيء آخر لك.' اختار شيئاً من حقيبته وقدمه إلي.

كان الشيء هو دفتر ملاحظاتي في داروننا. كان الدفتر ذا سماكة مفرطة كادت تُضْحكني. كانوا عديمي الرحمة حقاً. كان جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) قد استنتج أخيراً أن أيَّ مبلغ من المال لم

يكن قادراً على إقناعي بالبقاء. وكان بالتالي قد قرر إجباري على البقاء. كانت الشرطة تنتظرني في الخارج ـ كنت متأكداً من ذلك. لو حملت ذلك الدفتر وخرجت به لبادرت الشرطة إلى اعتقالي فور خروجي من الباب. كنت إرهابياً؛ الدفتر برهان ساطع؛ كتابي بيميني. كان الجهاز سيسجنني لسنوات. لم أقرر، بالطبع، العودة إلى العمل لدى جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE).

نظرت إلى الدفتر، ومن ثم إلى أوليفييه. 'يبدو أنك تحب المزاح.'

وبعد ذلك غادرت المكان.

بعد ذلك بقليل تزوجت.

بعد الزفاف ببضعة أيام، التقيت ماتياس في أحد المقاهي. تحدثنا قليلاً، وهنأني. ونحن نغادر المقهى ناولني مغلّفاً. قال: 'أحدهم طلب مني إيصال هذا إليك.' لم يقدم مزيداً من الشرح.

فتحت المغلف. كانت في داخله صورة وحيدة. صورة لي مع فاطمة من اليوم الذي أعلَنّا فيه خطبتنا رسمياً. كنت أرتدي طَقْماً وهي ثوباً، وكنا، كلانا، طائرين من الفرح وغارقين في بحر من الضحك كالمجانين. كانت صورتي المفضلة لكلينا معاً، غير أنني كنت قد تركتها في لندن مع أشيائي الأخرى عندما تواريت عن الأنظار بعد تفجيرات السفارتين مباشرة. لا شيء من تلك الشقة كان قد أُعيد إليّ، وكنت قد افترضت استحالة رؤيتي للصورة مرة أخرى.

كانت الصورة هدية زفافي من فيليب. كنت متأكداً من ذلك. تلك كانت طريقته في جعلي أرى أنه كان، بقطع النظر عن كل الأشياء الأخرى، قد وفى بهذا الجزء من الوعد.

الآخرة

لم يفوا قط بأي من الوعود الأخرى.

واصلت العمل مع الألمان بضعة أشهر بعد زفافي، غير أن الوضع بقي على حالة دون أي تحسن. ظلوا يعطونني ما هو أقل من الكفاف، رغم أنني كنت قد أصبحت زوجاً ملزماً بالإعالة. مع مرور الزمن زوّدوني بجواز سفر باسمي الحقيقي. لا هوية جديدة، لا قصة خلفية من شأنها أن تمكنني من اجتراح حياة جديدة لي. تلك كانت، بالطبع، فِعْلة كلاوس. كان الأخير مصراً على التحكم بي، على معاقبتي.

بعد بعض الوقت أحالني كلاوس وماتياس على مسؤول جديد، شاب يدعى جورج. غير أنني كنت منهار المعنويات عاجزاً عن البدء من جديد، فبادرتُ جورج في أول لقاء لنا إلى إبلاغه برغبتي في ترك العمل. لم يفاجأ قط؛ من الواضح أنه كان قد سمع كل شيء عن علاقتي الكارثية مع كلاوس. لم يحاول، ولو مجرد محاولة سطحية، إقناعي بالاستمرار.

بقي جورج جالساً حيث هو لبضع دقائق وهو يهز رأسه. ثم قال: 'ليت هذا لم يحدث! هذا ليس صحيحاً.' استطعت أن أرى أنه كان شديد التأثر. ثم مد يده إلى جيب سترته. سحب علبة سجائر وقدمها لي.

دُهشت. 'ما معنى هذا؟' سألت.

رد علي جورج بابتسامة حزينة، لطيفة قائلاً: 'أشعر بأن علينا أن نعطيك شيئاً. غير أنني لا أملك غير هذه.' تقاسَمْنا الضحك.

التقيت ماتياس بعد بضعة أسابيع. كان حانقاً أكثر منه حزيناً. قال: 'يجب أن توكّل محامياً. ما تعرضتَ له ظلم.'

صُعقْت وأنا أسمع ضابطاً في جهاز سري ينصحني بإقامة دعوى على جهازه بالذات. ولكن، ما الذي كان يمكن لأي دعوى قضائية أن تحققه على أي حال؟ لم أكن أملك برهاناً على أي شيء. فالجواسيس لا يبرمون عقود عمل.

أجَبْتُه: "لست في الحقيقة واثقاً من أن من شأن ذلك أن يتمخض عن تحقيق شيء. أنا لا أعرف حتى كيف أهتدي إلى محامٍ".

قال: "أنا أعرف محامياً". دَوَّنَ اسماً ورقم هاتف على ورقة وناولنيها قائلاً: "إنه جيد جداً. يجب أن تتصل به".

لم أتصل بالمحامي قط، غير أني التقيت ماتياس مرة أخرى بعد بضعة أسابيع. هذه المرة نصحني بطَرْق باب الإعلام والصحافة. زوَّدَني بعناوين من ينبغي أن ألوذ بهم، ورسم مخططاً لما يتعين عليَّ أن أقوله.

أيقنت أن محاولات كانت جارية على قدم وساق لتوريطي في المزيد من الدسائس؛ أثار الأمر اشمئزازي وارتيابي. بدأت أطرح الأسئلة. ببطء ما لبث ماتياس أن أماط اللثام عن الحقيقة: كان كلاوس مكروهاً من الجميع. كانوا يعرفون أنه مشكلة غير أنه لم يكن ثمة أي شيء يستطيعون فعله لأنه كان مفروضاً عنوة على الجهاز من قبل أحد أعضاء البوندستاغ (البرلمان الألماني). تمثلت الطريقة الوحيدة للخلاص منه بفضحه على الملأ. عن طريق دعوى قضائية مثلاً، أو ضجة إعلامية محرجة.

حاول ماتياس عدداً من المرات لتجنيدي في معركته، غير أني بقيت لامبالياً.

سألني غير مرة: "ألا تريد أن تروي قصتك؟ ألا ترغب في إطلاع الناس على ما اقترفه من ذنب؟"

وكنت أجيبه: "اطمئن. سأروي قصتي. ولكن ليس الآن. ولا بهذه الطريقة".

ها أنا ذا قد رويت قصتي الآن. لماذا الآن؟

أظن أن دافعي الرئيسي، لدى شروعي في الكتابة، كان متمثلاً بالغضب في المقام الأول. كنت قد عشت في ألمانيا مدة خمس سنوات دون أوراق ثبوتية، وأنا أشتغل في أكثر الأعمال التي يمكن تصوُّرُها إذلالاً وحطاً للكرامة. عملت على خطوط التجميع. عملت في تنظيف التواليتات. عملت عند أرباب عمل كانوا يعاملونني كما لو كنت قذارة لأنني أجنبي، عربي. ومهما اشتغلت لم أكن أستطيع كسب ما يكفي لإعالة زوجي. مازلت أعتمد على دخل فاطمة.

ماتياس كان محقاً: ما حصل لي كان خطأ. تخليت عن كل شيء في النهاية. لسنوات طويلة بقيت راغباً في فضح الطرفين: الألمان وجهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي اس إي DGSE) غير أنني لم أفعل لأنني خفت على فاطمة. ومازلت خائفاً. إلا أنني ما لبثت أن أدركت أنني كنت سأخسرها في جميع الأحوال. كان الوضع بالغ الصعوبة بالنسبة إليها. ليس سهلاً على أي امرأة أن تعيش مع رجل دون ماضٍ. جُل الوقت لا أستطيع حتى استخدام اسمي. لم يسبق لزوجي أن التقت أهلي، ولا تستطيع أن تخبر أهلها بأصلي وفصلي. يتعين عليها أن تكذب عند الكلام عني مع صديقاتها. متكتّمان نحن ومتخفيان كل الوقت.

هذه الحياة كانت عبئاً أثقل من أن يطاق بالنسبة إلينا، وكادت أن تنسف الجسر القائم بيننا. كلانا نعرف أنني أعرِّض حياتنا كلينا للخطر عبر نشر هذا الكتاب. إلا أننا لا نملك أي حياة ذات شأن لنخسرها.

غير أن هناك سبباً آخر وراء اعتزامي رواية قصتي الآن. ولعله سبب حتى أكثر أهمية: لقد تغير العالم تغيراً مسرحياً مثيراً منذ عام 2000 حين خلعت ثوب الجاسوسية، حين خرجت من حياتي بوصفي جاسوساً. وأنا مسحوق فعلاً بما أرى.

مثل جميع الآخرين، تملكني الرعب إزاء هجمات 9/11. غير أنني لم أُفاجأ. كنت في قلب القاعدة لسنوات، وبالنسبة إلي بدت الهجمات نتائج حتمية لجميع القوى التي كنت قد شاهدتها دائبة على التطور والتامي على امتداد تسعينيات القرن العشرين. لم يكن 9/11 أكثر من توسيع بالغ الإثارة للمنطق الشاذ والمنحرف الذي دأبتْ الجماعة الإسلامية المسلحة على توظيفه لتسويغ ذبح تلك الأعداد الكبيرة من الأبرياء في طول الجزائر وعرضها. كان هو نفسه منطق تفجيرات باريس، منطق نسف السفارات في إسلام أباد ونايروبي ودار السلام، وتفجيرات لندن بعد ذلك. إنه منطق مسلسل الإمداد: كل من يساعد العدو هدف مشروع. لم يعد للمدنيين أي وجود. الجميع في حالة حرب.

هذا بالتحديد هو منطق الجهاد الكوكبي، وأنا أحتقره. هناك جنود، وهناك مدنيون. قتل الجنود حرب، قتل المدنيين جريمة قتل. ليس هذا رأياً مجرداً. إنه ركن من أركان إيماني وعقيدتي.

لأكن واضحاً: أنا مسلم. إلى هذه الساعة أنا مستعد للذهاب إلى الحرب دفاعاً عن عقيدتي. لم أعد جاسوساً، غير أن جزءاً مني يبقى مجاهداً. أعتقد أن على الولايات المتحدة وسائر الأطراف الأخرى أن تتقلع من بلادنا، وأن تبقى بعيدة. أعتقد أن على هذه القوى أن تكف عن التدخل في سياسة الدول الإسلامية. أعتقد أن عليها أن تتركنا وشأننا. وإذا لم تفعل فإن من الواجب قتل عناصرها، لأن ذلك هو ما يحدث لجيوش الغزو والمحتلين.

أذهلني رد فعل الأمريكيين على 9/11. يا له من غضب استثنائي السذاجة، سذاجة لا أول لها ولا آخر: لقد هوجمنا في عقر دارنا، على التراب الأمريكي! ثلاثة آلاف شخص من الأمريكيين قُتلوا فوق التراب الأمريكي! مأساة لا شك. وجريمة. ولكن ماذا عن ملايين المسلمين المقتولين فوق الأراضي الإسلامية؟ في الشرق الأوسط، في أفريقيا، في البوسنة، في بلاد الشيشان، في أفغانستان. هل توقف الزمن بالنسبة إليهم؟

وبالتالي فأنا مؤمن بأن هناك معارك جديدة بأن تخاض. أعتقد أن هناك أرضاً جديرة بالموت في سبيلها. غير أنني مؤمن أيضاً بالقوانين. قد يكون الإسلام متفوقاً على الأديان الأخرى جميعاً، في امتلاك قوانين وشرائع واضحة حول كيفية الذهاب إلى الحرب. وقد اطلعت على هذه الشرائع في معسكرات التدريب الأفغانية. وتعلّمتُ هناك أن هذه الشرائع والقوانين هي التي تميزنا عن الأمريكيين والفرنسيين والألمان والروس والإنجليز وجميع الآخرين. هم يقتلون كيفما استطاعوا. هم يُسقطون القنابل النووية على المدن ويقتلون الملايين في أفران الغاز ويبيدون كتل سكانية كاملة للسطو على أراضيهم وثرواتهم. هم يقتلون النساء والأطفال، ثم يلوون شفاههم واصفين ما حدث بـ 'أضرار جانبية'.

هذه حقائق. هم دأبوا على اقترافها قروناً. أما نحن فمسلمون، ويأمرنا القرآن بألا نفعل. ذلك هو الإسلام الحقيقي الصحيح، الإسلام الذي تعلمته في المعسكرات - أقله نظرياً. كثيراً، وكثيراً جداً، ما كان ما كنت أراه في الممارسة العملية شيئاً مختلفاً تماماً.

ذلك هو ما دفعني إلى رواية قصتي. لم أروها رغبة مني في إنقاذ الغرب من الإرهابيين. لم يسبق لذلك قط أن كان هدفي. ما أتطلع إليه أكثر من أي شيء آخر هو إنقاذ الإسلام من جملة هذه التجاوزات والبدع المرعبة.

منذ البدايات الأولى، أزعجني رشاش العوزي. أزعجني واقع أن العالم الإسلامي انحدر إلى درك الاضطرار لخوض حروبنا بأسلحة أعدائنا. غير أن شيئاً أسوأ بكثير يحصل الآن: إننا نخوض حروبنا مستخدمين تكتيكات أعدائنا. إذا سمحنا لنفسنا، بوصفنا مسلمين، بأن نصبح مثلهم - أي مثلكم أنتم - فلن يبقى شيء جدير بالقتال دفاعاً عنه.

هذا هو جهادي أنا.

كلمات شكر

أشكر الله على حمايته لي عبر جميع التجارب التي وَصفْتُها في هذا الكتاب.

أشكر زوجي من أعماق قلبي على ثقتها بي، وعلى دعمها وتشجيعها طوال الفترة التي قضيتها عاكفاً على تأليف هذا الكتاب. وأكثر من أي شيء آخر، أشكرها على الجرأة الهائلة التي تحلت بها حين أقدمت على الزواج مني، كما على الشجاعة التي أبدتها عبر البقاء بجانبي يومياً منذ الزواج.

أشكر لارا هايمرت، محررة كتابي في دار بيسِكْ بوكس للنشر، على إيمانها بي، كما على طاقتها ونشاطها وهي تساعدني على إخراج هذا الكتاب إلى النور، إلى العالم.

أخيراً، أشكر قرائي على تمكيني من تقاسم قصتي معهم.

* *

تعريفات

باسـايـيف، شـامل سَلْمـانوفـيـتش: في 1991 نجح بـاسـاييف، نائب رئيس الحكومـة الانفصـالية لجمهورية إتشكيـريا الشيـشـانيـة، فيلفت أنظار العـالم كله، حين اختطف طائرة ركاب نفـاثة روسـيـة من أجل رفع مـسـتـوى الوعي بالقـضـيـة الشـيـشـانيـة. وخـلال الحـربين الشـيـشـانيـتين الأولى والـثـانيـة (1994 - 1996 و1999)، أعلن باسـاييف مـسؤوليتـه عن عـدد غيـر قليل من العمليـات الإرهابيـة والعسكرية. اشـتـملت إحداها على أخذ ألف ومئتي شـخص مـن مـسـتـشـفى بلدة روسـيـة جنوبيـة خـلال صـيف 1995، رهـائن. كـذلك ادعـى المسـؤولية عن حـصـار المسرح الموسكوفي في 2002، ومذبـحة مدرسـة بيسـلان في 2004 التي قُتل فيـها 350 شـخـصـاً ـ أكثـرهم من الأطفـال. ثـمة سلطات روسـيـة زعـمت أن باسـاييف مـرتبط بالقـاعدة، وهي تهمـة أنكرها باسـاييف. نجـحت قوات الأمن الـروسيـة في تصفية باساييف في تموز/يوليو 2006.

بوتو، بناظيـر: رئيـسـة وزراء البـاكـسـتـان مـرتين: 1998 - 1990 و1993 - 1996. والدها ذو الفقار علي بوتو كان رئيسـاً للوزارة الباكستانيـة من 1971 إلى 1977. ولدى قيام نظام ضيـاء الحق العسكري في 1979 بإعدامه، تولت بناظيـر بوتو رئـاسـة حـزبه السـيـاسـي المعـروف باسم حـزب الشـعب البـاكـسـتـاني. تمت الإطاحة بحكومتها الائتلافية في 1990 جراء تهم الفسـاد، ولكن بوتو ما لبث أن عـادت إلى السلطة في 1993. وخـلال الفـترة الثـانيـة حـاولت، دون نجاح، محـاربة

صعود التطرف الإسلامي في الباكستان. مرة أخرى، تحت وابل من تهم الفساد وسوء الإدارة جرى إبعاد حكومتها عن مواقع السلطة في تشرين الثاني/نوفمبر 1996.

تحالف الشمال: بوصفه جماعة جهادية مؤلفة من ثلاث فئات عرقية غير باشتونية - طاجيكية، أوزبيكية وهازارية - أساساً، نجح تحالف الشمال في انتزاع السلطة من نجيب الله بعد انهيار حكومة الأخير في 1992. وفي حزيران/يونيو 1992، أصبح برهان الدين رباني رئيساً لجمهورية أفغانستان، غير أن حكومته وقواتها العسكرية - بقيادة أحمد شاه مسعود - لم تكن تسيطر إلا على أجزاء من البلاد في أي وقت محدد. ومع استمرار سُعار الحرب الأهلية اضطرت حكومة رباني لخوض سلسلة من المعارك ضد حشد من أمراء الحرب في طول البلاد وعرضها. والحزب الإسلامي بقيادة غلب الدين حكمتيار أثبت أنه استثنائي الجبروت.

نجحت حركة الطالبان في إطاحة تحالف الشمال سنة 1996، الذي ما لبث أن أعاد تجميع حركة مقاومة. بقي التحالف مسيطراً على عدد غير قليل من الأقاليم في الجزء الشمالي من أفغانستان بين عامي 1996 و2001. وبعد 9/11، بادرت القوات الأمريكية إلى التحالف مع تحالف الشمال ممكِّنَةً إياه من استعادة كابول. إن رباني، الذي كان قد حظي باعتراف العديد من البلدان بوصفه الرئيس الشرعي لأفغانستان طوال فترة حكم الطالبان، أعلن نفسه رئيساً للدولة في تشرين الثاني/نوفمبر 2001. وفي كانون الأول/ديسمبر 2001 سلّم مقاليد السلطة إلى الحكومة الانتقالية المشكلة بقيادة حميد قرة ضاي. (انظر أيضاً أبواب: أحمد شاه مسعود؛ الطالبان؛ محمد نجيب الله).

توش، علي: كان توش الذي عَدَّته السلطات الجزائرية المسؤول الأول الأوروبي في الجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) أحد المتهمين بتدبير التفجيرات

في فـرنسـا خـلال صـيف 1995. في وقتٍ لاحق من ذلك العـام قـامت الشـرطة الفرنسية بتوقيف أربعين حـركياً مشـبوهاً، ولكن توش نفسـه تمكن من مـراوغة الاعـتقـال. وفي 1998 حوكم توش غـيابياً على دوره فـي تفـجيـرات مـتروباريس. خـلال المحاكمة، أعلنت السلطات الجزائرية في بيـان لاحق أن الشـرطة كانت قد قتلت توش فـي أيار/مـايو 1997. لم يتم إبـراز جثـتـه دليـلاً قط؛ إلا أن السلطات الجـزائرية أرسـلت إلى الفـرنسـيين مجمـوعـة مـن البـصـمـات بـدلاً من ذلك. وعلى الرغم من أن الشـرطـة الفـرنسـية قـالت إن البـصـمـات مطـابقـة لأخـرى على أوراق في ملف توش، فـإن رئيس جلسـة المحكمـة في 1998 حكم عليه غـيـابيـاً بالسـجن لمدة عـشـر سنوات (انظر أيضـاً بـابَيْ: الحـرب الأهليـة الجـزائرية؛ الجـمـاعـة الإسـلامية المسلحة).

الجماعة الإسلامية المسلحة (GIA): جماعة إسلامية كفاحية تشكلت غداة إلغـاء الانتـخـابات في الجـزائر. أجـهـزت الجـمـاعـة على الآلاف من المدنيين الجـزائريين ذبحـاً خـلال مـا بـاتت تُعـرف باسم الحـرب الأهلية الجـزائـرية. خـلال هذه الفـترة، كان يُعتقد بأن فـرنسـا تعـاونت مع النظام العسكري الجـزائري. رداً على ذلك كمـا على احـتـلال فرنسـا الاسـتعماري السابق للجـزائر، بادرت الجماعة إلى توسيـع دائرة عملياتها ومدها إلى فـرنسـا أواسـط تسـعينيـات القـرن العشرين. أقدمت الجـمـاعـة على اختطاف إحـدى طائرات الخطوط الجوية الفـرنسـيـة فـي 1994، وأعلنت مـسؤوليـتـهـا عن سلسلة طويلة من الأعـمـال الإرهـابيـة، ولاسـيـمـا سلسلة من التـفـجيـرات في فـرنسـا خـلال صـيف 1995. وبعد أن جـرى في 1999 اعـتمـاد اتفـاق مـصـالحـة عـامـة، بـدأت الهـجـمـات تتضـاءل. في 2004 تم اعـتـقـال رئيس الجـمـاعـة نـور الدين بوضـيـافـي وإعـلان حل الجـمـاعـة (انظر أيضـاً باب: الحـرب الأهلية الجـزائرية).

جماعة التبليغ: حـركة إسـلامية جمـاهيـرية (قـاعدية) أسـسـهـا فـي الهـند سنة 1926 البـاحـث الديني مولانا محـمـد إليـاس، أتبـاعهـا في العـالم الإسـلامـي والغـرب

يُعدّون بالملايين. والتسمية تعني بالعربية 'جماعة تقوم بالدعوة إلى العقيدة'. يُشجع الأتباع على تكريس الوقت والمال على الرحلات (الخروج) بحثاً عن المعرفة الدينية والدعوة إلى العقيدة بين صفوف المسلمين الضالّين في الغالب. ومع أن الجماعة تدعي بأنها لا سياسية وبعيدة عن العنف، فإنها قد تعرضت خلال العقد الأخير لنوع من المساءلة والتمحيص جراء ارتباطاتها بفعاليات إرهابية. ففي تشرين الأول/أكتوبر 1995، كانت مجموعة من عسكريي التبليغ في الجيش الباكستاني ذات علاقة بمؤامرة لإطاحة رئيسة الوزراء بناظير بوتو. وفي تاريخ أقرب عُرف أن العديد من المتهمين بمؤامرة تفجير سلسلة من الطائرات المقْلعة من مطار هيثرو البريطاني إلى الولايات المتحدة كانوا على علاقة بالتبليغ. بقيت الجماعة شديدة الإصرار على إنكار أي علاقة لها بالنشاط الإرهابي.

جهاز أمن الدولة Sûrete de l'Etat: جهاز مدني بلجيكي تابع لوزارة العدل.

الحرب الأهلية الجزائرية: نزاعات دامية أجهزت على الأخضر واليابس في الجزائر منذ عام 1992 إلى حين صدور إعلان عفو في 1999. وهي معروفة أيضاً باسم "الحرب القذرة" Le sale guerre، يقال إنها أزهقت أرواح ما يتراوح بين 100.000 و150.000 نسمة. في 1989 أقدمت جبهة التحرير الوطنية الحاكمة (FLN) على رفع حظر كان مفروضاً على تشكيل الأحزاب السياسية الجديدة. ثم جاءت انتخابات برلمانية في 1991، وفازت جبهة الإنقاذ الإسلامية (FIS) بأكثرية المقاعد في الجولة الأولى. خوفاً من انتصار إسلامي في الجولة الثانية، بادرت الحكومة إلى إلغاء الانتخابات في 1992. كذلك قامت بحظر نشاط جبهة الإنقاذ، واعتقال الآلاف من أعضائها. واصلت جبهة الإنقاذ الضغط مطالبة بانتخابات جديدة، في حين برزت جماعة منشقة أكثر تطرفاً باسم الجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) على الساحة مطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية. مدعومة بأعداد كبيرة من المجاهدين الذين كانوا قد شاركوا من قبل

في القتال ضد الاحتلال السوفيتي لأفغانستان، زادت الجماعة من أساليبها القائمة على العنف باطراد على امتداد عقد التسعينيات. وفي تضاد مع كل من الحكومة العسكرية من ناحية وجبهة الإنقاذ من ناحية ثانية، راحت الجماعة تزرع الرعب في قلوب المدنيين من خلال ذبح عائلات كاملة، بل قرى بأسرها إذا ما تم الاشتباه بتعامل شخص واحد منها إما مع الحكومة أو مع جبهة الإنقاذ. غير أن الحكومة وقواتها الأمنية ربما كانت مسؤولة جزئياً عن بعض العنف. لقد تكرر اتهامها باختراق صفوف الجماعة واقتراف هجمات بهدف إضعاف الدعم الشعبي لهذه الجماعة (انظر أيضاً باب: الجماعة الإسلامية المسلحة).

حزبي إسلامي: (انظر باب: غلب الدين حكمتيار).

حكمتيار، غلب الدين: أمير حرب باشتوني ومؤسس جماعة حزبي إسلامي مجاهدين الإسلامية. جهوده العسكرية ساهمت في وضع حد للاحتلال السوفييتي ولكنه رفض المشاركة في حكومة المجاهدين التي تشكلت بعد إطاحة محمد نجيب الله في 1992 بذريعة لا إسلاميتها. وخلال الفترة الممتدة من 1992 إلى 1996، ظلت قواته تقاتل من اجل الاستيلاء على كابول وتأسيس حكومة إسلامية أصولية في أفغانستان. وافق على تولي منصب رئيس الوزراء في ظل رباني مرتين - مرة في 1992 وأخرى في 1993 - ولكن الاتفاقين، في المناسبتين كلتيهما، ما لبثا أن انهارا بسرعة وبادر حكمتيار إلى استئناف العمليات القتالية. صحيح أنه قَبِل رئاسة الوزارة في حزيران/يونيو 1996، غير أن المصالحة بين حكمتيار وحكومة رباني لم تدم سوى ثلاثة أشهر إذ انتهت مع استيلاء الطالبان على كابول (انظر أيضاً أبواب: تحالف الشمال؛ أحمد شاه مسعود؛ برهان الدين رباني؛ حزبي إسلامي).

حمزة، أبو: أحد أئمة جامع فينزبوري بارك اللندني إلى أن اعتُقل في 2004. هاجر أبو حمزة من مصر إلى المملكة المتحدة في 1979. وفي 1987

التقى عبد الله عزام الذي أقنعه بالسفر إلى أفغانستان لمساعدة المجاهدين. وفي 1995، ذهب إلى البوسنة لدعم مسلمي البوسنة. وبعد قدومه إلى فينزبوري بارك أواخر 1996، نجح في الاستيلاء على الجامع في آذار/مارس 1997. اعتقله البريطانيون في لندن سنة 2004 بعد أن طالبت الولايات المتحدة، التي كانت قد اتهمته بإقامة معسكرات للتدريب في أمريكا، بترحيله إليها. دين في لندن في شباط/فبراير 2006 بتهم منها الحض على القتل وإثارة الأحقاد العنصرية. حُكم بالسجن لمدة سبع سنوات.

الخدمات، مكتب: انظر باب: عبد الله عزام.

خضر، احمد سعيد: مواطن مصري هاجر إلى كندا في 1997. وفي ثمانينيات القرن الماضي كان يعمل مع هيئة الإغاثة الإسلامية الدولية (HCI) التي تتخذ من أوتاوا مقراً لها. وكجزء من عمله مع الهيئة، كان خضر يسافر إلى الباكستان وأفغانستان لمساعدة اللاجئين النازحين جراء الغزو السوفييتي. التقى أسامة بن لادن للمرة الأولى في 1985. وفي عام 1995 اعتُقل خضر في الباكستان للاشتباه بتمويله هجوماً بسيارة ملغومة على السفارة المصرية بإسلام أباد الباكستانية تمخض عن قتل 18 شخصاً. أُطلق سراحه في 1996 بعد أن تدخل رئيس وزراء كندا جان كريتيان لصالحه. وفي تشرين الأول/أكتوبر 2003، قُتل خضر بصاروخ أطلقته إحدى طائرات الهليكوبتر في تبادل لإطلاق النار مع قوات الأمن الباكستانية على امتداد الحدود الباكستانية - الأفغانية.

الدي اس تي (DST) (إدارة الأمن الإقليمي الفرنسي): جهاز مستحدث في 1944 لـ "مكافحة النشاطات التجسسية وضد فعاليات القوى الغربية على الأراضي الخاضعة للسيادة الفرنسية".

الدي جي اس إي (DGSE) (الإدارة العامة للأمن الخارجي) جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي): جهاز تابع لوزارة الدفاع ومسؤول عن

الاستخبارات العسكرية إضافةً إلى المعلومات الاستراتيجية، الاستخبارات الإلكترونية، ومكافحة التجسس خارج الحدود الفرنسية.

رباني، برهان الدين: تَمَّتْ الإطاحة برئيس الجمهورية الأفغانية رباني منذ 1992 مع سيطرة حركة الطالبان على كابول في 1996. غير أن الأمم المتحدة بقيت تعترف به رئيساً للجمهورية حتى كانون الأول/ديسمبر 2001، حين قام بتسليم منصبه إلى حميد قرة ضاي. (انظر أيضاً أبواب: أحمد شاه مسعود؛ غلب الدين حكمتيار؛ تحالف الشمال).

رمضا، رشيد: في تشرين الثاني/نوفمبر 1995، جرى توقيف رمضا الذي كان أحد محرري نشرة الأنصار الناطقة باسم الجماعة الإسلامية المسلحة في لندن بطلب من الحكومة الفرنسية. اتهمته إحدى المحاكم الفرنسية غيابياً بثلاث وعشرين قرينة جرمية ذات علاقة بتفجيرات متروباريس، بما فيها توفير الدعم اللوجستي للجماعة الإسلامية المسلحة الجزائرية (GIA) والاضطلاع بدور الممول لها. ظل رمضا قابعاً في سجن بَلْمارش اللندني مدة عشر سنوات منتظراً تسليمه إلى فرنسا، الأمر الذي تم في كانون الأول/ديسمبر 2005. وقد دين في آذار/مارس 2006 وحُكم عليه بالسجن لمدة عشر سنوات. باقٍ هو في السجن ويواجه محاكمة ثانية بتهم قتل، والشروع في قتل، ضحايا تفجيرات 1990.

زبيدة، ابو: أحد كبار قادة القاعدة ومنظِّمها الرئيسي المجنِّد إلى حين اعتقاله في فيصل أباد الباكستانية يوم 2002/3/28. تولى إدارة شبكة التجنيد للقاعدة في طول العالم وعرضه لصالح معسكرات أسامة بن لادن التدريبية في أفغانستان، وقد حُكم عليه بالإعدام في الأردن لتخطيطه تفجير 'الألفية' الذي تم إحباطه والذي كان يستهدف نسف فندق راديسون بعمان. يعتقد الرسميون الأمريكيون أنه كان أيضاً على علاقة بمخططين مزعومين لمهاجمة سفارتي الولايات المتحدة في كل من سيرايفو وباريس.

الطالبان: حركة إسلامية أصولية انبثقت في أفغانستان عام 1994، واستولت على كابول في 1996 منتزعة إياها من حكومة برهان الدين رباني. وعبر تقديم الوعود بفرض النظام الاجتماعي ووضع حد للفساد في بلد مَزَّقَتْه الحرب الأهلية شر ممزق، نجحت حركة الطالبان في كسب الدعم المبدئي لذوي الأصل الباشتوني في الأجزاء الجنوبية من أفغانستان. ومع حلول عام 2000 كانت الحركة مسيطرة على جميع المناطق باستثناء الشمال الذي بقي خاضعاً لسيطرة تحالف الشمال. استثار نظام حكم الطالبان فيضاً من الانتقادات الدولية وسلسلة من عقوبات الأمم المتحدة جراء انتهاكاته لحقوق الإنسان، قيوده المفرطة في التشدد على النساء في الحياة العامة، وإصراره على إيواء إسلاميين إرهابيين، بمن فيهم أسامة بن لادن، ومساعدتهم. وفي تشرين الثاني/نوفمبر 2001، تمكَّنَتْ القوات الأمريكية بالتنسيق مع تحالف الشمال من إزاحة الطالبان عن السلطة، ولكن الجماعة ما لبثت أن عادت إلى الظهور بوصفها قوة مقاومة فعالة داخل أفغانستان.

عزام، عبد الله: اضطلع عبد الله عزام الذي يوصف بـ 'عَرّاب الجهاد' بدور حيوي في تطور التطرف الإسلامي المعاصر. فروايته للجهاد الإسلامي الشامل شكلت ركيزة إيديولوجية للقاعدة. وعزام المولود في الضفة الغربية سنة 1941، انتسب إلى الإخوان المسلمين الفلسطينيين في وقتٍ مبكر من حياته. حصل على شهادة الدكتوراه في الفقه الإسلامي من جامعة الأزهر في مصر. وخلال فترة الدراسة صادق عائلة سيد قطب الذي تأثر بكتاباته بعمق. كذلك أصبح قريباً من أيمن الظواهري الذي كان سيغدو فيما بعد الرجل الثاني في تنظيم بن لادن. لاحقاً، فيما كان يعمل محاضراً في جامعة الملك عبد العزيز في السعودية، كان بن لادن نفسه من طلابه.

بعيد الغزو السوفييتي لأفغانستان، بادر عزام إلى إصدار فتواه 'الدفاع عن

بلاد المسلمين التي طور فيها فكرة جهاد دفاعي وإلزامي إسلامي شامل ضد جميع الكفار الذين احتلوا أراضي الخلافة الإسلامية السابقة.

في 1984، أسس عزام مكتب الخدمات (MAK) بالتعاون مع تلميذه السابق أسامة بن لادن. ومكتب الخدمات هذا كان يؤدي وظيفة محطة استقبال ومركز تدريب للمجاهدين الجدد المجندين من البلدان الأجنبية. جال عزام على العالم - بما فيه ما يزيد على خمسين مدينة في الولايات المتحدة - بهدف التجنيد، جمع التبرعات، والدعوة إلى رؤيته للجهاد الكوكبي. يُعتقد أن عزاماً قام بتجنيد ما لا يقل عن عشرين ألفاً من المجاهدين من عشرين بلداً على امتداد ثمانينيات القرن الماضي.

مع وصول الحرب الأفغانية ضد روسيا إلى نهايتها، انشق عزام عن بن لادن. بقي متركزاً على فلسطين بوصفها قضية الجهاد الأهم بالنسبة إلى المسلمين، في حين أراد بن لادن خوض حرب ضد الولايات المتحدة وسائر البلدان الإسلامية العلمانية المختلفة التي كان مكتب الخدمات قد جند المجاهدين منها. في 1989، اغتيل عزام في بيشاور الباكستانية بسيارة مفخخة. ما لبث بن لادن أن استولى على مكتب الخدمات الذي أصبح مقر قيادة الجماعة التي كانت ستُعرف لاحقاً باسم القاعدة.

قتادة، أبو: كان أبو قتادة الموصوف بأنه القائد الروحي لتنظيم القاعدة في أوروبا متمركزاً في نادي الريشات الأربع للشباب في لندن. في كانون الأول/ديسمبر 2001، غاب عن الأنظار متخفياً عشية تحركات الحكومة البريطانية لاستحداث قوانين جديدة مضادة للإرهاب. تم العثور عليه واعتقاله بسبب ارتباطاته الإرهابية المزعومة في تشرين الأول/أكتوبر 2002. دين غيابياً مرتين بجرائم إرهابية في مسقط رأسه، الأردن. هو الآن قابع في سجن بَلْمارش اللندني، بانتظار الترحيل إلى الأردن.

قطب، سيد: باحث مصري بارز ومؤثر تُشكّل أفكارُه جملة المنطلقات الفلسفية واللاهوتية (الفقهية) لدى العديد من الحركات الجهادية الحديثة. التحق قطب، أوائل الخمسينيات، بجماعة الإخوان المسلمين في مصر. وفي 1955 فرض الرئيس المصري جمال عبد الناصر حَظْراً على الجماعة وسجن عدداً كبيراً من أعضائه بمن فيهم قطب. كتب الأخير أهم مؤلفاته، بما فيها معالم في الطريق وفي ظلال القرآن، وهو في السجن. كان قطب عنيفاً في شجبه لنُظم الحكم العلمانية في البلدان الإسلامية، وبقي نصيراً ثابتاً للحكم وفقاً للشريعة. كان لمؤلفاته تأثير كبير وعميق في العديد من الإسلاميين بمن فيهم عبد الله عزام وأسامة بن لادن. أعدمه ناصر في 1966. (انظر أيضاً باب: عبد الله عزام).

الليبي، ابن الشيخ: تولى ابن الشيخ الليبي إدارة المعسكرات في تسعينيات القرن العشرين، وواصل النشاط إلى أن أصبح عضواً قيادياً في تنظيم القادة. بعد اعتقاله في تشرين الثاني/نوفمبر 2001 في الباكستان، أرسلته وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) إلى مصر للتحقيق في كانون الثاني/يناير 2002. وهناك أفاد في شهادته بأن العراق كان قد وفر لأعضاء من القاعدة فرصة التدرب على أسلحة كيميائية وبيولوجية. في شباط/فبراير 2002 وزعت وكالة استخبارات الدفاع (DIA) تصريحاته على الأجهزة الاستخباراتية، ولكنها أعلنت احتمال أن يكون الليبي متعمِّداً تضليل المستجوبين. غير أن مزاعم الليبي تلك ما لبثت، على أي حال، أن وُظفت من قبيل رسميي إدارة بوش على صعيد توفير الذرائع لغزو العراق. ولعل التوظيف الأبرز تمثل بإشارة وزير الخارجية كولن باول إلى إفادات الليبي في خطاب له في شباط/فبراير 2003 أمام مجلس الأمن الدولي. في كانون الثاني/يناير 2004 أنكر الليبي مزاعمه، وفي شباط/فبراير 2004 قامت وكالة الاستخبارات المركزية بسحب جميع المزاعم المستندة إلى شهادة الليبي. في ربيع 2006 قيل إن الليبي سُلِّم إلى السلطات الليبية.

مسعود، أحمد شاه: قائد مجاهدين أفغاني في الحرب السوفيتية - الأفغانية. نجح جيش مسعود في الاستيلاء على كابول في 1992. وبعد انهيار حكومة نجيب الله، عُين مسعود وزيراً للدفاع من قبل رئيس الجمهورية الجديد برهان الدين رباني. بين عامي 1992 و1996 قاد مسعود قواته في معارك القتال ضد جماعات حاولت الإطاحة بحكومة رباني، بما فيها جماعتا حزب غلب الدين حكمتيار الإسلامي والطالبان. وفي 1996 تمكنت الأخيرة، الطالبان، من الاستيلاء على كابول، فانسحب مسعود ورباني إلى شمال أفغانستان حيث نشط تحالفهما الشمالي بوصفه حركة مقاومة لنظام الطالبان. اغتيل مسعود في 2001/9/9 بيد عملاء للقاعدة تنكروا كصحفيين. (انظر أيضاً أبواب: برهان الدين رباني؛ تحالف الشمال؛ غلب الدين حكمتيار؛ طارق المعروفي).

المصري، أبو خبب: هذا هو الاسم المستعار لمدحت المصري السيد عمر، صانع القنابل وخبير الأسلحة الكيميائية الرئيسي لدى تنظيم القاعدة وقد قُتل في 2006/1/13 في أثناء غارة جوية أمريكية في دامادولا الباكستانية. لا يُعرف إلا القليل عن خلفياته أو نشاطاته قبل أيار/مايو 1999، حين قام أيمن الظواهري بتعيينه مسؤولاً عن تطوير برنامج أسلحة غير تقليدية لصالح القاعدة.

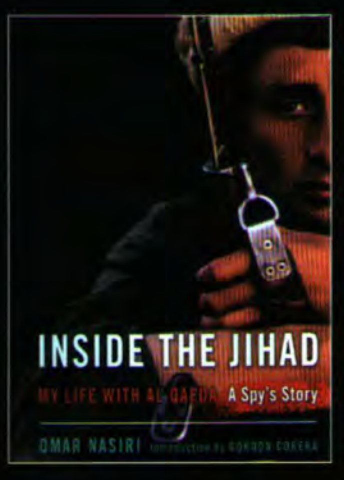
المعروفي، طارق: بعد اعتقاله في مداهمات آذار/مارس 1995 ببلجيكا، جرى إطلاق سراح المعروفي بعد عام واحد فقط من السجن. واصل المعروفي النشاط فأصبح قائداً (ومؤسساً ربما) لجماعة القتال التونسية ((TCG، وهي منظمة مرتبطة بالقاعدة. يُزعم أنه عمل داعية ومجنِّداً لصالح القاعدة في أوروبا إلى أن اعتُقل في كانون الأول/ديسمبر 2001 ببلجيكا بتهمة تدبير جوازات سفر بلجيكية مزوَّرة للرجال الذين قاموا باغتيال أحمد شاه مسعود. حُكم عليه بالسجن لمدة ست سنوات.

ملوك، فريد: دين المواطن الفرنسي ذو الأصل الجزائري ملوك من قبل إحدى المحاكم الفرنسية في 1997 بجريمة توفير الدعم المادي للجماعة الإسلامية المسلحة (GIA) بالارتباط مع تفجيرات مترو باريس في صيف 1995 وحُكم غيابياً بالسجن لمدة سبع سنوات. في 1998 قامت الشرطة البلجيكية بمداهمة بيت ملوك في بروكسل واعتقلته بعد تبادل لإطلاق النار دام اثنتي عشرة ساعة. وفي 1999 حُكم بالسجن لمدة تسع سنوات بجرائم محاولة القتل، حيازة الأسلحة النارية والمتفجرات، العصيان المسلح، التورط في نشاطات إجرامية، واستعمال أوراق ثبوتية شخصية مزورة. (انظر أيضاً بابَيّ: الجماعة الإسلامية المسلحة؛ الحرب الأهلية الجزائرية).

نجيب الله، محمد: رئيس جمهورية أفغانستان من 1986 إلى 1993. خلال الاحتلال السوفيتي، شغل نجيب الله منصب رئيس الشرطة السرية الأفغانية حيث ذاع صيت تشدده وقسوته في محاربة جماعات المقاومة الجهادية. واصلت روسيا تزويد حكومته بالدعم الاقتصادي والاستخباراتي بعد انسحاب القوات الروسية في 1989. بقي نجيب الله رئيساً للجمهورية إلى أن نجحت المقاومة الجهادية في احتلال كابول سنة 1992. أمضى السنوات الأربع التالية محتمياً بأحد مجمعات الأمم المتحدة، ولكنه ما لبث أن أُعدم من قبل نظام الطالبان في 1996.



منتدى اقرأ الثقافي
----
www.iqra.ahlamontada.com



عمر الناصري! هذا ليس اسمي. أقله ليس هذا هو الاسم الذي أخذته من أبويَّ. إنه الاسم الذي أستخدمه لتوقيع هذا الكتاب. إلا أنه ليس سوى واحد من الأسماء الكثيرة التي استخدمتها خلال مسيرة حياتي. قد يتعين علي أن أقول حيواتي. ابناً، أخاً، طالباً، تاجر مخدرات، تاجر أسلحة، مجاهداً، عميلاً سرياً، مدنياً، زوجاً، ومؤلفاً الآن...

بين عامي 1994 و2000، عمل عمر الناصري عميلاً سرياً لدى أكبر أجهزة الاستخبارات السرية في أوروبا. لدى جهاز الاستخبارات السري البريطاني (الإس آي إس SIS)، المعروف أكثر باسم الإم آي 6 (MI6)، لدى جهاز الأمن (الإم آي 5، MI5)، لدى جهاز الاستخبارات الخارجية الفرنسي (الدي جي إس إي DGSE) بفرنسا، ولدى البي في إي (BVE) (البدوندسماتس فور فيرفاسونغسشوتز) في ألمانيا. من الخلايا الإسلامية في بلجيكا، إلى المدارس في الباكستان، إلى معسكرات التدريب الإرهابية بأفغانستان و"لندنستان"، ظل الناصري يخاطر بحياته لمجابهة الشبكة الكوكبية الناشئة التي ستغدو معروفة في الغرب باسم القاعدة.

الآن، للمرة الأولى، يتقاسم الناصري قصته الفريدة لحياة في الميزان. حياة متأرجحة بخطر بين الجهاديين من ناحية والجواسيس الذين يتعقبونهم من ناحية ثانية. بوصفه عربياً ومسلماً، نجح في التسلل إلى قاعدتي التدريب محكمتي السرية في دارونتا وخالدان (الأفغانيتين). حيث التقى رجالا كانوا سيبرزون لاحقاً بوصفهم أشهر الإرهابيين المطلوبين في العالم: ابن الشيخ الليبي، أبو زبيدة، وأبو خبيب المصري. حين أُعيد إلى أوروبا لتشكيل خلية نائمة أصبح الناصري أداة لنقل الرسائل بين كبير مسؤولي تجنيد القاعدة في الباكستان ورجال الدين الإسلاميين المتطرفين في لندن.

إن كتاب في قلب الجهاد، الذي يروي قصة آسرة وبالغة الإثارة للحياة الداخلية في شبكات الإرهاب الإسلامية من جهة وأجهزة الاستخبارات التي تتجسس عليها من جهة ثانية، يقدم صورة واقعية مئة بالمئة للحرب الجاسوسية الدائرة ضد القاعدة.

عمر الناصري (اسم مستعار التماسا للحماية): وُلد في المغرب ويعيش الآن مع زوجه في ألمانيا.

غوردون كوريرا: مراسل أمني في البي بي سي BBC، قام بتغطية أحداث 11/9، وهجمات قطارات مدريد، وتفجيرات لندن في تموز 2005. إنه مؤلف كتاب بحثاً عن قنابل: الانتشار النووي، اللا أمن الكوكبي في صعود شبكة عبد القادر خان وسقوطها (هورست، 2006).


ISBN:978-9960-54-418-2
9 789960 544182
ORD:000322-1

موضوع الكتاب: الجهاد

موقعنا على الإنترنت:
http://www.obeikanbookshop.com